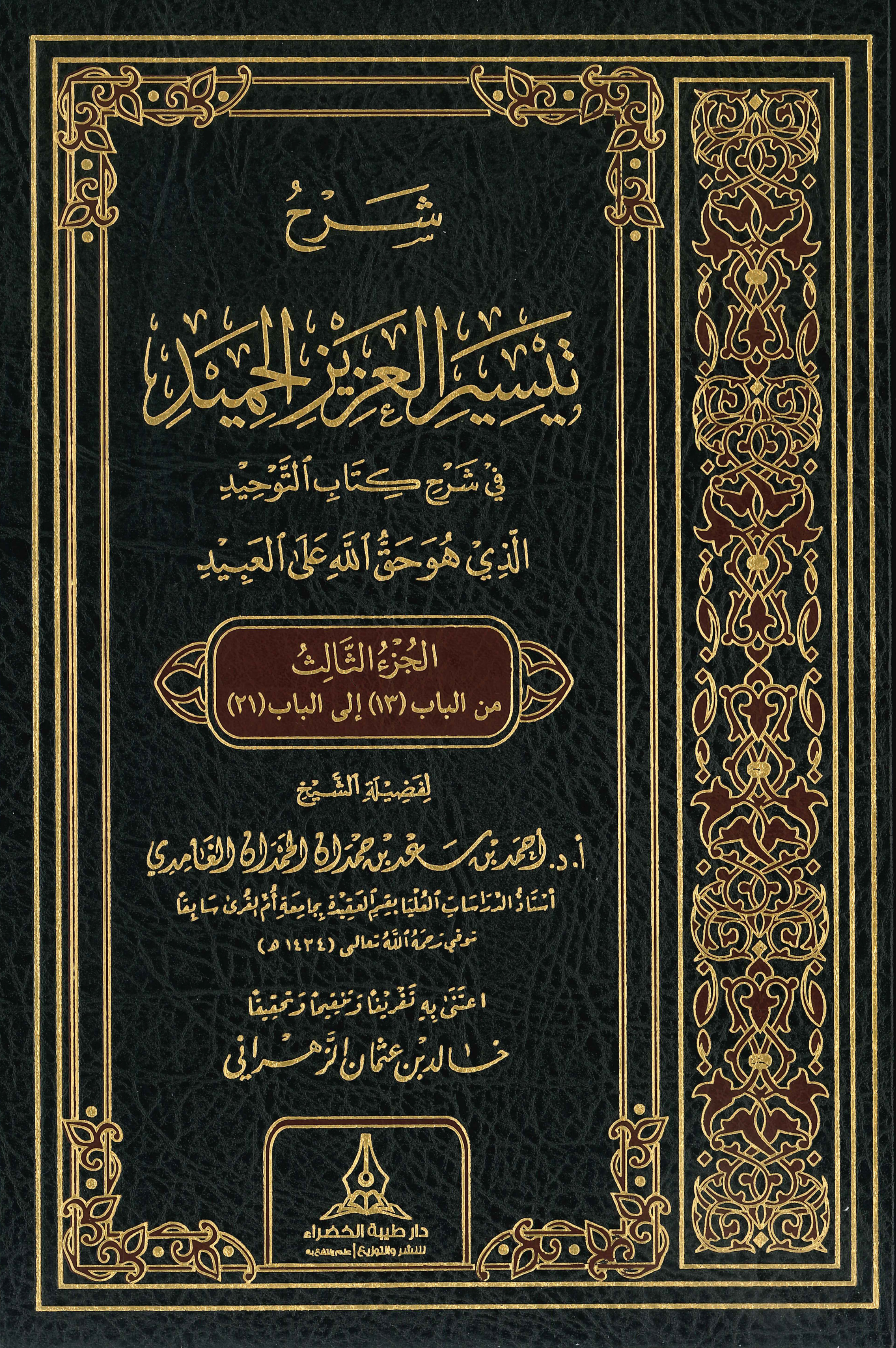

شرح
تيسير العزيز الحميد
في شرح كتاب التوحيد
الذي هو حق الله على العبيد
الجزء الثالث
من الباب (١٣) إلى الباب (٢١)
لفضيلة الشيخ
أ.د. أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي
أستاذ الدراسات العليا بقسم العقيدة بجامعة أم القرى سابقا
توفي رحمه الله تعالى (١٤٣٤ هـ)
اعتنى به تفريغا وتنقيحا وتحقيقا
خالد بن عثمان الزهراني
دار طيبة الخضراء
للنشر والتوزيع | علم ينتفع به



شرح تيسير العزيز الحميد

في شرح كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد

الجزء الثالث

من الباب (١٣) إلى الباب (٢١)

لفضيلة الشيخ

أ. د. أحمد بن سعد بن حمدان الحمدان الغامدي

أستاذ الدراسات العليا بقسم العقيدة بجامعة أم القرى سابقًا

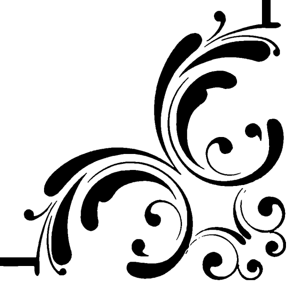
توفي رحمه الله تعالى (١٤٣٤ هـ)

اعتنى به تفريغًا وتنقيحًا وتحقيقًا

خالد بن عثمان الزهراني

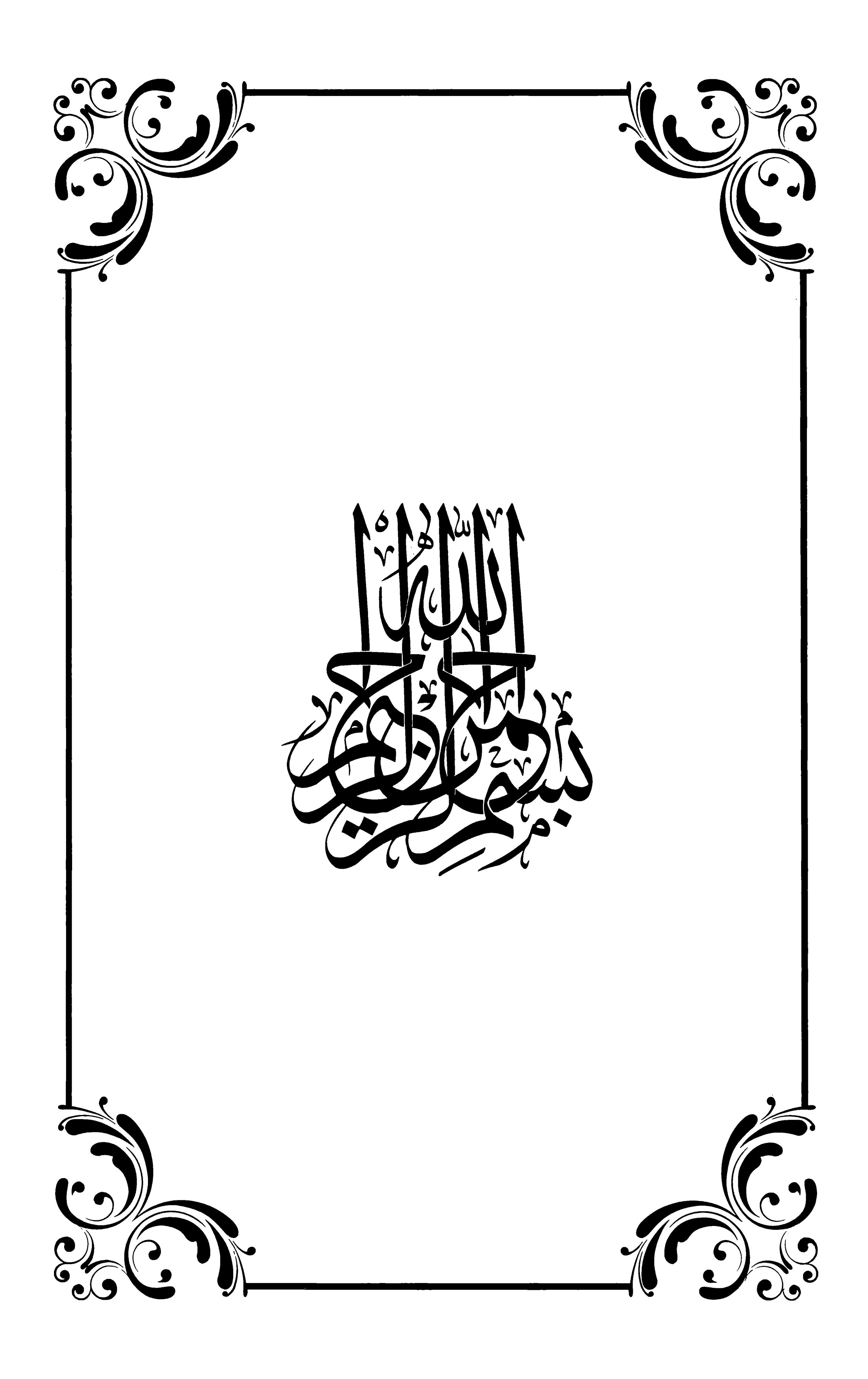


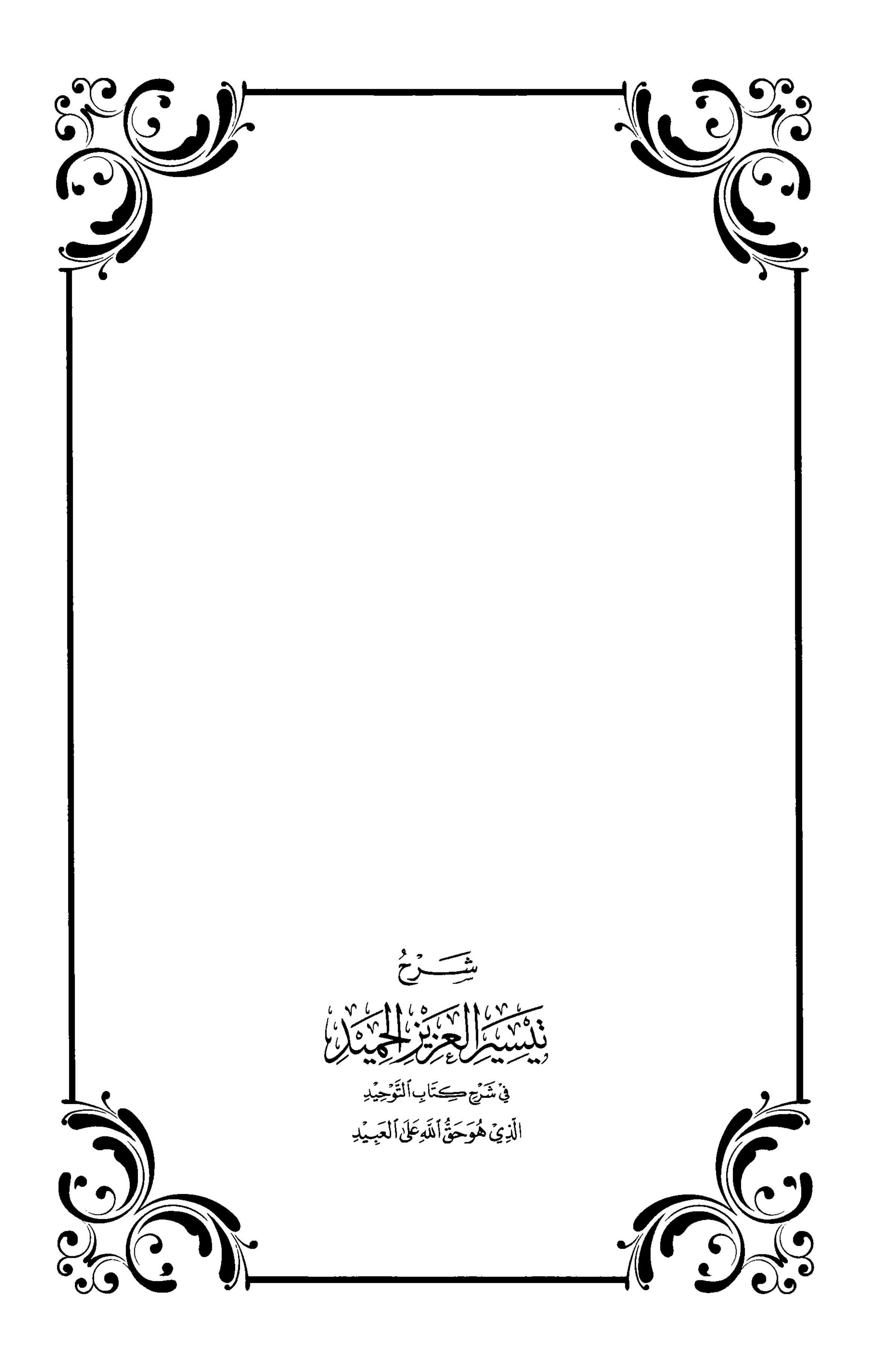




دار طيبة الخضراء

للنشر والتوزيع | علم ينتفع به


بسم الله الرحمن الرحيم



شرح

تيسير العزيز الحميد

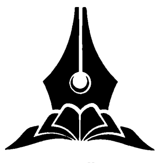
في شرح كتاب التوحيد

الذي هو حق الله على العبيد



فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الغامدي، أحمد بن سعد بن حمدان.
شرح تيسير العزيز الحميد
في شرح كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد
أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي
مكة المكرمة، ١٤٣٩هـ
٣٧٩١ ص؛ ١٧×٢٤ سم (٤:١)
ردمك: ٢-١٢-٨٢٥٩-٦٠٣-٩٧٨
١- التوحيد ٢- العقيدة الإسلامية أ. العنوان ب. السلسلة
ديوي ٢٤٠ ٢١٨٢/ ١٤٤٠

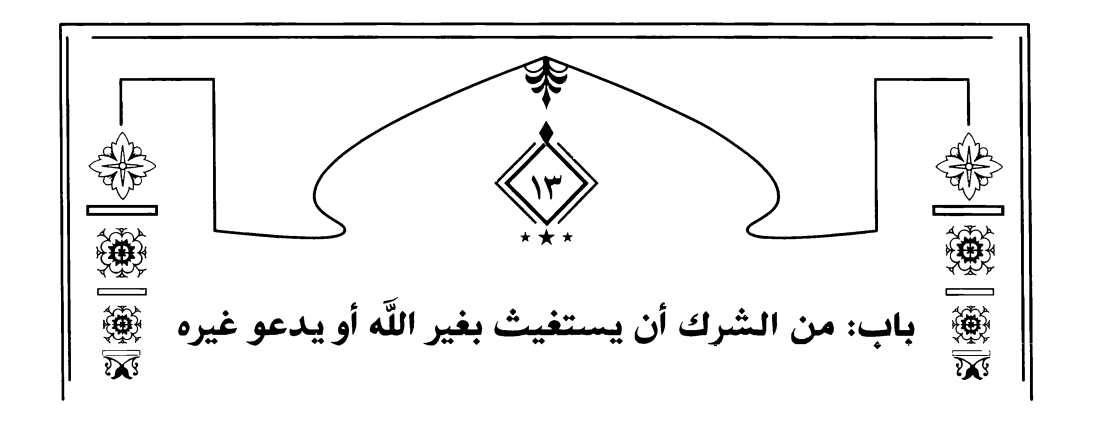
رقم الإيداع: ٢١٨٢/ ١٤٤٠
ردمك: ٢-١٢-٨٢٥٩-٦٠٣-٩٧٨



دار طيبة الخضراء
للنشر والتوزيع | علم ينتفع به

الطبعة الأولى
١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

dar.taibagreen123 dar.taiba @dar_tg dar_tg
مكة المكرمة - العزيزية - خلف مسجد فقيه
yyy.01@hotmail.com | ٠١٢٥٥٦٢٩٨٦ | ٠٥٠٣٥٦٨٧٧١ | ٠٥٥٠٤٢٨٩٩٢



باب: من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره



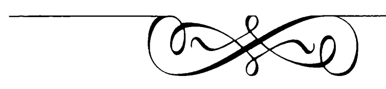
هذا هو الباب الثالث عشر من أبواب الكتاب، فبعد أن ذكر الاستعاذة أردفها بهذا الباب الذي فيه الاستغاثة، وقلنا الاستعاذة من أمر لم يقع، والاستغاثة من أمر واقع، والدعاء أشمل ، والمؤلف رَحِمَهُ الله قد استطرد في هذا الباب، حتى أورد أكثر من عشرين آية، و أكثر من ثلاثة عشر حديثاً؛ لأن هذا مما ابتلي به كثير من المسلمين، فإنهم يزعمون أنه يجوز الاستغاثة برسول الله ﷺ، بل وبالصالحين من الأموات، ويزعمون أن لهم أرواحاً تقضي حاجات الأحياء، الميت الذي قد انقطع عمله بنص الحديث كما قال عليه الصلاة والسلام: (**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاّ من ثلاث..**)[1] فلا يستطيع أن ينفع نفسه، ولم نر أحداً من أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام يأتي إلى قبره يستغيث به، وكم نزل بالصحابة ﷺ من فتن ومن بلاء، بل إن آل بيته كم وقعوا فيه من مشاكل وما جاء أحد إلى رسول الله ﷺ قال: يا رسول الله أغثني أو أعذني أو انفعني.

---

(١) سبق تخريجه.

وقد سبق أن بعض العلماء أو ممن يسمون بالعلماء يفتون العامة بجواز الاستغاثة برسول الله ﷺ، بل بعضهم يأتي يزور قبر النبي ﷺ في المدينة ولا يحج، ويرىٰ أن زيارة قبر الرسول ﷺ أفضل من حج بيت الله الحرام، وهذا غاية الضلال، مع أن الحديث ورد ينهىٰ عن شدّ الرحال إلىٰ المساجد التي هي أماكن العبادة إلاّ المساجد الثلاثة، فلا يجوز للشخص أن ينوي بسفر قبراً من القبور، ولو كان قبر المصطفىٰ ﷺ، فنبينا ﷺ سيد البشر وأفضلهم وأشرفهم وأكرمهم علىٰ الله، لكن لا يتعدىٰ مكان العبودية، كما قال تعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء:١]، وكماله ﷺ في كمال عبوديته لله، لا يشارك الله في الكون ولا في الخلق ولا في الدعاء ولا في العبادة، وسيذكر المؤلف رحمه الله أن من الشرك أن يستغيث بغير الله، أو يدعو غيره، وهذا شرك قد عمّ بلاد المسلمين جميعها لا تكاد تجد بلداً من بلاد المسلمين إلاّ وفيها هذا النوع من الشرك، يتركون الله ويلجؤون إلىٰ الأموات، ولهذا فإنهم لا يجابون، ودائماً نقول في صلاة الجمعة: اللهم أذل الشرك والمشركين، المشركون درجات، قد يكون من المسلمين من يشرك مع الله غيره ويدعو غيره، فنحن ندعو علىٰ أنفسنا، فينبغي أن نصحح المعتقد وألا نلجأ إلاّ إلىٰ الله عز وجل، وأن نعتقد أن الكون كله بيد الله، وأن الإنسان لا ينبغي لـه أن يذلّ إلاّ لله، ولا يطلب حاجاته إلاّ من الله، ولا يستغيث إلاّ بالله ولا يستعيذ إلاّ بالله عز وجل، وبهذا يتحقق التوحيد، فننتصر ونصبح أعزة، لكن إذا أشركنا مع الله غيره تركنا وشركنا كما

جاء في الحديث: (من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه)[1] يُترك، لا ينصر ولا يعان، وابن القيم رحمه الله له مبحث جميل في كتب (إغاثة اللهفان) يقول: ما سبب تأخر النصر عن المسلمين؟ قال: لأن الله لم يعدنا بالنصر مطلقاً بل قيده للمؤمنين، المتقين، يعني قيّد النصر والعزة والفلاح بوصف، فإن تحقق الوصف تحقق الوعد وإن لم يتحقق الوصف لم يتحقق الوعد، فهذا الشرك يوجد في كثير من بلاد المسلمين.



(١) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال شيخ الإسلام: الاستغاثة هي طلب الغوث وهو إزالة الشدة، كالاستنصار طلب النصر والاستعانة طلب العون وقال غيره: الفرق بين الاستغاثة والدعاء أن الاستغاثة لا تكون إلا من المكروب كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص:١٥] وقال تعالىٰ: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾ [الأنفال:٩].

والدعاء أعم من الاستغاثة؛ لأنه يكون من المكروب وغيره، فعلىٰ هذا عطف الدعاء علىٰ الاستغاثة من عطف العام علىٰ الخاص.

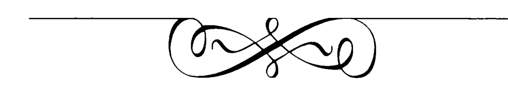


الشَّرْح

هنا مبحث لغوي، العلماء يتحدثون عادة عن الألفاظ المتقاربة في المعنىٰ، هل هذه المفردات مترادفة في اللغة؟ أم بينها فروق؟ هنا يقول: الاستغاثة تكون في الأمر الذي فيه شدة وعناء، لكن الدعاء أوسع، فقد يدعو في الخير وقد يدعو في دفع الشر، وقد يدعو في رفع الشر، فالدعاء أعم كما مر أن الدعاء يشمل الاستغاثة والاستعاذة، والاستغاثة والاستعاذة كلتاهما تتعلق بالشر، لكن الدعاء أوسع يتعلق بالشر برفعه أو دفعه، وكذلك الدعاء بحصول الخير.

قال صاحب الكتاب: **(باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره)** فلماذا ذكر اللفظين ومعناهما واحد؟ فقال الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذا من باب عطف العام علىٰ الخاص، وفي اللغة يأتي عطف العام علىٰ الخاص، وعطف الخاص علىٰ العام، وقد يكرر نفس اللفظ لفائدة في السياق، هذه كلها لاحظها صاحب

الكتاب، فذكر الاستغاثة؛ لأنها فعلٌ مخصوص بعينه، ثم ذكر الدعاء؛ لأنه أعم من قضية الاستغاثة، فبعض الناس يلجأ إلىٰ الأموات فيما يقع من البلاء ولكنه يدعو الله في الخير، وبعض الناس في الخير والشر يلجأ إلىٰ الأولياء والصالحين.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقـال أبـو السـعادات: الإغاثـة: الإعانـة، فعلىٰ هـذا تكـون الاسـتغاثة هـي: الاسـتعانة، ولا ريـب أن مـن اسـتغاثك فأغثتـه فقـد أعنتـه إلا أن لفـظ الاسـتغاثة مخصوص بطلب العون في حالة الشدة بخلاف الاستعانة. وقوله (أو يدعو غيره) المراد بالدعاء هنا هو دعـاء المسـألة فيمـا لا يقـدر عليـه إلا الله تعـالىٰ، فـإن ذلـك شرك لما سيذكره المصنف من الآيات.

واعلم أن الدعاء نوعـان: دعـاء عبـادة ودعـاء مسـألة، كمـا حققـه غيـر واحـد منهم: شيخ الإسلام وابن القيم وغيرهما، ويراد به في القرآن هـذا تـارة وهـذا تـارة ويراد به مجموعهما وهما متلازمان.



قولـه: (فيمـا لا يقـدر عليـه إلاَّ الله تعـالىٰ) هـذا اسـتطراد لمـا مـر في قضـية الاسـتعانة والاسـتغاثة والاسـتعاذة مـن أن معناهـا متقـارب، لكـن قلنـا الـدعاء أوسع معنىً من الاستغاثة والاستعانة.

هنا الشارح فصل المراد بالدعاء في اللغة وفي الشرع؛ لأنه وقع خطأ في فهم الدعاء، فإن الذين جوزوا الاستغاثة بغير الله أو الدعاء لغير الله يقولـون: الـدعاء في القرآن يُراد به العبـادة، فـالله نهىٰ أن نعبـد غيـره، والمقصـود بـذلك ، الصلاة والصيام والحج والزكاة، أمَّا الدعاء فلم يمنعنا الله منه عَزَّوَجَلَّ، فهنا يقـول الشـارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الـدعاء في القـرآن يـأتي بمعنـىٰ الطلـب، ويـأتي أحيانـًا بمعنـىٰ الخضـوع والتذلل، فكلا المعنيين واضح في القـرآن الكـريم، ذكـره ابـن تيميـة وابـن القيـم رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ ولكنه ليس خاصـًا بهما بل ورد عن كثير من العلماء المحققـين مـن علمـاء

اللغة، ومنهم مثلاً: السمين الحلبي تلميذ أبي حيان، وأبو حيان ﷺ وهو من كبار علماء اللغة في القرن السابع ، وقد التقى مع ابن تيمية ﷺ وكان معجباً به، لكن وقع بينهما فجوة بسبب موقف قال فيه ابن تيمية في قضية سيبويه، وهي: أن أبا حيان قال لابن تيمية ﷺ هذه المسألة قالها سيبويه في كتابه، فقال ابن تيمية: أخطأ سيبويه، ومعروف أن سيبويه ﷺ كان أعجوبةً، فإن كتابه الذي ألَّفه في النحو يُعتبر فريداً مع أنه أول ما كُتب في هذا المجال، وعادةً الكتب التي توضع في البدايات لا تكون ناضجة، ينضج الفن بعدها لكن هذا الكتاب وُضع ناضجاً وهو كتاب عجيب؛ فقال أبو حيان أخطأ سيبويه؟!! قال: أخطأ سيبويه في كتابه هذا في مائة موضع لا تعرفها أنت وأمثالك، مع أن أبا حيان ﷺ أستاذ العربية في عصره، وابن تيمية ﷺ عالمٌ شرعي، لكنه في اللغة العربية كانت عنده موهبةٌ عجيبة وحتى تدقيقاته في تفسير القرآن تدقيقات عجيبة تقوم على اللغة.

والسمين الحلبي تلميذ أبي حيان، أبو حيان له كتاب (البحر المحيط) والحلبي جاء وألّف كتاباً في لغة ونحو القرآن وسماه (بالدر المكنون)، أو بالدر المصون في بيان أو في آيات أو في إعراب أو شرح الكتاب المكنون، وهو كتاب جميل في سبعة مجلدات، فيقول ﷺ في معنى الدعاء: ويُعبّر به عن السؤال والاستعانة، يعني الدعاء يطلق على الاستعانة والسؤال ويُطلق على غيره، ومنه ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾ [يونس:٢٢] أي سألوه حوائجهم واستعانوه عليها، قوله تعالى: ﴿ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾ [الإسراء:٦٧] تنبيه على أنه إذا دهمتهم شدة لم يلهجوا إلا باسمه ﷻ ولم يخطر ببالهم غيره مما كانوا يعبدونه في الرخاء من الأصنام ونحوها، فليس ابن تيمية ﷺ متفرداً في بيان أن الدعاء يطلق في اللغة

على المسألة؛ لأن أصحاب البدع يزعمون أن الدعاء لا يراد به في القرآن إلاّ العبادة أي التذلل والخضوع.

ثم قال: والدعاء العبادة أيضاً، كذلك سماه رسول الله ﷺ، ومنه قوله تعالى: ﴿لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ [الكهف:١٤]، أي لن نعبد، وقال الراغب الأصفهاني: العبودية إظهار التذلل ولا عبادة أفضل منه، أي الدعاء؛ لأنها غاية التذلل ولا يستحقها إلاّ من له غاية الإفضال، وهو الله تعالى، وقال ملا علي القاري بعد إيراد قول الله تعالى ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، قيل: استدل بالآية على أن الدعاء عبادة؛ لأنه مأمور به، والمأمور به عبادة، فإذا كان عبادة ما جاز لنا أن نصرفها لغير الله، وقال ميرك علي ـ هذا أحد علماء الأحناف ـ في شرح الحديث: "الدعاء هوالعبادة" أتى بضمير الفصل والخبر المعرف باللام ليدل على الحصر في أن العبادة ليست غير الدعاء، وقال السبكي في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠] الأولى حمل الدعاء في الآية على ظاهره، وأما قوله بعد ذلك ﴿عَنْ عِبَادَتِى﴾ فوجه الربط أن الدعاء أخص من العبادة، فمن استكبر عن العبادة استكبر عن الدعاء، وقال الطيبي ـ هذا شارح المشكاة وهو من علماء الأحناف وهو من علماء اللغة كذلك ـ: أن تُحمل العبادة على المعنى اللغوي، إذ الدعاء هو إظهار غاية التذلل والافتقار إلى الله والاستكانة له، وما شُرعت العبادات إلا للخضوع للباري وإظهار الافتقار إليه، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ [غافر:٦٠] حيث عبر عن عدم التذلل والخضوع بالاستكبار، ووضع عبادتي موضع دعائي، وجعل جزاء ذلك الاستكبار الصغارة والهوان، هذه نماذج من أقوال العلماء؛ لأن المسألة فيها خلاف فأصحاب البدع يزعمون أن الدعاء لا يراد به في القرآن إلا التذلل والخضوع.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فدعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو كشف ضر، فالمعبود لا بد أن يكون مالكًا للنفع والضر، ولهذا أنكر الله تعالىٰ علىٰ من عبد من دونه مالا يملك ضراً ولا نفعًا كقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [المائدة:٧٦] وقوله تعالىٰ: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [يونس:١٨]، وذلك كثير في القرآن يبين أن المعبود لابد وأن يكون مالكًا للنفع والضر، فهو يدعىٰ للنفع والضر دعاء المسألة ويدعىٰ خوفًا ورجاءً دعاء العبادة، فعلم أن النوعين متلازمان، فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة.

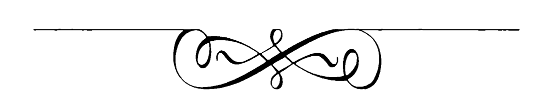
وبهذا التحقيق يندفع عنك ما يقوله عباد القبور إذ احتج عليهم بما ذكر الله في القرآن من الأمر بإخلاص الدعاء له قالوا المراد به: العبادة، فيقولون في مثل قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الجن:١٨] أي: لا تعبدوا مع الله أحداً، فيقال لهم: وإن أريد به دعاء العبادة فلا ينفي أن يدخل دعاء المسألة في العبادة؛ لأن دعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة كما أن دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة.



هاتان الآيتان فيهما إنكار علىٰ المشركين الذين يعبدون ويتذللون ويخضعون لمن ليس بيده ضر ولا نفع،وستأتي آيات أخرىٰ تدل علىٰ أن الدعاء يراد به المسألة، طلب الحاجة، وليس فقط التذلل والخضوع.

كلمة (استلزام) و(تضمن) من المصطلحات الحادثة ، وذلك أن اللفظ قد يدل على المعنى المراد من خلال نفس اللفظ، وقد يدل عليه لا من نفس اللفظ بل من خارج اللفظ، فيقول:لو دعوت الله ﷻ فإنه يستلزم ألا تعبد إلاَّ الله؛ لأنك إذا كنت تقدم حاجاتك إلى الله وتدعوه ليقضيها يلزم من ذلك ألا تخضع لغيره، هذا من حيث اللزوم، لكن من حيث التضمن فالذي يخضع لله ويعبده ﷻ فإنه يتضمن الدعاء، وقد يكون العكس، هذه اللوازم في المصطلحات التي تسمى النسب الكلامية، النسبة بين اللفظ والمعنى، قد تكون تضمناً وقد تكون استلزاماً، وقد تكون تضاداً، وقد تكون توافقاً؛ لأن الدليل قد لا يدل على المسألة بلفظه بل يدل عليه بمعناه، كقول الله تعالى في الأبوين: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ [الإسراء:٢٣] اللفظ يُحرم أن تقول في وجه أبويك أفّ بأن تتأفف من خدمتهما أو من قضاء حاجاتهما، لكن ليس في الآية دليل على أنه يحرم عليك أن تمنعهما ما يطلبان، ولهذا ورد عن ابن حزم رحمه الله وهو ظاهري في استنباطاته: أنه لو لم يرد في القرآن وفي السنة ما ينهى عن ضرب الأبوين لقلت به، ويحرم أن تقول أف، والعلماء يقولون هناك قاعدة أصولية: أن بعض الأشياء يحرم لحرمة ما هو أصغر منه، وبعضها يجب لوجوب ما هو أصغر منه، فمثلاً: هنا التأفيف، فأقل ما يمكن أن يحدث من الابن على أبيه أن يتضجر من شيء يتعلق بالأبوين، ففي القرآن ذكر أقل شيء من سوء الأدب يقع من الإنسان على أبويه، فما بالك بما هو أكبر منه بالضرب أو بالإهانة أو بمنعهما حاجاتهما؟، فالاستدلال بالألفاظ قد يكون دليلاً ظاهراً، وقد يكون دليلاً خفياً يحتاج إلى تفكير وتأمل لأخذ الدليل من النص، فهذا مراده رحمه الله أن الشخص إذا سأل الله ﷻ فإنه يسأله حاجاته، وهذا السؤال في الحقيقة يكون خضوعاً لله وإن لم يكن هو خضوعاً في الأساس، لكن من سألته حاجتك

فإنك تخضع لـه، لهذا يقال: "استغن عمن شئت تكن نظيره، واحتج من شئت تكن أسيره، وأحسن إلىٰ من شئت تكن أميره"، والله ﷻ هو المحسن للخلق، فالناس كلهم لله خاضعون ومتذللون؛ لأن الفضل كله منه ﷻ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذا لو لم يرد في دعاء المسألة بخصوصه من القرآن إلا الآيات التي ذكر فيها دعاء العبادة، فكيف وقد ذكرها الله في القرآن في غير موضع قال الله تعالىٰ: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف:٥٥] وقال تعالىٰ: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ﴾ [الأعراف:٥٦] وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:١٣٥] وقال تعالىٰ: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ﴾ [النساء:٣٢] وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام:٤٠، ٤١]، وقال تعالىٰ: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد:١٤].



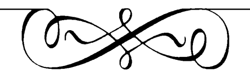
الشرح

أحيانا نفس السياق يدل علىٰ المراد، فهنا في قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ﴾ [الأنعام:٤٠، ٤١] فذكر الكشف دل علىٰ أن الدعاء السابق دعاء مسألة، دعاه فكشف عنه، أو فأجابه أو فأغاثه، فنفس السياق يدل علىٰ المراد، فهنا الدعاء دعاء مسألة.

كذلك هذه الآية ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ هنا إضافة الدعوة إلىٰ الحق يقول العلماء: من باب إضافة الصفة إلىٰ الموصوف، فأصلها الدعوة الحق كما يقال يا نساء المسلمات يعني يا أيتها النساء المسلمات؛ لأن المسلمات صفة

للنساء، ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ﴾ [الرعد:١٤]، فذكر الاستجابة دل على أن المراد بالدعاء هو دعاء المسألة، نفس السياق يدل على المراد بالدعاء هل هو دعاء مسألة أو دعاء عبادة؟ فهذا واضح في هذه الآية، ولا يستطيع الشخص الذي يكابر أن ينفي؛ لأن الإجابة تأتي للطلب، ولا تأتي في العبادة التي هي الخضوع والتذلل، يقال: عبد الله فقبلت عبادته، ودعا فأجيب، أو فكشف، فنفس السياق يدل على المراد.

ومعنى الآية أن الذي يدعو من دون الله ﷻ كالشخص الذي يبسط كفيه إلى الماء والماء بعيد عنه، ولم يصل إلى الماء، فلا يستطيع أن يشرب، هذا أحد المعنيين، والمعنى الثاني: لو وضع في يديه ماء وهي مبسوطة ولم يعدها إلى فمه لا يستطيع أن يشرب، فهذه الآية تبيّن استحالة أن ينفعهم من يدعونه من دون الله، والقرآن الكريم يضرب الأمثال، ويذكر الحقيقة بأمثال يقربها إلى الأذهان، كما قال تعالى في أكثر من آية ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ [العنكبوت:٤٣]، فالله يضرب الأمثال، لكن نحن لا يجوز لنا أن نضرب الأمثال لله؛ لأن الله ﷻ يعلم حقائق ما يخبر به وعنه، لكن لا نعرف ذاته ﷻ ولا أفعاله ولا صفاته وأسماءه على حقائقها، وإنما نعرف معناها، فلا ينبغي أن نضرب لله الأمثال، لكن الله يضرب لنا الأمثال في القرآن الكريم، وكذلك في الحديث تأتي الأمثال؛ لأن الشارع أعلم من الخلق الذين علمهم قليل.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال تعالىٰ عن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٩﴾ [إبراهيم:٣٩]

وقال عنه أيضـًا: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ۝٤٨ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم:٤٨، ٤٩].

الشَّـرْح

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٩﴾ الربط بين الدعاء والسمع يدل علىٰ أن الدعاء هنا دعاء مسألة، كما نقول في الصلاة (سمع الله لمن حمده) يراد به استجاب، أو قبل، فإن السمع هنا يراد به الاستجابة أي: القبول، فهنا يقول ﴿لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٩﴾ يعني يسمع لمن سأل، فإذا سألت الله أمراً فإنه يسمع دعاءك؛ لأنها جاءت الأحاديث أن الله يجيب من دعاه، لكن الإجابة ليس معناها تحقيق الطلب، قد يعطيه الله ما طلب وقد يدفع الله عنه من الشر ما هو أعظم وقد يدخر الله له ما هو أفضل مما طلب، فالله لا يترك ولا يضيع الدعاء، من دعاه يعطه خيراً من دعائه أو يعطه ما طلب في الدعاء.

قوله تعالىٰ: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما تعبدون من دون الله ﴿وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ۝٤٨ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ...﴾ [مريم:٤٨، ٤٩] فالدعاء هنا هو العبادة؛ لأن نفس الآية ورد فيها التفسير، فذكر يعبدون في نفس الآية دل علىٰ أن الدعاء هنا العبادة، فالدعاء يأتي في القرآن بمعنىٰ العبادة التي هي التذلل والخضوع ويأتي بمعنىٰ المسألة، والدعاء من العبادة بل من أفضل العبادات، لكن هذا التقسيم للإشكال الوارد في هذا المعنىٰ، وإلاَّ فإن العبادة شاملة لكل أعمال بني آدم مما شرعه الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

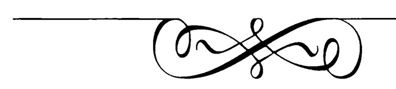
وقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ۝٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝٥٤﴾ [النحل:٥٣، ٥٤] وقال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦﴾ [الإسراء:٥٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء:٦٧] وقال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء:١١٠] وقال تعالىٰ عن زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤﴾ [مريم:٤] وقال تعالىٰ: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ ...﴾ [القصص:٦٤] الآية.

الشرح

قوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم...﴾ في هذه الآية أيضًا دلالة علىٰ أن المراد بالدعاء هو المسألة؛ لأنه ذكر كشف الضر أو تحويله، إمّا يكشف عنه الضر أو يحوله، وهذا متعلق بالدعاء، وكذلك قوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ﴾؛ لأنه عندما ذكر النبي ﷺ الرحمن أنكرت قريش هذا الاسم وقالت: ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، شخص كان في اليمامة يسمىٰ رحمن اليمامة، فالله يقول: دعوتم الله أو دعوتموه باسم الرحمن، فكلاهما من أسماء الله الحسنىٰ، فهذا هو دعاء مسألة.

قوله تعالىٰ: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ...﴾، الله عَزَّ وَجَلَّ يقول للمشركين يوم القيامة: ادعوا شركاءكم الذين كنتم تدعونهم فيدعون، وهذا من غفلتهم

وصغر عقولهم، فيدعون شركاءهم فلا يجابون، هذا من باب التهكم بهم يوم القيامة، فمن كان يدعو غير الله يقال له يوم القيامة ادعوا شريكك من دون الله، فيدعو، ولا يجيبه أحد؛ لأن الملك كله بيد الله ﷻ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٥]، فكفىٰ بهذه الآيات نجاة وحجة وبرهانًا في الفرق بين التوحيد والشرك عمومًا وفي هذه المسألة خصوصًا، وقال تعالىٰ: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ ﴾ [العنكبوت:١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ [الزمر:٨].

الشرح

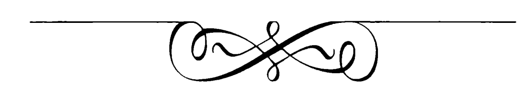
هذا وصف لحال الإنسان وقت الضر، فقد كان المشركون في الزمن الأول إذا نزل بهم ضر أخلصوا الدعاء لله ﷻ، ثم إذا رفع عنهم الضر وجاءت النعمة والرخاء أشركوا مع الله غيره، وهكذا النفس البشرية في وقت الحاجة والشدة تكون علىٰ حال غير الحال الذي تكون عليه وقت الرخاء، والإنسان إذا مرض يأتيه التوبة والاستغفار.

وهناك قصة وقعت قبل عدة سنوات أن شخصًا كان شريكًا مع شخص آخر في أملاك وأراضٍ، فتوفي شريكه، فجاء أولاده يطالبونه بحصتهم من هذه الأملاك، فأعطاهم الحصص التي ليست في أماكن مرتفعة الثمن، أي في أماكن بعيدة في أطراف البلد، فقالوا: نحن نعرف أن هذه أملاك أبينا معك قال: لا، أبوكم ليس معي شريكًا إلا في هذه الأشياء، أما هذه في وسط البلد فليس شريكًا معي، فسافر الشخص إلىٰ مدينة أخرىٰ بالطائرة، وبينما كانوا في الجو أعلن سائق الطائرة أن الطائرة في حالة خطر، وكل إنسان يذكر الله، فهذا

الشخص تذكر الحق، فقال لجاره: يا فلان ترىٰ فلان بن فلان شريك معي في كل الأملاك التي في داخل البلد والتي في خارج البلد، قدَّر الله أنهم سلموا فنزلوا في المطار سالمين، فمسك الشخص مرةً أخرىٰ قال: يا فلان ترىٰ أنا أمزح معك، قال: اتق الله يا شيخ أنت ذكرت هذا في الطائرة، وكنت في حالة من الخوف والتذلل وشدة التضرع، حالة تدل علىٰ حال إنسان مذنب، فأخذ به، فرفض، فذهب إلىٰ أصحاب الحق وأخبرهم بذلك، وقال: أنا أشهد عند القاضي فجيء به، وقال: تحلف أنه ما هو شريكاً، قال: ما أحلف فحكم عليه. الشاهد أن الإنسان وقت الشدة يتوب لكن إذا زال الخوف بدأ الشيطان يلعب عليه كما قال الله ﷻ عن الكفار في الآخرة بعد أن رأوا النار والجنة: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [الأنعام:٢٨].

هكذا الطبيعة الفاسدة، فكم من إنسان يصاب، ويرىٰ الموت مرات في حياته، لكن إذا جاءت النعمة والرخاء فإنه يبدأ يبطر ويبدأ يستكبر، ويتوسع في الحرام ويأتيه الشيطان، فهكذا النفس البشرية وقت الشدة يكون لها حال، ووقت الرخاء يكون لها حال، لكن يقول العلماء: إن المشركين في السابق كانوا في وقت الشدة يُخلصون العبادة لله ووقت الرخاء يشركون، لكن في زماننا الحاضر يشركون وقت الرخاء ووقت الشدة، وهناك قصة في أحد الأولياء ـ كما يزعمون ـ أظنه الشاذلي، قال لأحد تلاميذه وهو رأىٰ الشاذلي دخل البحر يمشي، فقال: يا شيخ أنا أريد أن أمشي علىٰ البحر مثلك،فقال: قل: يا شاذلي، يا شاذلي، يا شاذلي، فقال: يا شاذلي، فمشىٰ علىٰ البحر، وبعد أن مشىٰ وسط البحر قال: الشاذلي دعا الله، وأنا أدعو الله، لما ذا أدعو الشاذلي، فقال: يا الله يا الله، فغرق، فصاح: يا شاذلي يا شاذلي، فقال: لعلك

قلت شيئًا آخر، فقال: قل يا شاذلي، وبعد ما خرج قال التلميذ: أنت قلت يا الله، فسرتَ على البحر، وأنا قلت: يا شاذلي فسرت، فأردت أن أقول مثلك يا الله، قال: سبحان الله! أنت تقول يا الله؟!! مثلك يقول يا الله؟!!، تعلق بي، لم تصل الدرجة التي تتعلق فيها بالله ﷻ. هذه القصة تُذكر في تراجمهم، ويذكر أشد منها أنهم يدعونهم فيعينونهم فيما يريدون ويقضون حاجاتهم.



قال المؤلف رحمه الله:

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ ۝١٤﴾ [فاطر:١٣، ١٤] وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠] وغير ذلك من الآيات.

الشَّرح

قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ ...﴾ تتحدث كل هذه الآيات عن الدعاء، وموضوع المسألة الدعاء، لكن القرآن الكريم يتحدث عن الدعاء وعن حالات قائمة في ذلك العصر، فقد كانوا يدعون الأموات، والله يقول: ﴿لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ ... وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾ يعني يتبرؤون منكم ويقولون: لم نعلم يا رب ولم نرض يا ربِ؛ لأن هذا الشرك قد يكون شركًا بأناسٍ صالحين لم يرضوا به، فالله يقول: هؤلاء ليسوا شركاء في هذا الوجود، ولا يملكون شيئًا في هذا الوجود، ويوم القيامة يتبرؤون ممن دعاهم، وهم عن دعائكم غافلون لا يسمعون دعاءكم، فالدعاء ينبغي ألا يُصرف إلا إلىٰ من لـه الملك كله، وإلىٰ من يسمع الحديث والكلام كله وهو الله عز وجل.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ﴾ لا تدعوا غيري، فالمراد به هنا دعاء المسألة، وقد يراد به دعاء العبادة، قلنا: إن الدعاء يأتي للمعنيين: للعبادة، وللمسألة وكلها من العبادة.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي الأحاديث عن النبي ﷺ مالا يحصىٰ، منها: قوله ﷺ فيما رواه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: "يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي إنكم تخطؤون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفروني أغفر لكم" رواه مسلم.



الشَّرْح

هذا أول الأحاديث التي أوردها الشارح، وهي ثلاثة عشر حديثًا، وهذا يُسمىٰ بالحديث القدسي، أي أن معناه من الله عَزَّ وَجَلَّ ولفظه من رسول الله ﷺ، **فإن الكلام الذي ورد في الدين على ثلاثة أنواع:**

النوع الأول: هو كلام الله الذي هو القرآن الكريم، فإنه من الله تعالىٰ لفظه ومعناه، والله أنزله للتحدي.

والنوع الثاني: معناه من الله ولفظه من رسول الله ﷺ، وليس للتحدي، وهو الحديث القدسي.

وأما الثالث: فهو المعنىٰ واللفظ من النبي ﷺ وهو الحديث النبوي.

فهذا الحديث المذكور قدسي، وهو من الأحاديث العظيمة التي اشتملت علىٰ أمور عظيمة، والحديث كالآتي: **(عن أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: أن النبي ﷺ قال: قال الله عَزَّ وَجَلَّ " يا عبادي إني حرمت الظلم علىٰ نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته**

فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضَري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا علىٰ أتقىٰ قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا علىٰ أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك من ملكي شيئا إلاَّ كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إيَّاها فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلاَّ نفسه)[١].

حديث عجيب! هذه الجموع البشرية منذ أن خلق الله آدم الىٰ قيام الساعة لو وقفت هذه الجموع في صعيد واحد وسألت الله وأعطىٰ الله كل واحد مسألته فإن ذلك لا ينقص من ملك الله شيئًا، وكذلك لو كان كلهم علىٰ أتقىٰ قلب إنسان ما زاد في ملك الله شيئًا، أو علىٰ أفجر قلب إنسان ما نقص من ملك الله شيء، فالتقوىٰ والصلاح لنا، والفجور والفساد علينا، فهذا الحديث الكريم في أوله بيان لحرمة الظلم، وأن الله ﷻ لا يظلم أحداً، ثم حكم بحرمته بين الناس، فمن جاء يوم القيامة ظالمًا لا بد من أخذ الظلم الذي أخذه لصاحبه، وقد جاء في الحديث نوع من الظلم: (أنه من أخذ أو من اقتطع من الأرض قيد شبرٍ ظلمًا طوقه من سبع أرضين يوم القيامة)[٢]، الظلم ظلمات

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم: (٢٥٧٧)، (٤/ ١٩٩٤).

(٢) سبق تخريجه.

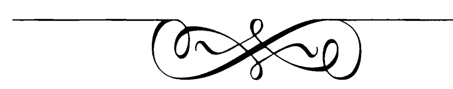
كما يقول الشاعر:

ستعلم يا ظلوم إذا التقينا غداً عند المليك من الظلوم

الظالم إنما يظلم بقوة ماله، أو بقوة جاهه، أو بقوة بدنه، أي القدرة، لكنه يجهل أن الله قادر عليه، وينسىٰ هذا فيظلم، وإلا فلو ذكر قدرة الله وعظمته ووقوفه بين يديه ما ظلم، والله يصف هذا النوع من الناس بأنه يكذب بالآخرة، لو كان يؤمن بأنه سيقف بين يدي الله وأن الله سيجازيه ما فعل، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾ [الماعون:١]، أرأيت في اللغة تأتي إما لمعنىٰ البصر وإما لمعنىٰ العلم، هل علمت يا محمد، فيأتي الجواب من الله: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢﴾ [الماعون:٢] أي الذي يظلم أضعف الناس في المجتمع، وهكذا النفس المريضة إنما تلجأ إلىٰ الضعاف لا إلىٰ الأقوياء، وهذه النفس تدنت إلىٰ هذا المستوىٰ بسبب عدم الإيمان باليوم الآخر، وإلا فلو آمن بأنه سيلقىٰ الله وسيقف بين يديه ما ظلم الفقير المحتاج، ما ظلم اليتيم؛ لأن اليتيم هو رمز الضعف في المجتمع، والقرآن الكريم قد أوصىٰ به كثيراً من العهد المكي ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ [الضحىٰ: ٩، ١٠] أدب عجيب مع المحتاجين والضعفاء، وخلق إسلامي رفيع، هذا الخلق هو جزء كبير في هذا الدين،فالمسلم عليه أن يحرص علىٰ عدم الظلم وعلىٰ أن يكون إنساناً منصفاً علىٰ نفسه وعلىٰ من يحب، ولا يظلم لا قوياً ولا ضعيفاً، ولا محتاجاً ولا غنياً، الظلم حرام من الجميع، لكن كثيراً ما يقع علىٰ من يكون ضعيفاً.

فالحديث يدل علىٰ أن الدعاء خاصٌ بالله، قال: (كلكم ضال إلا من هديته)، إذا نسأل الهداية من الله، ونسأل الطعام والرزق من الله وهكذا، فلا نسأل غير الله، فالحديث أورده الشارح ليبين أن الدعاء والسؤال حق الله ﷻ،

لا يجوز أن نسأل الناس أمراً لا يستطيعونه، لكن لو سأل الإنسان إنساناً يستطيع أن يلبي حاجته فليس في ذلك حرج، إنما الحرام أن تسأل ما لا يقدر عليه الناس، مثلاً: إنسان يسأل الناس أن يشفوا مريضه، يسأل الولي أو الصالح أن يرد غائبه، يسأل صاحب القبر أو غيره أن تنجب زوجته فهذه كلها من المحرمات التي لا يستطيعها الناس ولا يستطيعها إلا الله ﷻ، فأنت تسأل الله سبحانه وتعالى وتتخذ الأسباب؛ لأن الأسباب شرعها الله ﷻ، لا يظن الإنسان أن الأسباب تقدح في التوحيد، بل تركها نقص في التوحيد، ونقص في عقله؛ لأن الله أمر باتخاذ الأسباب، ورأينا الأنبياء جميعاً يتخذون الأسباب، فهذا نبينا عليه الصلاة والسلام عندما هاجر إلى المدينة كان الله قادراً أن ينقله من مكة إلى المدينة كما نقله في ليلة الإسراء من مكة إلى بيت المقدس، ومن بيت المقدس إلى السماوات العلى، لكن الله جعله يشرِّع لأمته، فاتخذ الأسباب واختفى في الغار، وهيأ له بعيرين للركوب عليهما هو وصاحبه الصديق رضي الله عنه، فاتخاذ الأسباب أمر مشروع في هذه الأمة.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله ﷺ: "ينزل ربنا تبارك وتعالى إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر ثم يقول: من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له" رواه البخاري ومسلم.

الشَّرح

وهذا الحديث أيضًا يشير إلى أن الإنسان ينبغي أن يسأل الله، وأن يستغفره، وأن الله عَزَّ وَجَلَّ في كل ليلة يقترب من خلقه كما شاء عَزَّ وَجَلَّ، وقد يقع في أذهان الناس كيف يقترب؟ وكيف تحدث للسماوات السبع؟ هذه كلها صور في ذهن الإنسان، لكن لو عرف وأعطى الله حقه استشكل، فالذي ينزل هو الخالق عَزَّ وَجَلَّ، ومخلوقاته كلها طائعة له، فإذا جاء الحديث يخبر عن حدث أو قضيةٍ فعليه أن يصدق وإن لم يتصور العقل ذلك؛ لأن العقل لا يستطيع أن يتصور كل شيء، يُذكر أن بعض العلماء سمع أن بعض الأشخاص يتحدث في صفات الله عَزَّ وَجَلَّ فاستدعاه. وقد كان ابنًا للوالي، قال يا فلان: هذا الأمر ما دام بعيداً عنكم قد يكون مقبولاً، أما إذا خرج من بيت الوالي فإنه يكون شديداً، فقد سمعت أنك تتحدث في كذا؟ قال: نعم، قال: أنا سأسألك عن بعض مخلوقات الله: جاء في الحديث الصحيح أن النبي عليه الصلاة والسلام رأى جبريل عليه السلام وله ستمائة جناح، أعفيتك عن خمسمائة وسبعة وتسعين جناحًا، ركب لي الجناح الثالث أين محله!!؟ ما يستطيع يضعه في الرأس وفي الظهر وفي الذيل وفي البطن، فقال يا فلان: هذا عجزك أمام بعض مخلوقات الله، فما بالك بالخالق عَزَّ وَجَلَّ؟

ويقول أبو حامد الغزالي في كتاب الإحياء، وقلنا أن هذا الكتاب فيه طامات كثيرة، وفيه مواطن جميلة يقول أرأيت لو أن هناك طبيباً في مدينة من المدن، وهذا الطبيب ماهر ولا يزوره مريضٌ إلا ويشفىٰ علىٰ يديه، فلو ذهبت إليه وأعطاك علاجاً وحدد لك كميةً، وحدد لك زماناً معيناً في تناول العلاج، هل تعترض عليه؟ لا تعترض؛ لأن ثقتك به تجعلك تأخذ العلاج وتستعمله كما أمرك، قال: هذا موقفك مع مخلوق ضعيف مثلك؛ لأنك قد جربته، فما بالك بالخالق ﷻ الذي خلق هذا الوجود كله؟ فالعقل البشري ينبغي أن يقف عند حده لا يتجاوز؛ لأن الحديث مع الله ﷻ، والذي يعرف طرفاً من مخلوقات الله يرىٰ عجب هذا الكون، أجزاءه عجيبة، نظامه عجيب، فيه مخلوقات عجيبة، كل جزء في الوجود تدل علىٰ حكمة الخالق ﷻ، هذا الإنسان نفسه كان كامناً في خليةٍ لا ترىٰ بالعين المجردة بكل هذه الأوصاف، بجهازه التنفسي، وجهازه الهضمي، وجهازه الدموي، وجهازه العصبي، والمخ في هذا الدماغ.

يقول العلماء: إن الإنسان إذا أتىٰ أهله يخرج منه مليونان ونصف مليون خلية، حيوان منوي، والذي يُخلق الإنسان منه واحد، وكل خلية من هذه الخلايا تحمل صفاته الشخصية الجسمية، والنفسية، والعقلية، وكم حملت هذه الخلية من الآلاف قبلك والملايين؟ وكم ستحمل بعدك من الآلاف والملايين؟!! فهذا الإنسان المسكين الذي يعجز عن دراسة هذه الخلية ثم يريد أن يحاكم الله، هذا من جهله، فينبغي أن يقف عند الحد المحدد، وبهذا تستريح النفس، ويستريح العقل، يسلم أمره إلىٰ الله، ويعلم أن العقل لا يستطيع أن يحيط؛ فمخلوقات الله عجيبة، بل سمعنا في قضية الاستنساخ أن صورة الإنسان في كل خلية في هذا الجسم، وهذا شيء عجيب، سبحان الخالق الذي خلق هذا الإنسان! صورته كاملة في هذه الخلية الواحدة وكم في جسمه

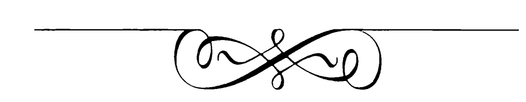
من خلايا؟! بلايين الخلايا، وهذه الخلايا تُعدم في كل عامين في جسمه، فجسمه قبل عامين غيره الآن، يتجدد هذا الجسم ما عدا خلايا الدماغ، جعلها الله ثابتة؛ لأن كل معلومات الإنسان فيها، التصوير للأشخاص، والأحداث، والكلام، والمعلومات مخزنة، لو تغيرت هذه الخلايا بعد سنتين تحتاج إلىٰ كل أن تتعلم كل سنتين اللغة من جديد، وتتعرف الأشياء من جديد، فالله جعل خلايا الدماغ ثابتة، وخلايا الجسم متجددة، فكل خلية في الجسم تحمل صورته بكامله، فهذا الإنسان المسكين الذي يجهل ولا يعرف شيئًا من عظمة خالقه يريد أن يحاكم الله!! كيف يفعل الله؟!! كيف صفات الله؟! فلا ينخدع بهذا العقل، وكان علماء الغرب في القرن التاسع عشر إذا جهلوا قضية قالوا: هذه لا يقبلها العقل، ولا يعرفها العقل، وفي القرن العشرين تأدبوا عندما رأوا الجهل الفاضح في الإنسان قالوا: هذه لم يصلها العقل، لم يعرفها العقل بعد، اعترفوا أن العقل لا يعرف كل شيء، فاعترفوا أن العقل لم يصل فلا يمنعون، لكن في السابق كانوا يمنعون، وقد أخذهم الغرور حتىٰ قالوا كلامًا عجيبًا فيما يتعلق بالخالق ﷻ، لكن في القرن العشرين تهذبت الألفاظ واللغة، وأعادوا النظر، وعرفوا أن العقل يجهل، الذي عرفه لا يساوي ذرة في هذا الوجود.

فالعقل البشري طاقته محدودة، فلا ينبغي لنا أن نضيع هذا العقل في غير ميدانه، ونحمله فوق طاقته، مثل الطفل الصغير لو جئنا ندرسه رياضيات معقدة أو نظام الذرة، والتفجير، والتجميع، والحركة، فنكون قد حملناه فوق طاقته فهكذا، أرأيت لو كان هناك شخص رياضي وسأله طفل صغير عن قضية رياضية هل يستطيع أن يشرح للصغير هذه المسألة؟ فيصرفه عنها بشيء آخر، النسبة بين الصغير والكبير وإن كانت كبيرة لكنها بالنسبة للخالق والمخلوق بعيدة جداً، فالمسلم عليه أن يحفظ عقله، وهذه ميزة للمسلم يؤمن بالشهادة

والغيب، بخلاف الإنسان الغير المسلم لا يعرف الغيب، والمسلم عنده دائرتان ويتعامل مع كل منهما من منطلق صحيح: الغيب يسلم أمره إلىٰ خالقه، والحاضر يتفاعل ويتحرك معه بقدر جهده، وبه يحفظ عقله ومشاعره، ووقته من الضياع.

فقضية النزول لا ينبغي أن نجعلها مسألةً حوارية أو جدلية؛ لأن العقل لا يستطيع أن يدركها، فإذا جاء الخبر سلمنا أمره إلىٰ الله، فمثلاً: أن الأرض كرة يظن بعض العلماء أنه قد عرف ما لم يعرفه الأوائل، وهذهِ مسألة قد عرفت من قبل الإسلام أن الأرض كروية، ولهذا نرىٰ ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في القرن الخامس يقول: دل عليها قوله تعالىٰ: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾ [الزمر:٥] يقول: بينهما فروق لكن هذا مكور علىٰ هذا، والأرض بينهما بين اليوم والليلة، فهذه الأرض كرة صغيرة معلقة في الفضاء، وتسبح في هذا الكون العظيم وهي جزئية من كون مملوء بالكواكب والنجوم، فالله إذا أراد أن يقترب من أرضه يقترب، نحن لا ندرك كيفيته؛ لأنا لا نحيط بكل شيء، فالطفل في بطن أمه لماذا لا يختنق؟ ونحن نعلم من دراستنا البشرية أن الإنسان إذا حبس عنه الأكسجين يموت، هذا الطفل في بطن أمه تسعة أشهر وهو يتنفس الهواء ولا يموت؛ لأن الذي خلق النظام في الكون بيده الأمر كله، والعقل ما يستطيع أن يعلل لماذا؟، إنما يعلل كيف تتحرك الأشياء؟، مثلاً: لماذا القلب يضخ الدم وينقبض وينفتح وينقبض؟ من هو الذي يأمره؟ قال الطبيب: الدماغ فيه جهاز يأمر القلب أنه يضخ هكذا، فهذا الجهاز في الدماغ من يأمره؟ ما يدري الطبيب، لكن نحن نعلم أن هذا بأمر الله، فإذا جاء الأمر توقف القلب، فالطبيب يعرف كيف يضخ الدم لكن لا يعرف لماذا يضخ الدم القلب ولا يتوقف؟.

فالعقل البشري صغير، وإدراكه ضعيف، فلا ينبغي له أن يحاكم ويتحدث ويدخل في ميدان غير ميدانه، نحن نسلم أن الله ينزل، لكن نزولاً يليق بجلاله ﷻ؛ لأن المصطفى ﷺ أخبر بذلك، فإذا أخبر بخبر نقابله بالتسليم والتصديق، لا بالرد والجفاء وهكذا ترتاح الضمائر، وترتاح القلوب، ونحفظ أوقاتنا من بعثرتها بغير ميدانها.





قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله ﷺ: "ليس شيء أكرم على الله من الدعاء" رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه.

وقوله ﷺ: "من لم يدع الله يغضب عليه" رواه أحمد وابن أبي شيبة والحاكم.

وقوله ﷺ: "سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل" رواه الترمذي.



الشَّرْح

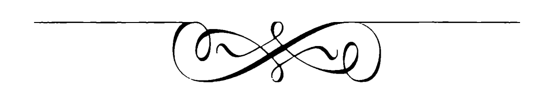
قوله ﷺ: (ليس شيء أكرم على الله من الدعاء)[1] هذا الحديث في سنده شخص اسمه: عمران بن داور، قال الترمذي: هذا حديث حسن لا نعرفه مرفوعًا إلا من حديث عمران القطان، قال العقيلي: لا يتابع عليه، ولا يأخذ بهذا اللفظ إلا عن عمران، يعني هذا الحديث لا يصح، والشارح رَحِمَهُ اللهُ قد أورد عدة أحاديث بعضها صحيح وبعضها لم يصح. وهنا في التحقيق يقول المحقق: فيه عمران بن داود، وهو خطأ، وهو عمران بن داور بالراء وليس بالدال.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب فضل الدعاء، برقم: (٧١٢)، والترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل الدعاء، برقم: (٣٣٧٠)، وحسنه، وابن ماجه في سننه، كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء، برقم: (٣٨٢٩)، والإمام أحمد في المسند، برقم: (٨٧٤٨)، (١٤/ ٣٦٠)، والحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر، برقم: (١٨٥٢)، (١/ ٦٧١)، وصححه، وسكت عنه الذهبي في التلخيص، وأخرجه أيضًا ابن حبان في صحيحه، كتاب الرقائق، باب الأدعية، برقم: (٨٧٠)، والبيهقي في شعب الإيمان، برقم: (١١٠٦)، وحسنه أيضًا الشيخ الألباني في تعليقه على الترمذي وابن ماجه.

قوله ﷺ: (من لم يدع الله يغضب عليه)[(١)] وكذلك هذا الحديث فيه أبو صالح الكوزي، قال ابن معين: ضعيف الحديث، وقال الترمذي: لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وقال ابن حجر: لين الحديث، فهذا الحديث لا يصح.

قوله ﷺ: (سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل)[(٢)] كذلك هذا الحديث ضعيف، فيه حماد بن واقد وهو الصفار، قال العلماء: ليس بالحافظ، وهو شيخ بصري كما قال الترمذي، ورأى أنه أقرب إلى أنه مرسل من أنه موصول.



(١) هذا الحديث بهذا اللفظ ملفق بين حديثين، فقد أخرجه بلفظ: "من لم يدع الله غضب عليه"، ابن ماجه في سننه، كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء، برقم: (٣٨٢٧)، والإمام أحمد في المسند، برقم: (١٠١٧٨)، (١٦/ ١٤٦)، وابن أبي شيبة في المصنف، كتاب الدعاء، باب في فضل الدعاء، برقم: (٢٩٧٧٩)، (١٥/ ٩٠)، وأخرجه الحاكم بلفظ: "من لا يدعو الله يغضب عليه"، كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر، برقم: (١٨٥٨)، (١/ ٦٧٣)، وصححه، وأخرجه بلفظ: "من لم يسأل الله يغضب عليه" البخاري في الأدب المفرد، باب من لم يسأل الله يغضب عليه، برقم: (٦٥٨)، والترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل الدعاء، برقم: (٣٣٧٣)، والبيهقي في شعب الإيمان، برقم: (١٠٩٩)، وأبو يعلى في مسنده، برقم: (٦٦٥٥)، (١٢/ ١٠).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الأدعية، باب في انتظار الفرج وغير ذلك، برقم: (٣٥٧١)، والبيهقي في شعب الإيمان، برقم: (١١٢٤)، والطبراني في المعجم الأوسط، برقم: (٥١٦٩)، (٥/ ٢٣٠).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله ﷺ: (الدعاء سلاح المؤمن، وعماد الدين، ونور السماوات والأرض) رواه الحاكم وصححه.

وقوله ﷺ: (الدعاء هو العبادة) رواه أحمد والترمذي.

وفي حديث آخر: (الدعاء مخ العبادة) رواه الترمذي.

وقوله لما سئل أي العبادة أفضل؟ قال: (دعاء المرء لنفسه) رواه البخاري في الأدب.

وقوله ﷺ: (لن ينفع حذر من قدر، ولكن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، فعليكم بالدعاء يا عباد الله) رواه أحمد.



الشَّرح

قوله ﷺ: (الدعاء سلاح المؤمن ..)[1]، وهذا الحديث موضوع، وعندما نقول إن الحديث ضعيف أو موضوع ليس معناه أن المعنىٰ مردود؛ لأن الوضّاعين يختارون لفظًا صحيحًا أحيانًا كثيرة، ويركبّون لها أسانيد، فإذا قيل: إن الحديث مردود أو ضعيف قد لايكون المعنىٰ موضوعًا، بل يكون مقبولاً، لكن لم يصح من حيث السند، من حيث الصناعة الحديثية.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء والتهليل والتكبير والتسبيح والذكر، برقم: (١٨٦٣)، وصححه، وسكت عنه الذهبي في التلخيص، وأخرجه أيضًا أبو يعلىٰ في مسنده، برقم: (٤٣٩)، (١/ ٣٤٤)، والقضاعي في مسند الشهاب، برقم: (١٤٣)، وضعفه الهيثمي في مجمع الزوائد (١١/ ٩).

قوله ﷺ: (الدعاء هو العبادة)[1] وهذا الحديث إسناده جيد، يعني من أحسن ما أورده الشارح رحمه الله.

قوله ﷺ: (الدعاء مخ العبادة)[2] وهذا الحديث ضعيف؛ لأن فيه ابن لهيعة وهو ضعيف، والوليد بن مسلم وهو مدلس.

قوله ﷺ: (دعاء المرء لنفسه)[3] وهذا حديث واهٍ، فيه المبارك بن حسان، لكن البخاري رحمه الله لم يشترط في كتابه (الأدب المفرد) ما اشترطه في الصحيح، أما في الصحيح فكل ما أورده رحمه الله فيه صحيح إلاّ ما ندر من الأحاديث التي انتقدها العلماء وبينوا أنها ضعيفة؛ لأن البشر مهما بلغ في الكمال لا بد فيه من شيء من الضعف، أما في (الأدب المفرد) فإنه رحمه الله لم يلتزم أن لا يورد فيه إلاّ ما صح، بل أورده على غرار الكتب الأخرى، فينتخب

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب فضل الدعاء، برقم: (٧١٤)، وأبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب الدعاء، برقم: (١٤٧٩)، والترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب تفسير سورة البقرة، برقم: (٢٩٦٩)، والنسائي في السنن الكبرى، كتاب التفسير، باب سورة غافر، برقم: (١١٤٠٠)، (١٠/ ٢٤٥)، وابن ماجه في سننه، كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء، (٣٨٢٨)، والإمام أحمد في المسند، برقم: (١٨٣٥٢)، (٣٠/ ٢٩٨)، والحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء والتهليل والتكبير والتسبيح والذكر، برقم: (١٨٥٣)، (١/ ٦٧٢)، وصححه، وسكت عنه الذهبي في التلخيص، وأخرجه أيضاً ابن حبان في صحيحه، وابن أبي شيبة في المصنف، والطبراني في المعجم الصغير، والبيهقي في شعب الإيمان، والبزار في مسنده، والقضاعي في مسند الشهاب، والطيالسي في مسنده، وأبو نعيم في حلية الأولياء.

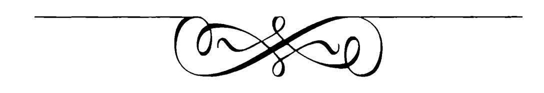
(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل الدعاء، برقم: (٣٣٧١)، والطبراني في المعجم الأوسط، برقم: (٣١٩٦).

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب فضل الدعاء، برقم: (٧١٥)، والحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء، والتهليل والتكبير ....، برقم: (٢١٤٤)، (١/ ٧٣٦)، وصححه، وضعفه الذهبي في التلخيص .

أحسن ما عنده في هذا الباب، قد يكون أحسن ما عنده صحيحاً وقد يكون أحسن ما عنده حسناً، وقد يكون أحسن ما عنده ضعيفاً، فيورده في الباب.

قوله ﷺ: (لن ينفع حذر من قدر..)(١) هذا الحديث ورد له إسنادان: الأول: عن معاذ رضي الله عنه، رواه أحمد وفيه علتان: الأولى: شهر بن حوشب، اختلف في توثيقه، والثانية: إسماعيل بن عياش، وهو ثقة، لكنه يقول العلماء: إذا حدث عن أهل بلده الشاميين هو شامي فإن حديثه يكون صحيحاً، وإذا حدث عن غير أهل بلده فإن حديثه يكون ضعيفاً، قالوا: لأنه رحمه الله بعد أن رجع إلى بلده ضاعت الأصول التي كتبها عن الشيوخ في المدن الأخرى، فأصبح يحدث من حفظه، ولهذا خلط فيها، أما أحاديث بلده فإن صحفه موجودة، ولهذا إذا حدث عن غير أهل بلده يكون الحديث ضعيفاً، هنا حدث عن رجل من أهل مكة فالعلماء قالوا: يكون هذا الحديث ضعيفاً.

والإسناد الثاني: عن ابن عمر رضي الله عنهما رواه الترمذي والحاكم، وفيه عبد الرحمن بن أبي بكر القرشي، قال البخاري: منكر الحديث، وقال الترمذي بعد إيراد الحديث: لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر القرشي وهو ضعيف في الحديث ضعفه بعض أهل العلم من قبل حفظه، فهذا الحديث لم يصح بهذا المتن.



---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند، برقم: (٢٢٠٤٤)، (٣٦/ ٣٧٠)، والبزار في مسنده، برقم: (٨١٤٩)، والقضاعي في مسند الشهاب، برقم: (٨٦٢)، وأخرج نحوه الطبراني في الأوسط، برقم: (٢٤٩٨)، (٣/ ٦٦)، والحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء والتهليل...، برقم: (١٨٦٤)، (١/ ٦٧٤)، وصححه، ولكن الذهبي ضعفه في التلخيص، ولم أجده في الترمذي.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله ﷺ: (سلوا الله كل شيء حتىٰ الشسع إذا انقطع فإنه إن لم ييسره لم يتيسر) رواه أبو يعلىٰ بإسناد صحيح.

وقوله ﷺ: (ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتىٰ يسأله شسع نعله إذا انقطع، وحتىٰ يسأله الملح) رواه البزار بإسناد صحيح.

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: إني لا أحمل هم الإجابة ولكن هم الدعاء، فإذا ألهمت الدعاء علمت أن الإجابة معه.



الشَّرْح

هذان الحديثان الأول منهما صح موقوفًا علىٰ عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، والثاني لم يصح عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وسنقف مع هذا الحديث خمس وقفات؛ لأنه يحتاج إلىٰ أن نقف معه، والترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ روىٰ هذا الحديث موصولاً ومرسلاً، وطبعات الترمذي عدة، فطبعة البابي الحلبي ليس فيها هذا الحديث، بل سقط منها في آخر باب الدعاء ثمانية أحاديث هذا منها، لكن الطبعة التي اعتمدها المباركفوري في شرحه للترمذي توجد فيها الأحاديث الثمانية، فعندما يعزىٰ الحديث للترمذي فيرجع إليه القارئ ربما لا تجده، لكن النسخ فيها زيادات ونقص، وهكذا كل نسخ الكتب القديمة ترىٰ فيها هذا الخلل، ولهذا يقول المصطلح: علىٰ من أراد أن يرجع إلىٰ كتاب من كتب السنة أن يتأكد أنها قرأت علىٰ عالم أو عالمين حتىٰ لا يخطئ في الزيادة أو النقص.

فهذا الحديث أورده الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ من طريقين:

الطريق الأولى: موصولة عن شخص اسمه قطن البصري قال: (**ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتىٰ يسأله شسع نعله إذا انقطع**)[1]، قال الترمذي: هذا حديث غريب، وروىٰ غير واحد هذا الحديث عن جعفر بن سليمان عن ثابت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يذكروا فيه عن أنس، يعني هذا الحديث مرسل؛ لأن تلميذ أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثابت البُناني لم يذكر شيخه أنساً، وهذا هو الصحيح، ثم أورد الحديث فقال: (**ليسأل أحدكم ربه حتىٰ يسأله الملح، وحتىٰ يسأله شسع نعله إذا انقطع**)[2] ثم قال: وهذا أصح من حديث قطن عن جعفر بن سليمان.

فالوقفة الأولى: أن الحديثين وقبلهما ستة أحاديث قد سقطت من هذه النسخة في الترمذي، ولعله لو تتبع شخص الكتاب ربما يجد أحاديث أخرىٰ سقطت من الترمذي، فإذا رجع إلىٰ مشكاة المصابيح أو أي كتاب يعزو هذا الحديث إلىٰ الترمذي ثم لم يجده فإنه قد يشك في صحة العزو، والحقيقة أنه الترمذي له عدة نسخ، وهنا نرىٰ المحقق لم ينسبه إلىٰ الترمذي إما لأنه لم يجد هذا الحديث في هذه النسخة، أو لأنه إنما رجع إلىٰ مجمع الزوائد، والهيثمي في مجمع الزوائد قد جاء بهذا الحديث لعلة كما سيأتي.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب ليسأل الحاجة مهما صغرت، برقم: (٣٦٠٤)، والطبراني في المعجم الأوسط، برقم: (٥٥٩٥)، (٥/ ٣٧٣)، وابن حبان في صحيحه، كتاب الرقائق، باب الأدعية، برقم: (٨٦٦)، (٣/ ١٤٨)، وأبو يعلىٰ في مسنده، برقم: (٣٤٠٣)، (٦/ ١٣٠)، والبيهقي في شعب الإيمان، برقم: (١١١٦)، (٢/ ٤٠).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب ليسأل الحاجة مهما صغرت، برقم: (٣٦٠٤)، والبزار في مسنده، برقم: (٦٨٧٦)، (١٣/ ٢٩٤)، وأخرج جزءاً منه البيهقي في شعب الأيمان، برقم: (١١٢٠)، (٢/ ٤٢).

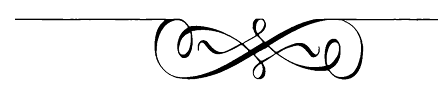
الوقفة الثانية: الحديث أورده الهيثمي في مجمع الزوائد بسبب عدم ذكر الترمذي في الموصول (وحتىٰ يسأله الملح) وإن ذكرها في المرسل؛ لأن مجمع الزوائد لا يذكر فيه الحديث الذي في السنن أو في الصحيحين، إنما يذكر فيه ما زاد عن الكتب الستة، فجاء بهذا الحديث؛ لأن في متنه نقصاً عند الترمذي، فجاء بهذا الحديث وجعله من زوائد البزار.

الوقفة الثالثة: قال الهيثمي في سند البزار: ورجاله رجال الصحيح غير سيار بن حاتم وهو ثقة، هذا الشخص ضعيف في الحقيقة، كما ذكر هنا المحقق في الحاشية: سيار بن حاتم ضعيف وليس ثقةً.

الوقفة الرابعة: أن ابن حجر رحمه الله حسَّن الحديث، مع أن الحديث لم يصح موصولاً، وإنما المرسل هو الذي ارتضاه العلماء وقبلوه وقالوا: هو صحيح، يعني أن الراوي لم يذكر أنساً في هذا السند، إنما نسبه إلىٰ رسول الله ﷺ بدون أنس.

الوقفة الخامسة: الشيخ الألباني رحمه الله حسَّن هذا الحديث في حاشية المشكاة، ثم بعد ذلك في السلسلة قال: تبين لي أنه ضعيف وقد كنت حسَّنته علىٰ عجل، وهذا يدل علىٰ أن الإنسان قد يخطئ وليس معصوماً من الخطأ، لكن الشيخ رحمه الله ليس من المكابرين، وهكذا المسلم لو قال قولاً ثم رأىٰ أنه قد أخطأ فيه وجب أن يرجع إلىٰ الحق، فالشيخ رحمه الله يقول قد حسنته في المشكاة، ثم تبين لي أنني قد أخطأت وأن الصحيح أنه لا يصح، وهذا غاية الكمال في الإنسان أن يعترف بالخطأ إذا وقع في كتابه، فهذا الحديث لم يصح مرفوعاً، وإنما الذي صح أو كان قريباً من الصحة هو قول عائشة رضي الله عنها.

قول عمر رضي الله عنه: (إني لا أحمل هم الإجابة ولكن هم الدعاء)(١) أي: لا أحمل يعني لا أهتم بعدم إجابة الله لي؛ لأنني إذا وفقني الله للدعاء عرفت أن الله سبحانه وتعالى سيجيبني، لكن كم من إنسان يغفل عن الدعاء ويغفل عن الذكر، وعن التسبيح وعن تعظيم الله، فلو وفق الله الإنسان لذكره لكان ذاك سبباً لكتابة الأجر، ولكن إذا ما وفق في الذكر ولا في الدعاء فإنه يكون دليلاً على أن الله قد تركه، وما وفقه لذلك الخير.



(١) لم أجد هذا الأثر في دواوين السنة، وأورده شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٨/ ١٩٣) وغيره من الكتب.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أفضل العبادة الدعاء، وقرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠] رواه ابن المنذر، والحاكم وصححه.

وقال مطرف: تذكرت ما جماع الخير، فإذا الخير كثير الصلاة والصيام وإذا هو في يد الله تعالىٰ، وإذا أنت لا تقدر علىٰ ما في يد الله إلا أن تسأله فيعطيك، رواه أحمد، والأحاديث والآثار في ذلك لا يحيط بها إلا الله تعالىٰ.



الشَّرح

قول ابن عباس: (أفضل العبادة الدعاء)(١)، هذا القول قد حسن العلماء أسانيده إلىٰ ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، ومعنىٰ الأثر: أن الدعاء يأتي في قمة العبادات؛ لأن الدعاء فيه اعتراف بحاجتك إلىٰ الله، وانكسار بين يدي الله عَزَّ وَجَلَّ، وهذا هو غاية العبودية، فإن الإنسان إذا اعترف بحاجته وأنزلها بخالقه فإن هذا يدل علىٰ اعترافه بضعفه وعجزه، وكذلك يدل علىٰ توحيده وإخلاصه، فهو لم ينزل حاجته بغير الله، فإذا دعا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإن ذلك أفضل العبادة، فالدعاء كما قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: هو أفضل العبادة.

قول مطرف: (تذكرت ما جماع الخير ..) أي: يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الخير كثير: الصلاة والصيام والحج، لكن من الذي يعمل الخير؟ من وفقه الله، فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنني تذكرت أن هذا كله في يد الله، فإذا لم يعطك الله ما تستطيع أن تفعل،

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر، برقم: (١٨٥٦)، (١/ ٦٧٢).

ولهذا يعلمنا الله أن نقول في الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥]، فإذا لم يعنك الله على عبادته من يعينك؟ فالكون كله بيد الله، والخير كله بيد الله، ويذكر حوار وقع بين غيلان الدمشقي وعمر بن عبد العزيز رحمه الله، فإن الدمشقي هذا كان ينكر القدر، وينكر أن الله يعين الناس أو يساعدهم، يقول: الإنسان بنفسه هو الذي يفعل، فاستدعاه عمر بن عبد العزيز رحمه الله، وقال: يا غيلان تقرأ الفاتحة؟ قال: نعم، قال اقرأ، فقرأ الفاتحة حتى وصل إلى قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ قال: قف، أنت استعنت بالله على أمر في يده أو في يدك؟ قال: في يده، قال: والله لو قلت غير هذا لضربت الذي فيه عيناك. يعني قطعت رأسك؛ لأنك تكفر، أنت تقول يا رب، الله يعلمك أن تقول أعني، ثم تقول: إن الله لا يقدر ولا يعين، قال: تبت يا أمير المؤمنين، فقال: اللهم إن كان صادقاً فتب عليه، وإن كان كاذباً فأذقه حرّ السلاح، وقد كذب عليه، ثم بعد أن مات عمر بن عبد العزيز رحمه الله رجع إلى القدر، فيسّر الله من قتله،وطبّق فيه دعاء عمر بن عبد العزيز، فالشاهد أن الخير كله بيد الله، وأنت تقول ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة:٥، ٦] فأنت تسأل الله حاجاتك كلّها من أمور الدنيا وأمور الآخرة، فيقول المصنف رحمه الله: إن الخير كله بيد الله، فأنت إن وُفّقت للدعاء وسألت الله حاجاتك فقد وفّقت للخير كله.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فثبت بهذا أن الدعاء عبادة من أجلّ العبادات بل هو أكرمها على الله كما تقدم، فإن لم يكن الإشراك فيه شركًا فليس في الأرض شرك، وإن كان في الأرض شرك فالشرك في الدعاء أولى أن يكون شركًا من الإشراك في غيره من أنواع العبادة، بل الإشراك في الدعاء هو أكبر شرك المشركين الذين بُعث إليهم رسول الله ﷺ، فإنهم يدعون الأنبياء والصالحين والملائكة، ويتقربون إليهم ليشفعوا لهم عند الله، ولهذا يخلصون في الشدائد لله وينسون ما يشركون حتى جاء أنهم إذا جاءتهم الشدائد في البحر يلقون أصنامهم في البحر ويقولون: يا الله يا الله لعلمهم أن آلهتهم لا تكشف الضر ولا تجيب المضطر، وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل:٦٢] فهم كانوا يعلمون أن ذلك لله وحده، وأن آلهتهم ليس عندها شيء من ذلك، ولهذا احتج سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليهم بذلك أنه هو الإله الحق وعلى بطلان إلهية ما سواه.

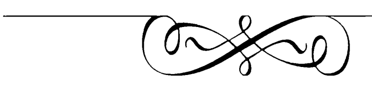
الشرح

قوله: (فالشرك في الدعاء أولى أن يكون شركًا من الإشراك في غيره من أنواع العبادة) هذا هو موضوع الدعاء، أنه لا يجوز للمسلم أن يدعو غير الله، والدعاء يأتي في القرآن بمعنى السؤال، وهو دعاء المسألة ويأتي بمعنى دعاء العبادة، وهذه كلها حق لله عَزَّ وَجَلَّ، فلا يجوز لك أن تسأل غير الله، ولا أن تدعو غيره، هذا ملخص الكلام، ثم يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: إذا لم يكن في الدعاء شرك - يعني أن من دعا غير الله لا يكون مشركًا - فليس في الأرض شرك، هذا من باب تقرير

المسألة، يقول إن لم يكن في الدعاء شرك حتىٰ يجوز للإنسان أن يدعو غير الله ولا يكون مشركـًا فليس في الأرض شرك بل كله توحيد، وهذا لأن الدعاء من العبادة، والعبادة حق الله، ومعنىٰ قولك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ يقرر المسألتين أي لا نعبد إلاّ الله، ولا نستعين إلاّ بالله، فهذا هو محور الكلام في المسألة.

قوله تعالىٰ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ...﴾ هذه الآية أوردها الشارح ﷺ تصور حال المشركين في الماضي، فهم يعترفون بجانب وينكرون جانبـًا، فهم يعلمون أن الإنسان إذا دعا الله مضطراً أنه يجيبه، لكن ما بالهم يصرفون حقه لغيره فالله يقول: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل:٦٢]، هذا هو توحيد الربوبية، يعترفون أن الله ﷻ هو الذي يجيب المضطر، ويكشف السوء، وهو الذي يحيي ويميت ويجعل الناس خلائف جيلاً بعد جيل، فهذا معترف به، ثم يقول: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ إذا كنتم تعترفون أن هذا هو فعل الله ولا يشارك الله فيه أحد، فكيف تجعلون معه إلهـًا تدعونه من دون الله؟ وتستغيثون به من دون الله، وتلجأون إليه من دون الله؟ ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ قلنا إله بمعنىٰ: معبود مطاع لـه يُذل، وله يُخضع، ويطاع في أمره، فالذي خلقكم وأوجدكم، ويكشف عنكم البلاء، ويجيب دعواتكم، كيف تتخذون معه آلهة أخرىٰ تستغيثون بها، وتخضعون لها، وتذلون لها؟ فهذا كما يقول العلماء: استشهاد عليهم بما يعترفون به، فإن قريشـًا تعرف أن الله ربها وخالقها، وهو الذي يجيب المضطر، ويكشف السوء، وهو الذي يجعل الناس خلائف جيلاً بعد جيل، هذه عقائد الجاهلية وإن كان ليس التصور عندهم صحيحا كاملاً لكن من حيث الأصل يعترفون بهذا، ثم مع ذلك يعبدون غير الله، يدعون غيره، يستغيثون بغيره، وهذا الذي من أجله

جاءت الرسل، ما كانت قريش تعتقد أن مع الله أرباباً تخلق، وأرباباً ترزق، كان الخلاف في العبادة، والخضوع والذل، وفي الدعاء والاستغاثة، وفي الذبح والنذر، فجاءت الأنبياء تقول: هذه حقوق الله الذي خلقكم وأوجدكم وأنتم به تعترفون، لا تصرفوها لغير الله عز وجل، فيقول الشارح رحمه الله: **(فهم كانوا يعلمون أن ذلك لله وحده، وأن آلهتهم ليس عندها شيء من ذلك)** هذا عندهم معروف، ولهذا احتج عليهم سبحانه بذلك، فهذا احتجاج بما يعرفون على ما ينكرون.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٥] **فهذه حال المشركين الأولين، وأما عباد القبور اليوم فلا إله إلا الله كم ذا بينهم وبين المشركين الأولين من التفاوت العظيم في الشرك، فإنهم إذا أصابتهم الشدائد براً وبحراً أخلصوا لآلهتهم وأوثانهم التي يدعونها من دون الله، وأكثرهم قد اتخذ ذكر إلهه وشيخه ديدنه، وهجيراه إن قام وإن قعد وإن عثر، هذا يقول: يا علي، وهذا يقول: يا عبد القادر، وهذا يقول: يا ابن علوان، وهذا يدعو البدوي، وهذا يدعو العيدروس.**

الشَّـرْح

هذا التصوير لحال كثير من بلاد المسلمين، فكل أرض فيها إنسان يُدعىٰ من دون الله، قد يكون صالحاً وقد لا يكون صالحاً كما مر، فعندما يقوم، ويقعد، ويعثر، ويصاب بضيق في نفسه أو ضجر يدعو هذا الميت يا فلان، يا فلان، يا فلان، وهذا حق الله عَزَّ وَجَلَّ، فلا ينبغي له أن يدعو إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لكن وقع في نفسه ورسخ فيها أن هذا ينفع، وأن دعاءه يفيد، وأنه يغيث، وأنه يسمع، وأنه يجيب، وهذا جهل من هذا الإنسان الذي يفعل هذا، العيدروس هذا شخص عاش في اليمن بحضرموت، في القرن العاشر، وتنسب إليه القهوة البن، يقول العلماء: أنه مبتكر للقهوة، يعني أول من عرف هذا، ولعله يُعظم عند كثير من الناس، وله مصنفات في التصور علىٰ الطريقة الشاذلية، أي علىٰ طريقة أبي الحسن الشاذلي.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وبالجملة ففي كل بلد في الغالب أناس يدعونهم، ويسألونهم قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، بل بلغ الأمر إلىٰ أن سألوهم مغفرة الذنوب، وترجيح الميزان، ودخول الجنة، والنجاة من النار، والتثبيت عند الموت والسؤال، وغير ذلك من أنواع المطالب التي لا تطلب إلا من الله، وقد يسألون ذلك من أناس يدَّعون الولاية وينَصِّبُون أنفسهم لهذه الأمور وغيرها من أنواع النفع والضر التي هي من خواص الإلهية، ويلفقون لهم من الأكاذيب في ذلك عجائب، منها: أنهم يدعون أنهم يخلصون من التجأ إليهم ولاذ بحماهم من النار والعذاب فيقول أحدهم: إنه يقف عند النار فلا يدع أحداً ممن يرتجيه ويدعوه يدخلها أو نحو هذا، وقد قال تعالىٰ لسيد المرسلين صلىٰ الله عليه وعليهم أجمعين: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾ [الزمر:١٩] فإذا كان النبي ﷺ لا يقدر علىٰ تخليص أحد من النار فكيف بغيره؟ بل كيف بمن يدعي نفسه أنه هو يفعل ذلك؟ ومنها: أن أكثرهم يلفق حكايات في أن بعض الناس استغاث بفلان فأغاثه، أو دعا الولي الفلاني فأجابه، أو في كربة ففرج عنه، وعند عباد القبور من ذلك شيء كثير من جنس ما عند عباد الأصنام الذين استولت عليهم الشياطين ولعبوا بهم لعب الصبيان بالكرة.



الشَّرح

حاجات الإنسان لها جانبان: جانب يتعلق بأمور الدنيا من العافية والصحة والأولاد ونحو ذلك، وجانب يتعلق بالآخرة، فلم يقتصروا علىٰ أن يدعوا هؤلاء في أمور الدنيا بل حتىٰ في أمور الآخرة، فسألوهم أن يغفروا الذنوب، ودخول الجنة والبعد عن النار، فهم تصوروا أن الكون كله بيد

هؤلاء، وكل إنسان ينسب هذا إلىٰ رئيسه أو شيخه الذي يسير علىٰ طريقته، ويزعم أن هذا الشيخ هو الذي يملك هذا، فسألوهم أمور الدنيا وأمور الآخرة، ولا شك أن هذا ضلال، وسيأتي بيانه.

هنا يشير رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ تزاحم الطوائف وتنافسها، فكل طائفة تزعم أن شيخها فعل كذا وكذا، بل بعضهم يقول: إذا جاء يوم القيامة وقفت عند النار وأسندت ظهري إلىٰ النار ومنعت دخول أتباعي في النار، يعني هكذا يظن العملية عملية صبيانية، يأتي يوم القيامة فيجعل ظهره جهة النار، ويمنع دخول أتباعه إلىٰ النار، ويدخلهم الجنة، بل يذكر في طائفة في الهند زعيمها ولد في القرن الثالث عشر تقريباً أو الثاني عشر، هذا يقول: إنه إذا كان يوم القيامة نصب الله العرش، وجعل علىٰ جانبيه كرسيين أحدهما لخازن الجنة والثاني لخازن النار، فيقول خازن الجنة: يا محمد إن ربك قد أعطاني مفاتيح الجنة، وهذه مفاتيح الجنة فيأخذها محمد، فيدفعها إلىٰ أبي بكر وعمر، فلا يدخل الجنة إلا من رضي عنه أبو بكر وعمر، ثم يقول الثاني: يا محمد هذه مفاتيح النار، أعطانيها ربي لأعطيكها، فيعطيها محمداً، فيعطيها محمد لأبي بكر وعمر، فلا يسمح لدخول النار أحداً يحب أبا بكر وعمر، هذا جعل الولاية في الصديق وفي الفاروق، لكن يقول التيجاني: كل من كان من أتباعه يدخل الجنة يوم القيامة، ويذكرون نموذجاً: مات رجل فاجر فاسق، فدخل الجنة بسبب أنه زنىٰ بامرأةٍ تيجانية، يعني مس جسمه جسم امرأة من أتباعه ولو كان علىٰ الفاحشة، ومن يقرأ كتبهم يرىٰ أموراً عجيبة.

ولا شك أن هذا يدل علىٰ أن وراء هذه الأشياء أعداء الإسلام اندسوا بين المسلمين لدعوة الناس إلىٰ الشرك، وإخراجهم من دين الله، وإلا فهذا إنسان مسلم يراقب الله عَزَّ وَجَلَّ، وهؤلاء يزعمون أنه من استغاث بهم، أو دعاهم، أو كان

من أتباعهم فإنه يدخل الجنة، وهناك عدة مصنفات في هذا الباب نذكر نماذج منها تزعم أنه يُستغاث بالأنبياء، وبالأولياء: فهذا كتاب اسمه (مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام في اليقظة والمنام) لابن النعمان المراكشي، مالكي المذهب توفي عام ستمائة وثلاثة وثمانين للهجرة، ويُذكر أن هذا الرجل حج إلىٰ قبر النبي ﷺ ولم يحج إلىٰ البيت الحرام، جاء من مراكش إلىٰ المدينة حاجاً ثم رجع إلىٰ المغرب ولم يأت إلىٰ بيت الله الحرام، ويزعم في هذا الكتاب: إن كثيراً من أئمة الإسلام - ولا يدري من هم هؤلاء الأئمة - قد صنفوا في الاستغاثة بالله وحده - لا شك أن هذا التصنيف لأئمة الإسلام - فأردت أن أؤلف في الاستغاثة برسول الله ﷺ والالتجاء إليه، وصنفت (مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام)، والكتاب الثاني: (شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق) للنبهاني المتوفىٰ عام ألف وثلاثمائة وخمسين هجرية، والكتاب الثالث: (تحريض الأغبياء علىٰ الاستغاثة بالأنبياء والأولياء) للميرغيني الحنفي المتوفىٰ عام ألف ومائتين وسبعة هجرية، والكتاب الرابع: (نفحات القرب والاتصال بإثبات التصرف للأولياء بعد الانتقال) يعني بعد أن يموت يُعطىٰ قوة يتصرف بها في الكون، لشهاب الدين أبي العباس الحموي الحنفي المتوفىٰ عام ألف وثمانية وتسعين هجرية، هذه نماذج من هذه الكتب.

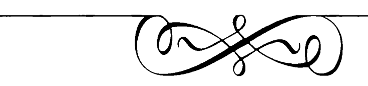
ونذكر نماذج في أنهم كيف يُؤَلَّفُ في مناقب أوليائهم والتعريف بهم، كيف يُؤلف ويُذكر فيها قصص كاذب علىٰ الاستغاثة، وكيف أنهم ينفعون من استغاث بهم؟، أورد أحمد رضا خان الأفغاني الملقب بعبد المصطفىٰ إمام البريلوية، كان اسمه محمد فتسمىٰ بعبد المصطفىٰ، يعني يريد أن يكون عبداً لنبينا عليه الصلاة والسلام، والعبودية حق الله عز وجل لا يجوز أن يُعبد الإنسان للمخلوق، فإن العباد والعبادة حق الله عز وجل، لكن يريد أن يبالغ في شركه، يقول: إن سيد

الطائفة الجنيد البغدادي جاء إلىٰ نهر دجلة ليعبره فقال: يا الله، ومشىٰ عليه كما يمشي علىٰ الأرض، فرآه شخص فأراد أن يعبره، فلم يجد سفينةً، فقال لجنيد: إني أريد أن أعبر هذا النهر فكيف السبيل؟ فقال جنيد: قل يا جنيد، يا جنيد، مردداً لهذا النداء فتعبره، فقال الرجل: يا جنيد، يا جنيد مردداً لـه، ومكرراً لـه كالورد والذكر ومشىٰ علىٰ النهر كما يمشي علىٰ الأرض، فلما وصل إلىٰ وسط النهر وسوس إليه الشيطان، وقال لـه: إن جنيداً كان يقول يا الله، يا الله، ويقول لك: يا جنيد، يا جنيد، فلما لا تقول أيضـًا يا الله، يا الله، ـ هذا من الشيطان وسوس، ليس هو تفكير رباني أو تفكير خير ـ فجعل الرجل يقول: يا الله، يا الله فغرق في الماء، فصرخ ونادىٰ الجنيد وقال: أيها الحضرة قد غرقت، فقال لـه جنيد: قل يا جنيد، يا جنيد مكرراً مراراً، فجعل الرجل يقول: يا جنيد، يا جنيد مراراً وتكراراً فنجىٰ من الغرق، وعبر النهر، ثم قال الرجل لجنيد: أيها الحضرة، ما السر في أنك تقول يا الله فتعبر النهر ولما قلت يا الله غرقت؟ فقال لـه جنيد: أيها الأحمق إنك لـم تصل بعد إلىٰ منزلة الجنيد، وتطمع في الوصول إلىٰ الله مباشرةً؟!! يعني أنت لا زلت أسفل يعني في الشرك درجات، العبادة درجات، فأنت تدعو من هو أعلىٰ منك، فقال: أنا أعلىٰ منك، ما تدعو الله مباشرةً، أنت ليس بينك وبين الله علاقة، والله يقول ﷻ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]، هذا الكلام لا شك أنه كذب يُذكر في تراجم الذين يزعمون أنهم أولياء أو صالحون، الجنيد رحمه الله لا شك أنه خير من كثير من يُذكر في تراجم الصوفية، لكن يُنسب هذا إليه، ولا يُعرف عن الجنيد رحمه الله إلا كلام جميل في التصوف، وهو كلام فيه رقة وروحانية، لكن ليس فيه هذه الشركيات وهذه الطوام.

قال النبهاني: إن سيدي محمد الحنفي قدس الله سره فرش سجادةً على البحر وقال لمريده: قل يا حنفي يا حنفي وامش ـ نفس الصورة السابقة ـ فمشى المريد خلفه، فخطر له لما ذا تقول يا حنفي هلا قلت يا الله!، فلما قال يا الله غرق فأمسك الشيخ الحنفي بيده وقال له: أنت الحنفي لا تعرفه، فكيف بالله؟ فإذا عرفت الله فقل يا الله، يعني أنت لا تعرف الحنفي معرفة جيدة أي شيخه، فكيف تعرف الله وتحب أن تسأل الله مباشرةً؟!!

قال الألوسي رحمه الله المفسر في كتابه (روح المعاني): إن بعض المتمشيخين قال لي وأنا صغير: إيَّاك ثم إيَّاك أن تستغيث بالله، إذا خطبٌ دهاك فإن الله تعالى لا يُعجل في إعانتك وإغاثتك، ولا يهمه سوء حالتك، وعليك بالاستغاثة بالأولياء السالفين فإنهم يُعجلون في تفريج كربك، ويهمهم سوء ما حل بك، قال رحمه الله: فمج ذلك سمعي وهمي ودمعي، وسألت الله أن يعصمني والمسلمين من أمثال هذا الضلال المبين. هذا يربيه من الصغر، يقول لا تسأل الله مباشرةً، الله عز وجل لا يهمه، أي لا يفكر فيك أصلاً، لكن يفكر فيك ويهتم بك الأولياء، ادعوا الأولياء، وهذا ـ نعوذ بالله ـ تربية على الضلال من الصغر، وهناك عشرات النماذج من هذا الكلام، وهذا كلام قليل، وليس فيه شيء من المبالغة أو الغلو، بل هناك كلام آخر أقبح وأفحش، والذي يقرأ الكلام يقع في ذهنه أن الذي كتب هذه الكتب وهذه التراجم زنديقٌ لا يؤمن بالله واليوم الآخر، فإنهم جعلوا الفواحش مباحات، وجعلوا الفواحش أسباباً لدخول الجنة، وجعلوا الفواحش مما يُتقرب به إلى الله، وجعلوا فواحش الطائفة خيراً من عبادة غيرها من الطوائف، وزعموا أن الجنة والنار بيد زعيمها لا يدخل إلا من شاء ويخرج إلا من شاء، بل بعضهم يقول: حتى لو رأيت الشيخ الذي

يتبعونـه يفعـل الفاحشـة فـلا تصـدق عينـك فـإن هـذا خيـال؛ لأنهـم يسـتبيحون المحرمـات، يسـتبيحون الفـواحش، ولا يتزوجـون فيلجـؤون إلـىٰ الفـواحش إلجـاءً أو اضـطراراً؛ لأنهـم يتركـون الحـلال ويبحثـون عـن الحـرام كرهبـان النصـارىٰ وقساوسـتهم يتركـون الحـلال ولا يتزوجـون ثـم يلجـؤون إلـىٰ الفواحش والزنا حتىٰ إن الكنائس مملوءة بجثث النسـاء المقتـولات؛ لأنهـم إذا فعلوا الفاحشة في المرأة فتحمل، يلجأ إلىٰ أن يحتال عليها حتىٰ يقتلها حتـىٰ لا يكشف أمره، ويترك الحلال، هكذا خلق الله الإنسان محتاجـًا، ولديـه فطـرة، لديه غريزة لا بـد أن يُشبعها إمَّا بـالحلال وإمَّا بـالحرام، فالـذي يغـالط الفطـرة ويتنكـر للغريـزة لا بـد أن يقـع في الفـواحش، ولهـذا نـرىٰ زعمـاء الصـوفية أكثـر قصائدهم غزل، وعشق، وغرام، وفي الظاهر غزل في ذات الله ﷻ، وفي الحقيقة غزل نسوي، لكنهم ابتلوا ـ نعوذ بالله ـ بهذه الطرق الضالة.



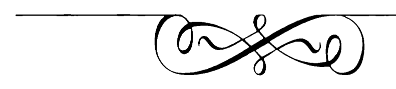
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ويوجد شيء من ذلك في أشعار المادحين لسيد المرسلين ﷺ الذين جاوزوا الحد في مدحه ﷺ، وعصوه في نهيه من الغلو فيه وإطرائه كما أطرت النصارىٰ ابن مريم، وصار حظهم منه ﷺ هو مدحه بالأشعار والقصائد، والغلو الزائد مع عصيانهم له في أمره ونهيه، فتجد هذا النوع من أعصىٰ الخلق له صلوات الله عليه وسلامه، ويقع من ذلك كثير في مدح غيره، فإن عباد القبور لا يقتصرون علىٰ بعض من يعتقدون فيه الضر والنفع بل كل من ظنوا فيه ذلك بالغوا في مدحه وأنزلوه منزلة الربوبية، وصرفوا له خالص العبودية حتىٰ إنهم إذا جاءهم رجل وادعىٰ أنه رأىٰ رؤيا مضمونها: أنه دفن في المحل الفلاني رجل صالح بادروا إلىٰ المحل وبنوا عليه قبة وزخرفوها بأنواع الزخارف، وعبدوها بأنواع من العبادات.


الشرح

قبل عدة سنوات نُشر أن قريتين من قرىٰ بعض بلاد المسلمين اختلفتا علىٰ وجود قبر في مكان، قرية تقول: أن وليـاً دفن في في هذا المكان ، وقرية تقول: ليس في هذا المكان قبر، فكاد أن يحدث بينهما قتال، فتدخلت الجهات الأمنية في تلك البلاد وقالوا: نحفر؛ لأن هؤلاء أنكروا أن يكون في هذا قبر، وهؤلاء قالوا أن ههنا قبر إنسان صالح، وقد رآه في المنام أكثر من شخص، وأرادوا أن يجعلوا عليه قبة تزار، وضريحاً، فجاؤوا وقالوا: نحفر، فحفروا فوجدوا في هذا القبر رأس حمار، وهذه قضية نشرت حيةً مكتوبةً، فانظروا إلىٰ هؤلاء الجهلة الشيطان يستهويهم، ويزخرف لهم، فكل من زعم أنه رأىٰ رؤيا في هذا المكان أن فيه إنساناً صالحاً فإنهم يأتون إليه ويبنون عليه قبةً، ويُزار،

ويُدعىٰ من دون الله، ويُريق الناس علىٰ أبوابه بحاجاتهم ومطالبهم، هـذا لأنهـم وقع في أذهانهم أن دعـاء الصـالحين، أو الأوليـاء ينفـع، كمـا يقولـون إن الـدعاء عند قبر فلان الترياق المجرب، يعني أنك تذهب للمكان الذي فيه قـبر لصـالح فعنده تُستجاب الدعوات، وهذا من أغرب كلام هؤلاء.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما القبور المعروفة أو المتوهمة فأفعالهم معها وعندها لا يمكن حصره، فكثير منهم إذا رأوا القباب التي يقصدونها كشفوا الرؤوس، فنزلوا عن الأكوار فإذا أتوها طافوا بها واستلموا أركانها، وتمسحوا بها، وصلوا عندها ركعتين، وحلقوا عندها الرؤوس، ووقفوا باكين متذللين، متضرعين سائلين مطالبهم، وهذا هو الحج.



الشَّرح

نعم هنا القبور مشهورة ولها مواسم، وأتباع كل قبر يذهبون في الموسم، وينيخون حول القبر مثل الحج، وعند ذلك القبر يذبحون النذور، ويقدمون الهدايا، ويقدمون التبرعات لهذا القبر، وكل إنسان يقدم هذه الهدايا أو هذه النذور لغرض قضاء حاجة من حاجاته، أو ليُبَارك في ماشيته، بل بعضهم ليس عنده إلا بقرة واحدة يذهب بها فيذبحها عند هذا القبر، ظناً منه أن هذه قربة، وأن هذا يُرضي الله ﷻ، وكل قبر مشهور له موسم يذهب الناس إليه، بل بعضها مواسمها طوال العام، والذين حضروا القبر يحرصون علىٰ أن ينشروا عن هذا القبر الدعايات، أن هذا القبر جاء إليه إنسان صاحب حاجة كذا فقضيت، وجاءت امرأة لا تحمل فحملت، وجاءه شخص ابنه غائب فحضر وهكذا، فالناس مساكين عندهم شيء من البساطة، أو شيء من الغفلة،وعامة الناس أتباع كل ناعق، فهذه نماذج من الذين يذهبون إلىٰ هذه القبور، فإنهم يأتون إليها كالحج إلىٰ بيت الله الحرام.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وكثير منهم يسجدون لها إذا رأوها، ويعفرون وجوههم في التراب تعظيماً لها، وخضوعاً لمن فيها، فإن كان للإنسان منهم حاجة من شفاء مريض، أو غير ذلك، نادىٰ صاحب القبر: يا سيدي فلان جئتك قاصداً من مكان بعيد لاتخيبني، وكذلك إذا قحط المطر، أو عقرت المرأة عن الولد، أو داهمهم عدو أو جراد، فزعوا إلىٰ صاحب القبر وبكوا عنده، فإن جرىٰ المقدور بحصول شيء مما يريدون استبشروا وفرحوا ونسبوا ذلك إلىٰ صاحب القبر، فإن لم يتيسر شيء من ذلك اعتذروا عن صاحب القبر بأنه إمَّا غائب في مكان آخر، أو ساخط لبعض أعمالهم، أو أن اعتقادهم في الولي ضعيف، أو أنهم لم يعطوه نذره ونحو هذه الخرافات.

الشَّرْح

مثلاً: طلبوا المطر، أو شفاء مريض فشفي المريض نسبوه إليه، وإن لم يُجب طلبهم اعتذروا إنه إمَّا كان غائباً، أو أنهم لم يُعطوه حقه من النذور، أو أنه ساخط عليهم ليس راضياً عنهم، ونحو هذا الكلام، معتقدين أنه فعلاً يسمع ويجيب، فإن تأخرت الإجابة اعتذروا له بأنواع الأعذار، هذا الكلام ذكره ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب (إغاثة اللهفان) وإن لم يشر الشارح إليه، وذكر أطول من هذا، فإنه تكلم في هذا الكتاب عن أعمال الشيطان، ومصائد الشيطان للإنسان سواء كان في القبور، أو مع الفرق أخرىٰ كاليهودية، والنصرانية، والمجوسية، فقد تحدث عن عدة طوائف وكيف أن الشيطان استهواهم، وخدعهم، ودعاهم إلىٰ عبادة غير الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومن بعض أشعار المادحين لسيد المرسلين ﷺ قول البوصيري:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم

ولن يضيق رسول الله جاهك بي ... إذا الكريم تجلىٰ باسم منتقم

فإن لي ذمة منه بتسميتي ... محمداً وهو أوفىٰ الخلق بالذمم

إن لم يكن في معادي آخذاً بيدي ... فضلاً وإلا فقل يا زلة القدم

الشَّرْح

هذه أبيات شعرية من قصيدة مشهورة تُسمىٰ: (قصيدة البردة) ومؤلفها محمد بن سعيد البوصيري، توفي عام ستمائة وستة وتسعين هجرية أي في أواخر القرن السابع، وهو مصريٌّ أصله من المغرب، وأمه من مصر من أبو صير مدينة في مصر، هذه القصيدة في الحقيقة من يقرأ في أولها يرىٰ فيها أبياتًا جميلة، وتوجيهات حسنة، ومدحًا لرسول الله ﷺ جميلاً، لكنه دنسها في آخرها، مثل إنسان أتي بصفيحة من العسل، من أجود أنواع العسل ثم وضع فيها قذراً أو شيئًا من النجاسات، فلو وضع فيها درهمًا أو نسبةً ضئيلة من القذر أصبحت كلها قذرة، ولهذا ورد في الحديث القدسي: (أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً ـ ولو أمثال الجبال ـ أشرك معي فيه غيري تركته وشركه)[1] فهذه القصيدة في أولها بعض الأبيات الجميلة التي يقول فيها عن نفسه:

---

(١) سبق تخريجه.

فـإن أمَّـارتي بالسـوء مـا اتعـظت   مـن جهلهـا بنـذير الشـيب والهـرم
ولا أعـدت مـن الفعـل الجميـل قِـرىٰ   ضـيفٍ أَلَّـمَ برأسـي غيـر محتشـم
لـو كـنت أعـلم أني مـا أوقـره   كتمـت سـراً بـدا لـي منه بـالكتم

يعني يقول: أن شعر الرأس قد بدا فيه بياض، وهذا البياض ينبغي لي أن أوقره، وأن أحترمه، لكن نفسي لم تحترم هذا الشيء، ولو كنت أعلم أن هذه النفس لن توقره كنت كتمته أي: غطيته، أو غطيت هذا الشعر الأبيض بالكتم حتىٰ لا يُرىٰ؛ لأن وجود الشعر الأبيض دلالة علىٰ الوقار، ونذير لقرب الإنسان من أجله، وهو بعض الأقوال في قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر:٣٧] بعض العلماء يرىٰ أن النذير هنا هو: الشيب، فإن وجود ظهور الشيب في الإنسان دليل علىٰ أنه قد استكمل أكثر عمره، وأنه اقترب من الآخرة، وإن كان في العصر الحاضر الشيب يظهر في كثير من الشباب قبل أوانه، لكن هذا هو الأصل؛ لأن الشعرة في أصلها البصيلة التي تلون الشعر، فتستنفد عمرها فتخرب فتطلع الشعرة بيضاء؛ لأن الشعرة أصلها أبيض، وإنما هذا التلوين جعل الله في قعر كل شعرة مصنعاً يلون الشعر، فإذا الإنسان عاش حياةً طويلة فإن هذه البصيلات التي في قعر كل شعرة تفسد بالتدرج واحدةً بعد أخرىٰ حتىٰ لا يبقىٰ في الإنسان شعر أسود، وهذا دليل علىٰ أن الإنسان قد استنفد أكثر عمره، ويقول:

والـنفس كالطفـل إن تهملـه شـب علـىٰ   حـب الرضـاع وإن تفطمـه يـنفطم

وهذا كذلك تمثيل جميل، ويقول:

وخـالف الـنفس والشـيطان واعصـهما   وإن همـا محضـاك النصـح فـاتهم

يعنـي إيـاك أن تسـمع لنصـيحة الشـيطان، الشـيطان لا ينصـحك بـالخير،

وكذلك النفس احذر وساوسها فإنها تحب الشهوات المحرمة، وتميل إلىٰ المحرمات، ثم يمدح نبينا ببيتين جميلين، فيقول فيهما:

أكرم بخَلق نبيٍ زانه خُلقُ   بالحسن مشتملٍ بالبشر متسم
كالزهر في طرف والبدر في شرف   والبحر في كرم والدهر في همم

تصوير جميل لنبينا عليه الصلاة والسلام، لو بقي عند هذا لكانت القصيدة من أجمل القصائد، لكن ما رضي حتىٰ وقع في هذه المهالك، ثم ننتقل إلىٰ هذه القضايا التي يقول فيها:

وكيف تدعو إلىٰ الدنيا ضرورة مَن   لولاه لم تخرج الدنيا من العدم

الكون كله لولا الرسول ما خرج ـ نعوذ بالله ـ، فهذا ضلال وكفر، وشرك، لا يليق لمسلم أن يقول هذا الكلام. ثم يقول:

وكلهم من رسول الله ملتمس   غرفًا من البحر أو رشفًا من الديم

وهذا معرض سياق الأنبياء، يقول: الأنبياء كلّهم أخذوا من النبي ﷺ الذي جاء آخرهم، لكن جميع نبواتهم معجزاتهم وأخلاقهم وعلومهم من رسول الله ﷺ،

وكل آي أتىٰ الرسل الكرام بها   فإنما اتصلت من نوره بهم

يعني هو الذي أعطاهم هذه المعجزات، ثم يقول:

أقسمت بالقمر المنشقّ إنّ له   من قلبه نسبة مبرورة القسم

يقسم بالقمر! ما ندري لماذا يقسم بالقمر، ويترك الخالق جل جلاله، ثم يقول:

فإن لي ذمة منه بتسميتي   محمداً وهو أوفىٰ الخلق بالذمم

اسمه محمد البوصيري، يقول: اسمي محمد باسمه، فلا بد يوم القيامة أن

يمنعني من العذاب.

إن لم يكن في معادي آخذاً بيدي فضلاً وإلاّ فقل يا زلة القدم

يعني النبي ﷺ مشغول بالبوصيري، كأنه خادم له يسحبه إلىٰ الجنة، يعني يترك أمته بكاملها وآل بيته وأصحابه، ويشغل بالبوصيري يمسك بيده، كما يقول بعض الناس: اللهم إنا نسألك شربة بيده الشريفة لا نظمأ بعدها أبداً، يعني يجعل النبي ﷺ خادمًا له يوم القيامة، يعطيه شربة بيده، من قال إن الرسول ﷺ يعطي الناس الشربة بيده؟!! الرسول لا يسقي الناس بيده، الكوثر النهر في يوم القيامة مفتوح أبوابه ولا يأتيها إلا المسلمون، هم يشربون بأيديهم ليس أن الرسول يسقي الناس بيده ﷺ، يرجع الرسول خادمًا لأمته، هذا كلام عجيب، فيقول:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

ما لي سواك يعني حتىٰ الله، ما له سوىٰ الرسول ﷺ إذا جاءه الحادث العمم الذي هو: الموت أو المصيبة الكبرىٰ.

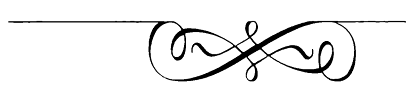
ولن يضيق رسول الله جاهك بي إذا الكريم تجلىٰ باسم منتقم

يعني لا يطمع في رحمة الله يوم القيامة؛ لأن الله يوم القيامة يظهر للناس في صفة الانتقام، فهو يقول: يوم القيامة لا أطمع في رحمة الله؛ لأن الله يوم القيامة يظهر للناس في صورة الانتقام، وإنما أطمع في رحمتك يا محمد، ثم يقول:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

فهذا جعل النبي ﷺ هو الذي جاء بالدنيا والآخرة، وأن علمه هو علم الله الذي هو في اللوح المحفوظ، فإن الله كتب ما كان وما سيكون إلىٰ قيام الساعة في اللوح المحفوظ، فهذا هو علم نبينا ﷺ عند البوصيري، لا شك أن الرسول

ﷺ له مكانته عند الله، وعند الله له شرفٌ عظيم، لكن هذا مبالغة، وجرأة على حق الله ﷻ، ورفع رسول الله ﷺ فوق منزلته، والرسول ﷺ كان كثيراً ما يقول: **(لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، إنما أنا عبد الله ورسوله)**[1] عبد الله ورسوله، عبدٌ لله فلا ينبغي أن ترفعه فوق العبودية، أشرف وصف لرسول الله ﷺ أن يُقال فيه عبدٌ لله، لكن هؤلاء يظنون أنه إذا قيل عبدٌ لله أن هذا تنقيصٌ له ﷺ، هو يفخر بهذا، ويشرُف بأن يكون عبداً لله، والله ﷻ وصفه بالعبودية في أشرف المقامات في الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء:١] مع أنه نبي، لكن النبوة من فعل الله، أما العبودية من فعل النبي ﷺ، والله يذكر أن فعله ﷺ رفعه، فإنه قد حقق العبودية، فإن العبودية وصف شرف، وتشريف في الإنسان، فهذه نماذج من هذه القصيدة التي أفسدت كثيراً من الناس، حتى أصبح يدعو غير الله، ويستغيث بنبي الله ﷺ ويعتقد أنه يسمعه ويغيثه ويجيبه، وهذا -نعوذ بالله- ضلال من أكبر الضلال.



(١) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فتأمل ما في هذه الأبيات من الشرك منها: أنه نفىٰ أن يكون له ملاذ إذا حلت به الحوادث إلا النبي ﷺ، وليس ذلك إلا لله وحده لا شريك له، فهو الذي ليس للعباد ملاذ إلا هو.

الثاني: أنه دعاه وناداه بالتضرع، وإظهار الفاقة، والاضطرار إليه، وسأل منه هذه المطالب التي لا تطلب إلا من الله، وذلك هو الشرك في الإلهية.

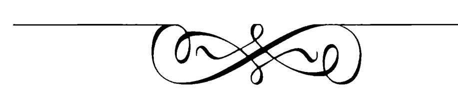


الشَّرْح

فمن الشرك في هذه القصيدة:

أولاً: أنه أخطأ في أول بيت، فقد زعم أنه ليس له ملاذ سوىٰ النبي ﷺ، وهذا نفي يشمل الله ويشمل غيره، فهو زعم أنه ليس له غير النبي ﷺ ملاذ.

ثانيًا: التذلل والتضرع هذه أفعال لا يجوز أن تُصرف إلا لله، فالذل هذا من معاني العبودية، والخضوع من معاني العبودية، والتضرع من معاني العبودية لا تصرف للمخلوق بل تُصرف للخالق، فلا ينبغي للقلب أن يخضع، أو يذل، أو يسأل، أو يعتقد النفع والضر إلا بيد الله عَزَّ وَجَلَّ، فإذا اعتقد غير هذا يكون قد وقع في الشرك مع الله، الشرك الذي لا يغفره الله عَزَّ وَجَلَّ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الثالث: سؤاله منه أن يشفع له في قوله: ولن يضيق رسول الله .. وهذا هو الذي أراده المشركون ممن عبدوه وهو: الجاه والشفاعة عند الله وذلك هو الشرك، وأيضًا فإن الشفاعة لا تكون إلا بعد إذن الله، فلا معنىٰ لطلبها من غيره، فإن الله تعالىٰ هو الذي يأذن للشافع أن يشفع، لأن الشافع يشفع ابتداء[١].



الشَّرْح

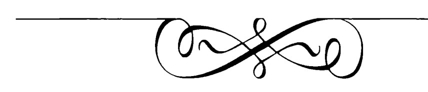
الله ﷻ يوم القيامة يتجلىٰ بصفة الرحمة حتىٰ إن إبليس يوم القيامة يطمع في رحمة الله ﷻ، وقد جاء في الحديث: (أن الله ﷻ خلق مائة رحمة، فأنزل رحمةً واحدةً في الأرض يتراحم بها المخلوقات إلىٰ قيام الساعة، حتىٰ إن الدابة لترفع حافرها رحمةً بوليدها)[٢] وما نراه من رحمة الأمهات في بني آدم، وفي الحيوان، وفي الطيور منذ خلق الله الكون إلىٰ قيام الساعة كل ذلك شملتهم رحمة واحدة، وأبقىٰ الله ﷻ عنده تسعًا وتسعين رحمة، يوم القيامة يعيد الله تلك الرحمة إلىٰ التسعة والتسعين فتصبح مائة، فيرحم بها الخلائق يوم القيامة، فمن أخبر البوصيري أن الله يوم القيامة يتجلىٰ باسم منتقم؟ ونحن نقرأ في الأحاديث أن الله يوم القيامة يتجلىٰ بصفة الرحمة ويرحم الخلائق، ولكنه ﷻ في أول يوم القيامة يغضب غضبًا شديداً؛ لأن هذا اليوم فيه عودة المشركين، وعودة الكفار، وعودة المجرمين إلىٰ ساحة القضاء ليقضي الله بين

---

(١) العبارة في النسخ المطبوعة فيها لبس، ولعل صواب العبارة: "لا أن الشافع يشفع ابتداء"(أو) لأن الشافع لا يشفع ابتداء والله أعلم.

(٢) سبق تخريجه.

الخلق، لكن الله ﷻ يشمل الناس برحمته حتى إن إبليس يطمع في رحمته، فهذا القول من أن الله يوم القيامة يتجلى باسم منتقم ليس بصحيح، فإن المنتقم ليس من أسماء الله، إنما جاءت مضافةً ينتقم الله من الظالمين، من الكافرين، من الفاسقين، أمَّا المنتقم فليس من صفات الله سبحانه وتعالى.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الرابع: قوله: فإن لي ذمة إلىٰ آخره.. كذب علىٰ الله وعلىٰ رسوله ﷺ، فليس بينه وبين من اسمه محمد ذمة إلا بالطاعة، لا بمجرد الإشراك في الاسم مع الشرك.

الشَّرح

قوله: (**فليس بينه وبين من اسمه محمد ذمة إلا بالطاعة**) لو كان كل من اسمه محمد لا يدخل النار لكان الناس كلهم تسموا باسم محمد!! فمن أين عرف أن له ذمةً بهذه التسمية؟! فنحن نقرأ كثيراً ممن ادعىٰ النبوة اسمه محمد، هذا محمد علىٰ الشيرازي زعيم البهائية أو البابية ادعىٰ أنه نبي، وهذا أحمد القادياني ادعىٰ أنه نبي، وكثير ممن اسمه محمد كان لهم أعمال كبيرة، وأعمال عظيمة يستحقون بها العقاب، فمن أخبره أن كل من اسمه محمد لا يدخل النار؟! لعل هذا وقع في نفوس كثير من المسلمين اليوم، فإن في بعض البلدان الإسلامية كل الناس اسمهم محمد، فقبل اسمه يضع محمد ثم يأتي بالاسم بعده، زرنا بعض البلاد الإسلامية فقدموا لنا كشفاً كلهم محمد، أكثر من مائة شخص، ثم يأتي الاسم الصحيح بعده فسألناهم: هذا اسم؟ قالوا: لا، هذا للبركة، لا شك أن اسم نبينا مبارك، وأن صفاته مباركة، لكن البركة ليست بهذه الصورة، لو كان كل من اسمه محمد يكون مباركاً ما كفر أحد اسمه محمد، ولا عصىٰ أحد اسمه محمد، ولتسمىٰ كل المسلمين بهذا الاسم، فهذا كلامٌ ليس صحيحاً، لا يُعرف عن طريق النقل، ولا عن طريق العقل.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الخامس: قوله: إن لم يكن في معادي .. تناقض عظيم، وشرك ظاهر، فإنه طلب أولاً أن لا يضيق به جاهه، ثم طلب هنا أن يأخذ بيده فضلاً وإحساناً وإلا فيا هلاكه.

فيقال: كيف طلبت منه أولاً الشفاعة؟ ثم طلبت منه هنا أن يتفضل عليك؟ فإن كنت تقول: إن الشفاعة لا تكون إلا بعد إذن الله، فكيف تدعو النبي ﷺ وترجوه وتسأله الشفاعة؟! فهلا سألتها ممن له الشفاعة جميعاً؟ الذي له ملك السماوات والأرض، الذي لا تكون الشفاعة إلا من بعد إذنه؟ فهذا يبطل عليك طلب الشفاعة من غير الله.

الشرح

في السابق يرغب فقط في الشفاعة كما يزعم أو في الجاه، لكن هنا انتقل درجة أخرىٰ قال: ما يكفيه الشفاعة بل يريد أن يأخذ بيده، يعني يوم القيامة يُشغل النبي ﷺ بالبوصيري، وكأنه لا هم له إلا البوصيري، هذا جهلٌ بمكانة رسول الله ﷺ من الله يوم القيامة.

إن الشفاعة هي: ضم صوت أو طلب أو دعاء إلىٰ دعاء صاحب الحاجة وقد لا تتحقق، فالشفاعة في الإسلام وردت الآيات القرآنية تبينها، وأنها علىٰ أنواع، وأنها علىٰ درجات، وأن لها شروطاً، فالشفاعة يوم القيامة لا تكون إلا إذا أذن الله ﷻ كما قال تعالىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥] حتىٰ نبينا ﷺ لا يشفع ابتداءً بل لا بد أن يستأذن؛ لأن الشفاعة في الدنيا غيرها في الآخرة، ففي الدنيا قد يشفع الإنسان بدون إذن، لكن يوم القيامة لا يشفع نبينا إلا بإذن، كما جاء في الحديث الصحيح الطويل كل الناس يوم القيامة يبحثون عن من يشفع لهم، ثم يذهبون إلىٰ آدم، ثم نوح، ثم إبراهيم، ثم موسىٰ، ثم عيسىٰ، ثم نبينا ﷺ فيقول: أنا لها وذلك هو المقام المحمود هذا

وعد الله به نبيه ﷺ، قال في الحديث: (**فيأتي النبي فيسجد**)، يتذلل لله، يخضع له، يضع رأسه في الأرض أمامه ﷻ، ثم يسبح الله، ويحمده، ويثني عليه كما قال في الحديث: قال: (**فيفتح الله عليَّ من المحامد ما لم أكن أعرفه من قبل**) فبعد ذلك يقال له: (**يا محمد ارفع رأسك، واسأل تعط، واشفع تُشفع**)[1] يعني لا يشفع ابتداءً، بل لا بد أن يستأذن نبينا ﷺ فيمن يشفع يوم القيامة؛ فالشفاعة يوم القيامة لها صورة غير الشفاعة في الدنيا، ثم لا يشفع إلا في الموحدين، إلاَّ من رضي الله فعله وقوله، لا يشفع لكل الناس، لا يشفع للمشركين ولا يشفع في عمه أبي طالب، ولا في أحد من المشركين إلاَّ في التخفيف عنهم من العذاب، أمَّا في الإخراج من النار ما يشفع في المشرك؛ لأن المشرك لا يخرج من النار، وإن أقصىٰ ما يملك النبي ﷺ من عمه أبي طالب أن يُخرجه من النار إلىٰ ضحضاح يكون فيها يعني في النار تغطي قدميه يغلىٰ منها دماغه، هذا هو أقصىٰ ما يملك النبي ﷺ، أما أن يخرج المشرك من النار فإن هذا لا يستطيعه الرسول ﷺ ولا غيره؛ لأن الله أخبر، وخبر الله لا ينسخ ولا يُكذب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء:٤٨] لا يغفر سواءً كان ذلك المشرك قريباً لنبي أو غير قريب، فهذا نوح عليه السلام يوم القيامة يتبرأ من ابنه، كذلك يوم القيامة إبراهيم عليه السلام مع أبيه يسأل الله ألا يخزيه، ويرىٰ الناس أباه في النار، فيقلب الله صورة أبيه إلىٰ صورة حيوان، ولكن لا يخرجه من النار، الشرك أمره عظيم، أما المعاصي الأخرىٰ فربما يشفع فيها نبينا ﷺ كما جاء في الأحاديث أنه يشفع في أهل الكبائر وأهل المعاصي.

---

(١) أخرجه البخاري في مواضع من صحيحه، منها: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالىٰ: (ولقد أرسلنا نوحاً إلىٰ قومه)، برقم: (٣٣٤٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنىٰ أهل الجنة منزلة فيها، برقم: (١٩٣)، (١/ ١٨٠).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وإن قلت: ما أريد إلا جاهه وشفاعته بإذن الله قيل: فكيف سألته أن يتفضل عليك ويأخذ بيدك في يوم الدين؟ فهذا مضاد لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الإنفطار:١٧-١٩] فكيف يجتمع في قلب عبد الإيمان بهذا وهذا؟!.

وإن قلت: سألته أن يأخذ بيدي ويتفضل علي بجاهه وشفاعته، قيل: عاد الأمر إلىٰ طلب الشفاعة من غير الله، وذلك هو محض الشرك.

السادس: في هذه الأبيات من التبري من الخالق تعالىٰ وتقدس، والاعتماد علىٰ المخلوق في حوادث الدنيا والآخرة مالا يخفىٰ علىٰ مؤمن، فأين هذا من قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة:٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [التوبة:١٢٩]، وقوله: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [الفرقان:٥٨].

الشَّرْح

قوله تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار:١٩]، وهذه الآية نص في أنه يوم القيامة لا يملك أحد مع الله شيئًا بل الأمر كله لله، بل نقرأ كل يوم في الفاتحة ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة:٤]، الدنيا والآخرة بيد الله هو مالكها، لكن الله خصص الآخرة التي هي يوم الدين؛ لأن الناس إذا عرفوا أن من يتبعونه لا يملك لهم في الآخرة شيئًا تركوا هذا الاتباع، فالآخرة

ملك الله لا يشاركه فيها أحد، هنا يقول ﷻ: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار:١٩] لا تملك نفس لنفس شيئاً أي نفس لا تملك لا لنفسها ولا لغيرها، بل الملك لله ﷻ، إذاً كيف تسأل من لا يملك؟ اسأل من يملك وهو الله ﷻ، بعض الأتباع يحاول أن يأول كلام هؤلاء بأنهم ما أرادوا الدعاء الصرف الذي هو شرك، إنما أرادوا الشفاعة والاستشفاع، فنحن نسأل الله أن يكون هذا مرادهم؛ لأنه إذا كان مراده غير هذا، ثم صوره بلفظ الشرك، هذا أطم، لكن إذا كان مراده غير الشرك، لكن أخطأ في اللفظ هذا أقل، فأما إذا كان قصده الشرك، أو دعاءه مع الله، وصوره بألفاظ شركية فهذا يكون ـ نعوذ بالله ـ الشرك الذي لا يغفره الله، ومر عن الذين ألَّفوا كتباً في الاستغاثة برسول الله ﷺ بأن هذا مذهب يتبناه كثير من المسلمين، أو كثير ممن ينتسب إلىٰ الإسلام حتىٰ من العلماء.

قوله: (في هذه الأبيات من التبري من الخالق تعالىٰ وتقدس) لا زال الشارح رحمه الله يشرح أبيات البوصيري التي مرت وفي آخرها قوله:

إن لم يكن في معادي آخذاً بيدي   فضلاً وإلا فقل يا زلة القدم

فيقول: إن هذه فيها التبري من الخالق؛ لأنه يقول: رجاؤه في رسول الله ﷺ، فإن لم يكن يوم القيامة يأخذ الرسول ﷺ بيده فضلاً وإلا فقل يا زلة القدم، يعني إن لم ينقذه النبي ﷺ من العذاب وإلا فقد هلك، كأن النبي عليه الصلاة والسلام إنما هو مشغول به يوم القيامة، وليس له أمر آخر، وهذا لا شك أنه أولاً ليس احتراماً لرسول الله ﷺ أن يكون في خدمة أحد أفراد أمته ويترك الشفاعة والدعاء لأمته من الله أن ينقذهم أو يمنعهم من عذابه ﷻ، فهنا يتصور أن الرسول ﷺ يوم القيامة سيقف بجانبه ويأخذ بيده، ويبقىٰ معه يحرسه، وممن

يحرسه؟ من الله، فليس له أمل في رحمة الله إنما أمله في رسول الله ﷺ، يحرس هذا الإنسان من خالقه ﷻ، وهذا نعوذ بالله غاية الجهل والضلال.

ثم يقول رحمه الله: أين هذا من قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة:٥] أي نستعين بالله في الدنيا ونستعين بالله في الآخرة، لا يُستعان بالمخلوق، بل المخلوق محتاج ولو ارتفعت مكانته، ترتفع مكانته بالنسبة أمام البشر، لكن أمام الله الجميع عباده ﷻ، والجميع فقراء إلىٰ الله سبحانه وتعالى، فلا يملك أحد يوم القيامة أن ينقذ أحداً من عذاب الله، ولكن نبينا عليه الصلاة والسلام له مقام محمود الذي يشفع، ولكن لا يملك أن يشفع حتىٰ يستأذن من ربه ﷻ، فإنه جاء في الحديث الصحيح: (**أنه يأتي يسجد**) أي يضع جبهته في التراب أمام الله ﷻ (**يستأذنه في الشفاعة**) هذا موقف عبدٍ أمام الرب، لكن هؤلاء جهلوا حق الله ﷻ، فأسبغوه علىٰ عبده عليه الصلاة والسلام ،وفي هذا إيذاء لرسول الله عليه الصلاة والسلام وتنقص لله ﷻ.

قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [التوبة:١٢٩]، هذه الآية الكريمة جاءت تعقيباً علىٰ مواقف المنافقين، تقول: إن تولوا وأعرضوا فالجأ إلىٰ ربك، وتوكل عليه فإنه هو حسبك وكافيك، وهذا منهج للدعاة؛ فالداعية إذا دعا إلىٰ الله ﷻ ورأىٰ من الناس صدوداً فعليه أن يلجأ إلىٰ الله، وأن يصبر ولا يسلك طريقاً آخر فيه إيذاء؛ لأن الدعوة دعوة الله، والخلق عباد الله، والقلوب بيد الله، والداعي مبتلىٰ وهم مبتلون به، وكلاهما في ابتلاء، فعليه أن يصبر، يدعو إلىٰ الله، فإن رأىٰ صدوداً أو إعراضاً لا يتوقف، ولا يسلك سبيلاً آخر لم يشرعه له الله ﷻ، فإن الله هو أعلم بما

يصلح عباده، وللداعي مهمة الدعوة، أما أن يهتدي الناس وان يقبلوا كلامه فليس إليه كما قال تعالىٰ لخير خلقه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦] فالهداية القلبية لله، وهذا الدين تكريم، وليس كل إنسان يستحق التكريم، إذا رأيت إنساناً لا يقبل الدين فلا تظن أن الدين ناقص، بل الذي يترك الدين ولا يقبله ناقص، فبعض الناس قد لا يستحق الكرامة، ونحن لا نعلم الغيب، القلوب بيد الله، والله يعلم الاستحقاق، لكن علىٰ الداعي أن يبذل فإن عجز فليكِل أمره إلىٰ الله، قوله: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة:١٢٩] فيه قراءتان: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة:١٢٩] صفة للعرش وهذه قراءة الجمهور، ومنهم من يقرؤها ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ أي صفة لله ﷻ، ويرىٰ أن العظمة خاصة بالله ﷻ، وكلتا القراءتين وردتا، فمن قرأ بهذه فقراءته صحيحة، ومن قرأ بهذه فقراءته صحيحة.

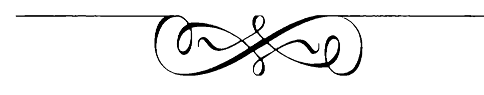
يقول تعالىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨]، هنا لم تذكر الآية اسم الله صراحةً، ولكنها تجعل الإنسان يبحث، من الحي الذي لا يموت؟ يلتفت ينظر أمامه يرىٰ أحياء يموتون، وعن يمينه وعن شماله يرىٰ أحياء يموتون، يبحث عن الحي الذي لا يموت، فإن وكل أمره إلىٰ الذي يموت فإنه ينقطع، هذا الحي يعيش زمناً معيناً ثم يموت فإذا به قد وقع، توكله كان خاطئاً، لكن ليلجأ إلىٰ الذي لا يموت، وليتوكل علىٰ الذي لا يموت، فقد يتوكل علىٰ غنيٍ من البشر، والغني من البشر يموت، ويتوكل علىٰ صاحب جاه، وصاحب الجاه يموت، فلا يتوكل علىٰ الذي يموت، بل علىٰ الحي الذي لا يموت، هو الله ﷻ، فإن الله ﷻ له الحياة المطلقة، أما البشر فحياته مؤقتة، فلا ينزل الإنسان حاجته ولا يتوكل ولا يُسند أمره إلىٰ من

يموت، بل ليسند أمره إلىٰ الذي لا يموت.

قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨] وهذا خطاب لنبينا ﷺ وخطاب لأمته ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ [الفرقان:٥٨] نزهه ﷻ مع الاعتراف بنعمته وفضله بأن يقول:سبحان الله وبحمده، كم من المسلمين يقرأ في صلاته سبحان ربي الأعلىٰ، وسبحان ربي العظيم ويعيش خمسين عاماً لا يعرف معناها، وإنما يرددها كما يردد الكلام الأعجمي، هل الله ﷻ شرعها لنا فقط لنقرأها ألفاظاً، أم لنعرف معناها؟ كم من المسلمين يقرأ التحيات في صلاته حتىٰ يموت وهو لا يعرف معنىٰ التحيات؟ وهو يظن أنه قد وفىٰ ما أُمر به، ولا شك أن هذا جهل، ونقص في حق المسلم، هذه ألفاظ لها معانٍ، إن لم يستشعر قلوبنا المعنىٰ فلا نتلذذ بالعبادة، فينبغي لنا أن نحرص علىٰ أن نتعلمها، التسبيح هو: التقديس، أن نقدس الله ﷻ عن النقص، وعما يلحق البشر من أوصاف النقص، فالله له الكمال المطلق، فالله مقدس أي: كامل، فنقول: سبحان ربي العظيم وبحمده، أو سبحان ربي الأعلىٰ وبحمده أي: ننزه الله معترفين بفضله ونعمته ﷻ، وأنه له الثناء المطلق، ولهذا في الصلاة نستفتح الركعة الأولىٰ بالتحميد القرآني ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة:٢] ونختتم الصلاة في الجلوس بالتحميد النبوي التحيات لله، فإن التحيات هي: الثناء، كما أن الحمد هو الثناء لكن الحمد أبلغ، وكلام الله أبلغ، فهكذا هنا يقول: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ [الفرقان:٥٨] توكل عليه وعظمه، لا تعظم غيره، وهكذا ينبغي للمسلمين أن تكون قلوبهم مملوءةً بتعظيم الله، ولا يجوز لنا أن نملأ قلوب المسلمين بتعظيم غيره، فإن هذا منازعةٌ لله ﷻ، العظمة لله، والكبرياء لله، وقد كانت العرب في جاهليتها تفتتح منتدياتها بتعظيم كبرائها، وأول آية في كتاب الله تبين أن التعظيم لله، الحمد كله لله، ملكاً واستحقاقاً، ليس لغيره من الحمد شيء إلا إذا أذن الله لنا في أن

نشكر من هو سبب للنعمة، أما الحمد والثناء فإنه كله لله.

هنا يقول: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الفرقان:٥٨] عظمه معترفاً بحقه وفضله ﷻ عليك ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [الفرقان:٥٨] الله الذي يرىٰ العباد، وهو الذي يحفظ الأعمال، ويرىٰ الطاعات، ويرىٰ المعاصي، فلا تظن إذا وجدت صدوداً من الناس أن الله لا يعلم، وأن الله لا يرىٰ، والله خبير والخبرة أدق وصف في العلم، ولهذا يقال فلان خبير متخصص يعني: علمه زائد في هذه المسألة، فربنا ﷻ علمه دقيق فيما يتعلق بخلقه، يرىٰ ما في قلوبهم، ويرىٰ أعمالهم، ويرىٰ الطائع، ويرىٰ العاصي، فعلىٰ الإنسان الداعية ألا يقع في هم كبير، عليه أن يعمل ولا ييأس ولا يحزن، فإن هذا أمر مقدر، والإنسان الذي يُدعىٰ إلىٰ دين الله ويمتنع هو الخسران، هو الذي لا يستحق التكريم، فإن الجنة طيبة، دار عدن، هذه دار في جوار الله ﷻ، ولا يُنزل الله في جواره إلا من كان طيباً، ولهذا جاء في قول امرأة فرعون أنها طلبت الجار قبل الدار، فقالت: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ [التحريم:١١] فيقول العلماء: كانت تُعاني من الخوف، فهي أول ما تريد الأمن قبل السكن فسبق علىٰ لسانها طلب الجوار؛ لأنها في الأرض تعيش في خوف من فرعون؛ لأنه عذبها وآذاها، فهي محتاجة إلىٰ الأمن أولاً، فطلبت جوار الله ﷻ، فإنه من كان جاراً لله فإن الله يحفظه.



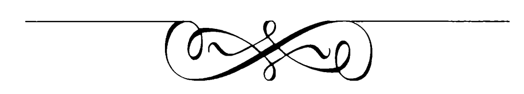
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ٢١ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ٢٢ إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ [الجن: ٢١-٢٣].

الشرح

هذه الآيات من سورة الجن وهي سورة مكية، ومن بداية نزول القرآن يعلمنا الله ﷻ مكانة رسول الله ﷺ، وأنه لا يملك أن ينفع أو يضر؛ لأن الأنبياء يجري على أيديهم خوارق، وهذه الخوارق ربما تبهر ضعاف العقول فترفع النبي ﷺ فوق منزلته، يقول: يا محمد أخبرهم عن مكانتك: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ٢١﴾ [الجن:٢١]، وهذه المعاني كانت في حس الصحابة موجودة، ولهذا لم نر أحداً من الصحابة يستغيث برسول الله ﷺ، أو يدعوه من دون الله؛ لأنه يعلم القرآن، والقرآن يتنزل بلغته، ويعرف هذه المعاني، يقول: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ٢١ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ٢٢﴾ [الجن: ٢١-٢٢]، هذه مكانته أمام الله، لو خالف أمر الله من الذي يحميه من الله؟ لا أحد؛ لأن الله رب العالمين له الكبرياء في السماوات والأرض سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فلا يملك أحدٌ أن يحمي رسول الله ﷺ، ولا يحمي أحداً من البشر منه ﷻ ﴿إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ [الجن:٢٣]، هذا عملي، أنا مبلغ، أنا رسول أؤدي أمانة، أؤدي رسالة، لكن ليست لي خصائص الألوهية أو الربوبية.

هذا المعنىٰ في حياة الصحابة كان موجوداً، لكن جاءت الأجيال بعد ذلك فجهلت القرآن، وجهلت السنة، فلم يستغيثوا فقط بالرسول ﷺ بل نصَّبوا لهم أضرحةً ومشاهد في كل مكان يُستغاث به من دون الله ﷻ، وقد مر بعض الكتب التي ألَّفها بعض الناس وهو يقول: أنه يجوز الاستغاثة برسول الله ﷺ كما يستغاث بالله، ونحن ما ندري ما هو الأمر الذي أشرك فيه المشركون؟ فما هو الذي كان في الجاهلية إلاَّ الاستغاثة بغير الله، ودعاء غير الله، والتبرك بغير ما أمر الله به، هذا هو الشرك الذي كان في الجاهلية، فهنا القرآن من بداية التنزل يعلمنا عن بشرية نبينا عليه الصلاة والسلام أنه بشر، وأنه رسول، ولهذا كما قلنا أن الله وصفه في أشرف المقامات بالعبودية فقال تعالىٰ: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء:١] فهنا يعلمنا أنه عبد لله، فهذه المعاني في كتاب الله لو عرفها الجاهلون ما وقعوا فيما وقعوا فيه من الشرك.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فإن قيل: هو لم يسأله أن يتفضل عليه وإنما أخبر أنه إن لم يدخل في عموم شفاعته فيا هلاكه، قيل: المراد بذلك سؤاله وطلب الفضل منه كما دعاه أول مرة وأخبر أنه لا ملاذ له سواه، ثم صرح بسؤال الفضل والإحسان بصيغة الشرط والدعاء، والسؤال كما يكون بصيغة الطلب يكون بصيغة الشرط كما قال نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هود:٤٧].

الشَّرح

الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ يفترض أن هؤلاء سيدافعون عن أنفسهم، والحقيقة لا يدافعون هم يعترفون، ويرون أن هذا تقرب إلىٰ الله، وأن الله أعطاه هذا الحق، وقد مر عن بعض العلماء الذين يوصفون بأنهم أعضاء في هيئة كبار العلماء في بلادهم، وأنه كان يقول: أن الميت يسمع دعاءك، ويستطيع أن يعينك، فإن الأموات لهم روحانية قوية يملكون بها أن يجيبوا من دعاهم، وهذا الكلام كذب علىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ وعلىٰ رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، والأموات قد أفضوا إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهم أسرىٰ أعمالهم، ولا يستطيعون أن ينفعوا أحداً أو يضروهم، وقلنا أن شخصا مغربياً زار قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المدينة ولم يحج، رجع من المدينة وقال: هذا نيابةٌ عن حجي، فإنهم يعتقدون فضل الحج إلىٰ المشاهد وإلىٰ القبور، ويرون أنها أفضل من حج بيت الله الحرام،وهذا الكلام من الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حوار مع صاحب البردة لتوهمه أنه سيدافع عن نفسه، ومثل هؤلاء فعلوا هذا الفعل متعمدين، ليس لهم تأويل حتىٰ يُحاوروا في هذه المسألة، وسيأتي من أقوال البرعي التي هي أشد من أقوال البوصيري.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومن شعر البرعي قوله:

ماذا تعامل يا شمس النبوة من أضحىٰ إليك ... من الأشواق في كبد نائي المزار غريب
فامنع جناب صريع لا صريخ له ... الدار مبتعد
حليف ودك واه الصبر منتظر ... لغارة منك يا ركني ويا عضدي
أسير ذنبي وزلاتي ولا عمل ... أرجو النجاة به إن أنت لم تجد

وجرى في شركه إلى أن قال:

وحل عقدة كربي يا محمد من ... هم على خطرات القلب مطرد
أرجوك في سكرات الموت ... كيما يهون إذا الأنفاس في صعد
وإن نزلت ضريحًا لا أنيس به ... فكن أنيس وحيد فيه منفرد
وارحم مؤلفها عبد الرحيم ومن ... يليه من أجله وانعشه وافتقد
وإن دعا فأجبه واحم جانبه ... من حاسد شامت أو ظالم نكد

الشَّرح

البرعي نسبة إلىٰ مدينة في اليمن، وقد عاش في أواخر القرن الثامن، فيقول هنا وهو يخاطب نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

ماذا تعامل يا شمس النبوة من ... أضحىٰ إليك من الأشواق في كبد

يقول: ماذا تفعل يا رسول الله بشخص بلغ في حبك والشوق إليك أنه أصبح يعاني، يترقب أن يلقاك، ثم يقول:

فامنع جناب صريع لا صريخ له ... نائي المزار غريب الدار مبتعد

امنع: احفظ، والصريع هو: الشخص المصروع الذي يسقط على الأرض، يسمى صريعاً بمعنى فعيل، بمعني مفعول.

لا صريخ له أي: لا مغيث له، هنا نفى أن يكون هناك من يغيثه لا من الخلق ولا من الخالق، يعني ليس له رجاء في أحد.

حليف ودك واه الصبر منتظرٌ لغارة منك يا ركني ويا عضدي

حليف ودك .. يعني بينهما حِلف هو وود نبينا عليه الصلاة والسلام يعني هناك بينهما ارتباط، **واه الصبر منتظر** ..يعني: الصبر قد نفد وهو منتظر، ماذا ينتظر؟ الغارة في اللغة تأتي في الحروب وهي: الحركة السريعة التي الشخص يغير فيها لينفذ أمراً، فكأنه يقول: يا رسول الله أنتظر منك غارة سريعة تنقذني، ممن ينقذه؟ من الله عز وجل؛ لأنه سيقول: **أسير ذنبي** يعني: ذنوبي كثيرة وأنا مأسور بها

أسير ذنبي وزلاتي ولا عمل أرجو النجاة به إن أنت لم تجد

ما عندي شيء ينقذني إلا أنك تغير تأتي سريعاً فتنقذني من بين يدي الله عز وجل، هنا اتضحت الصورة يقول:

وحل عقدة كربي يا محمد من هم على خطرات القلب مطرد

قلبه مهموم ولا بد له ويحتاج من يحل هذه العقدة من قلبه.

أرجوك في سكرات الموت تشهدني كيما يهون إذا الأنفاس في صعد

عند الموت يريد من النبي صلى الله عليه وسلم أن يأتي يشهده مع ملك الموت، ويخفف عنه من ألم الموت،

وإن نزلت ضريحاً لا أنيس به فكن أنيس وحيد فيه منفرد

أي: أنت تأتي معي في القبر تؤنسني، يأتي عند هذا يؤنسه أو عند غيره،

يعني كم من المسلمين يموتون؟ وكم من الصالحين يموتون؟ فهو يؤنس من؟

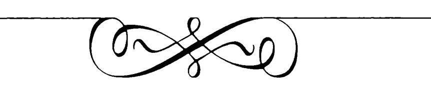
وارحم مؤلفها .. وهنا يأتي هذا اللفظ الشديد:

وارحـم مؤلفهـا عبـد الـرحيم ومـن يليـه مـن أجلـه وانعشـه وافتقـد

ومن يليه يعني قبيلته، من أجله يعني: ترحمهم من أجلي وانعشه وافتقد! سبحان الله! وارحم مؤلفها! أين رحمة الله ﷻ؟ من يملك أن يرحم الناس؟ ويغفر ذنوبهم، ويستر زلاتهم، ويعفو عن أخطائهم إلا الله ﷻ، فهذا الجهل جهل بحق الله، وجهل بحق رسول الله ﷺ. يقول:

وإن دعـا فأجبـه واحـم جانبـه مـن حاسـد شـامت أو ظـالم نكـد

وإن دعا يعني إذا دعاك فأجبه واحم جانبه! سبحان الله هو يلقن الرسول ﷺ يقول: يا محمد افعل كذا وكذا بي، إذا كان هو يسمعك كيف تقول له افعل كذا وكذا؟ هنا علق رجاءه برسول الله ﷺ وهذا حق الله، لا يجوز أن يُعلق القلب ولا أن تُعلق الآمال إلا بالخالق ﷻ، أمَّا نبينا عليه الصلاة والسلام فمحبته هو اتباع سنته، وتنفيذ أمره، واجتناب نهيه عليه الصلاة والسلام، أما أن يُشرك الرسول ﷺ مع الله، بأن ننسىٰ الله ولا ندعو إلا الرسول ﷺ فهذا أشد أنواع الشرك، أعاذنا الله من هذا الشرك.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله من أخرىٰ:

يا رسول الله يا ذا الفضل يا بهـ ... جة في الحشر جاهًا ومقاما

عد علىٰ عبد الرحيم الملتجي ... بحمىٰ عزك يا غوث اليتامىٰ

وأقلني عثراتي يا سيدي ... في اكتساب الذنب في خمسين عاما

يا سيدي يا رسول الله يا أملي ... يا موئلي يا ملاذي يوم يلقاني

هبني بجاهك ما قدمت من زلل ... جوداً ورجح بفضل منك ميزاني

واسمع دعائي واكشف ما يساورني ... من الخطوب ونفس كل أحزاني

فأنت أقرب من ترجىٰ عواطفه ... عندي وإن بعدت داري وأوطاني

إني دعوتك من نيابتي برع ... وأنت أسمع من يدعوه ذو شان

فامنع جنابي وأكرمني وصل نسبي ... برحمة وكرامات وغفران

الشَّرْح

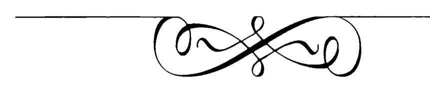
أي: أنا عمري خمسون سنة وكلها ذنوب وأنا ألجأ إليك يا محمد حتىٰ تعفو عني! سبحان الله! مغفرة الذنوب حق الله، وأنت عبد الله، والله الذي يحاسب بين خلقه، الجأ إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ، لا تلجأ إلىٰ المخلوق.

قوله: (يا موئلي يا ملاذي يوم يلقاني) ماذا بقي لله؟ إذا كان هذه كلها يعطيكها نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ماذا بقي لله؟! فهنا هو الملاذ وهو الموئل، وهو الذي يعفو عن الزلات، وهو الذي يُنفس عنك في خطوبك، وهو أقرب من تُرجىٰ

عواطفه، يعني ليس الله أقرب، ويقول في آخره:

فامنع جنابي وأكرمني وصل نسبي برحمة وكرامات وغفران

غفران! يعني الذنب يغفره أحد غير الله ﷻ؟!! هذه القصائد الشعرية سبب هلاك كثير من الناس، فإن الناس الذين تأثروا بهذه الاتجاهات المنحرفة رأوا في هذه الأبيات ما يدعم مذاهبهم، حتى إن بعضهم قد يحفظ الأبيات ويظنها قرآناً، ويظنها أحاديث،و هكذا الشخص إذا رسخ في ذهنه الشعر بهذه المعاني يظنها حقاً، ويرسخ في ذهنه الشرك الذي حرمه الله ﷻ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

لقد أنسانا هذا ما قبله، وهذا بعينه هو الذي ادعته النصارىٰ في عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا أن أولئك أطلقوا عليه اسم الإله وهذا لم يطلقه، ولكن أتىٰ بلباب دعواهم وخلاصتها وترك الاسم، إذ في الاسم نوع تمييز، فرأىٰ الشيطان أن الإتيان بالمعنىٰ دون الاسم قرب إلىٰ ترويج الباطل، وقبوله عند ذوي العقول السخيفة، إذ كان من المتقرر عند الأمة المحمدية أن دعوىٰ النصارىٰ في عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ كفر، فلو أتاهم بدعوىٰ النصارىٰ اسمًا ومعنىٰ لردوه وأنكروه، فأخذ المعنىٰ وأعطاه البرعي وأضرابه، وترك الاسم للنصارىٰ، وإلا فما ندري ماذا أبقىٰ هذا المتكلم الخبيث للخالق تعالىٰ وتقدس من سؤال مطلب أو تحصيل مأرب؟ فالله المستعان.

الشَّرْح

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: إن الشيطان هو الذي وسوس، لكن الإنسان كيف يستطيع أن يفرق بين دوافع الخير في نفسه ودوافع الشر؟ فأحيانًا يأتي في قلبه خواطر، وهذا الخاطر يقول له: إن نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إنسان متميز، وإنسان ممتاز، وهذا سيد البشر، والمصطفىٰ المختار، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا بد أن يعطيه كرامات، ولا بد أن يعطيه حقوقًا، كما نرىٰ في حياة الزعماء والرؤساء إذا حبوا وزيراً أعطوه صلاحيات، فالله قد يعطي نبينا صلاحيات، فهذه الصلاحيات تتعلق بمصالح الناس، فنحن نسأل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما أعطي من الصلاحيات التي يملك أن يعطي فيها وأن يمنع، وأن يهب، وأن يغيث، فهذه قد تأتي وساوس في قلب الإنسان ويظن أن هذا من الخواطر الطيبة، فنحن نقول: أولاً: أن الخواطر يجب أن تُعرض علىٰ الكتاب والسنة، فليس كل ما يأتيه في قلبه من خواطر

يكون خاطراً إيمانياً، فإن إبليس يأتيه مما يحب كما قال ابن الجوزي رحمه الله في (تلبيس إبليس): إبليس إذا جاءك في قلبك وأراد أن يوسوس يشم قلبك ماذا تحب؟ فإن كنت تحب النبي ﷺ دفعك إلى الغلو في محبة الرسول ﷺ حتى تحبه حباً شركياً، فيخرجك من المحبة الشرعية، إن كنت تحب الصلاة ما يقول اترك الصلاة، يدفعك في الصلاة حتى تبالغ وتغالي في الصلاة، ربما تقف في الركعة الأولى تستحضر النية حتى يركع الإمام وأنت لم تحضر نيتك للصلاة وهكذا، إن كنت تحب الطهارة يأتيك في مكان الوضوء ويوسوس لك حتى تفوت الصلاة وأنت لا زلت في مكان الوضوء، فهكذا إبليس يشم قلبك، وما تحبه يدفعك إليه زيادةً، فهكذا محبة النبي ﷺ من أركان الدين، والذي لا يحب الرسول ﷺ ليس مؤمناً ولا مسلماً، ولا يستحق أن يوصف بالإسلام مطلقاً، فإن محبة الرسول ﷺ من محبة هذا الدين ومن محبة الله سبحانه وتعالى، فإن رسول الله ﷺ له على أمته حق أن يحبوه، وأن يعظموه، وأن يحترموه، لكن لا يرفعونه فوق درجته كما قال عليه الصلاة والسلام: (**لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، إنما أنا عبد الله ورسوله**)(١).

فمحبة الرسول ﷺ لها حد محدود ما نجاوز بها، ما نغالي كما مر في الحديث: (**إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين**)(٢) الغلو:

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه النسائي في سننه، كتاب مناسك الحج، باب التقاط الحصى، برقم: (٣٠٥٧)، وابن ماجه في سننه، كتاب المناسك، باب قدر حصى الرمي، برقم: (٣٠٢٩)، والإمام أحمد في المسند، برقم: (١٨٥١)، (٣/ ٣٥١)، والحاكم في المستدرك، كتاب المناسك، برقم: (١٧١٣)، (١/ ٦٤٠)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، وسكت عنه الذهبي في التلخيص، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير والأوسط، المعجم الأوسط برقم: (٢١٨٩)، (٢/ ٣٤٧)، وابن حبان في صحيحه، كتاب الحج، باب رمي جمرة العقبة، برقم: (٣٨٧١)=

الزيادة، فإن الزيادة في الدين والنقص منه سواء، كلاهما حرام، فيأتيك إبليس مما تحب، فإذا رأيت قلبك استمر مع خاطر من الخواطر فعليك أن تتوقف، وأن تسأل نفسك هل هذا الخاطر يصححه القرآن والسنة أم أنه خاطر ليس له دليل؟ لأنك مطالب يوم القيامة بأن تذكر لماذا فعلت هذا؟ الخاطر ليس هو الذي يُشرع، التشريع في القرآن والسنة، والشخص إذا كان لا يقرأ القرآن والسنة يسأل أهل العلم، ولا ينبغي له أن يستمر مع خاطره، فإن إبليس ما يأتيك وجهاً لوجه، يأتيك بالوسوسة، فتحاول أن تبحث في قلبك إذا أردت أن تعرف كم لإبليس في قلبك وفي خواطرك من نصيب؟ ففي آخر اليوم قف مع نفسك واستحضر ماذا حدث منك في هذا اليوم من أعمال ومن خواطر؟ ثم تميز ما هو الشيء الذي كان من إبليس وما هو من توفيق الله ﷻ؟ فإن لم تستطع أن تعرف أن إبليس كان له نصيب في عملك فتحتاج أن تعرف مداخل إبليس، فإن إبليس أحياناً يأتيك بطرقٍ خفية مهلكة، فإذا فتشت نفسك ما رأيت نصيباً لإبليس صغيراً، ربما يكون في كبير ما تدري أنت فانتبه، وفتش في نفسك لا تظن أن إبليس ليس له نصيب، فله نصيب في حركات الإنسان، وخواطره وأعماله؛ لأن هذا عمله أقسم أنه ليأتين من بين أيدينا ومن خلفنا وعن أيماننا وعن شمائلنا ولا تجد أكثرهم شاكرين، ما يمكن أن يتأخر عن عمله، يأتيك من كل مكان، فإذا جئت إلىٰ آخر اليوم ما استطعت أن تميز ما كان من إبليس، فتحتاج أن تعيد النظر في موقفك من متابعة أعمالك، فإن الشيطان يأتي الإنسان غالباً مما يحب، فعلىٰ الإنسان أن يحرص علىٰ محاسبة النفس.

= (٩/ ١٨٣)، وابن خزيمة في صحيحه، كتاب المناسك، باب التقاط الحصىٰ لرمي الجمار من المزدلفة، برقم: (٢٨٦٧)، (٤/ ٢٧٤)، وأخرجه أيضاً أبو يعلىٰ في المسند، والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة، وأبو نعيم في حلية الأولياء، والجارود في المنتقىٰ.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا كثير جداً في أشعار المادحين لرسول الله ﷺ، وهو حجة أعداء دينه الذين يجوزون الشرك بالله، ويحتجون بأشعار هؤلاء، ولم يقتصروا أيضًا على طلب ذلك من النبي ﷺ، بل يطلبون مثل ذلك من غيره، كما حدث بعض الثقات: أنه رأى في رابية صاحب مشهد من المشاهد هذه راية البحر التيار به أستغيث وأستجير، وبه أعوذ من النار.



الشَّرْح

هذه المناظر توجد في غالب بلاد المسلمين، لا تكاد تجد بلداً من بلاد المسلمين إلا وفيها هذه المشاهد التي يُطاف حولها، ويدعى أصحابها، ويُستغاث بهم، فالذي يتدنى إلى هذا الشرك هل يستطيع أن يقوم بمسؤوليات الدين؟ لا يستطيع إذا كان هذا صورة فهمه في الدين، وهكذا أشرك مع رب العالمين، فكيف يقبل الناس العقلاء هذا الدين؟ ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كلام له جميل في (مفتاح دار السعادة) وهو يتكلم عن علم الفلك يقول: بعض المسلمين أنكر علم الفلك، وحمل الأحاديث التي جاءت في المنجمين على علم الفلك، قال: فأضحك العقلاء، وصد العقلاء عن الدين؛ لأنهم يعلمون أن هذا علم صحيح، .. علم دقيق، ويقوم على حسابات، وعلى نظريات، وأُسس صحيحة، فعندما يأتي شخص يشككهم فيما يعلمون أنه حق، ويشككهم باسم الدين، هنا يشكون في الدين الذي جاؤوا به، وابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: بعض المسلمين يتحمس لقضيةٍ خاطئة أو باطلة باسم الدين فيضر الدين بهذا الحماس، وبهذا النظر الجاهل.

فهنا إذا قام المسلمون ودعوا الكفار إلىٰ هذا الدين، فقالوا نريد أن نعرف هذا الدين، فقالوا: تعالوا، فأتوا بهم إلىٰ القبور والمشاهد، وقالوا: نحن ندعو هؤلاء؛ لأن هؤلاء لهم صلاحيات عند الله ﷻ، هل يصدقون هذه الدعوة؟ ما يصدقونها، فإن الإنسان إذا دعي إلىٰ دين جديد أول ما ينظر إلىٰ أهله، فإن رأىٰ أهله قد استفادوا من هذا الدين، وكان حالهم يُرضي فعندئذٍ يقبل، لكن إذا جاء فرأىٰ حال المسلمين حال مزرياً لا في الدين ولا في الدنيا كيف يقبل هذا الدين؟ فإن الناس عندهم عقول، والإنسان يدرك بعقله أشياء كثيرة، فإذا رأوا وضع المسلمين بهذا الوضع فإنه يصدهم عن دين الله ﷻ، ولا بد لنا أولاً أن نترقىٰ إلىٰ مستوىٰ الدين، وأن نفهمه كما أنزله الله ﷻ ثم نطبقه في حياتنا، ثم ندعو الناس إليه، وكان كثير ممن أسلم يقول: الحمد لله، قد عرفت الإسلام قبل أن أعرف المسلمين، فإنه يعرف في الإسلام الأخلاق الطيبة، والعدل، والإنصاف، والصدق، والأمانة، كل هذه في دين الله، فإذا خالط المسلمين ورأىٰ أشياء عجيبة، ومواقف غريبة تشككه في دينه، فإذا كان لم يعرف الدين وأراد أن يعرفه من خلال مجتمع المسلمين فإن هذا يصده عن دين الله.

والناس اليوم في حاجة إلىٰ من يدعوهم إلىٰ الله، كم يموت من الكفار؟ مئات الآلاف والملايين يموتون علىٰ الكفر، المسلمون هم المسؤولون عن هؤلاء الكفار، فإن عدد المسلمين قُرابة ربع العالم، كم من المسلمين يعرفون الدين؟ وكم منهم يطبقه؟، أعداد قليلة جداً، فالمرحلة الأولىٰ في كل دين وفي كل أمة أن يُنشر العلم الصحيح حتىٰ يعرف الناس الحق من الباطل، فإذا عرفوا الحق من الباطل، وعملوا بهذا الحق أمكنهم أن يدعوا إليه، ولكن إذا دعوا الناس وما يعملونه باسم الدين من الأعمال كلها باطلة، وليست من دين الله لا يجيبونهم، ولو رأىٰ الإنسان في كثير بلاد المسلمين لرأىٰ عجباً من تلك الأحوال المزرية التي لا تليق بكرامة الإنسان.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال بعضهم من قصيدة في بعض آلهتهم:

يا سيدي يا صفي الدين يا سندي ... يا عمدتي بل ويا ذخري ومفتخري

أنت الملاذ لما أخشى ضرورته ... وأنت لي ملجأ من حادث الدهر

إلى أن قال:

وامنن علي بتوفيق وعافية ... وخير خاتمة مهما انقضى عمري

وكف عنا أكف الظالمين إذا ... امتدت بسوء لأمر مؤلم نكري

فإنني عبدك الراجي بودك ما ... أملته يا صفي السادة الغرر

قال بعض العلماء: فلا ندري أي معنى اختص به الخالق تعالى بعد هذه المنزلة، وماذا أبقى هذا المتكلم الخبيث لخالقه من الأمر، فإن المشركين أهل الأوثان ما يؤهلون من عبدوه لشيء من هذا انتهى.

الشَّرح

قوله: (وأنت لي ملجأ من حادث الدهر) هذا نفس المعاني السابقة، كلها على نسق واحد، استغاثة برسول الله ﷺ، وإنزال الحاجة به، والاعتماد عليه، والتوكل عليه من دون الله عَزَّ وَجَلَّ.

قوله: (وامنن علي بتوفيق وعافية) هنا يدعوه حتى في أمور الدنيا، يعني العافية، وخاتمة الحياة، وأن يكف أيدي الظالمين، ثم يقول: فإنني عبدك الراجي.. هذا هو الختام، والعبودية حق الله، لا يجوز أن تُعبد نفسك لغير الله، والأسماء منتشرة بين المسلمين.. عبد النبي وعبد الرسول وعبد الحسين وعبد العباس... كلها أسماء باطلة، ومن الظرائف أن شخصاً سنياً قابل شخصاً شيعيّاً فقال: ما اسمك؟ قال: كلب الحسين، قال: وأنت ما اسمك؟

قال: اسمي خنزير الله، قال: خنزير الله؟ قال: نعم خنزير الله خير من كلب الحسين، أنت كلب عبد وأنا خنزير الخالق، أراد أن يبيّن له أن الله أكرمك بإنسانيتك وجعلك إنساناً تنزل نفسك إلىٰ أن تكون كلباً لمخلوق، فكيف تدنّىٰ الإنسان في حياته إلىٰ مستوىٰ لا يليق بكرامته، والله يقول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء:٧٠]، التوحيد تكريم، التوحيد أن تعيش عزيزاً، لا يذل قلبك إلاّ لله، ولا تنزل حاجتك إلا بالخالق، أما الشرك يدنس الإنسان ويحقره، ليذل للمخلوق، والله لا يريد لك أن تذل لمخلوق، بل الذلّ لله، والخوف من الله والحب في الله والطاعة لله، والخضوع لله، وبهذا يعيش الإنسان المسلم عزيزاً، لكن هذه المذاهب المنحرفة تعبِّد الإنسان وتذله إما للأشجار وإما للأحجار وإما للأبقار وإما للأموات وإما للمخلوق، وهذه كلها مذلة، وعزة المسلم في التوحيد، ألا يذل قلبه إلاّ لله، هذا هو عز في الدنيا ونجاة يوم القيامة.

قوله: (**فلا ندري أي معنىٰ اختص به الخالق تعالىٰ بعد هذه المنزلة**) يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن هذا لم يُبق لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شيئاً، إذا كان ختم دعواته بالعبودية للمخلوق، والعبودية هي حق الله كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الفاتحة يعلمنا أن نقرأ في كل ركعة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:٥] نحن عبيدك ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة:٥] ننزل حاجتنا بك يا الله، في كل ركعة تقول ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة:٥] لا نعبد إلا إياك ولا نستعين إلا بك، فتشريع هذه السورة لتقرأ في كل ركعة لأنها سورةٌ عظيمة، والمتأمل لها يرىٰ فيها عجباً، تؤسس اعتقاد المسلم، والحياة السليمة، وتحميه من الانحرافات الباطلة التي تقع فيها أمم، وسببه إما التقليد لأعداء المسلمين وإما أن يسيروا في طريقهم الذي ساروا فيه في الماضي أو الحاضر، فـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة:٥] تصفي الاعتقاد وتبين منهج المسلم في حياته.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

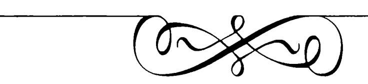
وكثير من عباد القبور ينادون الميت من مسافة شهر وأكثر، يسألونه حوائجهم، ويعتقدون أنه يسمع دعاءهم ويستجيب لهم وتسمع عندهم حال ركوبهم البحر واضطرابه من دعاء الأموات والاستغاثة بهم ما لا يخطر علىٰ بال، وكذلك إذا أصابتهم الشدائد من مرض أو كسوف أو ريح شديدة أو غير ذلك، فالولي في ذلك نصب أعينهم، والاستغاثة به هي ملاذهم، ولو ذهبنا نذكر ما يشبه هذا لطال الكلام.



الشَّرْح

هذه إحدىٰ صور المجتمع المسلم، وهذه الصورة تقع في مساحة واسعة في بلاد المسلمين، قد يقول قائل: هذا الحديث يتعلق بجانب من جوانب الانحراف في حياة الأمة الإسلامية، وهناك أشخاص الآن ليس لديهم إيمان بالله ويحاربون الدين ويسمون بالعلمانيين أو ما أشبه ذلك، ما موقفنا منهم؟ هؤلاء أشدّ؛ لأن هؤلاء كفار كفراً صريحاً، والكافر الصريح لا يخفىٰ علىٰ الإنسان العاقل، لكن قد يكون الإنسان المسلم يعيش في الكفر وهو لا يعلم، ويعيش في الكفر باسم الإيمان وباسم الدين، فالمنكر الأكبر أن تعيش بالباطل وتنسبه إلىٰ الدين، لكن الذي يخرج علىٰ الدين ويعلن كفره وإلحاده هذا كافر صراحة، ولهذا نرىٰ في سورة البقرة عندما بدأ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعرض للمجتمعات وللأحوال البشرية في ذلك العصر جعلهم ثلاثة أقسام: قسم المؤمنين وذكر فيهم خمس آيات تقريباً، وقسم الكفار وذكر فيهم آيتين فقط، وقسم المنافقين الذين ظاهرهم الإيمان وباطنهم الكفر واستمر في ذكر هؤلاء أكثر مما ذكر للكفار والمؤمنين، فإن الكافر أمره واضح، لكن المسلم الذي يعيش بالمعاني

الباطلة أو المعاني الشركية باسم الإسلام هـو الـذي يضـر الأمـة، ويضـر الـدين، كما كان حال المنافقين سابقـًا؛ لأن الشخص الذي يكون في ازدواجيـة في فكـره وفي عمله أخطر من الشخص الذي كفره صريح واضـح، والـذي إيمانـه صـريح واضـح، لكـن الـذي يكـون يعمـل الباطـل باسـم الإسـلام أو باسـم الـدين فهـذا يحتـاج إلـىٰ بيـان أكثر وإلـىٰ توضـيح أشـدّ، والمسـلمون مبتلـون بشـتىٰ أنـواع الانحرافـات، لكـن الانحـراف باسـم الـدين أخطـر وأسـوأ وأضـر علـىٰ الأمـة الإسـلامية، وأضـر حتـىٰ أمـام الكفـار؛ لأن الكـافر إذا دعـي إلـىٰ الإسـلام بهـذه الصورة يكره الإسلام، نصـد النـاس عـن ديـن الله بالأعمـال، وإن كنـا نـدعوهم بالأقوال، فهذا سبب التركيز من الشارح ﵀ علىٰ هذا الجانب.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إذا عرفت هذا فقد تقدم ذكر دعاء المسألة، وأما دعاء العبادة فهو: عبادة الله تعالىٰ بأنواع العبادات من الصلاة والذبح والنذر والصيام والحج وغيرها خوفًا وطمعًا يرجو رحمته ويخاف عذابه، وإن لم يكن في ذلك صيغة سؤال وطلب، فالعابد الذي يريد الجنة ويهرب من النار هو سائل راغب راهب يرغب في حصول مراده ويذهب من فواته وهو سائل لما يطلبه بامتثال الأمر من فعل العبادة، وقد فسّر قوله تعالىٰ: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠] بهذا وهذا، قيل: اعبدوني وامتثلوا أمري أَسْتَجِبْ لَكُمْ وقيل: سلوني أعطكم، وعلىٰ هذا القول تدل الأحاديث والآثار.

الشَّرح

مر في أول الباب أن الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ تكلم عن معنىٰ الدعاء في القرآن والسنة وأنه قد يأتي بمعنىٰ الطلب، وقد يأتي بمعنىٰ العبادة، وكلاهما عبادة، لكن فرق بين أن تفعل فعلاً لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ممتثلاً لأمره وبين أن تدعو الله لقضاء حاجتك، وكلا هذين المعنيين يشملها قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥]، وهو يعلمنا ماذا نقول ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:٥] أي: نتقرب إليك بالأعمال، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥] أي: نطلب منك أن تعيننا علىٰ العبادة وعلىٰ الأمور كلها، فكلا هذين الأمرين عبادة، فالفعل الذي تقصد به القربة إلىٰ الله عبادة والدعاء الذي يقصد به قضاء الحاجات عبادة، فالشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ تكلم فيما تقدم عن دعاء المسألة، وسينتقل الآن إلىٰ دعاء العبادة؛ لأن القرآن الكريم ورد فيه هذا وورد فيه هذا، وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠] منهم من فسره بدعاء العبادة ومنهم من فسره بدعاء المسألة.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

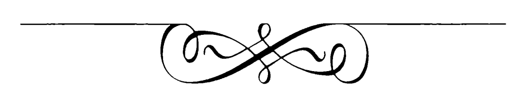
إذا تبين ذلك فاعلم أن العلماء أجمعوا على أن من صرف شيئًا من نوعي الدعاء لغير الله فهو مشرك، ولو قال لا إله إلا الله محمد رسول الله، وصلى وصام، إذ شرط الإسلام مع التلفظ بالشهادتين أن لا يُعبد إلا الله، فمن أتى بالشهادتين وعَبَد غير الله فما أتى بهما حقيقة وإن تلفظ بهما، كاليهود الذين يقولون لا إله إلا الله وهم مشركون، ومجرد التلفظ بهما لا يكفي في الإسلام بدون العمل بمعناهما واعتقاده إجماعًا.



الشَّرْح

هذا تعقيب على تعليق الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ على معنى الدعاء في الشرع، فإن الدعاء يأتي ويراد به دعاء المسألة ويراد به العبادة، التذلل والخضوع، وقد مر شرح الدعاء بمعنى المسألة، وهنا يذكر الدعاء بمعنى العبادة، ويقول: إن من قال لا إله إلاّ الله أو شهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله، ولكنه دعا غير الله أو عبد مع الله غيره لا تنفعه الشهادتان، وهو كذلك، فإن المنافقين قد شهدوا أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله ﷺ ولكنهم لم يستفيدوا من هذه الكلمة؛ لأنهم لم يؤدوا معناها، ولم يلتزموا بمقتضاها، فلا تنفعهم إلا إذا عملوا بمقتضاها؛ لأن لا إله إلاّ الله ألفاظ لها معنى، وليس القصد هو الألفاظ، بل القصد هو المعنى، فإن اللفظ يشير إلى المعنى، والألفاظ وُضعت لتدلّ على المعاني أو لتدلّ على الذوات، فالألفاظ عبارة عن معانٍ، فليس القصد من الشهادتين الألفاظ، وإلاّ لكان المنافقون ولكان عبد الله بن سلول في الجنة مع المؤمنين، ولو كان القصد فقط هو لا إله إلاّ الله فلماذا تحارب قريش، ولماذا تتحمل في ذلك العنت والمشقة، وقتل الأولاد وقتل الآباء وقتل الأقرباء،

ومصادرة الأموال، والخوف الشديد، فلو كان القصد هو اللفظ ما حاربوا، ولقالوها وبقوا على عبادة أصنامهم ودعائها والتقرب إليها والذبح لها والنذر لها والاستغاثة بها، لكنهم يعلمون أن لا إله إلاّ الله تغير حياة الإنسان، حياته الشخصية وحياته الأسرية وحياته الاجتماعية كلها تتغير، تصبح الحياة لها نظام جديد غير النظام السابق الذي كانت عليه قبل أن تقول هذه الكلمة، فلا إله إلاّ الله حياة كاملة تحيط بالإنسان من كل مكان، لقلبه ولقوله ولجوارحه ولأخذه وعطائه وعلاقاته وسلوكه وأخلاقه، كل هذه تندرج في دائرة لا إله إلاّ الله، فلو كان التلفظ بلا إله إلاّ الله يكفي لقالتها قريش، ولما تحملت الحرب الشديدة والصراع والعداء وإراقة الدماء تلك الفترة طويلة، لكنها لا تكفي، إذ لا بد من معناها، فليس الهدف والغرض أن تقول لا إله إلاّ الله، بل الغرض أن تقولها معتقداً لها، مصدّقاً بها، ملتزماً بحقوقها، فكل لفظ له معنىٰ، فالقصد من الألفاظ أن تدلّ علىٰ المعاني، وليس القصد هو الألفاظ وحدها.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ذكر شيء من كلام العلماء في ذلك، وإن كنا غنيين بكتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ عن كل كلام إلاَّ أنه قد صار بعض الناس منتسباً إلىٰ طائفة معينة، فلو أتيته بكل آية من كتاب الله وكل سنة عن رسول الله ﷺ لم يقبل حتىٰ تأتيه بشيء من كلام العلماء أو بشيء من كلام طائفته التي ينتسب إليها.

الشَّرْح

الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ يشير إلىٰ مسألة مهمة، وهو أنه قد أورد الآيات وأورد الأحاديث، وما أورده من ذلك يكفي للمسلم، لكن يقول: قد جد في حياة المسلمين أمر جديد وهو انقسام المسلمين إلىٰ طوائف، وأصبح لكل طائفة منهج، وأصبح لكل طائفة زعماء، وأصبح لكل طائفة علماء، فلا يقبلون الكلام في الدين ما لم يأت عن طريق علمائهم أو زعمائهم، فإن المسلمين في أول أمرهم كانوا أمة واحدة كلهم علىٰ منهج واحد، ثم طرأ في الأمة ذلك التفرق ابتداءً من أواخر القرن الأول وإلىٰ اليوم، فجد في حياة المسلمين فِرق، وجد في حياة المسلمين طوائف ومذاهب، فسابقاً كان الانتساب إلىٰ الإسلام، يكفي أن تقول أنا مسلم لكن بعد أن توسعت الدائرة، وكثرت البدع، وكثرت الطوائف، وكثرت الفرق أصبح المسلم يحتاج أن يتميز، فيقول أنا مسلم علىٰ مذهب الأشاعرة أو علىٰ مذهب المعتزلة أو علىٰ مذهب أهل السنة والجماعة، وكانت البداية لهذه المذاهب التي طرأت في الأمة الاختلاف في فهم النصوص الشرعية، فكل طائفة نشأت من شخص، فأول من أنشأ الطوائف أفراد، فمثلاً: في بداية القرن الثاني أو في أواخر القرن الأول ظهر رجل اسمه غيلان الدمشقي، وهذا كان أول من قال بالقدر ونشره بين الناس، ثم تُنسب إليه فرقته، ثم جاء بعده الجعد بن درهم ونشر الجهم بن صفوان معتقد الجعد، فأصبح كل من يقول بآراء الجهم يُنسب إلىٰ الجهم بن صفوان، ثم

ظهر واصل بن عطاء الذي اعتزل حلقة الحسن البصري وسُمي بالمعتزلة هو ومن كان معه وهؤلاء يقدمون العقل علىٰ النقل، وكل من قدَّم العقل علىٰ النقل أصبح ينسب إلىٰ المعتزلة أو إلىٰ المتكلمين، ثم في القرن الثاني في وسطه ظهرت المذاهب الأربعة، وهذه طوائف أهل السنة، فأولاً ظهر أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ وتكلم في الاستنباط من النصوص الشرعية والأحكام في القضايا الحادثة فأصبح له مذهب مستقل، ثم ظهر بعده الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأصبح له مذهب مستقل، ثم الشافعي، ثم ابن حنبل رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ وهذه أربعة مذاهب كلها داخل السنة، وأصبحت هذه المذاهب منتشرة بين الناس وتوزع المسلمون علىٰ هذه المذاهب، فأصبحت كل طائفة لها منهجها ولها طريقتها في استنباط الأحكام الشرعية.

وكان الناس في السابق كلهم سواء لا تجد بينهم اختلافاً ثم طرأت هذه الخلافات، وهذه تُسمىٰ المذاهب الإسلامية ، وأصبح لكل مذهب علامات تدل عليه، والإنسان يستطيع أن يعرف أن هذا الشخص حنفي المذهب أو مالكي المذهب أو شافعي المذهب أو حنبلي المذهب، ونأخذ مثالاً فقط للصلاة: فالناس إذا دخلوا الصلاة يرفعون أيديهم في تكبيرة الإحرام، ثم يبدأ المالكي بقراءة الفاتحة بدون بسملة ويرىٰ أن البسملة قراءتها مكروهة، ثم يأتي الشافعي ويقرأ البسملة جهرةً في الصلاة الجهرية، فمن قرأ البسملة في الصلاة الجهرية نُسب إلىٰ الشافعي، ويأتي الحنبلي ويقرأ البسملة في الجهرية سراً، فمن قرأ البسملة في الصلاة الجهرية سراً نُسب إلىٰ الحنابلة وهكذا، فأصبحت المذاهب تصبغ الناس بصبغتها، هذه ظهرت في العصور الماضية وفي كل عصر يظهر طوائف، ويظهر مذاهب، ويظهر اتجاهات، فيقوم شخص ذو مواهب قوية وذو تفكير جيد واستنباطات قوية، فيصبح بداية لمذهب فقد ينشق عن مذهب وقد يستمر في مذهب، لكن المذاهب الفقهية قد استقرت علىٰ المذاهب الأربعة، وفي داخلها يكون الاجتهادات، فيضرب لهذا مثال:

يقال الماء الذي ينزل من السماء لا لون له ولا طعم له ولا رائحة، لكن الناس لونوه فإذا وضعوا عليه شيئًا من القهوة أصبح بشكل القهوة، وإذا وضع عليه شيء من الشاي أصبح بشكل الشاي، وإذا وضع عليه أصبغة مختلفة يتلون بحسب الصباغ الذي يوضع فيه، فكذلك الإسلام، لون بألوان أفكار البشر، فمثاله كنهر لا لون له ولا طعم له ولا رائحة، فتوزع هذا النهر، وأصبح بين هذا النهر حواجز، فأصبح فرع من هذا النهر لونه أصفر، وفرع آخر لونه أخضر، وفرع آخر لونه أحمر، فتلونت هذه المياه، فالإنسان الذي يعيش في داخل حاجزين بلون أصفر لا يستغرب ولا يستنكر، لكن لو ظهر عليه شخص من النهر الثاني بلون أخضر أنكره؛ لأنه يرىٰ شكلاً آخر غير الشكل الذي عاش عليه، وهكذا، فالذي تربىٰ علىٰ مذهب يفاجأ إذا سمع من يخالفه، فمن تربىٰ علىٰ عدم قراءة البسملة في الصلاة ثم سمع إنسانًا يقرأ البسملة ينكره ويستغرب، بل ربما لا يصلي خلف هذا الشخص، ويذكر أحد الأساتذة وهو حنفي المذهب ولكنه ليس متعصبًا لمذهبه، فكان يميل إلىٰ القواعد العامة في المذهب الحنفي فيما لم يأت فيه دليل، أما إذا جاء الدليل فيقدمه، فذهب إلىٰ بعض البلدان الإسلامية التي فيها أحناف، فيعرفون أن هذا الشخص حنفي المذهب، فصلىٰ بهم الصلاة، ولكنه رفع يديه عند الدخول في الصلاة وعند الركوع وعند الرفع منه ثم تورك في الصلاة ـ والأحناف لا يتوركون في الصلاة، فالمالكية يتوركون في التشهد الأول وفي الثاني، والأحناف لا يتوركون لا في الأول ولا في الثاني، والشافعية والحنابلة يتوركون في التشهد الأخير ـ فعندما رأوه صلىٰ صلاة ليست هي الصلاة التي رأوها في كتب الأحناف فبعد أن انتهت الصلاة قام جميعهم وأعادوا الصلاة؛ لأنهم لم يروا هذه الأشياء.

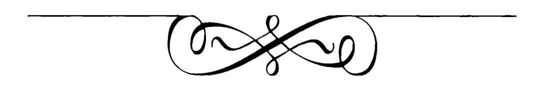
فالمذاهب أصبحت تقسم الناس، ولكن ينبغي أن ينشر بين الناس أن هذه اجتهادات العلماء رحمهم الله وأحيانًا تكون المسألة في مذهب الأحناف أقوىٰ منها في مذهب الحنابلة؛ لأنها تكون أقرب إلىٰ الدليل، وأحيانًا العكس، فينبغي

للمسلم أن يتفهم هذا الوضع في المذاهب الإسلامية وأن يحرص على متابعة الدليل، وإن كان على مذهب معين، لا يمنع أن يبقى الإنسان على مذهب معين في الاستنباط في المسائل العامة أو في القواعد العامة الفقهية كما في الأصول، لكنه ينبغي أن يكون في نفسه أنه إذا جاء الدليل يأخذه لا يقول كما يقول بعض الناس إذا جاء الدليل: هذا الدليل لو كان صحيحاً لقال به إمامي إمام المذهب، نحن نقول: لا يوجد إمام من أئمة المسلمين أحاط بكل السنة، فإنه علمه أنقص من علم رسول الله ﷺ، فإذا وجد عالم أحاط بكل السنة يكون علمه كعلم رسول الله ﷺ وهذا لم يقله أحد، وفي العصر الحاضر الطالب الصغير يستطيع أن يعرف أحاديث عن طريق الحاسب الآلي بما لم يعرفه الأئمة الأربعة لكن لا يعني هذا أنه أصبح أعلم منهم؟ لأنهم كان في أذهانهم هذه العلوم، فالإمام أحمد رحمه الله نراه في المسألة الواحدة أحياناً يكون له سبعة أقوال؛ لأنه يقول بقول موافقةً لحديث فيظهر له ضعفه ويأتي حديث أقوى منه فيقول به، أو يقول بالقول استنباطاً من حديث آخر، فيأتيه حديث فيه نصٌّ مباشر فيقول به، وتكثر أقواله وهكذا العلماء، فإذاً الإمام أحمد رحمه الله وهو آخرهم لم يحط بالسنة، لهذا نراه أقواله مختلفة في المسألة الواحدة، فلا ينبغي للمسلم أن يقول إن مذهبي هو الحق والباقي كله باطل، إنما قد يكون فيه بعض الخطأ وتكمله من المذهب الآخر إذا وجد هناك دليل؛ لأن القصد من اتباع العالم الدليل.

فيقول الشارح رحمه الله: إن أتباع المذاهب لا يثقون إلا في أئمتهم، هكذا تربوا على هذه الحال، وهذا نفسه يحدث في الاتجاهات الإسلامية في كل عصر أن الإنسان يحصر نفسه في دائرة معينة لا يقبل القول من خلافها، وهذا خطأ وتعصب مذموم، فالمسلم لا ينبغي له أن يعتقد أن ما خرج عن هذه الدائرة يكون باطلاً، قد يكون فيها حق وقد يكون فيها باطل، وكذلك لا ينبغي له أن لا يوالي إلا من كان في هذه الدائرة، ينبغي أن يكون ولاؤه حباً وبغضاً يقوم

علىٰ القواعد الشرعية، فقد يكون هناك إنسان ليس في هذه الدائرة أفضل ممن يكون في هذه الدائرة، فتعطيه من الحب والولاء أكثر مما تعطيه ممن يكون في هذه الدائرة، ثم إن الولاء والبراء يكونان مع المسلمين، ولا يكونان علىٰ مذاهب، ولا يكونان علىٰ اتجاهات، الولاء والبراء بين المسلمين والكافرين، المسلم أخو المسلم ولو كان فاسقًا وعاصيًا، ولو كان فيه بعض البدع الصغيرة، فبهذه المعاصي لا يجوز لك أن تتبرأ من أخيك المسلم، ولهذا الحديث قال: (**المسلم أخو المسلم**)(١) والمسلم يُطلق علىٰ كل من كان في دائرة المسلمين ولو كان فيه معصية، ولو كان فيه انحراف، لكن لا تحب معصيته ولا تُقره عليها، إنما تحبه لإيمانه، لقوله لا إله إلا الله محمد رسول الله، وهو أعظم مما معه من المعصية، لكن تكره ما أتىٰ من المعصية، بعض الناس يجعل الولاء والبراء في داخل المسلمين في المجتمع الإسلامي، وهذا خطأ، الولاء والبراء لا يكونان إلا مع الكافرين، لا يكونان إلا مع أعداء الدين، لكن قد تحب إنسانًا وتكره بعض ما فيه، فإذا وُجد مسلم فيه معصية لا تتبرأ منه، وإلا فمن منا يكون سليمًا من المعصية؟ كل بني آدم خطاء، ليس فينا أحد لا يخطئ ولا يقع منه معصية، فالإنسان قابل للخطأ ولو كان صالحًا، فالحب والبغض يتبعضان في مذهب أهل السنة والجماعة، تحب إنسانًا لتوحيده وإيمانه وتكره ما فيه من معصية إذا خالف دين الله سبحانه وتعالى.

فهنا يقول الشارح رحمه الله: إنه سيأتي بأقوال من أقوال علماء المذاهب ليقرر المسألة التي ذكرها أن من دعا غير الله أو عبد غير الله فإنه يكون مشركًا.



---

(١) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال الإمام أبو الوفاء علي بن عقيل الحنبلي صاحب كتاب الفنون الذي ألفه في نحو أربعمائة مجلد وغيره من التصانيف قال في الكتاب المذكور: لما صعبت التكاليف على الجهال والطغام عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم، فسهلت عليهم، إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم، وهم عندي كفار لهذه الأوضاع مثل: تعظيم القبور، وخطاب الموتى بالحوائج، وكتب الرقاع فيها يا مولاي افعل بي كذا وكذا، أو إلقاء الخرق على الشجر اقتداء بمن عبد اللات والعزى، نقله غير واحد مقررين له راضين به، منهم: الإمام أبو الفرج بن الجوزي، والامام ابن مفلح صاحب كتاب (الفروع) وغيرهما.



الشَّرْح

ابن عقيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ حنبلي المذهب واسمه: علي بن عقيل، توفي في أوائل القرن السادس عام خمسمائة وثلاثة عشر، كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أول حياته على مذهب المعتزلة لكنه أظهر التوبة منه وأعلن رجوعه إلى مذهب السلف، لكنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقي عنده بواقٍ لم يصفو مشربه، ولكنه في جانب توحيد العبادة على مذهب السلف، فإنه يقول: إن بعض الناس لا يتحمل أوضاع الشريعة فعدل عنها إلى اختراع مذاهب وأوضاعٍ جديدة منها: تعظيم القبور، ودعاؤهم، وطلب قضاء الحوائج منهم، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن هؤلاء عندي كفار بهذه الأوضاع، وهو قد أصاب؛ لأن هذا حق الله صرفوه لغيره، فكل من صرف حق الله لغيره فقد أشرك معه عَزَّ وَجَلَّ، فهذه أوضاع كانت في عصره، فهذه البدع قد ظهرت في وقت مبكر من الأمة، ومن العلماء من يرى أن تعظيم القبور ظهر على أيدي

الروافض، وأيدي العبيديين في مصر عندما حكموا مصر، هم أول من أعلوا المشاهد، وبنوا عليها القباب وعظموها، فإنهم كانت دولتهم دولة باطنية، وقد ظهرت في المغرب ثم اتجهت حتى حكمت مصر قُرابة القرنين من الزمان، وهم الذين بنوا مدينة القاهرة،والقاهرة قبل دخولهم إلى مصر عام ثلاثمائة وخمسين للهجرة لم تكن موجودة، والآن قد بُنيت وأصبحت من أكبر المدن بل أكبر المدن في الدول العربية، فإن تعداد سكانها يقرب عشرة ملايين أو أكثر، فلم يكن هناك قبل ذلك مسجد يُسمى مسجد الحسين، والحسين قد قتل في العراق في منتصف القرن الأول، فبين استشهاده -**رحمه الله ورضي الله عنه وعليه السلام**- لأنه من آل بيت رسول الله ﷺ في منتصف القرن الأول إلى بناية القاهرة ثلاثمائة سنة، فكيف جاء الحسين إلى هذا المكان؟ كيف يجيء ببدنه وبجثته إلى هذا المكان، وقد استشهد قبل ثلاث مائة سنة من السنوات الهجرية؟، ويصبح له مسجد وضريح ويُعتقد أنه فيه، ويوجد كذلك له في العراق مسجد، وفي الأردن مسجد، وفي سوريا مسجد، وهذه كلها بُنيت على غرار مسجد القاهرة أي يزعمون أن هذا المكان يحضر فيه روحه ومن حضره وطاف حوله وتبرك به فإن الحسين يعلم عنه ويرضى عنه أو كما يعتقدون، فالشاهد أن هذه القبور أُحدثت في سنوات متأخرة ولم تكن في القرن الأول ولا القرن الثاني موجودة، وإنما ظهرت مع ظهور الدولة العبيدية، فيقول ابن عقيل رحمه الله: إن من دعا واستغاث وذبح، وكتب الرقاع وألقاها في القبور، ونادى فيها الموتى فقد كفر واقتدى بمن عبد اللات والعزى. وهذا الكلام نقله ابن الجوزي وابن مفلح رحمهما الله، وابن الجوزي متوفًى في القرن السادس أو في أواخره، وابن مفلح في القرن الثامن، وكلاهما نقلا هذا القول وأقراه ولم يعقبا عليه.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال شيخ الإسلام في الرسالة السنية: فإذا كان على عهد النبي ﷺ من انتسب إلى الإسلام من مرق منه مع عبادته العظيمة فليعلم أن المنتسب إلى الإسلام والسنة في هذه الأزمان أيضًا قد يمرق أيضًا من الإسلام، وذلك بأسباب منها:

الغلو الذي ذمه الله في كتابه حيث قال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء:١٧١] الآية، وكذلك الغلو في بعض المشايخ، بل الغلو في علي بن أبي طالب، بل الغلو في المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكل من غلا في نبي أو رجل صالح وجعل فيه نوعًا من الإلهية مثل أن يقول: يا سيدي فلان انصرني أو أغثني أو ارزقني أو أجبرني أو أنا في حسبك ونحو هذه الأقوال فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه فإن تاب وإلا قتل، فإن الله إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب ليعبد وحده ولا يدعى معه إله آخر، والذين يدعون مع الله آلهة أخرى مثل: المسيح، والملائكة، والأصنام، لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق، أو تنزل المطر، أو تنبت النبات، وإنما كانوا يعبدونهم أو يعبدون قبورهم، أو يعبدون صورهم يقولون: إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى، ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، فبعث الله رسله تنهى أن يدعى أحد من دونه لا دعاء عبادة، ولا دعاء استغاثة. انتهى.


الشَّرح

قوله: (وقال شيخ الإسلام في الرسالة السنية) هنا يشير إلى كلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في رسالة سماها: (الرسالة السَنِية) أو (السُنِّية) والصحيح أنها: (السِينية)

هكذا ثبت في كتبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ ولا يوجد له رسالة اسمها الرسالة السَنية أو السُنية، وإنما الرسالة السينية كما في المخطوطات التي لم تُطبع من كتبه، فإنه يقول: إنه إذا كان في أول الإسلام من مرق من الإسلام فما بالك بالأزمنة المتأخرة؟ ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن أسباب المروق من الإسلام كثيرة، وأولها: الغلو في دين الله عَزَّ وَجَلَّ، أو الغلو في الأشخاص، أو الغلو في الأوامر الشرعية، أو الغلو في النواهي الشرعية أي الزيادة، هذا أول وأعظم أسباب الانحراف عن دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

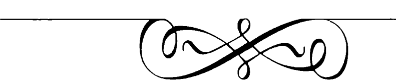
قوله: (**الغلو الذي ذمه الله في كتابه**) الغلو ذمه الله عَزَّ وَجَلَّ ونهىٰ عنه، وكذلك نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فقال: (**إياكم والغلو**)[1] والغلو هو: الزيادة في الدين، كما أن النقص من الدين حرام كذلك الزيادة في الدين حرام، فالغلو في المشايخ من الصوفية، فإن الصوفية غلوا في مشايخهم واعتقدوا فيهم العصمة، وكذلك الرافضة غلت في أئمتها واعتقدت فيها العصمة، والصوفية يعتقدون أن مشايخهم قد أصبحوا في درجة فوق درجة التكليف، وأنهم إذا وصلوا إلىٰ هذه الدرجة يسقط عنهم التكليف الشرعي ويستنبطون هذا من قول الله تعالىٰ: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر:٩٩] فقالوا: اليقين درجة من درجات العلم أو درجات الإيمان، والشيخ قد وصل إلىٰ هذه الدرجة فيسقط عنه التكليف، فلا يصلي ولا يصوم، وتُباح في حقه جميع المحظورات، وهذا ـ نعوذ بالله ـ افتيات علىٰ دين الله عَزَّ وَجَلَّ، فلو كان اليقين درجة من درجات الإيمان لكان نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أولىٰ بها، فما بال نبينا ﷺ مكث يعبد الله، ويقيم الصلوات، ويجاهد في سبيل الله، ويقيم الليل حتىٰ تورمت قدماه الشريفتان، ومات وهو يعبد الله عَزَّ وَجَلَّ، فنبينا

(١) سبق تخريجه.

ﷺ لم يبلغ هذه الدرجة التي يزعمونها لأوليائهم ولمشايخهم، ثم اليقين الذي جاء في كتاب الله هو الموت في أكثر من آية، فليس المراد به هو الدرجة العلمية أو الإيمانية أو التصديقية، بل المراد به هو الموت الذي يأتي الإنسان، أي: لا يأتيكم الموت إلا وأنتم على الإيمان بالله وطاعته، فالصوفية غلوا في مشايخهم، وكذلك الرافضة غلت في أئمتها وغلوا في علي رضي الله عنه على اختلاف مذاهبهم، منهم من قال: إنه إله، ومنهم من قال: حل فيه الإله، ومنهم من قال: إنه لم يمت وسيرجع، ومنهم من قال: هو الوصي بعد رسول الله ﷺ وهكذا ..، فهذه كلها من الغلو المذموم، فكل من غلا في شخص فإنه يدخل في الغلو المذموم، كذلك الغلو في الأوامر والنواهي كما فعلت الخوارج، فإنهم طبقوا الأوامر والنواهي أو الأحكام التي جاءت في الكفار على المسلمين، فغلوا في الأوامر والنواهي، وهذا غلو مذموم، وقابلهم المفرطون في الأوامر والنواهي وهم: المرجئة، وكلتاهما طائفتان متقابلتان، فالغلو كله مذموم، أما من دعا غير الله: يا سيدي فلان أو يا مولاي فلان انصرني أو أغثني أو ارزقني، أو أنا في حسبك أي في رعايتك أو نحو ذلك فهذا أشرك في هذا القول، ومن قاله يعلم أن هذا شرك فإن أصر يقول فيه ابن تيمية رحمه الله يُقتل؛ لأن هذا صرف حق الله لغيره من خلقه.

قوله: **(فبعث الله رسله تنهى أن يدعى أحد من دونه لا دعاء عبادة)** يقول رحمه الله: إن المقصد الذي من أجله جاءت الرسل هو: أن ينهوا الناس عن دعاء غير الله، والاستغاثة بغير الله، والنذر لغيره، وهذا هو لب وخلاصة دعوات الرسل؛ فالذي يخالفها ويدعو غير الله، ويستغيث بغير الله فإنه قد شابه الأمم المشركة التي جاء الأنبياء لدعوتهم إلى أن يوحدوا الله عز وجل، ويذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه عنهم أنهم يقولون: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا

لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر:٣] يعني يعترفون بأنهم يعبدونهم، لكنهم يقولون: لا نعبدهم لذواتهم إنما نعبدهم لأمر آخر وهو: أن يقربونا إلىٰ الله؛ لأننا مخطئون وفينا معاصٍ وتقصير، ولا نصلح أن نتصل بالله مباشرةً، فهؤلاء وسطاء بيننا وبين الله ﷻ، فهؤلاء أطهار وأولياء لله، هكذا يزعمون، ووصف الله بأن هذا عبادة، فإنهم عبدوهم ودعوهم من دون الله، وصرفوا حق الله لهم، فلم يجعلوهم وسطاء فقط، وإنما جعلوهم آلهة كما قال الله في آية أخرىٰ عندما أنكروا علىٰ نبينا عليه الصلاة والسلام لما دعا إلىٰ التوحيد قالت قريش: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ ﴾ [ص:٥] فهم أنكروا أن تكون العبادة خاصة لله وحده، وكانوا يعتقدون أنه لا بد أن يعبدوا مع الله غيره، وأن هذا حق لهؤلاء الأولياء مع الله ﷻ، كما مر أن بعض المسلمين أَلَّفوا كتباً في الاستغاثة برسول الله ﷺ، وجوزوا أن يُدعىٰ رسول الله ﷺ فيما يُدعىٰ فيه الله ﷻ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد نص الحافظ أبو بكر أحمد بن علي المقريزي صاحب كتاب (الخطط) في كتاب له في التوحيد على أن دعاء غير الله شرك.

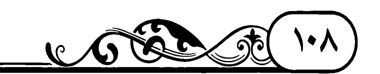
وقال شيخ الإسلام: من جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم يدعوهم ويسألهم كفر إجماعًا. نقله عنه غير واحد مقررين له منهم: ابن مفلح في (الفروع)، وصاحب (الإنصاف)، وصاحب (الغاية)، وصاحب (الإقناع) وشارحه وغيره، ونقله صاحب (القواطع) في كتابه عن صاحب (الفروع).



الشَّرْح

قوله: (وقد نص الحافظ أبو بكر أحمد بن علي المقريزي) المقريزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ شافعي المذهب، عاش في القرن التاسع، وقد توفي عام ثمانمائة وخمس وأربعين للهجرة، ويُسمىٰ: مؤرخ الديار المصرية، وهو كان يسير علىٰ منهج ابن تيمية رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ في توحيد العبادة، وله رسالة صغيرة تُسمىٰ: (تجريد التوحيد) وهذا النص منقولٌ منها، فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن من دعا غير الله فقد أشرك مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله: (وقال شيخ الإسلام: من جعل بينه وبين الله وسائط ..) هذا النص ذكره ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ ونقله المؤلفون في المذهب الحنبلي، فهذه كلها كتب حنبلية، فـ(الإنصاف) لعلاء الدين أبي الحسين علي بن سليمان المرداوي، المتوفىٰ في منتصف القرن التاسع، و (غاية المنتهىٰ في الجمع بين الإقناع والمنتهىٰ) لمرعي بن يوسف الحنبلي، و (الإقناع) لأبي النجا شرف الدين الحجاوي، وشرح الإقناع الذي يسمىٰ (كشاف القناع عن متن الإقناع) لمنصور بن يونس البهوتي، فكلهم نقلوا هذا النص من ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقرروه ولم يُنكروا عليه في تكفير من دعا غير الله عَزَّ وَجَلَّ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قلت: وهو إجماع صحيح معلوم بالضرورة من الدين، وقد نص العلماء من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم في باب حكم المرتد على أن من أشرك بالله فهو كافر أي: عبد مع الله غيره بنوع من أنواع العبادات، وقد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع: أن دعاء الله عبادة له فيكون صرفه لغير الله شركًا.



الشَّرْح

هذا مدخل إلى نقل نصوص من كلام العلماء من أتباع المذاهب المختلفة، فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن هذا معلوم الدين بالضرورة، وأنه قد نص عليه أكثر من عالم من علماء المذاهب الأربعة، ولا يعني هذا أن جميع أتباع المذاهب يقررون هذا، بل قد يوجد فيهم من يخالفه، لكن ليس العبرة بمن يخالف، بل العبرة بمن يتبع الدليل ويلتزم بمنهج الكتاب والسنة، وإلا فقد يستنبطون من بعض الأحاديث التي تدل ألفاظها على التحريم ويقولون إن الفعل مكروه، فمثلاً: الأحاديث التي جاءت في النهي عن بناء القبور والصلاة في المقبرة، واتخاذ المساجد على القبور كلها أدلة صريحة منها: اللعن، وكلها في الصحاح، وبعض العلماء يقول: إن الصلاة في المقبرة مكروهة، وأن إقامة المسجد على القبر مكروهة، والشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بعض كلامه يقول: نحمل قوله على كراهية التحريم، فإن الأحناف كثيراً ما يستخدمون الكراهة على كراهة التحريم، ويقول: نحن ينبغي أن نجلهم أن يضادوا قول رسول الله ﷺ، الرسول ﷺ يلعن من يفعل هذا، ويقول الشخص: من يفعله فقد فعل مكروهًا، هذا خلاف النص، جاء في قواعد العلماء في تعريف الكبيرة أن الفعل الذي يختم بلعن أو وعيد أو بنار أو بغضب يكون من كبائر الذنوب، فهذا

الحديث (لعن الله اليهود والنصارىٰ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا يحذر ما صنعوا[١]، فإذا كان الرسول ﷺ لعن من يتخذ القبر مسجداً أي يصلي عليه، فهذا يكون للحرمة لا للكراهية، فأحياناً بعض الاستنباطات يكون فيها شيء من التساهل، ولهذا نرىٰ كثيراً ممن يدرس الفقه الإسلامي علىٰ قواعد المذاهب تراه يتساهل حتىٰ في الواجبات؛ لأن العلماء أحياناً يقولون إن هذا مكروه مع أن النص فيه شديد، فهذا الشخص يتساهل فيه ويظن أن هذا مكروه أي الذي يؤجر تاركه ولا يأثم فاعله، فما دام ليس هناك إثم وهو محتاج إلىٰ هذا الفعل فيفعله مع أن الأحاديث تكون فيه شديدةً جداً، فلا ينخدع الإنسان عندما يُقال في كتب الفقه الإسلامي مكروه، وقد جاء الحديث بالتحريم، مثلاً: إسبال الثوب قد جاءت فيه أحاديث مشددة جداً منها: حديث (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة)[٢] أولهم المسبل فيأتي بعض العلماء يقول: باب كراهة إسبال الثياب، فيظن هذا القارئ أن هذا مكروه مع أنه حرام، أو مثلاً: باب كراهة حلق اللحية وفيها أكثر من عشرة أحاديث تنص علىٰ تحريم حلق اللحية وهكذا، فلا ينبغي للإنسان أن ينخدع بعبارات المؤلفين وبتبويباتهم، وبما يُقال في مختصرات الفقه الإسلامي، بل عليه أن يبحث عن الدليل، فإذا رأىٰ الدليل قوياً في نصه وحده لا ينبغي له أن يعدل عنه إلىٰ قول يكون صاحبه قد أخطأ ويكون له أجر؛ لأنه إذا اجتهد فأخطأ فإنه مأجور، لكن علىٰ من أراد أن يتثبت في دينه ألا يستعجل في أخذ الأحكام من هذه العبارات الموهمة.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

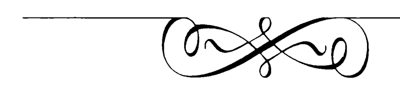
وقال الإمام ابن النحاس الشافعي في كتاب (الكبائر): ومنها إيقادهم السرج عند الأحجار والأشجار والعيون والآبار، ويقولون: إنها تقبل النذر، وهذه كلها بدع شنيعة، ومنكرات قبيحة تجب إزالتها ومحو أثرها، فإن أكثر الجهال يعتقدون أنها تنفع وتضر، وتجلب وتدفع، وتشفي المرضىٰ، وترد الغائب إذا نذر لها، وهذا شرك ومحادة لله تعالىٰ ولرسوله ﷺ.



الشَّرح

النحاس رَحِمَهُ ٱللَّهُ شافعي المذهب عاش في أواخر القرن الثامن في مصر، وهو عالم له نظرات جيدة وله كلام جميل في كتاب سماه: (تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين) كتاب مطبوع وجيدٌ في بابه، وله رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الكتاب تقعيدات جميلة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وله كتاب اسمه: (مصارع العشاق في الجهاد)، ودعا الله في أول هذا الكتاب أن يميته شهيداً، وقد استجاب له فمات شهيداً في حرب المسلمين مع الصليبيين، فهنا يذكر ما يوجد في عصره من بعض الجهلة أنهم يعظمون القبور، ويبنونها بالأحجار اللماعة، ويُعتنىٰ بها، وتوقد عندها السرج، ويزعمون أنها تقبل النذر، ولهذا يستنزفون أموال المساكين، وأموال المحتاجين، فيأتي المرضىٰ وأصحاب الحاجات بالنذور ويقدمون الزيوت لهذه الشموع، وهذا كله حرام فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من اعتقد هذا فإن هذا شركٌ ومحادةٌ لله تعالىٰ ولرسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وما من عالم ترىٰ فيه روح الجهاد، وروح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا وترىٰ استنباطاته قريبةً من الصواب إن لم تكن صواباً، ولا تكاد تجد عالماً ترىٰ في فتاواه شيئاً من التقليد إلا وتراه قد ينحرف، فالذي قبله ينحرف درجة

واحدة وهو ينحرف درجتين ومن بعده ثلاثـًا وهكـذا حتـىٰ تنفـرج الزاويـة؛ لأن بعض العلماء يميل إلىٰ التساهل في الأحكام الشرعية حتىٰ تجد أحيانـًا كثيـراً من الواجبات يُطلق عليها عبارات ليست شافية ولا كافية.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قلت: فصرح رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الاعتقاد في هذه الأمور أنها تضر وتنفع، وتجلب وتدفع، وتشفي المرضىٰ، وترد الغائب إذا نذر لها أن ذلك شرك، وإذا ثبت أنه شرك فلا فرق في ذلك بين اعتقاده في الملائكة والنبيين ولا بين اعتقاده في الأصنام والأوثان، إذ لا يجوز الإشراك بين الله تعالىٰ وبين مخلوق فيما يختص بالخالق سبحانه كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:٨٠] وهذا بعينه هو الذي يعتقده من دعا الأنبياء والصالحين، ولهذا يسألونهم قضاء الحاجات، وتفريج الكربات وشفاء ذوي الأمراض والعاهات، فثبت أن ذلك شرك.

الشرح

هذه الآية: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:٨٠] أي: أن الأنبياء لا يدعون الناس ويأمرونهم بأن يتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً من دون الله، إنما يدعونهم لأن يتخذوا الله رباً واحداً، فمنهج جميع الأنبياء هو دعوة الناس إلىٰ عبادة الله وإلىٰ توحيده في ربوبيته وفي ألوهيته، وتوحيد الربوبية يتعلق بفعله عَزَّ وَجَلَّ، فإن الأفعال في الدنيا علىٰ قسمين: فعل الله وفعل العبد، ففعل الله يتعلق بتوحيد الربوبية وهو معنىٰ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ وفعل العبد يتعلق بتوحيد الألوهية وهو: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فالله عَزَّ وَجَلَّ أرسل الرسل ليأمروا الناس بأن يوحدوا الله في أفعالهم، ولم يرسلهم ليأمروا الناس بأن يتخذوا الملائكة أرباباً من دون الله، وأن أحداً مع الله عَزَّ وَجَلَّ يشاركه في النفع والضر، بل كلها بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهذا هو دعوة جميع الأنبياء.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى- في شرح المنازل: ومن أنواعه: أي: الشرك طلب الحوائج من الموتىٰ، والاستغاثة بهم، والتوجه إليهم، وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله وهو لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعـًا، فضلاً لمن استغاث به أو سأله أن يشفع إلىٰ الله، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده، فإن الله سبحانه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، والله سبحانه لم يجعل سؤال غيره سببـًا لإذنه، وإنما السبب لإذنه كمال التوحيد، فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن، والميت محتاج إلىٰ من يدعو لـه كما أمرنا النبي ﷺ إذا زرنا قبور المسلمين أن نترحم عليهم، وندعو لهم ونسأل لهم العافية والمغفرة، فعكس المشركون هذا وزاروهم زيارة العبادة، وجعلوا قبورهم أوثانـًا تعبد، فجمعوا بين الشرك بالمعبود وتغيير دينه ومعاداة أهل التوحيد، ونسبتهم إلىٰ التنقيص بالأموات، وهم قد تنقصوا الخالق سبحانه بالشرك وأولياءه الموحدين بذمهم ومعاداتهم، وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص، إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا، وأنهم أمروهم به، وهؤلاء هم أعداء الرسل في كل زمان ومكان، وما أكثر المستجيبين لهم، ولله در خليله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حيث قال: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم:٣٥، ٣٦]، وما نجا من أشرك بهذا الشرك الأكبر إلا من جرد توحيده لله، وعادىٰ المشركين في الله، وتقرب بمقتهم إلىٰ الله.

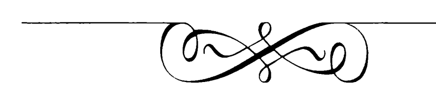


الشـرح

هذا النص في كتاب (مدارك السالكين) وهو في ثلاثة مجلدات، من آخر ما كتب ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد شرح به كتاب الهروي واسمه: عبد الله بن محمد

الهروي شيخ خراسان في عصره، توفي عام أربعمائة وواحد وثمانين للهجرة، وله مؤلفات في إثبات الصفات وذم الكلام وأهله، وكان مظهراً للسنة داعية إليها، امتُحن بسببها فهذا الذي جعل ابن القيم يعظمه أنه كان أمّاراً بالمعروف وناهياً عن المنكر، ومجاهداً في ذلك، وكان على مذهب السلف في مسألة الصفات، لكنه رحمه الله له تخليطات في توحيد العبادة، وله كلام وعبارات مردودة من عبارات المتصوفة خاصةً في تقسيم الدين إلى باطن وظاهر أو عبارات تتعلق بالفناء، وكتاب الهروي اسمه: (منازل السائرين بين إياك نعبد وإياك نستعين)، فجعلها مائة منزلة، فبدأ بالمنزلة الأولى ثم يقول هذه أولها، ثم يترقى إلى الثانية ثم الثالثة، ثم في الدرجة المائة، وهذا أولاً قولٌ على الله بغير علم أن يزعم أن الشكر مثلاً قبل الصبر أو أن الرضا فوق الشكر أو تحت الصبر أو تحت الرضا أو تحت مثلاً قيام الليل أو قراءة القرآن وهكذا .. فهذا كلام ليس له دليل أصلاً، ولكن ابن القيم رحمه الله يعظمه لهذا الجانب، فشرح كتابه وأحياناً يرد عليه ويقول: إن شيخنا إلينا حبيب والحق أحب إلينا منه، وأحياناً يتلمس له التأويل، ولكنه رحمه الله لفرط محبته أحيانا يبالغ في نصرته وفي تخريج كلامه على غير معناه، وفي الحقيقة أن له كلاماً لا يحسن أن يورد ولا أن يؤوّل، بل يُبين أن هذا خطأ وأن هذا مجانب للصواب، فإن العلماء يقولون لا يُؤوّل كلام غير المعصوم، فالذي نبحث عن التأويل له المعصوم الذي لا يخطئ، أما غيره فلا يؤوّل كلامه بل يؤخذ على ظاهره، فمن أظهر كلاماً حقاً قُبل ومن أظهر كلاماً خاطئاً يُرد، أما تلمس الأعذار ولا يجد هناك ما يبرره فهذا في الحقيقة كلام غير سليم، فابن القيم رحمه الله يعظم هذا الشيخ، وهدفه من شرح هذا الكتاب لأن هذا الكتاب اعتمده المتصوفة وقبلوا ما فيه من المصطلحات وقالوا: هذا عالم من علماء المذهب السلفي ويقرر هذه

المصطلحات الحادثة، فجعلوها دليلاً لهم على قبولها، وفي الحقيقة هذه المصطلحات التي أقرها رَحِمَهُ ٱللَّهُ من مصطلحات الصوفية مصطلحات باطلة مردودة لا ينبغي إيرادها أو ذكرها إلا على سبيل بيان بطلانها والرد عليها. ينقل ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الكتاب ويشير إلى أن المشركين استغاثوا بالأموات وزاروهم زيارة عبادة ودعاء، وقال: هؤلاء عكسوا أمر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن الأموات محتاجون ونحن نزورهم للدعاء لهم لا نزورهم لدعائهم، فالشرع علمنا أن نزورهم للدعاء لهم ولم يعلمنا أن نزورهم لدعائهم والاستغاثة بهم أو النذر لهم، فإن هذا محادة لله ورسوله، فينبغي للمسلم أن يزور القبور للعبرة والدعاء لهم، لا يزورهم لغير ذلك.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال الإمام الحافظ ابن عبد الهادي في رده على السبكي وقوله أي: قول السبكي: إن المبالغة في تعظيمه أي: تعظيم الرسول ﷺ واجبة إن أريد به المبالغة بحسب ما يراه كل أحد تعظيمًا حتى الحج إلى قبره، والسجود له، والطواف به، واعتقاد أنه يعلم الغيب، وأنه يعطي ويمنع، ويملك لمن استغاث به من دون الله الضر والنفع، وأنه يقضي حوائج السائلين، ويفرج كربات المكروبين، وأنه يشفع فيمن يشاء، ويدخل الجنة من يشاء، فدعوى المبالغة في هذا التعظيم مبالغة في الشرك وانسلاخ من جملة الدين.



الشَّرْح

هذا النص لابن عبد الهادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يرد على السبكي في زعمه جواز الاستغاثة برسول الله ﷺ.

الحافظ ابن عبد الهادي من تلاميذ ابن تيمية والذهبي رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ وله أكثر من سبعين كتابًا، وقد توفي قبل أن يبلغ الأربعين، وكان من المدافعين عن منهج ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإن ابن تيمية جاء في القرن السابع وأوائل الثامن، وتلك الفترة كانت البدع فيها قد تمكنت من القلوب وأصبحت كأنها جزء من الدين، فعندما أراد الله عَزَّ وَجَلَّ أن يحيي الاعتقاد الصحيح قيض لذلك الزمن ذلكم العالم العملاق شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ فحارب في كل ميدان، ورد على كل بدعة، ومن البدع العبادية في عصره أنهم كانوا يجيزون الاستغاثة بغير الله، وكانوا يجيزون تعظيم الرسل والصالحين بل ودعاءهم، والتبرك بقبورهم، فألف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابًا في تلك المسألة، فرد عليه السبكي أحد علماء الشافعية في

عصره بكتاب رد فيه قول ابن تيمية بالنهي عن الاستغاثة برسول الله ﷺ، وذلكم الكتاب هو الذي تناوله ابن عبد الهادي رحمه الله فرد عليه بكتاب سماه: (الصارم المنكي في الرد علىٰ السبكي)، يأتي بفقرات من كلام هذا العالم ويرد عليه، ويذكر في أوائل هذا الكتاب: إن تعجب فعجبٌ أن يكون عالم من علماء المسلمين يستشهد علىٰ حدث في دين الله بالأحاديث الضعيفة والموضوعة، ولهذا نرىٰ صاحب البدعة إذا تمكنت البدعة من قلبه يتلمس الأدلة الضعيفة ليقوي بها بدعته، ويصرف المعاني للألفاظ والأحاديث الصحيحة لتتفق مع بدعته، فهذا جعل البدعة ديناً ثم ذهب إلىٰ كتاب الله وإلىٰ سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام ليقرر تلك البدعة، فيقول السبكي في كتابه ذلك: والقرآن كله والإجماع المعلوم من الدين بالضرورة وسير الصحابة والتابعين علىٰ وجوب تعظيم النبي ﷺ... إلىٰ هنا كلام صحيح؛ لأنه سيد البشر وبه أنقذنا الله من الجهل ومن الكفر ومن الشرك، كم أوذي عليه الصلاة والسلام؟ وكم استهزئ به وسُخر به؟ ومع ذلك صبر، ولو لم يصبر لما يبلغنا هذا الدين، ولماذا صبر؟ لينقذ هذه البشرية من عبادة غير الله، ليؤدي الأمر الذي أمره الله به، والذي يقرأ سيرته عليه الصلاة والسلام يرىٰ عجباً! سيد البشر المصطفىٰ المختار ﷺ يستهزأ به ويوضع السلىٰ علىٰ ظهره عليه الصلاة والسلام، ويُتهم بأنه ساحر وأنه كاهن وأنه كذاب وأنه شاعر، ويصبر، فأصبح كل عمل صالح يعمله أحد من أمته له ﷺ مثل أجره، فهو أكثر البشرية أجراً يوم القيامة، ولهذا في الجنة مكانة لا يبلغها إلا رجل واحد هو نبينا عليه الصلاة والسلام؛ لأن كل العمل الذي تعمله أمته له مثل أجره، ثم يأتي من بعده الصحابة، كل خير من عهدهم إلىٰ اليوم هو في ميزان حسناتهم؛ لأنهم هم الذين ناصروا رسول الله ﷺ، فقد أوذوا وقد هاجروا، وقد قُتلت أبناؤهم وإخوانهم وآباؤهم وأنفسهم،

وصبروا في سبيل الله، فمن دل علىٰ خير كان له مثل أجر فاعله، ثم قال: ... علىٰ وجوب تعظيم النبي ﷺ والمبالغة في ذلك. والمبالغة يعني الغلو، الزيادة، الإطراء، وهذا ما جاءت النصوص بتحريمه من القرآن والسنة، فأما من القرآن فما قاله ﷻ في خطاب أهل الكتاب عندما قال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء:١٧١] والخطاب للأمم الماضية في الأمر والنهي خطاب لهذه الأمة، فإن الله حرم الغلو، وقال عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع: (**وإياكم والغلو، فإن الغلو أهلك من كان قبلكم**)[١] الزيادة في الدين، الزيادة في إعطاء صاحب الحق فوق حقه، فنبينا عليه الصلاة والسلام له حق لكن لا نرفعه فوق درجته عليه الصلاة والسلام، وقد حذر من ذلك فقال: (**لا تطروني كما أطرت النصارىٰ عيسىٰ ابن مريم إنما أنا عبد الله ورسوله**)[٢]، فجاءت الأحاديث الكثيرة تنهىٰ عن الغلو وعن المبالغة، فقوله: "والمبالغة" كلمة خاطئة ليست صحيحةً ولا سليمةً، بل نحن نعظمه وفق الأمر والنهي كما أمر ربنا ﷻ وكما أمر هو عليه الصلاة والسلام، فنحترمه ولا نرفع صوتنا فوق صوته، ولا نرد أمره ولا نكذب خبره، ونطيعه فيما يأمر ونجتنب ما ينهىٰ عنه ويزجر، ونصدقه فيما أخبر، وننشر سنته ونتمسك بها، ونداقع عنها، هذه حقوقه عليه الصلاة والسلام، لكن الذي يفهم من الحقوق غير هذا لا يُفرق بين الخالق والمخلوق، الخالق له حق والنبي له حق، فحق الله لا نصرفه لخلقه هذا هو الدين، فلا ينبغي أن نبالغ، بل ينبغي أن نقف عند الحد الشرعي، فنعرف للرسول ﷺ مكانته ولا نرفعه فوق منزلته، ولا نقصر في حقه عليه الصلاة والسلام، ثم يقول الشارح رحمه الله: إن كان يُراد بها المبالغة بحسب ما يراه كل أحد

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

تعظيماً، يعني يُفتح الباب لكل من يعتقد أن هذا هو تعظيم لرسول الله ﷺ حتىٰ الحج إلىٰ قبره، والسجود له، والطواف به، واعتقاد أنه يعلم الغيب، وأنه يعطي ويمنع، ويملك لمن استغاث به من دون الله الضر والنفع، وأنه يقضي حوائج السائلين، ويفرج كربات المكروبين، وأنه يشفع فيمن يشاء ويدخل الجنة من يشاء فدعوىٰ المبالغة في هذا التعظيم مبالغةٌ في الشرك وانسلاخ من جملة الدين، هذه حقوق الله، الله الذي يعطي ويمنع، ونحن نقول بعد كل صلاة كما علمنا نبينا ﷺ: **(اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت)**[١] فكيف يُقال أن رسول الله ﷺ يعطي من يشاء ويمنع من يشاء ويجيب من استغاث به، ويدخل الجنة من يشاء، ويخرج من النار من يشاء، في حديث الشفاعة أنه يأتي يوم القيامة في الموقف الذي قال فيه أنه الموقف المحمود ولا يشفع ابتداءً، بل يستأذن ربه عَزَّ وَجَلَّ في الشفاعة، فيأتي فيسجد، وهذا هو التذلل للخالق عَزَّ وَجَلَّ ثم يستأذن فيقال له: ارفع رأسك، واسأل تُعط، واشفع تُشفع، فلا يشفع ابتداءً؛ لأنه أمام مالك الكون سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالذي يزعم أن الباب يُفتح لكل من أراد أن يُعظم الرسول ﷺ حتىٰ لو بالشرك بالله فدعوىٰ باطلة ومردودة، فينبغي أن لا نقول قولاً يؤثر في حق الله عَزَّ وَجَلَّ ليكون ذلك تعظيماً لرسول الله ﷺ فكل تعظيم للرسول ﷺ يؤدي إلىٰ صرف حق الله له تعظيم مردود.

---

(١) أخرجه الشيخان في مواضع من الصحيحين، مثلاً: صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، برقم: (٨٤٤)، صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب اعتدال أركان الصلاة وتخفيفها في تمام، برقم: (٤٧١)، (١/ ٣٤٣).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قلت: هذا هو اعتقاد عباد القبور فيمن هو دون الرسول ﷺ فضلا عن الرسول ﷺ كما تقدم بعض ذلك، والأمر أعظم وأطم من ذلك.

وفي الفتاوىٰ البزازية من كتب الحنفية قال علماؤنا: من قال أرواح المشايخ حاضرة تعلم يكفر، فإن أراد بالعلماء: علماء الشريعة فهو حكاية للإجماع علىٰ كفر معتقد ذلك، وإن أراد علماء الحنفية خاصة فهو حكاية لاتفاقهم علىٰ كفر معتقد ذلك، وعلىٰ التقديرين تأمله تجده صريحاً في كفر من دعا أهل القبور؛ لأنه ما دعاهم حتىٰ اعتقد أنهم يعلمون ذلك، ويقدرون علىٰ إجابة سؤاله وقضاء مأموله.



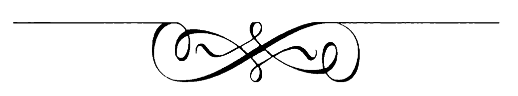
الشَّرْح

قوله: (**هذا هو اعتقاد عباد القبور فيمن هو دون ..**) هذا وضع كثير ممن غلا في هذا الأمر وعظم الرسول ﷺ أكثر مما ينبغي، وكذلك عظم الأولياء أو من كان يُزعم أنه من الأولياء، وبعض الذين يُعظمون في القبور قد ذُكر في تراجمهم أنه ما كان يصلي لله ركعةً ومع ذلك يُقبر ويوضع علىٰ قبره المسجد، ويوضع علىٰ قبره القبة، ويُحج إلىٰ قبره ويُطاف بقبره، ويُعظم قبره، هذا ـ نعوذ بالله ـ من الجهل بدين الله ﷻ.

قوله: (**وفي الفتاوىٰ البزازية**) سبق أن الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ أورد جملة من أقوال أئمة المذاهب؛ لأن كثيراً من أتباع المذاهب لا يقبلون القرآن والسنة، إنما يقبلون أقوال أئمتهم، فأورد قول أحد علماء الشافعية وهو ابن عبد الهادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ثم أورد هنا قول أحد علماء الأحناف في الفتاوىٰ البزازية، وهي نسبةٌ إلىٰ

مؤلفها محمد بن محمد بن شهاب الكردي المعروف بالبزازي المتوفىٰ بعد القرن الثامن أي في سنة (٨٢٧) أي بعد ابن تيمية رحمه الله بقرن كامل، فقد ذكر في هذه الفتاوىٰ أن علماء الأحناف يقولون: من قال أرواح المشايخ حاضرةٌ تعلم يكفر؛ لأن هذا الاعتقاد يسبق العمل، فالذي يعتقد أن الشيخ الذي في القبر أو النبي يعلم يدعوه، لكن لو اعتقد أنه لا يعلم لا يدعوه، فهنا فعل مبنيٌ علىٰ اعتقاد، وكل الأفعال مبنية علىٰ اعتقاد، ولهذا من كان اعتقاده صحيحًا كان عمله صحيحًا، ومن كان اعتقاده باطلاً كان عمله باطلاً، فيقول: إن علماءنا إن أراد بعلمائنا علماء الشريعة فهذا إجماع، وإن أراد بعلمائنا علماء الأحناف فكذلك هذا إجماع، ونحن نرىٰ في كثير من علماء الأحناف القدماء كانوا يحاربون القبور ويحاربون الشرك، لكنه طرأ الشرك في المذاهب بعد القرون المفضلة السابقة.

يقول: إن العلماء قد أجمعوا علىٰ أن من اعتقد أن أرواح المشايخ أي الأولياء حاضرة يكفر أو تسمع يكفر فالأرواح مشغولة، الآخرة أمرها عظيم، والذي يموت مشغول بنفسه، وحتىٰ لو كان غير مشغول لا يستطيع أن ينفعك في حياته، فكيف ينفعك بعد موته؟ لكن الجهل إذا دخل في الأمة فإنه يصنع بها العجائب.



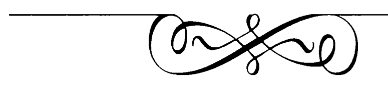
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال الشيخ صنع الله الحلبي الحنفي في كتابه الذي ألفه في الرد على من ادعى أن للأولياء تصرفًا في الحياة وبعد الممات على سبيل الكرامة: هذا وإنه قد ظهر الآن فيما بين المسلمين جماعات يدعون أن للأولياء تصرفات في حياتهم وبعد الممات ويستغاث بهم في الشدائد والبليات وبهممهم تكشف المهمات، فيأتون قبورهم وينادونهم في قضاء الحاجات مستدلين على أن ذلك منهم كرامات.



الشَّرح

كذلك هذا عالم حنفي آخر وهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ صنع الله الحلبي المتوفى في أوائل القرن الثاني عشر وله كتاب اسمه: (سيف الله على من كذب على أولياء الله) فزعم أنهم يعلمون، وكل هذا رد على من يزعم أن الأولياء أو أن الأموات يعلمون الغيب، ويغيثون من دعاهم، ففي هذا الكتاب ذكر هذا الكلام.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقالوا: منهم أبدال ونقباء وأوتاد ونجباء وسبعون وسبعة، وأربعون وأربعة والقطب هو الغوث للناس، وعليه المدار بلا التباس.

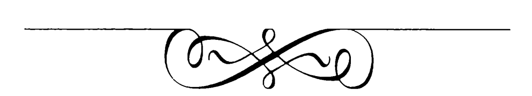


هذه هي مصطلحات الصوفية التي يعتقدون بها في بعض أفراد أهل التصوف، فإنهم يزعمون أن هناك أبدالاً وأن هناك أوتاداً وأن هناك نجباء، والتصوف قد دخل في الأمة الإسلامية من الفكر الهندي البوذي والهندوسي، هذه الأفكار التي عندنا هي هي في عقائد الهندوس وعقائد البوذيين تماماً، الإسلام لا يعرف هذه الأفكار، والأبدال جمع بدل، والبدل معناه: أن الشخص الذي بلغ قمة في التصوف إذا أراد أن ينتقل إلىٰ مكان آخر يترك بدلاً عنه روحانياً في صورته، ما ندري هل هو يخلقه أو من أين يأتي به؟ لكن يقول يترك في هذا المكان صورته حتىٰ إذا غاب لا يُفتقد، يقول ابن العربي: وسُمي هؤلاء أبدالاً لكونهم إذا فارقوا موضعاً ويريدون أن يُخلفوا فيه بدلاً منهم في ذلك الموضع لأمر يرون فيه مصلحةً وقربةً يتركون به شخصاً علىٰ صورتهم. لا يشك أحد ممن أدرك رؤية ذلك الشخص أنه عين ذلك الرجل، وليس هو، بل روحانيٌ يتركه بدله بالقصد علىٰ علم منه، فكل من له هذه القوة فهو بدل. الذي يملك أن يوجد شخصاً مكانه إذا غاب يُسمىٰ بدلاً!! سبحان الله العظيم من هذه الأفكار العجيبة!! ويقول: وهم سبعة لا يزيدون؛ لأن الأقاليم القارات سبع، كل قارة فيها واحد، لو مات هذا البدل من هذه القارة ولا وجد غيره تحترق القارة ويحدث لها غرائب، يقول: وهم سبعة لا يزيدون ولا ينقصون يحفظ الله بهم الأقاليم السبعة لكل منهم إقليم. يعني رئيس ولاية، رئيس قارة

بكاملها!! ولا ندري ماذا يتكلم بالعربية أو بالإنجليزية أو بالفارسية!، ثم يقول: لكل منهم إقليم فيه ولايته، وهم عارفون بما أودع الله ﷻ في الكواكب السيارة من الأمور والأسرار في حركاتها، ونزولها في المنازل المقدرة. الكواكب يدركون أسرارها!! ذكروا الكواكب؛ لأنهم يخاطبون الكواكب ويعتقدون أن لها تأثيراً في حياة الناس!! والأوتاد قريب منهم لكن الأوتاد ليسوا سبعة، بل أربعة، الجهات جهات الكعبة أو جهات الأرض أربع: شمال وجنوب، وشرق وغرب، كل جهة فيه وتد، والنقباء اثنا عشر بحسب بروج السنة، كل سنة لها واحد، والقطب هو الأعلىٰ ويُسمىٰ الغوث الأعظم، هذا الرئيس العام الذي يدير الكون، يُستغاث به من دون الله ويُدعىٰ، ولهذا أحياناً يقال مثلاً في ابن عربي: الغوث الأعظم أو القطب، يعني هذا بلغ الدرجة العليا التي يغيث فيها من دعاه، وقد مر بعض حكاياتهم في هذا الشأن.

وهذه كلها عقائد باطلة، ورفع للبشر فوق منزلته، وصرف حق الله ﷻ لخلقه، وهذا فكر بدائي، الشرك في كل عصر له شكل ووجه، لكن هذا الشرك الساذج يحكم اليوم العالم الإسلامي إلا من رحم الله، والذي يكون بهذه العقلية هل هو مؤهل أن يبلغ الناس دين الله ﷻ؟، هل هذا هو دين الله؟، الناس لديهم عقول ويدركون الحق والباطل، والصواب والخطأ، لكن الذي يتجرد عن عقله يقبل الغرائب والعجائب، ولهذا نرىٰ في الوثنيين من هم أدنىٰ من هذه الحال، فمثلاً في الهند: تُعبد البقرة من دون الله ﷻ، والهند تعداد سكانها مليار، وهم يعظمون البقرة ويعبدونها من دون الله، وقد مرت الإشارة إلىٰ قول زعيم الهند في عصره غاندي، كيف كان يعظم البقرة ويفاضل بينها وبين أمه وينتهي إلىٰ أنها أفضل من أمه ويقول: سوداء سأظل أعبدها وأدافع عن عبادتها، الإنسان الذي لا ينظر إلىٰ القضايا بعقل صحيح سليم يهبط،

وأنزل الله ﷻ هذا القرآن لينقذ الإنسان ويرفعه؛ لأن الشرك هبوط بالإنسان إلىٰ أن يعبد المخلوقات، والله يقول: أنت لا تعبد المخلوقات، تعبد الخالق الذي خلقك، أنت إنسان مكرم، فإن نزلت عن هذا المستوىٰ عذبتك في جهنم ولا أغفر لك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء:٤٨]، لكن المعاصي الأخرىٰ التي يكون سببها الضعف في الإيمان وقوة الشهوة قد يغفرها الله، ولهذا نرىٰ المقارنة بين إبليس وآدم عليه السلام، آدم عليه السلام دفعته الشهوة إلىٰ المعصية، وأما إبليس فقد دفعه الكبر والعناد، فلم يغفر الله له بل توعده بالعقاب، وكان مستكبراً معانداً، فأما آدم عليه السلام فانكسر وذل لمعصيته واستغفر ربه وتاب فتاب الله عليه، فالذي تكون معصيته شركـًا أو عناداً أو إلحاداً لا يغفر الله ذنبه، ولا يكون له يوم القيامة إلا النار خالداً فيها، أعاذنا الله من النار.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وجوزوا لهم الذبائح والنذور وأثبتوا لهم فيها الأجور، قال: وهذا الكلام فيه تفريط وإفراط، بل فيه الهلاك الأبدي والعذاب السرمدي لما فيه من روائح الشرك المحقق، ومصادمة الكتاب العزيز المصدق، ومخالفة لعقائد الأئمة وما اجتمعت عليه الأمة، وفي التنزيل: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥] إلىٰ أن قال: الفصل الأول فيما انتحلوه من الإفك الوخيم والشرك العظيم، إلىٰ أن قال: فأما قولهم: إن للأولياء تصرفات في حياتهم وبعد الممات فيرده قوله تعالىٰ: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ [النمل:٦١] وقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف:٥٤] وقوله: ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [المائدة:١٢٠] ونحوه من الآيات الدالة علىٰ أنه المنفرد بالخلق والتدبير والتصرف والتقدير، ولا شيء لغيره في شيء ما بوجه من الوجوه، فالكل تحت ملكه وقهره تصرفًا وملكًا، وإحياء وإماتة وخلقًا، وتمدح الرب سبحانه بانفراده في ملكه بآيات من كتابه كقوله: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر:٣]، ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣﴾ [فاطر:١٣] وذكر آيات في هذا المعنىٰ.

ثم قال: فقوله في الآيات كلها من دونه أي: من غيره فإنه عام يدخل فيه من اعتقدته من ولي وشيطان تستمده، فإن من لم يقدر علىٰ نصر نفسه كيف يمد غيره؟ إلىٰ أن قال: فكيف يتصور لغيره من ممكن أن يتصرف؟ إن هذا من السفاهة لقول وخيم، وشرك عظيم.

الشَّرح

هذا كله من كلام صنع الله الحلبي رَحِمَهُ اللهُ يقول: يزعمون أن في هذا الفعل أجراً قال: ليس فيه أجر بل فيه عذاب وهذا شرك محقق، ويخالف القرآن والسنة، فهذا في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥]، فالذي يشاقق هو الذي يجعل كلام الرسول ﷺ في شق وهو يذهب إلىٰ شِق آخر، فقد اتخذ لنفسه شقاً غير شق رسول الله ﷺ، كم وردت من الأحاديث تحذر وتنهىٰ وتزجر من يعظم القبور ويبني عليها المساجد، بل في آخر حياته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عندما أخبرته أم سلمة ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ بأنها رأت في الحبشة كنائس فيها صور وتماثيل قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **(أولئك كان إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا علىٰ قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور ـ أو تلك التماثيل ـ أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة)**[1] حديث آخر: **(لعن الله اليهود والنصارىٰ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يُحذر ما صنعوا)**[2] هذه بعض الأحاديث التي في أصح الكتب، فكيف يستجاز بعد ذلك أن يقام علىٰ قبورهم تلك المشاهد وأن يُدعوا من دون الله، ويُستغاث بهم من دون الله، كل ذلك مصادمة لكتاب الله ولسنة رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

---

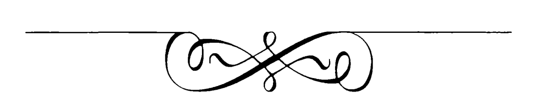
(١) أخرجه البخاري في مواضع من صحيحه، مثلاً: كتاب الجنائز، باب بناء المسجد علىٰ القبر، برقم: (١٣٤١)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد علىٰ القبور واتخاذ السور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد، برقم: (٥٢٨)، (١/ ٣٧٥).

(٢) سبق تخريجه.

فهذه الآيات تبين أن الله ﷻ هو صاحب الأمر والنهي في هذا الكون، وهو الذي يخلق، هو الذي يوجد الأعيان، ويوجد الأفعال، وهو الذي يأمر وينهىٰ، فإذا كان الولي يوجد وإذا كان الولي له الأمر وله النهي وإذا كان الولي يُدعىٰ من دون الله فيجيب فإن هذا اعتداء علىٰ حق الله ﷻ، ثم قرأ ﷻ: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة:١٢٠]، هو المالك الذي لا يتصرف غيره معه، فكيف يكون لله الملك كله وبعض عباده يشاركه في الملك فيجيب ويعطي ويمنع، ويدخل الجنة من يشاء، ويخرج من النار من يشاء، ويعافي ويرزق؟ هذه كلها أفعال الخالق ﷻ، والذي لا يفرق بين الخالق والمخلوق يقع في الشرك، وسببه أنهم لم يفهموا معنىٰ لا إله إلا الله محمد رسول الله، فرق بين الإله والرسول، الإله واحد، والرسول ـ نبينا عليه الصلاة والسلام ـ واحد، لكن عمله أن يؤدي رسالة، لا يُعبد من دون الله، فهذا معنىٰ الآيات التي ساقها صنع الله الحلبي.

يقول ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ [فاطر:١٣]، من دونه أي: غيره، والقطمير: هو القشرة التي تكون فوق نواة التمر، فالله يقول: لا يملكون شيئًا من القشرة، ليس القشرة بكاملها، بل ولا بعضًا منها؛ لأن القطمير الورقة الخفيفة التي تكون فوق التمرة، حينما تنفخها بفمك تطير، لا يملكون جزءًا من هذه القشرة الصغيرة، فكيف تدعونهم من دون الله؟ ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ تدعون وتستغيثون، وتنزلون به حاجاتكم لا يملك ولا جزءًا يسيراً من تلك القشرة التي لا تغني ولا تسمن من جوع، فكيف تدعونه في أمر أهم وأعظم من هذه القشرة؟.

يقول ﵀: (فإن من لم يقدر علىٰ نصر نفسه كيف يمد غيره؟) هذا الإنسان الصالح وهذا النبي وهذا الولي كان حياً بين الناس، فلماذا يموت؟ جاء الموت وقهره؛ لأنه يدخل تحت ملك القاهر ﷻ، ولم يستطع أن يرده ولا أن يؤخره، فكيف تدعو من هو عاجز عن نصر نفسه أن ينصرك أو يعطيك أو يعينك، ثم قال: فكيف يتصور لغيره من ممكنٍ، وكلمة ممكن اصطلاح حادث عند المتكلمين بمعنىٰ مخلوق، الخالق يسمونه: واجب الوجوب والمخلوق يسمونه: ممكن الوجود، أي: فكيف يتصور لغيره من ممكنٍ أي: من مخلوق، أي: يمكن أن يوجد وألا يوجد، كل واحد منا ليس حتماً أن يكون موجوداً، فالله قادر ألا يوجده، فهو محتاج إلىٰ من يخلقه فيُسمىٰ ممكناً أو حادثاً، هذه كلها من اصطلاحات المتكلمين.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إلىٰ أن قال: وأما القول بالتصرف بعد الممات فهو أشنع وأبدع من القول بالتصرف في الحياة، قال جل ذكره: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر:٣٠] وقال: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ [الزمر:٤٢] وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران:١٨٥] وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدثر:٣٨]، وفي الحديث: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله ...) الحديث.

الشَّرح

هنا شاهدان واضحان في آيتين، الآية الأولىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ [الزمر:٤٢]، يمسك يعني: عنده مُمسكة لا تستطيع أن تنفلت، والآية الثانية: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدثر:٣٨]، رهينة: محبوسة بمعنىٰ المسك، فكيف يُقال أنها طليقة تذهب حيث شاءت، وتجيب من شاءت، وتعين من شاءت، والله يقول: يمسكها عنده ﷻ، فهذا تكذيب لكلام الله، فالمُمْسَك لا يستطيع أن يتحرك أو أن يخرج، والرهين: كالرهن، الرهن: هو الذي يُمنع صاحبه من التصرف فيه، هكذا رهينة لا يستطيع الإنسان أن يتصرف، فنفسه محبوسة عند الله ﷻ، فالقرآن يدل علىٰ أن النفس البشرية بعد موتها رهينة محبوسة، فكيف يُقال أنها تتحرك؟ وسيأتي تعليق علىٰ كلام المحدثين في الغرب، استحدثوا موضة جديدة أو فكرة جديدة يزعمون أنهم يستحضرون أرواح الموتىٰ، والشياطين تعبث؛ لأن الشياطين تعين الشخص الفاسق والآثم علىٰ إغواء الناس، فيأتون إلىٰ شخص

معين ويقولون: أنت مات أخوك أو ابنك أو قريبك، وشكله كذا، فيتخلق ويتصور هذا الجني في شكل أمه أو أبيه أو أخيه، حتىٰ يكون فيه أحيانـًا بعض العلامات التي كانت فيه، هذا مثل ما جاء في الحديث عن الدجال أنه يقول: أنا أحيي فيقول أحد الناس: هذا أبي مات قبل كذا أحي أبي، فيأتي فوق القبر ثم يقول: اخرج يا فلان، فيقوم من قبره ينفض التراب عن رأسه في صورته، وذلكم شيطان، الشياطين تتصور في صور الأموات، قد يقول إنسان: كيف يعرف الشيطان شكل هذا الشخص؟ الشياطين لا تموت وتعرف كل من مات؛ لأنهم لا يموتون أصلا ويعرفون صورهم وأشكالهم، فيتصور في صورة الميت، الآن في زعمهم أنهم يأتون بالأرواح التي ماتت هو هذا، الشياطين تعبث بالإنسان، كل مجتمع يضعف فيه نور الشريعة فإن الشياطين تعبث به، ويكثر فيه الكهانة والسحر والشعوذة، ولهذا هذه الجمعية التي تسمىٰ جمعية استحضار الأرواح الآن تبتز أموال الناس، وتسخر الشياطين لخدمتها، مثل السحر في السابق تمامـًا، فهذا قريب من اعتقاد المتصوفة الذين يزعمون أن الأرواح حاضرة وأنها تعلم، وأنها تجيب من دعاها، وتغيث من استغاث بها، ونحن نعتقد أن الميت روحه ممسكة عند الله، وأنها رهينة عند الله وليست طليقةً، لو كانت الأرواح طليقة لرأينا كل الحركات في بيوتنا، وفي الشوارع لرأينا حركات غريبة في كل وقت؛ لأنه كم مات من عهد آدم إلىٰ اليوم من أرواح؟ لكن الأرواح ممسكة مُحبسة علىٰ أعمالها ولا تستطيع الفرار، الإنسان إذا رجع إلىٰ الله انتهىٰ، فإن وقت الحركة في الدنيا، أما بعد الموت ما هناك حركة إلا بإذن الله ﷻ.

قوله ﷺ: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله..)[١] الحديث، في الصحاح: (إذا مات الإنسان) وكلاهما بمعنىٰ واحد.

---

(١) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فجميع ذلك وما هو نحوه دال علىٰ انقطاع الحس والحركة من الميت، وأن أرواحهم ممسكة وأن أعمالهم منقطعة عن زيادة ونقصان، فدل ذلك أن ليس للميت تصرفٌ في ذاته فضلاً عن غيره بحركة، وأن روحه محبوسة مرهونة بعملها من خير وشر، فإذا عجز عن حركة نفسه فكيف يتصرف في غيره؟ فالله سبحانه يخبر أن الأرواح عنده، وهؤلاء الملحدون يقولون: إن الأرواح مطلقة متصرفة ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١٤٠].

الشَّرح

يقول: الذي يزعم أن الأرواح مطلقة يكذب القرآن، ونحن نعتقد ونؤمن بأن القرآن هو الحق ومن قال غيره فإنه كاذب في دعواه، الله يقول: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١٤٠]، الله الذي يعلم والآخرة بيده، ونظام الحياة بعد الموت نظام آخر ليس كنظام الدنيا، فالفرق ـ من باب التمثيل ـ بين حياة الإنسان في الدنيا وحياته في الآخرة كما بين حياته في بطن أمه وحياته في الدنيا، بينهما بون عظيم شاسع، فالإنسان في بطن أمه كلما تحرك برأسه يصطدم ببطن أمه، ولا يستطيع أن يمشي ولا يتحرك، فلو قيل له أن هناك كوناً إذا خرجت لا يلحق رأسك السماء ومهما تجري لا تستطيع أن تنتهي لا يصدق، فالآخرة نظامها آخر، حتىٰ الأجسام تختلف، فالإنسان في الدنيا يأكل ويبول، ويصح ويمرض، ويحزن ويرضىٰ، وفي الآخرة يأكل وليس هناك فضلات للأكل، وليس هناك نوم، وليس هناك حزن، وليس هناك ألم، حياة الآخرة حياة أخرىٰ، فالذي يقيس الآخرة بالدنيا إنسان جاهل، إنسان مأسور مسجون في مألوفاته، الآخرة أمرها شيء آخر أعظم مما في الدنيا، فالله جَلَّ وَعَلَا جعل لكل حياة نظاماً وشكلاً

وأعمالاً وقيماً وموازين تختلف عما في الدنيا، ففي الآخرة تتكلم الجلود والأيدي والفروج وتنطق بما عملت، الأرض تتكلم بما عُمل عليها كما قال تعالىٰ في سورة الزلزلة: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾﴾ [الزلزلة:٤-٧] كيف يراه؟ الرؤيا تكون في الدنيا بالعين، ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠]، اليوم في حياة الناس يستطيعون أن يصوروا حياة الإنسان وهو يتنقل من مكان إلىٰ مكان، فلو سُئل عن مسألة فأنكر فجاؤوا بالصورة ما يستطيع أن ينكر، هذا في وسائل البشر استطاعوا أن يثبتوا حركة الإنسان بهذه الوسيلة المصنوعة، فيوم القيامة كيف إذا انكشف لك الغطاء فرأيت نفسك وأنت تهرب من الصلاة، وتمارس الأعمال الفاحشة، وتعمل المعاصي، فالله أجل وأعظم، وسترىٰ يوم القيامة مما يكشف عن أعمالك ما هو أعظم، وهنا يقول ﷻ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾﴾ [الزلزلة:٧] الأعمال لا تُرىٰ بالعين، لكن الله يوم القيامة يجعل من وسائل الإثبات ما يبهر العقول، فربنا ﷻ مالك الكون كله، فإذا استطاع الإنسان في الدنيا أن يوجد وسيلةً يثبت بها أعمال الإنسان فما بالك بالخالق ﷻ يوم القيامة، كل شيء يومئذ مصور مسجل، الآن الأشرطة صنعت مادتها من الأرض من خلق الله، فهي تحفظ الأصوات، وتصور الحركات وكلها من خلق الله، فالله أعظم يوم القيامة، فإنه خلق الإنسان وقادر علىٰ أن يكشف عن عمله يوم القيامة بما يشاء.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال: وأما اعتقادهم أن هذه التصرفات لهم من الكرامات فهو من المغالطة؛ لأن الكرامة شيء من عند الله يكرم بها أولياءه لا قصد لهم فيه ولا تحدي ولا قدرة ولا علم كما في قصة مريم بنت عمران، وأسيد بن خضير، وأبي مسلم الخولاني.



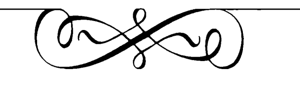
الكرامات اصطلاح حادث لما يجريه عَزَّ وَجَلَّ على بعض أيدي الأولياء والصالحين، وليس صدور الخوارق للعادة علامة على محبة الله، قد يُجري الله عَزَّ وَجَلَّ الخارق للعادة على أيدي أعدائه، فهذا الدجال في آخر الزمان يُجري الله على يديه من خوارق العادات ما يبهر العقول، ليس إكراماً له بل هو ابتلاء، فبعض ما يظهر على يديه من الخوارق للعادات قد يكون ابتلاءً له، كما يعطي الله المال، ويعطي الله الجاه، هذه أمور دنيوية يعطيها الله للإنسان قد تكون ابتلاءً، وقد تكون تكريماً، وقد تكون إهانةً، كما أعطاها للدجال، فيقول علماء التصوف: كن طالباً للإستقامة ولا تكن طالباً للكرامة، بعض الناس تراه يجهد نفسه في العبادات التصوفية يريد أن يكون على يديه كرامة، فيدرس كيف يحصل على كرامة، فيُربى حتى يصل إلى أن يجري الله على يديه كرامة كما يزعم.

والصالحون قد يُجري الله على يديهم كرامات فهذا أُسيد بن حضير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد كان من خيرة الناس، وكان يُسمى في الجاهلية بالكامل، وكان من خيرة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، كان هو وبشر بن عباد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد العشاء في حديث، ثم ذهبوا، وفي الطريق أضاءت عصا أحدهما، وخرج منها نور،

وعندما انفرق الطريق أضاءت عصا كليهما، وهذا في الصحاح، وهذه من كراماتهم رضي الله عنهم، وكذلك كان يقرأ القرآن في بعض الليالي فجالت الفرس وكان صوته نديًا جميلاً، وكان يسكن هو وفرسه وزوجته وأبناؤه في مكان واحد، فالناس في السابق لم تكن حالاتهم كحالة المتأخرين، ولعلها توجد هذه الحالات في كثير من بلاد المسلمين، فكان كلما قرأ القرآن الفرس يجول وكان مربوطًا، وكان ابنه يحيىٰ صغيراً، وكان نائمًا، وكان يتوقف أسيد رضي الله عنه خشية علىٰ ابنه، ثم إذا سكن الفرس أعاد القراءة بسورة البقرة، قال: ففي الثالثة رفع بصره، وإذا به يرىٰ سحابة فيها مثل النور، فتوقف، فذهب في اليوم الثاني إلىٰ رسول الله ﷺ فأخبره بما رأىٰ، فكان كلما أخبر الرسول ﷺ قال: اقرأ أبا يحيىٰ، قال: قرأت، قال: اقرأ أبا يحيىٰ، قال: قرأت، ثم توقفت. قال: لو قرأت لنزلت الملائكة ولأصبح الناس يرونها يعني عيانًا. لكن توقف رضي الله عنه؛ لأنه خاف علىٰ ولده، فهذه من الكرامات الثابتة في الصحاح، كذلك أبو مسلم الخولاني نُقل عنه كرامات، لكن لم تثبت بالأسانيد الصحيحة، منها: أن الأسود العنسي الذي ادعىٰ النبوة في اليمن قال له: هل تشهد أني رسول الله؟ قال: لا أسمع، قال: هل تشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، فأوقد له ناراً، فأدخله فيها فلم يحترق، ثم أخرجه من اليمن، وجاء في حياة الصديق رضي الله عنه، ثم قابله عمر رضي الله عنه، رآه يصلي في المسجد، فقال: هل تعرف أبا مسلم الخولاني؟ قال: نعم قال: سألتك بالله أنت هو؟ قال: نعم، قال: فقبّله، هذه بعض الكرامات المنسوبة إليه، وكذلك يقال: أن امرأة دخلت إلىٰ امرأته وكان رحمه الله إذا دخل إلىٰ بيته يكبّر، يعلن عن دخوله إلىٰ المنزل، ما يدخل خفية علىٰ بيته، كان يكبر عند الباب ثم إذا وصل إلىٰ الباب، وإذا دخل البيت سلّم، فذات يوم جاءت إلىٰ زوجه امرأة، فقالت: لم لا تطلبين من أبي مسلم أن يطلب من معاوية خادمًا لك؟ أنت تتعبين في خدمة البيت؟ فعندما دخل إليها وكبّر لم

تكبر زوجته، دخل ونفسيتها غير مرتاحة، فعرف أن امرأة قد دخلت إليها، فقال: اللهم من خبب على امرأتي فأعم بصرها، وحينئذ كانت المرأة التي دخلت إليها مع أهلها، فعميت، فقالت لأهلها: سراجكم طُفِئ؟ قالوا: لا، قالت: إذن فقدت بصري، فذهبت إلىٰ أبي مسلم وعرفت أنه قد دعا عليها، فأخذت به حتىٰ رضي عنها، ثم دعا الله لها، فردّ الله لها بصرها.

وهذه حوادث تقع علىٰ أيدي الصالحين لا شكّ في هذا، لكن لا ينبغي لنا أن نبالغ، فإن كتب التراجم للمتصوفة قد بالغت في الكرامات حتىٰ ادعت للأشخاص بما لم يفعلوا وما لم يجر علىٰ أيديهم، بل زعموا أنهم يحيون الأموات، والذي يقرأ في حياتهم يرىٰ عجباً، وقد نسب عن السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال لأحد تلاميذه: هل تحب أن أصلي في المسجد الحرام؟ قال: نعم، فأخذ بيده ثم قال: اغمض عينيك، فمشىٰ به سبعاً وعشرين خطوة، ثم قال: افتح عينيك، وإذا به عند باب بني شيبة، في الحرم!! فصلّوا، وبعد الصلاة قال: هل تحب أن تبقىٰ إلىٰ الحج أو تذهب معي؟ قال: أحب مرافقة الشيخ، فأخذ بيده، ثم مشىٰ، ثم قال: اغمض عينيك، ثم مشىٰ به سبع خطوات، وإذا به في مصر. فهذا - سبحان الله - من الكذب، لكن هكذا يُزعم للناس الأشياء التي لم تقع في حياتهم، كذلك نُسب إليه أنه قال: يقول رأيت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثر من سبعين مرة عياناً، ليس في المنام!، وقال لي: يا شيخ الحديث، كيف قال: يا شيخ الحديث، وكيف جاءه عياناً!!، والله قول: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر:٣٠]، وهذا تكذيب لكلام الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأن الميت لا يأتي، انتهت حياته، وهكذا هؤلاء يزعمون الكرامات ويكذبون علىٰ الصالحين، بل ويكذبون لمن هم من غير الصالحين، وهذا من الجهل بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: وأما قولهم: فيستغاث بهم في الشدائد فهذا أقبح مما قبله وأبدع لمصادمته قوله جل ذكره: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل:٦٢] وقوله: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام:٦٣]، وذكر آيات في هذا المعنىٰ، ثم قال: فإنه جل ذكره قرر أنه الكاشف للضر لا غيره، وأنه المتعين لكشف الشدائد والكرب، وأنه المتفرد بإجابة المضطرين، وأنه المستغاث لذلك كله، وأنه القادر علىٰ دفع الضر والقادر علىٰ إيصال الخير، فهو المنفرد بذلك فإذا تعين هو جل ذكره خرج غيره من ملك ونبي وولي.

الشَّرح

وقوله تعالىٰ خطاب موجهٌ إلىٰ قريش، وهم كانوا يعرفون ذلك، فكانوا يعترفون أن الكون بيد الله، وأن الذي يجيب المضطر هو الله، حتىٰ إنهم إذا ركبوا في الفلك يعني دعوا الله مخلصين له الدين ثم إذا نجوا أشركوا به، فهم كانوا يشركون معه غيره، فيقول ﷻ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [النمل:٦٢]، هذا يتعلق بتوحيد الربوبية، ثم قال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي الذي يفعل هذا وأنتم تعرفونه هل يوجد معه أحد يستحق أن يُعبد وأن يُخضع له وأن يُدعىٰ وأن يطاع؟، هذا الإنكار من باب تقرير المعنىٰ المستفهم عنه أي: ليس مع الله إله، ليس مع الله من يستحق الألوهية، هذا هو المراد في قوله تعالىٰ: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾.

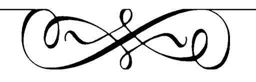
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: والاستغاثة تجوز في الأسباب الظاهرة العادية من الأمور الحسية في قتال أو إدراك عدو أو سبع ونحوه كقولهم: يا لزيد، يا لقوم، يا للمسلمين، كما ذكروا ذلك في كتب النحو بحسب الأسباب الظاهرة بالفعل.



الشَّرح

الاستغاثة إذا كانت في أمور مقدورة تجوز، كما يُقال: يا لله للمسلمين، واللام لام الاستغاثة إذا جاءت مع المستغاث به تُفتح وإذا جاءت مع المستغاث له تُكسر، فإذا أردت أن تدعو الله ليغيث المسلمين تقول: يا لله للمسلمين، وتقول مثلاً: يا للأقوياء للضعفاء، تدعو الأقوياء أن يساعدوا الضعفاء، يا للأغنياء للفقراء، فلام المستغاث به مفتوحة ولام المستغاث له مكسورة، والاستغاثة تجوز إذا كان فيما يقدر عليه بأن ينجيه من غرق إذا دخل في البحر وكاد أن يغرق، إذا وقع في مجتمع عدو غزاهم فأذلهم أو سرق أموالهم، أو اقتحم ديارهم يجوز أن يُدعىٰ من يستطيع أن يجيبهم ويُغيثهم، وهذا في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ﴾ [القصص:١٥] استغاثه: طلب الغوث أن يعينه علىٰ أمر يستطيعه، أن يدفع عنه عدوانه،لكن الاستغاثة فيما لا يستطيعه الإنسان لا تجوز إلا من الله، فالاستغاثة بالإنسان حينئذ يكون شركًا مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما الاستغاثة بالقوة والتأثير أو في الأمور المعنوية من الشدائد: كالمرض، وخوف الغرق، والضيق والفقر، وطلب الرزق ونحوه، فمن خصائص الله، فلا يطلب فيها غيره قال: وأما كونهم معتقدين التأثير منهم في قضاء حاجاتهم كما تفعله جاهلية العرب والصوفية والجهال وينادونهم ويستنجدون بهم فهذا من المنكرات.

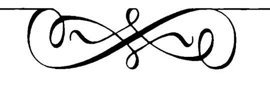
إلىٰ أن قال: فمن اعتقد أن لغير الله من نبي أو ولي أو روح أو غير ذلك في كشف كربة أو قضاء حاجته تأثيراً فقد وقع في وادي جهل خطير، فهو علىٰ شفا حفرة من السعير.

الشَّرْح

هذا كان في الجاهلية موجوداً، وكذلك اليوم يوجد في كثير من بلاد المسلمين ممن يُطلق عليهم بالصوفية، فإن كثيراً من هؤلاء يدعون أُناساً ويصفونهم بأوصاف لم تنزل في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ ولا في سنة رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فعندهم مصطلحات يطلقونها علىٰ بعض من ينادونهم، ويستغيثون بهم ويسمونهم: المغيث، والقطب، والبدل، والأوتاد، والنجباء، وهذه كلها اصطلاحات حادثة لم ترد في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ﷺ، ولم يعرفها الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، ولم تُنقل عن أئمة الدين، ولا ندري من أين أتوا بها، وقد مر قول الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ صاحب التفسير يقول: عندما كان في الصغر قال له شيخه: إذا أردت أن تستغيث فلا تستغث بالله وإنما استغث بالولي؛ لأن الله لا يهمه شأنك لكن الولي يهمه شأنك. سبحان الله! قال: بقيت هذه في قلبي يعني كره

هذه المذاهب وهذه الطائفة من الصغر، كيف تمنعني أن أستغيث بالخالق الذي خلقني؟ والله يقول: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة:١٨٦] كيف تأمرني أن أستغيث بعبد مثلي فقير مخلوق، ضعيف يمرض، ويجوع ويموت، والله يقول: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان:٥٨]، هذا غاية الضلال، وعندما تأتي الجهالات من العوام ربما تكون مقبولةً، لكن إن تأتي ممن يقرأ العلم الشرعي، ويقرأ كلام الله ﷻ، ويقرأ سنة رسوله ﷺ ثم يأمر الناس بأن يدعو غير الله هذا ـ نعوذ بالله ـ غاية الضلال، وقد سبق نماذج من كلام بعض من يُسمون بعلماء العصر الحاضر وهم يعمقون في نفوس الناس هذا الشرك، وهذا الشرك هو شرك أكبر صاحبه معرض لعقاب الله ﷻ.

يقول: (**فمن اعتقد أن لغير الله من نبي أو ولي أو روحٍ أو غير ذلك في كشف كربة أو قضاء حاجته تأثيراً فقد وقع في وادي جهلٍ خطير فهو على شفا حفرةٍ من السعير**)، من اعتقد أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، أوالأولياء أوالصالحين، أو من يُسمون بالأرواح يجيبون الناس وينقذونهم ويقضون حاجاتهم فهذا ضلالٌ بل شرك أكبر.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما كونهم مستدلين علىٰ أن ذلك منهم كرامات فحاشىٰ لله أن يكون أولياء الله بهذه المثابة، فهذا ظن أهل الأوثان، كذا أخبر الرحمن: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨] وقال: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣] وقال: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾ [يس:٢٣]، فإن ذكر ما ليس من شأنه النفع ولا دفع الضر من نبي وولي وغيره علىٰ وجه الإمداد منه إشراك مع الله، إذ لا قادر علىٰ الدفع غيره ولا خير إلا خيره.

الشَّرح

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنهم يزعمون أن هذا كرامة للأولياء، ونحن نقول سيد الأولياء وإمام المتقين، وسيد البشر نبينا محمد بن عبد الله ﷺ لم يُعرف أن أحداً دعاه في حياته، أو أمر به، أو كان الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ يدعونه لا في حياته ولا بعد موته، فهذا يدل علىٰ أن هذا أمر حادث لم يُعرف، فلو كان هذا كرامةً، لكان سيد البشر ﷺ أولىٰ به،فهو أفضل الخلق، ولم نعرف أن أحداً دعاه في حياته، أو أمر أو حث أن يدعوه في حياته لقضاء حاجته، فكيف يكون كرامة لأتباعه ما ليس كرامةً له؟ والعلماء يقولون: إن جميع الكرامات التي تقع علىٰ أيدي أتباع الأنبياء لا بد أن يكون جنسها قد وقع للأنبياء، وإلا فلو وقعت الكرامة لتابع النبي ولم تقع للنبي يدل علىٰ أن هذا الولي أفضل من النبي، فلا بد أن يكون جنس الكرامات التي تقع علىٰ أيدي الأولياء أن يكون قد وقع جنسها وأكبر منها لنبينا ﷺ؛ لأن ذلك هو الأصل، أما إذا كان التابعي وقع علىٰ يده كرامة لم تقع علىٰ يدي النبي فإن هذا يدل علىٰ أنه أفضل من نبيه، فهذا كلام باطل.

قال تعالىٰ إن المشركين يقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ هذه سبقها قوله تعالىٰ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، يعبدون ويقولون شفعاء، لا يستقيم! العبادة لله فلا يجوز صرفها لغيره، فتصرف حق الله لهم، ثم تقول: هؤلاء شفعاء؟!، هذا تناقض، فإن الشفيع ليس إلهـاً ولا يُعبد ولا يُدعىٰ، وإنما يتوسّط ويتوسل به، فنبينا ﷺ يوم القيامة شفيع، فله المقام الأعلىٰ والمقام المحمود، ولكنه لا يُدْعىٰ ولا يُستغاث به، مع أنه شفيع يوم القيامة، فالشفيع لا يدُعىٰ ولا يُعبد، ولا يستغاث به، وإنما يُطلب منه أن يشفع، فإذا كان حياًّ طلب منه الشفاعة، وإذا كان ميتـاً لا يشفع؛ لأن عمله قد انقطع، والشفاعة لا تكون إلاّ ممن يعقل ويسمع ويستطيع أن يدعو، فهؤلاء قد أخطؤوا في هذا الكلام. وقال تعالىٰ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، هؤلاء اتخذوا أولياء من دون الله وزعموا أن هذه الولاية إنما هي ليقربوهم إلىٰ الله، وهذا لا شكّ خطأ وكذب وصرف حق الله لغيره، وهذا الكلام هو الذي من أجله حارب نبينا ﷺ قريشـاً واستباح دماءهم وأموالهم؛ لأنهم صرفوا حق الله لخلقه إما من الأصنام وإما غيرها من جنس المخلوقات، كالقمر والشمس والكواكب في كثير من البلاد في ذلك الزمان، وقال تعالىٰ عن مؤمن آل يس: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ...﴾ [يس:٢٠-٢٣] إلىٰ آخر الآية، هذا المؤمن في يس تكلم بأسلوب الفطرة، يقول: كيف أتّخذ وليّـاً من دون الله وهو الذي فطرني وخلقني، فإن المدعو لا بد أن يكون خالقـاً، ولا بد أن يكون مالكـاً، أما الذي لا يخلق ولا يملك فكيف يُدعىٰ؟، وهذا حق الله ﷻ لا يجوز صرفه لغيره سبحانه وتعالى.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: وأما ما قالوه من أن منهم أبدالاً ونقباء وأوتاداً ونجباء وسبعين وسبعة وأربعين وأربعة والقطب هو الغوث للناس، فهذا من موضوعات إفكهم كما ذكره القاضي المحدث ابن العربي في سراج المريدين وابن الجوزي وابن تيمية. انتهىٰ باختصار.

الشَّرْح

هذا نهاية الكلام لصنع الحلبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فهو يقول: قد اخترعوا ألقابًا وأوصافًا وأسماء، فأوّلها: الأبدال، وقد مر أن الأبدال جمع بدل، ومعناه أن هذا الشخص إذا أراد أن ينتقل من مكان إلىٰ مكان يوجد بدله روحًا عنه، في صورته، فيغيب من هذا المكان، لكن الناس لا يشعرون بغيابه؛ لأنه قد أوجد شخصًا بدله، نحن ما ندري هل خلقه؟ هذا ممتنع، قالوا: هذا روح تابعة له، فجعله بدله، فيقولون: الأبدال سبعة في كل قطر واحد، إذا مات بدلٌ ظهر شخص آخر بدلاً منه، ونحن لا ندري من أخبرهم؟ كيف عرفوا؟ في أي كتاب؟ في أي سنة؟؛ لأن هذه أمور غيبية ولا تُعرف إلا عن طريق الوحي، والنقباء يقولون اثنا عشر بحسب عدد الأبراج، لكل برج نقيب، وأن هؤلاء النقباء يعرفون أسرار الكواكب والنجوم، والأوتاد هم أربعة: لكل جهة من جهات الكعبة واحد، والقطب هو واحد فقط، هو الرئيس هذا هو المستغاث به يُسمىٰ الغوث، يعني يُستغاث به عند الشدائد، من أين جاءوا بها؟ وكيف نعرف أن هذا غوث؟ وأنه يجيب وأنه يستطيع أن يفعل؟ هذه كلها اصطلاحات ضالة، ليست في القرآن ولا في السنة، والمسلم الذي لم يسمع بهذا الكلام ربما يستغرب، وهذا يوجد في جميع أنحاء بلاد المسلمين، ولا تكاد تجد بلداً من بلاد المسلمين إلا وفيه هذه المصطلحات.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ومثل هذا يوجد في كلام غيرهم من العلماء، والمقصود أن أهل العلم ما زالوا ينكرون هذه الأمور ويبينون أنها شرك. وإن كان بعض المتأخرين ممن ينتسب إلىٰ العلم والدين ممن أُصيب في عقله ودينه قد يرخص في بعض هذه الأمور، وهو مخطئ في ذلك ضال مخالف لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإجماع المسلمين، فكل أحد مأخوذ من قوله ومتروك إلا قول ربنا وقول رسوله ﷺ، فإن ذلك لا يتطرق إليه الخطأ بحال، بل واجب علىٰ الخلق اتباعه في كل زمان..

الشَّرْح

قوله: **(ومثل هذا يوجد في كلام غيرهم من العلماء)** يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: هذا الكلام الذي أورده صنع الله الحلبي يوجد في كلام كثير من العلماء، وقد أشار إلىٰ ابن الجوزي وابن تيمية في عصرهما، ولا يكاد يخلو عصر ممن ينكر هذه الضلالات ويبين أنها انحراف، وأنها تخالف دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله: **(فإن ذلك لا يتطرق إليه الخطأ بحال بل واجب علىٰ الخلق اتباعه في كل زمان..)** يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: **(أن بعض المتأخرين ممن ينتسب إلىٰ العلم والدين ممن أصيب في عقله ودينه قد يُرخص في بعض هذه الأمور)** يوجد في كل عصر من العصور ممن ينتسب إلىٰ العلم والدين يخالف الكتاب والسنة ويسترضي عامة الناس، أو فئة من الناس إما رغبةً فيما في أيديهم من الجاه أو ما في أيديهم من المال، قد تجد كثيراً ممن عنده علم يفتي ويُقر المنكرات، ويُقر الانحراف، بل بعضهم يقول: إننا لا نحب أن نثير العامة، ويبقون علىٰ الشرك حتىٰ يموتوا، وهذا كلام باطل، فالأنبياء عندما يقومون في أممهم كانت الأمة كلها مشركةً، فلو قال النبي ما أحب أن أثير العامة من يعلمهم الدين؟ فلا بد

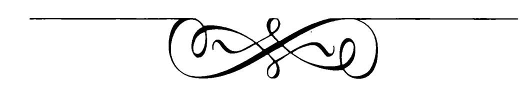
من بيان الحق، ولا بد من إنكار المنكر، وإن رغم من رغم وإن غضب من غضب، هذا دين الله ﷻ ومهمة العلماء والدعاة وطلبة العلم أن يعلموا الناس لا يقرونهم علىٰ منكراتهم، فإن العامي يستمر في منكراته إذا رأىٰ العالم سكت عنها مع رؤيته لها، بل بعضهم يبرر ويُقر هذه المنكرات، كما سبق أن بعض العلماء في العصر الحاضر في بعض بلاد المسلمين يقول: يجوز الاستغاثة بالأنبياء والصالحين، نقول: وما أدراكم أن النبي والصالح يكون له بعد موته روحانية يُجيب بها من دعاه؟ الإنسان مشغول بنفسه بعد أن يموت، وليس له علاقة بالدنيا، وهذا بالنص الصريح الصحيح **(إذا مات ابن آدم انقطع عمله..)**[(١)] لم يبق له عمل لا لنفسه ولا لغيره، فهذه النوعية من الناس قد تبرر الفساد والمعاصي والضلال بكلام غريب يخالف القرآن والسنة.

والمسلم عليه أن يحرص أن لا يعمل عملاً، ولا يقبل قولاً إلا إذا وافق الكتاب والسنة، وهذا هو العصمة وهذا هو النجاة، وقال العلماء: إن السنة كسفينة نوح من ركب فيها نجا، فكل فتوىٰ وكل إقرار لم يرد له نص من القرآن والسنة يكون باطلاً مردوداً؛ لأن التشريع حق الله، ولا يحق لأحد من البشر أن يُشرع، فالدين قد كمل، ولم يعد هناك حاجة إلىٰ إيجاد بدع جديدة أو عبادات إضافية، فالمسلم عليه أن يحذر، فإنه يقول الشارح رحمه الله: وإن كان بعض المتأخرين ممن ينتسب إلىٰ العلم والدين ممن أُصيب في عقله ودينه، فإن الإنسان يصاب في عقله عندما يعتقد أن السكوت علىٰ المنكر نفعٌ للعامة، وهذا نقص في العقل، فالأنبياء جاؤوا في الأمم والمنكرات والشرك فيها فاشٍ ومنتشر، فلم يسكتوا ولم يقولوا نترك الناس ولا نثيرهم، بل لا بد من بيان الحق، فإن هذا الإنسان المسكين الذي يعبد غير الله ويشرك مع الله إذا مات

---

(١) سبق تخريجه.

علىٰ شركه يُعاقب، وقد جاء في الرسالة التي بعثها نبينا ﷺ إلىٰ هرقل فقال فيها: (**فإن أعرضت فإن عليك إثم الأريسيين**)[١] يعني عامة الناس؛ لأن الناس يرون فيك القدوة فإن هرقل كان عالمـاً، فالعلماء مهمتهم أن يبينوا، لكن لا بأسلوب يكون فيه إساءة إلىٰ الناس أو خشونة أو جلافة أو إيذاء؟ بل بالأدب والحسنىٰ والخلق الحسن والترفق واللين بالناس، فرق بين أن تبلغ بلاغاً ليناً وبين أن تُقرهم علىٰ منكراتهم، فإن البلاغ اللين والدعوة بالحكمة أمر مطلوب، فإن الناس لا يرضون أن تجرح مشاعرهم ولا أن تُسيء إليهم مهما كنت، فالترفق في الدعوة والعرض وبيان الحق أمر مطلوب، فهذا ليس فيه نفاق، النفاق في أن ترضىٰ وتقر المنكر، فلك أحوال عدة، الحال الأول: أن تنكر المنكر وتبين أن هذا منكر، الحال الثاني: إذا عجزت أن تسكت، لكن الحال السيئ أن تقر المنكر وأن يصبح المنكر بفتوىٰ منك، فأنت بين أمرين: إن استطعت أن تنكر فتنكر وقد جاء في الحديث: (**من رأىٰ منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه**)[٢] أما أنه يصبغ عليه الصبغة الشرعية ويُقر هذا المنكر فإنه يحمل وزره يوم القيامة، فيقول ﷺ: إن بعضاً ممن أصيب من المتأخرين في عقله ودينه يرخص في بعض هذه الأمور، وهكذا تجد من ضعف دينه وعقله، فإنه بدلاً أن يقول عن المنكر أنه منكر يصبغ عليه الصبغة الشرعية، وهذا أشد أنواع الضلال.



(١) سبق تخريجه بلفظ: وإن توليت.
(٢) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

... علىٰ أنه لو أجمع المتأخرون علىٰ جواز هذا لم يعتد بإجماعهم المخالف لكلام الله وكلام رسوله في محل النزاع؛ لأنه إجماع غير معصوم بل هو من زلة العالم التي حذرنا من اتباعها، وأما الإجماع المعصوم فهو إجماع الصحابة والتابعين وما وافقه، وهو السواد الأعظم الذي ورد الحث علىٰ اتباعه وإن لم يكن عليه إلا الغرباء الذين أخبر بهم ﷺ في قوله: (بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبىٰ للغرباء) رواه مسلم. لا ما كان عليه العوام والطغام والخلف المتأخرون الذين يقولون مالا يفعلون ويفعلون ما لا يُؤمرون.

الشَّرْح

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حتىٰ لو أجمعوا ـ وهذا من الفرض الممتنع يستحيل أن يُجمع العلماء في عصر من العصور علىٰ إقرار المنكر؛ لأن الإجماع يعني أن يعلن كل إنسان أو يُصرح كل إنسان من العلماء بجواز هذا المنكر من غير أن يكون عليه دفعٌ من خارجه، يستحيل أن يكون عالم وأن يُجمع علىٰ أمر منكر، لكن يوجد علماء؟ نعم، وأما الإجماع فهذا متعذر ويستحيل لكن نقول حتىٰ ولو أجمعوا فإن هذا إجماع يأتي بعد إجماع سبقه يخالفه وهو إجماع الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وأتباعهم، وعلماء الأمة، ثم هذا الإجماع يخالف الكتاب والسنة، فكل قول يخالف الكتاب والسنة قولٌ مردود، وهنا يستشهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالحديث: **(بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبىٰ للغرباء)**[1] في كل عصر يرىٰ بعض الناس أن الدين أصبح غريب وينزل هذا الحديث علىٰ عصره، من يقرأ العصور

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا وإنه يأرز بين المسجدين، برقم: (١٤٥)، (١/ ١٣٠).



الماضية كل إمام في عصره يشكو من زمنه ويقول أصبح الدين غريباً، لكن الغربة الصحيحة إنما تكون في آخر الزمان، وقد توجد الغربة النسبية في بعض البلدان فإن الدين بدأ غريبا وكذلك أهله بدؤوا غرباء، فهنا إما أن يكون المراد بأهله كانوا غرباء في قومهم والغريب يضطهد ويهان ولا يُعطىٰ حقوقه وربما يخرج من بلده كما فعلت قريش بالمسلمين، فإن المسلمين في أول الدين في أول نزول الإسلام خرجوا إلىٰ الحبشة وهاجروا إلىٰ خارج مكة ولأنهم لم يعد لهم بقاء في داخل مكة وهم قد أسلموا ودخلوا في دين الله فأصبحوا كأنهم غرباء؛ لأن الغربة الحقيقية ليست في غربة اللغة ولا غربة العادات إنما في غربة الاعتقاد، فإن هؤلاء أصبح لهم معتقد آخر، وأصبح لهم تصور عن الدين آخر فأصبحوا غرباء بين الناس، وهكذا في آخر الزمان سيعود الدين غريبا وقد يوجد غربة للدين في بعض البلدان في بعض الأزمان لكنها غربة نسبية أما الغربة الحقيقية فإنها تكون في آخر الزمان، وهنا رَحِمَهُ اللَّهُ يستدل بهذا الحديث علىٰ أنه المسلم إذا رأىٰ ضعفاً في الدين وإقراراً للمنكر فإنه عليه أن يستأنس بهذا الحديث وأن يبقىٰ علىٰ دينه كما جاء في الحديث: (**لا تزال طائفة من أمتي علىٰ الحق منصورين**)(١)، فلا بد أن يبقىٰ في هذا الدين ولا بد أن يبقىٰ أُناس في كل مكان علىٰ الحق، لكن قد يكونون أقلية، ويكونون مستضعفين لكن بقاؤهم علىٰ دينهم ثابتين لا شك أن هذا قوة ونصر من الله تعالىٰ.

---

(١) أخرجه الشيخان بلفظ: لا يزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ الحق، صحيح البخاري، كتاب الاعتصام، باب قول النبي ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ الحق"، برقم: (٧٣١١)، صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب قول النبي ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ الحق لا يضرهم من خالفهم"، برقم: (١٩٢٠)، (٣/ ١٥٢٣)، واللفظ الذي أورده الشيخ أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الفتن، باب ما جاء الشام، برقم: (٢١٩٢)، وابن ماجه في سننه، المقدمة، باب اتباع سنة النبي ﷺ، برقم: (٦)، والحاكم في المستدرك، كتاب الفتن والملاحم، برقم: (٨٧١٧)، (٥/ ١٢)، وصححه علىٰ شرط الشيخين وسكت عنه الذهبي في التلخيص.

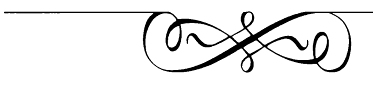
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: وقول الله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [يونس:١٠٦، ١٠٧].

الشرح

هذه إحدىٰ الآيات التي جاء بها صاحب المتن وهذا خطاب من الله ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ [يونس:١٠٦] وقد سبقها آية: ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ [يونس:١٠٥، ١٠٦]، والخطاب للنبي ﷺ خطاب لأمته، فهذا من التفنن في كلام الله في أساليب القرآن، فإن الدين موجه إلىٰ الجميع، لكن قضايا التوحيد قضايا خطيرة، فالله ينبه نبيه ﷺ مع أنه بعيدٌ عن الشرك، وبعيدٌ أن يدعو غير الله لكن إذا كان هذا الخطاب موجهـًا إلىٰ نبيه ﷺ وهو بعيد عن أن يقع في الشرك فغيره من باب الأولىٰ، ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ الذي ينفع هو الله، والضر بيد الله، فكيف تدعو من لا يملك نفعـًا ولا ضراً؟ هذا نقص في العقل، ونقص في الدين، فلا يُدعىٰ إلا من يملك، إلا من ينفع ويضر، أما الإنسان فلا يستطيع إلا إذا أراد الله ﷻ فإنه يقع منه النفع والضر بإذن من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ والظلم في كتاب الله يأتي أحيانـًا بمعنىٰ الشرك كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾

[لقمان:١٣] فالذي يدعو غير الله قد أشرك مع الله ﷻ، حتىٰ لو كان ذلك الداعي هو نبينا عليه الصلاة والسلام، ثم يُقرر رب العالمين ويبين أن النفع ولضر بيد الله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ الله هو الذي يقع منه الضر علىٰ خلقه من مرض أو فقر أو بلاءٍ أو كرب، كلها من الله، فلا تبحث ولا تسأل غير الله، والإنسان قد يضر لكن بإذن من الله كما قال تعالىٰ في قضية السحر: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة:١٠٢]، لا يضرون أحداً إلا بإذن الله؛ لأن التأثير لا يقع إلا إذا خلقه الله وأراده، والإنسان قد يتجه ليفعل لكن الله يمنعه، فلا تبحث ولا تسأل ولا تدع إلا من بيده الأمر كله، وبيده الضر والنفع، وهو الله ﷻ.



قال المؤلف رحمه الله:

قال ابن عطية: معناه قيل لي: ﴿وَلَا تَدْعُ﴾ فهو عطف على ﴿أَقِمْ﴾ وهذا الأمر والمخاطبة للنبي ﷺ إذا كانت هكذا فأحرىٰ أن يحذر من ذلك غيره.

وقال غيره: ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ معناه: فإن دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فكنّىٰ عنه بالفعل إيجازاً ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

إذاً جزاء للشرط وجواب لسؤال مقدر كأن سائلاً سأل عن تبعة عبادة الأوثان وجعل من الظالمين؛ لأنه لا ظلم أعظم من الشرك ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣].

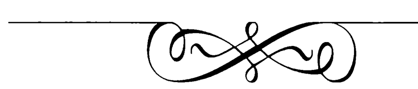
قلت: حاصل كلام المفسرين: أن الله تعالىٰ نهىٰ رسوله ﷺ أن يدعو من دونه مالا ينفعه ولا يضره، والمراد به: كل ما سوىٰ الله فإنهم لا ينفعون ولا يضرون، وسواء في ذلك الأنبياء والصالحون وغيرهم كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن:١٨].

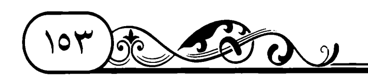
الشرح

قوله: (ابن عطية ..) هنا خطأ في هذا القول، لا شك أن ابن عطية إمام من أئمة المفسرين بالأندلس وعاش في القرن السادس، له كتاب اسمه: (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)، وفي الحقيقة قوله هذا لم يحالفه الصواب، يقول: (قال ابن عطية معناه قيل لي: ولا تدع)، هذا الكلام ليس كلام رسول الله، بل هذا كلام الله، الله الذي أمر وليس الرسول ﷺ هو الذي يخبر، فكيف يقول: قيل لي؟ قال الله له: ولا تدع من دون الله، وليس هذا كلام رسول الله ﷺ حتىٰ يقول: قيل لي، فالتفسير الصحيح أن يقول: قال الله له: ولا تدع من دون الله.

قوله: (وقال غيره..) يقول: أول الآية قال: ﴿وَلَا تَدْعُ﴾ ثم قال: ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ فكأن هناك اختلافاً بين اللفظين، اللفظ الأول: قولٌ؛ لأن الدعاء يكون بالقول، وبعد ذلك قال: ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾، والفعل يكون بالجوارح، فهنا كنَّىٰ بالفعل عن القول، وفي الحقيقة أن الفعل هنا جاء قبله ما يدل عليه أي: إن فعلت الدعاء، وليس الفعل بمعنىٰ آخر بل معناه: إن فعلت ما نُهيت عنه، والقول يدخل في الفعل؛ لأن الإنسان اعتقاده وقوله وعمل جوارحه كلها فعل، فليس هناك كناية، بل نفس الكلام السابق أُشير إليه بنفس اللفظ الذي يدل عليه.

قلنا الدعاء في كتاب الله يأتي بمعنيين: بمعنىٰ الخضوع والتضرع الذي هو دعاء العبادة، وبمعنىٰ دعاء المسألة أي: الطلب، تطلب من الله حاجتك، وكلاهما حق لله لا يجوز صرفه إلا لله، لا تخضع ولا تذل إلا لله، ولا تدع إلا الله في حاجاتك التي لا يستطيعها إلا الله، فكلا نوعي الدعاء ورد في كتاب الله، ولا يجوز صرف شيء منهما لغير الله ﷻ.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال النبي ﷺ لابن عباس: (إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك) رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح.

وفي الآية تنبيه على أن المدعو لابدّ أن يكون مالكًا للنفع والضرر حتى يعطي من دعاه أو يبطش بمن عصاه، وليس ذلك إلا لله وحده، فتَعيّن أن يكون هو المدعو دون ما سواه، والآية شاملة لنوعي الدعاء.



الشَّرْح

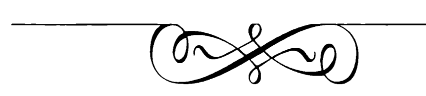
قوله ﷺ: (إذا سألت فاسأل الله) هذا الحديث هو شرح لمعنى كلام الله، وابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا يروي هذا الحديث في حديث طويل في أوله قال: (كنت خلف رسول الله ﷺ، فقال: يا غلام)؛ لأن ابن عباس كان صغيراً، عندما مات رسول ﷺ، (احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، إلى آخره)[1]، فهنا السؤال والاستعانة حق الله، لا تسأل إلاّ الله، ولا تستعن إلاّ بالله، وهذا معنى قوله تعالى وهو يعلمنا أن نقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة:٥] الاستعانة على الأمور التي لا

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب رقم (٥٩)، برقم: (٢٥١٦)، والإمام أحمد في المسند، برقم: (٢٦٦٩)، (٤/ ٤١٠)، والحاكم في المستدرك، كتاب معرفقة الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، برقم: (٦٣٨٢)، والطبراني في المعجم الأوسط والكبير، المعجم الأوسط، برقم: (٥٤١٧)، (٥/ ٣١٦)، وأبو يعلى في المسند، برقم: (٢٥٥٦)، (٤/ ٤٣٠).

يستطيعها إلاّ الله لا يجوز صرفها لغيره، لكن قد تستعين بإنسان على ما يستطيع، فتستعين بالبناء لبناء المنزل، وتستعين بالطبيب للعلاج الظاهري، وتستعين بالمهندس للبناء، وهكذا، فالاستعانة بالإنسان فيما يستطيعه لا بأس بذلك، لكن بعض العلماء يرى أن الأصل في الاستعانة عدم الجواز، فلا تستعن إلاّ بما ورد ما يدل على الجواز؛ لأن قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ بمعنى لا نعبد غيرك، ولا نستعين سواك، فالاستعانة لا ينبغي أن تكون إلا لله، ولهذا هذه السورة سورة حافظة يعني مؤصلة مؤسسة، يقرأ المسلم بها في كل ركعة، فلو عرف الذي يدعو غير الله، ويستغيث بغير الله معنى ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ وهو يقرأها في كل ركعة ما دعا غير الله وما استعان بغير الله، لكن يقرؤها وهو لا يعرف معناها، فمعنى ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ أي نذل ونخضع، ونحب ونطيع، و ﴿نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ أي نتوكل عليك، ولا نسأل غيرك، وبعض المسلمين يقرأ بها في كل ركعة، ومع ذلك يستعين بغير الله ويسأل غير الله ويستغيث بغير الله، ولا يرى أن هذا خلاف لما يقرأه في صلاته في كل ركعة.

﴿وَلَا تَدۡعُ﴾ يعني لا تدع من دون الله سواءٌ كان المراد بها دعاء العبادة أو دعاء المسألة أو كليهما، فكلا أنواع الدعاء لا يجوز صرفه إلا لله ﷻ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس:١٠٦] أي: المشركين وهذا كقوله: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ [الشعراء:٢١٣]. وقوله: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر:٦٥]. وقوله في الأنبياء: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام:٨٨].

فإذا كان هذا الأمر لا يصدر من الأنبياء وحاشاهم من ذلك لم يفكوا أنفسهم من عذاب الله فما ظنك بغيرهم، فلم يبق شيء يقرب إلى الله ويباعد من سخطه إلا توحيده والعمل بما يرضاه، لا الاعتماد على شخص أو قبر أو صنم أو وثن أو مال أو غير ذلك من الأسباب، ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون:١١٧]، والآية نص في أن دعاء غير الله والاستغاثة به شرك أكبر، ولهذا قال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس:١٠٧]؛ لأنه المتفرد بالملك والقهر والعطاء والمنع، ولازم ذلك إفراده بتوحيد الإلهية؛ لأنهما متلازمان، وإفراده بسؤال كشف الضر وجلب الخير؛ لأنه لا يكشف الضر إلا هو ولا يجلب الخير إلا هو، ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر:٢].

فتعيّن أن لا يدعى لذلك إلا هو، وبطل دعاء من سواه ممن لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً فضلاً عن غيره، وهذا ضدّ ما عليه عباد القبور، فإنهم يعتقدون أن

الأولياء والطواغيت الذين يسمّونهم المجاذيب ينفعون ويضرون ويمسون بالضر ويكشفونه، وأن لهم التصرف المطلق في الملك أي على سبيل الكرامة، وهذا شرك كفار العرب، وإما على سبيل الوساطة بينهم وبين الله بالشفاعة، وهذا شرك الذين قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، وفي الآية دليل على أن أصلح الناس لو فعله إرضاء لغيره صار من الظالمين. ذكره المصنف.

الشَّرْح

بعض الآيات التي أوردها نزلت في حق رسول الله ﷺ، فهي وإن كانت خطاباً له فهي خطاب لأمته، يقول الله لرسوله ﷺ: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ [الشعراء:٢١٣]، قضية التوحيد ليس فيها تسامح حتى لو كان من رسول الله وحاشاه أن يقع منه ﷺ، لكن حق الله عظيم، فربنا خالق الوجود ومالك الوجود، نبينا عبد من العباد، وليس إلهاً ولا رباً ولا مشاركاً لله ولا وزيراً ولا معيناً، بل هو عبد من عبيد الله، وإن كان عبداً ممتازاً أشرف العباد، وأفضلهم وسيدهم، لكنه لا يخرج من دائرة العبودية، فلو وقع منه الشرك لعذبه الله عز وجل؛ لأن حق الله لو صُرف لغيره لعاقب من يصرفه ولو كان رسول الله، فإذا كان هذا التهديد لرسول الله ﷺ فما بالك بغيره من أمته؟.

قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ هذه قاعدة أنزلها الله في القرآن وأنزلها الله في الماضي على الأنبياء جميعاً، يقول عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥]، فحق الله ليس فيه تسامح، ولو كان هذا الخطأ يقع من النبي لاستحق العقاب، فما بالك بغيره من أتباع الأنبياء، فإنه يكون معرضاً للعقاب أكثر.

قوله: (فإذا كان هذا الأمر لا يصدر من الأنبياء وحاشاهم من ذلك) هنا يحسن أن توجد عبارة لتكملة الجملة: هذا الأمر لا يصدر من الأنبياء وحاشاهم من ذلك، ولو حصل منهم لم يفكوا أنفسهم من عذاب الله؛ لأن العبارة فيها نقص في السياق يقول: فإذا كان هذا الأمر لا يصدر من الأنبياء وحاشاهم من ذلك لم يفكوا أنفسهم من عذاب الله، ما ورد "لو حدث منهم" فنقول: ولو حصل منهم لم يفكوا أنفسهم من عذاب الله.

يقول تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾ [المؤمنون:١١٧] ليس هناك إله آخر فيه برهان، يقول العلماء: هذا يسمىٰ صفة لازمة، ليست صفة مفرقة أو مبينة لنوعي الآلهة، فليس هناك إله إلاّ الله ﷻ، ولا برهان لوجود آلهة أخرىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ [الأنعام:٣٨]، قال العلماء: ما هناك طائر يطير بغير جناحين، لكن هذه صفة لازمة، قال السمين الحلبي رحمه الله، وسبقه إليه الزمخشري: قوله تعالىٰ ﴿لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾ صفة لازمة، أي لا يكون الإله المدعو من دون الله إلاّ كذا، فليس له مفهوم، ومثله ﴿وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ أي لا يفهم أن ثمّ إلهاً آخر مدعواً من دون الله له برهان، وأن ثم طائراً بغير جناحين، فأحياناً الصفة تأتي وليست صفة مفرقة بين أمرين، إنما هي صفة لازمة أي تبيّن صفة الشيء الذي يرد، لا أنها تبيّن أن هناك شيئاً آخر.

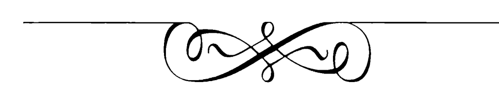
قوله: (والطواغيت الذين يسمّونهم المجاذيب ينفعون ويضرون ويمسون بالضر ويكشفونه) هنا يشير رحمه الله إلىٰ طائفة تسمّىٰ بالمجاذيب، والمجاذيب الصوفية لهم فيها تفسيرات، يقول الجرجاني: المجذوب من اصطفاه الحق لنفسه، واصطفاه بحضرة أنسه، وأطلعه بجناب قدسه، ففاز بجميع المقامات

والمراتـب بـلا كلفـة المكاسـب والمتاعـب. مـن أيـن جـاء بهـذه التفسـيرات؟ المجذوب: شخص تراه في بعض المجتمعات الإسلامية قذراً، يعني كأنه في الحقيقة فاقد لعقله، يبول على ملابسه ولا يعرف الصلاة، ولا يعرف الوضوء، وترى الأقذار والأوساخ متراكمة عليه من كل مكان، هذا يسمى مجذوباً، وقد يتبركون به ويسألونه الدعاء ويرون فيه أن هذا الشخص قد اصطفاه الله وأصبح في مقام الولاية، فيتسابقون إلى خدمته والتقرب إليه وهو لا يعرف الطهارة ولا النظافة ولا الصلاة!!. وقد رأينا في بعض البلدان الإسلامية شخصاً بجانب قبر من القبور وينام بجانب القبر، وما أظنه قد اغتسل أو غسل أطرافه عاماً كاملاً، والذباب عليه من كل مكان، فسألنا: من هذا؟ قالوا: هذا من أولياء الله، وهذا قد وصل، قلنا: أين وصل؟ إذا وصل يعني يرحل، ما يبقى هنا، سبحان الله!!

كان رسولنا ﷺ نموذجاً في النظافة والطهر والأخلاق، وكان يحب السواك، وهو أول من شرع وشرّع نظافة الفم، وكذلك الطهور، غسل الجمعة، الوضوء في كل صلاة، هذه النظافة الشرعية، التي كان عليها رسول الله ﷺ، أليس هذا هو المنهج الصحيح!!، من أين جاؤوا بهذا الجذب والمجاذيب؟!! فهذا كلام غريب وعجيب، ولا أدري ما أصله، لعلّ أصله ـ والله أعلم ـ البوذية أو الهندوسية؛، لأن في الهندوس والبوذيين هكذا وضعهم، يعني قذرون، بعضهم لا يغتسل طوال حياته، بعضهم يقول: بقي أربعين عاماً لا يغتسل، وترى الأوساخ عليه من كل مكان، هؤلاء في تلك الديانات البشرية. أما الإسلام فإنه دين الله الذي شرع لعباده النظافة والطهارة والصلاة التي تكرّر في كل يوم، كلها بوضوء وتنظف وغسل، وقد جاءت الأحاديث تشدّد على من لا يستنزه من البول، ففي الحديث الشريف (**أن رسول الله ﷺ مرّ على قبرين،**

صاحباهما يعذبان، كان أحدهما لا يستنزه من البول)(١)، فهذا كان سبباً لعذاب القبر؛ لأنه كان وسخاً، فما بالك بمن يعيش طوال حياته لا يعرف غسلاً ولا وضوءً ولا صلاةً ويزعم أنه قد وصل، فهذا من الضلالات التي يقع فيها الناس عندما تختفي أنوار الشريعة من المجتمع.

قوله: (**علىٰ أن أصلح الناس لو فعله إرضاء لغيره صار من الظالمين**) يقول أن الإنسان يعني أن أصلح الناس وأعلمهم وأتقاهم لو فعل هذا الفعل إرضاءً للناس لكان مستحقّاً للعذاب؛ لأن فعل الشرك لا يقبل من صاحبه إلاّ إذا كان مضطراً أو مهدداً بالقتل، فعندئذ يكون ذلك عذراً له أو مأذوناً فيه.



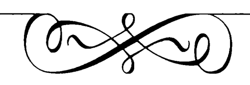
(١) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ﴾ [يونس:١٠٧] **فلا يردّه عنه راد؛ لأنه العزيز الذي لا يغالب ولا يمانع ولا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، فأي فائدة في دعاء غيره لشفاعة أو غيرها، فإنه تعالىٰ فعال لما يريد، لا يغنيه عنه شفيع ولا غيره، بل لا يتكلم أحد عنده إلا بإذنه ولا يشفع أحد إلا بإذنه** ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة:٤].

الشَّرح

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن الله لا يُقاس بخلقه، فحتىٰ الشفاعة التي تكون في الآخرة لا تتم إلا بإذن من الله، وقد مر حديث الشفاعة وأن نبينا ﷺ يوم القيامة لا يشفع حتىٰ يستأذن، لا يشفع ابتداءً؛ لأنه أمام الله، أمام الخالق، أمام مالك الملك عَزَّ وَجَلَّ، أما في الدنيا فإن الشفعاء يشفعون في حاجات الناس بدون إذن، يأتي إلىٰ المشفوع إليه ويشفع لصاحب الحاجة ولو لم يأذن؛ لأن الناس بعضهم يحتاج إلىٰ بعض، المشفوع له، والمشفوع عنده، والشافع، كل إنسان محتاج؛ لأنه لا يقوم إنسان بمفرده، لا يقوم إلا بالآخرين، فهو محتاج إليهم، فيقر شفاعتهم ويقبلها، لكن الخالق ليس كالمخلوق، فإنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ أي: لمن تاب إليه وأقبل عليه حتىٰ ولو كان من الشرك، قال: وقوله: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ...﴾ [العنكبوت:١٧] الآية.

ش: أمر الله تعالىٰ بابتغاء الرزق عنده لا عند غيره ممن لا يملك رزقًا من الأوثان والأصنام وغيرها كما قال في أول الآية: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ قال ابن كثير: وهذا أبلغ في الحصر كقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة:٥] وقوله: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم:١١] ولهذا قال: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ أي: لا عند غيره؛ لأنه المالك له، وغيره لا يملك شيئًا من ذلك ﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾ أي: أخلصوا له العبادة وحده لا شريك له ﴿وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ أي: علىٰ ما أنعم عليكم ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ أي: فيجازي كل عامل بعمله.

الشرح

هذه جزء من آيات وردت من قول إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه، وإبراهيم وُجد بعد نوح عليهما السلام، ذكرت الآية نوحًا في سورة العنكبوت ثم ذكرت إبراهيم عليهما السلام، والمطلع علىٰ قصص القرآن يرىٰ أن النفس البشرية واحدة منذ خلق الله آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلىٰ اليوم وإلىٰ قيام الساعة، خلقه الله ثابتًا بصفاته وأشكاله لا يتطور، هو هو، أما صناعة الإنسان وأعماله وكشوفاته فيدخلها التحديث والتطوير، لكن النفس البشرية هي هي، مقاييس الحق

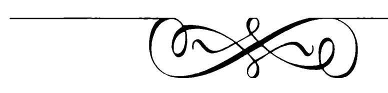
والباطل عندها واحدة، موازينها واحدة، إدراكها واحد، تصورها للأشياء واحد، أخلاقها واحدة، فالعدل هو العدل قديماً وحديثاً، والصدق هو الصدق قديماً وحديثاً، والظلم هو الظلم قديماً وحديثاً، والكذب هو الكذب قديماً وحديثاً، والذي يطلع علىٰ قصص الأنبياء والحوار الذي يدور بين الأنبياء وبين الأمم يُدرك هذه الحقيقة، هنا إبراهيم عليه السلام قبل آلاف السنين يوجه قوله ودعوته لقومه كما قال عز وجل: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: واذكر إبراهيم ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:١٦]، يبدأ هذه الدعوة بهذا الأسلوب اللطيف ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ﴾ وهذه بداية دعوة كل نبي يدعو الناس إلىٰ عبادة الله ﴿ذَٰلِكُم﴾ إشارة إلىٰ هذا الفعل الذي هو العبادة والتقوىٰ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لكن من يعرف الخير والشر؟ ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فالعلم هو الذي يميز بين الخير والشر، إن علمتم عرفتم أن هذا خير لكم وإن جهلتم لا تعرفون، فالعلم مطلب، ثم قال: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا﴾ هنا حصر أن من تعبدونهم ليسوا إلا أوثاناً، والأوثان جمع وثن، والوثن هو: الصورة المنحوتة التي ينحتها الإنسان، ينحت من الخشب والحجارة والمعادن صورةً ثم يعبدها، وهذا من أعجب العجب، الإنسان العاقل الذي أكرمه الله وأسجد لـه ملائكته، وأخبر عن قدومه قبل أن يخلقه، يهبط ويُصبح في درجة المهانة أن يصور صورةً ثم يعبدها، يزعم أن هذا إلهه فإليه يرجع ومنه يسأل وبه يستغيث!!، سببه عدم وجود العلم، العلم يُزكي الإنسان، ويبارك حياته، والجهل الذي إذا وقع في الأمة أو الفرد انحط،﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ﴾ أي: تختلقون، تفترون إفكاً أي: كذباً، وهم يظنون أن هذه الأصنام فيها خاصية فيسألونها، ويستشفعون بها، ويستغيثون بها.

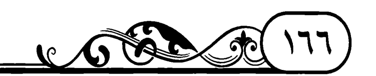
فيقول هنا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾، هذا الرزق المبثوث في الأرض نرىٰ فيه جانبًا من جوانب عظمة الخالق ﷻ، فأنواع الأغذية وأنواع الأطعمة، وأنواع الحبوب والثمار كل هذا الرزق جعله الله ﷻ يتكاثر وينمو ويبقىٰ، كم مر علىٰ الأرض من طوفان؟ وكم مر عليها من آفات؟ وتبقىٰ الثمار تتكاثر، أرأيتم لو اندثرت هذه الثمار كيف يعيش الإنسان؟ ماذا يأكل؟ لا يستطيع، فالرزق أمره عظيم، ولهذا قال ﷻ بعد أن ذكر الرزق: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ٥٨﴾ [الذاريات:٥٨] هذا الرزق الذي خُلق بصورةٍ تتفق مع قدرة الإنسان علىٰ هضمه والاستفادة منه، هذا الرزق يتحول من مادة إلىٰ طاقة، ولا يدري الإنسان كيف يتحول، فرزق الله متفق مع حاجة الإنسان، واستفادته، وحركته، ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾، فالرزق من الله، هو الذي يرزق بأن يجعل السماء تُمطر، والأرض تُنبت، الإنسان يعجب عندما يرىٰ الشجرة الطويلة الباسقة كيف يصعد الماء من جذرها وجذعها من أسفلها إلىٰ أعلاها؟ ليس هناك آلات سحب ولا إطلاع، ونحن نعلم قوانين الجاذبية أن الشيء يهبط من فوق إلىٰ أسفل، فكيف يُخالف الماء فيصعد إلىٰ أعلىٰ؟ الرزَّاق ﷻ هو الذي خلق وهو الذي يرعىٰ، نحن عندما نأكل الثمرة لا ندري ما وراءها من هذا الجهد الكبير من الماء ومن الشمس ومن التراب ومن الإنسان، وإذا بها ثمرةٌ ناضجةٌ مهيأة متفقة مع قدرة الجهاز الهضمي لهضمها وامتصاص ما فيها من فوائد ومنافع، فالرزق بيد الله، وكلمة رزق كلمة عظيمة وراءها من المعاني والدلالات ما يدل علىٰ قول الله ﷻ في الآية السابقة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ...﴾ فالذي يملك القوة ليأتي برزق مثل هذا هو الله، هو الرزاق ذو القوة المتين ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾، إذا كان هذا الوثن لا يملك

الرزق بل هو من صناعة الإنسان، فإن اعتقد الإنسان أن هذا الوثن يرزقه فإن هذا سفه وانحطاط، وإن كنت تعتقد أنه لا يرزقك فكيف تسأله وتخضع له وتذل له وتدعوه من دون الله؟ فيقول إبراهيم عليه السلام: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾، فما دام أن الإنسان سيعود إلى الله وسيرجع إليه فعليه أن يتأمل أعماله وسلوكه، فلا يعمل إلا ما يُرضي الله الذي سيرجع إليه وعودته إليه إليه، هذه الكلمات القليلة فيها منهج للدعوة في الترتب، في ترتب العرض وربط الإنسان بخالقه، وإبطال الباطل بطريقة إقناعية.

فيأتي المؤلف رحمه الله بهذه الآية: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ فلا تُعلق قلبك إلا بالرزاق الذي يرزق، فإن الله قد كتب رزقك قبل أن تُخلق، ولا يملك أحدٌ أن يزيد في رزقك ولا أن ينقص منه، فلا تخضع إلا للذي بيده الأمر وبيده الرزق، ولا تذل إلا له ولا تدعو إلا إيَّاه، فهذه الآية جاء بها المؤلف رحمه الله ليبين: أن الإنسان ينبغي عليه أن لا يسأل الرزق إلا من الله، ولا يدعو إلا إياه، ولا يستغيث إلا به،والاستغاثة لفظها يدل على سرعة الحاجة أي: أن الإنسان قد نزل به ما يحتاج إلى رفعه سريعاً؛ لأن الاستغاثة نوع من الدعاء والدعاء أشمل، والاستعاذة هي: طلب دفع الشيء قبل وقوعه، أما الاستغاثة: فإنها رفع الشيء بعد وقوعه، ثم أورد كلام ابن كثير رحمه الله أن هذا نفس المعنى في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾، فقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا﴾ حصر، و﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ حصر، ثم جاء بقول امرأة فرعون: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ قلنا: إن هذه الآية قالتها امرأة فرعون في جو من الخوف والرعب، وما لحقها من الأذى من زوجها، فكانت

في حاجة إلىٰ الأمن قبل الدار، وقبل الرزق، وقبل أي شيء آخر، فقالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ﴾ فهي في حاجة إلىٰ أن تكون بجوار الله وفي أمنه، ثم قالت: ﴿بَيْتًا﴾ قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قدمت الجار قبل الدار، فقالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ﴾ ثم قالت: ﴿بَيْتًا﴾؛ لأنها تشعر بأن حاجتها إلىٰ الأمن أولاً قبل السكن، ثم قال: ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ أي: لا عند غيره، فإذا كان الأمر بيد الله ولا يرزق إلا الله فلا تُعلق قلبك بغير الله، ولا تُنزل حاجتك بغيره، فإنه هو الرزاق ذو القوة المتين.



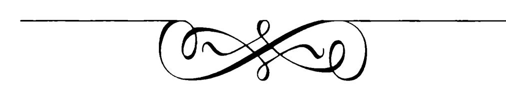


قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قلت: في الآية الرد على المشركين الذين يدعون غير الله ليشفعوا لهم عنده في جلب الرزق، فما ظنك بمن دعاهم أنفسهم؟ واستغاث بهم ليرزقوه وينصروه؟ كما هو الواقع من عباد القبور، وقال المصنف: وفيه أن طلب الرزق لا ينبغي إلا من الله كما أن الجنة لا تطلب إلا منه.

الشَّرْح

هنا يذكر وجه الشاهد في الآية وهي: أن المشركين يسألون أو يستشفعون بهذه الأوثان إلى الله ليرزقهم فقال: هنا يرد عليهم ويبين خطأهم، وأنه ينبغي أن يُسأل الله مباشرة كما قال جَلَّ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]، فلا حاجة أن تسأل غير الله ليشفع لك إلى الله، فيقول: هذه الآية جاءت في هذا المعنى، فما بالك بمن يسأل من الأصنام أو الأوثان أن يرزقوهم؟ هذا أشد شركاً وأشد انحرافاً وضلالاً.



قال المؤلف رحمه الله:

قال: وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ...﴾ [الأحقاف:٥، ٦] الآيتين.

ش: حاصل كلام المفسرين: أن الله تعالىٰ حكم بأنه لا أضل ممن يدعو من دون الله لا دعاء عبادة ولا دعاء مسألة، واستغاثة من هذه حاله ومعنىٰ الاستفهام فيه إنكار أن يكون في الضُلاَّل كلهم أبلغ ضلالاً ممن عبد غير الله ودعاه حيث يتركون دعاء السميع المجيب القادر علىٰ تحصيل كل بغية ومرام ويدعون من دونه من لا يستجيب لهم ولا قدرة به علىٰ استجابة أحد منهم ما دام في الدنيا وإلىٰ أن تقوم القيامة، كما قال تعالىٰ: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ [الرعد:١٤].

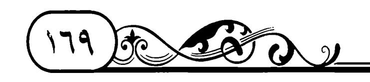
الشرح

قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ...﴾ [الأحقاف:٥]، هذه الآية إشارة إلىٰ ضلال من يدعو غير الله ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ ﴾ بمعنىٰ: لا أضل من هذا الشخص الذي يعمل هذا العمل، فإن أهل الضلال علىٰ درجات: ضال وأضل، كما يقال: ظالم وأظلم، وجاهل وأجهل، وعالم وأعلم، يقول: لا أحد أضل من الذي يدعو ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ ﴾ أي: لا يسمعه، ولا يستطيع أن يستجيب له، فأي إنسان هو أضل من هذا الإنسان الذي يفعل هذا الفعل كما قال تعالىٰ في المقابل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ﴾ [فصلت:٣٣] أي: لا أحد أحسن قولاً من هذا الشخص الذي يدعو إلىٰ الله، حتىٰ

الذي يقرأ القرآن وحتىٰ الذي يذكر الله، فالذي يدعو إلىٰ الله أحسن من جميع من يعمل يعني القول في الدعوة إلىٰ الله أحسن من جميع الأقوال؛ لأن الدعوة إلىٰ الله تنتج من يذكر الله، وتُوجد من يقرأ القرآن، لكن الذي يقرأ القرآن لنفسه يبقىٰ هو هو فقط، لكن الدعوة إلىٰ الله تُوجد من يقرأ القرآن من غير الداعي، ومن يعبد الله من غير الداعي، ولهذا كان نبينا عليه الصلاة والسلام أفضل البشر؛ لأن جميع أعمال أمته الخيِّرة في ميزان حسناته يوم القيامة؛ لأن كل الأمة إنما هي ثمرة من ثمار صبره كم أوذي واتهم بالجنون والسحر والكذب؟ فصبر فجازاه الله عز وجل أن جعل جميع أعمال أمته تكون في ميزان حسناته، كما أخبر بذلك هو عليه الصلاة والسلام: (**من دعا إلىٰ هدىٰ كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا**)[1] فكل من تسبب في خير كان له مثله، وكل من تسبب في شر كان له مثله إلىٰ يوم القيامة، كل من عمل شراً بسبب شخص معين فيوم القيامة يكون كل ذلك في ميزان سيئاته، ففي قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: لا أحد أحسن قولاً ممن دعا إلىٰ الله، و﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ يعني: لا أحد أضل ممن يدعو من دون الله ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف:٥، ٦]، فالذي يعمل هذا العمل ليس ضالاً فقط، بل هو أشد الناس ضلالاً؛ لأن العقل العادي السليم لا يُقر هذا الفعل أن تستغيث بمن لا يجيبك ولا يسمعك، فهذا عمل ضال لا يقع فيه إلا من خذله الله عز وجل أو كان جاهلاً لا يعرف الحق من الضلال.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلىٰ هدىٰ أو ضلالة، برقم: (٢٦٧٤)، (٤/ ٢٠٦٠).



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

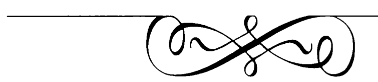
وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۝٥﴾ أي: لا يشعرون بدعاء من دعاهم؛ لأنهم إما عباد مسخرون مشتغلون بأحوالهم كالملائكة، وإما أموات كالأنبياء والصالحين، وإما أصنام وأوثان، وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾ [الأحقاف:٦] أي: إذا قامت القيامة وحشر الناس للحساب عادوهم وكانوا بعبادتهم الدعاء وغيره من أنواع العبادة كافرين كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ۝٨١ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ۝٨٢﴾ [مريم:٨١، ٨٢] فليسوا في الدارين إلا علىٰ نكد ومضرة لا تتولاهم بالاستجابة في الدنيا، وتجحد عبادتهم في الآخرة وهم أحوج ما كانوا إليها.

الشَّرْح

يقول: المدعوون أحد ثلاثة أنواع؛ لأن الذين عبدوا غير الله إما عبدوا الملائكة، والملائكة خلق مكلف بعمل لا يحيد عنه، ولا يستطيع أن يفعل غيره وهو: عبادة الله وذكره، وتنفيذ أوامره، ولا يستطيع أن يُجيب أحداً؛ لأنه ليس هذا من أعماله. أو عبدوا إنساناً ميتاً سواءٌ كان نبياً أو صالحاً، والميت قد انقطع عمله، لو أراد الميت ولو كان سيد البشر أن يزيد في عمله حسنة ما استطاع؛ لأن الحديث: (إذا مات ابن آدم) وكل الناس بنو آدم الأنبياء وغيرهم (انقطع عمله إلا من ثلاث ..)[1]، فليس أحدٌ مات يستطيع أن يزيد في عمله أو يُنقص منه، فإذا كان لا يستطيع أن ينفع نفسه فما بالك بغيره؟ فالأنبياء

(١) سبق تخريجه.

والصالحون قد ماتوا ولا يسمعون ولا يستجيبون، أو عبدوا أحجاراً جامدة كالأوثان أو الأخشاب أي الصور المنحوتة من الأخشاب أو الأحجار أو المعادن، فإن هذه جامدة لا تستجيب، فكل من يُدعىٰ من دون الله لا يستطيع أن يقدم نفعًا ولا يُجيب من دعاه، فهؤلاء المدعوون في الدنيا لا يستجيبون وفي الآخرة يكونون أعداءً أي: ضداً لمن دعاهم؛ لأنهم طلبوا منهم ما ليس من أعمالهم ولا من اختصاصهم، وأشركوا مع الله الشرك الأكبر الذي لا يرضاه لا الصالحون ولا الملائكة ولا الأنبياء، فهذا العمل لا يرضاه أولئك أصحاب العقول، أما الجمادات فإنها لا يكون لها قدرة علىٰ السماع ولا علىٰ المواجهة لا في الدنيا ولا في الآخرة.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

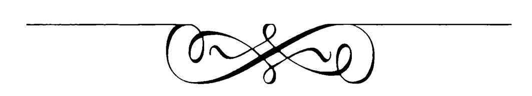
وفي الآيتين مسائل نبه عليها المصنف:

- أحدها: أنه لا أضل ممن دعا غير الله.
- الثانية: أنه غافل عن دعاء الداعي لا يدري عنه.
- الثالثة: أن تلك الدعوة سبب لبغض المدعو للداعي وعداوته له.
- الرابعة: تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو.
- الخامسة: كفر المدعو بتلك العبادة.
- السادسة: أن هذه الأمور هي سبب كونه أضل الناس.



الشَّرْح

الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ يستنبط من كل باب عدة فوائد، وهذه الفوائد كلها مشروحة في كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فهنا يقول: أن سبب ضلال هذا الإنسان أنه دعا إنساناً جامداً، يعني دعا إنساناً ميتاً أو وثناً جامداً لا يسمع ولا ينفع، وأنه يوم القيامة يكون عليه ضداً وعدواً له، فهذا الإنسان الذي فعل هذا الفعل إن كان يعرف هذا فهو ضال وإن لم يعرف فذلك أشد ضلالاً.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: وقوله تعالىٰ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل:٦٢].

ش: يقرر تعالىٰ أنه الإله الواحد الذي لا شريك له ولا معبود سواه مما يشترك في معرفته المؤمن والكافر: لأن القلوب مفطورة علىٰ ذلك، فمتىٰ جاء الاضطرار رجعت القلوب إلىٰ الفطرة وزال ما ينازعها فالتجأت إليه وأنابت إليه وحده لا شريك له كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ۝٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝٥٤﴾ [النحل:٥٣، ٥٤] وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر:٨]، ومثل هذا كثير في القرآن.

الشرح

قوله تعالىٰ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾، فهنا ﴿أَمَّن﴾ هي كلمتان أم ومن، يعني من هو الذي يجيب المضطر؟ المضطر هو: الإنسان الذي قد بلغت حاجته ذروتها فانقطعت علاقته واتصاله بغير الله ولم يبق في قلبه إلا الله، فإذا دعا هذا الإنسان في مثل هذا الحال أجابه الله، الإنسان قد يدعو وقلبه لاهٍ، وقد يدعو وفي قلبه غير الله، وقد يدعو وهو لا يستشعر الحاجة الكاملة، لكن المضطر الذي يدعو دعاء المضطر يُجيبه الله عَزَّ وَجَلَّ، وهذه الحقيقة يعرفها أهل الشرك من قريش، فالله يسألهم عن أمر يعلمونه ويعرفونه، وقد أورد آيات أخرىٰ يذكر فيها حالهم، فإنهم إذا نزلت بهم الحاجة والاضطرار دعوا الله، وإذا ذهب عنهم ما دعوا الله من أجله نسوا ورجعوا إلىٰ شركهم، وهكذا النفس

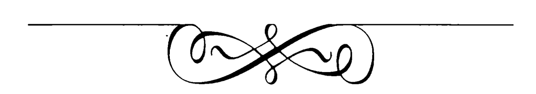
البشرية في وقت الشدة لها حال، وفي وقت الرخاء لها حال آخر، وفي وقت المرض لها حال، وفي وقت الصحة لها حال آخر، وفي وقت الفقر لها حال، وفي وقت الغنىٰ لها حالٌ آخر، هكذا النفس منذ خلقها الله إلىٰ اليوم، فالإنسان وقت الشدة يُخلص لله، ويتجه إليه، ويتضرع إليه، فإذا مرض يعود بالتوبة إلىٰ الله، والاستقامة علىٰ دينه، ثم إذا جاءته العافية تغير، والفقير وقت فقره يقول: لو كان بيدي مال كذا وكذا لكنت إنسان متصدقاً وفاعلاً للخير فإذا جاءته النعمة تغيَّر، فالنفس البشرية هي هي كما قال ﷻ عن الذين دخلوا النار: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام:٢٨] يقولون: يا ربنا لو رددتنا لكنا صالحين، فالله يُخبر أن نفوسهم شريرة، وإنما قالوا هذا عندما رأوا العذاب، لكن لو رجعوا إلىٰ الدنيا لعادوا كما كانوا، فالنفس الضالة التي تتعلق بغير الله وتشرك بالله غيره إذا كانت وقت الشدة أخلصت العبادة لله ولجأت إليه، هذا في واقع قريش، لكن في العصور المتأخرة يوجد من المسلمين من يُشرك في الرخاء والشدة، ولا يزيده البلاء إلا شركـًا، فلا يذكر إلا بعض الصالحين أو بعض الملائكة أو بعض الأنبياء في شدته ورخائه، فيقول العلماء: هؤلاء أشد شركـًا من شرك الجاهلية؛ لأن الجاهلية إذا جاءتهم الشدة والاضطرار دعوا الله، والقرآن الكريم يُسجل لهم هذا الجانب ويبين هذا الحال من أحوالهم، لكن هؤلاء وقت الرخاء ووقت الشدة لا يذكرون إلا من يُشركون به فيدعون من يعبدونه من دون الله، ويستغيثون به من دون الله، وقد مر قول الألوسي رحمه الله: إن أحد مشايخه كان يعلمه في الصغر: إذا وقعت بك شدةٌ فلا تدع الله، لا تدع إلا الولي فلانـًا؛ لأن الله لا يهمه أمرك، ولكن الولي يهمه أمرك! هذا الميت الذي انقطع عمله هو عاجز علىٰ أن يزيد في عمله حسنةً أو أن يُنقص من عمله سيئةً،لا يستطيع في الدنيا أن يُجيب مخلوقـًا مثله، فكيف في الآخرة؟

لكن هذا من شدة الجهل والتربية المنحرفة، فإن الأمة إنما انحطت بسبب وجود هذه المفاهيم الضالة.

وقد كانت قبل قُرابة الخمسين أو الستين عاماً كانت الأمة الإسلامية بكاملها تعيش في هذا الحال، وفي عهد الخلافة التركية قد انتشرت الطرق الصوفية والاستغاثة بالأولياء والصالحين، وعدم اللجوء إلىٰ الله ﷻ حتىٰ كثير من الحكام كان إذا نزل به أمر يذهب إلىٰ القبور أو بعض الصالحين، فعاقبها الله بأن مزقها؛ لأن الشرك أخطر الذنوب وأكبرها، ولا تُجمع أمة عليه إلا وعاقبها الله ﷻ؛ فهذا الشرك يوجد في غالب بلاد المسلمين، يُستغاث بغير الله، ويُدعىٰ غيره في الرخاء والشدة، ويُذبح لغيره، ويُنذر لغيره، ويُطاف بالقبور ويُدعىٰ أصحابها، وهناك أعياد تُقام لهم تُذبح عندها الذبائح وتُقرب القرابين، وهذا هو الشرك الذي جاءت الأنبياء تحاربه، وهذا لا يقع إلا في عقل ضال، ولهذا يقول الله: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [الأحقاف:٥]، فهذا أشد الناس ضلالاً، وما وقعوا فيه اليوم من انحطاط وتأخر وذل ومهانة هو بسبب الشرك، ونحن في الجُمع نقول: اللهم أذل الشرك والمشركين، وقد يشمل هذا الدعاء جميع المسلمين في أقطار الأرض؛ لأن كلهم إلا من رحم الله يقعون في الشرك، ونحن ندعو والذل يتعاقب علينا، فلا نُنصر ولا يغير الله حالنا إلا إذا غيرنا ما بواقعنا من الشرك، فنلجأ إلىٰ الله ونقيم أمره ودينه، ونُخلص الأمر له ﷻ في جميع أمور حياتنا عقيدةً وشريعةً وأخلاقاً ونظاماً، فالعودة إلىٰ الله وتوحيده في كل أمر من أمور حياتنا هو المقصد الأول في حياة الأمة الإسلامية، أما إذا وقعنا في الشرك فنحن ندعو علىٰ أنفسنا، وكنا نداعب بعض الأخوان المصريين نقول: أنتم تدعون علىٰ المسلمين قالوا: كيف؟ قلنا: تقولون اللهم كسر المسلمين، وهذا التكسر في

اللغة العربية غير التكثير، هو يقول كثر يعني أكثر من المسلمين، لكن أنتم تقولونها اللهم كسر المسلمين، وهذه النكتة يقولها أحد الوزراء في مصر عندما جاء بعض الشباب الذين كانوا يدعون إلىٰ أن تُدرس العامية المصرية، فجاؤوا متحمسين لدراسة اللهجة المصرية بدل اللغة العربية، يقولون: عندنا لهجة ندرسها، اللغة العربية لغة ليست لغتنا، إنما نحن ندرس اللهجة التي نتخاطب بها قال: كسركم الله، قالوا: إيش تقصد بالكلام؟ قال: هكذا اللهجة المصرية.

فالشاهد أننا أحيانا ندعو ولا نتفطن أن الدعاء قد يقع علىٰ عامة المسلمين؛ لأنهم يقعون في الشرك، فالذي يطلع علىٰ أحوال المسلمين ويرىٰ ما فيها من هذه المهانة يرىٰ عجباً، كيف يتدنىٰ العقل البشري أن يدعو الميت ويخضع له، ويترك الحي ﷻ؟ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨] لا تلجأ إلىٰ الأموات، فهذه الصورة أشد الضلال والانحراف أن تُعطي حق الله لغيره، وتذل لمخلوق مثلك أو لجماد أقل منك.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

يبين تعالىٰ أنه المدعو عند الشدائد، الكاشف للسوء وحده، فيكون هو المعبود وحده، وكذا قال في هذه الآية: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أي: من هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه، والذي لا يكشف ضر المضطرين سواه، ومن المعلوم أن المشركين كانوا يعلمون أنه لا يقدر علىٰ هذه الأمور إلا الله وحده، وإذا جاءتهم الشدائد أخلصوا الدعاء لله كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت:٦٥]، فتبين أن من اعتقد في غير الله أنه يكشف السوء، أو يجيب دعوة المضطر، أو دعاه لذلك فقد أشرك شركًا أكبر من شرك العرب كما هو الواقع من عباد القبور.

الشَّرْح

هنا الآية الكريمة تبين واقع قريش: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ ولم يدعوا غيره، لكن إذا نجاهم إلىٰ البر إذا هم يشركون، رجعوا كما كانوا، وقلنا النفس البشرية وقت الشدة لها حال ووقت الرخاء لها حال، ولكن نفس المؤمن في الشدة والرخاء لا تتعلق إلا بالله، ولا تسأل إلا الله، ولا تستغيث إلا بالله، فهذا الحال الذي كان في قريش في حقيقة الأمر أحسن من كثير من المسلمين الذين لا تزيدهم الشدة إلا انحرافًا وضلالاً، فهنا يقول عن قريش إنهم يُدركون هذا السؤال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾، فلو كانت قريش لا تعرف هذا لكان السؤال في غير محله، لكن يعرفون أنهم لا يلجؤون عند الضرورة إلا إلىٰ الله، فهذا واقع المشركين في السابق، لكن المشركين في العصور المتأخرة الرخاء والشدة عندهم سواء.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال: وروى الطبراني بإسناده: أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: (إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله).



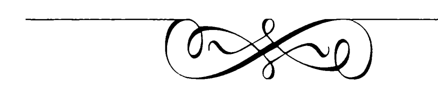
الشرح

هذا الحديث انفرد بروايته الطبراني، والطبراني نسبة إلى طبرية، بحيرة طبرية في الشام، فهو: أبو القاسم سليمان بن أحمد الشامي الطبراني، ولد في عكة وهو من علماء الحديث في أواخر القرن الثالث؛ لأنه ولد عام مئتين وستين للهجرة وتوفي عام ثلاثمائة وستين للهجرة أي عاش مائة عام، ولكنه رَحِمَهُ اللَّهُ من المتساهلين والجماعين، يعني ليس محققاً ولا مدققاً يجمع الأحاديث كيف كانت، ولكنه يذكرها بالسند، وله مؤلفات كثيرة من أشهرها المعاجم الثلاثة: (معجم الطبراني الكبير) وفيه قُرابة ستين ألف حديث عن جميع الصحابة، ولكنه لم يستوعب كل الصحابة، ويقول العلماء: إنه نقص من أحاديث بعض الصحابة فلم يذكرها، يحتمل أنه يذكرها أصلاً أو سقطت من كتابه؛ لأن هناك سقط في بعض مجلداته، وقد طُبع طبعةً جديدةً في خمسة وعشرين مجلداً، فهذا الكتاب فيه من الأحاديث ما هب ودب: الصحيح والضعيف والحسن والموضوع، ولهذا لا يُعتمد عليه إلا بعد دراسة أسانيده. و(المعجم الأوسط) وفيه قُرابة عشرة آلاف حديث، وهذا الكتاب أحسن حالاً من المعجم الكبير وإن كان فيه بعض الزيادات وبعض النقص، وكان يقول عن هذا الكتاب: إنه روحي، يعني بذل فيه جهداً لم يبذله في غيره. و(المعجم

الصغير) روىٰ عن كل شيخ من شيوخه حديثاً أو حديثين، فأراد أن يبين كثرة شيوخه، فروىٰ في هذا الكتاب عن كل شيخ حديثاً أو حديثين، وهذه الكتب الثلاثة مملوءةٌ بما لم يصح، وإذا قيل معجم الطبراني أو رواه الطبراني فإن المراد به في الكبير إلا إذا قُيد، فإذا كان في غير الكبير يُقيد، يقول العلماء: رواه في الأوسط، رواه في الصغير.

والعلماء قد انتقدوا الطبراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأحد العلماء وهو: إسماعيل بن محمد التيمي انتقد جمعه للأحاديث الأفراد مع ما فيها من النكارة الشديدة والموضوعات وفي بعضها القدح في كثير من القدماء من الصحابة وغيرهم، قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهذا الأمر لا يختص به الطبراني، فلا معنىٰ لإفراده اليوم بل أكثر المحدثين في الأعصار الماضية من سنة مائتين وهلم جرّا إذا ساقوا الحديث بإسناده اعتقدوا أنهم برؤوا من عهدته. هذا منهج القدماء، فكانوا في عصرهم حريصين علىٰ جمع الأحاديث التي سمعوها، لكنهم ذكروها بالسند حدثنا فلان قال حدثنا فلان، لكن هذا الصنيع في الحقيقة لم يكن حسناً؛ لأن المحدث أعرف الناس بصحة السند من ضعفه، وهذا الكتاب سيقرأه بعد المحدث آلاف الأشخاص ممن ليسوا محدثين، وقد يأخذون الأحاديث بالقبول، ولهذا مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيحه وهو الإمام الوحيد الذي كتب مقدمة لكتابه عاب علىٰ هذا الصنيع، وعاتب المحدثين وقال: لا يجوز؛ لأن هذا خيانة للمسلمين أن تذكر حديثاً وفيه ضعفٌ أو نكارةٌ أو أنه موضوع ولا يبينه للناس. لكن العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ قالوا: إن الأقدمين كان هدفهم بيان الأحاديث التي جُمعت حتىٰ إذا مر علىٰ الإنسان حديث أراد أن يعرف أصله يستطيع أن يعرف عن طريق السند، هذا في المجامع والمسانيد قد يكون مقبولاً، لكن لا يُقبل في كتاب يُؤلف لنصرة عقيدةٍ أو لعمل بأحكام؛ لأن الكتاب الذي يُؤلف ليبين

صحة معتقد لا يجوز أن يورد فيه حديثٌ ضعيف ولا موضوع ولا منكر ولا شاذ؛ لأنه قد يريد أن يبين صحة مسألة، فلا يأتي بشواهد عليها بأحاديث لم تصح، فالشاهد أن الطبراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ أورد هذا الحديث عن طريق ابن لهيعة، وابن لهيعة رَحِمَهُ ٱللَّهُ العلماء قالوا فيه: فيه ضعفٌ؛ لأنه قد احترقت كتبه وقد اختلط، فكان يُحدث بأحاديث بعضها موقوف وبعضها مقطوع وبعضها منكر، وما كان يميز بينها؛ فلهذا يتثبت العلماء فيما يُروىٰ عن طريق هذا العالم.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ش: قوله: (روى الطبراني) هو: الإمام الحافظ الثقة سليمان بن أحمد ابن أيوب بن مطير اللخمي الطبراني صاحب المعاجم الثلاثة وغيرها، روى عن النسائي واسحق بن إبراهيم الديري وخلق كثير، ومات سنة ستين وثلاثمائة، وقد بيض المصنف لاسم الراوي وكأنه ـ والله أعلم ـ نقله عن غيره أو كتبه من حفظه، والحديث عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله: (أنه كان في زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منافق يؤذي المؤمنين) هذا المنافق لم أقف على تسميته، ويحتمل أن يكون هو: عبد الله بن أُبي، فإنه معروف بالأذى للمؤمنين بالكلام في أعراضهم ونحو ذلك، أما أذاهم بنحو ضرب أو زجر فلا نعلم منافقًا بهذه الصفة.



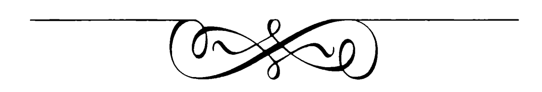
الشَّرح

هذه إشارة موجزة إلى ترجمة الطبراني رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقلنا إن الحديث فيه ضعف، فإن صح فالمقصود بهذا الشخص المشار إليه هو: عبد الله بن أبي مؤكداً؛ لأن ابن أبي حاتم قد ذكر اسمه في صحيحه، فهذا المنافق كان يؤذي المسلمين في المدينة، والذي يطلع على المجتمع الإسلامي الأول في عهد النبوة يرى وجود منافقين يحاربون الإسلام ويؤذون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويؤذون المؤمنين، ومع ذلك تحملهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما عاقبهم وما ضربهم وما أخرجهم؛ لأن أعمال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تشريع، فلو شرَّع إخراج أُناس من داخل المجتمع المسلم ممن ادعوا الإسلام لكان هذا ذريعة لمن يأتي بعدُ أن يتهم فلانـًا من الناس بأنه خارج عن الإسلام فيطرده أو يقتله

أو يسجنه، لكن من أعلن الإسلام قبلنا منه إسلامه وإن كان في الحقيقة منافقاً أو كافراً، ليس لنا إلا الظاهر، فقد كان في المدينة منافقون كثيرون وكانوا يسيئون إلىٰ المسلمين ـ وإن كانوا قلوا في آخر عهد النبوة؛ لأن كثيراً منهم أسلم وتاب إلىٰ الله ﷻ ـ لكن الظاهر منهم كان الإسلام، فالمنافقون كانوا يؤذون الصحابة ﭫ بالسخرية والاستهزاء، والقرآن الكريم قد سجل هذا الموقف في أول سورة البقرة عندما ذكر أصناف الناس في المجتمع المدني، فذكر المنافقين وحالهم، وكيف أنهم عندهم استعلاء، وهكذا الحال في كل عصر، كثير من السيئين يظنون أنهم أهل فطنة وأهل ذكاء وأهل كياسة، وأن المسلم فيه سذاجة وبلاهة، والذي يتدين فيه غفلة كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ [البقرة:٨-١٣] هذا استعلاء منهم، وهذا جهل وانحطاط في فكرهم وفهمهم، فيعتقدون أنهم هم أصحاب الرياسة هم أصحاب الفهم وأن هؤلاء سفهاء لا عقل عندهم ولا تمييز ولا تفكير، وهذه الصورة تتكرر في كل جيل وفي كل مجتمع، يقول الله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ [البقرة:١٣]، فهم هم الذين يستحقون اسم السفه؛ لأن الذي يضر نفسه ويفوته الخير، ويفوته السعادة في الدنيا والآخرة سفيه، فهؤلاء سفهاء؛ لأنهم تركوا الخير الذي يعزهم في الدنيا ويسعدهم في الآخرة، فهذا المنافق كان يؤذي المؤمنين، ويصفهم بأوصاف باطلة وربما يصل إلىٰ أعراضهم، فأراد الصحابة ﭫ أن يستغيثوا برسول الله ﷺ ليمنع هذا الفاسق منهم، فإن أرادوا

أنه يمنعه بإدخاله في الإسلام فليس هذا لرسول الله ﷺ؛ لأن الهداية بيد الله، وإن أرادوا أنه يمنعه من القول فلا يستطع أن يمنعه في السر، قد يمنعه في الظاهر وهو نفسه في الظاهر يمتنع ويلتزم، لكن في السر يؤذي، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة:١٤] ففي السر في الخلوة لهم مقال وفي الظاهر لهم مقال؛ فالحديث يقول: إن الصحابة رضي الله عنهم أرادوا أن يستغيثوا برسول الله ﷺ فقال: (**إنما يُستغاث بالله**)[١] فإن صح الحديث يكون نهيـاً عن الاستغاثة في مثل هذا الحال، لكن العلماء قالوا: الاستغاثة فيما يقدر عليه المخلوق يجوز، فلو أن إنسانـاً نزل به لصٌ أو أسدٌ أو دابةٌ فاستغاث بمن ينجده، أو كاد أن يغرق وبقربه شخص قادر علىٰ أن ينجده أو يغيثه جائز، فالاستغاثة بالمخلوق فيما يستطيعه جائزة، لكن الاستغاثة بالمخلوق فيما لا يستطيعه لا تجوز، والحديث فيه ضعف كما سبق، والله أعلم عن مدىٰ صحته.



(١) أخرجه الطبراني كما في مجمع الزوائد (١١/ ٢٦)، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة، وهو حسن الحديث، وأخرج معناه الإمام أحمد في المسند، برقم: (٢٢٧٠٦)، (٣٧/ ٣٨٠)، ولم أجده في المعاجم الثلاثة والله أعلم.

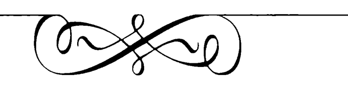
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (فقال بعضهم): أي: بعض المؤمنين، وهذا البعض القائل لذلك يحتمل أن يكون واحداً وأنْ يكون جماعة، والظاهر أنه واحد، وأظن في بعض الروايات أنه أبو بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.



الشَّرح

نعم جاءت به بعض الروايات، لكن هذا الحديث ليس فيه تصريح بالشخص الذي قال هذا، ولا أظن أن المنافق يستطيع أن يقول قولاً أمام الصديق أو الفاروق أو أحد كبار الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، إنما يقولون القول الفاحش أو البذيء في صغار الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، أو ممن كان فيهم سذاجة من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؛ لأنه يكون قلبه سليماً، ما عنده إدراك أن هذا منافق فيسمع منه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة:٤٧] يعني يوجد فيكم أشخاص يسمعون ويتأثرون ببعض أقوال المنافقين ممن كان ليس عنده العلم الكافي من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أو كان عنده قلب سليم لا يُدرك أن هذا منافق في الباطن، فربما ينخدع بقول هذا المنافق، فالمنافقون لا يتكلمون إلا بين صغار الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ علماً أو سناً.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ) مرادهم: الاستغاثة به فيما يقدر عليه بكف المنافق عن أذاهم بنحو ضربه أو زجره لا الاستغاثة به فيما لا يقدر عليه إلا الله.

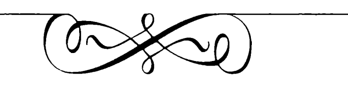
قوله: (إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله) قال بعضهم: فيه التصريح بأنه لا يستغاث بالنبي ﷺ في الأمور، وإنما يستغاث بالله، والظاهر أن مراده ﷺ إرشادهم إلىٰ التأدب مع الله في الألفاظ؛ لأن استغاثتهم به ﷺ من المنافق من الأمور التي يقدر عليها إما بزجره أو تعزيره ونحو ذلك، فظهر أن المراد بذلك: الإرشاد إلىٰ حسن اللفظ والحماية منه ﷺ لجناب التوحيد وتعظيم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فإذا كان هذا كلامه ﷺ في الاستغاثة به فيما يقدر عليه فكيف بالاستغاثة به أو بغيره في الأمور المهمة التي لا يقدر عليها أحد إلا الله كما هو جار علىٰ ألسنة كثير من الشعراء وغيرهم؟ وقل من يعرف أن ذلك منكر فضلاً عن معرفة كونه شركًا.

الشَّرْح

وما نُقل أن رسول الله ﷺ ضرب أحداً من المنافقين ولا سجنه ولا قتله، إذا كان نُقل إليه ﷺ قول منافق كان يعاتبه، فإذا حلف أو كذب قبل الرسول ﷺ عذره، لكنه ما ثبت أنه ضرب أحداً منهم علىٰ فعلٍ فعله في السر، إنما كان يعاتبهم أو يوبخهم أو يزجرهم، أما الضرب أو القتل أو السجن ما ورد أن أحداً من المنافقين عوقب بمثل هذا العقاب.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: أن سبب نهيه ﷺ عن هذه الكلمة حماية لجناب التوحيد، وإن

كان الرسول ﷺ قادراً علىٰ أن يزجره أو يمنعه من أذاه، قال: المنع ليس منعـاً عن مثل هذا القول أو عن هذا الفعل من الإنسان القادر، لكن الزجر عن اللفظ؛ لأن كلمة استغاث كلمة لا تُصرف إلا لله، لا يعلق الإنسان قلبه أو حاجته إلا بالله، فقال: هذا النهي إنما هو حماية لجناب التوحيد، ثم يذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هذا قد يجري علىٰ ألسنة الشعراء، ولا شك أن المطلع علىٰ قصائد الشعراء التي فيها مدح للكبراء والزعماء والرؤساء يرىٰ فيها من الشرك ما الله به عليم من الاستغاثة بهم وتعظيمهم ودعائهم، وربما تفضيلهم حتىٰ علىٰ رسول الله ﷺ بعضهم يقول: فاحكم فإنك أنت الواحد القهار أو الواحد الحكم أو كذا، وبعضهم يقول: لو كان لي من الأمر شيء لجعلت لك مكانة من لا يُسأل عما يفعل، ومثل هذا الكلام الذي لا يليق إلا بالله جَلَّ وَعَلَا، فهذا يقع في أقوال الشعراء والخطباء والمصنفين والمؤلفين، بل بعض المصنفين الذين ألَّفوا كتباً في فنون إسلامية ترىٰ في مقدماتها من الشرك ما الله به عليم، فمثلاً: الآمدي في كتاب الأحكام ترىٰ في مقدمته من الشرك والتذلل والخضوع لمن كان في عصره من بعض الزعماء ما لا يليق، وترىٰ نماذج كثيرة من المصنفين، وقد يكون الكتاب من أحسن الكتب لكن ضعف الإيمان في قلوب بعض الأشخاص يجعله يُطلق ألفاظاً لا تليق إلا بالله جَلَّ وَعَلَا، فهذا يقع فيه كثير من الناس فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يقع في أقوال كثير من الناس وهو لا يعلم أنه منكر، فكيف يعلم أنه شرك؟ يعني أنه يظن أنه صواب فإدراكه بأنه شرك بعيدٌ عنه.





قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فإن قلت: ما الجمع بين هذا الحديث وبين قوله تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص:١٥] فإن ظاهر الحديث المنع من إطلاق لفظ الاستغاثة علىٰ المخلوق فيما يقدر عليه وظاهر الآية جوازه؟ قيل: تُحمل الآية علىٰ الجواز، والحديث علىٰ الأدب والأولىٰ والله أعلم.

وقد تبين بما ذكر في هذا الباب وشرحه من الآيات والأحاديث وأقوال العلماء: أن دعاء الميت والغائب والحاضر فيما لا يقدر عليه إلا الله والاستغاثة بغير الله في كشف الضر أو تحويله هو الشرك الأكبر بل هو أكبر أنواع الشرك؛ لأن الدعاء مخ العبادة، ولأن من خصائص الإلهية إفراد الله بسؤال ذلك، إذ معنىٰ الإله: هو الذي يعبد لأجل هذه الأمور، ولأن الداعي إنما يدعو إلهه عند انقطاع أمله مما سواه، وذلك هو خلاصة التوحيد، وهو انقطاع الأمل مما سوىٰ الله.

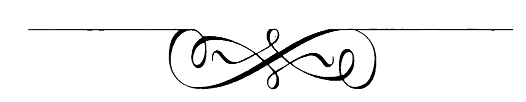


الشَّرح

قد يقع في نفس الإنسان استشكال أن الله ذكر قصة موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذكر أن شخصاً استغاثه وما أنكر موسىٰ قائلاً: إن الاستغاثة من حق الله، وما ورد التعقيب في القرآن علىٰ أن هذا لا يجوز، والقرآن إذا أورد لفظاً من مثل هذه الألفاظ فإنه يبين خطأها أو ضلالها أو نكارتها، لهذا يقول العلماء: لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة، فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ: إن الآية تدل علىٰ الجواز والحديث يدل علىٰ الأولىٰ، يعني كلمة الحديث أولىٰ، فلو فعل شخصٌ غير ذلك لجاز، لكن الأولىٰ والأفضل تركه، يقول العلماء: هل الشخص يتعامل مع رسول الله ﷺ بالأدب أو الامتثال؟ فالأدب أنه يُعظم الرسول ﷺ وإذا

أمره بأمر فيه مشقة علىٰ رسول الله لا يُطيعه، مثلاً: عندما يكون الرسول ﷺ ماشياً مع أناس في غزوة، وليس هناك إلا دابةٌ واحدة للركوب فيقول الرسول ﷺ لأحدهم: اركب علىٰ الدابة هل يطيعه أو لا؟ فطاعته تُكلف الرسول ﷺ المشي، وعدم طاعته يكون أدباً مع رسول الله ﷺ، فمن الناس من يرىٰ أن التعامل مع رسول الله ﷺ بالأدب أولىٰ إذا كان يتعلق بحقه ﷺ ولو كان فيه عدم طاعة أمره، ومنهم من قال: نتعامل معه بالطاعة بتنفيذ الأمر بالامتثال، فهنا نهىٰ عن الاستغاثة بغير الله، فالنهي هنا يدل علىٰ الأولىٰ لا علىٰ التحريم؛ لأن الآية القرآنية فيها جواز الاستغاثة فيما يقدر عليه المخلوق من الأعمال.

قوله: (وقد تبين بما ذكر في هذا الباب وشرحه..) يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن هذا الباب بكامله وأبواباً أخرىٰ تتحدث عن هذا الموضوع وهو: تحريم الاستغاثة بغير الله عَزَّوَجَلَّ، فهذا الباب قد أطال فيه؛ لأنه مما عمت به البلوىٰ، فهو من أكبر الأبواب شرحاً في هذا الكتاب.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

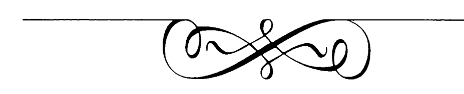
فمن صرف شيئًا من ذلك لغير الله، فقد ساوىٰ بَيْنَه وبَيْنَ الله، وذلك هو الشرك، ولهذا يقول المُشركون لآلهتم وهم في الجحيم: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الشعراء:٩٨،٩٧].

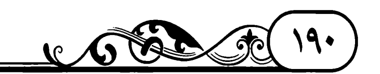
الشَّرْح

هذه الآية نُموذَج لآياتٍ كثيرة وردت في كتاب الله ﷻ، تُصوّرُ ما يحدثُ في النَّار بَيْنَ أهل النَّار، فالنَّار خلقها الله ﷻ ليجعلَها عذابًا لمن جحده، أو أشرك معه غيره، أو ارتكب ما نهاه عنه، فالمشركون في النَّار يحاور بعضهم بعضًا، ويخاصمُ بعضهم بعضًا، فعندما يدخلُ الذين استكبروا واستعبَدوا النَّاس، وأتباعُهم الذين رضُوا بعبوديتهم لهم، يقول الضعفاءُ للمُستكبرين﴿ تَٱللَّهِ﴾وهذا قسم؛ لأنَّ أنواع القَسَم في اللغة تأتي بالتاء، وبالباء، وبالواو، وباللام، كلها يُقسمُ بها، فهنا يقولون: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يعترفون أنَّهم كانوا ضالين ضلالاً واضحًا، ثمَّ قال في ذلك: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: في العبَادة؛ فهم إنَّمَا سووهم في العبَادة، وصرفوا حَقّ الله للمخلوق، وإلا فلم تكن الجَاهليَّة الأُولَىٰ تعتقد أن أحداً من الخلق يخلُق أو يرزُق، أو يُحيي أو يميت؛ فهم لم يساووا المخلوق في هذه الأشياء، كما قال تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [لقمان:٢٥]، إنَّمَا ساووهم بالخالق في العبَادة، في التَذلُّل والخضوع والطاعة والمحبة والخَوف والرَّجاء والذَّبح والنَّذر، في كل ما يتعلق بتوحيد العبَادة، جعلوهم آلهة يُشرّعون لهم، وهم يَقبَلون تشريعَهم في الحلال والحرام، وأنواع العبَادات،

فهنا يعترفون أَنَّهم أخطئوا، لكن بعد فوات الأوان، ولو اعترفوا في الدُّنيَا لنفعهم، ولهذا قال بعض أهل العلْم: -من باب الدعابة - كل من دخل النَّارَ مُوَحَّد، لَكنَّه وَحَّد في النَّار، لكن لا يصلُح توحيدُه. التَّوحيد النافع هو في الدُّنيَا، أَمَّا التَّوحيد في النَّار فإنَّه لا ينفع صاحبه.

فالله يخبر الإنسَان عن نتائج عمله، إن فعل الشرك فهذا مصيره، وهذا قوله يوم القيَامة في النَّار، فكَيْفَ يسَمَعَ الإنسَان العاقل ما في كتاب الله من هذه الخصومة وما يحدث في النَّار بَيْنَ من عَبَد ومن عُبد، ومَعَ ذلك يصر إلا أن يعبدَ المخلوق؟.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

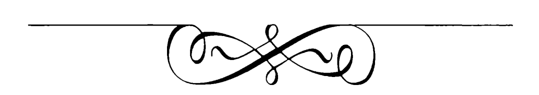
ولكن لعُبَّاد القبور علىٰ هذا شبهات، ذكر المُصَنِّف كثيراً منها في كشف الشبهات، ونحن نذكر هنا ما لم يذكره.



الشَّرْح

المُصَنِّف أي: الشَّيْخ مُحَمَّد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ له كتاب اسمه كشف الشبهات، رسالة صغيرة، ذكر فيها الحوار بَيْنَ المُوَحِّد والمُشرك، إن قال المشرك كذا كَيْفَ نرد عليه؟ مبنىٰ هذه الرسالة علىٰ عدة أسئلة، أولها: أن يسأل المُوَحِّد المشرك: ما هو الشرك؟ فسيقول ذلك المُشرك: الشرك أن تشرك مَعَ الله غيره، فسّر ما قلت من الشرك؟ فإن قال: أن يعتقد أن مَعَ الله خالقاً كان مخطئاً وكان كاذباً؛ لأنَّ هذا لم يقع من المُشركين، وإن قال: أن تطيع غير الله، وأن تذل لغير الله وأن تخضع لغير الله كان صادقاً، ثمَّ يسأله: لماذا خلق اللهُ النَّاس؟ فيقول: للعبَادَة، تقول له: فسّر العبَادة، قد يفسرها صَحيحة، وقد يفسرها خطأ، ثمَّ يسأله، بماذا بعث الله رَسُوله، ورسلَه جميعاً؟ فيقول: بأن يقولوا: لا إله إلا الله، تقول له: ما معنىٰ لا إله إلا الله؟ هل معناها لا خالق إلا الله؟ هذا خطأ لغة وشرعاً، إنَّمَا " لا إله إلا الله ": لا معبودَ إلا الله، والعُلَماء ألحَقّوا فيها قيدَ: بحَقّ؛ حتىٰ يَخرج من عُبد من غير الله بالبَاطل، فقد عُبد غيرُ الله بالبَاطل، ما معنىٰ العبَادة؟ العبَادة في اللغة هي: التَذَلُّل والخضوع، والطاعة، كل هذه تسمىٰ عبَادَة، فهذه معاني العبَادة، وهذه معاني الشرك، فالذي يقع في معاني الشرك يكون مشركاً، والذي يقصر في معاني العبَادة يكون مخطئاً، لكن بعض النَّاس يظَن أن معنىٰ لا إله إلا الله: أن تعتقد أنَّه لا خالقَ إلا الله، ولا رازقَ إلا الله، ولا محييَ إلا الله، ولا مميتَ إلا الله، وهذا خطأ لغةً

وشرعـًا، فالإله معناه في اللغة ليس هو الخالق، إنَّمَا هو المعبودُ، المطاعُ، الذي يُحب ويُجل ويُعظَم، أمَّا الربُّ: فتطلق علىٰ الخالق والمالك والسيد، لكن لم يقع خلاف مَعَ المُشركين في الربّ. وعندما نقرأ التاريخ عندما انساح المسلمون شرقًا وغربًا وذهبوا إلىٰ الروم وإلىٰ فارس وإلىٰ أفريقيا والمجتمَعَ الغربي، لم نسَمَعَ أن مجتمعًا وقف أمام المسلمين، وقال من هو الله؟ والمسلمون كانوا يقولون: قولوا لا إله إلا الله، فما هناك أحد أنكر أن الله هو الخالقُ الرازقُ، إنَّمَا الخلافُ كان هل يُجَلُ ويُعظَّم ويُدعَىٰ ويُستغاثُ ويُحَبُ غيرُ الله أم لا؟، أمَّا قضية أنَّه لا خالق إلا الله فلم يحدث فيه خلاف بَيْنَ أحد من الأمم وأنَبيائهم، وفرعون هو الشَّخْص الوَحِيدُ الذي ذكر القُرْآن أنَّه تجاهل تلك الحَقّيقة، لَكنَّه بلسأنَّه، أمَّا في قلبه فقد كان معترفًا بها، فكتاب (كشف الشبهات) حوار بَيْنَ مُوَحَّد ومُشرك، وهنا الشارحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: نحن نذكر ما لم يذكره في ذلك الكتاب؛ لأن (كشف الشبهات) أكثرُه حوار عقلي ولم يَذكرُ فيه أحاديث، ولم يَأت فيه إلا بآيات قرآنية.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فمن ذلك أَنَّهم احتجوا بحديث رواه الترمذي في جامعه حيث قال: حدثنا محمود بن غيلان، ثنا عثمَّان بن عمرو ثنا شعبة عن أبي جعفر عن عمارة بن خزيمة بن ثابت عن عثمَّان بن حنيف: (أن رجلاً ضرير البصر أتىٰ النَّبي ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني، قال: إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت فهو خير لك، قال: فادعه، فأمره أن يتوضأ ويحسن وضوءه ويدعو بهذا الدّعَاء، اللهم إني أسألك، وأتوجه إليك بنَبيك مُحَمَّد نَبي الرحمة، إني توجهت به إلىٰ ربي في حاجتي هذه لتقضىٰ، اللهم فشَفَعه في) قال: هذا حديث حسن صَحيح غريب لا نعرفه إلا من رواية أبي جعفر، وهو غير الخطمي هكذا رواه الترمذي، ورواه النسائي وابن شاهين والبيهقي كذلك، وفي بعض الروايات: (يا مُحَمَّد إني أتوجه. . .) إلىٰ آخره.

الشَّرْح

هذا الحَديث الذي ذكره الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ رواه الترمذي والنسائي والحَاكم والأإمام أحَمدَ وابن ماجه رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، وورد في كثير من كتب السنن، وورد له لفظان هذا أحدهما، وسيأتي اللفظ الثاني في قصة طويلة أنَّ رجلاً كان في عهد عثمَّان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وكانت له حاجة إلىٰ عثمَّان، فلم يستمَعَ إليه؛ فشكىٰ ذلك إلىٰ عثمَّان بن حنيف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فقال له هذا الحَديث: (اذهب توضأ ثمَّ صل ركعتين وقل هذا الدّعَاء) فعندما فعل فذهب فأخذه البواب وأدخله إلىٰ عثمَّان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ واستقبله استقبالاً حاراً وقال له: حاجتك، وقال: إني ما ذكرت حاجتك إلا الأنإلىٰ آخر ما جاء في تلك الرواية المزعومة. فكتب السنة ليس كل ما فيها صَحيح؛ لأنَّه قد رُويت أحاديثُ منها ما هو مَوضُوع ومنها ما هو

مُنْكَر، ومنها ما هو ضَعيف، ومنها ما هو صَحيح، وأهل العلْم يعرفون ذلك عن طريق دراسة الأسانيد وأحياناً عن طريق دراسة المتون.

وهذا الحَديث المختلف فيه: يعجبُ الإنسَان كَيْفَ يأخذون به؟!. فهم يتركون الآيَات الصريحة التي تحث علىٰ ألا يدعىٰ إلا الله، والتي تبَيْنَ أنَّه لا يملك أحدُ ضراً ولا نفعاً من دون الله حتىٰ الأنبياء ويذهبون إلىٰ أحاديث لم تصح، وفيها مقال أو فيها خلاف، فهذا الحَديث مداره من جميع طرقه علىٰ شخص يسمىٰ أبا جعفر، والراوي يكون له اسم وله كُنْيَة وله نسب، فأمَّا أن يدعىٰ باسمه أو بنسبه أو بكنيته، فأحيانا تأتي في الأسانيد أسماء مبهمة، هذا يدل علىٰ أن هناك شيئًا اسمه: التَّدليس، يُدَّلِّس الراوي باسم ينطبق علىٰ أكثر من واحد ويكون في الأشخاص الذين ينطبق عليهم من هو ثقَة ومنهم من هو ضَعيف، فهذا الأسلوب أصلاً في الحَقّيقة عيب في الرواية، فأبو جعفر هذا يطلق علىٰ شخصين في وقت واحد شخص صدوق، وشخص ضَعيف، فأبو جعفر الخطمي صدوق اسمه: عمير ابن يزيد، وأبو جعفر الرازي ضَعيف واسمه: عيسىٰ بن أبي عيسىٰ، الترمذي رحمه الله وهو محدث بصير بالعلل وقد أخذ العلل عن الإمام البُخَاري رحمه الله؛ لأنَّه كثيراً ما يورد في كتابه السنن أسئلة سألها الإمام البُخَاري رحمه الله فيجيبه عليها، وله كتاب باسم العلل الكبير وآخر باسم العلل الصغير.

والعلل في الّسَنَد تكون أحياناً خفية لا يدركها كل إنسان، فهذا الحَديث ورد في بعض الروايات أبو جعفر الخطمي وفي بعضها أبو جعفر بدون الخطمي، فالترمذي رحمه الله بَيْنَ أن الراوي الذي روىٰ هذا الحَديث ليس هو الخطمي قال ابن حجر رحمه الله: وأظَنه الذي بعده. والذي بعده هو عيسىٰ ابن أبي عيسىٰ، قال فيه الدارقطني رحمه الله: كان ممَّا ينفرد بالمَنَاكير عن المشاهير، أي:

يأتي بحديث مُنْكَر عن شخص مشهور، لا يعجبني الاحتجاج بخبره، إلا فيما وافق الثقات، ولا يجوز الاعتبار بروايته إلا فيما لم يخالف الأثبات، هذا الشَّخْص هو مدار هذا الحَديث، لم يأت طريق آخر غير هذا الطريق، فكَيْفَ تقيمُ عقيدتَك وعملَك علىٰ حديث لم يصح، أو فيه خلاف، وتترك الآيَات البَيّنات في كتاب الله ﷻ التي توضح هذا المراد، فلا يفعل هذا إلا من كان في قلبه هوىٰ، الإنسَان أحياناً يحب شيئاً معيَّناً، وليس عنده عليه دليل صَحيح، فيبحث عن دليل ضَعيف ليقرر ما يحب، أي: جعل الحَديث تابعاً لهواه، لكن لو كان منصفاً ما فعل هذا، هذا الحَديث فيه أن رجلاً كفيفاً جاء إلىٰ رَسُول الله ﷺ، فسأله أن يدعو له بالشفاء، فعرض عليه الصبر فلم يرض به، قال: يريد أن يشُفىٰ، فقال: (توضأ وصل ركعتين)، هنا سقط من الحَديث وصل ركعتين، وفي الترمذي مكتوب صل ركعتين، (ثمَّ ادع بهذا الدّعَاء)، عند التأمل في المَتْن نرىٰ أن الحَديث ضد من استشهد به، أولاً: قال: أتىٰ النَّبي ﷺ وهو حي، ثمَّ قال: (ادع الله أن يعافيني) لو كان الرَسُول ﷺ يُدعىٰ ويُستغاثُ به ما قال هذا، بل كان استغاث به بعيداً عنه، لكن كان هذا يعرف أن الرَسُول ﷺ إنَّمَا يعينه أن يدعو الله، لا يملك أن يعافيه ولا أن يشفيه، (قال: إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت فهو خير لك قال: فادعه) فأمره أن يتوضأ، ويحسنَ وضوءه، ويصلي ركعتين، ويدعو بهذا الدّعَاء، وهو: (اللهم). إذاَ رفع صوته إلىٰ الله، دعا الله، وهؤلاء استشهدوا بهذا الحَديث علىٰ أنَّه يجوز أن يُدعىٰ الرَسُول ﷺ، وهذا شَتَّان بَيْنَ ما في الحَديث وبَيْنَ ما أرادوه، (إني أسألك) إذاَ هو سأل الله. (وأتوجه إليك بنَبيك مُحَمَّد نَبي الرحمة) ونَبي الله موجود، فسأل

الله بنَبيه، إن صحت الرواية، (إني توجهت به إلىٰ ربي في حاجتي هذه لتقضىٰ، اللهم فشَفعه فيَّ)[١] سبحان الله! ، يقول: يا رب اسمَعَ دعاء الرَسُول ﷺ في، يدعو الله أن يقبل شَفَاعَة الرَسُول ﷺ، إذا كان الرَسُول ﷺ هو الذي سيَشَفَع، فهل يحتاجه أن يدعو الله أن يقبل شَفَاعَة الرَسُول ﷺ، أي: المَتْن فيه دليلُ علىٰ التناقض، فالمَتْن في الحَقّيقة يدل علىٰ أنَّه مُركَّب والله أعلم.

فنقول: إن صح الحَديث فإن قصاراه أن تأتي إلىٰ الرَسُول الحي. ثمَّ لننظر في تطبيق الصَّحابَة: عثمَّان بن حنيف صحابي، ماذا فعل الصَّحابَة الأجلاء، وهناك أفضل وأعلم من عثمَّان بن حنيف كأبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمَّان بن عفان، وعلي ابن أبي طالب ﵃ هل فعلوا هذا؟ وقد ألم بهم في حياتهم فتن وبلاء، هذا عمر ﵁ كما في صَحيح البُخَاري، يقول: (اللهم إنا كنا إذا أجدبنا) لم يقل: نستشَفَع، أو نستغيث قال: (اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نستسقىٰ برَسُولك فتسقينا، اللهم إنا نستسقي بعم نَبيك)[٢]، وهذا الكلام قاله علىٰ مَسَمَعَ من الصَّحابَة، فهذا إجماع من الصَّحابَة ﵃، لو كان الرَسُول ﷺ يدعىٰ ويستغاث به، ويسأل به بذاته لذهب الصَّحابَة ﵃ إلىٰ القبر، ولأنكروا علىٰ عمر ﵁، وقالوا: كَيْفَ تَستسقي بالعباس، والرَسُول ﷺ في المدينة في

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب رقم: (١١٩)، رقم الحَديث: (٣٥٧٨)، وقال: هذا حديث حسن صَحِيح غريب، والنسائي في السنن الكبرىٰ، كتاب عمل اليوم والليلة، باب ما يقول إذا راعه شيء، برقم: (١٠٤٢٠)، (٩/ ٢٤٤)، وابن ماجه في سننه، كتاب الصلاة، باب ما جاء في صلاة الحاجة، برقم: (١٣٨٥)، والإمام أحَمِدَ في المسَنَد، برقم: (١٧٢٤٠)، (٢٨/ ٤٧٨)، والحَاكِم في المستدرك، كتاب صلاة التطوع، برقم: (١١٨١)، (١/ ٤٤٩)، وقال: صَحِيح علىٰ شرط الشَّيْخين، وأقره الذهبي في التلخيص.

(٢) أخرجه البُخَارِي في صَحِيحه بمعناه، كتاب الاستسقاء، باب سؤال النَّاس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا، برقم: (١٠١٠).

قبره، وإن كان ميتًا الموت الدنيوي فالأنبياء أحياء في قبورهم، حياةً برزخيةً لا حياةً دنيويةً، الحَيَاة الدنيويةُ فيها الأكلُ والشربُ والنّكاحُ، وقد زعم بعض المُتَصوِّفَة أن الرَسُول حي حياةً دنيويةً، وهذا كذب. بل قالوا: لا يخلو منه مكان -نعوذ بالله -أي يراه النَّاس في كل مكان، صُوفيةُ المشرق يرونه في المشرق والمغرب والشمال والجنُّوب، وهذا كذب على رَسُول الله ﷺ، فلو كان الرَسُول يُسأل بذاته لما سألَ عمرُ بالعباس - رضي الله عنهما -، وكذلك معاوية بن أبي سُفيَان - رضي الله عنهما - في الشام، استسقى بيزيد بن الأسود الجرشي رضي الله عنه، لو كان الاستسقاء يكون بذات الرَسُول لما استسقى بيزيد، لكن رآه إنسانًا صالحًا فاستسقى به، وكَيْفَ يستسقي به؟ يقول: ادع الله، فرفع يديه، ارفع يديك يا يزيد، فرفع يديه ورفع النَّاس معه أيديهم، فتبركوا بأن يكون مقدَّمَهم إمامُهم، ولهذا في الشَّرْع يقدم في الإمامة الأفضلُ؛ لأنَّه هو المُقَدَّمُ أمامَ الوفد؛ فالمصلون وفد أمام الله؛ فيقدم الأفضلُ، لا يقدم الأردأ، وهكذا في حياة النَّاس في الدُّنيَا، ولله المثلُ الأعلى، يُقَدّم أفضلُ الوفد وأعلمُهم وأقواهم وأقدرُهم على أن يُعبّر بما في نفوسهم، فهذان صحابيان جليلان، عمر رضي الله عنه على مرأى من الصَّحابَة يستسقي بعمّ رَسُول الله ﷺ، ولا يستسقي بذات رَسُول الله ﷺ، فلو كان هذا الخَبَر عندهم صَحيحًا ما بالُهم تركوه؟! وذهبوا إلى الاستسقاء بغير رَسُول الله ﷺ؟ ، فدل فعل كبار الصَّحابَة رضي الله عنهم على أن هذا غير معروف عندهم.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

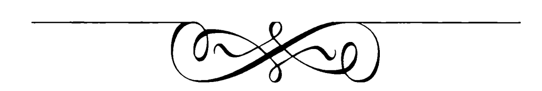
وهذه اللفظة هي التي تعلق بها المُشركون، وليست عند هؤلاء الأئمة، قالوا: فلو كان دعاء غير الله شركًا لم يعلم النَّبي ﷺ الأعمىٰ هذا الدّعَاء الذي فيه نداء غير الله، والجواب من وجوه، الأول: أن هذا الحَديث من أصله وإن صححه الترمذي فإن في ثبوته نظراً؛ لأنالترمذي يتساهل في التصَحيح كالحَاكم، لكن الترمذي أحسن نقداً كما نص علىٰ ذلك الأئمة، ووجه عدم ثبوته أنَّه قد نص أن أبا جعفر الذي عليه مدار هذا الحَديث هو غير الخطمي، وإذا كان غيره فهو لا يعرف، ولعل عمدة الترمذي في تصَحيحه أن شعبة لا يروي إلا عن ثقَة، وهذا فيه نظر، فقد قال عاصم بن علي: سَمعت شعبة يقول: لو لم أحدثكم إلا عن ثقَة لم أحدثكم إلا عن ثلاثة، وفي نسخة عن ثلاثين ذكره الحافظ العراقي، وهذا اعتراف منه بأنَّه يروي عن الثقَة وغيره، فينظر في حاله ويتوقف الاحتجاج به علىٰ ثبوب صحته.



الشَّرْح

هذه إشارة إلىٰ ما يتعلق بالاصطلاح، فإنَّ العُلَماء يقولون: إذا كان الراوي لا يروي إلا عن ثقَة، فإذا روىٰ عن شخص غير معروف أو أرسَل الحَديث أوأسقط راويـًا، هل يُقبل قولُه؟ المحَقّقون قالوا: لا يُقبل؛ لأنَّ هذا الراوي قد يكون عنده ثقَة، ولَكنَّه ليس بثقَة عند غيره، ولهذا نرىٰ العُلَماء يختلفون في التوثيق والتضَعيف، فلو كان كل من كان ثقَة أو محَقّقـًا من العُلَماء إذا روىٰ عن شخص قُبلت روايته فأكثر الروايات عن ثقات، وعن علماء النَّقْل، فتكون مقبولة، لكن لابد من معرفة الراوي، ويعرض حاله علىٰ أقوال العُلَماء، فقد يخفىٰ حال شخص علىٰ عالم، ويظهر لعالم آخر، فليس هذا توثيقـًا، فكون

منهج شُعبة رَحِمَهُ اللَّهُ أَلَّا يروي إلا عن ثقَة لا يدل علىٰ أن الثقَة الذي يروي عنه يكون ثقَة عند غيره، فلابد من معرفة اسمه وحاله من أقوال العُلَماء، ثمَّ شُعبة رَحِمَهُ اللَّهُ نفسُه عندما سُئل قال: لو كنت لا أروي إلا عن ثقَة ما حدثتكم إلا عن ثلاثة أو عن ثلاثين، وشيوخ شُعبة يعدون بالمئات، وقد روىٰ عنهم، والثقات عنده لا يتجاوزون الثلاثين، فدل علىٰ أنَّه ليس كل من روىٰ عنه شعبة يكون ثقَة، وحتىٰ لو كان ثقَة عنده فلا أي: أنَّه ثقَة علىٰ الإطلاق، فلابد من معرفة حاله، والترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ متساهل في التصَحيح، كالحَاكم وابن حبَّان وابن خُزيمة رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وإن كانوا علىٰ درجاتٍ، فلا تُقبل روايتُهم إلا بعد دراسة الّسَنَد؛ لأنَّه إذا تساهل العالم في التصَحيح وجب رد تصَحيحه إلىٰ قواعد أهل الحَديث، فإن وافقها قبلناه، وإن لم يوافقها نَرُده، ولو كان تصَحيح العُلَماء مقبولاً علىٰ إطلاقه ما حدث خلاف بَيْنَ العُلَماء، فالترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ كان أحسن من الحَاكم وابن حبَّان، وابن خُزيمة أحسن منهم جميعًا، لكن ليس تصَحيحُهم تصَحيحًا مقبولاً علىٰ إطلاقه، فلابد من المراجعة، فالترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ مَعَ أنَّه قال: حسن صَحيح، لكن قال فيه: ليس الخطمي، فكَيْفَ يُصحح شخصًا لا يعرفه؟! قالوا: ثقَة لشعبة، وليس بصَحيح كما سبق، ولهذا في سنن الترمذي أحاديث كثيرة صُحّحَت وهي ضَعيفة، وردَّها العُلَماء، فليس كل ما في الترمذي يكون حديثًا صَحيحًا، والله أعلم.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الثاني: أنَّه في غير محل النزاع، فأين طلب الأعمىٰ من النَّبي ﷺ أن يدعو له، وتوجهه بدعائه مَعَ حضوره، من دعاء الأموات والسُجُود لهم ولقبورهم والتوكل عليهم، والالتجاء إليهم في الشدائد والنذر والذبح لهم، وخطابهم بالحوائج من الأمكنة البعيدة، يا سيدي يا مولاي: افعل بي كذا، فحديث الأعمىٰ شيء، ودعاء غير الله تَعَالَىٰ والاستغاثة به شيء آخر، فليس في حديث الأعمىٰ شيء غير أنَّه طلب من النَّبي ﷺ أن يدعو له ويَشَفَع له، فهو توسل بدعائه وشفاعته، ولهذا قال في آخره: (اللهم فشَفَعه في) فعلم أنَّه شَفَع له، وفي رواية أنَّه طلب من النَّبي ﷺ أن يدعو له، فدل الحَديث علىٰ أنَّه ﷺ شَفَع له بدعائه، وأن النَّبي ﷺ أمره هو أن يدعو الله ويسأله قبول شفاعته، فهذا من أعظم الأدلة علىٰ أن دعاء غير الله شرك؛ لأنالنَّبي ﷺ أمره أن يسأل قبول شفاعته، فدل علىٰ أن النَّبي ﷺ لا يدعىٰ؛ ولأنَّه ﷺ لم يقدر علىٰ شفائه إلا بدعاء الله له، فأين هذا من تلك الطوام.

الشَّرح

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هنا مسألتان، أن يُسأل الميتُ أو الإنسَان الصالحُ أن يفعلَ، والمسألةُ الثانية: أن يُسأَلَ اللهُ به أي: يجعلُه وسيلةَ إلىٰ الله، يقول: يا رب أتوسلُ إليك بفلان، فيقول الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنَّ كلامَنا عن باب: من يستغيث بغير الله، ليس عمَّن يسألُ الخالقَ بالمخلوق، إمَّا عن طريق القَسَم وإمَّا عن طريق الاسْتشْفَاع، فأنتم أشركتم مَعَ الله في الدّعَاء، أحدكم ينادي الميت، يا سيدي افعل بي كذا، يا فلان افعل بي كذا، يا فلان أعطني كذا، فقال: شَتَّان بَيْنَ الحَديث وبَيْنَ فعلكم أنتم، فأنتم تدعون الميت نفسه، وليس في الحَديث دعاء الرَسُول ﷺ، وإنَّمَا فيه السؤال بالرَسُول ﷺ أي: أن يجعل الرَسُول ﷺ

واسطةً بَيْنَه وبَيْنَ الله في الدّعَاء فيقول: أسألك بحَقّ رَسُولك أو برَسُولك أو بنَبيك، فهذا وإن لم يكن من السنة ولم يرد في غير هذا الحَديث، لَكنَّه أهون وأخف من أن يسأل المخلوق ذاته، فذلك شرك، فمن استغاث بغير الله أو دعا غير الله أشرك، والحَديث لا يدل علىٰ صحة هذا الشرك، وقصاراه أنَّه يدل علىٰ جواز أن تدعو الله بنَبيه، وسيأتي من أقوال العُلَماء أنَّهم أنكروا هذا، فأبو حنيفة وأبو يوسف والعَزّ بن عبد السلام رَحِمَهُمُ اللَّهُ أنكروا هذا، والشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ اضطرب، فمَعَ أنَّه علىٰ مذهب السلف جوز ذلك ورد علىٰ ابن تَيميَة رَحِمَهُ اللَّهُ في إنكاره جواز سؤال الخالق بالمخلوق. فقال: رَسُول الله إنسان مُفضل، أي: إنسان له عند الله مَكَانَة، وإنسان له عند الله جاه، فلو سأل الإنسَان الله بجاه رَسُوله لكان جائزاً، ويستشهد بحديث الثلاثة الذين خرجوا ودخلوا الغار، وسألوا الله بأعمالهم، ولكن الحَديث في وادٍ، وقول الشوكاني في وادٍ آخر؛ لأنَّ هؤلاء سألوا الله بأعمالهم، والرَّسُول ليس من عملك، والصالح ليس من عملك، فلو تَشَفَعت إلىٰ الله بحبك لرَسُول الله ﷺ لكان جائزاً، لكن أن تَتشَفَع إلىٰ الله بمَكَانَة غيره عنده؛ فهذا ليس وسيلةً ولا سبباً، وسيأتي حديث آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ أنَّه عندما تاب سأل الله بحَقّ نَبيه مُحَمَّد أن يغفر له، وهذا يصادم القُرْآن. القُرْآن يقول: أنَّهما تابا إلىٰ الله واستغفرا اللهَ مباشرة، ولم يدعوا الله بغيره، فهو حديث باطل، فالشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه المسألة في الحَقّيقة خالف مذهب السلف ولم يصب، فإنَّه قد جَوَّز ذلك، ولهذا نرىٰ العُلَماء تكلموا عن المسألة، كالشارح، وابن تَيميَة والمباركفوري ردُّوا عليه وقالوا: هذا مخالف الصواب، والصواب أنَّه لا يجوز أن يُسأَلَ الله بأحد من خلقه، فليس لأحدٍ عند الله حَقّ، ولا يُقسَمُ بأحد من خلقه علىٰ الخالق؛ فسَل الله بعملك، والثلاثة الذين دخلوا الغار سألوا الله بأعمالهم، ما سألوا الله بأعمال غيرهم، وهو واضح في حديث الثلاثة الذين دخلوا الغار.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

والكلام إِنَّمَا هو في سؤال الغائب، أو سؤال المخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله، أَمَّا أن تأتي شخصًا يخاطبك فتسأله أن يدعو لك، فلا إنكار في ذلك، على ما في حديث الأعمى، فالحَديث سواء كان صَحيحًا أو لا، وسواء ثبت قوله فيه يا مُحَمَّد أو لا، لا يدل على سؤال الغائب ولا على سؤال المخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله بوجه من وجوه الدلالات، ومن ادعى ذلك فهو مفتر على الله وعلى رَسُوله ﷺ؛ لأَنَّه إن كان سأل النَّبي ﷺ نفسه فهو لم يسأل منه إلا ما يقدر عليه، وهو أن يدعو له، وهذا لا إنكار فيه، وإن كان توجه به من غير سؤال منه نفسه فهو لم يسأل منه، وإِنَّمَا سأل من الله به، سواء كان متوجهًا بدعائه كما هو نص أول الحَديث وهو الصَحيح، أو كان متوجهًا بذاته على قول ضَعيف.

الشَّرْح

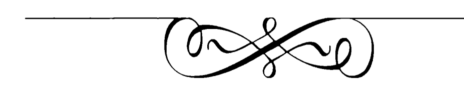
يقول: حتى لو قلنا بصحة الحَديث فإن الواقعة تختلف عن واقع المُشركين الذين خالفوا التَّوحيد، فالأعمى جاء إلى رَسُول الله ﷺ وهو حي، فطلب منه الدّعَاء مباشرة، فسواء طلب منه الدّعَاء وهو الصَحيح أو توسل بذاته وهو وجه ضَعيف، لَكنَّه جاء إليه وهو حي، فلو ذهبت إلى إنسان حي وطلبتَ منه الدّعَاء لجاز، وإن كان هذا مكروهًا، ولا يكون شركًا، ولو توسَّلْتَ بذات شخصٍ أو بحَقّه عند الله هذا ليس شركًا، إِنَّمَا هذا عمل مُبتَدع، وعمل مكروه لم يرد مثله في السنة، إلا في هذا الحَديث لكن القضيةُ قضية أكبرُ، وهي الاستغاثةُ بغير الله وأن يُدْعَى غيرُ الله، فهذا الحَديث ليس فيه شاهد لعملهم، فقال: على هذا وهذا فليس فيه شاهد على ما يعمله الذين أشركوا مَعَ الله غيره.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فإن التوجه بذوات المخلوقين، والإقسام بهم على الله بدْعَة مُنْكَرة لم تأت عن النَّبي ﷺ ولا عن أحد من أصحابه والتَّابعين لهم بإحسان، ولا الأئمة الأربعة ونحوهم من أئمة الدِّين، قال أبو حنيفة: لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به، وقال أبو يوسف: أكره بحَقّ فلانوبحَقّ أنبيائك ورسلك وبحَقّ البيت والمشعر الحرام، وقال القدوري: المسألة بحَقّ المخلوق لا تجوز، فلا يقول: أسألك بفلان أو بملائكتك أو أنبيائك ونحو ذلك؛ لأنَّه لا حَقّ للمخلوق على الخالق، واختاره العَزّ بن عبدالسلام إلا في حَقّ النَّبي ﷺ خاصة إن ثبت الحَديث، يشير إلى حديث الأعمى، وقد تقدم أنَّه على تقدير ثبوته ليس فيه إلا أنَّه توسل بدعائه لا بذاته.

الشَّرح

هنا ذكر علماءُ الأحناف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أنَّهم لم يُجوّزوا الدّعَاء بحَقّ المخلوق، لا أبو حنيفة، ولا أبو يوسف ولا القدوري ولا غيرهم، وأن العَزَّ بن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أحد علماء الشافعية اختار هذا القول، وقوله إلا إذا ثبت الحَديث، يشير إلى حديث الأعمى، يقول: إذا ثبت الحَديث جوزنا السؤال بذات المخلوق، أي بذات الأنبياء وذوات الصَّالحين، لكن الحَديث لم يصح كما مرَّ أن مداره على شخص قال فيه الدارقطني رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه يأتي بمَنَاكير، ولا يجوز الاحتجاج بخبره، فلم يصح الحَديث، فيكون اختياره رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو الاختيار الصَحيح.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد ورد في ذلك حديث رواه الحَاكم في مستدركه، فأبعد النجعة من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، (لما أذنب آدم الذنب الذي أذنبه، رفع رأسه إلىٰ العَرْش، فقال: أسألك بحَقّ مُحَمَّد إلاَ غفرت لي) الحَديث وهو حديث ضَعيف، بل مَوضُوع؛ لأَنَّه مخالف للقرآن قال تَعالَىٰ: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف:٢٣]. فهذا هو الذي قاله آدم، قال الذهبي في هذا الحَديث: أظَنه مَوضُوعـًا، وعبدالرحمن بن زيد متفق علىٰ ضعفه، قال ابن معين: ليس حديثه بشيء.

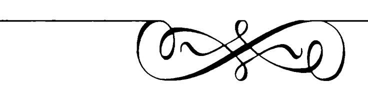
الشَّرح

هذا الحَديث ما يلي: عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لما اقترف آدم الخطيئة قال يا رب: أسألك بحَقّ مُحَمَّد لما غفرت لي، فقال الله: يا آدم وكَيْفَ عرفت مُحَمَّداً ولم أخلقه، قال يا رب: لأنك لما خلقتني بيدك، ونفخت في من روحك رفعت رأسي فرأيت علىٰ قوائم العَرْش مكتوبـًا، لا إله إلا الله مُحَمَّد رَسُول الله، فعلمت أنك لم تضف إلىٰ اسمك إلا أحب الخلق إليك، فقال الله: صدقت يا آدم أنَّه لأحب الخلق إلي ادعوني بحَقّه، فقد غفرت لك، ولولا مُحَمَّد ما خلقتك)(١) هذا حديث مكذوب، فيه راويان متهمان بالوضع، الأول: عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، قال أحَمدَ: ضَعيف وروىٰ حديثـًا

(١) أخرجه الحَاكِم في المستدرك، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمُرسَلين، برقم: (٤٢٨٧)، (٢/ ٧٢٣)، وصححه، قال الذهبي في التلخيص: "بل مَوضُوع، وعبد الرحمن واه"، وأخرجه الطَّبَراني في المعجم الأوسط، برقم: (٦٥٠٢)، (٦/ ٣١٣).

مُنْكَراً، وقال الحَاكم وأبو نُعَيم: روىٰ عن أبيه أحاديث مَوضُوعة، والثاني: عبد الله بن مسلم اتهمه ابن حبَّان بوضع الحَديث، وعندما قال الحَاكم: هذا حديث صَحيح، علق عليه الذهبي وقال: بل مَوضُوع، وكذلك قال ابن الملقن، وعلق ابن تَيميَة رَحِمَهُ اللَّهُ علىٰ رواية الحَاكم لهذا الحَديث بقوله: ورواية الحَاكم لهذا الحَديث ممَّا أنكر عليه، فإنَّه نفسه قد قال في كتاب المدخل: عبد الرحمن بن زيد بن أسلم روىٰ عن أبيه أحاديث مَوضُوعة، لا يَخفىٰ علىٰ من تأملها من أهل الصَّنعة أن الحملَ فيها عليه، ومَعَ ذلك يروي حديثه، فهذا الحَديث حديث مَوضُوع ولا يصح عن رَسُول الله ﷺ، بل إن آدم وحواء عندما أذنبا ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف:٢٣].

اعترفا بالظلم والخطيئة، وقالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾، وأمَّا أنَّهما رَأيا علىٰ قوائم العَرْش هذا الكلام فإنَّه كذب علىٰ رَسُول الله ﷺ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الثالث: أن قوله: (يا مُحَمَّد إني أتوجه) لم تثبت في أكثر الروايات، وبتقدير ثبوتها لا يدُل ذلك على جواز دعاء غير الله؛ لأن هذا خطاب لحاضر معين يراه ويسَمَعَ كلامه، ولا إنكار في ذلك، فإن الحي يطلب منه الدّعَاء كما يطلب منه ما يقدر عليه، فأين هذا من دعاء الغائب والميت لو كان أهل البدع والشرك يعلمون.

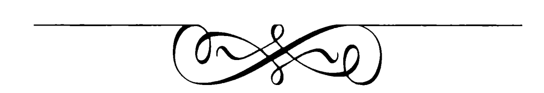
واحتجوا أيضًا بحديث رواه أبو يعلى وابن السني في عمل اليوم والليلة، فقال ابن السني حدثنا أبو يعلى، ثنا الحسن بن عمرو بن شقيق، ثنا معروف بن حسان، ثنا أبو معاذ السمرقندي عن سعيد عن قتادة عن أبي بردة عن أبيه عن عبدالله بن مسعود قال: قال رَسُول الله ﷺ: (إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فليناد: يا عباد الله احبسوا) هكذا في كتاب ابن السني، وفي الجامَعَ الصغير: (فإن لله عَزَّ وَجَلَّ في الأرض حاضراً سيحبسه عليكم) والجواب أن هذا الحَديث مداره على معروف بن حسان، وهو أبو معاذ السمرقندي، فقوله في الأصل ثنا أبو معاذ السمرقندي خطأ أظَنه من النَّاسخ.



الشَّرح

(يا مُحَمَّد إني أتوجه) لو ثبتت هذه اللفظة فإنَّها لا تدل على المعنى؛ لأنَّه شَتَّان بَيْنَ ما يقولون وبَيْنَ ما جاء في الحَديث، لكن الحَديث لم يصح عن رَسُول الله ﷺ، والدّين إنَّمَا يقوم على ما صح من السنة، وأمَّا ما لم يصح فليس دينا ولا نتعبد الله به.

قوله ﷺ: (إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فليناد، يا عباد الله احبسوا)[1] هذا الحَديث كما قال هنا في الحاشية حديث ضَعيف لم يصح، وكتاب ابن السني في عمل اليوم والليلة ليس ممَّا يعتمد عليه، فهناك بعض كتب السنة ليست ممَّا تداوله العُلَماء ودرسوه وحَقّقُوه، وشرحوا ألفاظه واعتنوا به، ولهذا لا يُوثَق بها، فإنَّ كتب السنة علىٰ درجات كما مر أن الكتب الستة هي أعلىٰ درجات كتب الحَديث، ولهذا كل حديث جاء في غيرها يعرض عليها، فإن كان له فيها أصل وإلا فإنَّه يحتاج إلىٰ مراجعة ودراسة، بل يقول ابن عبد البر رَحِمَهُ اللهُ: كل حديث ليس في الصَحيحين، وهو من أحاديث الأصول فإنَّه ما تركه أصحابُ الصَحيحين إلا لعلَّة، أي: إذا كان هناك مسألة لم يوردا فيها حديثاً أصلاً ويوجد فيها أحاديث كثيرة في خارج الصَحيحين يدل علىٰ أن تركَهم لهذه الأَحَاديْث لأنَّ في هذه الأَحَاديْث علَلاً قد تكون خافية علىٰ بعض طلبة العلْم، لكن هذا تضييق في هذا الباب، والكتب الستة قد اشتملت علىٰ غالب أمور الدِّين، وقلّ أن يخرج منها حديث ويصح أو حديث إلا وفيه علَّة والله أعلم.



(١) أخرجه الطَّبَراني في المعجم الكبير، برقم: (١٠٥١٨)، (١٠/ ٢٦٧)، وأبو يعلىٰ في المسَنَد، برقم: (٥٢٦٩)، (٩/ ١٧٧)، وابن السني في عمل اليوم والليلة، باب ما يقول إذا انفلتت الدابة، برقم: (٥٠٨)، (١/ ٤٥٦).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال ابن عدي: مُنْكَر الحَديث، وقال الذهبي في الميزان: قال ابن عدي: مُنْكَر الحَديث قد روىٰ عن عمرو بن ذر نسخة طويلة كلها غير محفوظة، وقال السيوطي: حديث ضَعيف وأقول بل هو باطل، إذ كَيْفَ يكون عند سعيد عن قتادة، ثمَّ يغيب عن أصحاب سعيد الحفاظ الأثبات، مثل يحيىٰ القطان وإسماعيل بن علية وأبي أسامة وخالد بن الحارث وأبي خالد الأحمر وسُفيَان وشعبة وعبدالوارث وابن المبارك والأنصاري وغندر وابن أبي عدي ونحوهم، حتىٰ يأتي بهذا الشَّيْخ المَجْهُول المُنْكَر الحَديث، فهذا من أقوىٰ الأدلة علىٰ وضعه.

وبتقدير ثبوته لا دليل فيه؛ لأن هذا من دعاء الحاضر فيما يقدر عليه كما قال: (فإن لله في الأرض حاضراً سيحبسه عليكم).

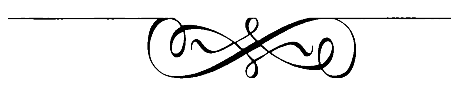


الشَّرح

هذه طريقة العُلَماء القدماء، إذا أرادوا أن يتحَقّقوا من سلامة رواية الراوي ينظرون من أخذ العلْم معه عن هذا الشَّيْخ؟ فيأتون إلىٰ الرواة فيقسمونهم إلىٰ درجات، أوثق هؤلاء الرواة من؟ فلان وفلان، أقلهم ثقَة من؟ فلان وفلان، أضعفهم من؟ فلان، فإذا جاء الضَعيف بحديث لم يذكره الأَثْبَاتُ دلَّ علىٰ أنَّ هذا فيه مقال، وهذه طريقة ابن عدي رَحِمَهُ اللَّهُ في: (الكامل في الضعفاء) حيث يذكر الراوي ويذكر ما تفرد به من الأَحَاديْث عن زملائه بالطلب، فيقول: كونه تفرد بهذا الحَديث وهناك من رافقه في الطلب من الثقات دل علىٰ أنَّه إمَّا وَهمَ، وإمَّا دَلَّس، وإمَّا أنَّ الحَديث فيه علَّة، هذا أسلوب القدماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وهو أسلوب استقرائي، ليس كل من يقول: قال رَسُول الله ﷺ يُقبَل، بل لابد من دراسة ما

يقول، فإذا كان الحَديث عن شيخ له تلاميذ يُنظَر هل زملاؤه في الطَّلب ذكروا هذا الحَديث أم لم يذكروه، فكونه تفرَّد به عن زملائه بالطلب وهم أوثق منه وأعرفُ وأحفظُ وأثبتُ يكون دليلاً علىٰ أنَّ هذا الحَديث فيه علَّة، فهذا الشَّخْص قال فيه العُلَماء: مُنْكَر الحَديث أي: يأتي بأحاديث لا تُعرَف، بل قال فيه أبو حاتم: أنَّه مَجْهُول، أي: لا يعرف إن كان مَجْهُول العَين، أي: لم يرو عنه إلا شخص واحد، وإن كان مَجْهُول الحال أي لا يعرف هل هو ثقَة أم ليس بثقَة، وهذا الراوي في الحَقّيقة كما قال أبو حاتم مَجْهُول العين، لا يعرف من هو، أي: ليس معروفًا عند العُلَماء أنَّه من أهل العلْم.

قوله: (وبتقدير ثبوته لا دليل فيه) يقول: حتىٰ لو صح فإنَّه خطاب لمن هو موجود لكن لا تراه؛ لأنَّ الجنَّ موجودون، فلو أن شخصًا قال: احبس احبس، وهو يخاطب الجنَّ الموجودين في المكان فليس هذا دعاء للغائب؛ لأنَّ الغائب إمَّا غائب غيابًا نسبيًا، بالنسبة لك غائب، لكن هو حاضر في هذا المكان، فالحَديث ليس فيه شاهد سواء صح أو لم يصح، لكن الحَديث لم يصح.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

واحتجوا أيضًا بحديث رواه الطَّبَرَاني في المعجم الكبير فقال: حدثنا طاهر بن عيسىٰ بن قيرس المصري، ثنا أصبغ بن الفرج، ثنا ابن وهب عن أبي سعيد المكي عن روح بن القاسم عن أبي جعفر الخطمي المديني، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف: (أن رجلاً كان يختلف إلىٰ عثمَّان بن عفان في حاجة له، فكان عثمَّان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته، فلقي ابن حنيف فشكا إليه ذلك، فقال له عثمَّان بن حنيف: أئت الميضأة فتوضأ، ثمَّ ائت المَسْجد فصل فيه ركعتين، ثمَّ قل: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنَبيك مُحَمَّد نَبي الرحمة، يا مُحَمَّد إني أتوجه بك إلىٰ ربك ليقضي لي حاجتي) الحَديث.

الشَّرْح

هذا الحَديث أيضًا مداره علىٰ أبي جعفر، لكن فيه علَّة كما سيذكر الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فهو هنا ذكر القصة التي من أجلها ساق الحَديث، وهي تفرد بها الطَّبَرَاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المعجم الكبير والمعجم الأوسط، وليست في السنن؛ لأنَّ السنن إنَّمَا ذكرت المَتْن المرفوعَ، أمَّا القصة التي تتعلق بعثمَّان بن عفان فلم يذكرها إلا الطَّبَرَاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معجمه الكبير والمعجم الأوسط.

وهذا الحَديث تكملته من الطَّبَرَاني أنَّه قال له بعد هذه الفقرة: (ورح إلي حتىٰ أروح معك، فانطلق الرجل وصنع ما قال له، ثمَّ أتىٰ باب عثمَّان فجاء البواب حتىٰ أخذ بيده فأدخله علىٰ عثمَّان بن عفان فأجلسه معه علىٰ القنفسة) أي: علىٰ مكان يجلس فيه (وقال: حاجتك؟ فذكر حاجته فقضاها له، ثمَّ قال له: ما ذكرت حاجتك حتىٰ كانت هذه الساعة، وقال: ما كانت لك من حاجة فأتنا، ثمَّ إن الرجل خرج من عنده فلقي عثمَّان بن حنيف، فقال له: جزاك الله

خيراً، ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إلي حتىٰ كلمته فيه، فقال عثمَّان بن حنيف: والله ما كلمته، ولكن شهدت رَسُول الله ﷺ وأتاه ضرير فشكىٰ إليه ذهاب بصره فقال له النَّبي ﷺ: أوتصبر؟ فقال يا رَسُول الله: أنَّه ليس لي قائد وقد شق علي، فقال له النَّبي ﷺ: ائت الميضأة فتوضأ ثمَّ صل ركعتين ثمَّ ادع بهذه الدعوات، فقال عثمَّان بن حنيف: فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحَديث حتىٰ دخل علينا الرجل كأنَّه لم يكن به ضر قط)[(١)]، وليس علىٰ الله شيء عَزِّيز، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قادر، ونَبيّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أهل لكل خير ولكل استجابة، لكن يتوقف ذلك علىٰ صحَّة الّسَنَد، فأيُ خبر يأتينا عن نَبيّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يقبل إلا إذا صحَّ سَنَده، بل بعض العُلَماء يرىٰ أنَّه لابد من دراسة بعض المتون إذا خالفت الأدلة القطعية مثل ما وقع في صَحيح مسلم من تصَحيحه (لخلق السموات والأرض في سبعة أيام)[(٢)] فالعُلَماء قالوا: هذا حديث مُنْكَر وإن كان في الصَحيح؛ لأنَّه خالف نص القُرْآن بأن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام، فالشاهد: أنَّ الحَديث إذا صحَّ إلىٰ رَسُول الله ﷺ قبلناه؛ لأننا لسنا مُتَعبَّدين إلا بما جاء في الشَّرْع.

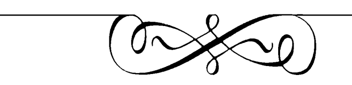
فهذا الحَديث لم يصح، وقد مر الجزء المرفوع منه في الحَديث السابق، وأن في سَنَده رجلاً قال فيه العُلَماء: أنَّه يُحدّث بالمَناكير ولا تُقبل روايته، فهذا الحَديث كذلك يدور علىٰ هذا الرجل مَعَ إضافة بعض العلل كما ذكرها هنا الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ مَعَ أنَّ الطَّبَراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال في هذا الحَديث: أنَّه صَحيح، لَكنَّه ليس صَحيحاً، فالطَّبَراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ من المُتسامحين في الرواية وفي الأحكام علىٰ الأَحَاديْث، والعُلَماء علىٰ درجات: منهم من تشدَّد في بعض الأَحَاديْث فردَّ

---

(١) أخرجه الطَّبَراني في المعاجم، المعجم الكبير، برقم: (٨٣١١)، (٩/ ١٧).

(٢) سبق تخريجه مَعَ ملاحظة أن مسلماً لم يخرجه بهذا اللفظ.

الصَحيحَ، حتىٰ وقع في عَزْو الأَحَاديْث الصَحيحة إلىٰ المَوضُوعات كابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ في المَوضُوعات، فقد عَزَّىٰ بعض الأَحَاديْث في الصَحيحين إلىٰ المَوضُوعات، وبعضهم تساهل حتىٰ صحح المَوضُوعات كالحَاكم وابن حبَّان، وابن خُزيمة، وكذلك التّرمذي، فهؤلاء مُتساهلون في التصَحيح، والطَّبَرَاني أوسعُ خَطوَاً من هؤلاء جميعـًا، والعُلَماء قد وضعوا ضوابط ووضعوا مناهج لمعرفة الصَحيح والضَعيف، هذه الضوابط والمناهج قواعد ثابتة لا تتطور بتطور الزمن، مثلاً: يقال: فلان ضعيف. . ، فإذا جاء في الّسَنَد حُكمَ بضعفه، وربما يكون المعنىٰ صَحيحـًا، يقال: هذا الحَديث لم يصح من هذه الطريق لكن المعنىٰ صَحيح كما يفعل الشَّيْخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ أحيانـًا، لكن دراسة الّسَنَد أمر مكشوف معروف، فلو صحح العالم حديثـًا وكان في سَنَده ضعف يؤخذ علىٰ هذا العالم ولا يقبل ولا يكون ملزمـًا؛ لأنّ العبرة بأن يصح السَّنَد إلىٰ رَسُول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولهذا العُلَماء يُشنّعون علىٰ من يروي الأَحَاديْث الضَعيفة أو المَوضُوعةَ ولا يُبيْنَ ضعفَها؛ لأنَّ هذا يؤدي إلىٰ أن يُعمل بما لم يَصح وإلىٰ أن يُتخذ دينـًا ما لم يكن دينـًا.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

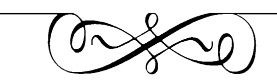
والجواب من وجوه:

الأول: أن راوية طاهر بن عيسىٰ ممن لا يعرف بالعدالة بل هو مَجْهُول، قال الذهبي: طاهر بن عيسىٰ بن قيرس أبو الحسين المصري المؤدب عن سعيد بن أبي مريم ويحيىٰ بن بكير وأصبغ بن الفرج وعنه الطَّبَرَاني، توفي سنة اثنتين و تسعين ومائتين ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلاً، فهو إذاً مَجْهُول الحال لا يجوز الاحتجاج بخبره لا سيما فيما يخالف نصوص الكتاب والسنة.

الشَّرح

أولا: الحَديث السابق فيه سَقط في سَنَده، فبعد قوله: عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف سقط قوله: عن عمه عثمَّان بن حنيف، فإن الحَديث عن عثمَّان وليس عن أبي أمامة، وقوله: (ممن لا يعرف بالعدالة) الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ مَعَ أنَّه توفي في سن مبكرة لَكنَّه كان من الجهابذة في الحَديث، وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: إنَّني برجال الحَديث أعرف منّي برجال الدرعية. أي: بلده التي يعيش فيها، أي: يعرف رجال الحَديث -فلان ما درجته وفلان ما مكانته - مثل ما يعرف من عاصره من الرجال، فهو رَحِمَهُ اللَّهُ رغم صغر سنه كان متمكنًا في الحَديث، وستأتي دقتُه هنا في الوجه الثاني، فهنا يقول: الطاهر بن عيسىٰ وهو شيخ الطَّبَرَاني لا يُعرف، مَعَ أنَّه نُقل عن الذهبي ترجمةً له، ولم أجد هذه الترجمة لا في السير في" سير أعلام النبلاء "، ولا في " الميزان "؛ لأنَّ مَظَنة هذه الترجمة أن تكون في ميزان الاعتدال؛ لأنَّ الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ له كتاب في الضعفاء، سماه (ميزان الاعتدال في نقد الرجال)، ولم أجد فيه هذه الترجمة، فهو بَيْنَ أمرين

إمَّا أن يكون في الكتاب سقط؛ لأنَّ الكتاب أصلاً ينبغي أن يشمل هذا الرجل وغيره، وإمَّا أن يكون في كتاب آخر غير السير وغير الميزان، ومَعَ ذلك والذي نقصده أن الرجل مَجْهُول الحال، وقلنا إذا ذكر الرجل في كتب التراجم، ولم يذكر أنَّه ثقَة أو غير ثقَة يُسمىٰ مَجْهُول الحال؛ لأنَّ العُلَماء يوردون أسماء الرجال في كتب الرجال بقصد تعريف حالهم، هل هو ثقَة أو ضَعيف أو لا بأس به أو نحو ذلك، فإذا ذُكر الرجل ولم يُذكر فيه جرح أو تعديل دلَّ علىٰ أنَّ حالَه مَجْهُول، أي: لا يعرف هل هو ثقَة أو غير ثقَة، مثل هذا الراوي روايته ضَعيفة، ومظَنة هذه الترجمة وأنواعها في كتاب الجرح والتعديل لابن أبي حاتم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فهو كثيراً ما يذكر الرواة، ولا يذكر فيهم جرحاً وتعديلاً، خاصة ممن لا يُعرف بطلب العلْم، فهذا الرجل ما دام أنَّه مَجْهُول الحال كَيْفَ يُحتَجُ بأثره وإن كان شيخ الطَّبَراني؟ ، فيكون الحَديث من هذا الوجه ضَعيفاً.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

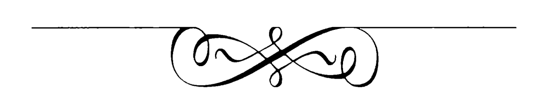
الثاني: قوله (عن أبي سعيد المكي) أشد جهالة من الأول، فإن مشايخ ابن وهب المكيين معروفون، كداود بن عبدالرحمن وزمعة بن صالح وابن عيينة وطلحة بن عمرو الحضرمي وابن جريج وعمر بن قيس ومسلم بن خالد الزنجي، وليس فيهم من يكنىٰ أبا سعيد فتبَيْنَ أَنَّه مَجْهُول.



الشَّرْح

هذا في الحَقّيقة من دقة الشارح، يقول الطَّبَرَاني في كتابه: لم يروه عن روح إلا شبيب أبو سعيد المكي وهو ثقَة، وهو الذي يحدث عنه ابنه أحَمدَ بن شبيب عن أبيه، لا يوجد في شيوخ ابن وهب شخص اسمه أبو سعيد المكي، إنَّمَا يوجد شخص اسمُه أبو سعيد التميمي البصري، فهل هما رجلان؟ ، فأحيانًا تتشابه الأسماء وأسماء الأباء، والعُلَماء يفرقون بَيْنَ الأشخاص إمَّا بالكُنْيَة، وإمَّا باللقب، فهنا ذكر أنَّه تميمي بصري، وليس مكياً، ولهذا يقول الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ هذا مَجْهُول؛ لأنَّه لم يُعرف في شيوخ ابن وهب أبو سعيد المكي، فدل علىٰ أن هذا الشَّخْص مَجْهُول، مَعَ أن الشَّخْص الثاني الذي يظَن أنَّه هو كما ذكره المحَقّق لكتاب زوائد المعجمين، هذا الشَّخْص قال فيه العُلَماء: حدث عنه ابن وهب بأحاديث مَنَاكير، ابن وهب من علماء الحَديث في مصر، لَكنَّه قابل هذا الرجل الذي هو شبيب أبو سعيد التميمي في مصر في تجارة ذهب إلىٰ مصر من أجل التجارة وليس معه كتبه، فحدث بأحاديث مَنَاكير، فقال العُلَماء: رواية ابن وهب عن هذا الشَّخْص كلها مَنَاكير، فهذا الحَديث من مُنْكَرات هذا الراوي المَجْهُول الذي اختلف فيه أهل العلْم، منهم

من سماه مكياً، ومنهم من سماه بصرياً، أمَّا البصري فأحاديثه مَنَاكير، لكن المكي مَجْهُول، وهذه من دقة الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ. فالحَديث فيه ثلاث علَل، الأُولَىٰ: شيخ الطَّبَرَاني: طاهر بن عيسىٰ، والثاني: أبو سعيد المكي، والثالث: أبو جعفر وليس الخطمي كما سبق.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الثالث: إن قلنا بتقدير ثبوته، فليس فيه دليل علىٰ دعاء الميت والغائب، غاية ما فيه أنَّه توجه به في دعائه، فأين هذا من دعاء الميت؟ فإن التوجه بالمخلوق سؤال به لا سؤال منه، والكلام إنَّمَا هو في سؤال المخلوق نفسه ودعائه والاستغاثة به فيما لا يقدر عليه إلا الله، وكل أحد يفرق بَيْنَ سؤال الشَّخْص وبَيْنَ السؤال به، فإنَّه في السؤال به قد أخلص الدّعَاء لله، ولكن توجه علىٰ الله بذاته أو بدعائه، وأمَّا في سؤاله نفسه ما لا يقدر عليه إلا الله فقد جعله شريكًا لله في عبَادَة الدّعَاء، فليس في حديث الأعمىٰ وَحَّديث ابن حنيف هذا إلا إخلاص الدّعَاء لله كما هو صريح فيه، إلا قوله: (يا مُحَمَّد إني أتوجه بك)، وهذا ليس فيه المخاطبة لميت فيما لا يقدر عليه، إنَّمَا فيه مخاطبته مستحضراً له في ذهنه كما يقول المصلي: السلام عليك أيها النَّبي ورحمة الله وبركاته.

الشَّرح

هذا الحَديث كما سبق أحد الأَحَاديْث التي اعتمدها من يدعو غير الله، فيقول الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن هذا الأعمىٰ دعا رَسُول الله ﷺ قال: (يا مُحَمَّد إني أتوجه بك) وهذا استشهاد في غير محله، فرق بَيْنَ أن تسأل بالشَّخْص وبَيْنَ أن تسأل الشَّخْص نفسه، ففي الأول أنت تدعو الله وتتوسَّل إليه بذات رَسُول الله ﷺ أو بدعائه، وإن كانت هذه المسألة غير جائزة، لَكنَّها أخفُ وأقلُ خطراً من الشرك، هذه بدْعَة، لكن دعاء غير الله شرك، فاستشهادهم بهذا الحَديث علىٰ جواز دعاء غير الله ـ مَعَ أن الحَديث لم يصح ـ لا يدل علىٰ مرادهم، فإن الرجل سأل الله برَسُول الله ﷺ الذي يراه أمَامه، فسأل الله بذات رَسُول الله أو بدعائه، كما جاء في الحَديث قال: ادع الله، ما قال: ادعني، فالمعنىٰ: ادع الله وأنا أدعو

لك، فشَتَّان بَيْنَ ما أوردوه من أجله وبَيْنَ الدلالة التي يدل عليها الحَديث، وقوله ﵀: (وهذا ليس فيه المخاطبة لميت فيما لا يقدر عليه إنَّمَا فيه مخاطبته مستحضرا له في ذهنه، كما يقول المصلي: السلام عليك أيها النَّبي ورحمة الله وبركاته)، فإذا قال المصلي: السلام عليك أيها النَّبي ورحمة الله وبركاته، هذا في ظاهره خطاب لمُخاطب مُشاهد يَسَمع، هذه الصيغة قيلت في عهد رَسُول الله ﷺ فالصَّحابَة قالوها، وقد ورد حديث التشهد في أحاديثَ كثيرةٍ أصحُّها رواية ابن مسعود ﵁ التي رواها عنه أكثر من عشرين تابعياً، هذه الرواية ورد في بعض روايات البُخَاري أنَّ الصَّحابَة بعد أن توفي رَسُول الله ﵊، قالوا ـ بدل " السلامُ علَيك "ـ: " السلامُ عَلىٰ النَّبي"، وهذا في صَحيح البُخَاري في إحدىٰ روايات ابن مسعود، ووردت كذلك في أثر في مصنف عبد الرزاق، روىٰ عبد الرزاق عن ابن جريج عن عطاء: (أن الصَّحابَة ﵃ كانوا يقرءون في حياة رَسُول الله ﷺ: السلام عليك أيها النَّبي، فلما مات النَّبي قالوا: السلام علىٰ النَّبي ورحمة الله وبركاته)(١) قال ابن حجر ﵀: وهذا إسناد صَحيح، وهذا يدل علىٰ أن الصَّحابَة ﵃ غيروا صيغة اللفظ، لكن لو بقي اللفظ كما هو جاز؛ لأنَّ هذا ممَّا صح عن رَسُول الله ﵊، لكن ليس فيه خطاب لرَسُول الله ﷺ، وإنَّما فيه استحضار لرَسُول الله ﷺ في الذِّهن للصلاة عليه، لا لدُعائه والتوسُل به والاستغاثة به، بل هذا فيه دعاء له كما أمر بذلك ﵊.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف، كتاب الصلاة، باب التشهد، برقم: (٣٠٧٥)، (٢/ ٢٠٤)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ، كتاب الصلاة، باب مبتدأ فرض التشهد، برقم: (٢٨٢٠)، (٢/ ١٩٩)، وأبو يعلىٰ في المسَنَد، برقم: (٥٢٤٧)، (٩/ ٢٣٦)، وأخرج نحوه البخاري في صَحِيحه، كتاب الاستئذان، باب الأخذ باليدين، برقم: (٦٢٦٥).

قال المؤلف رحمه الله:

الرابع: أنَّهم زعموا أنَّه دليل علىٰ دعاء كل غائب وميت من الصَّالحين، فخرجوا عما فهموه من الحَديث بفهمهم الفاسد إلىٰ أنَّه دليل علىٰ دعاء كل غائب وميت صالح، ولا دليل فيه أصلاً علىٰ دعاء الرَسُول ﷺ بعد موته، ولا في حياته فيما لا يقدر عليه، ثمَّ لو كان فيه دليل علىٰ ذلك لم يكن فيه دليل علىٰ دعاء الغائب والميت مطلقاً؛ لأن هذا قياس مَعَ وجود الفارق، وهو باطل بالإجماع إذا ما ثبت للنَبي ﷺ من الفضائل والكرامات لا يساويه فيه أحد، فلا يجوز قياس غيره عليه، وأيضاً فالقياس إنَّمَا يجوز للحاجة ولا حاجة إلىٰ قياس غيره عليه، فبطل قياسهم بنفس مذهبهم، هذا غاية ما احتجوا به ممَّا هو موجود في بعض الكتب المعروفة، وما سوىٰ هذه الأَحَاديث الثلاثة فهو ممَّا وضعوه بأنفسهم، كقولهم: (إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور) وقولهم: (لو حسن أحدكم ظَنه بحجر لنفعه) قال ابن القيم: وهو من وضع المُشركين عباد الأوثان.



الشَّرح

هذا تَنَزُّل من الشارح رحمه الله مَعَ فئة الخصومة، يقول: حتىٰ لو صح فليس فيه دليل علىٰ ما تقول، مَعَ أنَّ هذه الحادثة ليست حادثة سهلة وصغيرة بحيث لا تُنقَل، فكم نُقل ممَّا وقع علىٰ يد رَسُول الله عليه الصلاة والسلام من كرامات أو خوارق العادات ونقل ما هو أقل منها، فلو كان هذا الحَديث صَحيحاً لنُقل، أمَّا أن يُروىٰ فقط من شخص واحد بهذا السَنَد الضَعيف ممَّا يدل علىٰ عدم وقوعه، ثمَّ إنَّ الصَّحابَة رضي الله عنهم كم وقع لهم بعد موت رَسُول الله ﷺ من حوادث وفتن،

ولم نسَمَعَ أن أحداً من الصَّحابَة ﷺ توسَّل برَسُول الله ﷺ هذا عمر في عام الجَدْب والقَحط استسقىٰ بالعباس ﷺ ولو كان الاستسقاء بذات الرَسُول ﷺ جائزاً ما استسقىٰ بعمه، ولردَّ الصَّحابَة علىٰ عمر ﷺ، وقالوا: كَيْفَ تستسقىٰ بالعباس وتترك الرَسُول ﷺ، وبإمكانك أن تقول: اللهم إنا نستسقي إليك برَسُولك، فلو كان هذا جائزاً؛ لفعله أميرُ المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، ولما لم يفعله وفعل غيرَه علىٰ مَرأىٰ ومَشهد من جميع الصَّحابَة ﷺ ولم ينكر عليه أحد دل علىٰ أنَّ هذا الحَديث غير معروف عندهم، كذلك معاوية ﷺ في الشام عندما استسقىٰ بيزيد الجرشي بن الأسود ﷺ، فقال: يا يزيد ارفع يديك. واستسقىٰ به، فلو كان الاستسقاء برَسُول الله ﷺ معروفًا عندهم صَحيحًا ما لجئوا إلىٰ أحد الصَّالحين من أمته ﷺ. لكن الصَّحابَة ﷺ يعلمون أن الاستسقاء إنَّمَا يكون من الحي الذي يستطيع أن يدعو، أمَّا الميت فقد انقطع عمله، وإنَّمَا هذا الحَديث ممَّا وضع بعد الرَسُول ﷺ.

ونذكر هنا بعض الفوائد في ختام هذا الباب:

أولاً: أن الاستغاثة من أهم أنواع العبَادات التي يتقرب بها إلىٰ الله ﷻ، فإذا كانت أهم أنواع العبَادات؛ لا يليق أن تصرف لغير الله ﷻ.

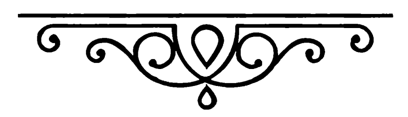
ثانياً: أن صرفها لغير الله ﷻ شرك أكبر، أي: من استغاث بغير الله فقد صرف حَقَّه لغيره، والفرق بَيْنَ الشرك الأكبَر والأصغَر هو أن الأكبَر في المقاصد، والأصغر في الوسائل، وهذه المقاصد عبادات شرعها الله لنا، فإذا صَرفتَ ما شرع الله لك أن تتقرب به إليه لغيره؛ فقد أشرَكت معه شركًا أكبر.

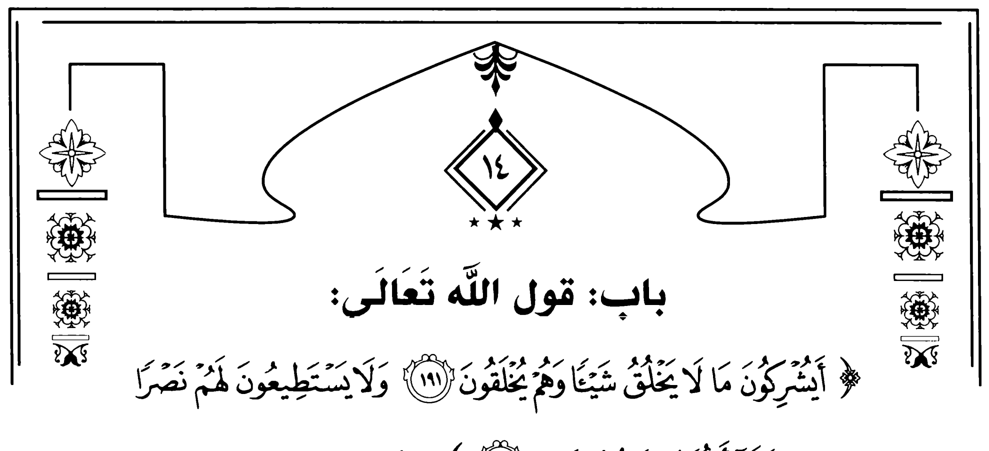
ثالثاً: أن شرك الجَاهليَّة الأُولَىٰ أخفُّ من شرك المعاصرين؛ لأنَّهم كانوا إذا وقعوا في مشكلة أو خطر أخلصوا الدّعَاء لله، لكن المُشركين بعدهم مشركون في الرخاء والشدة، بل لا تزيدهم الشدة إلا تمسكاً ببعض الصَّالحين أو الأوْليَاء في الدّعَاء.

رابعاً: أن الغُلُو في الأنبياء والصَّالحين من أكبر أسباب الشرك، وسيأتي هذا الباب أن الغُلُو في الأنبياء والصَّالحين من أكبر أسباب الشرك.

خامساً: أن الإنسَان لا ينبغي له أن يُخدع بمن ضلَّ عن سبيل الله ولو كان من أهل العلْم؛ لأنَّ هذه الأَحَاديْث أكثرَها يردّدها كثير من أهل العلْم الذين وقعوا في هذه الشركيات، ومرَّ قول عضو في هيئة كبار علماء بعض بلاد المسلمين بجواز الاستغاثة بالصَّالحين والأنبياء!.

سادساً: أن مسائل الدّين لا يجوز أن يُستشهد فيها إلا بما صحَّ من الدليل، هذا هو الأصل والقاعدة أنَّنا لا نعمل إلا بالصَحيح، ولا نستشهد إلا بالصَحيح، ولا نعبدُ الله إلا بالصَحيح، والمحَقّقون من أهل العلْم يُشَنّعون علىٰ من يروي المَوضُوعات والأَحَاديْث الضَعيفة ولا يبَيْنَ ضعفها ووضعها؛ لأن هذا غش للمسلمين، وقد يقع فيه العالم من غير قصد وبحسن نية.





باب: قول الله تعالى:

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝١٩١ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ۝١٩٢﴾ [الأعراف:١٩١، ١٩٢].

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ش: المراد من هذه الترجمة بيان حال المدعوين من دون الله أنَّهم لا ينفعون ولا يضرون، وسواء في ذلك المَلَائكَة والأَنبياء والصَّالحُون والأصنام، فكل من دعي من دون الله فهذه حاله كما قال تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝٧٣ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٧٤﴾ [الحج:٧٣، ٧٤].

الشَّرح

هذه الآية الكَريمة نُموذَج من النَّماذج القُرْآنية التي تقرر حَقّيقة التَّوحيد، والقُرْآن قد وردت فيه أساليب متنوعة، منها: التقرير المباشر، ومنها: أن يُورد المقصود في مثال، ومنها: أن يوردَه في قصة، ومنها: أن يُورده علىٰ طريقة الاستفهام الاستنكاري، فالقُرْآن استخدم كل الأساليب التي يستخدمها النَّاس في حياتهم في تقرير أشيائهم، وزاد عليها بتميُزه بأسلوبه الجديد، فإن العرب لم

تكن تعرف آنذاك إلا نوعين من الأساليب إمَّا الشعر وإمَّا النثر، والقُرْآن جاء بأسلوب جديد لم يألفوه، فليس شعراً وليس نثراً، بل أسلوب قرآني متفرد، هذه الآية الكَريمة بدأت بالنّداء، والنداء أحيانـًا يأتي للنَّاس عامة، وأحيانـًا يأتي للمؤمنين، وأحيانـًا يأتي للنَبي ﷺ، فهنا النداء لجميع النَّاس منذ عهد رَسُول الله ﷺ إلىٰ قيام الساعة، نداء عام يخاطب الله به البَشَرية جمعاء ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، فكل من كان من النَّاس مخاطب بهذا النداء، وإن كان الأصل أنَّه خطاب لمن أشرك بالله غيره، يقول العُلَماء: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ ضربه الله ﷻ، ولله أن يضرب الأمثال؛ لأن الله يعلم ما في المثال من فائدة ويعلم ما فيه من محاذير، فالله يضرب الأمثال، لكننا نحن لا يجوز أن نضرب الأمثال لله ﷻ؛ لأنَّنا لا نعرف ذات الله وصفَاته حتىٰ نضرب له الأمثال، ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ كل من دَعي من دون الله سواء كان دعاء مسألة أو دعاء عبَادَة، فلا ندري عن هؤلاء المُشركين الذين أشركوا مَعَ الله غيره، فدَعَوا الصَّالحين ودعَوا الأنبياء ماذا يُسمون عملهم؟

فكل من تدعونه من دون الله ﴿لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا﴾، اختار الله نوعـًا من أنواع خلقه، وهو الذُّبَاب، والنَّاس يَتقذَّرون من الذُّبَاب، وفيه من دقة الخلق والصنع والإعجاز ما في الفيل سواء بسواء، لَكنَّه صغير، وخلق الله عجيب وكثير وأنواع، وقد ضرب الله بالبعوض مثلاً، وتحت البعوض الجرثومة، وتحت الجرثومة الفَيروس الذي لا يرىٰ إلا بالمكبر، وهو خلق يتحرك وينطلق ويفعل ويُؤذي، وهذا شيء عجيب! ! أين ذهنه؟ أين تفكيره؟ كَيْفَ يأكل؟ كَيْفَ يتحرك؟ ، كَيْفَ يتزاوج؟ ولا يُرىٰ إلا بالمجهر، فخلق الله عجيب، فالذُّبَاب وإن كان مُستقذَراً لكنَّ الله ضرب به مثلاً ليدل علىٰ ضعف الذين يدعون من

دون الله أي: لن يستطيعوا أن يخلقوا ذباباً، ﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾، لو تجتمِعَ البَشَرية منذ خلق الله آدم إلىٰ قيام الساعة ليخلقوا ذباباً لا يستطيعون، فلماذا تدعونهم من دون الله إن كانوا عاجزين وضعفاء لا يستطيعون أن يخلقوا؟ كَيْفَ تعظمونهم؟! كَيْفَ تصرفون حَقّ الله لهم؟! والنَّحْلِ كالذُّبَاب في شكله، لكن شَتَّان بَيْنَ هما، النَّحْلة لا تقع إلا علىٰ الزهور والذُّبَاب تقع علىٰ القاذورات، ويقول علماء التَّشريح: إن من الغرائب أن الذُّبَاب من حيث أتيته يفرُّ، لأنَّه عنده حاسة من كل جهاته، لكن الذُّبَاب مَعَ حرصه الشديد تأكله العَنكَبُوت وتفترسه رغم حرصه. والعَنكَبُوت ذكر الله أن بيتها أوهن البيوت، ويقول علماء التشريح: في الذُّبَاب أكثر من أربعة آلاف عين! ! ، وفي العَنكَبُوت أكثر من مائتي عين! ! وشرّحت وكبّرت بمجهر ورُؤيت تلك العيون الدقيقة الصغيرة، فهذا الذُّبَاب الذي يرىٰ الفريسةَ من بعد وينطلق عليها انطلاقاً سريعاً كَيْفَ أنَّه -رغم ذلك- فإنَّه ضَعيف تصطاده العَنكَبُوت، بل بعض النبات يصطاده، فلو اجتمعت البَشَرية ليخلقوا ذباباً لا يستطيعون، فكَيْفَ تصرف حَقّ الذي خلق الذُّبَاب وما هو أكبر من الذُّبَاب لمخلوق ضَعيف؟

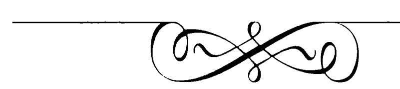
بل ليسوا عاجزين عن خلق الذُّبَاب فقط، بل ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ أي: لو أن الذُّبَاب وقع علىٰ إناء إنسان أو طعامه فامتص طعامه ما استطاع أن يلحَقّ ما امتصه منه، كَيْفَ يستطيع أن يخرجه؟ يقول علماء التشريح: الذُّبَاب منذ يمتص ذلك الطعام أو الشراب يحيله في فمه إلىٰ مادة أخرىٰ! الطعام نفسه انقلب إلىٰ مادة أخرىٰ، فلو أرادوا أن يستنقذُوه بالتشريح ما يستطيعون مَعَ أن في العصر الحاضر التشريح للمخلوقات والحشرات مُيَسَّر، لكن حتىٰ لو مسكوه وشرحوه عن طريق العلْم الحَديث أو الأجهزة الحَديثة ليُخرجَ ما امتص من طعام إنسان لا يستطيعون، إذا كان هذا

الذُّبَاب الصغير الذي كلنا نستقذره وما من إنسان إلا وقد يؤذيه: يقع علىٰ أنفه أو علىٰ وجهه ثمَّ يطرده، ويرجع ويعجز عن رده فمَعَ ذلك فإنَّه ضَعيف، ولا يستطيع من تعبدُون من دون الله أن يخلقوا ذُباباً ولو اجتمعوا له، ثمَّ قال في آخر الآية: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ الذُّبَاب ضَعيف، ومن تدعونه من دون الله ﷻ ضَعيف. فهذه الآية والآيَات الكثيرة تدل علىٰ أن الدّعَاء حَقّ الله لا يستغاث إلا بالله ولا يُدعىٰ إلا الله، ولا يُرجىٰ إلا الله، ومَعَ ذلك يأتي الجهلةُ وهم يقرءون القُرْآن الكَريم ويقرءون السنة، وكلها بألفاظ عربية صريحة واضحة، ومَعَ ذلك يختلقون الأَحَاديْث والآثار ويبحثون عن الأَحَاديْث التي لا تُعرف؛ ليستشهدوا بها علىٰ تبرير شركهم ودعاء غير الله ﷻ.

ثمَّ قال ﷻ: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الحج:٧٤]، هذا هو السبب الكبير الذي وقع فيه النَّاس، ما عظموا الله، بل عظموا المخلوق، وعظموا الصَّالحين، وفي غمَرَّة تعظيم المخلوق نسوا تعظيم الخالق، وإلا فلو عظموا الخالق كَيْفَ يدعون المخلوقَ مَعَ الله؟ كَيْفَ يصرفون حَقّ الخالق الذي خلقهم وخلق الصَّالحين والأَوْلِيَاء والأَنبياءَ والمَلَائكَة إلىٰ المخلوق؟! لا يقع فيه إلا من خُذل، أعاذنا الله منه.

وحَقّ الأَنبياء والصَّالحين أن نتقرب إلىٰ الله بمحبتهم وبدعائهم، ونتقرب إلىٰ الله بآرائهم، أحياناً يكون العالم له رأي صواب فنستأنس برأيه في الحوادث الجديدة؛ لأنَّ العالم ينظر بنور الله إذا وفقه الله وكان مخلصاً في نظرته وفي اجتهاده، فنستأنس برأيه فيما يجدُّ من حوادث وما يجدّ من قضايا، هذه تكون كلها بإذن الله مباركة، وكم من رأي سليم يقوله العالم الصالح يُنقذ اللهُ به أمة، فهذه التي نتبرَّك بها، وأمَّا أدواتهم فلا يُتبرَك بها إلا ما كان فقط للأَنبياء؛ لأنَّ الأَنبياء معصومون حياةً وموتاً، أمَّا غيرُ الأَنبياء فليسوا

معصومين، ولهذا لم نسَمَعَ عن أحد من الصَّحابَة رضي الله عنهم تبرَّك بأحد ممن هو أفضل منه ولم نسَمَعَ عن التَّابعين تبرَّك بأحد ممن هو أفضل منهم من الصَّحابَة رضي الله عنهم.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ويكفيك في ذلك قوله تَعَالَىٰ لأكرم الخلق: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ [الجن:٢١-٢٣].

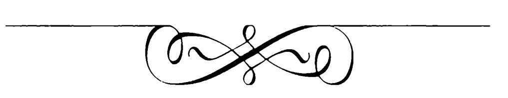
وقال: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٨٨].

الشَّرح

قوله تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا ...﴾ وهذا أسلوب آخر من أساليب القُرْآن، يعلمنا التَّوحيد عن طريق الخطاب والأمر لرَسُول الله ﷺ ليخبرنا مَعَ أنَّ القُرْآن جاء يخاطبنا بالتَّوحيد، لَكنَّه لمزيدٍ من العَناية بالتَّوحيد؛ لأنَّ الله يعلم أنّ القلوب تتعلق بالصَّالحين، وتتعلق بالأنبياء، فأراد أن يجري هذا علىٰ لسان رَسُوله - عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ -. قل يا مُحمَّد: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾ فإن الُملك كله لله، ثمَّ قال بعدها: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ [الجن:٢٢]، فأنا عبد لله محكوم بقضاء الله، مُسير بأمر الله، ولا يستطيع أحد من خلق الله أن يمنعَ عني عذاب الله إن أنا أخطأت أو وقعت فيما لا يرضي الله، ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ أي: لن أجدَ سبيلاً أو مهرباً أهرب إليه يحميني من الله، فإذا كان هذا رَسُولُ الله ﷺ يُعلن خوفه من الله إن وقع فيما يغضب الله ويعلن براءته وعجزه عن النَّفْع والضُّر، فكَيْفَ يُدعَىٰ رَسُولُ الله ﷺ، أو يُدعىٰ غيرُه من

النَّاس، ثمَّ قال: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣]، هذا الاستثناء مربوط مُتعلق بأول الآية: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾ [الجن:٢١] ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ﴾. هذا عملُه، هذه مهمُته، التبليغُ والبيانُ للرسالة التي أرسله الله بها.

قوله تَعَالَىٰ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الأعراف:١٨٨] وهذا أسلوب آخر، هناك أعلن عجزَه عن أن يملك لغيره، قد يقول قائل: أنَّه يملك لنفسه، فقال: لا أملك حتىٰ لنفسي، فيقول ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف:١٨٨]، كم من ابتلاءات أصابته في غزوة أحد، وقد وضع أبو عامر الفاسق حفرة وغطَّاها بالحشائش، فوقَع فيها رَسُول الله ﷺ، لو كان يعلم الغَيْب ما وقع في الحفرة، ثمَّ كذلك كان يمرض، والمرض له أسباب، لو كان يعلم الغَيْب كان عرف أسباب المرض وما وقع فيه، فهذا رَسُول الله بشر، وإن كان أفضل البَشَر، وسيد البَشَر، وأتقىٰ البَشَر، لَكنَّه يَبقىٰ في دائرة العُبُودية، فهذه أنواع في بيان التَّوحيد، ومَعَ ذلك نقرأ القُرْآن ونقع في الشرك بالله ﷻ .



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفرقان:٣٠]. ومن المعلوم أَنَّهم كانوا قد عبدوا المَلَائكَة والأَنبياء والصَّالحين، ولهذا أخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن المَلَائكَة أَنَّهم يتبرؤون منهم يوم القيَامة كما قال تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [سبأ:٤٠، ٤١].

إذا تبَيْنَ ذلك فحاصل كلام المفسرين علىٰ الآية المترجم لها أن قوله تَعَالَىٰ: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ ﴾ [الأعراف:١٩١] توبيخ وتعنيف للمشركين، بأَنَّهم يعبدون مَعَ الله تَعَالَىٰ عباداً لا تخلق شيئًا، وليس فيها ما تستحَقّ به العبَادة من الخلق والرزق والنصر لأنفسهم أو لمن عبدهم، وهم مَعَ ذلك مخلوقون محدثون ولهم خالق خلقهم، وإن خرج الكلام مخرج الاستفهام فالمراد به ما ذكرناه.

وقوله: ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ ﴾ [الأعراف:١٩٢]. أي ويشركون به ويعبدون من هذه حاله لا يستطيع نصر عابديه، ولا نصر نفسه بأن يدفع عن نفسه من أراد به الّضُّر، ومن هذه حاله فهو في غاية العجز، فكَيْفَ يكون إلهـًا معبوداً؟ وجميع الأَنبياء والمَلَائكَة والصَّالحين وغيرهم داخلون في هذه الأوصاف، فلا يقدر أحد منهم أن يخلق شيئًا، ولا يستطيعون لمن عبدهم نصراً، ولا ينصرون أنفسهم، وإذا كان كذلك بطلت دعوتهم من دون الله.

الشَّرح

مفهوم الآية أنَّه لا يُعبدُ إلا من يَخلُق، ولا يُعبدُ إلا من يملك الضُّر والنَّفْع، ولا يُعبد إلا من يملك البعثَ والحشرَ والنشرَ يوم القيَامة، فإذا كانوا لا يملكون لا يستحَقّون أن يُعبدوا مَعَ الله ﷻ.

قوله تَعالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ﴾ [سبأ:٤٠] هذا أسلوب جديد، فالله ﷻ يذكر ما سيحدث يوم القيَامة؛ لأنَّ الله يعلم الغَيْب الذي مضىٰ، والغَيْب الحاضر، والغَيْب الذي لم يأت، وسيأتي الغَيْب المستقبل كما أخبر الله ﷻ؛ لأنَّ الله لا تخفىٰ عليه خافية، فكل في علم الله سواء، فيخبر الله أن يوم القيَامة يسأل الله المَلائكَة، هل هؤلاء كانوا إياكم يعبدون؟ قالوا: سبحانك نبرأُ إليك، لم نرضَ بهذا بل كانوا يعبدون الجنَّ، أي الشَّيَاطن، فهذا نُموذَج آخر من نماذج تقرير مسألة التَّوحيد.

قوله تَعالَىٰ: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ ﴾ [الأعراف:١٩١] هنا الاستفهام للإنكار، واستنكار عملهم، أي كَيْفَ يشركون ما لا يخلق شيئاً؟ ، والعبَادة لا تكون إلا لمن يخلق، وهذا من لله وحده، فصَرفُه للمخلوق اعتداء علىٰ حَقّ الخالق ﷻ.

والذين يشركون مَعَ الله ﷻ غيره من الأنبياء والصَّالحين قد يقولون: نحن ما نعبدهم، إنَّمَا نحن نسألهم ما يستطيعون أن يفعلوه، فهم يستطيعون أن يفعلوا بأن يضيفوننا، وبأن يتوسطوا عند الله لنا، فنقول: لو قال شخص بخلافه أنَّهم لا يستطيعون، وأنَّهم لا يسَمعون، ولا يقدرون أن ينفعوا أو يضروا، فما الفرق بَيْنَ القولين؟ لا فرق بَيْنَ هما إلا بالدليل، ولو قال شخص: أنا أسأل

هذا الحجر فإن فيه خاصية خاصة، ينبعث منه عندما أدعوه أشعة إلىٰ السَّمَاء، وهذه الأشعة تكون علامة علىٰ أن الحجَر قد توسط إلىٰ الله، فهذا القول مثل قولكم، ما الفرق بَيْنَ هما؟ فكل من يدعىٰ دعوة، يستطيع المخالف أن يدعي دعوة تخالفها، فلا يقبل الكلام إلا بالدليل، وليس عندكم دليل من الكتاب والسُّنة أو فعل الصَّحابَة، بل كلها أمور حادثة بعد العصر المفضل.

الأن العالم الإسلامي مملوء بهذه الأحوال، ولا تكاد تجد دولة ولا مدينة ولا قرية إلا بها، بل القرية الواحدة تكون في كل جهة من جهاتها قبور يستغاث بأصحابها، ويدعىٰ أصحابها ويرجون من دون الله، حتىٰ يقال من باب الطرفة: إن هناك قرية في بعض البلاد الإسلامية في كل جهة من جهاتها قبر، وهذا القبر عليه قبة وعليه مسجد، والنَّاس هناك ينقسمون علىٰ أربعة أقسام كل قسم يؤيد ما بجهته من هذه الأوثان، فلو سرق سارق من القرية شيئاً وخرج من أي جهة، ينادون يا صاحب القبر عليك به ردَّه، فإذا لم يرده وهرب اللصّ غضبوا علىٰ صاحب القبر وأطفئوا القناديل أسبوعاً كاملاً عليه، إذا كان هذا عاجزاً أن يوقد تلك القناديل التي علىٰ قبره، فكَيْفَ يستطيع أن يمنع الحرامي وأن ينصرك؟! ؛ فهذا من ضعف العَقْل البَشَري، يتعلق بما يتوهمه حَقّيقةً، والمسلم أرقىٰ وأشرف وأعلىٰ من أن يخضع للأوهام، المسلم دينُه دين علم، دين حَقّيقة، لا نقبل شيئاً إلا بدليل صَحيح صريح، فهذا الذي يجعل الإنسَان المسلمَ إنساناً متميزاً صاحبَ كرامة، إنساناً عَزّيزاً. الشرك: انحطاط، الله يقول: لا تعبدْ خلقي، هؤلاء كلهم مثلُك محتاجون. اعبدني أنا، لم تأبىٰ إلا أن تعبد المخلوق المحتاج؟! ، هذا في غاية السفه وغاية الانحطاط، والله قد كرَّمك بل أسجد لك المَلَائكَة تكريماً لك، ومَعَ ذلك تأبىٰ إلا أن تسجد للمخلوق وتدعو للمخلوق، وتستغيث بالمخلوق، وتنزل حاجتك بالمخلوق وتترك الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالشاهد أن الذي يخرج إلىٰ العالم الإسلامي يرىٰ عجبًا لا يكاد يُصدق ما يقال وما يُسَمع، بل يرىٰ عجائب وغرائب، فإذا كان العالم الإسلامي بهذا الوضع كَيْفَ ينتصر علىٰ الكفار، كَيْفَ يُبلّغُ الإسلام. النَّاس يرون في المسلمين صورَ الوثنية القديمة الأُولَىٰ، إنسان عاقل يأتي يتبركُ بالميت، ويدعوه ويذل له، ويقدم المال له، فيصُدَ النَّاسَ عن دين الله؛ لأن النَّاس يعقلون ويفهمون، فإذا رأوا المسلمين بهذه الحال يمتنعون عن دين الله، والمسلمون مطالبون بأن يبلّغوا الرسالة، فإذا لم يلتزموا بأنفسهم في أنفسهم، فكَيْفَ يبلغون ما يخالفونه؟ ، فتصَحيح العقائد ينبغي أن يكون هو الأساس في العودة إلىٰ هذا الدّين وتبليغه، والذي لا تظهر عليه بركات هذا الدّين لا يكون قوله صادقًا في الدعوة إليه، فالذي يُشرك مَعَ الله غيره عندما يدعو النَّاس إلىٰ هذا الدّين لا يدعوهم إلىٰ أن يدعوا الله ويقول: تعالوا ادعوا الشَّيْخ فلانًا، فهو بهذا لا يدعو إلىٰ الدّين، بل يدعو إلىٰ الشرك، فحال المسلمين حال يرثىٰ له، وما لم تتغير حال المسلمين فلن يكون لهم نصر من الله، ولا توفيق من الله ولا بركة من الله، تلك كلها مربوطة بتوحيدهم لله ﷻ، فالتَّوحيد هو أساسُ عودة الإنسَان وسعادته، وأساسُ الإيمان أن يوَحِّد الله، لكن يوجد كتب كثيرة قد ألفت لتقرير الاستغاثة والعبَادة لغير الله ﷻ، وقد مر قصة الذي جاء من المغرب وزار قبر النَّبي ﷺ ولم يحج إلىٰ بيت الله الحرام، وقال هذا يكفيني، فعصىٰ رَسُول الله ﷺ الذي نهىٰ عن شدّ الرّحال، وجعل قبره وثنًا، قال ﷺ: **(اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد)**(١)، وتَركَ الحج الذي هو ركن من أركان الإسلام، كل ذلك

---

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ، كتاب الصلاة، باب جامعَ الصلاة، برقم: (٤٧٥)، (١/ ٢٤٣)، والإمام أحمد في المسند، برقم: (٧٣٥٨)، (١٢/ ٣١٤)، والبيهقي في معرفة السنن والآثار، بناء المساجد علىٰ القبور، برقم: (٢٣٧١)، (٦/ ٣٣٨)، وابن أبي شيبة في المصنف، =

مـن الخـذلان، مـن الجهـل بـدين الله ﷻ، وبعضـهم يؤلـف كتابـاً في جـواز الاستغاثة برَسُول الله ﷺ، هـذه كلهـا مظـاهر شـركية في العـالم الإسـلامي، ولا يَصُدها ولا يرفعها إلا العلْم الشَّرْعي المستقىٰ من كتاب الله وسنة رَسُوله عليه الصلاة والسلام.

= كتاب الصلاة، باب الصلاة عند قبر النَّبِي ﷺ وإتيأنّه، برقم: (٧٦٢٦)، (٥/ ١٧٩)، وعبد الرزاق في المصنف، كتاب الصلاة، باب الصلاة علىٰ القبور، برقم: (١٥٨٧)، (١/ ٤٠٦)، وأبو يعلىٰ في المسَنَد، برقم: (٦٦٨١)، (١٢/ ٣٣)، وهذا لفظ الموطأ.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: وقوله تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ [فاطر:١٣].

ش: حاصل كلام المفسرين كابن كثير وغيره أَنَّه تَعَالَىٰ يخبر عن حال المدعوين من دونه من المَلَائكَة والأَنبياء والأصنام وغيرها، بما يدل علىٰ عجزهم وضعفهم، وأَنَّهم قد انتفت عنهم الشروط التي لا بد أن تكون في المدعو، وهي الملك وسماع الدّعَاء والقدرة علىٰ استجابته، فمتىٰ عدم شرط بطل أن يكون مدعواً، فكَيْفَ إذا عدمت كلها، فنفىٰ عنهم الملك بقوله: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطاء والحسن وقتادة: القطمير اللفافة التي تكون علىٰ نواة التمر، أي ولا يملكون من السموات والأرض شيئًا، ولا بمقدار هذا القطمير كما قال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [النحل:٧٣]، وقال: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [سبأ:٢٢]، فمن كان هذا حاله فكَيْفَ يدعىٰ من دون الله؟

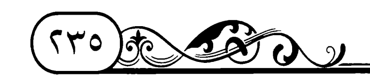
ونفىٰ عنهم سماع الدّعَاء بقوله: ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ ﴾ [فاطر:١٤]، أي: أن الآلهة التي تدعونها لا يسَمعون دعاءكم؛ لأَنَّهم أموات أو ملائكة مشغولون بأحوالهم مسخرون لما خلقوا له أو جماد، فلعل المُشرك يقول هذا في الأصنام، أَمَّا المَلَائكَة والأَنبياء والصَّالحُون فيسَمعون ويستجيبون، فنفىٰ سُبحانَه ذلك بقوله: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ أي لا يقدرون علىٰ ما تطلبون منهم، وما خص تَعَالَىٰ الأصنام بل عم جميع من يدعىٰ من دونه، ومن المعلوم أَنَّهم كانوا يعبدون المَلَائكَة والأَنبياء والصَّالحين، كما ذكر الله تَعَالَىٰ ذلك في

كتابه، فلم يرخص في دعاء أحد منهم، لا استقلالاً ولا وساطةً بالشَّفَاعَة، وقوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ كقوله: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم:٨١، ٨٢].

الشَّرْح

قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ [فاطر:١٣]، هذه الآية الثانية أيضـاً تقرر عجز المدعوين من دون الله، بأنَّهم لا يَملكون، وقال في السابق: ﴿لَا يَخْلُقُونَ﴾، وهنا قال: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾، وجاء فيما يتعلق بالنواة ثلاث أشياء، قطْمير، ونَقير، وفَتيل، القطمير: هو القشرة الصغيرة فَوقَ النواة، إن تنفخها بفمك تطر، والنقير: هو الحفرة الصغيرة في داخل النواة، والفتيل: ما يأتي في الشق الذي في وسط النواة من فتيل صغير، ذلك كله لبيان أنَّهم لا يملكون، وأنَّهم فقراء وأنَّهم ضعفاء، ومَعَ ذلك يأبىٰ الإنسَان الضَعيف إلا أن يدعو هذا الفقير الضَعيف ويترك الغني سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي يفتح بابه ليلاً ونهاراً لمن أراد أن يدعوه.

كل هذه الآيَات التي أوردها الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ تقرر قضية التَّوحيد، وأن الدّعَاء لا يجوز إلا أن يكون لله ـ سواء كان دعاء عبَادَة أم دعاء مسألة ـ في صور مختلفة وأساليب متنوعة، كلها تبيْنَ أنَّ الذين يدعون من دون الله لا يسَمعون، فإن كان جمادًا لا يسَمَعَ أصلاً، والميت لا يسَمع، والحي إذا كان كالمَلَائكَة ونحوهم فإنَّه مشغول بما كلَّفه الله به، فإن المَلَائكَة خلق مسخر يعمل ما كُلّف به، ولا يلتفت إلىٰ غيره، وليس موكلاً إليه غير عمله، فتدعون من لا يسَمعون دعاءكم، ولو سَمعوا ما استجابوا لكم؛ لأنَّه ليس هذا عملُهم ولا يملكون، بل إنَّمَا الذي يدعىٰ هو الله جَلَّ وَعَلَا، هو الذي يسَمَعَ الدّعَاء ويجيب الداعي.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا نص صريح على أن من دعا غير الله فقد أشرك بشرطه، وإن المدعوين يكفرون به يوم القيامة ويتبرؤون منهم كقوله تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [البقرة:١٦٦] فهل على كلام رب العزَّة استدراك؟ ولهذا قال: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [فاطر:١٤]، أي ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها، وما تصير إليه مثل خبير بها، قال قتادة: أي: نفسه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فإنَّه أخبر بالواقع لا محالة.

قال: وفي الصَحيح عن أنس قال: (شج النَّبي ﷺ يوم أحد، فقال: كَيْفَ يفلح قوم شجوا نَبيهم، فنزلت: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ [آل عمران:١٢٨].

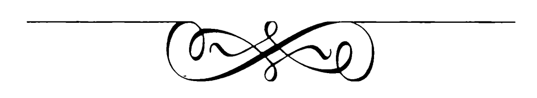
الشَّرح

قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [فاطر:١٤]، هذا الختام في هذه الآية يبيْنَ أن الله -عَزَّ وَجَلَّ- هو أعرف بنفسه وبحَقّه، فإذا أراد المسلم أن يعرف حَقّ الله عَزَّ وَجَلَّ، أو ما له من الأسماء والصفَات والأفْعَال فإنَّه يسأله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - بقراءة كتابه، فإن القُرْآن قد اشتمل على كل ما أراد الله، وكذلك يبيْنَ أسماءه وصفَاته، فلا تسأل غيرَه، فإنَّه لا ينبئك مثل خبير، والله هو الخبير في هذه الأمور وفي غيرها.

قوله: (قال وفي الصَحيح عن أنس. .) هذا الحَديث الأول من أحاديث المَتْن، وهو أن نَبيّنا ﷺ في غزوة أحد شُجَ في وجهه، فدعا عليهم، فأنزل الله:

﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨][(١)]، وهو نَبي الله المختار، وقد أوذي وقوتل، لكن ليس في قضية التَّوحيد تسامُح، هذا حَقّ الخالق، والخَلق خلقُ الله، والعبَاد عباد الله، وهذا رَسُول الله ﷺ يقول له الله: يا مُحَمَّد ليس لك من الأمر شيء، الأمر كله لله، إن شاء هداهم، وإن شاء عاقبهم، وإن شاء أضلهم، ولك مهمة، وهي: أن تبلغ الرسالة، وأن تقاتل لرفع راية الإسلام، لكن ما يخص النَّاس من عقاب أو عذاب أو ضلال أو هداية فإنَّه من أمر الله، فليس لك من الأمر شيء، كما جاء في آية أخرىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ [القصص:٥٦].

فهـذا بيـان أن الله مُتفـرّد في خلقـه، في إضـلالهم وهـدايتهم، وفي عقـابهم وثوابهم في الدُّنيَا والآخرة، فهذه الآية تبيْنَ أن الأمـر كلـه بيـد الله ﷻ، فـإذا كـان الأمرُ كلُه بيد الله فلا يَصرفُ العبدُ قلبَه ولا وجهه عن الله- سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -.



(١) أخرجه البخاري معلقـًا، كتـاب المغـازي، بـاب قولـه تَعَـالَىٰ: (لـيس لـك مـن الأمـر شـيء أو يتـوب علـيهم أو يعـذبهم فـإنَّهم ظـالمون)، ص٧٧٢، ومسـلم في صَـحِيحه، كتـاب الجهـاد والسير، باب غزوة أحد، برقم: (١٧٩١)، (٣/ ١٤١٧).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ش: قوله (في الصَحيح) أي الصَحيحين، فعلقه البُخَاري عن حميد وثابت عن أنس، ووصله أَحَمدَ والترمذي والنسائي عن حميد عن أنس به، ووصله مسلم عن ثابت عن أنس، وقال ابن إسحاق في المغازي: حدثني حميد الطويل عن أنس قال: (كسرت رباعية النَّبي ﷺ يوم أحد، وشج في وجهه، فجعل الدم يسيل علىٰ وجهه، وجعل يمسح الدم وهو يقول: كَيْفَ يفلح قوم خضبوا وجه نَبيهم وهو يدعوهم إلىٰ ربهم، فأنزل الله الآية).

الشَّرح

هذه رواية في المغازي، أمَّا الراوية في الصَحيح فإنَّه سيأتي أنَّه ﷺ دعا عليهم، وقنت عليهم، فأنزل الله: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [آل عمران:١٢٨].

فتاب الله علىٰ كثير ممن كانوا في غزوة أحد في جيش المُشركين، والرَسُول ﷺ لا يعلم الغَيْب، لكن الله يعلم أن كثيراً ممن كان في هذه الغزوة يحارب الله ورَسُوله سيصبح بعد ذلك جندياً لله ورَسُوله، فالله يقول: يا مُحَمَّد ليس لك من الأمر شيء، لكن الله ما أخبره؛ لأنَّ الله مُتفرّد بخلقه، وإن كان مُحَمَّد نَبيه، لكن الله خالقُ الكون، والخالقُ غير المخلوق- وإن كان للرَسُول ﷺ مَكَانَة عند الله - لكن يبقىٰ في دائرة العُبُودية، فيقول: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ فإذا كان هذا في أمرٍ تعلَّقَ بدعوته وبحياته فكَيْفَ بما يتعلق بالعبَاد الآخرين؟ ، فليس له من الأمر شيء، لا يجيبُ النَّاس ولا يغيثهم ولا ينصرهم، ولا يرزقُهم، ولا يحييهم ولا يميتُهم، كل ذلك من أمر الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قولـه: (شـج النَّبـي ﷺ) قـال أبـو السـعادات: الشـج في الـرأس خاصـة في الأصـل، وهـو أن يضـربه بشـيء فيجرحـه فيـه ويشـقه، ثـمَّ اسـتعمل في غيـره مـن الأعضاء، وذكر ابن هشام من حديث أبي سعيد الخدري: أن عتبة بن أبي وقـاص هو الذي كسر رباعية النَّبي ﷺ السفلىٰ، وجـرح شـفته السفلىٰ، وأن عبـدالله بـن شهاب الزهري هو الذي شجه في جبهته، وأن عبـدالله بـن قمئة جرحـه في وجنتـه، فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنتـه، وأن مالـك بـن سـنان مـص الـدم مـن وجه رَسُول الله ﷺ، ثمَّ ازدرده.



الشَّرح

قوله: (ثمَّ ازدرده) أي: ابتلعه لكن بعض العرب تقلب الصاد إلىٰ زاي.

هذه جملة من الحَديث السابق: (شج النَّبي يوم أحد ﷺ، فقال: كَيْفَ يفلح قوم شجوا نَبيهم، فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨](١)، يقول أبو السعادات وهو ابن الأثير: الشج في اللغة يكون في الرأس خاصَّة، وهو أن يضربه بشيء فيجرحه فيه ويشقُّه، ثمَّ استُعمل في غيره من الأعضاء، هذا الكلام مبني علىٰ قاعدة المجاز والحَقِّيقة في اللغة، فقوله: (في الأصل) أي: أن العرب استعملت الشجَّ في الرأس، ثمَّ بعد ذلك توسعوا فأطلقوه علىٰ ما يقعُ في بقية الأعضاء، ولكن هذه القاعدة في الحَقِّيقة لا تثبت أَمَام النقد؛ لأنَّ كونَ العرب استعملوا هذه الكلمة في معنىٰ، ثمَّ نقلوها بعد ذلك في معنىٰ آخر قضية تاريخية تحتاج إلىٰ نقل، ولم يُنقل لنا عن العرب هذا، ولم ترد كلمة

---

(١) سبق تخريجه.

واحدة عن قدماء النُّحاة من أهل اللغة كسيبَويه والكسَائي ومن كان في طبقتهما، أو قبلهما كالخليل بن أحَمدَ وغيره، لم ينقلوا لنا أن العرب استعملوا الألفاظ في معنىٰ كذا ثمَّ نقلوها إلىٰ معنىٰ كذا، إنَّمَا هذه كلها استنباطات من المتأخرين من علماء اللغة، وخاصَّة الذين تأثروا بعلم الكلام من المُعْتَزلَة وغيرهم.

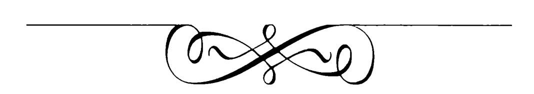
وهذه القاعدة كانت سبباً في إفساد عقيدة المسلمين؛ لأنَّهم كلما جاءوا إلىٰ آية فيها بعض القضايا الغَيْبية قالوا مجاز، فنأتي إلىٰ الذين أخطئوا في تأويل الأسماء، وقالوا: إن صفَات الله مجاز، وطائفة ثانية قالوا: إن أسماء الله مجاز، وطائفة ثالثة: قالوا: إن ذكرَ الحلال والحرام في الدّين مجاز، وطائفة رابعة قالوا: إن ذكر اليوم الآخر في الدّين مجاز، ماذا بقي من الدّين؟ ، فكل ما نقرأه في كتاب الله وسنَّة رَسُوله ﷺ مجاز، ولهذا قال ابن جني وهو من علماء النحو المتأخرين أي في القرن الرابع يقول: أكثر اللغة مجاز، حتىٰ لو قلت: إن الله قادر يكون مجازاً؛ لأن عند المتعَزِّلة لا يَقدر الله علىٰ أن يغير فعل العبد، وهكذا سلبوا الدّين أهم ما فيه كالعقيدة وكالعقود بَيْنَ النَّاس، لو وضع عقد بَيْنَ إنسان وآخر علىٰ تجارة أو تنفيذ عمل، ثمَّ إذا جاء في التنفيذ قال: أنا ما أردت الحَقّيقة، أردت المجاز، وابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول لو أدخلنا المجاز في قضايا الدُّنيَا فإنَّها تفسد، فما بالك بالدّين، فهذا التقسيم في الحَقّيقة عليه مآخذ ولا يُسلَّم لأصحابه، وابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب (الصواعق المُرسَلة) أبطله من أكثر من أربعين وجهاً، وكان يسميه: الطاغوت، يقول: هذه القاعدة تسبب عنها إفساد لعقيدة المسلمين، وتفريق للأمة.

فهذا المعنىٰ هو الذي أشار إليه ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وابن الأثير صاحب جامَعَ الأصول متأثر بعلم الكلامِ، وإن كان ليس هو من المنظرين لعلم الكلام

كالجبائي والنظام والعلاف وغيرهم من هـؤلاء الـذين شـطحوا، لَكنَّـه رَحِمَهُ اللَّهُ مـن المتـأثرين، والمُتكلمـين المتـأخرين، لكـن هـذه القاعـدة وإن كانـت تـدَّرس في جميـع مـدارس العـالم الإسـلامي بـدون اسـتثناء وكـذلك في التفسـير فإنَّهـا قـد جنَت علىٰ الإسلام والمسلمين أمراً عظيماً، قد يقول قائل: كَيْفَ نعرف الفـرق بَيْنَ معاني الكلمة مـن مكـان لآخـر؟ نقـول: كلهـا أسـاليب عربيـة، والمـتكلم لا يخلوا كلامه من قرائن تدل علىٰ مراده، أي أسلوب سواء كان حَقّيقـة أو مجـازاً علىٰ تقسيماتهم، لا يخليه من قرينة، لو قال إنسان: رأيت أسداً يتبـادر في الـذهن الأسد الحيوان؛ لأنأكثر ما نذكر في هذه الكلمة علىٰ الأسد الحيـوان، ولكـن لـم يأت بقرينة، فما يستطيع إنسان أن يقول: أراد كـذا، لابـد أن يـأتي بقرينـة، أمَّـا أن يقول: رأيت أسداً في الغابة فتعرف أنَّه أراد الحيوان، وأمَّا أن يقـول: رأيـت أسـداً علىٰ المنبر، فتعرف أنَّه أراد إنساناً، فلا يُعرفُ الكلام إلا بالقرائن، فنقول: كلُهـا وضعت وتكلَّم العرب بها في مواطنها، فكلها حَقّيقة؛ لأنّ الألفاظ إنَّمَا يؤتىٰ بها لبيان معنىٰ من المعـاني، فـإذا دلَّ الكـلام علـىٰ المعنـىٰ المـراد كـان حَقّيقـة، ولا داعي لهذا التقسيم.

يقول علماء الأصول، وكذلك علماء اللغة، وإن كـان بعضـهم يخـالف: إن من علامة المجاز أنَّه يجوز نفيه، أي: إذا قال شخص رأيـت أسـداً علـىٰ المنـبر، تقـول: كـذبتَ إنَّمَـا رأيـت إنسـانـاً، فهـل يجـوز أن نقـول: أنَّ في كـلام الله شـيئاً يجوز نفيه؟ لا يجـوز، ولا في كـلام رَسُـول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وإن كـان بعضـهم يتحـرج يقول: نجيز المجاز في اللغة ولا نجيزه في القُرْآن. مـا هـو الـدليل؟ القُـرْآن نـزل بلغة العرب، واستعمل أسـاليب العـرب، فـإذا أجـزت في العربيـة أسـلوبـاً كَيْـفَ تمنعه مـن كتـاب الله؟ وبـأي دليـل؟ وقـد ذكـر الله أنَّـه عربـي مُبَيْنَ، فهـذا القـول ضَعيف، لكـن نقـول: كلُهـا أسـاليب لغويـة، ولـذا سيبويه في الكتـاب لـم يـذكر

المجاز، وألَّف بعد الخليل بن أحَمدَ، وكذلك الخليل بن أحَمدَ، إنَّمَا سيبويه رَحِمَهُ اللهُ أشار إلىٰ هذه المسألة وقال: هذا من اتساع كلام العرب، العرب تتسع تطلق الكلمة علىٰ محلّا ت كثيرة، لكن لابد من وجود قرينة في السياق تدل علىٰ مراد المتكلم، وإلا فإن المتكلم إذا لم يأت بقرينة يكون يُعمّي البيان، لكن إذا أراد البيان لابد أن يذكر قرينة تدل علىٰ مراده، فهنا قول ابن الأثير رَحِمَهُ اللهُ جاء علىٰ الأصل الذي تناقلته كتب اللغة إلىٰ اليوم.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فقال له: لن تمسك النَّار. وروى الطَّبَرَاني من حديث أبي أمامة قال: (رمى عبدالله بن قمئة رَسُول الله ﷺ يوم أحد، فشجه في وجهه وكسر رباعيته، فقال: خذها وأنا ابن قمئة، فقال رَسُول الله ﷺ: مالك أقمأك الله، فسلط الله عليه تيس جبل، فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة).



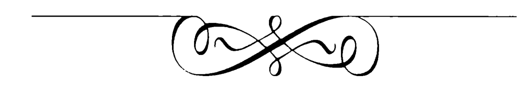
الشَّرح

قوله: (فقال له لن تمسك النَّار)[1] هذا الحَديث كما ذكر هنا فيه شخص ضَعيف وهو مصعب بن الأسقع، قال فيه البُخَاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مُنْكَر الحَديث، مُنْكَر الحَديث قد يطلق على الإنسَان الذي يأتي بحديث يخالف فيه الثقات، لكن لو قيل الحَديث مُنْكَر فقد يطلق على ما صح من الحَديث ويكون مخالفاً للثقات، ويكون ثقَة، وكذلك الضَعيف إذا جاء بحديث وخالف فيه الثقات قد يقال فيه مُنْكَر، لكن بعض المحدثين يرى أن يسمى الحَديث الذي رواه الثقَة مخالفاً للثقات بشاذ ولا يسمى مُنْكَراً؛ لأنَّ كلمة مُنْكَر تخصص للضَعيف إذا خالف الثقات، لكن هنا نفس الشَّخْص أحاديثه مُنْكَرة، أي: لا يعرفها أهل العلْم، فأحياناً إذا روى الطالب عن شيخ حديثاً أو أحاديث وكان شاركه في الأخذ عن هذا الشَّيْخ ثقات كثيرون، ولم يذكروا هذا الحَديث فيدل على أن هذا الشَّخْص ليس ثقَة، فيقال: هذا حديث مُنْكَر، أي لا يعرفه زملاؤه في

(١) أخرجه الطَّبَرَاني في المعجم الأوسط، بلفظ: "لا تسمه النَّار"، برقم: (٩٠٩٨)، (٩/ ٤٧)، والحَاكِم في المستدرك، كتاب معرفة الصَّحابَة، ذكر أبي سعيد الخدري، برقم: (٦٤٧٣)، (٣/ ٦٩٥).

الطلب من الثقات، فهذا الشَّخْص قال فيه البُخَاري رَحِمَهُ اللَّهُ: أَنَّه مُنْكَر الحَديث وإن كانت الحادثة قد صحت من طرق أخرىٰ ليست مفصلة هذا التفصيل كما سيأتي.

قوله: (رمىٰ عبدالله بن قمئة رَسُول الله ﷺ يوم أحد. .)[1] هذه الحادثة لو ثبتت لنقلت بطرق أخرىٰ، لكن هذا الحَديث لم يصح، فذكر أن في سَنَده شخصًا اسمه حفص بن عمر العدني، وأنَّه ضَعيف.



(١) أخرجه الطَّبَراني في المعجم الكبير، برقم: (٧٥٩٦)، (٨/ ١٣٠)، وفي مسنَد الشاميين، برقم: (٤٥٣)، (١/ ٢٦٢).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال القرطبي: والرباعية بفتح الراء وتخفيف الياء، وهي كل سن بعد ثنية، قال النووي: وللإنسان أربع رباعيات، قال الحافظ: والمراد أنَّها كسرت فذهب منها فلقة ولم تقلع من أصلها، قلت: فظهر بهذا أن قول بعضهم أنَّه شج في رأسه فيه نظر.

قال النووي: وفي هذا وقوع الأسقام والابتلاء بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، لينالوا جزيل الأجر والثواب، ولتعرف أممهم وغيرهم ما أصابهم ويتأسوا بهم، قال القرطبي: وليعلم أنَّهم من البَشَر تصيبهم محن الدُّنيَا، ويطرأ على أجسامهم ما يطرأ على أجسام البَشَر، ليتيقنوا أنَّهم مخلوقون مربوبون ولا يفتتن بما ظهر على أيديهم من المعجزات، ويُلبس الشَّيطَانث من أمرهم ما لبَّسه على النّصارى وغيرهم.



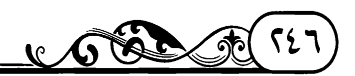
الشَّرْح

هذا كلام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ على الرباعية وأنَّها لم تقتلع من أصلها، أي: كسرت، والكسر في اللغة غير القلع، فإذا قلت: كُسر الشيء؛ فله أصل يدل على بقاء أصله، وإنَّمَا ذهب منه بعضُه، لكن لو قال: قلعته، دل على ذهابه كله.

هذا نُموذَج ممَّا وقع لنَبيّنا ﷺ من الابتلاء، فيُشج في وجهه، وتُكسر رباعيتُه، وكذلك يجرح في شفته السفلى، وكذلك يدخل المغفر في وجنته، هذا يدلُ على أنَّه بشر، وأنَّه يبتلى ويلحَقّه البلاء، ولهذا صح في الحَديث أنَّه سُحر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فالسّحر الذي وقع عليه من الابتلاء، لَكنَّه سحر لحَقّ جسمه ولم يفقد عقله - عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ -، بخلاف المسحورين، فمن المعاصرين وممن سبق من أهل

الكلام من أنكروا أن نَبيّنا ﷺ سحر، وقالوا: القُرْآن الكَريم نفىٰ عنه السّحر وقريش اتهموه بأنَّه مسحور، فإذا أثبتنا عليه السّحر قد ناقضنا القُرْآن، وأقررنا ما قاله المُشركون. لا؛ فالمُشركون ادعوا سحره في عقله عليه الصلاة والسلام وفيما جاء به من الوَحْي، وهذا معصوم فيه، ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧]، ولم يلحَقّ الوَحْي والتبليغ شيء، إنَّمَا كان يتعلق بجسمه وبعلاقته بزوجته، أمَّا في قضية عقله وإدارته للمجتمَعَ وإبلاغه للرسالة فإنَّها محفوظة.

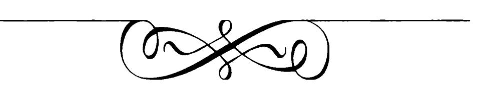
فإذا صح الحَديث وجاء من طرق صَحيحة قلنا به، ومن الخطأ أن ننكر الحَديث الصَحيح لمجرد العَقْل، وإلا لو أدخلنا العَقْل في قضايا ربما لا نقبل كثيراً ممَّا صح، كما قال بعضهم في العصر الحاضر: إذا جاء الحَديث الصَحيح يخالف عقلي رددته، وإذا جاء الحَديث الضَعيف يوافق عقلي قبلته، فجعل الميزان هو عقله، والعَقْل يلحَقّه النقص، وهذه قاعدة وضعها علماء الكلام، لهذا نجد الغزالي، ثمَّ تبعه الرازي وضعا هذا القانون، وهو الذي رد عليه ابن تَيميَة رحمه الله في كتابه العظيم (درء تعارض العَقْل والنَّقْل)، فهذا القانون جعلوه قاعدة ليحاكموا إليه الكتاب والسنة، فما قبله قبلوه وما ردَّه ردُّوه، قالوا: إذا جاء النَّقْل فعارض العَقْل فإنا نرد النَّقْل؛ لأنَّ العَقْل هو الذي به فهمنا النَّقْل، فكَيْفَ نطعن في العَقْل؟! فلو طعناً في العَقْل لكان طعناً في النَّقْل، فنقول: هذا خطأ، فإن العَقْل مهمته الدَلالة، وليس مهمته الحُكْم، والعُلَماء يمثلون: إنسان جاء إلىٰ بلدة من البلدان فسأل عن مفتي البلد، فقال له شخص: المفتي فلان، فذهب به إليه، فعندما ذهب إلىٰ المفتي سأله عن مسألة، فأفتاه فيها، فقال الشَّخْص الدليل: لا تصدق هذا فإن فتواه خطأ، قال: سبحان الله! ، أنت أثبت لي أن هذا مفتٍ، فكَيْفَ تقول: فتواه خطأ؟! فأنت كذاب، فالعَقْل مهمته هي هذه، أن يدلك أن هذا وحي من الله وأن يبيّنَ لك أن هذا حَقّ، فإذا دلك علىٰ



أن هذا حَقّ انتهت وصية العَقْل، وأصبح دوره التسليم لهذا الحَاكم الذي أقررت بأنَّه حاكم، وهو الله ورَسُوله، فهذا هو دور العَقْل.

ويقول العُلَماء في قوله تَعَالَىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام:١٢٢]: إن الله شبه الوَحْي بالنور، فالمبصر إذا كان في ظلام ما يرىٰ مَعَ أن عنده بصراً، كذلك الإنسَان الجاهل إذا لم يكن عنده علم لا يعرف الحَقّ والحلالَ والحرامَ، فإذا جاء الوَحْي كان نوراً، فالمُبصر يستفيد من النُّور، لكن الذي ليس مبصراً لا يستفيد، فالذي ليس عنده عقل لا يستفيد، فالعَقْل تابع، وكذا يقول بعض العُلَماء: أرأيتم لو حكَّمنَا العَقْل نحكّم عقلَ مَنْ؟ عقل فلان أو فلان؟. العَقْل يختلف من شخص إلىٰ شخص، الآن لو طُرحت قضية بَيْنَ نا في بعض الأمور لسَمعنا فيها عشرات الإجابات وعشرات الأراء؛ لأنَّ العَقْل يختلف، لكنَّ الوَحْي واحد، فالذي يزعم أن العَقْل هو الأساس في قبول النَّقْل يكون مخطئاً، والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يُبتَلَون في أجسادهم حتىٰ ولو كان بالسّحر، لكنَّ الله يعصمهم ويحفظهم في عقولهم وفي بلاغهم.

وهنا الشاهد أن النَّبي ﷺ الذي يقع في البلاء ولا يعرف ما في الغَيْب ممَّا يَعرض له من الأمراض ومن الأسقَام ومن الابتلاء كَيْفَ يعرف الغَيْب الذي يختص بأمَّته أو بمن يدعوه؟ ، فإنَّ هذا من باب أولىٰ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (يوم أحد) جبل معروف إلىٰ أن كانت عنده الواقعة المشهورة فأضيفت إليه.

قوله: (فقال: كَيْفَ يفلح قوم شجوا نَبيهم) زاد مسلم من طريق ثابت عن أنس: (وكسروا رباعيته وأدموا وجهه).

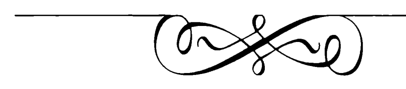


الشَّرْح

أُحُد جبل يبعد عن المدينة قرابة ثلاثة كيلوات، أي من المَسْجد النبوي إلىٰ أُحُد، هو جبل كبير، وقعة أحد وقعت عند هذا الجَبَل في العام الثالث، وفي هذه الوقعة قتل سبعون من أصحاب رَسُول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وفي مقدمهم حمزة عم النَّبي ﷺ وحزن عليه حزناً شديداً، فهذه الغزوة هي الغزوة الثانية في الإسلام، الأُولَىٰ كانت في بدر، وانتصر فيها المسلمون، وفي أُحُد وقع فيها معصية من المسلمين لرَسُول الله ﷺ عندما أمر الرمَاة أن يبقوا علىٰ الجَبَل وقال لهم: لا تنزلوا من الجَبَل أبداً، فعندما نصر الله المسلمين في أول المعركة فاختلفوا وهم قرابة خمسين، نصفهم قالوا: ننزل فإن العدو قد كسر ونشاركُ في أخذ الغنائم، ونصفُهم قال: لا ننزل؛ لأَنَّا أُمرنا بعدم النزول، فنزلوا فجاء العدو من مكانِّهم، ثمَّ بعد ذلك وقع علىٰ المسلمين ما وقع، فبسبب معصيتهم لرَسُول الله ﷺ عاقبهم الله - سُبحانَه عقاباً عاجلاً، وهذه كلها دروس تربوية للصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، حتىٰ تربوا فكانوا أفضل جيل علىٰ ظهر الأرض بعد الأنبياء

والمُرسَلين، فهذه الغزوة شُجَّ فيها الرَسُول ﷺ وكُسرت رَباعيته وقال ما قال كما تقدم.

قوله: (زاد مسلم من طريق ثابت عن أنس: (وكسروا رباعيته. .) هذا زيادة في مسلم وهي زيادة في الصَحيح فهي أولىٰ من الحَديث الآخر الذي أورده الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ. فشجوا وجهه وكسروا رَباعيته، وأدمَوا وجهه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (فأنزل الله: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [آل عمران:١٢٨].

قال ابن عطية: كان النَّبي ﷺ لحقّه في تلك الحال يأس من فلاحِ كفار قريش، فمالت نفسه إلىٰ أن يستأصلهم الله ويريح منهم، فقيل له بسبب ذلك: ليس لك من الأمر شيء، أي عواقب الأمور بيد الله، فامض أنت لشأنك ودم علىٰ الدّعَاء لربك.

الشَّـرح

قوله تَعَالَىٰ: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [آل عمران:١٢٨]، هذه الآية جزء من آيات من سورة آل عمران، ورد فيها وعد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بإنزال المَلَائكَة، فالوعد الأول ثلاثة آلاف، والثاني خمسة آلاف، إن صبروا واتقوا، ثمَّ قال تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران:١٢٦].

ثمَّ قال: ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [آل عمران:١٢٧]. ثمَّ قال: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ ثمَّ كمل الآية ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [آل عمران:١٢٨].

ذكر أربعة أشياء، يقطع طرفًا منهم، أي يستأصل بعضهم، أو يكبتَهم، أي يُذلَهم، أو يتوبَ عليهم أو يعذبهم، لكنْ جاء في وسط الآيات ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ الأمر بيد الله، فتاب الله علىٰ بعضهم، وخاصةً ممن دعا عليهم كما سيأتي تابوا وأسلموا، ورَسُول الله ﷺ لا يعلم الغيْبَ، لكن الله يعلم أنّ هؤلاء

الأشخاص الذين حاربوك وآذوك سيصبحون مسلمين، وسيكون لبعضهم شأن في الإسلام كما سيأتي أنَّ أحدَ الذين أسلموا - سهيل بن عمرو - وقف في مكة بعد موت رَسُول الله ﷺ وخطب وقال: من كان يعبد مُحَمَّداً فإن مُحَمَّداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وهو الذي قال فيه عمر رضي الله عنه: دعني يا رَسُول الله أخلع ثَنِيَّته، لا يقوم علينا خطيبًا، قال: دعه يا عمر فلعله يقوم مقامًا يومًا من الأيام تُسر به(١)، فالرَسُول ﷺ لا يعلم الغَيْب، فلو كان ﷺ يعلم ما دعا عليهم، والله يقول: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ الأمر كله لله، هنا الآيَات كلها بأساليب متنوعة وعبارات مختلفة تقرّر عبوديةَ رَسُول الله ﷺ لربه، حتىٰ لا يقع النَّاس في تعظيمه والفتنة به أكثر ممَّا ينبغي، فالرَسُول ﷺ بشر ولا يعلم الغَيْب، وليس له من الأمر شيء، والأمر كله لله، فلماذا تدعو من لا يملك من الأمر شيئًا؟ ادعث الذي يملك الأمر، وهو الله عَزَّ وَجَلَّ.

---

(١) أخرج القصة بطولها ابن سعد في الطقبات الكبرىٰ (٦/ ١٢٤)، وأمَّا قول عمر رضي الله عنه فقد أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، ولفظ الحَدِيث: "يا رَسُول الله، انزع ثنيتيه السفليين، فيلدع لسأنّه، فلا يقوم عليك خطيبًا بموطن أبداً"، كتاب المغازي، باب ذكر غزوة بدر ومتىٰ كانت وأمرها، برقم: (٣٧٨٩٤)، (٢٠/ ٣٤٣).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال غيره: المعنىٰ أن الله تَعَالَىٰ مالك أمرهم فأمَّا أن يهلكهم أو يكبتهم أو يتوب عليهم إن أسلموا، أو يعذبهم إن أصروا، وليس لك من أمرهم شيء، وإنَّمَا أنت عبد مأمور بإنذارهم وجهادهم، فعلىٰ هذا يكون قوله: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ اعتراض المعطوف والمعطوف عليه، وقال ابن اسحَقّ: أي ليس لك من الحُكْم بشيء في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم.

قال: وفيه عن ابن عمر أنَّه سَمَعَ رَسُول الله ﷺ يقول: (إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر: اللهم الْعن فلانـًا وفلانـًا بعد ما يقول: سَمَعَ الله لمن حَمدَه ربنا ولك الحَمْد، فأنزل الله: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾)، وفي رواية يدعو علىٰ صَفوَان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام، فنزلت: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾.



قوله: (اعتراض المعطوف والمعطوف عليه)، لعل هناك سَقطـًا، فإن الاعتراض بَيْنَ المعطوف والمعطوف عليه؛ لأنَّه هنا جُمل معطوف بعضها علىٰ بعض، وجاءت هذه الآية وسط المعطوفات. إلىٰ قوله: ﴿ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [آل عمران:١٢٨].

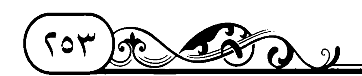
هذا الحَديث في الصَحيح، وهو يبَيْنَ لنا أن النَّبي ﷺ كان يقنت عليهم في الفجر ويسميهم بأسْمَائهم، وخاصة الثلاثة صَفوَان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام؛ لأنّ هؤلاء كانوا زعماء الكفر آنذاك، فأنزل الله هذه الآية، هؤلاء الثلاثة كلُهم أسلموا، وكما قلنا بعضهم كان له في الإسلام مكان، فكلُهم

جاهدوا في الإسلام، فهذه الآية تبيّنَ لنا أن ليس هناك أحد من البَشَر يشارك الله في ملكه، ويستحقّ أن يُدعَىٰ أو يُستغَاث به أو يُشرَك مَعَ الله ﷻ؛ لأنَّه إذا كان سيدُ البَشَر هذا مكانُه، وهذا موقعُه، فما بالك بغيره من البَشَر؟ ، كل النَّاس تحت رَسُول الله ﷺ، فإذا كانت البَشَرية تمثل هرماً أي جبلا يضيق رأسه وتتسع قاعدته فإن نَبيّنا ﷺ في قمة الجَبَل، وفي قمة البَشَرية، ولهذا فإن في الجنَّة مكاناً لا يدخلُه إلا شخص واحد وهو نَبيّنا ﵊، وأمرنا أن نقول بعد كل أذان: اللهمَّ آت مُحَمَّداً الوسيلة والفضيلة، قال العُلَماء: الوسيلة كما جاء في الحَديث: درجة في الجنَّة لا ينزلها إلا شخص واحد، قال - ﵊ -: (أرجو أن أكون أنا هو)[1] فرَسُولنا ﷺ في قمة النَّاس في الدُّنيَا والآخرة، جاء في الحَديث: (أنا سيد ولد آدم)[2] فإذا كان هذا مكان رَسُول الله ﷺ أمَام الله، فما بالُك بغيره؟ ، فليس هناك شخص يستحقّ أن يُدعَىٰ أو يُستغَاث به غيرُ الله ﷻ.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في صَحِيحه، كتاب الفضائل، باب تفضيل نَبيّنَا ﷺ علىٰ جميع الخلائق، برقم: (٢٢٧٨)، (٤/ ١٧٨٢).



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ش: قولـه: (وفيـه) أي في الصَحيح والمـراد بـه صَـحيح البُخَـاري ورواه النسائي، قوله: (عن ابن عمر) هو عبدالله بن عمر بن الخطاب صحابي جليل من عباد الصَّحابَة، شـهد لـه رَسُول الله ﷺ بالصلاح، مات سنة ثلاث وسبعين في آخرها أو أول التي تليها.

الشَّرح

عبد الله بـن عمـر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا كـان مـن خيـار الصَّحابَة وعُبَّادهم وزُهَّادهم، وقـد أسلم مَعَ أبيه وهاجر معه صغيراً ربما لا يتجاوزُ سنَ العاشرة، ولهـذا في غـزوة أُحُد لم يُسمح له بالمشاركة فيها؛ لأنَّـه كان صغيراً، لَكنَّه شاركَ في الخَندق، والخندقُ كانت في السَّنة الرابعة، أي: كأنَّه في هذه السنة بلغ خمسة عشر عاماً، فيكون سنُّه عند الهجرة إحدىٰ عشرة سنة، وهـذا الصَّحَابي الجليلُ لـه كـلام جميل، ومواقف جميلة كلها تدُل علىٰ تقواه، وزهـده وورعـه، ومنهـا: أنَّـه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عندما كان في سفر إلىٰ مكة المكرمة، وفي الطريق مرَّ علىٰ راعٍ فطلبه شاةً، فقال: إنّي مملوك، قال: قل لـه أكلها الـذئب، فقال الراعي: فأين الله، أي: إذا كان هذا الكلام أقوله أنا أخادع بـه البَشَر فأين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ألا يرانا؟! ؛ فبكىٰ ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: فاشتراه واعتقَه، واشترىٰ له الغنم ثمَّ أعطاه إياها.

ومنها أنَّه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كتب إليه رجل أن اكتب إلي بالعلْم كلـه، فكتب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إليـه: العلْم كثير ولكن إن استطعت أن تلقىٰ الله خفيفَ الظهر من دماء النَّاس، خميصَ البطن من أموالهم، كافَّ اللسان عن أعراضهم، لازماً لأمر جماعتهم فافعل. ما أعظمها من وصية! ، وكلها تتعلق بحَقُوق النَّاس، إن استطعت أن

تلقىٰ الله خفيفَ الظهر من دمائهم؛ لأنَّ الإنسَان إذا ارتكب دماً حراماً جاء يوم القيَامة وعليه ثقل المعصية، فتكبه في جهنم، ثمَّ قال ﷺ: " خميص البطن من أموالهم "، بأن: تعف عن أموال النَّاس، وإن كنت قادراً فإن الله لا يتجاوز عن حَقّوق النَّاس، بل يوم القيَامة كل من أُخذ ماله أو سُفك دمُه أو انتهك عرضُه فإنَّه يمكن من حسنات ظالمه، بحسب ما يريد، فإذا انتهت حسناته، ولم يبق عنده حسنة تُحمل من أوزارهم، ثمَّ يطرح في النَّار، ثمَّ قال: "كافَّ اللسان عن أعراضهم "، فإنَّ الكلامَ سهل، والإنسَان يأتيه الشَّيطَان أحياناً من باب الغيرة علىٰ الدِّين، فيستبيحَ أعراض النَّاس ويظَن أنَّ هذا نصرٌ للدين، فيقع في أعراض أهل العلْم وفي أعراض الصَّالحين وفي أعراض الدُّعاة، وهذا من الشَّيطَان، فإن عرض المسلم حرام بالكتاب والسُّنَّة وإجماع الامة، وهذه مسألة في الإسلام لا تُبَاح إلا بدليلٍ من الكتاب والسُّنَّة والإجماع، وإلا فلو ترخص في أعراض النَّاس فإنَّه لا يَتوقّف، فإذا كان هذا في عرض المسلم العامي فما بالك بمن يحفظ اللهُ به الدِّين هذا من باب أولىٰ.

والإنسَان يأتيه الشَّيطَان في صورة ناصحٍ أو في صورة الغيرة علىٰ الدِّين، لهذا قال الشَّافعي رحمه الله وهو يحذر طلابه قال: "لا يأتي النَّاس يومَ القيَامة وفي صحفهم حسنات من الصلاة والصدقة والذكر والدّعَاء، وتأتي وفي صحيفتك فلان وفلان "، فينبغي أن تكون مجالسنا بذكر الله وبقراءة العلْم، من: قرآن أو حديث أو تفسير أو سيرة، فإذا جلست في مجلس وبدأ الحَديث في النَّاس أَنْه الحَديث؛ لأنَّ هذا ليس من الدِّين، لكن إن كان هناك أقوال بعض الأشخاص تُناقش، مثلاً: قيل: كذا هل هذا صَحيح؟ ، أمَّا النَّاس فدَعهم، فإن الشَّيطَان يفتحُ عليك هذا الباب، ويقول ابن الجوزي رحمه الله: إن الشَّيطَان يأتي النَّاس علىٰ أنواع، فيأتي كل صنف من النَّاس بأسلوبٍ، يأتي الزرَّاع بأسلوب، ويأتي التجّار

بأسلوب، ويأتي العُلَماء بأسلوب، ويأتي العالم يقول هذا غيرة علىٰ الدِّين، وفلان أخطأ في نصيحته أو في فتواه. فيبدأ يُشهِّر به، ويظَن أنَّ هذا من الدِّين، ويأتي الحُكَّام بأسلوب، ويأتي الرِّجال بأسلوب، ويأتي النِّساء بأسلوب، فإنَ إبليس عاصر البَشَريةَ منذ خلقَها الله إلىٰ اليوم، فلا يأتيك مواجهةَ، يأتيك وسوسةً وخطرات . كلُّنا لا ندرك كم للشيطان نصيب في آرائنا وفي أهوائنا الداخلية، استعرضً ما عملته من الصَّبَاح إلىٰ اليوم، ما هو الذي تتوقع أن يكون للشيطان فيه نصيباً، فإن عرفتَ فأنت إن شاء اللهُ مُبصر، وإن لم تعرف فأنت غافل، يستحيل أن تكون من الصَّبَاح إلىٰ الآن ولا يكون للشيطان فيك نصيب؛ لأنَّ الشَّيطَان أخذ علىٰ نفسه العهد ليضلَك ويأتيَك من بَيْنَ يديك، ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك وهو حي وحريص علىٰ إدخالك النَّار، فإن إبليس يرافقُك في كل مكان، تأتي إلىٰ المَسْجد للصلاة وليس في ذهنك أيُ قضيةٍ، وكلما تقترب من المَسْجد تأتيك القضايا واحدةً تُلوَ الأخرىٰ، فإذا كبَّرت جاءت كلُ القضايا، فتصلي مَعَ الإمام ويقرأ القُرْآن وينتهي من الصلاة وأنت لا تدري ماذا قال، وكم صلىٰ وكم ركع؛ للشيطان حظ، فرآك في هذا الموقف العظيم الذي امتنع هو منه فحسدَك، وعندما عجز عن منعك من الصلاة في المَسْجد فإنَّه علىٰ الأقل يحرمُك أجرَها، وقد جاء في الحَديث: (**إن المصلي إذا صلىٰ ولا يكتب له من صلاته إلا عشرها، تسعها، ثمّنها إلىٰ أن قال نصفها**)(١) بل بعض النَّاس قد يدخل في الصلاة ويخرج منها ولا يكتب له من

---

(١) أخرجه بمعناه النسائي في السنن الكبرىٰ، كتاب الصلاة، باب في نقصان الصلاة، برقم: (٦١٤)، (١/ ٣١٦)، والإمام أحمد في المسنَد، برقم: (١٨٨٧٩)، (٣١/ ١٧١)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ، كتاب الصلاة، باب كراهية الالتفات في الصلاة، برقم: (٣٥٢٧)، (٢/ ٣٩٩)، وابن حبَّان في صَحِيحه، كتاب الصلاة، باب صفة الصلاة، برقم: (١٨٨٩)، (٥/ ٢١٠)، وأبو يعلىٰ في المسنَد، برقم: (١٦١٥)، (٣/ ١٨٩).

الأجر فيها شيء؛ لأنَّه يأتي في الصلاة ويكبر مَعَ النَّاس وجسمُه متحرّك في المَسْجد وقلبُه خارج المَسْجد.

والعلْم هو الذي يَسُدُّ مداخل الشَّيطَان، ويقول أهل العلْم: إن العلْم أفضل من العبَادة، والشَّيطَان يستطيعُ أن يقود العابدَ إلىٰ المعصية، ولا يستطيع أن يقود العالمَ إلىٰ المعصية، فإذا صرت صاحب الشهوات الذي يقع في المعاصي لا تتفكر في قضايا العقيدة؟ ، وإذا أصبحت مستقيماً وتركت الشَّهَوات جاء إبليس ووسوس لك في الله، وهذا لا يحصل إلا للمستقيمين. عجز عن أن يقودَهم إلىٰ المعاصي فلجأ إلىٰ قضية أخرىٰ، جاء في الحَديث عندما شكىٰ الصَّحابَة إلىٰ النَّبي ﷺ ما يجدونه من هذا الوسواس قال: (**الحَمْد لله الذي رد كيده إلىٰ وسوسة**)[1] فإبليسُ يأتيك من حيث قد تأمنُه فينبغي أن تتحرَّز من أعراض النَّاس. ثمَّ قال في آخر وصيته: " لازماً لجماعتهم "؛ فالشَّيطَان يأتيك يقول: هؤلاء النَّاس فساق وعصاة وهؤلاء يرون المُنْكَرات ولا يغيرونها وهؤلاء يشاركون في المُنْكَر وهؤلاء كذا فيدفعك حتىٰ تُكَفِّر المسلمين، وهذا ما وقع في بعض الصَّالحين يأتيه الشَّيطَان من باب الغيرَة علىٰ الدّين، فالعاصي ضَعيف في إسلامه وضَعيف في إيمانه، لكن رّفعُ الإسلام عن النَّاس خطير جداً، والشَّيطَان لا يبالي هل دفعك إلىٰ التجاوز أو سحبَك إلىٰ الإهمال والتفريط بأيهما ظفر منكَ رضيَ، إمَّا أن يدفعك إلىٰ الغُلُو وإمَّا أن يدفعك إلىٰ التفريط، فإن عجز أن يقودك إلىٰ التفريط دفعك إلىٰ الغُلُو، كم من إنسان صالح وإذا به لا يسلم عليك ولا يزورك ولا يصلي بل لا يصلي

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في رد الوسوسة، برقم: (٥١١٢)، والنسائي في السنن الكبرىٰ، كتاب عمل اليوم والليلة، باب الوسوسة، برقم: (١٠٤٢٦)، (٩/ ٢٤٦)، والإمام أحمدَ في المسنَد، برقم: (٢٠٩٧)، (٤/ ١٠).

خلفك لاعتقاده أنَّك كافر، وهذا جاءه من إبليس، عجز عن أن يمنعَه من الخير فدفعَه إلىٰ الغُلُو، وهذا شططُ، ولا يحمي الإنسَان من هذه الأشياء إلا العلْم الشَّرْعي، ولهذا ينبغي أن نحرص دائماً علىٰ أن نعرض ما في أذهاننا من وساوس وخطرات وأفكار علىٰ كتاب الله وسنة رَسُوله- ﷺ. وقد سبق مراراً قصة الصَّحَابي الذي كان يشربُ الخمرَ، وفي كل مَرَّة يُؤتىٰ به فيُجلَد، فدَفعت الغيرةُ بعض الصَّحابَة، فقال لهذا الذي يشربُ الخمر: لَعنه الله ما أكثر ما يؤتىٰ به. فقال ﷺ: (لا تلَعنه ما علمت إلا أنَّه يحب الله ورَسُوله)[(١)] ليس كل من وقع في المعصية عدو لله، ولهذا الولاء والبراء ليس مَعَ المسلمين من الفساق ولا الصَّالحين بل الولاء والبراء مَعَ الكافر، أمَّا المسلم نواليه بدون استثناء لكن نكره معصيته وننصحته ونحذره، لَكنَّه أخوك في الإسلام تنصرُه وتعينُه وتحمي عرضَه، ففي بعض روايات الحَديث الماضي (لا تُعن الشَّيطَانَ علىٰ أخيك)[(٢)] فسماه: أخاً لك وإن كان يشرب الخمر، فهذه قواعد جميلة من ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

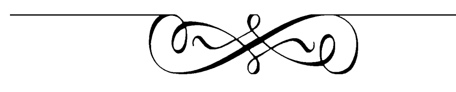
ومنها: أنَّه عندما جاء معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ليبايع يزيداً علىٰ أن يكون بعده نائباً وخطب في المدينة وقال: من كان يريد أن يتكلم في هذا الأمر أي في الخلافة فليطلع إلينا قرنَه أي: رأسه، يقول هذا الكلام للصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ في المدينة، وفيهم من هم أفضل منه لكن هذا اجتهاد منه، فإن ابن عمر أفضل من معاوية بكثير بإجماع علماء السُّنة، فقال معاوية: فليطلع إلينا قرنه فلنحن أحَقّ به ومن أبيه. قال العُلَماء: إنَّ هذا يورّي بابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ لأنَّ ابن عمر كان أفضل الصَّحابَة

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في صَحِيحه، بلفظ: "لا تكونوا عون الشَّيطَان علىٰ أخيكم"، كتاب الحدود، باب ما يكره من لَعن شارب الخمر وأنَّه ليس بخارج من الملة، برقم: (٦٧٨١).

آنذاك، وكان أحَقّ بالخلافة في عصره، قال حبيب بن مسلمة أحد التَّابعين لابن عمر: فهلا أجبته؟ قال عبد الله بن عمر: فحللت حبوتي، - الحَبوة: حبل أو قماش يربطه الشَّخْص بظهره مَعَ ركبتيه فيصبح جالساً جلسة القرفصاء أو جلسةً فيها شيء من الراحة - قال: فحللت حبوتي وهممت أن أقول: أحَقّ بهذا الأمر منك من قاتلَك وأباك علىٰ الإسلام؛ لأنَّ ابن عمر أسلم قبل معاوية ﷺ وقاتلَه علىٰ الإسلام، قال ابن عمر ﷺ: فخشيت أن أقول كلمة تفرَّق الجمَعَ وتسفك الدم ويُحملُ عني غير ذلك، ثمَّ قال: فذكرت ما أعدَّ الله في الجنَان. أي: ذكرت ما أعد الله للصابرين فسكتَ مَعَ أنَّه لو قال لقال حَقّاً لكن تركه أولىٰ في هذا الموطن؛ لأنَّه سيؤدي إلىٰ انشقاق وفتنة وسيأتي عن أبو هريرة ﷺ أنَّه قال: (حفظت من رَسُول الله وعاءين فبثثت أحدهما ولو بثثت الآخر لقطع هذا البلعوم)[1]. وهذا في الصَحيح، قال الذهبي ﷺ: في هذا جواز لكتم بعض العلْم ممَّا يتعلق بالمدح والذم أو نحو ذلك لَكنَّه لا يجوز كتم العلْم إذا كان متعلقاً بالحلال والحرام؛ لأنَّ أبا هريرة ﷺ كان يحفظ أسماء الخلفاء وما سيجري في عصره من فتن، وما أخبر الرَسُول عنهم، فلو أخبر لأدىٰ إلىٰ فتنة لَكنَّه لم يبثُّه حمايةً لمجتمَعَ الأُمَّة. فابن عمر ﷺ سكت وصبر احتساباً للأجر وإلا فإنَّه أولىٰ من معاويةَ بالحُكْم ﷺ جميعاً.



(١) أخرجه البُخَارِي في صَحِيحه، كتاب العِلْم، باب حفظ العِلْم، برقم: (١٢٠).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (أنَّه سَمِعَ رَسُول الله ﷺ إلىٰ آخره) هذا القنوت علىٰ هؤلاء هو بعد ما شج وكسرت رباعيته يوم أحد. قوله: (اللهم الَعن فلانـًا وفلانـًا) قال أبو السعادات: أصل اللَّعن الطرد والإبعاد من الله، ومن الخلق السب و الدّعَاء. قلت: الظاهر أنَّه من الخلق طلب طرد الملعون وإبعاده من الله بلفظ اللَّعن لا مطلق السب والشتم.

الشَّرح

اللَّعن في اللغة: هو الطرد والإبعاد، فإذا جاء في الحَديث قال: لَعن الله كذا إمَّا أن يكون إخباراً أنَّ الله طرَد هذا من رحمته أو دعاءً عليه، والإنسَان إذا قال: لَعن الله فلانـًا هل هذا سب أو دعاء؟ من العُلَماء من يرىٰ أن هذا سب وأن الإنسَان أحيانـًا لا يستحضر في ذهنه طلب الطرد من رحمة الله، وبعضهم يقول: هذه الكلمة دُعاء، فإن ذكرها الله ورَسُوله ﷺ فهي طرد من رحمة الله، وإن دعا بها الإنسَان العادي فإنَّه دعاء أن يطرد الله هذا الإنسَان من رحمته. ولهذا أهل السُّنَّة والجماعة لا يجيزون لَعن الحي مطلقـًا لا كافراً ولا فاسقـًا، وهذا ما ذهب إليه الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: لا يجوز لَعن الحي حتىٰ لو كان كافراً، قال: ربما يموت علىٰ الإسلام، لكن لو مات علىٰ الكفر فإنَّه لا يُستحَبُ اللَّعن؛ لأنَّه ليس فيه أجر أي: اللَّعن لا يُستحب؛ لأنَّك لا تستفيد لو قلت من الصَّبَاح إلىٰ المساء: لَعنَ الله إبليس، ليس لك فيها أجر، لكن لو سبَّحت الله وكبَّرت الله وحَمدَت الله وعملت الخير كان فيه أجر، فاللَّعن إنَّمَا هو للتشفي والانتقام وليس هو هو قربة يتقرب بها إلىٰ الله، فاللَّعن لا ينبغي إلا لمن مات علىٰ الكُفر، فيلَعن من باب بيان كراهيتك له لا من باب الوجوب أو الاستحباب؛ لأنَّه لم يرد في الشَّرْع دليل علىٰ أن اللَّعن ممَّا يستحب أو يجب.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (فلانـًا وفلانـًا) أي: صَفوَان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، كما بَيْنَ ه في الرواية التي بعدها، وفيه جواز الدّعَاء على المُشركين في الصلاة، وتسمية المدعو عليهم ولهم بأسْمَائهم في الصلاة، وأن ذلك لا يضر الصلاة.

قوله: (بعد ما يقول سَمِعَ الله لمن حَمدَه) قال أبو السعادات: أي أجاب حَمدَه وتقبله. قال السهيلي: مفعول سَمِعَ محذوف؛ لأنالسَمِعَ متعلق بالأقوال والأصوات دون غيرها، فاللام تؤذن بمعنى زائد وهو الاستجابة المقارنة للسَمع، فاجتمَعَ في الكلمة الإيجاز والدلالة على الزائد وهو الاستجابة لمن حَمدَه. وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ ما معناه: عدى سَمِعَ الله لمن حَمدَه باللام لتضمنه معنى استجاب له، ولا حذف هناك وإنَّمَا هو مضمن.



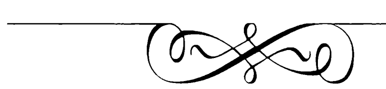
الشَّرح

هذه مسألة فقهية هل يجوز أن يُدعَى لإنسان أو على إنسان باسمه في الصلاة؟ يقول الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ: يجوز؛ لأنّ هذا وقع من النَّبي ﷺ في صلاته ولم يأت حديث ينسَخه، لكن جاءت الآية فمنعت أن يُدعى على الأحياء؛ لأنَّ الإنسَان لا يدري ماذا ينتهي إليه أمرُهم؟ هؤلاء كانوا كفاراً، فنهى الله عن الدّعَاء عليهم؛ لأنّ الله يعلم أن هؤلاء سيصبحون بعد ذلك مسلمين.

قوله: (سَمِعَ الله لمن حَمدَه): سَمِعَ هنا خبر أو دعاء، الخَبَر أي: يُخبر أنَّ الله يسَمَعَ دعاء من دعاه أو حَمدَ من حَمدَه أي أنَّ الله يُثيبه، لكن ليس هذا المعنى هو الوارد هنا، بل المعنى الذي أرادَه "بسَمِعَ الله " أي: استجاب، لكن هل "سَمِعَ " هنا بمعنى: استجاب أو بمعنى: السماع وهناك محذوف؟

فيكون المعنىٰ علىٰ الأول: سَمِعَ الله لمن حَمِدَه أي استجاب لمن حَمِدَه، وعلىٰ الثاني: سَمِعَ دعاء من حَمِدَه أو حَمِدَ من حَمِدَه، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ ليس هناك حذف، فإن سَمِعَ مُضمَّنة لمعنىٰ استجاب، وإذا قلت استجاب فإنَّه يتعدىٰ باللام، فيقول استجاب لمن حَمِدَه وليس هناك حذف في العبارة، وأحيانًا يكون في الجملة حذف لا يُفهم المعنىٰ إلا بمعرفة المحذوف.

فإذا أجابَ الله حَمدَك أو دعاءك يكون قد رضي عنك وكتب لك الثوابَ، ولهذا نرىٰ أن المسلم يستفتح الصلاة في أولها بالحَمْد ويختتمها بالحَمْد، ثمَّ إذا قال الإمام: سَمِعَ الله لمن حَمِدَه ماذا يقول المَأمُوم؟ ربنا ولك الحَمْد أو ربنا لك الحَمْد، وكلاهما صحتا في الحَديث بالواو وبدون الواو، والعُلَماء لهم تخريج لها كما سيأتي في الشرح الآتي.

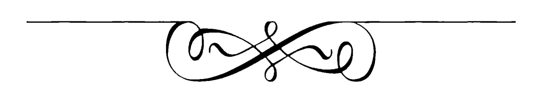


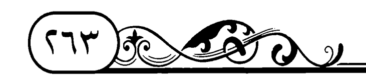
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (ربنا ولك الحَمْد) في بعض روايات البُخَاري باسقاط الواو، قال النووي: لا ترجيح لأحداهما على الأخرى. وقال ابن دقيق العيد: كأن إثباتها دال على معنى زائد؛ لأَنَّه يكون التقدير مثلاً ربنا استجب ولك الحَمْد، فيشتمل على معنى الدّعَاء ومعنى الخَبَر.

الشَّرْح

هنا ابن دقيق العيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرجح الرواية التي فيها واو؛ لأَنَّه قال: الواو تفيد معنىً جديداً أي: كأنَّ العبارة اشتملت على معنيين، المعنى الأول: هو خبرُ سَمَعَ الله لمن حَمدَه، ثمَّ الدّعَاء وكأنَّه قال: استجبْ ولك الحَمْد أي: دعا ثمَّ أخبرَ لكن إذا لم يكن واو تكون الجملة كلها بمعنى واحد، وتكون خبرية أو دعائية، وكلا الأمرين إن شاء الله ليس فيه حرج، كلاهما قد صحَّ.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال شيخ الاسلام: والحَمْد ضد الذم، والحَمْد يكون علىٰ محاسن المحمود مَعَ المحبة له كما أن الذم يكون علىٰ مساوئه مَعَ البغض له. وكذا قال ابن القيم: وفرق بَيْنَ ه وبَيْنَ المدح بأن الإخبار عن محاسن الغير إمَّا أن يكون إخباراً مجرداً عن حب وإرادة أو مقروناً بحبه وإرادته، فإن كان الأول فهو المدح وإن كان الثاني فهو الحَمْد.

فالحَمْد إخبار عن محاسن المحمود مَعَ حبه وإجلاله وتعظيمه، ولهذا كان خبراً يتضمن الإنشاء، بخلاف المدح فإنَّه خبر مجرد، فالقائل إذا قال: الحَمْد لله أو قال: ربنا ولك الحَمْد تضمن كلامه الخَبَر عن كل ما يحَمدَ عليه تَعَالَىٰ، باسم جامَعَ محيط متضمن لكل فرد من أفراد الجملة المحَقّقة والمقدرة، وذلك يستلزم إثبات كل كمال يحَمدَ عليه الرب تَعَالَىٰ، ولهذا لا تصلح هذه اللفظة علىٰ هذا الوجه ولا تنبغي إلا لمن هذا شأنَّه، وهو الحميد المجيد.



الشَّرح

هنا يفرق رَحِمَهُ ٱللَّهُ بَيْنَ المدح والحَمْد من حيث المعنىٰ اللغوي فيقول: الحَمدُ يرافقه حب للممدوح فإذا أثنيت علىٰ شخصٍ وأنت تحبه يكون هذا حَمْدَاً وإذا أثنيت عليه لكن لا تُحبه إنَّمَا اعترفت بحَقّه وفضله فيكون هذا مدحاً، فالمدح في حَقّ الله عَزَّ وَجَلَّ هو بالثناء عليه مَعَ محبته، وهذا يجوز في حَقّ البَشَر أن تمدحه وأن تحبه لكن لا يكون كمحبتك لله وثنائك علىٰ الله، فإنك تحَمدُ الله وتعلم وتعتقد أن الله أهل للثناء وأنَّ الله أهل للمدح حَمدته أنت أو لم تحَمدْه، ولهذا صيغة الحَمْد أن تقول: الحَمْد لله رب العالمين، فأنت هنا لا

تنشئ بل تعترف بأن الحَمْد لله حَمدَه النَّاس أو لـم يحَمدُوه، وهـذا يكـون مـن المسلم بإعترافه بفضـل الله وبكماله واستحَقّاقه تَعَالَىٰ للحَمـد واعترافه بما أنعم عليه من النعم؛ لأنَّ الحَمْد والشكرَ مرتبطان بـنعم الله عليـه، حتىٰ لـو لـم تعرف بعض نعم الله فإنَّك تعترف لله بأنَّه أهـل لأن يُمدح وأن يحمَدَ ﷻ، هـذا شرح لما ورد في حديث ابن عمر رضي الله عنهما المتقدّم، الـذي فيـه أنَّـه سَـمَعَ النَّبـي ﷺ يدعو علىٰ أشخاص في الصلاة بعد أن يرفع رأسه مـن الركـوع، فيقـول: (سَـمَعَ الله لمن حَمدَه، ثمَّ يقول: ربنا ولك الحَمْد، ثمَّ يدعو)[١] وهذا في الصَحيح.

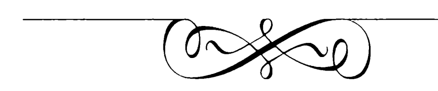
والعُلَماء اختلفوا في الإمام هل يقول: ربنا ولك الحَمْد مَعَ المَأمُومين، أم يكتفي بقوله: سَمَعَ الله لمن حَمدَه، بعض العُلَماء يرىٰ أن الإمام يكتفي؛ لأنَّه جاء في حديث آخر في الصَحيح: (**إذا قال الإمام سَمَعَ الله لمن حَمدَه، فقولوا: ربنا ولك الحَمْد**)[٢]، ولكن الراجح أنَّه يقولها كما يقولُها المَأمُوم؛ لأن الحَديث الذي فيه: إذا قال الإمام كذا قولوا كذا تعليم للمأمومين، وليس بيانـًا لكل الحُكْم، وقد جاء في الأَحَاديْث الصَحيحة أنَّه عليه الصلاة والسلام كان بعد أن يقول: سَمَعَ الله لمن حَمدَه يقول: ربنا ولك الحَمْد، فالإمام والمَأمُوم يقولان ربَنا ولك الحَمْد، كأنك تحَمدُ الله ﷻ بعد أن أخبرك بأنَّ الله يجيب حَمْدَك، والإجابة هي: القبول، أجابه أي: قَبله، كما يقال في العقود أنَّ العقد قول وإيجاب، مثلاً يقول إنسان: بعتك، فيقول: اشتريت أو زوجتُك فيقول قبلتُ،

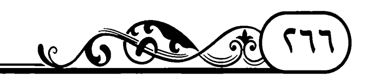
---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البُخَارِي في صَحِيحه، كتاب الأذان، بـاب فضـل اللهـم ربنـا ولـك الحَمْـد، بـرقم: (٧٩٦)، ومسلم في صَحِيحه، كتاب الصلاة، باب التسميع والتحميد والتأمين، برقم: (٤٠٩)، (١/ ٣٠٦).

هذا قول وإيجاب، إيجاب أي: أجابَك إلىٰ ما طلبت منه، فربَنا ولك الحَمْد هذا في السَّنَّة، فيختم المسلم الركعة بقوله ربنا ولك الحَمْد، وقد بدأ الركعة في أولها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة:٢]. فالركعةُ محاطة في أولها وفي آخرها بالحَمْد، فيحَمد اللَه بالقُرْآن في أول الركعة، ويختمها بالحَمْد من توجيه النَّبي ﷺ.





قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفيه التصريح بأن الإمام يجمَعَ بَيْنَ التسميع والتحميد، وهو قول الشافعي وأحَمدَ وأبي يوسف، وخالف في ذلك مالك وأبو حنيفة فقالا: يقتصر علىٰ قول سَمِعَ الله لمن حَمدَه.



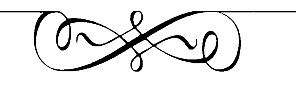
الشَّرْح

هذه بعض المسائل التي قد يقع فيها خلاف بَيْنَ أئمة الفقْه الإسلامي، ومدار الخلاف علىٰ فهم النصوص، وليس في ذلك حرج؛ لأنَّ أكثر الخلاف إنَّمَا يقع في السنن أو المستحبات، ويضيق في الواجبات وفي الفرائض، فنرىٰ الخلاف أكثر ما يكون في السنن والمستحبات والمكروهات، أمَّا في الواجبات فإن الخلاف فيها أقَل، وفي الفرائض أقل كثيراً، فمثلاً: في هذه الصورة لو لم يقل الإمام ربنا ولك الحَمْد ليس فيه حرج، كذلك في هيئات الصلاة لو لم يستفتح الشَّخْص الصلاة بدعاء الاستفتَاح ليس فيه حرج، فإن عند المالكية البدء في الصلاة بالحَمْد لله رب العالمين، حتىٰ البسملة مكروهة، فهذه صور الخلاف بَيْنَ أئمة الفقْه الإسلامي، سُئل الإمام ابن تَيميَة رَحِمَهُ اللَّهُ: أيهما أفضل للمصلي في الصلاة إذا هوىٰ للسجود، هل يهوي علىٰ يديه أو علىٰ ركبتيه؟ قال: كلاهما جائز بإجماع المسلمين، وهذا جميل في الفتوىٰ، فليس هناك حرج وتشديد في الخلاف والصراع والاتهام، لكن الأفضل أن يسجُد علىٰ ركبتيه، فهو رَحِمَهُ اللَّهُ يذكر الخلافَ في الأفضل وليس في الجواز.

وبعض أهل العلْم أو بعض طلبة العلْم يجعل من هذه القضايا قضايا صراع، وقضايا موالاة وبراء، هذه خلافات لا يترتب عليها هذه الأحكام، وإلا فكم في الفقْه الإسلامي من خلاف؟ ما من مسألة تقرأها إلا وترىٰ فيها خلافاً،

وكذا في اللغة العربية خلاف، في كل قضايا العربية إلا القليل النادر، وفي الفقْه الإسلامي المذاهب الأربعة ثمَّ جاءت بعد ذلك الظاهرية، وفي تفسير الآيَات خلاف، وكذا الأَحَاديْث في تصَحيحها خلاف، ما من فن من الفنون الإسلامية إلا وفيه خلاف، وهذا من طبيعة البَشَر، فإن الإنسَان الذي يتعامل مَعَ النصوص الشَّرْعية بشر، والعَقْل البَشَري ليس واحداً في كماله وفي إدراكه وفي تصوره، فينبغي لطالب العلْم أن يكون علىٰ مستوىٰ فهم هذه المسائل، حتىٰ لا يجعل من القضايا العادية قضايا خلافية، وقضايا يقام عليها الولاء والبراء، هذه قضايا اختلف فيها أئمة الإسلام، فما بالك بمن جاء بعدهم؟ لكن لا يعني ذلك أن لا تنصح أخاك فيما يثبت عندك صحته، فمثلاً هذه القضية في كليهما حديثان أو أحاديث صَحيحة، عند الشافعي وأحمَد، وعند مالك وأبي حنيفة، لكن تختلف أوجه الاستنباط، وأوجه التعامل مَعَ النصوص، ولهذا ألف ابن تَيميَة رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابه العظيم وهو رسالة عظيمة: (رفع الملام عن الأئمة الأعلام)، لأنَّ صغار الطلبة قد يتعاملون مَعَ القضايا تعامل خاطئًا، فهذا يعلمُهم أدب الخلاف، كَيْفَ نتعامل مَعَ ما وقع فيه الخلاف.

الشاهد أنَّ مسائل الفقْه الإسلامي وأمور الدّين ينبغي أن تكون صدورنا واسعة فيها، نتحمل الخلاف، فمثل هذه المسألة لكلا القولين أدلَّة، فلا ينبغي لنا في الخلاف أن تضيق صدورنا به أو بما يحدث من اختلاف في فهم الآيَات أو النصوص الشَّرْعية.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (وفي رواية يدعو علىٰ صَفوَان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام)، إنَّمَا دعا عليهم رَسُول الله ﷺ؛ لأنَّهم رؤساء المُشركين يوم أحد، والسبب في تلك الأفاعيل التي جرت علىٰ سيد المُرسَلين ﷺ هم وأبو سُفيَان، ومَعَ ذلك فما استجيب له فيهم، بل أنزل الله عليه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [آل عمران:١٢٨].

الشَّرح

هذا الباب معقود ليبَيْنَ المؤلف والشارح رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ أن المخلوق ولو علت مرتبته، فإنَّه لا يملك أن يشاركَ الله في أمره، فهذا نَبيّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ سيد البَشَر وأفضلهم، وأتقاهم وأعلمهم، ومَعَ ذلك لا يُشركه الله في أمره، ولم يَعلم الغَيْبَ عندما وقعت في غزوة أحد الهزيمةُ للمشركين وشُجَّ النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وكُسرت رَباعيته، وجرحت شفته السفلىٰ، وشج في وجهه ﷺ، فغضب، ودعا علىٰ رجال من زعماء قريش: صَفوَان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام؛ لأنَّهم هم الذين تزعموا المعركة، فصَفوَان بن أمية كان من أثرياء مكة، وكان يقال له: قَنطَر، أي: جمَعَ قنطاراً من الذهب في ذلك الوقت، فهؤلاء كانوا الزعماء منهم صاحب العَقْل ومنهم صاحب المال، فقادوا قريشاً لحرب رَسُول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فعندما وقع في المعركة ما وقع لم يكن رَسُول الله ﷺ يعلم أن هؤلاء سيسلمون ويصبحون من خيار المسلمين، فدعا عليهم في الصلاة، قَنت في الصلاة بعد الركعة الثانية في الفجر، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ يبلغه بعد أن ذكر

سبحانه وتعالى الوعدَ بالنصر فقال: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ (١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ (١٢٨) ﴾ [آل عمران:١٢٦-١٢٨].

فذكر أربعة أنواع من المقاصد، فأولُها: ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ بمعنىٰ يُهلك مجموعةَ من الذين كفروا، ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ ﴾ أي: يخذلهم أو ينزل اليأس في قلوبهم من الوصول إلىٰ ما يريدون، هذان اثنان، جاء بعده: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ﴾ جعل الله -عَزَّ وَجَلَّ- هذه اللقاءات للمقاصد الآتية، جاء في وسطها ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾، الأمر أي: الشأن، الشأن كله لله هو الذي يكبت، وهو الذي يعذب وهو الذي يتوب، فليس لك من هذا الأمر شيء، عليك أن تدعو وأن تبلغ، فالله يوجه نَبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلىٰ أن أمر العبَاد ليس له فيه مشاركة، لم يكن نَبيّنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَظُنُّ أنّه مُشارك، لكن دعا عليهم، فالله قال: لا تدع؛ لأنَّ العقاب والثواب والتوبة ليست لك بل لله، فهؤلاء كلهم أسلموا في عام الفتح، صَفوَان بن أمية في عام الفتح تردد في الإسلام وبقي علىٰ شركه، فطلب منه النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مائة درع لغزوة حنين، قال: أغصبـًا يا مُحَمَّد؟ قال: لا، ولَكنَّها عارية مضمونة، فأعطاه، ثمَّ ذهب معه وهو مشرك إلىٰ غزوة حنين، وكان نَبيّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إنسانـًا فذاً، فبعد المعركة كان معه صَفوَان، وكان صَفوَان ينظر إلىٰ واد من الغنم والإبل ويكرر النظر، ونَبيّنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يلحظ ذلك النظر، فقال: أأعجبك يا صَفوَان هذا؟ قال: نعم، قال: هو لك، قال صَفوَان: أشهد أنَّه ما طابت بهذا إلا نفس نَبي، قال: فما زال يعطيني حتىٰ أصبح أحب

النَّاس إلي، فأسلم(١)، فهذا مشرك وخرج معهم وهو مشرك، ونَبيّنا ﷺ يتألفه وهو فرد واحد، لكن عظمة الرجال، عظمة النبوة، وقال: لو أنَّه صاحب ملك وصاحب رياسة يفرح بأن يجمَعَ إلىٰ ماله مالاً، يعطي أغنأمًا الوادي بكامله، هذا ما يكون إلا من نَبي، فأسلم فحسن إسلامه، كذلك سهيل بن عمرو الذي كان رَسُول قريش في قضية الحديبية، وعندما دخل النَّبي ﷺ إلىٰ مكة عام الفتح فَوقَف في المَسْجد الحرام وخطبهم فقال: ماذا أنتم قائلون؟ أجابه سهيل بن عمرو: خيراً، فقال عليه الصلاة والسلام: إنَّمَا أقول لكم كما قال أخي يوسف لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء، فعفىٰ عنهم(٢)، وأورد البيهقي أن عمر رضي الله عنه قال يا رَسُول الله دعني أنزع ثنيتي سهيل لا يقوم علينا خطيبـاً، فقال عليه الصلاة والسلام: **(دعه يا عمر فلعله يقوم مقاما تحَمدَه أو كما قال)**(٣) وكان هو الذي يثبت النَّاس بعد أن مات نَبيّنا عليه الصلاة والسلام، وَحَّدث في النَّاس الردة، فَوقَف خطيبـاً، وقال: من كان يعبد مُحَمَّدا فإن مُحَمَّدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. والحارث بن هشام كان من وجهاء قريش، عندما أسلم بعد فترة خرج ليذهب

---

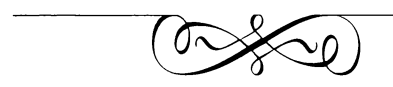
(١) قصة استعارته درعـًا من صَفوَان أخرجهـا أبـو داود في سننه، كتـاب البيـوع، بـاب في تضـمين العارية، برقم: (٣٥٦٢)، والنسائي في السـنن الكـبرىٰ، كتـاب العاريـة، بـاب تضـمين العاريـة، برقم: (٥٧٤٤)، (٥/ ٣٣١)، والإمام أحَمِدَ في المسَنَد، بـرقم: (٢٧٦٣٦)، (٤٥/ ٦٠٦)، وقصـة إعطائه ﷺ الغنم أخرجها أصحاب السير، وفي مسلم جزء منه، كتاب الفضـائل، بـاب مـا سئل رَسُول الله ﷺ شيئـًا قط فقال لا، وكثرة عطائه، برقم: (٢٣١٣)، (٤/ ١٨٠٦).

(٢) أخرجه بمعناه النسائي في السـنن الكـبرىٰ، كتـاب التفسير، سـورة الإسـراء، بـرقم: (١١٢٣٤)، (١٠/ ١٥٥)، والبيهقـي في السـنن الكـبرىٰ، كتـاب السـير، بـاب فـتح مكـه، بـرقم: (١٨٢٧٥، ١٨٢٧٦)، (٩/ ٢٠٠)، والطحاوي في شرح معاني الآثار، كتاب الحجـة في فـتح رَسُـول الله ﷺ مكة عنوة، برقم: (٥٠٤٤)، (٣/ ٣٢٥)، وأخرجه أصحـاب السير أيضـًا.

(٣) سبق تخريجه.

إلىٰ الشام مجاهداً، وخرج النَّاس يودعونه وحرصوا علىٰ أن يعيدوه، قال: لقد سبقنا قوم ليسوا من ذوي الأسنان، ولا أظُننا نلحَقّهم لو أنفقنا قنطاراً من الذهب أو قال: جبلاً من الذهب، فخرج مجاهدا في سبيل الله.

فلم يكن يدري ﷺ عن هؤلاء الأشخاص أنَّهم سيسلمون، وسيكون لهم في الإسلام شأن، فهذا الأمر كله لله، فلا ينبغي لك أن تدعو أحداً حتىٰ لو كان سيد البَشَر، فإذا كان هو لا يعلم الغَيْب فكَيْفَ تدعوه وتنزل حاجتك به، فإذا كان هذا حال سيد البَشَر ﷺ فما بالك بغيره من أتباعه. فلا تدع إلا الله، ولا تعبد إلا الله، لا تنزل حاجتك إلا بالله لا بالأنبياء ولا بالمَلَائكَة ولا بالصَّالحين.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فتاب الله عليهم وآمنوا، مَعَ أنَّهم فعلوا أشياء لم يفعلها أكثر الكفار، منها غزوهم نَبيهم ﷺ في بلاده، وشجهم له وكسر رباعيته وقتلهم بني عمهم المؤمنين، وقتلهم الأنصار والتمثيل بقتلىٰ المسلمين، وإعلاَنّهم بشركهم وكفرهم، ومَعَ هذا كله لم يقدر النَّبي ﷺ أن يدفعهم عن نفسه ولا عن أصحابه، كما قال تَعالَىٰ: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ [الجن:٢١-٢٣]، بل لجأ ﷺ الىٰ ربه المالك القادر علىٰ النَّفْع والضُّر وإهلاكهم، ودعا عليهم ﷺ في الصلاة المكتوبة جهراً، وخلفه سادات الأَوْليَاء يُؤْمنون علىٰ دعائه.

الشَّـرح

يقول الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن هؤلاء فعلوا ما فعلوا، فلو كان يستطيع النَّبي ﷺ أن يضرهم أو يعاقبهم لفعل، لكن لجأ إلىٰ الله، وهكذا المسلم إذا وقع في أمر أو في مشكلة أو في بلاء يلجأ إلىٰ الله، ولو كان يملك لأنزل بهم العقاب، فكَيْفَ تدعو من لا يملك؟ وإنَّمَا لجأ إلىٰ الله ودعا، ودعا في صلاته، ويُؤْمن خلفه سادات الأَوْليَاء وهم الصَّحابَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ خير البَشَر بعد الأنبياء، ومَعَ ذلك ما أجاب الله دعاءه ولا تأمينهم؛ لأنَّهم في علم الله سيسلمون، وسيكون لهم شأن، فهذا الموقف يعلمنا مَكانَة البَشَر؛ لأنَّه إذا كان هذا سيد البَشَر وخلفه سادات المؤمنين من الأَوْليَاء والصَّالحين، ومَعَ ذلك لم يستجب الله دعاءهم لحكمة أرادها عَزَّ وَجَلَّ فهذا يعلمنا مكان المخلوق، وأن المسلم ينبغي أن يلجأ في حاجاته إلىٰ الخالق عَزَّ وَجَلَّ الذي بيده الأمر كله.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

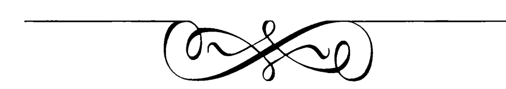
ومَعَ هذا كله ما استجاب الله له فيهم، بل تاب عليهم وآمنوا، فلو كان عنده ﷺ من النَّفْع والضُّر شيء لكان يفعل بهم ما يستحَقّونه علىٰ هذه الأفْعَال العظيمة، ولكن الأمر كما قال تَعَالَىٰ: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ (٥٢) ﴾ [إبراهيم:٥٢]، فأين هذا ممَّا يعتقده عباد القبور في الأوْليَاء والصَّالحين، بل في الطواغيت الذين يسمونهم المجاذيب والفقراء، أنَّهم ينفعون من دعاهم، وينصرون من لاذ بحماهم ويدعونهم براً وبحراً في غيبتهم وحضرتهم.

الشَّرْح

هذه المعاني الشَّرْعية في القُرْآن والسنة، ولكن يوجد في المسلمين اليوم من يدعو الأموات ويستغيث بهم ويلجأ إليهم؛ لأنَّهم جهلوا هذه النصوص الشَّرْعية، وإلا فلو قرؤوا القُرْآن الكَريم قراءة متأمل متفحص لمعناه لرأوا أن القُرْآن الكَريم يفرق بَيْنَ الخالق والمخلوق ومكانته، وأن الأنْبياء والصَّالحين ليس لهم من أمر المخلوق شيء، بل الأمر كله لله ﷻ، والكون كله بيد الله، النَّفْع والضُّر بيد الله، والعافية والمرض بيد الله، والحَيَاة والموت بيد الله، فإذا آمن الإنسَان بهذا لا يتجه قلبه إلا إلىٰ الله، وهذا هو التَّوحيد، هذا القلب المُوَحَّد لو وقع في المعاصي الكثيرة وامتلأت الأرض من معاصيه فإن هذا التَّوحيد يحبط هذه المعاصي، ويلقاه الله يوم القيَامة بمثل معاصيه حسنات؛ لأنالمعاصي ضعف بشري، والله يعلم ضعفه، يعلم أنَّه ضَعيف فيتجاوز عنه، قال تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ

وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ [آل عمران:١٣٥]، فليس من شرط المؤمن أن لا يقع في المعصية وإن كان هذا كمالاً مطلوباً، فالوقوع في المعصية ليس دليلاً على نقص التَّوحيد، إنَّما هذا لجهل الإنسَان أو ضعف إيمأنَّه وتصديقه بالعقاب أو بعض الأشياء التي لا تؤثر على التَّوحيد.

لكن الذي يعلق قلبه بغير الله ويستغيث بغير الله ويدعو غير الله ويعتقد أن مَعَ الله شريكاً يصرف الكون فهذا لا يغفر الله ذنبه ولا يقبل الله عمله، بل كل عمله يجعله الله يوم القيَامة هباءً منثوراً، التَّوحيد أمره خطير، ففرق بَيْنَ المعصية التي يكون سببها الشهوة، وبَيْنَ الشرك الذي يكون سببه أن تساوي الخالق مَعَ المخلوق أو ترفع المخلوق إلى الخالق، هذه لا يغفرها الله ﷻ، وبعض النَّاس يعتقد فيمن يسمونهم المجاذيب، أي أن هذا الشَّخْص يقولون أنَّه قد وصل درجة من درجات الصلاح حتى أن الله جذبه إليه، فأصبح يشارك الله في التصرف ويعمل ما يريد، ويعطي من يريد، ويغيث من يريد، وهذا ضلال وشرك يستحَقّ صاحبه العقاب يوم القيَامة.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: وفيه عن أبي هريرة قال: قام رَسُول الله ﷺ حين أنزل الله عليه: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٤]، قال: (يا معشر قريش أو كلمة نحوها اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا عباس بن عبدالمطلب لا أغني عنك من الله شيئًا، يا صفية عمة رَسُول الله ﷺ لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا فاطمة بنت مُحَمَّد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئًا).

الشَّرْح

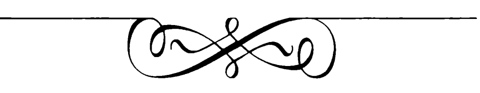
هذه خطبة خطبها نَبِيّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على الصفا عند بعثته، فمن بداية البعثة يخبر النَّاس أنَّه لا يملك لهم شيئًا إلا الإنذار والدعوة، وهذا الحَديث فيه نقص في متنه بعد قوله: لا أغني عنكم من الله شيئًا في البُخَاري، (يا بني عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئًا)[1] في مسلم بدلها: (يا بني عبد المطلب)[2]، وهذه كلها أسماء لأجداد نَبِيّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فإن الجد الأعلى هو عبد مناف، وقد ولد له أربعة من الولد، الأول: هاشم، والثاني: المطلب، والثالث: نوفل، والرابع: عبد شمس، هاشم جد النَّبي الثاني، وجده الأول عبد المطلب، فإن عبد المطلب أبو أبي نَبِيّنا - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -، وولد له من الولد عشرة، وفي قصة مشهورة في قصة زمزم أنَّه قال: لو جاء لي عشرة من الولد لحفرت زمزم، ثمَّ وعد إن تمكن

---

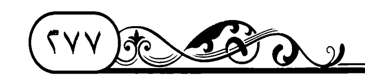
(١) صَحِيح البُخَارِي، كتاب التفسير، باب (وأنذر عشيرتك الأقربَيْنَ، واخفض جناحك)، برقم: (٤٧٧١).

(٢) صَحِيح مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله تَعَالَىٰ: (وأنذر عشيرتك الأقربَيْنَ)، برقم: (٢٠٦)، (١/ ١٩٢).

منها أن ينحر بعض أولاده، ومن أولاده: أبو لهب، وأبو طالب، والعباس، وحمزة، وعبد الله أبو نبيّنا - عليه الصلاة والسلام -، فعندما وعد بأن ينحر بعض أولاده أجرىٰ قُرعةً فنزلت القرعة علىٰ عبد الله أبي نَبيّنا ﷺ، فما أراد أن يذبح عبد الله، فأعاد القرعة مرات، ثمَّ أخيراً جعل مقابلها مائة من الإبل فجاءت القرعة علىٰ مائة من الإبل، فأصبحت هذه دية الإنسَان المسلم من ذلك اليوم إلىٰ الآن، فنجا عبد الله من القتل ثمَّ ولد له نَبيّنا ﷺ، فهنا يقول: يا بني عبد مناف، أو يا بني عبد المطلب، وهذا نداء لآل بيته، قال: (**لا أغني عنكم من الله شيئًا يا عباس بن عبد المطلب**)[1]، كان نَبيّنا يُعظم عمه العباس رضي الله عنه، وقد أسلم، واختلف في زمن إسلامه، هل أسلم في مكة قبل الفتح أو بعد الفتح؟ منهم من قال: أنَّه أسلم في وقت مبكر، ولكن بقي في مكة بأمر نَبيّنا ﷺ، ومنهم من قال غير ذلك، ثمَّ كان للعباس من الولد عندما توفي عشرة من الولد، المشهور منهم عبد الله بن العباس، والفضل بن العباس، وهو أكبر من عبد الله، ولهذا كُنْيَة العباس أبو الفضل، فنادىٰ جده ونادىٰ عمه، ونادىٰ عمته صفية ونادىٰ بنته، وكلهم قال لهم: (**لا أغني عنكم من الله شيئًا**)[2] وإن كنت أنا رَسُول الله لكن ليس لي من الأمر شيء، أنقذوا أنفسكم من عذاب الله، وهذا قاله في أول بعثته، تبرأ من أن يكون له حول أو طول في أن يمنع أو يدفع عنهم عذاب الله سبحانه وتعالى، فهذا يبيّنَ لنا أنَّه ليس لأحد من المخلوقين أمر أو مشاركة لله في خلقه.



(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ش: قوله: (وفيه) أي في صَحيح البُخَاري، قوله: (عن أبي هريرة) اختلف الحفاظ في اسمه علىٰ أكثر من ثلاثين قولاً، صحح النووي أن اسمه عبدالرحمن بن صخر، كما رواه الحَاكم في المستدرك عن أبي هريرة قال: كان اسمي في الجَاهليَّة عبد شمس بن صخر فسميت في الإسلام عبد الرحمن، وقال غيره: اسمه عبدالله بن عمرو، وقيل: ابن عامر، وقال ابن الكَلبي: اسمه عمير بن عامر، ويقال: كان اسمه في الجَاهليَّة عبد شمس، وكنيته أبو الأسود، فسماه رَسُول الله ﷺ عبدالله، وكناه أبا هريرة، وروىٰ الدولابي بإسناده عن أبي هريرة أن النَّبي ﷺ سماه عبدالله، وهو دوسي من فضلاء الصَّحابَة وحفاظهم وعلمائهم، حفظ عن النَّبي ﷺ أكثر ممَّا حفظه غيره، وروي له في كتب السنة أكثر من خمسة آلاف حديث، ومات سنة سبعة أو ثمَّان أو تسع وخمسين وهو ابن ثمَّان وسبعين سنة.



الشَّرح

هذه ترجمة لأبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فإن هذه كنيته المشهور بها، لكن اختلف العُلَماء في اسمه إلىٰ ثلاثين قولاً؛ لأنَّه لم يرد هناك حديث صَحيح يدل علىٰ اسمه، لكن القول المشهور الذي هو يبدو أنَّه راجح أن اسمه عبد الرحمن، لَكنَّه لم يعرف إلا بكنيته رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وكان إسلامه متأخراً، فإنَّه أسلم في العام السابع للهجرة، وقال أنَّه عندما قدم إلىٰ المدينة في العام السابع وجدَ سباع بن عرفطة - اسم شخص من الصَّحابَة - قد استخلفه النَّبي ﷺ علىٰ أهل المدينة وكان يصلي بهم، فجاء في صلاة الفجر، يقول: أول ما صلىٰ الفجر معه قرأ في الركعة

الأُولَىٰ سورة مريم، وفي الثانية ويل للمطففين، فقال أبو هريرة رضي الله عنه ويـل لأبـي، وقـال: قـل رجـل مـن الأزد إلا لـه مكيـالان: مكيـال يكيـل بـه لنفسـه، ومكيـال يبخس بـه النَّـاس، هـو استحضـر في ذهنـه مـا كـان يـراه في حياتـه مـن الجَاهليَّـة، وكَيْفَ أن النَّاس في ذلك العصر لهم مكيالان، وهـذا حـال كثيـر مـن المسـلمين قديمـًا وَحَّديثـًا، وحال كثير من البَشَر قديمـًا وَحَّـديثـًا، إذا أعطـىٰ الإنسَـان حَقّـه ما أعطاه كاملاً، وإذا أخذ حَقّـه أخـذه كـاملاً وزيـادة، وهـذا لا يجـوز، فـإذا جـاء الإنسَان يشتري شيئـًا فقال له البائع: الكيلو مثلاً بخمسـة ريـالات، وكـان يأخـذ خمس حبات أو ثمَّان حبات مـن البرتقالـة في الكيلـو، فـلا يـزد حبـة زيـادة؛ لأن البائع قال: قيمة الكيلو كذا، التعامل ينبغي أن يكون فيه عفـة، فـلا تطلـب زيـادة حتىٰ لو أعطاك لا تأخذ؛ لأنك رضيت أن تأخذ هذا المقدار بهذا المبلغ، هكـذا الأدب في التعامل.

ففي قريش كان لهم مكيالان، ولهذا قال تَعَالَىٰ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ [المطففين:١]، ويل تهديد. ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [المطففين:٢، ٣]. هذا خلق الجَاهليَّة، وهذه السورة نزلـت في مكة قبل الهجرة، والآية دقيقة جداً، فالمطفف الذي ينقص سواء كان الإنقاص من الحَقّوق المادية أو الحَقّوق المعنوية، فينبغي للإنسان أن يتقي الله في الحَقّوق إذا قدر له أن يزن النَّاس أو يقيمهم، كما قال ابن تَيميَة رحمه الله وهو يتحدث عن قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام:١٥٢]، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨]. العدل في الأخذ والعطاء، العدل في ذكر أوصاف النَّاس، لا يأخذك الحب فتغمض عينيك عن المساوئ، ولا يأخذك الكره، فتغمض عينيك عن المحاسن، فهنا الآية قالت: إذا كَالوهم، ما قالت: إذا كَالوا لَهم، ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ

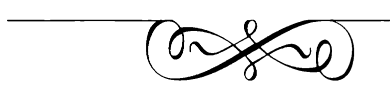
أَو وَّزَنُوهُمْ ﴾، وأنت لا تكيل الإنسَان ولا تزنه، إلا إذا أردنا الناحية المعنوية، فينبغي للإنسان أن يكون منصفاً فأبو هريرة ﵁ استحضر في ذهنه عمل أبيه وعمل قومه، يقول: قل رجل من الأزد إلا كان له مكيالان، مكيال يكيل به لنفسه، ومكيال يبخس به النَّاس، فسَمِعَ هذا المقرئ يقرأ في صلاة الفجر وهو منصت للقراءة ويتدبر المعاني، فإن الله ما شرع لنا أن نقف صفوفاً خلف الإمام ساكتين إلا لنستحضر المعاني ونتدبرها، لكن كم منا إذا صلىٰ خلف الإمام يذكر ما صلىٰ، يصلي أحياناً ولا يدري ماذا قرأ وماذا قال؟ والذهن قد شرد؛ لأنالشَّيطَان يحسده علىٰ هذا الموقف، فإذا دخل في الصلاة جاء بمشاكله كلها في الصلاة حتىٰ يصرفه عن تدبر القُرْآن، فينقص أجره، فالشَّيطَان ما استطاع أن يمنعه من الصلاة، لكن علىٰ أقل تقدير أن يحرمه الأجر، فليس له من الأجر في الصلاة إلا بقدر ما يستحضر فيها، فإن لم يحضر قلبه ودخل في الصلاة بدون قلب فإنَّه قد يخرج من الصلاة ولم يكتب له منها شيئ.

وكذلك له ﵁ آثار كثيرة، فإنَّه كان من حفاظ الصَّحابَة، وكان يقول: يقولون أكثر أبو هريرة والله الموعد، قد كنت رجلاً مسكيناً أصحب رَسُول الله ﷺ، وأنَّه ذات يوم قال: **(من يبسط ثوبه حتىٰ أقضي مقالتي ثمَّ يقبضه إليه لا ينسىٰ شيئاً سَمعه مني، قال: ففعلت كما قال، فوالذي بعثه بالحَقّ، ما نسيت شيئاً سَمعته منه أبداً)**[١]، فكان ﵁ من كبار حفاظ الصَّحابَة مَعَ أن إسلامه متأخر، وهو أكثر الصَّحابَة رواية للحديث ويقول في حديث آخر: **(حفظت وعاءين من النَّبي ﷺ)** أي نوعين من العلْم، **(أمَّا أحدهما فبثثته، وأمَّا الآخر فلو**

---

(١) أخرج البخاري في صَحِيحه، كتاب العِلْم، باب حفظ العِلْم، برقم: (١١٨)، (١١٩)، ومسلم في صَحِيح، كتاب الفضائل، باب من فضائل أبي هريرة الدوسي، برقم: (٢٤٩٢)، (٤/ ١٩٣٩).

بثته لقطع هذا البلعوم)(١)؛ لأنالأول يتعلق بالحلال والحرام، والثاني يتعلق بأشخاص وماذا قال فيهم النَّبي ﷺ، وكَيْفَ ذمهم، وفي عصر أبي هريرة رضي الله عنه هؤلاء كان لهم سلطان ورئاسة، فلو أخبر عما ورد فيهم من الأَحَاديْث ربما آذوه، قال الذهبي رحمه الله في هذه المسألة: هذا دال علىٰ جواز كتمان بعض الأَحَاديْث التي تحرك الفتنة في الأصول أو الفروع أو المدح أو الذم، وأمَّا أحاديث تتعلق بالحلال والحرام فلا يحل كتمانَه بوجه من الوجوه فإنَّه من البَينات والهدىٰ، هذا الصَّحَابي لا ينشر بعض الأَحَاديْث وهو صحابي جليل عدل ثقَة، لَكنَّه رضي الله عنه يعلم أنَّه يترتب علىٰ نشره مفسدة، وعدم نشره لا يترتب عليه شيء؛ لأنَّها أخبار، ما يترتب عليها لا اعتقاد ولا عمل، لكن أحاديث الأحكام في الحلال والحرام لا يجوز كتمها، أمَّا ما يتعلق بأمور أخرىٰ ليست من الاعتقاد ولا من الأحكام، إنَّمَا هي تتعلق بالأشخاص ذماً أو مدحاً فليس من المصلحة نشرها إن ترتب عليها مفسدة.



(١) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (قام رَسُول الله ﷺ) في الصَحيح من رواية ابن عباس: (صعد النَّبي ﷺ على الصفا).

قوله: (حين أنزل الله عليه: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٤]).
عشيرة الرجل هم بنو أبيه الأدنون أو قبيلته، والأقربَيْنَ أي الأقرب فالأقرب منهم؛ لأَنَّهم أحَقّ النَّاس ببرك وإحسانك الدّيني والدنيوي كما قال تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم:٦] الآية.
وقال النَّبي ﷺ لمن قال له: (من أبر؟ قال: أمك، قال: ثمَّ من؟ قال: ثمَّ أباك، ثمَّ أختك وأخاك)، ولأَنَّه إذا قام عليهم في أمر الله كان أدعىٰ لغيرهم إلىٰ الانقياد والطاعة له، ولئلا يأخذه ما يأخذ القريب للقريب من الرأفة والمحاباة فيحابيهم في الدعوة والتخويف، ولذلك أمر بإنذارهم خاصة.

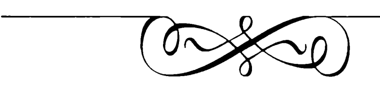


الشَّرْح

قوله: (صعد النَّبي ﷺ على الصفا) هذا يبيّنَ مكان الكلام الذي قاله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

هنا تعليق علىٰ تلك الخطبة التي خطبها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في أول الدعوة، وهو أنَّه خاطب أقرباءه؛ لأنَّ مسئولية الإنسَان مَعَ أقربائه مقدمة عن مسئوليته عن غيره، فالإنسَان مسؤوليته درجات، أول مسئوليته عن نفسه هو، ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾، ثمَّ أهلك، تبدأ بأبيك وأمك وأولادك وزوجك، ثمَّ الأقربَيْنَ، ثمَّ الجيران، ثمَّ أهل الحي، وهكذا الإنسَان يتدرج بالنصيحة، يتدرج في التعليم والتوجيه والتذكير، فيبدأ بالأقرب، هنا أول ما أنزل الله: ﴿وَأَنذِرْ ﴾ ما قال: بشر، أي: أنذرهم عذاب الله إن بقوا علىٰ شركهم، فأولاً أنذر أقرباءه بني عبد مناف، أو بني عبد

المطلب، ثمَّ عمه العباس وعمته صفية، وابنته فاطمة، كل هؤلاء أقرباؤه ﷺ، فأول من أنذر أقرباؤه، فقال: هذا حتىٰ لا يأخذ الإنسَان محاباة، فإذا لم يأخذه محاباة مَعَ أقربائه فلن تأخذه مَعَ غيرهم من الأقرباء، ما قال: هؤلاء أقربائي وأنا رَسُول الله، فالله سيغفر لهم، ميزان الله واحد، الميزان لا يقدم أحداً علىٰ أحد ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]. ميزان الله الحسنات والسيئات، نعم إذا كان الإنسَان صالحاً وله ذرية صالحة يكرمها الله لكرامة أبيها الصالح، فآل البيت لهم حَقّوق، والله سيكرمهم إن أطاعوه واتبعوا سنته، لكن إن عصوه فيكون لهم عقاب أشد، فبدأ بالأقرب فالأقرب، يقول: إذا كان هذا الإنذار لأقربائه فلغيرهم من باب أولىٰ.



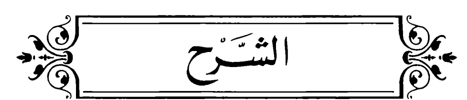
قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقد أمره الله أيضـًا بالنذارة العامة، كما قال: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم:٩٧]، وقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾﴾ [يس:٦].

ولا تنافي بَيْنَ هما لأنالنذارة الخاصة فرد من أفراد العامة.

قوله: (يا معشر قريش) المعشر كمسكن: الجماعة.

قوله: (أو كلمة نحوها) هو بنصب كلمة علىٰ أنَّه معطوف علىٰ ما قبله، أي أو قال كلمة نحو قوله: يا معشر قريش أي بمعناها، قوله: (اشتروا أنفسكم) أي بتوحيد الله وإخلاص العبَادة له، وعدم الإشراك به وطاعته فيما أمر والانتهاء عما عنه زجر، فإن جميع ذلك ثمَّن النجاة والخلاص من عذاب الله، لا الاعتماد علىٰ الأنساب، وترك الأسباب، فإن ذلك غير نافع عند رب الأرباب.



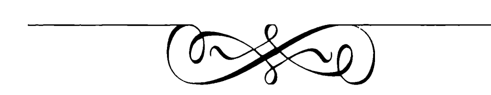
الشَّرح

الإنذار كان علىٰ مرحلتين: مرحلة تتعلق بأقربائه، ثمَّ المرحلة الثانية توسيع الدائرة لينذر النَّاس جميعـًا.

قوله: (يا معشر قريش) المعشَر يطلق في اللغة ويراد به الجماعة، وقال: (كمسكن)، العُلَماء يأتون بلفظة مشهورة لبيان وزن اللفظة المُفسرة، فهنا وزن معشر وزنها كمسكن في قراءتها.

لو كان النسب نافعـًا لنفع عمه أبا لهب، ومَعَ ذلك أنزل فيه سورة تقرأ إلىٰ يوم القيَامة، وكذا لنفع عمه أبا طالب، فإنَّه كان من أكثر أعمامه حفظـًا له ودفاعـًا عنه وحماية له، لَكنَّه مات علىٰ الشرك، جاء نَبيّنا ﷺ إليه كما في

الصَحيح فطلب منه أن يسلم حضرعنده أبو جهل وبعض زعماء قريش، فقال رَسُول الله ﷺ: (يا عمي قل كلمة أحاج لك بها عند الله، فقال أبو جهل ومن معه: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟) فما زال الرَسُول ﷺ يرددها، وما زالوا هم يرددون عليه قولهم: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ ما استطاع ﷺ أن يدخل عمه في الإسلام، لو كان يملك أدخله، فمات على الشرك، فسئل يا رَسُول الله كان عمك يحوطك وينصرك، هل نفعته بشيء؟ قال: (يوم القيَامة أشَفَع فيه، فيخرجه الله إلى ضحضاح من النَّار يغلي منه دماغه)(١)، أو قال: (في قدميه نعلأنمن نار يغلى منهما دماغه من شدة العذاب)(٢)، هذا أكثر ما استطاع أن يقدمه له، ينقله من عذاب شديد إلى عذاب قليل، ولا يستطيع أن يخرجه من النَّار، فيقول ﷺ: أنجوا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئًا، فالذي يظَن أنَّه بنسبه لرَسُول الله ﷺ يمكن أن يعفى عنه يكون جاهلاً، هذا يبيْنَ أن النسب لا يغني ولابد من العمل.



(١) أخرجه البُخَارِي في صَحِيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، برقم: (٣٨٨٥)، ومسلم في صَحِيحه، كتاب الإيمان، باب شَفَاعَة النَّبِي ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه، برقم: (٢١٠)، (١/ ١٩٥).
(٢) أخرجه مسلم في صَحِيحه، كتاب الإيمان، باب أهل أهل النَّار عذابًا، برقم: (٢١٢)، (١/ ١٩٦).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ودفع بقوله: (لا أغني عنكم من الله شيئًا) ما عساه أن يتوهم بعضهم أنَّه يغني عنهم من الله شيئًا بشفاعته، فإذا كان لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضراً، ولا يدفع عن نفسه عذاب ربه لو عصاه، كما قال تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأنعام:١٥]. فكَيْفَ يملك لغيره نفعًا أو ضراً، أو يدفع عنه عذاب الله، وأمَّا شفاعته ﷺ في بعض العصاة فهو أمر من الله ابتداء فضلاً عليه وعليهم، لا أنَّه يَشْفَع فيمن يشاء ويدخل الجنَّة من يشاء، وفي صَحيح البُخَاري بعد قوله: (لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئًا) فلعل المُصَنِّف اختصرها.

قوله: (يا عباس بن عبدالمطلب) بنصب ابن و يجوز في عباس الرفع والنصب، وكذا القول في قوله: (ويا صفية عمة رَسُول الله، ويا فاطمة بنت مُحَمَّد ﷺ).

قوله: (سليني من مالي ما شئت) في رواية مسلم عن عائشة قالت: لما نزلت ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٤]. قام رَسُول الله ﷺ فقال: (يا فاطمة بنت مُحَمَّد، يا صفية بنت عبد المطلب، يا بني عبدالمطلب سلوني من مالي ما شئتم) فبَيَّنَ ﷺ أنَّه لا ينجيهم من عذاب الله، ولا يدخلهم الجنَّة، ولا يقربهم إلىٰ الله، وإنَّمَا الذي يقرب إلىٰ الله ويدخل الجنَّة وينجي من النَّار برحمة الله، هو طاعة الله، وأمَّا ما يقدر عليه ﷺ من أمور الدُّنيَا فلا يبخل بها عنهم، كما قال: (سلوني من مالي ما شئتم) وكما قال: (ألا إن لكم رحمًا سأبلها ببلالها) رواه أحمَدَ وعبد بن حميد وابن المنذر وهو عند مسلم في حديث آخر.



الشَّرح

يقول الرَسُول ﷺ: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأنعام:١٥]، هو يخاف من العذاب لو وقع منه خطأ أو معصية، فما بالك بغيره،

إذا كان هو يقول: إنني أن أخاف علىٰ نفسي لو عصيت فكَيْفَ أستطيع أن أنقذكم من عذاب الله؟ لكن قد يقال: أنَّه يوم القيَامة يَشَفَع، نعم يَشَفَع، لَكنَّه الشَّفَاعَة لها أدب، ولها صورة غير ما في أذهان الجهلة، يوم القيَامة يأتي فيسجد ويستأذن أن يَشَفَع، يستأذن الله يوم القيَامة أن يَشفَع، يأتي فيضع جبهته الشريفة علىٰ الأرض خضوعـًا وذلاً لله، يأتي عبداً لله، يسجد، ويخضع ويذل لله، ويسبح الله، ويحَمدَ الله، ويستأذنه بالشَّفَاعَة، فالله يقول: (**يا مُحَمَّد، ارفع رأسك، واسأل تعط، واشَفَع تشَفَع**)[1] فيأتي الإذن، هذا أدب الرَسُول ﷺ مَعَ الله يوم القيَامة، فهو يَشَفَع، لكن في عصاة المُوَحَّدين، ما يَشَفَع في الكافر، ليس له شَفَاعَة في الكفار إلا هذه الشَّفَاعَة، وهي شفاعته في عمه أبي طالب أن يخرجه من شدة النَّار إلىٰ دحضاح من النَّار، وأمَّا غيرها فليس له شَفَاعَة مَعَ من دخل النَّار من غير المُوَحَّدين.

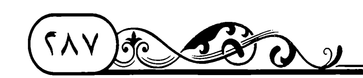
وهنا مسألة لغوية، المنادىٰ إذا كان علمـاً يرفع، تقول: يا مُحَمَّد، ولكـن إن نويت الإضافة فيجوز في ابن النصب، فتقـول: يـا مُحَمَّـد بـنَ عبـد الله، يـا صـفية بنتَ عـم رَسُـول الله، لكـن إذا نويـت القطـع ترفـع، فتقـول: يـا مُحَمَّـد بـنُ، أنـت مخير في ذلك إن أردت بابن القطع تجعلها صـفة لمُحَمَّـد، وإن جعلتهـا مضـافة لما بعدها فتنصبها، هذه في طريقة الإعراب فيما يتعلق باللغة.

قوله ﷺ: (**سليني من مالي ما شئت**) أي: يقول الحَقّوق في الدُّنيَا لن أبخـل بها عليكم، سلوني من مالي ما شئتم، (**ولكم علي رحـم سـأبلها ببلالهـا**)[2] أي: سأصلها وسأحترمها، وسـأحافظ عليهـا، أمَّـا في الآخـرة فلـيس لـي فيهـا شـيء، الأمر كله لله ﷻ.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في صَحِيحه، كتاب الإيمان، باب في قوله تَعَالَىٰ: (وأنـذر عشـيرتك الأقـربَيْنَ)، برقم: (٢٠٤)، (١/ ١٩٢).



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فإذا صرح وهو سيد المُرسَلين لأقاربه المؤمنين وغيرهم، خصوصًا سيدة نساء العالمين وعمه وعمته وآمن الإنسَان أنَّه لا يقول إلا الحَقّ، ثمَّ نظر إلىٰ ما وقع في قلوب كثير من النَّاس من الاعتقاد فيه، وفي غيره من الأنْبياء والصَّالحين أنَّهم ينفعون ويضرون، ويغنون من عذاب الله، حتىٰ يقول صاحب البردة:

فإن من جودك الدُّنيَا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم.

تبَيْنَ له التَّوحيد وعرف غربة الدّين.



الشَّرح

يقول الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ: إذا عرفت ما تقدم من الأَحَاديْث الصَحيحة ومن الآيَات القُرْآنية، وأدركت أن نَبيّنا ﷺ لا يملك، وقارنت بَيْنَ هذه المعاني وما وقع فيه كثير من المسلمين تبَيْنَ لك التَّوحيد، ويأتي بنُموذَج وسيأتي معنا نماذج، وهو بيت من قصيدة البردة المشهورة للبوصيري، فيقول فيه:

فإن من جودك الدُّنيَا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم.

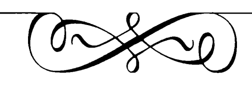
أي: الدُّنيَا والآخرة من جود نَبيّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهذا أمر عجيب! ، كَيْفَ الدُّنيَا والآخرة من كرم رَسُول الله ﷺ أو من جوده، أين جود الله؟ الدُّنيَا والآخرة كلها من جود الله عَزَّ وَجَلَّ، ونَبيّنا ﷺ نفسه من جود الله، هو الذي خلقه، وهو الذي أكرمه، وهو الذي أرسله، وهو الذي أكرمه بالشَّفَاعَة، فالكون كله لله، ليس للمخلوق فيه شيء، فالذي يعتقد أن الدُّنيَا والآخرة من جود مخلوق إنسان جاهل بحَقّ الخالق، نَبيّنا ﷺ له مَكَانَة وله احترام وتقدير، لكن لا ترفعه إلىٰ مَكَانَة الله، لا تصرف حَقّ الله له، فإن هذا شرك لا يغفره الله،

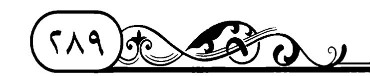
وكذلك: **ومن علمك علم اللوح والقلم**، اللوح كتب فيه كل شيء منذ خلق الله الكون إلىٰ قيام الساعة، كَيْفَ من علمه علم اللوح والقلم، ومر أنَّه لا يعلم أن هؤلاء الكفار سيسلمون.

هنا الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر هذا البيت الذي هو من قصيدة البردة للبوصيري، عاش في القرن السابع في أواخره وتوفي عام ست مائة وست وتسعين، وهو مغربي الأصل وأمه مصرية من مدينة تسمىٰ بوصير، فنسب إلىٰ هذه المدينة وأطلق عليه البوصيري، وهي قصيدة تسمىٰ بقصيدة البردة تشبيها لها بقصيدة كعب بن زهير التي قالها في النَّبي ﷺ وهو يمدحه، ولكن شَتَّان بَيْنَ القصيدتين قصيدة تقول الحَقّ وقصيدة قد مزجت بالبَاطل، فيقول فيه:

فإن من جودك الدُّنيَا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

هذا فيه مبالغة وإطراء واعتداء علىٰ حَقّ الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو المتفضل المنعم، الدُّنيَا من جوده والآخرة من جوده والرَسُول ﷺ من جوده والدّين كله من جوده وليس هناك أحد من البَشَر له فضل علىٰ أحد من خلق الله إلا بإذن من الله عَزَّ وَجَلَّ، وهذه القصيدة فيها أبيات كثيرة منها الحسن الذي يمدح النَّبي ﷺ بما هو أهله وفيها عبارات جميلة، ولَكنَّها ورد فيها عبارات شركية كهذا البيت.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فأين هذا من قول صاحب البردة والبرعي وأضرابهما من المادحين له ﷺ بما هو يتبرأ منه ليلاً ونهاراً ويبيّنَ اختصاصه بالخالق تَعَالَىٰ وتقدس كما قال تَعَالَىٰ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٨٨].

وقال سُبحانَه: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [يونس:٣٢، ٣٣].

تالله لقد تاهت عقول تركت كلام ربها وكلام نَبيها لوساوس صدرها وما ألقاه الشَّيطَان في نفوسها.

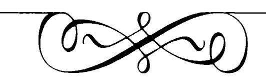
الشَّرح

يقول الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من قرأ هذا البيت وأمثاله من الأبيات الشعرية التي بالغت في وصف رَسُول الله ﷺ حتىٰ أشركته مَعَ الله جَلَّ وَعَلَا يعرف غربة الدّين ويعلم أن هذا القول وأمثاله إطراء وغلو ومبالغة يكرهها الله جَلَّ وَعَلَا، فقال لنَبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ﴾ [الأعراف:١٨٨].

وهذا تكرر في آيات عدة، أن الله تَعَالَىٰ يقول لنَبيه ﷺ: يا مُحمَّد أخبر أمتك عن مكانتك، فأنت وإن كنت رَسُولاً مفضلاً ومشرفاً، ولك عند الله المقام الأعلىٰ، لكن ليس لك شرك في الألوهية ولا في الربوبية، فإن الله جَلَّ وَعَلَا متفرد في خلقه وفي ألوهيته لا يشاركه غيره لا ملك مقرب ولا نَبي مُرسَل،

فلا يستطيع ﷺ أن ينفع غيره أو يضره إلا بإذن من الله ﷻ، وقد مر قوله ﷻ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨]، أي ليس لك من أمر الخلق شيء، فإن الله ﷻ هو صاحب الأمر أولاً وآخرًا، ونَبيّنا عليه الصلاة والسلام لا يعلم الغيْب كما في هذه الآية: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف:١٨٨].

فنبيّنَ ا عليه الصلاة والسلام أفضل البَشَر وأشرفهم وسيدهم وفي قمة الهرم البَشَرىٰ في الدُّنيَا والآخرة حتىٰ إن في أعلىٰ درجات الجنَّة مَكَانَة لا ينزلها إلا نَبيّنا ﷺ، لَكنَّه مَعَ ذلك عبد لله كما قال تَعَالَىٰ: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء:١]، فذكر عبوديته له في أكثر من موطن، فينبغي للمسلم أن يعرف حَقّ الله ﷻ وحَقّ نَبيه عليه الصلاة والسلام، ويعطي كل ذي حَقّ حَقّه، فلا يخلط حَقّ الله بحَقّ خلقه ولو كان رَسُوله عليه الصلاة والسلام.



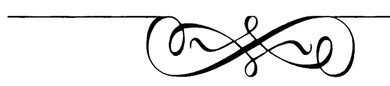
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومن العجب أن اللعين كادهم مكيدة أدرك بها مأموله، فأظهر لهم هذا الشرك في صورة محبته ﷺ وتعظيمه ومحبة الصَّالحين وتعظيمهم، ولعمر الله إن تبرئتهم من هذا التعظيم والمحبة هو التعظيم لهم والمحبة وهو الواجب المتعين، وأظهر لهم التَّوحيد والإخلاص في صورة بغض النَّبي ﷺ وبغض الصَّالحين والتَنَقُّص بهم وما شعروا أنَّهم تَنَقَّصوا الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وبخسوه حَقّه وتَنَقَّصوا النَّبي ﷺ والصَّالحين بذلك.

الشَّرح

قوله: (ومن العجب أن اللعين كادهم) أي إبليس اللعين كاد هذه الطائفة التي أشركت نَبيّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مَعَ الله عَزَّ وَجَلَّ في العبَادة وبعض أنواع تألهه، وليس كل من يقع في الشرك أو يقع في المعصية يكون كارهـًا للدين أو متعمداً للشرك، بل قد يكون مقصده سليمـاً وهو محبته لرَسُول الله ﷺ أو محبته للصالحين، ويظَن أن هذا هو الفعل الذي يرضاه الله عَزَّ وَجَلَّ عنه ويرضاه عنه رَسُوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فهذا الاعتقاد إنَّمَا أوتي من قبل جهله لا من قبل مقصده، فإن البَاطل يكون علىٰ ثلاثة أنواع: النوع الأول: أن يكون المقصد باطلاً والوسيلة باطلة، فهذا البَاطل البحت، والنوع الثاني: أن يكون المقصد حَقّاً والوسيلة باطلة فهذا ممزوج، والنوع الثالث: أن يكون المقصد باطلاً والوسيلة حَقّاً كما قال علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في قول الخَوَارج: هذه كلمة حَقّ أريد بها باطل. فالإنسَان يقول كلمة الحَقّ لكن لا يقصد بها وجه الله، يريد بها معنىٰ آخر، فهنا المقصد سليم أرادوا أن يرفعوا النَّبي ﷺ إلىٰ مكانته وأن يعطوه حَقّه لكن أخطؤوا، كما أراد الذين أوّلوا في الدّين فإنَّهم ما أرادوا إلا التنزيه لله عَزَّ وَجَلَّ، فالمقصد سليم لكن الطريقة خطأ.

ولابد للمسلم أن يحرص على سلامة المقصد وعلى سلامة الوسيلة؛ فإن الدّين مقاصد ووسائل، ومن أجمل ما كتب في بيان مقاصد الشَّرْع كتاب الموافقات للشاطبي رَحِمَهُ اللهُ فإنَّه تحدث عن مقاصد الشَّرْع، وكذلك ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في كتابه إعلام الموقعين حتى قال: أنَّه حيثمَّا كان العدل فثمَّ شرع الله. لا يلزم أن يكون هناك دليل يدل على أن هذا من الدّين، لكن إذا كان هذا الفعل عدلاً ويحَقّق المصلحة فإنَّه شرع الله؛ لأنالإسلام جاء لحفظ مصالح العبَاد وتحَقّيق العدل بَيْنَ هم ورفع لأن عنهم، فأي وسيلة من الوسائل تحَقّق هذا المقصد ولا يترتب عليها مفسدة فإنَّها تكون ممَّا شرعه الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأن الدّين جاء بقواعد عامة ليست كل وسيلة يشترط أن يكون فيها دليل يدل عليها.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

أَمَّا تَنَقُّصهم للخالق تَعَالَىٰ فلأَنَّهم جعلوا المخلوق العاجز مثل الرب القادر في القدرة علىٰ النَّفْع والضُّر، وأمَّا بخسهم حَقّه تَعَالَىٰ فلأنالعبَادة بجميع أنواعها حَقّ لله تَعَالَىٰ فإذا جعلوا شيئًا منها لغيره فقد بخسوه حَقّه.

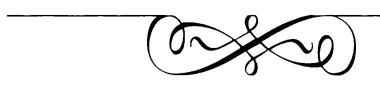
وأمَّا تَنَقُّصهم للنَبي ﷺ وللصالحين فلأَنَّهم ظَنوا أَنَّهم راضون منهم بذلك أو أمروهم به وحاشا لله أن يرضوا بذلك أو يأمروا به كما قال تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥].

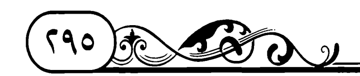
الشَّرح

يفصل رَحِمَهُ اللَّهُ أوجه تَنَقُّص الله عَزَّ وَجَلَّ، قال: (وما شعروا أَنَّهم تَنَقُّصوا الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وبخسوه حَقّه وتَنَقُّصوا النَّبي ﷺ والصَّالحين بذلك أَمَّا تَنَقُّصهم للخالق تَعَالَىٰ فلأنهم جعلوا المخلوق العاجز مثل الرب القادر في القدرة علىٰ النَّفْع والضُّر). هذا أول وجه من أوجه التَنَقُّص أَنَّهم رفعوا المخلوق العاجز الفقير إلىٰ مستوىٰ الغني القادر عَزَّ وَجَلَّ، فجميع المخلوقين لاشك أَنَّهم فقراء وأن فيهم عجزاً وضعفاً ليس هناك مخلوق غني بذاته أو قادر بذاته، بل المخلوق قد يكون غنيا لأن الله أغناه وقد يكون قادرا لأنَّ الله أقدره، أمَّا ربنا -عَزَّ وَجَلَّ- فإنَّه غني بذاته وقادر لذاته تَعَالَىٰ، فالذين يرفعون المخلوق إلىٰ مستوىٰ الخالق فإنَّهم قد تَنَقُّصوا بذلك الخالق عَزَّ وَجَلَّ.

قوله: (وأمَّا بخسهم حَقّه تَعَالَىٰ فلأنالعبَادة بجميع أنواعها حَقّ لله تَعَالَىٰ) هذا بخس حَقّ الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنالعبَادة كلها لله، فمن صرف بعض حَقّه لغيره، فقد بخس الله حَقّه، فإن البخس هو الإنقاص.

هل صرف العبَادة للنَبي ﷺ تَنقُص؟ نعم؛ لأنّ وصف النَّبي ﷺ بغير صفَاته التي لا يستحَقّها تَنقُص، فإن كانت صفَات مذمومة هذا تَنقُص، وإن وصف بصفَات الله فإنَّه تَنقُص، ولهذا يقال في صفَات الله ﷻ: الكبر في حَقّ الله كمال، والكبر في حَقّ العبَاد نقص. فصفة الله ﷻ إذا صرفت للمخلوق يكون نقصًا للمخلوق؛ لأنَّه لا يستحَقّه، فنحن نصرف له ما لا يستحَقّه، لَكنَّها لله كمال، فهذه صفَات حَقّوق الله ﷻ إذا صرفناها لغيره نكون قد وصفنا النَّبي ﷺ بما لا يستحَقّ، وفي هذا تَنقُص لدينه وتَنقُص لمكانَّته عليه الصلاة والسلام؛ لأنَّه لم يدع إلىٰ ذلك، وما جاء نَبي إلا ودعا النَّاس إلىٰ عبَادَة الله سبحانه وتعالى.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي الحَديث من الفوائد غير ما تقدم: جده ﷺ في هذا الأمر بحيث فعل ما نسب به إلىٰ الجنُّون وكذلك لو يفعله مسلم الأنقاله المُصَنّف.



الشَّرح

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وفي هذا الحَديث من الفوائد غير ما تقدم: جده ﷺ في هذا الأمر بحيث فعل ما نسب به إلىٰ الجنُّون، وكذلك لو يفعله مسلم الآن. قاله المُصَنّف). تقدم الحَديث الذي فيه أنَّه وقف ﷺ علىٰ الصفا فنادىٰ قريشًا وأقرباءه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ (يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطلب، يا عباس، يا صفية بنت عبد المطلب، يا فاطمة بنت مُحَمَّد، لا أغني عنكم من الله شيئًا أنقذوا أنفسكم. . . . . . .) إلىٰ آخر الحَديث، ففي هذا دلالة علىٰ جده ﷺ عندما أنزل الله الأمر ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٤]، وقف وما تردد ودعاهم بطنا بطنا، قبيلة فبيلة يناديهم ثمَّ يخبرهم بأنَّه لا يملك لهم من الله شيئًا.

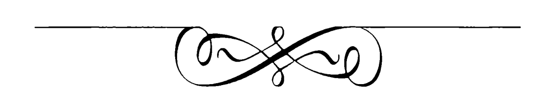
هذا الفعل بهذه الجدية لو اتصف بها اليوم بعض الدعاة في تحذير النَّاس؛ لأن قضية الدّين أخطر قضية في حياة الإنسَان بل وفي هذا الوجود هي قضية الدّين ليرىٰ مثل ما رآه ﷺ، أرأيتم الأنلو أن هناك حريقًا في هذا المَسْجد يحيط بنا من كل أطراف المَسْجد وكنا لا ندري عنه، وجاء شخص يصيح بنا: اخرجوا! الحريق! ويصيح بأعلىٰ صوته، فلا نتهمه بالجنُّون إذا كان جاداً وصادقًا، لكن لو جاء وقال: ماذا رأيكم لا تخرجون وهناك حريق والله في طرف المَسْجد؟ هذا إنسان يلعب، فقضية الدّين يترتب عليها جنة ونار، سعادة وشقاوة، تخسر نفسك إلىٰ الأبد إن لقيت الله -وَجَلَّ- وأنت لا دين لك،

أو لقيت الله مشركـًا، أو علىٰ معصية، فإنك تخسـر لا المـال، ولا التجارة ولا الأعـراض، بـل تخسـر نفسـك في عـذاب الله، مـن يطيـق عـذاب الله؟ مـن يطيـق النَّـار؟ فالقضـية خطيـرة جـداً، لكـن الأمـر كمـا قـال أحـد الـدعاة المعاصـرين: الإسلام قضية حَقّ بيدي محام فاشل. أي قضية حَقّ عظيمة لكن الذين يقومون عليها فاشلون في جديتهم وفي أساليبهم وفي اجتماعهم، وفي توحيد صفوفهم، وفي إدراكهم لمعاني الدّين، كل إنسان يدرك الـدّين مـن زاويـة صـغيرة ويظَـن أن هذا هو الدّين، مثلاً: لو أن هناك جماعة من المكفوفين وجيء بهم إلىٰ فيل، وشخص جعلوه يمسك قدم الفيل وشخص يمسك ذيل الفيل، وشخص يمسك سن الفيل وشخص يمسك خرطوم الفيل، ثمَّ أبعدوهم عن الفيل قالوا: صفوا لنا الفيل؟ كل واحد يصف الفيل بما لمست يده، لكن الفيل في الحَقّيقة هو مجموع ما وصفوه، هكذا النَّاس اليوم، كل طائفة أخذت من الدّين جزءاً منه وضخمته ودندنت حوله وبالغت فيه ونسيت بقية الجوانب، الدّين يشمل كل الدّين عقيدة وشريعة وأخلاقـًا ومعاملات، حياة الإنسَان كلها يشملها هذا الدّين، ويترتب علىٰ هذا الدّين فلاحك في الدُّنيَا والآخرة أو خسارتك في الدُّنيَا والآخرة.

فالنَّبي ﷺ عندما وقف علىٰ الصفا من أول يوم كان جاداً في الدعوة، ما توانىٰ وما توقف، كل يوم يدعو النَّاس وينذرهم ويحذرهم، ويخرج في المواسم ويخرج في القرىٰ القريبة من مكة، وفي داخل المَسْجد الحرام، ويتكلم معهم في الدّين حتىٰ وصفوه بالجنُّون، لكن كانت العاقبة لهذا الدّين وانتصر وارتفعت رايته، وأصبح نَبيّنا ﷺ في أعلىٰ درجات النبوة وأعلىٰ درجات المَكَانَة عند الله مقابل هذا الصبر والجهد، فإن الله يوم القيَامة يكرمه بأعلىٰ مكان في جنات النُعَيم؛ لأنَّه كان سبباً في الخير، فكل من عمل الخير يكون في ميزأنَّه، فكل خير كان ثمَرَّة لدعوة إنسان يكون في ميزان الداعي إلىٰ

الله ﷻ، ولهذا نبيّنا ﷺ حسنات أمته كلها في ميزانه يوم القيامة، كذلك الصَّحابَة ﵃ حسنات الامة كلها في ميزانهم؛ لأنَّهم هم الذين آزروه ونصروه وجاهدوا في سبيل الله وتحملوا المشاق في هذا الدّين، ولهذا أكرمهم الله بهذه المنزلة حتىٰ قال ﷺ: (لا تسبوا أصحابي، فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم)[1] ولو أنفق الصَّحَابي مداً من الذهب أي: قبضة ذهب وأنفق غير الصَّحَابي مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد الواحد من الصَّحابَة ﵃؛ لأن جميع حسنات الامة في ميزانهم يوم القيَامة؛ لأنَّهم كانوا السبب بعد الله ﷻ ونصروا النَّبي ﷺ في دعوته وجاهدوا في سبيل الله، ونشروا الدّين ونقلوا القُرْآن والسنن، فكلنا ثمرَّة من ثمَّار صبر الصَّحابَة ﵃ ودعوتهم، فالصَّحابَة ﵃ هم أفضل الأجيال البَشَرية بعد الأنبياء.

فيقول الشارح ؒ: لو أن إنسانًا فعل كما فعل نبيّنا ﷺ لاتهمه النَّاس بالجنَّون، ولكن لم نفعل كما فعل نبيّنا ﷺ.



(١) أخرجه البُخَارِي في صَحِيحه، كتاب فضائل الصَّحابَة، باب قول النَّبي ﷺ: لو كنت متخذا خليلاً، برقم: (٣٦٧٣)، ومسلم في صَحِيحه، كتاب فضائل الصَّحابَة ﵃، باب تحريم سب الصَّحابَة، برقم: (٢٥٤٠)، (٤/ ١٩٦٧).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفيه دليل علىٰ الاجتهاد في الأعمال وترك البطالة، والاعتماد علىٰ مجرد الانتساب إلىٰ الأشخاص كما يفعله أهل الطيش والحمق ممن ينتسب إلىٰ نَبي أو صالح ونحو ذلك؛ لأَنَّه ﷺ إذا خاطب بنته وعمه وعمته وقرابته بهذا الخطاب كان تنَبيهًا لذريتهم ونحوهم علىٰ ذلك؛ لأَنَّه إذا كان لا يغني عن هؤلاء شيئًا كان ذريتهم أولىٰ أن لا يغني عنهم من الله شيئًا، وقد قال تَعَالَىٰ لمن اكتفىٰ بالانتساب إلىٰ الأَنبياء عن متابعتهم: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة:١٣٤].

الشَّرح

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذا فيه تنَبيه لمن يكون من ذرية الصَّالحين، وخاصة ممن يكون من ذرية بنت نَبيِّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهي فاطمة الزهراء من الحسن والحسين، فإن بعض الأشخاص يعتمد علىٰ النسب ويخالف الدِّين، ويعتقد أن الرَسُول ﷺ سيَشَفَع فيه أول من يَشَفَع فيه وإن كان مخالفًا لدينه، نحن نقول: هذا عمه أبو لهب، فإن أبا لهب عم النَّبي ﷺ أخو أبيه، ومَعَ ذلك فإن الله أنزل فيه سورة تتلىٰ في ذمه إلىٰ يوم القيَامة؛ لأنأول نسب الرَسُول ﷺ هو في الدِّين، كما قال: (إن آل بني فلاألنيسوا لي بأولياء، إنَّمَا وليي الله وصالح المؤمنين)(١)، فالذي من

(١) أخرجه البُخَارِي في صَحِيحه، كتاب الأدب، باب تبل الرحم ببلالها، برقم: (٥٩٩٠)، ومسلم في صَحِيحه، كتاب الإيمان، باب موالاة المؤمنين ومقاطعة غيرهم والبراءة منهم، برقم: (٢١٥)، (١/ ١٩٧).

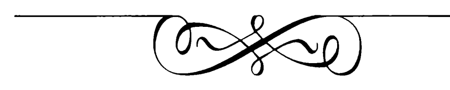
آل بيته ويكون صالحًا فإنَّه يمت إليه بطريقين: طريق النسب الإيماني، وطريق النسب المادي المعروف، فيكون له عند الرَّسُول ﷺ مَكَانَة، لكن الذي يقطع نسبه الدّيني لا ينفعه النسب الآخر، وكذلك بعض النَّاس يكون بيته بيتًا صالحًا، أو تكون له مَكَانَة اجتماعية فيعتمد عليها، لكن الحَقّيقة أن الدّين لا يزن النَّاس إلا بأعمالهم، يزن النَّاس لا بأنسابهم، ولا بأموالهم، ولا بأولادهم، ولا بمكانتهم الاجتماعية، بل بأعمالهم، فقد يكون للإنسان في الدُّنيَا أعلىٰ المناصب، ولَكنَّه عند الله يوم القيَامة في أسفلَ سافلين، جاء في الحَديث: (إن الله يحشر المتكبرين يوم القيَامة أمثال الذر)[1]، الذرَّة الصغيرة لا تراها؛ لأنَّه انتفخ في الدُّنيَا أكثر من حجمه، فيوم القيَامة ينكمش حتىٰ يصبح مثل الذرّ، تعلوه المهانة من كل مكان.

فالنسب لا يفيد من غير التقوىٰ، لكن المتقي من آل البيت له عند الله أجران، ولهذا نحن في كل صلواتنا ندعو لآل بيت رَسُول الله ﷺ، فنقول: اللهم صل علىٰ مُحَمد وعلىٰ آل مُحَمَّد، كما صليت علىٰ إبراهيم وعلىٰ آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك علىٰ مُحَمَّد وعلىٰ آل مُحَمَّد، كما باركت علىٰ آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وهناك روايتان، وأصحها هذه الرواية التي لا تذكر إبراهيم مَرَّة أخرىٰ؛ لأنَّ في هذا حفظًا لمكان الرَّسُول ﷺ، فإنَّه

---

(١) أخرجه البُخَارِي في الأدب المفرد، باب الكبر، برقم: (٥٥٧)، والترمذي في سننه، كتاب صفة القِيَامة والرقائق والورع، باب (٤٧)، برقم: (٢٤٩٢)، والإمام أحمد في المسند، برقم: (٦٦٧٧)، (١١/ ٢٦٠)، والبيهقي في شعب الإيمان، باب في التواضع وترك الزهو والصلف والخيلاء والفخر والمدح، برقم: (٨١٨٣)، (٦/ ٢٨٨)، وابن أبي شيبة في المصنف، كتاب الأدب، باب ما ذكر في الكبر، برقم: (٢٧١١٤)، (١٣/ ٥٣٧).

لا يقال صل يا الله علىٰ مُحَمَّد كما صليت علىٰ إبراهيم؛ لأنَّ مُحَمَّداً أعلىٰ من إبراهيم، وأعلىٰ من آدم، كما جاء في الحَديث: (**آدم فمن دونه تحت لوائي يوم القيَامة**)(١) ونَبيّنا ﷺ أفضل الأنَبياء والرسل، لكن تُقاس الصلاة لآل بيته علىٰ آل بيت إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فنحن في كل صلاة ندعو لآل بيت رَسُول الله ﷺ، ندعو للصالحين منهم، أمَّا المنحرفون الضالون فليس لهم في هذه الدعوة نصيب.



(١) أخرجه بمعناه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القُرْآن، باب ومن سورة بني إسرائيل، برقم: (٣١٤٨)، والإمام أحَمِدَ في المسَنَد، برقم: (٢٥٤٦)، (٤/ ٣٣٠)، والبيهقي في شعب الإيمان، فصل في براءة نَبيْنَ ا ﷺ في النبوة، برقم: (١٤٨٨)، (٢/ ١٨٠)، وأبو يعلىٰ في المسَنَد، برقم: (٢٣٢٨)، (٤/ ٢١٣)، وأخرج نحوه الحَاكِم في المستدرك، كتاب الإيمان، برقم: (٨٢)، (١/ ٧٥)، وصححه علىٰ شرط الشَّيْخين، وسكت عنه الذهبي في التلخيص.

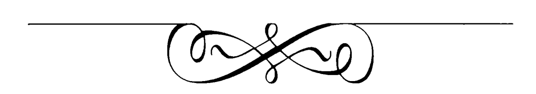


قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفيه أن أولىٰ النَّاس برَسُول الله ﷺ هم أهل طاعته ومتابعته في محياه وممَّاته، كما قال ﷺ: (ألا إن آل أبي) أي: فلانًا (ليسوا لي بأولياء إنَّمَا وليي الله وصالح المؤمنين) رواه مسلم.

الشَّرْح

هنا الحَديث فيه إبهام للراوي، أي: إبهام للشخص الذي ليس من أوليائه ﷺ، كما قال ﷺ: (ألا إن آل أبي فلان أي: فلان ليسوا لي بأولياء) فلم يذكر من هم، لكن هل هذا الإبهام من النَّبي ﷺ أو من الراوي؟ قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح مسلم: هذا من الراوي، أبهمه؛ لأنَّه خشي علىٰ نفسه، لعل هؤلاء الأشخاص الذين جاؤوا في الحَديث كانت لهم مَكَانَة وسلطة في عصره، فخشي علىٰ نفسه، فأبهم الاسم في هذا الحَديث.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وروى عبد بن حميد عن الحسن أن النَّبي ﷺ جمَعَ أهل بيته قبل موته فقال: (ألا إن لي عملي ولكم عملكم، ألا إني لا أغني عنكم من الله شيئًا، ألا إن أوليائي منكم المتقون، ألا لا أعرفنكم يوم القيَامة تأتون بالدُّنيَا تحملونها على رقابكم، ويأتي النَّاس يحملون الآخرة).



الشَّرح

هذا الحَديث مُرسَل، وعَزَّاه السيوطي في الدرر المنثور لعبد بن حميد عن الحسن مُرسَلا، وهو ضَعيف لإرساله، وقلنا المُرسَل هو الذي يسقط منه الصَّحَابي أي أن الراوي يسنَد الحَديث مباشرة إلى النَّبي ﷺ، لكن لو كان الذي أسقط هو الصَّحَابي فقط لكان صَحيحاً؛ لأنَّ الصَّحابَة كلهم عدول، لكن يُخشى أنَّه قد رواه عن تابعي آخر ضَعيف، فلهذا المُرسَل لا يقبل إلا إذا عُرف أنَّه لم يسقط منه إلا الصَّحَابي، فهذا الحَديث من مراسيل الحسن، ويقال في مراسيله أنَّها كالريح، أي: لا يعتمد عليها؛ لأنَّها لا يدرى عمَّن روى الحسن البصري، وهذا الحَديث هو آخر حديث في هذا الباب، **ونذكر ملخصاً لبعض فوائد هذا الباب.**

أولاً: أن المخلوق فقير محتاج، وما كان كذلك فلا يستحَقّ أن يُعبد؛ لأنَّ العبَادة هي إلى الغني القادر الذي يخلق، والذي لا يخلق ولا يستطيع أن ينفع ولا يضر لا يستحَقّ العبَادة.

ثانياً: أن أشرف البَشَر وأرفعهم عند الله ﷻ قدراً أعلن عجزَه وعدم قدرته على النَّفْع والضُّر، فإذا كان نَبيّنا يقول: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِى نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف:١٨٨] فما بالك بغيره عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ثالثاً: أن الغُلُو في الأفاضل سبب الشرك في بني آدم، الغُلُو هو الزيادة في إعطاء الحَقّ لصحابه، فالزيادة تؤدي إلى الغُلُو، والغُلُو هو سبب الشرك في بني

آدم، ومرَّ أن أول الشرك هو الذي كان في قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أنَّهم غلوا في جماعة من الصَّالحين.

رابعاً: أن القضاء علىٰ الشرك لا يتم إلا بنشر التَّوحيد؛ لأنَّ سبب الشرك وسبب الغُلُو هو الجهل والخلط بَيْنَ حَقّ الله وحَقّ المخلوق، فلو انتشر العلْم الشَّرْعي بَيْنَ النَّاس ما وقعوا فيما وقعوا فيه من هذا الشرك.

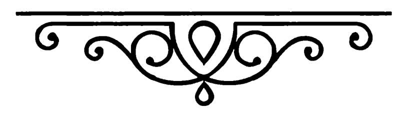
خامساً: أن صلاح الآباء لا ينتفع به الأبناء المُشركون، لكن هل الأبناء المؤمنون الذين وقعوا في المعصية ينفعهم طاعة الأباء؟ ، لعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يجعل صلاح آبائهم شفيعاً لهم يوم القيامة. نرجو الله ذلك؛ لأنَّ الله يرفع الدرَجَات، يرفع ذرية أناس في الجنَّة مَعَ آبائهم بسبب صلاح الأباء. كما قال تَعَالَىٰ: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور:٢١].

وبعد أن ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّه لا يجوز أن يُشرَك مَعَ الله من لا يخلُق، أعقبه ببيان آخر، فبعد أن ذكر عموم الخلق انتقل ليبَيْنَ أنَّ أعظم الخلق وأشرف الخلق الذين هم المَلَائكَة بعد الأنبياء، ذكر باباً يبَيْنَ فيه أن المَلَائكَة أنفسهم لا يستطيعون أن يضروا ولا ينفعوا، وأنهم يقفون من الله موقف العُبُودية والذُل والخَوف والاضطراب، أي: ليست لهم استقلالية في الأفْعَال، فيبَيْنَ هنا في قوله: باب قول الله تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٣].

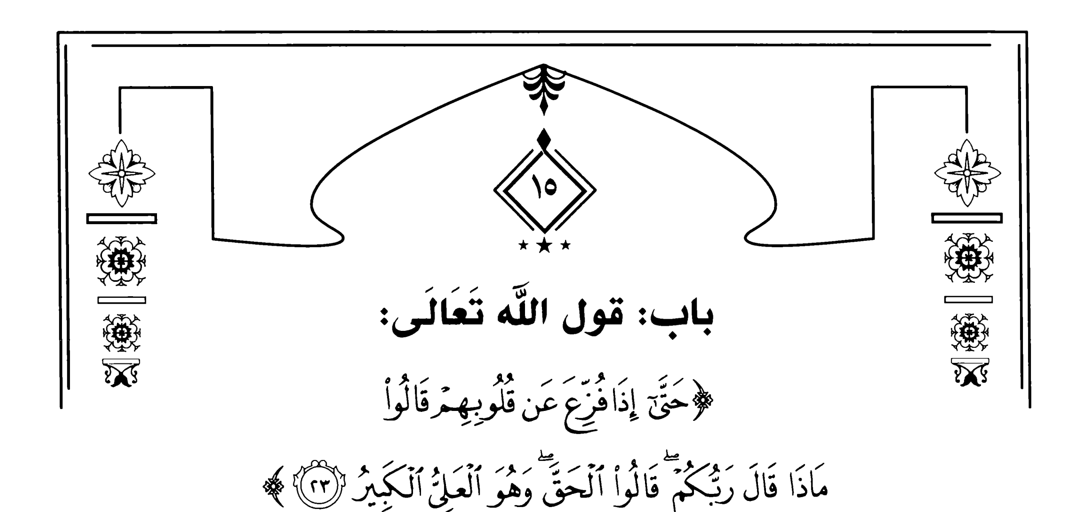
هذا العَنوان في كتاب التَّوحيد هو عنوان قد أورده البُخَاري في صَحيحه، فالمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ سار علىٰ منهج السَّلَف في عقد أبوابه، والبُخَاري رَحِمَهُ اللَّهُ كثيراً ما يعقد أبوابه، ويضع لها عناوين أمَّا آيات، وأمَّا أحاديث، بعض الأَحَاديْث صحت عنده في مكان آخر، وبعضها ليس علىٰ شرطه فيجعلها عنواناً، لكن لا يسَنَدها إلىٰ النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكذلك صاحب هذا الكتاب، عنَّوَن بالآية، **ثمَّ أورد حديثين آخرين**.

الحَديث الأول: حديث أبي هريرة ﵁ قال: أن النَّبي ﷺ قال: (إذا قضىٰ الله الأمر في السَّمَاء، ضربت المَلَائكَة بأجنحتها خضعانًا لقوله) خضعانًا لقوله أي خوفًا منه ﷻ، (كأَنَّه سلْسلَة علىٰ صَفوَان، ينفذهم ذلك، حتىٰ إذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحَقّ وهو العلي الكبير، فيسَمعها مسترقو السَمع، ومسترقو السَمَعَ هكذا بعضه فَوقَ بعض، وصفه سُفيَان بكفه وحرفها، وجعل يده فَوقَ بعض هكذا كل شخص يرسل إلىٰ من تحته، فيسَمعها مسترق السَمع، ومسترق السَمَعَ هكذا بعضه فَوقَ بعض وصفه سُفيَان بكفه، فيلقيها إلىٰ من تحته، ثمَّ يلقيها الآخر إلىٰ من تحته حتىٰ يلقيها الآخر إلىٰ أذن السَّاحر أو الكاهن، فربما أدركه الشَّهَاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه الشَّهَاب، قال: فيكذب معها السَّاحر مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال يوم كذا كذا وكذا؟ فيصدق بالكلمة التي سَمعها من السَّمَاء)[١] هذا الحَديث الأول وهو في صَحيح البُخَاري، يقول: إن مُسترق السَمَعَ إذا قضىٰ الله أمراً في السَّمَاء استرَق بعض ما يسَمَعَ من المَلَائكَة؛ لأنَّ المَلَائكَة تتكلم في السَّمَاء، تقول: الله أحدَث كذا، الله قال كذا، فقد يقول قائل: لماذا يعطي الله فرصةً للشياطين؟ هكذا حكمة الله اقتضت، وإلا فإنَّ الله لو أراد أن لا يسمعوا لم يسَمعوا، لكنّ الله أراد هذا لحكمة يعلمها ﷻ.

الحَديث الثاني: حديث ورد فيه بنفس المعنىٰ لَكنَّه لم يصح، أمَّا هذا الحَديث فإنَّه في صَحيح البُخَاري.



(١) أخرجه البُخَارِي في مواضع من صَحِيحه، منها: كتاب التفسير، باب قوله تَعَالَىٰ: (إلا من استرق السَمَعَ فأتبعه شهاب مبَيْنَ)، برقم: (٤٧٠١).



باب: قول الله تعالى:

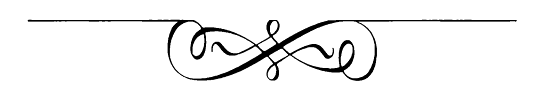
﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٢٣﴾

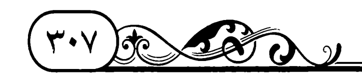
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أراد المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الترجمة بيان حال المَلَائكة الذين هم أقوىٰ وأعظم من عبد من دون الله، فإذا كان هذا حالهم مَعَ الله تَعَالَىٰ وهيبتهم منه وخشيتهم له، فكَيْفَ يدعوهم أحد من دون الله، وإذا كانوا لا يدعون مَعَ الله تَعَالَىٰ لا استقلالاً ولا وساطة بالشَّفَاعَة، فغيرهم ممن لا يقدر علىٰ شيء من الأموات والأصنام أولىٰ أن لا يدعىٰ ولا يعبد، ففيه الرد علىٰ جميع فرق المُشركين الذين يدعون مَعَ الله من لا يداني المَلَائكَة ولا يساويهم في صفة من صفَاتهم، وقد قال تَعَالَىٰ فيهم: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ٢٨﴾ [الأنبياء:٢٦-٢٨].

الشَّرح

هذه الآية تُبَيْنَ حال المَلَائكَة أمام الله ﷻ، وأَنَّهم خلق من خلقه يخشونه ﷻ، وعندما يسمَعون الوَحْي تصيبهم رهبة شديدة، وخوف شديد، ويصعقون، أي: يُصابون بمثل الإغماء من شدة الخَوف، فإذا كان هذا حالهم، كَيْفَ يُدعَون؟! ؛ لأنَّ الأمر بيد الله والكون بيد الله، فلو كان لهم مُشاركة في شيء من كون الله لكان لهم حال آخر، لكن إذا كان هذا حال المَلَائكَة الذين يُدعَون من دون الله فكَيْفَ يُدعَون، وهم أنفسهم فيهم ضعف وعجز، وفيهم خوف من الله ﷻ؛ لأنَّهم ليسوا أرباباً ولا آلهة.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

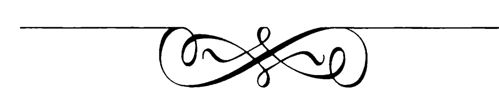
فهذا حالهم وصفَاتهم وليس لهم من الربوبية والإلهية شيء، بل ذلك لله وَحَّده لا شريك له، وكذا قال في هذه الآية: : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي زال الفزع عنها، قاله ابن عباس وابن عمر وأبو عبدالرحمن السلمي والشعبي والحسن وغيرهم، والضمير عائد على ما عادت عليه الضمائر التي للغيبة في قوله: لا يملكون، وفي أموالهم، وماله منهم، وحتىٰ تدل على الغاية وليس في الكلام ما يدل على أنَّه غاية له، فقال ابن عطية: في الكلام حذف يدل عليه الظاهر، كأنَّه قال: ولا هم شَفَعاء كما تزعمون أنتم، بل هم عبدة مسلمون أبداً، أي: منقادون ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾، والمراد المَلَائكَة على ما اختاره ابن جرير وغيره، قال ابن كثير: وهو الحَقّ الذي لا مرية فيه لصحة الأَحَاديْث فيه والآثار، وقال أبو حيان: تظاهرت الأَحَاديْث عن رَسُول الله ﷺ أن قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ إنَّمَا هي في المَلَائكَة إذا سَمعت الوَحْي إلىٰ جبْريل يأمر الله به سَمعت كجر سلْسلَة الحديد على الصَفوَان، فتفزع عند ذلك تعظيمـاً وهيبة، قال: وبهذا المعنى من ذكر المَلَائكَة في صدر الآيَات تتسق هذه الآية على الأُولَىٰ، ومن لم يشعر أن المَلَائكَة مشار إليهم من أول قوله الذين زعمتم لم تتصل له هذه الآية بما قبلها.

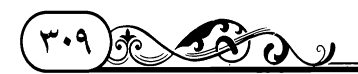


الشَّرح

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن الآيَات تتحدث عن المَلَائكَة وليست عن شيء آخر، لكن قوله في التفسير: (كجر سلْسلَة الحديد على الصَفوَان) هنا ما هو المُشبَّه؟ ، وما هو المشبَّه به؟ المشبَّه ليس هو الوَحْي، بل هو حركة الأجنحة في السُجُود

والصَّعْق، فإن المَلَائكَة تضرب بأجنحتها أي تخضع، فلكثرة المَلَائكَة في السَّمَاء تسَمَعَ لأصوات أجنحتها صوتًا كأنَّه سلْسلَة علىٰ صَفوَان، الصَفوَان: الحجر الأملس يسمىٰ صفوان، أي: ليس فيه ثُقوب، وليس فيه كدر، فجر السلْسلَة علىٰ الصَفوَان الحجر الأملس مُشبه به، والمشبَّه هو حركة الأجنحة، وليس صوتَ الوَحْي، وهذا قد ثبت عن بعض الصَّحابَة عن ابن مسعود وغيره ﷺ أنَّهم قالوا: إن الَّمشبَّه به هو حركة الأجنحة عندما تسَمَعَ الوَحْي، فلشدة خوفها تضرب بأجنحتها حتىٰ يُسْمَعَ صوت دوي كجر السلْسلَة علىٰ الصَفوَان، فهذا تشبيه لحركة أجنحة المَلَائكَة بجر السلْسلَة علىٰ الصَفوَان، وجر السلْسلَة الضخمة العظيمة علىٰ الصفا الأملس يحدث دوياً شديداً، فهذا هو المراد، وليس المراد أن الوَحْي مثل السلْسلَة علىٰ الصَفوَان والله أعلم.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال ابن كثير: هذا مقام رفيع في العظمة، وهو أنَّه تعَالَىٰ إذا تكلم بالوَحْي فسَمِعَ أهل السموات كلامه أرعدوا من الهيبة، حتىٰ يلحَقّهم مثل الغشي، قاله ابن مسعود ومسروق وغيرهما.

وقوله: ﴿قَالُواْ ٱلْحَقَّ﴾ أي قالوا: قال الله الحَقّ، وذلك لأنَّهم إذا سَمعوا كلام الله وصعقوا ثمَّ أفاقوا أخذوا يتساءلون فيقولون: ماذا قال ربكم؟ فيقولون: قال الحَقّ قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ وهو العلي أي العالي، فهو فَوقَ كل شيء، فهو تَعَالَىٰ علىٰ العَرْش الذي هو فَوقَ السموات كما قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه:٥].

الشَّرح

الغشي أي: الفزَع أو الإغماءة، وهنا قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي: رفع الله الخَوف من قلوبهم؛ لأنَّهم يصابون بذهول، بعض العُلَماء يقول: إن المَلَائكَة تظَن إذا سَمعت الوَحْي أن القيَامة قامت، فتصاب بذهول وخوف شديد فتقول: ماذا قال الله يا جبْريل؟ كما سيأتي في الحَديث الثاني، فيقول جبْريل: قال الحَقّ وهو العلي الكبير، فربما يخبرُهم بما قال إذا لم يكن من الأمور التي لا يجوز إظهارها، وربما لا يقول، فإذا أخبرهم سَمعَ مستقرقُ السَمع، فالمَلَائكَة تخشىٰ من يوم القيَامة، كل المخلوقات تأتي يوم القيَامة، وهي في رهبة شديدة، فما بالك بالإنسَان الذي يكون محطَّ السؤال والجزاء، ومحطَّ الثواب والعقاب؟.

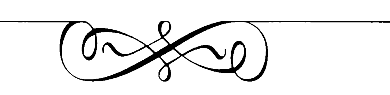
قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾، الله جَلَّ وَعَلَا خلَق الخلق وخلَق الأرض والسَّمَاوَات السبع، ثمَّ خلَق العَرْش، ثمَّ استوىٰ علىٰ العَرْش، واستواء الله علىٰ

العَرْش. هذا يُفهم معناه أولاً بدراسة المعنىٰ اللغوي عند العرب؛ لأن الألفاظ القُرْآنية ألفاظ عربية، فنفهم معنىٰ الاستواء عند العرب، وكل لفظة في لغة العرب فعلاً أو اسمـًا أو صفةً لها جانبان، جانب المعنىٰ، وجانب الكَيْفَ، فنحن ندرك في حَقّ المخلوق المعنىٰ والكَيْفَ، وربما ندرك في حَقّ المخلوق المعنىٰ دون الكَيْفَ، مثال ذلك: أن الله ذكر ما في الآخرة من النَّعيم في الجنَّات، ومن الطعام والشراب، والخمور، واللَّبن والماء، والنساء والحَيَاة الأبدية، وليس ما في الآخرة مثل ما في الدُّنيَا، قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا كما صح عنه: ليس في الآخرة ممَّا في الدُّنيَا إلا الأسماء، فأنت إنسان في الدُّنيَا وأنت إنسان في الآخرة، لكنك في الدُّنيَا نراك تبدأ صغيراً، ثمَّ تكبُر، ثمَّ تعود مَرَّة أخرىٰ إلىٰ الشَّيْخوخة حتىٰ تنتكس وتفقد قوتَك، لكن في الآخرة حياة لا يلحَقّها ضعف، ولا يلحَقّها عجز، وكذا الإنسَان في الدُّنيَا يلحَقّه الأذىٰ والقذر، وليس في الجنَّة أذىٰ ولا قذر، فالإنسَان في الآخرة غير الإنسَان في الدُّنيَا، والحَيَاة في الآخرة غير الحَيَاة في الدُّنيَا، وكذلك الإنسَان في الآخرة يأكل ويشرب ولكن لا يَبول ولا يَتغوط، فليس في الآخرة ممَّا في الدُّنيَا إلا الأسماء، فإذا كان هذا التفاوت بَيْنَ مخلوقات الله -جَلَّ وَعَلَا-؛ فيكون التفاوت بَيْنَ الخالق والمخلوق أعظم، وكذا أنَّ الله - تَعَالَىٰ -ذكر عن الرُّوْح أنَّها تعرج وأنَّها تخرج، وأن المَلَائكة تمسكها، لكن لا تستطيع أن تعرف كَيْفَ الرُّوْح، لكنك تعرف معنىٰ الرُّوْح إجمالاً، ولهذا قال تَعَالَىٰ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُـم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيـلًا ﴾ [الإسراء:٨٥].

وبعض النَّاس يظَن أنَّه يستطيع أن يدرك الكَيْفَ والمعنىٰ في حَقّ الله، وليس بصَحيح، نحن ندرك من الألفاظ العربية في حَقّ المخلوق المعنىٰ والكَيْفَ، لكن في حَقّ الخالق ندرك المعنىٰ دون الكَيْفَ، وهذا ما أجاب به

مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال: الاستواء معلوم، أي في لغة العرب، والكَيْفَ مَجْهُول لا نعرفه، فهكذا الأسماء والصفَات والأفْعَال في اللغة العربية لها جانبان، ولهذا قال ابن تَيميَة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (التدمُرية): ما أخبرنا به في القُرْآن والسنَّة ندركه من وجهٍ دون وجه، ندركه معنىً لا كَيْفًا، ولهذا يقال في وصف الله نثبتُه من غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ ولا تعطيلٍ ولا تشبيهٍ، فلا نكَيْفَ، فلا نعرف كَيْفَ استوىٰ الله، ولكن نثبت الاستواءَ لله -عَزَّ وَجَلَّ-، فربنا فَوقَ عرشه، لكن لا ندري كَيْفَيته، فالله هو الذي يمسكُ السَّمَاوَات والعَرْش، وليس العَرْش هو الذي يمسك الله؛ لأنَّ العَرْش مخلوق مُحتاج، والله الذي يمسك السَّمَاوَات عَزَّ وَجَلَّ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فاطر:٤١].

فالكون كله في رعاية الله وحفظه، وليس هناك شيء في الكون يحتاج له الله، فاستواء الله علىٰ عرشه استواء خالق علىٰ مخلوق، والله في جهة العُلُو، أي: فَوقَ العَرْش، المخلوقات ينتهي سقفها بالعَرْش، فليس فَوقَ العَرْش إلا الخالق، فهذا إثبات العُلُو للخالق عَزَّ وَجَلَّ، إثباتًا معنوياًّ وإثباتًا حسياًّ، لكن لا نعتقدُ أنَّ الله في داخل ملخوقاته أو في جهة مخلوقة، بل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فَوقَ المخلوقات.

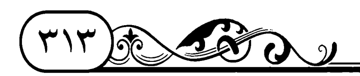


قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: في الصَحيح عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "إذا قضي اللهُ الأمرَ في السَّمَاء ضَربت المَلَائكَة بأجنحَتها خضعانـًا لقَوله، كأنَّه سلْسلَة علىٰ صَفوَان، ينفذهم ذلك، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٢٣﴾ [سبأ:٢٣]، فيَسمعها مُسْتَرقُ السَمع، ومسترقُو السَمَعَ هكَذَا بعضُه فَوقَ بعضٍ، وصَفَهُ سُفيَان بكفه فحرَّفَها وبَدَّدَ بَيْنَ أصابعه، فيَسمَعَ الكلمةَ فَيُلْقيهَا إلىٰ مَنْ تحتَه، ثمَّ يلقيهَا الآخَرُ إلىٰ مَنْ تحتَه، حتَّىٰ يلْقيها علىٰ لسان السَّاحر أو الكاَهن، فربما أدركَه الشَّهَاب قبل أن يُلقيَها، وربما ألقاَها قبل أن يُدْركَه، فيكذبُ معها مائةَ كذبةٍ، فيقالُ: أليس قد قال لنا يومَ كذا وكذَا، فيصدق بتلك الكلمة التي سَمعت من السَّمَاء".

ش: قوله: (في الصَحيح)، أي صَحيح البُخَاري، قوله: (إذا قضىٰ الله الأمر في السَّمَاء)، أي إذا تكلم الله بأمره الذي قضاه في السَّمَاء ممَّا يكون كما روىٰ سعيد بن منصور وأبو داود وابن جرير عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: (إذا تكلم الله بالوَحْي، سَمَعَ أهل السَّمَاوَات صلصلة كجر السلْسلَة علىٰ الصَفوَان) وروىٰ ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال: لما أوحىٰ الجبار إلىٰ مُحَمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا الرَسُول من المَلَائكَة ليبعثه بالوَحْي، فسَمعت المَلَائكَة صوت الجبار يتكلم بالوَحْي، فلما كشف عن قلوبهم سألوا عما قال الله؟ فقالوا: الحَقّ وعلموا أن الله لا يقول إلا حَقًّا.

قوله: (ضربت المَلَائكَة بأجنحتها خضعانـًا لقوله)، أي لقول الله تَعَالَىٰ، قال الحافظ: خضعانا بفتحتين من الخضوع، وفي رواية بضم أوله وسكون ثانيه وهو مصدر بمعنىٰ خاضعين.



قوله: (كأَنَّه سلْسلَة علىٰ صَفوَان)، أي كأن الصَّوْت المسموع سلْسلَة علىٰ صَفوَان وهو الحجر الأملس، قال الحافظ: هو مثل قوله في بدء الوَحْي: صلصلة كصلصلة الجرس، وهو صوت الملك بالوَحْي، وقد روىٰ ابن مردويه من حديث ابن مسعود رفعه: (إذا تكلم الله بالوَحْي، سَمَعَ أهل السموات صلصلة كصلصلة السلْسلَة علىٰ الصَفوَان) الحَديث.

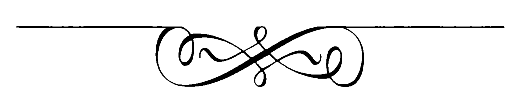
الشَّرْح

قوله: (إذا تكلم الله بالوَحْي سَمعَ أهل السَّمَاوَات صلصلة) هذا ليس خاصاً بالوَحْي إلىٰ نَبيّنا ﷺ، بل هذا موقف المَلَائكَة عند الوَحْي إلىٰ جميع الأنبياء، إذا سَمعت الوَحْي تُصاب بخوف ورعدة شديدة، فتسجُد لله ﷻ وتبقىٰ ساجدة، فيكون أول من يرفع رأسه جبْريل عليه السلام، فهذا حال المَلَائكَة مَعَ الله سبحانه وتعالى، قوله: (خَضَعانا بفتحتين من الخضوع وفي رواية بضم أوله وسكون ثانيه) أي: لها رسمان، إمَّا بالفتحتين، وإمَّا بضمَّة وسُكون، فإمَّا أن تقول خَضَعانا، أو خُضْعانا، وكلاهما صَحيح في اللغة.

التشبيه في الحَقّيقة يعود علىٰ سماع صوت المَلَائكَة لأجنحة المَلَائكَة الأخرىٰ في السَّمَاوَات بعضها فَوقَ بعض، وهل يمكن أن يقال إن هذا صوت الوَحْي، وأن المَلَائكَة تسَمَعَ صوت الله؟ ليس في ذلك حرج، فإن الله ﷻ يتكلم بحرف وصوت، أي: بكلام مسموع تسَمعه المَلَائكَة، يسَمعه جبْريل عليه السلام، وإلا فكَيْفَ ينقل كلام الله ﷻ؟ ، أمَّا عند المتكلمين فإن الله سبحانه وتعالى لا يتكَلم، ويقولون: لو تكلم للزم من ذلك أن يكون لله ما للمخلوق من أسنان ومن حنجرة ومن لسان إلىٰ آخره، نحن نعجب من هذه التصورات البَاطلة والتي لا تليق بمكان الإنسَان! ، نحن نرىٰ في العصر الحاضر أن الإنسَان صنع

أجهزةً يخرج منها صوت، وليس لها لسان ولا أسنان ولا حنجرة، كالمسجل والمذياع والهاتف، فكَيْفَ تُلزمون هذه اللوازم للخالق ﷻ، وهذا من جهل الإنسَان، فإن ربنا -تبارك وتعالى- ليس كمثله شيء، لا في ذاته ولا في صفَاته ولا في أفْعَاله، فلا ينبغي للإنسان أن يشطح به الخيال، الخيالُ قدرته محدودة، والعَقْل قدرته محدودة، فلا ينبغي له أن يُفسح المجال لعقله حتىٰ يصلَ إلىٰ أن يشبه الله بخلقه، فالخالق ذاتُه -ﷻ- وأفْعَاله وصفَاته لا تشبه ذات المخلوق ولا أفْعَاله ولا صفَاته؛ لأنّ الله قد أخبر بذلك: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١].

فنحن نفهم معاني الصفَات والأسماء، ولكن نجهل كَيْفَيتها في حَقّ الله سبحانه وتعالى.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (ينفذهم ذلك)، هو بفتح التحتية وسكون النون وضم الفاء والذال المعجمة، ذلك أي القول، والضمير في ينفذهم عائد على المَلَائكَة، أي ينفذ الله ذلك القول إلى المَلَائكَة، أي يلقيه إليهم وقيل وهو أظهر: أي يخلص ذلك القول ويمضي في قلوب المَلَائكَة حتى يفزعوا من ذلك كما في حديث النواس، وفي حديث ابن عباس عند ابن مردويه من طريق عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عنه: (فلا ينزل على أهل سماء إلا صعقوا) وفي حديث ابن مسعود عند أبي داود وغيره مرفوعًا: (إذا تكلم الله بالوَحْي سَمِعَ أهل السَّمَاء الدُّنيَا صلصلة كجر السلْسلَة على الصفا، فيصعقون فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبْريل) الحَديث.

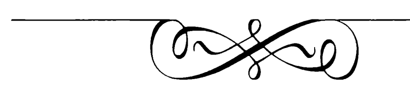
قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ أي أزيل عنها الخَوف والغشي قوله: ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ﴾ أي قال المَلَائكَة بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم، قوله: ﴿قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ﴾ أي قالوا: قال الله الحَقّ، علموا أنَّ الله لا يقول إلا حَقًّا.

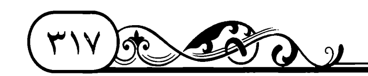
الشَّرح

هنا جعل سماع الصَّوْت لأهل السَّمَاء الدُّنيَا، هل سَمعوا صوت خضوع المَلَائكَة في السَّمَاوَات الأخرى أو سَمعوا صوت الوَحْي؟ كلاهما جائزان، لكن الأَحَاديْث والآثار جاءت أن المراد بسماع الصَّوْت هو صوت خضعان المَلَائكَة بأجنحتها والله أعلم.

والمَلَائكَة عندما تسَمَعَ الوَحْي ولا تفهم ماذا أُوحي به إلى جبْريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، بعضها يسأل بعضًا: ماذا قال الله؟ فهذا السؤال لكون المَلَائكَة تخشى أنَّ أمر الله قد جاء بإقامة الساعة، أو أن المَلَائكَة تحبُّ أن تعرف ماذا أحدث الله من

فعله ﷻ، فكلاهما جائزان، لكن لما تسأل المَلَائكَة هذا السؤال والجواب في السَّمَاء يسَمعه مسترقو السَمع، فيسَمَعَ الكلمة الواحدة، ثمَّ ينقلها إلىٰ من تحته من الشَّيَاطن، وهكذا سلْسلَة من الاتصالات حتىٰ يصل إلىٰ السَّاحر أو الكاهن، فالكاهن يكذب معها مائة كذبة، وإذا صدق مَرَّة واحدة، وكذب مئات، ينسىٰ النَّاس الكذبات ويحفظون صدقَ الكاهن، بخلاف النَّاس اليوم، ينسون محاسن الصَّالحين ويحفظون سيئاتهم، لو كانت لهم كلهم حسنات نسوها، وإذا أخطأ يوماً من الأيام حفظوا تلك الخطيئةَ، فموقف النَّاس مَعَ النَّاس الصَّالحين غير موقفهم مَعَ السّحرة والكُهَّان، يقال: إن مجموعة من الأشخاص كانوا في سفينة فاضطربت بها الرياح فقال أحدهم: لا تخافوا فإنكم ناجون، ثمَّ نجوا، فسأله أحدُ أصدقائه كَيْفَ عرفت؟ قال: إن هلكنا فمن يطلع علينا، كلنا هلكنا، وإن نجونا كانت كرامة لي مَعَ هؤلاء، فأحياناً الشَّخْص يقول الكلمة إمَّا بحدس، وإمَّا تخميناً، وإمَّا بفراسة فتصدق، والنَّاس يجعلون هذا مبدأً، ويكذب معها عشرات.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي صَحيح البُخَاري عن عائشة مرفوعـًا: (إن المَلَائكَة تنزل في العَنَان وهو السَّحَاب، فتذكر الأمر قضي في السَّمَاء، فتسترق الشَّيَاطن السَمْعَ فتسَمعه، فتوحيه إلىٰ الكُهَّان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم) وظاهر هذا أنَّهم لا يسَمعون كلام المَلَائكَة الذين في السَّمَاء الدُّنيَا، وإنَّمَا يسَمعون كلام المَلَائكَة الذين في السَّحَاب.

الشَّرْح

هذا الحَديث ورد في أصح الكتب بعد كتاب الله، وهو صَحيح البُخَاري، ألَّفه الإمام البُخَاري الذي أطلق عليه العُلَماء أمير المؤمنين في الحَديث؛ لأنَّه كان رجلاً حافظـًا، وكان دقيقـًا في وضع هذا الكتاب، فقد انتقىٰ الأَحَاديْث الصَحيحة، ووضعها فيه، ومنهج الُمحدثين منهج استقرائي ودقيق، لا يذكرون إلا الحَديث الصَحيح الذي رواه ثقَة عن ثقَة، فلو روىٰ الراوي حديثـًا وهو يؤيد مذهبهم وكان ضَعيفـًا ردُّوه؛ لأنَّ العبرة ليست بتأييد المذهب، العبرةُ بأن يصح الحَديث؛ لأنَّ الحَديث دين، فلا يروي في هذا الكتاب إلا ما اعتقد أنَّه صَحيح عن رَسُول الله ﷺ، وهذا الحَديث ترويه أمُّ المؤمنين عائشةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا فتقول: **(إن المَلَائكَة تنزل في العَنَان)**[1] العَنَان هو السَّحَاب، ومر في حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: (إذا قضي الأمر في السَّمَاء) وهنا تقول: في العَنَان، فما الفرق بَيْنَ هما؟ في لغة العرب يطلق السَّمَاء علىٰ كل ما كان فَوقَ رأسك، العُلُو يسمىٰ سماء، والجرم السمائي سماء الدُّنيَا فما فَوقَها يسمىٰ سماء بحسب

---

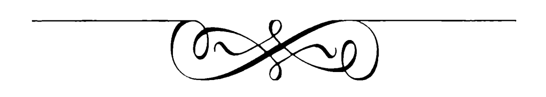
(١) أخرجه البُخَارِي في صَحِيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر المَلَائِكَة، برقم: (٣٢١٠).

وروده في السياق؛ لأنَّ السياق يحدد المعنىٰ، فهنا الحَديث يدل علىٰ أن المَلَائكَة في داخل الغلاف الجوي، داخل غلاف الأرض في السَّحَاب.

وقد يقول قائل: كَيْفَ تسَمَعَ الشَّيَاطن الكلام في السَّمَاء، وبَيْنَ الأرض والسَّمَاء مسافات طويلة؟ نقول: هذا الإنسَان كثيراً ما يعجز عن إدراك الغَيْبيات، وليس هناك مجال للخوض بالعَقْل البَشَري في الغَيْب؛ لأنَّ العَقْل قدرته محدودة، ونضرب علىٰ هذا مثالاً، لو قال لك شخص: إنَّ هناك خلقاً من خلق الله يستطيع قبل أن تُنهي كلمة واحد أن يذهب من هنا إلىٰ إمريكا غرباً ويرجع قبل أن تنهي قولك كلمة واحدة فلا تصدق؛ لأنَّك لا تعرف في المخلوقات من هو علىٰ هذا الحال، ولا تعرف إلا المخلوقات التي تكون سرعتها أقل من ذلك بكثير، نحن نعرف من بعض مخلوقات الله من يستطيع ذلك، الآن الإنسَان يتكلم في الهاتف ثمَّ يذهب الصَّوْت إلىٰ الأقمار الصناعية في الغلاف الجوي علىٰ الأرض أو خارج الأرض ثمَّ يعود مَرَّة أخرىٰ إلىٰ أمريكا ثمَّ يرجع إليك، وأنت تخاطبه وكأنَّه أمامك، فكَيْفَ يذهب الصَّوْت ثمَّ يعود في لحظة لا تشعر معها بالمسافة؟ فالعَقْل البَشَري لا يدرك، وخلق الله عجيب، هذا الصَّوْت خلق من خلق الله وهو يستطيع في هذه اللحظة أن يصل إلىٰ أمَّاكن بعيدة، وتخاطب من هو علىٰ بعد كأنك تخاطبه أمامك، فالمسافات أمام المخلوقات علىٰ درجات، الإنسَان سرعته معروفة، ثمَّ أسرع منه الحيوان، ثمَّ أسرع منه الصَّوْت، ثمَّ أسرع منه الضوء، وهكذا، هذه كلها من مخلوقات الله، فلا يستغرب أن المَلَائكَة في العَنَان تسَمَعَ الصَّوْت، وإنَّمَا مجاله التسليم؛ لأنّ الإنسَان أول ما يبحث عن صدق الرَسُول ﷺ الذي أخبره بالقضية، فإذا صدَق الرَسُول ﷺ وآمن به انتهت قضيةُ الإيمان بالغَيْب، فتؤمن بكل ما يخبرك؛ لأنَّك وثقت فيمن يخبرك، ولا تقف عند كل خبر، فلا فينبغي أن تراجع التصديق، فنحن قد آمنا بالله ورَسُوله، وكل ما أخبر الله بهٍ أو أخبر به

رَسُوله صدَّقناه، وعندما قال بعض المُشركين لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: (يا أبا بكر يزعم صاحبكم أنَّه ذهب إلىٰ بيت المقدس ورجع من ليلته، قال: إن كان قال ذلك فقدصدق، إنني أصدقه بأعظم من ذلك خبر السَّمَاء)[1]، فليس بَيْنَه وبَيْنَ التصديق إلا أن يقوله، فإذا قال الله قولاً، أو قال رَسُوله ﷺ قولاً صدَّقناه؛ لأنَّ عقولنا ليس قادرة أن تُحيط بكل علم الله، كم في الأرض من جوانب نجهلُها؟ فالغَيْبيات مجالُها التصديق والقُبول، وليس مجالَها الاختبار والتمحيص؛ لأنَّ خبرَ الله ورَسُوله حَقّ.

فالمَلَائكَة تسَمَعَ الخَبَر في العَنَان الذي هو السَّحَاب ممَّا يحدث في السَّمَاء العليا فتتحدث بهذا الخَبَر فتسَمَعَ الشَّيَاطن، فتنزل إلىٰ النَّاس فتخبرهم بما سَمعت وتزيد علىٰ ما سَمعت مائة كذبة، فالنَّاس يختلط عندهم الحَقّ بالبَاطل، فيرون بعض ما أخبر به الكُهَّان صدقًا، وبعض ما أخبروا به كذبًا، فلا يحفظون إلا ما كان صدقًا من أخبار الكُهّضان، وهذا عادة النَّاس، فإنَّهم لا يحفظون من الفسَّاق إلا الأعمالَ الطيبة، ولا يحفظون من الصَّالحين إلا الأعمالَ السيئةَ، هذه طبيعة الإنسَان ممَّا يغري بها الشَّيطَان، وسيأتي مزيد من كلام الشارح رحمه الله.



(١) أخرجه الحَاكِم في المستدرك، كتاب معرفة الصَّحابَة رضي الله عنهم، برقم: (٤٤٦٨)، (٣/ ٦٩)، وعبد الرزاق في المصنف في حديث طويل، كتاب المغازي، باب ما جاء في حفر زمزم، برقم: (٩٧١٩)، (٥/ ٣٢٢).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (وصفه سُفيَان بكفه) أي وصف ركوب بعضهم فَوقَ بعض، وسُفيَان هو ابن عيينة أو مُحَمَّد الهلالي الكوفي ثمَّ المكي، ثقَة حافظ فقيه أمام حجة إلا أَنَّه تغير حفظه بأخره، وربما دلس لكن عن الثقات، مات سنة ثمَّان وتسعين ومائة وله إحدىٰ وتسعون سنة.

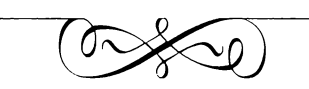
الشَّرح

هذه الترجمة لأحد رواة الحَديث، وهو الإمام الحافظ الحجة سُفيَان بن عُيَينة، وهذا إمام معروف مشهور، فهناك رجلان يسميان بسُفيَان، سُفيَان بن عيينة، وسُفيَان الثوري، وكلاهما أعلام، فهذا العالم رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال فيه العُلَماء: إن كل مُدلّس في الحَديث لا يقبل تدليسُه إلا إذا كان سُفيَان بن عيينة؛ لأَنَّه لا يدلّس إلا عن ثقَة، معنىٰ التدليس أن يروي الحَديث عن شخص لم يسَمْعه منه، أو أن يذكر الشَّخْص الذي روىٰ عنه بكُنْيَة لا تعرف، وهنا احتمال أن يكون الشَّيْخ ثقَة وهو شخص ضَعيف، ولعلماء الحَديث استقراء فيأتون إلىٰ الراوي فيرون من روىٰ معه عن شيخه، فإذا كان الشَّيْخ روىٰ عنه خمسون طالبًا، فينظرون من هو أحفظ الطلاب؟، من هو أقل الطلاب حفظًا؟، كَيْفَ صار أقلهم حفظًا؟ لأنالثقات عن هذا الشَّيْخ رووا أحاديث وشاركهم هذا الطالب فيها، لَكنَّه زاد حديثًا عن الشَّيْخ ما ذكره الثقات، فنزل في مكانته في الجرح والتعديل، فعلماء الحَديث ينظرون هل هذا الراوي شارك زملاءه الثقات عن الشَّيْخ في رواية الحَديث ولم يزد عنهم أم زَادَ، فإن زادَ رواياتٍ وخالفهم فيها تُسمىٰ روايتُه شاذة، وإن روىٰ زيادات لم يرووُها ولا يخالفهم بعضهم تسمىٰ شاذة عند بعضهم؛ لأَنَّه انفرد، فكَيْفَ أنَّ الذين هم في أعلىٰ

درجات القُبول لم يرووا عن الشَّيْخ وقد لازموه كثيراً، ويروي هذا التلميذ الذي هو أقلهم رواية حديثًا لم يروه الثقات، فيتوقفون، إن جاءت هذه الرواية عن شيخ آخر جعلوا هذه الرواية تحت النظر، وهو ما يسمىٰ بالاعتبار، وإن لم يأت حديث علىٰ هذا المَتْن ردوه.

فالميزان ليس خاصاً بالمذهب أو العقيدة أو المحبةُ، أو الكُره، قد نحب إنسانًا وإذا أتىٰ حديث ضَعيف يمدحُه نرده، وإذا أتىٰ حديث ضَعيف يذم شخصًا نبغضُه نرده؛ لأنَّنا نتعامل مَعَ النَّاس بالميزان الشَّرْعي، لا بالهوىٰ، هذا مذهب أهل السُّنة في مناهجهم في قبول الروايات، فلا يقبلون إلا إذا صحَّ عن رجال ثقات، فإذا صح الحَديث في عقيدة أو في شريعةٍ أخذنا بها، ولو خالف الهوىٰ، وإذا جاء الحَديث الضَعيف ولو وافق الهوىٰ نردُّه؛ لأنَّ هذا دين، والدِّين يقوم علىٰ كلام الله ﷻ وكلام رَسُوله ﷺ.

وهذا العالم تغير حفظُه بأخرة، أخرة هكذا نطقها، المحدثون يقولون في أخره أي في آخر عمره، إذا تغير حفظُ العالم في آخر عمره ثمَّ روىٰ عنه أشخاص نرد ما رووه عنه، ولو كان حديثًا يؤيد ما يريد؛ لأنَّ العبرة ليست بأن يروىٰ أحاديث نؤيد ما نريد، وإنَّمَا العبرة بأن يصح الحَديث؛ لأنَّ هذا دين، والمسلم مسئول عن دينه إذا لقي الله ﷻ، فهذا العالم رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو الذي شرح كَيْفَ تكون الشَّيَاطن بعضها فَوقَ بعض إذا نقلت أخبار ما تنقله عن المَلَائكَة في العَنَان.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (فحرفها)، بحاء مهملة وراء مشددة وفاء، قوله: (وبدد) أي فرق بَيْنَ أصابعه.

قوله: (فيسَمَعَ الكلمة فيلقيها إلىٰ من تحته) أي يسَمَعَ المسترق الفَوقَاني الكلمة من الوَحْي، فيلقيها إلىٰ الشَّيطَان الذي تحته، ثمَّ يلقيها الآخر من تحته حتىٰ يلقيها علىٰ لسان السَّاحر والكاهن، وحينئذ يقع الرجم، قوله: (فربما أدركه الشَّهَاب قبل أن يلقيها) الشَّهَاب هو النَّجْم الذي يرمىٰ به، أي ربما أدرك المسترق الشَّهَاب إذا رمىٰ به قبل أن يلقي الكلمة إلىٰ من تحته، وربما ألقاها المسترق قبل أن يدركه الشَّهَاب، وهذا يدل علىٰ أن الرجم بالنجوم كان قبل المبعث.

كما روىٰ أحَمدَ ومسلم والترمذي والنسائي عن معمر عن الزهري عن علي بن حسين عن ابن عباس قال: (كان رَسُول الله ﷺ جالسًا في نفر من أصحابه، فرمىٰ بنجم فاستنار، فقال: ما كنتم تقولون إذا كان هذا في الجَاهليَّة؟ قالوا: كنا نقول يولد عظيم أو يموت عظيم، قال: فإنَّها لا يرمىٰ بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا إذا قضىٰ أمراً سبح حملة العَرْش ثمَّ سبح أهل السَّمَاء الذين يلون حملة العَرْش، فيقول الذين يلون حملة العَرْش لحملة العَرْش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم ويخبر أهل كل سماء سماء، حتىٰ ينتهي الخَبَر الىٰ هذه السَّمَاء، وتخطف الجنَّ السَمَعَ فيرمون، فما جاؤوا به علىٰ وجهه فهو حَقّ ولَكنَّهم يحرفونه ويزيدون فيه) قال معمر: قلت للزهري أكان يرمىٰ بها في الجَاهليَّة؟ قال: نعم، قال: أرأيت ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ [الجن:٩]، قال: غلظت وشدد أمرها حين بعث رَسُول الله ﷺ.

الشَّرْح

هذا يروي كَيْفَ يذكر الشَّيَاطن، حرَّفها وجعل أصابعَه بعضها فَوقَ بعض، قال: بعضهم فَوقَ بعض، وقبل أن تأتي الاتصالات الحَديثة كان إخباريون بَيْنَ المدن، أنَّ شخصاً علىٰ بعد يسَمَعَ الصَّوْت، فهذا الذي هو قريب من الحادث ينقل الخَبَر، والثاني ينقل الخَبَر، فيصل الخَبَر سريعاً، هكذا كانوا سلْسلَة من النَّاس، هكذا الشَّيَاطن تنقل أخبار السَّمَاء، ثمَّ تزيد أو يزيد السَّاحر، أو كلاهما يزيدان، قد يزيد السَّاحر مَعَ ما زادت الشَّيَاطن؛ لأن الشَّيَاطين تخدم السَّاحر لغرض إفساد عقائد النَّاس، الشَّيطَان أخذ علىٰ نفسه أن يفسدهم وأن يدخلهم جهنم، وأقسم أن يأتيهم من بَيْنَ أيديهم، ومن خلفهم، وعن أيمأنَّهم، وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين، هذا عمله طوال حياته، وهو يتعاون مَعَ من يحَقّق هذا الغرض، الكُهَّان والسّحرة، فإن هؤلاء يفسدون اعتقاد النَّاس، فهم يتعاونون معهم لهذا المقصد الشرير الذي عقده علىٰ نفسه إبليس.

الشَّهَاب الذي يأتي لا يقتل الشَّيطَان، إنَّمَا يمرضُه ويخبلُه؛ لأنَّ الشَّيَاطن ستبقىٰ إلىٰ قيام الساعة تُفسد عقائدَ النَّاس، أمَّا أثر النَّجْم فيمرضه أو يصيبه بالخبل والعتَه.

قال: (غلظت) أي زاد فيها، هذا الحَديث يرويه علي بن الحسين بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جميعاً عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن النَّبي ﷺ كان جالساً في أصحابه، وسابقاً لم يكن هناك كهرباء مثل اليوم، فلو جلس النَّاس علىٰ أبواب بيوتهم أو في أمَّاكن مكشوفة يرون السَّمَاء، وما يجري فيها، فرأوا شهاباً انطلق في الفضاء فسألهم النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ماذا كنتم تقولون في الجَاهليَّة إذا رأيتم هذا الشَّهَاب؟ كانوا يعتقدون أن هذا الشَّهَاب لا ينزل من السَّمَاء إلا إذا مات

عظيم، أو ولد عظيم، فقال ﷺ: إن هذا الشَّهَاب ليس كذلك، وإنَّمَا هو رجوم للشياطين التي تكون في السَّمَاء، فالشَّيَاطن مفتوح لها الباب تتحرك في داخل هذا الكون، لكن لهم حد محدود، والله لو أراد أن لا يسَمعوا لا يسَمعون، فسماعهم ابتلاء من الله- سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -، وإلا فإن قدرة الله -عَزَّ وَجَلَّ -لا يغالبها شيء، فربنا - تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ - فَوقَ عرشه إذا أحدث أمراً أو تكلم بالوَحْي سَمعه حملة العَرْش، فإن الله- سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - أخبر أنَّه استوىٰ علىٰ عرشه، أمَّا بعض النَّاس فيعتقد أنَّ الله ليس داخل الكون ولا خارجه، فليس له وجود، لكن القُرْآن الكَريم والسنة النبوية تدل علىٰ أنَّ ربنا -عَزَّ وَجَلَّ - فَوقَ عرشه، لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس كمثله شيء، وأذكر حواراً جرىٰ بَيْنَ شخصين من هؤلاء الأشخاص مَعَ الشَّيْخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ فناظر أحد الأشخاص، فقال: نحن الآن علىٰ ظهر أي كوكب؟ قال علىٰ الأرض. قال: وماذا فَوقَ رءوسنا؟ قال السَّمَاء الدُّنيَا، قال: وماذا فَوقَ السَّمَاء الدُّنيَا؟ قال: السَّمَاء الثانية، قال: وماذا فَوقَ الثانية؟ قال: الثالثة، والرابعة، الخامسة، السادسة، السابعة، العَرْش، وماذا فَوقَ العَرْش، قال: لا أدري، فصاح النَّاس: كافر كافر، كَيْفَ لا يدري، الله فَوقَ عرشهعَزَّ وَجَلَّ، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥] استواءً يليق بجلاله.

لكن هناك علم يسمىٰ بعلم الفلسفة والمنطق دخل علىٰ المسلمين فأفسد عقائدهم الربانية الصافية، أصبحوا يفهمون الدّين الإسلامي من خلال قواعد الفلاسفة القدماء، والفلاسفة أُناس عاشوا قبل الإسلام بقرابة ثمَّإنمَائة عام، أرسطو ومن كان في درجته أو من كان بعده، هؤلاء وثنيون جاهليون، أخذ بعض المسلمين مناهج هؤلاء الوثنيين وجعلوها ميزانـاً للإسلام، حتىٰ قال الغزالي في كتاب المُستصفىٰ: إن كل من لا يعرف المنطق لا يوثَق بعلومه،

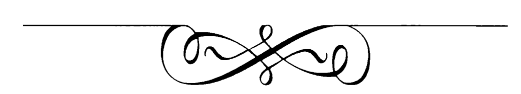
فجعل المنطقَ أساساً لفهم العلْم الشَّرْعي، نحن نسأل: رَسُول الله ﷺ كَيْفَ فهم هذا الدِّين؟ هل فهمه علىٰ قواعد الفلاسفة، ثمَّ الصَّحابَة ﷺ هل فهموا الدِّين علىٰ قواعد الفلاسفة، ثمَّ التابعون، ثمَّ أعلام الامة، إذا كان هذا الدِّين لا يفهم إلا عن طريق قواعد الفلاسفة القدماء لا يستحَقّ أن يكون ديناً، كَيْفَ ينزل الله دينا يغنينا به ثمَّ يُوقف فهمه علىٰ قواعد الوثنيين الفلاسفة، نحن نقودُ البَشَرية، نقدم لهم المناهجَ لا نأخذ منهم المناهجَ، هذا الدِّين هو دينٌ ومنهج، القُرْآن دينٌ ومنهج، دليل ومدلول عليه، فلا نحتاج إلىٰ أدلة من خارجه، فهؤلاء الفلاسفة أثّضروا في عقائد المسلمين، حتىٰ أصبح كثير من هؤلاء لا يدري أين ربه، من تعبد؟ يقول: الله لا داخل العالم ولا خارجه، أين؟ هذا معدوم، فهذا فهم عجيب! ! ، سببه ما ورثوه من كلام الفلاسفة الذين يقولون إن وصف الله بشيء يؤدي إلىٰ التشبيه! ، الله ﷻ له صفَات تخصُّه، ولا يميز بَيْنَ شيئين موجودين إلا بالصفَات، وإن كان هناك من حيث المعاني الكلية أمر مشترك، لكن إذا وصفنا الله بالصِّفَة أصبحت صفة تخصُّه ﷻ، لَكنَّهم يقولون: إن الله ليس فَوقَ العَرْش ولا داخل العالم ولا خارج العالم! فهذا من ضلال الفلاسفة، كَيْفَ ينزل من السَّمَاء؟ ، حتىٰ إن أحدهم عندما جاءت الأَحَاديْث أن الله ينزل إلىٰ السَّمَاء الدُّنيَا قال: تنزل رحمته، نقول له: ممن تنزل؟ أنت ما تعتقد أن فَوقَ العَرْش إله، ولا تثبت أن الله فَوقَ حتىٰ تنزل رحمته، لا تأويلك صَحيح ولا فهمك صَحيح.

الفلاسفة يقولون: أن عقول العرب عندما نزل الدِّين ليست في مستوىٰ فهم هذا الدِّين! ! ، الله الذي خلق العقول، وهو الذي أنزل الدِّين، كَيْفَ ينزل الدِّين علىٰ عقول لا تفهمه؟ وهم كَيْفَ فهموه؟ فهموه بعقولهم، كما يقول ابن سيناء في رسالة سماها (رسالة الأخوية): إن الأَنبياء جاءوا بالتشبيه وليس في

القُرْآن توحيد!! أين التَّوحيد في كلامه هو! ! ، هذا الجهل العجيب، جعلوا أنفسهم حكمـًا علىٰ رَسُول الله ﷺ، هذا الدِّين كما قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ دين أمّي، يخاطب جميع الطبقات، يفهمه الأمّي الغبي، والعالم الذكي، ليس خاصاً بطائفة معينة، لكن هؤلاء تربوا علىٰ مناهج معينة، ويصعب عليهم أن ينفكوا منها، لكن من يقرأ القُرْآن الكَرِيم يراه يتحدث إلىٰ النَّاس بقضايا بسيطة سهلة ميسورة يدركها كل إنسان؛ لأنَّ الله ما كان ليخاطبنا بكلام لا نفهمه، والله قادر أن يرقي عقولنا حتىٰ نفهم، فلماذا لا يرقي الله عقول النَّاس حتىٰ يفهموا؟ ، كَيْفَ ينزل لهم علمـًا لا يفهمونه؟ ، فهذا كلام ضال.

فينبغي أن نفهم الإسلام الفهم العادي البسيط، لا نفهمه عن طريق الكلام المعقد، والذي يقرأ في كلام المُعْتَزِلَة والأَشَاعِرَة يرىٰ كلامًا معقداً، لا يرىٰ فيها الألفاظ النبوية الناصعة، يؤلف الهمداني ـ وهذا قاضي القضاة –يسمونه في عصره–، وهو أحد العُلَماء ـ كتابًا من عشرين مجلداً في العقيدة، كله كلام ليس فيه نص إلا نادراً، إن قلتم كذا قلنا كذا، وإن قالوا كذا قلنا كذا، والإنسَان يدخل في هذا الكتاب ويخرج وليس عنده دين، فهذا القُرْآن الكَرِيم بأسلوبه الناصع يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١]، الله – عَزَّ وَجَلَّ – مُتفرد بذاته وأسْمَائه وصفَاته وأفْعَاله، لا يُشبهُه شيء من خلقه، أمَّا الذي يفهم هذا الدِّين علىٰ قواعد الفلاسفة، فإنَّه يموت وهو لا يعرف الله، ولا يدري أين الله، ولا يرفع يديه في الدّعَاء، ولا يتجه قلبه إلىٰ جهة، في حين أنَّ العامي الذي يأتي ربما للحج قد يأتي من بلد يعيش أهله علىٰ علم الكلام ولَكنَّه مَعَ ذلك إذا أراد أن يدعو رفع يديه ورفع رأسَّه إلىٰ السَّمَاء، يدرك أن ربه فَوقَ عرشه، فهذه عقيدة المسلمين، الله عَزَّ وَجَلَّ ينزل الوَحْي من السَّمَاء من فَوقَ العَرْش، لكن لا ينبغي أن يقع في أذهاننا أن الله كالمخلوق، قد يقول إنسان:

العَقْل لا يستطيع أن ينفك من التشبيه، نعم، لكن العَقْل يعفىٰ عما يعجز عنه، فأنت تعتقد أن ربك فَوقَ عرشه، لكن لا تعتقد فَوقَيَة كفَوقية الملوك والزعماء، والرؤساء أو المخلوق، الله يحملُ عرشَه ومن تحت العَرْش، أمَّا النَّاس فالعَرْش يحملهم، الكرسي يحملهم، لكن الله هو الذي يحمل العَرْش وما تحت العَرْش، فنزول وحي الله إلىٰ السَّمَاء الدُّنيَا أو السَّمَاوَات التي تحت العَرْش يسَمعه المَلَائكَة، فيفزعون ويصابون بالفزع حتىٰ إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم؟ سألوا جبْريل عليه السلام، فجبْريل يقول لهم ماذا قال الله سبحانه وتعالى.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفيه الرد علىٰ المنجمين الذين ينسبون الخير والشر والإعطاء والمنع إلىٰ الكواكب بحسب السعود منها والنحوس، وعلىٰ حسب كونها في البروج الموافقة أو المنافرة، ونحو ذلك لما في الرمي بها من الدلالة علىٰ تسخيرها لما خلقت له، كما قال تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤].

الشَّرْح

هـذه الآيـة تقـرر معـاني كثيـرة، فهـي تقـرر أن الله ﷻ خلـق السَّـمَاوَات والأرض في ستة أيام، وبعـد أن خلـق السَّـمَاوَات والأرض في ستة أيام استوىٰ علىٰ العَرْش، ثـمَّ ذكـر أفْعَالـه تَعَـالَىٰ وأنَّـه خلـق ولا زال يرعـىٰ ويحفـظ، يقلـب الليل والنهار، فهذه الآية تدل علىٰ وظيفة الكواكب والنجـوم، أنَّهـا ليسـت هـي التي تسخر الكون، بل هـي علامـات، فـإن بعـض النَّـاس يظـن أنّ علـم التنجيـم يعـرف منـه الغَيْبيـات، والتنجـيم يقـوم علـىٰ معرفـة أسـرار الكواكـب ويـربط الحوادث المستقبلية بها، كل ذلك كلام باطل كما قال العُلَمـاء: العلْـم المتعلـق بالنجوم علىٰ أنواع أو درجات: منها علـم الحسَـاب، يعـرف عـن طريقهـا الليـل والنهار، وأيام الأسبوع، وأيام الشهر وأيام السنة، هذه تعرف عـن طريـق حركـة الكواكـب والنجـوم، عـن طريـق حركـة الشَّـمْس وعـن طريـق حركـة القمـر، أو يعرف الفصول التي هي في السنة، الشتاء والربيع والخريف والصيف، أربعـة فصول، فكل فصل يعـرف عـن طريـق حركـة النجـوم، أو حركـة الشَّـمْس، هـذه فقط علامَّات، لكن النجوم لا تـؤثر، وكـان يعتقـد الفلاسـفة أرسـطو ومـن تبعـه

تأثيرها، وأرسطو يسمونه المعلم الأول، إذا كان أرسطو هو المُعلم الأول، فأين أَنبياء الله ورسله؟ والمعلم الثاني عندهم الفارابي، أمَّا الأَنبياء فليسوا مُعلمين! ! ، أرسطو كان يعتقد أن القمرَ له روح تُؤثر، وهذا اعتقاد الفلاسفة، هل بعد ذلك يؤخذ من هؤلاء الأشخاص مناهج أو عقائد أو معارف؟.

لكن المسلم الذي لا يعرف الدِّين، ويتعلم الفلسفةَ عن طريق علم الكلام، يُصاب بهذه اللوثة التي تُفسد ذوقه، فلا يتذوق المعاني، كما قال العُلَماء: إنَّ هؤلاء الذين يعتقدون أنَّ الله -ﷻ- لا يُحب ولا يُحَب قطعوا الصلة بَيْنَ الخالق والمخلوق، وجعلوا الصلة صلةً قهرية؛ لأَنَّهم يعتقدون أن الله لا يستطيع أن يفعل ولا يغير عملك، كما قلنا مَرَّة أن غيلان الدمشقي في عهد عمر بن عبد العَزَّيز رحمه الله كان ينكر أن الله يُقدّر الأشياء علىٰ النَّاس، ويقول أن الله لا يستطيع أن يغير فعل الإنسَان، فقال عمر بن عبد العَزَّيز: يا غيلان، تقرأ الفاتحة؟ قال: نعم، قال: اقرأ، قال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٢-٥]، قال: قف، استعنته علىٰ أمر بيدك أو بيده؟ وكل يوم نقول: إياك نستعين، أي أعنَّا، فإذا كان لا يستطيع أن يغير فعلَنا، فعلىٰ أي شيء نستعين به؟ هذا اعتقاد القَدرية الذين يزعمون أن الله لا يستطيع أن يغير فعل الإنسَان، والله يقول: يحبهم ويحبونه، رضي الله عنهم ورضوا عنه، علاقة ود، علاقة محبة بَيْنَ الخالق والمخلوق، فالحب هو الذي يدفع الإنسَان إلىٰ الله -ﷻ-. ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، فالمسلم يحب الله الذي خلقه وأوجده فهو يتعامل مَعَ الله لا بالخَوف فقط، بل بالحب والخَوف.

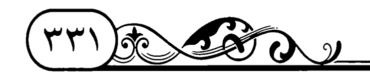
فمن يقرأ هذه المناهج يرىٰ العجب في كلام هؤلاء الذين تأثروا بالفلسفة ودرسوا عقيدة الإسلام علىٰ ضوئها.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

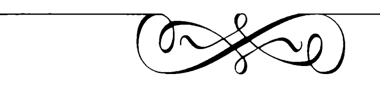
قوله: (فيكذب معها مائة كذبة) أي يكذب الكاهن أو السَّاحر مَعَ الكلمة التي ألقاها إليه وليه من الشَّيَاطن مائة كذبة، بفتح الكاف وسكون الذال المعجمة، أو يكذب الشَّيطَان مَعَ الكلمة التي استرقها مائة كذبة، ويخبر بالجميع وليه من الإنس فما جاؤوا به علىٰ وجهه فهو صدق، وما خلط فيه فهو كذب، ومَعَ هذا فيفتتن الإنس بالإنس السَّاحر والكاهن، ويفتتنان بوليهما من الشَّيَاطن، ويقبلون ما جاؤوا به من الصدق والكذب، لكونهم قد يصدقون فيما يأتون به من خبر السَّمَاء، قوله: (فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا كذا) هكذا بيض المُصَنِّف في هذا الموضع، ولفظ الحَديث في الصَّحيح: (فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا هكذا) والمعنىٰ أن الذين يأتون الكُهَّان يصدقونهم في كذبهم ويستدلون علىٰ ذلك بكونهم يصدقون بعض الأحيان فيما سَمعوه من الوَحْي، ويذكرون أَنَّه أخبرهم بشيء مَرَّة فوجدوه حَقّاً.

الشَّرْح

عندما يقال للنَّاس أن الكُهَّان يكذبون، يقولون: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا كذا أو هكذا، أي: يذكرون ما صدق به من تلك المائة وينسون التسعة والتسعين، وهكذا بعض النَّاس ينسىٰ الأشياء السلبيات في الشَّخْص المنحرف، ويعرف عنه الحسنة الواحدة، لكن لا أي: أن الإنسَان ينكر حسنة الشَّخْص إذا أحسن، لكن لا ينبغي له أن ينخدع عن سيئاته بالحسنة الواحدة، فالذي كله سيئات وله حسنة واحدة لا ينبغي أن تنخدع بتلك الحسنة أمام السيئات، كذلك العكس الإنسَان الصالح إذا كان له حسنات كثيرة ثمَّ أساء يوماً من الأيام لا ينبغي لك أن تنسىٰ الحسنات ولا تذكرُ إلا السيئة الواحدة



كما قال ﷻ: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾ [الأنعام:١٥٢]، فالعدلُ مطلوب، فنحن نقول إن هذا الكاهن صدَق في كلمة نقلت إليه، لَكنَّه كذب في كذا وكذا، فلا يوثَق بكلامه، ولهذا يقول العُلَماء: العبرة بالكثرة، فإذا كان الإنسَان حسناته أكثر من سيئاته كان مقبولاً حتىٰ في الآخرة، والذي تكون سيئاته أكثر من حسناته كان مذمُومـًا، ولا أي: ليس الشأن أنَّ الإنسَان لابد أن يكون كلَه حسنات، فالإنسَان بشر والبَشَر مُعرَّض للخطأ والصواب، والإنسَان يُخطئ كثيراً، لكن إذا كان له حسنات كثيرة تغتفر سيئاته بجانب حسناته، وفي الآخرة الحسناتُ تكون في كفَّة، والسيئات في كفة، فإذا رجحت الحسنات حتىٰ ولو كانت السيئات كثيرة فإنَّه يدخل الجَنَّة، وإذا كان العكس فإنَّه معرض لدخول النَّار، وقد يعفو الله عنه.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وتلك الكلمة من الحَقّ كما في الصَحيح عن عائشة، قلت: (يا رَسُول الله إن الكُهَّان كانوا يحدثونا بالشيء فنجده حَقّاً، قال: تلك الكلمة الحَقّ يخطفها الجنِّي فيقذفها في أذن وليه، ويزيد فيها مائة كذبة) وفيه قبول النفوس للباطل كَيْفَ يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمائة كذبة، ذكره المُصَنّف، وفيه أن الشيء إذا كان فيه نوع من الحَقّ لا يدل علىٰ أَنَّه حَقّ كله، بل لا يدل علىٰ إباحته كما في الكهَّانة والسّحر والتنجيم.

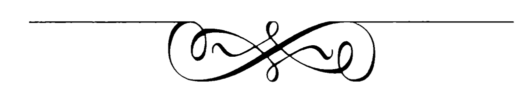


الشَّرح

هذه قاعدة: أنّ كل من ينتسب إلىٰ الإسلام من الطوائف ليس كل ما معهم باطلاً، فإنَّه لا يمكن للمسلم ولو كان منحرفاً أن يقبل البَاطل من كل وجه، لكن يكون هذا البَاطل ممزوجاً بحَقّ أو تكون الصورة التي تراها حَقّاً والبَاطل يكمن خلفَها، فتنخدع بالصورة التي تراها عما وراء الحَقّ من البَاطل، فهذا يحتاج إلىٰ أهل العلْم ليبَيّنوا بطلان هذا، فإن كل طائفة من الطوائف عندها جزئيات حَقّ، وعندها جزئيات باطل، فهم انخدعوا بما رأوه من الحَقّ، ولم يروا البَاطل، فالإنسَان قد لا يظهر له البَاطل، ويرىٰ الصورة الحَقّ في الأمام ويكمن البَاطل في الخلف، عندئذ ينخدع، فينبغي للإنسان أن يمحّص، لا ينخدع بالحَقّ الذي يراه ممزوجاً بالبَاطل، فلابد من التمحيص، فيقبل الحَقّ ويرد البَاطل، لكن لا يرد الحَقّ والبَاطل، لكن الطوائف المُنحرفة باطلُها أكثر من حَقّها، وليست هناك طائفة كلها حَقّ؛ لأنَّ الطوائف بشر، والبَشَر مُعرض للخطأ وللنسيان وللهوىٰ، لكن الطوائف تكون علىٰ درجات، منها ما يكون أقلَّ بطلانًا، أو يكون مذهبها فيه باطل قليل، أمَّا الحَقّ الصّرف ما يمكن أن

يوجد من إنسان، لابد أن يكون عنده هوىٰ، وضعف ولبس وعجز، لكن تكون الطوائف علىٰ درجات، فأقربها إلىٰ الحَقّ أقلُها باطلاً.

فما هناك طائفة علىٰ الحَقّ بكامله، والحَديث: (لا تزال طائفة من أمتي علىٰ الحَقّ منصورة)[1] ليس معناه: أن كل ما عندها حَقّ، لكن يكون الغالب ممَّا عندها هو الحَقّ، لهذا يقول ابن تَيميَة رَحِمَهُ اللَّهُ في كلام له أنَّ أهل السُّنة والجماعة في الطوائف مثل أهل الإسلام في الأديان، فأهل الإسلام أفضل أهل الأديان، لكن لا يعني: أنَّه ليس عندهم خطأ، أو معصية أو انحراف، كذلك أهل السُّنة والجماعة هم أحسن الطوائف لكن لا يعني: أنَّهم ليس عندهم خطأ؛ فهم بشَر، ولهذا قد يختلف العالم من أهل السُّنة مَعَ العالم من أهل السُّنة، ويقرر هذا ما لا يُقرّر هذا، ونأخذ علىٰ ذلك مثالا: فقهُ المذاهب الأربعة، هؤلاء أهل السُّنة، كلهم من أهل السُّنة تجد بَيْنَ هم خلافات كثيرة، وهذا الخلاف ليس كله حَقّاً، فيه حَقّ وباطل، وفيه صَحيح وخطأ، فلا ينبغي للإنسان أن يظَن أن هناك طائفة كل ما عندها حَقّ؛ لأنَّ هذه الطائفة بشر، وهم يتأثرون بأهوائهم، ويتبعون مشايخَهم، ومشايُخهم بشر، ليسوا معصومين من الخطأ، لَكنَّه مغفور لهم خطؤهم؛ لأنَّ العالم إذا اجتهد فأصاب له أجران، وإذا اجتهد فأخطأ له أجر، فهكذا الطائفة، فالإنسَان قد لا يرىٰ من هذه الطائفة إلا الجزئية الصَحيحة، وينخدع بما ورائها من جزئيات باطلة.



(١) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (فيصدق بتلك الكلمة التي سَمعت من السَّمَاء)، أي يستدلون علىٰ صدقها.

قال: وعن النواس بن سَمعان قال: قال رَسُول الله ﷺ: (إذا أراد الله تَعَالَىٰ أن يوحي بالأمر تكلم بالوَحْي، أخذت السَّمَاوَات منه رجفة، أو قال رعدة شديدة خوفًا من الله عَزَّ وَجَلَّ، فإذا سَمِعَ ذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبْريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثمَّ يمر جبْريل علىٰ المَلَائكَة، كلما مر بسماء يسأله ملائكته ماذا قال ربنا يا جبْريل؟ فيقول جبْريل: قال الحَقّ وهو العلي الكبير، قال: فيقولون كلهم مثل ما قال جبْريل، فينتهي جبْريل بالوَحْي إلىٰ حيث أمره الله عَزَّ وَجَلَّ).

الشَّرح

هذا من أحاديث المَتْن، وهذا المعنىٰ من حيث الجملة مرَّ في أحاديث صَحيحة، لكن هذا الحَديث ضَعيف من حيث السَّنَد، يقول المعلق في الحاشية: وفي سَنَده نُعَيم بن حماد ضَعيف، لكن نُعَيم بن حمَّاد إمام، قال فيه العُلَماء: إمام صدوق له أوهام، أي: قد يهم، لكن لا يطلق علىٰ الإمام الذي له مَكَانَة إذا أخطأ في بعض الأَحَاديْث أنَّه ضَعيف، إنَّمَا يوصف بالأوصاف الدقيقة التي تبَيْنَ وجهَ النقص عنده، فهنا يقول عنه العُلَماء: إمام صدوق له مَنَاكير وأوهام، قال أبو زَرعة في تاريخه: عرضتُ هذا الحَديث علىٰ عبد الرحمن بن إبراهيم أي: علىٰ شيخه، فقال: لا أصلَ له، أي لا أصل له عن الصَّحَابي النواس بن سَمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ليس المراد هذا الحَديث غير معروف المعنىٰ، أي: ليس هناك حديث في هذا المعنىٰ عن النَّواس، وإلا فإن المعنىٰ

صح من أحاديث أخرىٰ، وكما مرَّ أن أهل السُّنة والجماعة يقيسون الأَحَاديْث بالميزان الدقيق، ولو كانوا يعتقدون صحتَه من أحاديثَ أخرىٰ، لكن إذا كان الّسَنَد فيه ضعف بَيْنَ وه، ولهذا ابن الوزير في كتاب (العواصم من القواصم)، وهذا كان زيدياً علىٰ مذهب الاعتزال؛ لأنَّ الزيدية والرافضة علىٰ مذهب الاعتزال في العقيدة، ولَكنَّه نصر مذهب أهل السنة والجماعة انتصاراً عظيماً، أي: انتصر لهم في هذا الكتاب بما لا يوجد مثله في كثير من كتب أهل السُّنة، وقال رَحِمَهُ اللَّهُ نحن إذا هوينا قولاً صيرنَّاه حديثاً، وإذا وافق أهواءنا جعلناه حديثاً، لكن أهل السَّنة بالعكس، إذا جاء الحَديث ولم يصحْ ولو كان يؤيد عقيدة من عقائدهم ردُوه، وإذا جاء الحَديث الضَعيف وهو يؤيد عقيدة من عقائدهم ردوه، وإذا جاء الحَديث الصَحيح وهو يمدح من يكرهُونه أو لا يحبونه أو لا يمدحونه قالوا به، فهم قائدهم الحَقُّ، وإذا نظرنا إلىٰ بقية المذاهب مثلاً: في كتب الرافضة الشيعة: إذا أرادوا أن يمدحوا شخصاً قالوا هو من أنصارنا، أي: هذا ثقَة، أين هذا الكلام من أنصارنا، قد يوجد شخص من أهل السُّنة مثل نُعَيم بن حماد، إمام من أهل الُسُّنة، حتىٰ قالوا إن شخصاً اختبره في عقيدته بمحبته، يقول العُلَماء: إمام صدوق له مَنَاكير وأوهام؛ لأنَّ العبرة بالمقياس الصَحيح، ولا تَقسْ بمقياسين، ومكيالين، ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [المطففين:١-٣]، المسلم يزن له وعليه، هكذا الإنصاف، فهذا الحَديث يقول الشَّيْخ أبو زرعة: أنَّه لا أصل له أي لم يصح من هذا الطريق، وإن صحَّ من طرق أخرىٰ، أو عن صحابة آخرين، وهذا غاية استقامة المنهج، فمنهج أهل السُّنة والجماعة منهج، والمنهج قائد لك وعليك. ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام:١٥٢]. الشَّخْص لا يأخذه الحب في أن يغير الحَقّ ولا يدفعه الكره في أن يغير الحَقّ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ش قوله: (عن النواس بن سَمعان) بكسر السين أي ابن خالد الكلابي، ويقال الأنصاري صحابي، ويقال إن أباه صحابي أيضًا، قال أبو حاتم الرازي: سكن الشام. قوله: (إذا أراد الله أن يوحي بالأمر الخ) هذا والله أعلم في جميع الأمور التي يقضيها الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، كما يدل عليه عموم اللفظ، ويدل علىٰ ذلك أيضًا حديث أبي هريرة الذي تقدم وغيره من الأَحَاديْث المتقدمة.

قوله: (أخذت السَّمَاوَات منه رجفة) هو برفع رجفة علىٰ أنَّه فاعل، أي أصاب السَّمَاوَات منه رجفة، أي ارتجفت كما روىٰ ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: (إذا قضىٰ الله أمراً تكلم تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، رجفت السَّمَاوَات والأرض والجبال وخرت المَلَائكَة كلهم سجداً).

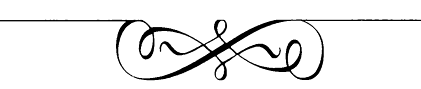
قوله: (أو قال رعدة شديدة) أي: أن الراوي شك هل قال النَّبي ﷺ رجفة أو قال رعدة، وهو بفتح الراء بمعنىٰ الأول.



الشَّرح

هذا المعنىٰ قد تقرر فيما تقدم من الأَحَاديْث، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما جاء في كتابه الكَريم: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن:٢٩]، يرزق هذا ويمنع هذا، ويعافي هذا ويمرض هذا، ويُعز هذا ويُذل هذا، ويحيي هذا ويميت هذا، الله يدبر الكون، فصلة الله بخلقه مستمَرَّة، لا كما يعتقد الفلاسفة أنَّ الله انقطعت صلتُه عن خلقه، بل هو الذي يرعىٰ خلقَه -جَلَّ وَعَلَا- ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾، فإنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يوحي بأمره إلىٰ ما شاء بما شاء.

قوله: (إذا قضىٰ الله أمراً تكلم ﷻ، رجفت السموات)، هذا قول تابعي عكرمة من تلاميذ ابن عباس، ومجاهد، فإذا قال التَّابعي قولاً فإنَّه ليس دليلاً مقبولاً، لكن هذا يكون يدل علىٰ فهمه من النص هذا المعنىٰ، فنحن نستأنس بأقوال العُلَماء، وأقوال التَّابعين، وأقوال الصَّحابَة في فهم النص الشَّرْعي، لا أن التَّابعي أو الصَّحَابي يُشرّع أو أن يكون قوله له حُكم الآية والحَديث؛ لأن الصَّحابَة كثيرون، مَنْ منهم يشرّع؟ لو كانوا كلهم يشرّعون لوقع الخلاف؛ وقد وقع بَيْنَ هم خلاف، فنأخذ تشريع من منهم؟ وإذا كان التابعون يشرعون نأخذ تشريع من؟، التشريع والإخبار بالغَيْب إنَّمَا يؤخذان من القُرْآن والسُّنة، لكن هذا يدلنا علىٰ فهم التَّابعين رحمهم الله، وأن فهمهم متفق مَعَ ما ورد في الكتاب والسُّنة. قوله: (شك هل قال النَّبي ﷺ رجفة أو قال رعدة) هذا من شدة الاحتياط، الصَّحَابي أو التَّابعي أو راوي الحَديث قد يختلف عنده اللفظ، فلا يدري هل سَمعَ من شيخه هذا اللفظ أو ذاك اللفظ، فلذلك يذكر اللفظين: رجفَة أو رعدَة، فدلَّ هذا علىٰ شدة الاحتياط والحذَر عند الرواة رحمهم الله، خشية أن يقولوا علىٰ رَسُول الله عليه الصلاة والسلام ما لم يقل.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (خوفًا من الله ﷻ) لا ينكر أن السموات والأرض ترجف وترتعد خوفًا من الله ﷻ، فقد قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء:٤٤].

وقال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت:١١]، وقال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾ [مريم:٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة:٧٤].

الشَّرح

هذا يرد على استفسار قد يقع في قلب المسلم، عندما يقول إن السَّمَاء ترتجف إذا سَمعت صوت الوَحْي، فيقول: هل السَّمَاء تعقل؟ القُرْآن الكَريم يبيْنَ أنَّ السَّمَاء تدرك، وأن الجبال تدرك، وأن الحجَارَة تدرك، لكن ليس إدراكها مثل إدراك الإنسَان، يقول تَعالَى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ﴾ أي: ما من شيء ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۗ﴾ [الإسراء:٤٤]، ما قال لا تسَمعون، لا تفقهون ولا تفهمون، قلنا إن جميع المخلوقات فيها حركة حتى الجمادات، في العصر الحاضر اكتشفوا أن الذرات في الجمادات في داخلها حركة، ما هناك شيء ساكن، قد ترى الصخرة الكبيرة ساكنة، لكن في داخلها حركة، قال بعض العُلَماء: أنَّها تطوفُ كما نطوفُ حولَ الكعبة، في حركة لولبية: سجودٍ وقيام، سجودٍ وقيام، سجودٍ وقيامٍ، وهذا ليس اكتشافاً بصرياً، إنَّمَا هو دراسة نظرية

رياضية، عن طريقها استطاعوا أن يفهموا أنَّ الذرات في داخلها يوجد حركة، ولهذا كان تفجير الذرة عن طريق هذه الدراسة الرياضية.

فالكون كله فيه حركة، وكله يُسبح لخالقه، لكن لا نفقه التسبيحَ، حتىٰ النبات، في العصرِ الحاضر بعضِ علماء النبات أجرىٰ دراساتٍ علىٰ بعض النباتات، فأثبت أنَّ النبات له إحساس وله شعور، وضرب مثالاً جاء بنبتة معينة وإذا اقتربت من هذه النبتة بنية حرقها أو إيذائها تنكمش، وإذا دخلت إليها وليس في نيتك شيء لا تنمكش، أجروها دراسات تجريبية ليست خيالية، فهذه الدراسات تدلُّ علىٰ أنَّ المخلوقات لديها إحساس، لكن يتفاوت الإحساس من خلق إلىٰ خلق، فالجماد له إحساس يخصه، ليس كإحساس الإنسَان، كذلك النبات، والحيوان، وكذلك الملك، لكن جميعها تعظم خالقها ﷻ، كَيْفَ تعظم الله؟ لا ندري، إنَّمَا نؤمن بهذا ونصدق به؛ لأنربنا ﷻ صاحب الخلق والملك قد أخبر بها فقال: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء:٤٤]، فكل المخلوقات تدرك، والله ﷻ قد يخبر عن شيء قد لا ندركه بعقولنا، لكن نسلم؛ لأنَّه ليس كل شيء يمكن للعقل البَشَري أن يدركه، ولهذا أول صفَات المؤمنين: ﴿الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة:١-٣]، المسلم هو الإنسَان المتميز الوَحْيد، الذي يتعامل مَعَ المحسوس والغَيْب، بخلاف الإنسَان الغير المسلم، فإنَّه لا يتعامل إلا مَعَ المحسوس مثل الحيوان، لكن المؤمن يعلم أن الكون فيه دائرتان، غيبيات لا تدخل تحت قدرة العَقْل البَشَري، والتعامل معها بالتصديق، لكن ليس كل شيء غائب عنا نصدق به إلا إذا صح، أي: يفرق بَيْنَ الأشياء الصَحيحة والأوهام، والمحسوسات نتعامل معها عن طريق الحس، لكن الكافر والحيوان لا يدركان إلا المحسوس ولا يعرفان الغَيْب، وليس عندهما إيمان بالغَيْب، فهذا فرق بَيْنَ المسلم وغيره.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي البُخَاري عن ابن مسعود قال: (ولقد كنا نسَمَعَ تسبيح الطعام وهو يؤكل).

وفي حديث أبي ذر: (أن النَّبي ﷺ أخذ في يده حصيات فسَمَعَ لهن تسبيح كحنين النَّحْل) وكذا في يد أبي بكر وعمر وعثمَّان وهو حديث مشهور في المسانيد.



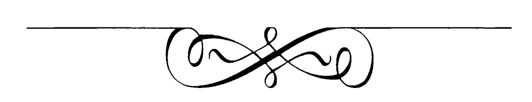
الشَّرْح

قول ابن مسعود: (ولقد كنا نسَمَعَ تسبيح الطعام وهو يؤكل) هذا الحَديث رواه البُخَاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولفظه عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: (إنكم تعدون الآيَات عذابًا، وكنا نعدها بركة علىٰ عهد رَسُول الله ﷺ، كنا نأكل مَعَ النَّبي ﷺ الطعام، ونحن نسَمَعَ تسبيح الطعام)[1] يسَمعونه بآذانهم، وهذا في الصَحيح، في أوثق كتب الحَديث النبوي.

---

(١) وليس هذا لفظ البُخَارِي، بل هو لفظ الترمذي في سننه، كتاب المناقب، باب في إثبات آيات إثبات نبوة النَّبي ﷺ، برقم: (٣٦٣٣)، وابن خزيمة في صَحِيحه، كتاب الوضوء، باب الرخصة في وضوء الجماعة من الإناء الواحد، بربم: (٢٠٤)، (١/ ١٠٢)، أمَّا لفظ البُخَارِي فهو: "كنا نعد الآيَات بركة وأنتم تعدونها تخويفًا كنا مَعَ رَسُول الله ﷺ في سفر، فقل الماء، فقال: اطلبوا فضلة من ماء، فجاءوا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل يده في الإناء، ثمَّ قال: حي علىٰ الطهور المبارك والبركة من الله، فلقد رأيت الماء ينبع من بَيْنَ أصابع رَسُول الله ﷺ ولقد كنا نسَمَعَ تسبيح الطعام وهو يؤكل"، كتاب المناقب، باب علاَمَّات النبوة في الإسلام، برقم: (٣٥٧٩).

قوله: (النَّبي أخذ في يده حصيات فسَمَعَ لهن تسبيح كحنين النَّحْل)[١] هذا الحَديث الذي ذكر أنَّه في المسانيد في الحَقّيقة لم يروه إلا البَزَّار والبيهقي واللالكائي رحمهم الله، وهو حديث ضَعيف مداره على سُويد بن يزيد، قيل فيه: لا يُعرف.



(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، باب ما جاء في تسبيح الحصيات في كف النَّبي ﷺ ثمَّ في كف بعض أصحابه (٦/ ٦٤)، والبَزَّار في المسَنَد، مسَنَد أبي ذر الغفاري، برقم: (٤٠٤٠)، (٩/ ٤٣١)، وأخرجه أيضاً الطَّبَراني في المعجم الأوسط، برقم: (١٢٤٤)، (٢/ ٥٩).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وكذلك في الصَحيح قصة حنين الجذع الذي كان يخطب عليه النَّبي ﷺ قبل اتخاذ المنبر، ومثل هذا كثير.

قوله: (صعقوا وخروا لله سجداً) أي يقع منهم الأمران: الصَّعْق وهو الغشي والسُجُود والله أعلم أيهما قبل الآخر، فإن الواو لا تقتضي ترتيباً.



الشَرح

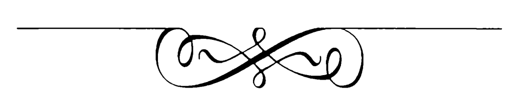
قوله: **(قصة حنين الجذع الذي كان يخطب عليه النَّبي)** هذا الحَديث ورد عن ستة من أصحاب رَسُول الله ﷺ، بعضها في صَحيح البُخَاري وبعضها في مسلم، وبعضها في ابن ماجه، وبعضها في الترمذي أمَّا في سنن أبي داود والنسائي فلم يوردا هذه القصة، قال أنس رضي الله عنه: **(كان رَسُول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة إلىٰ جنب خشبة يسَنَد ظهره إليها، فلما كثر النَّاس قالوا: ابنوا لي منبرا له عتبتان، قال: فلما قام علىٰ المنبر يخطب، حنت الخشبة إلىٰ رَسُول الله ﷺ، قال أنس: وأنا في المَسْجد فسَمعت الخشبة تحن حنين الواله)** أي حنين الحزين، **(فما زالت تحن حتىٰ نزل إليها فاحتضنها فسكتت)** وفي رواية، **(لو لم أحتضنه)** أي الجذع **(لحنَّ إلىٰ يوم القيَامة)**[1] هذا نُموذَج من خلق الله، خشَبة جذع شجرة يحنُّ ويستشعر بقرب رَسُول الله ﷺ، وكذلك في الصَحيح أن

---

(١) أخرجه البُخَارِي مختصراً، كتاب المناقب، باب علاَّمَات النبوة في الإسلام، برقم: (٣٥٨٣)، وأخرجه أصحاب السنن والمسانيد مطولاً، منها: سنن ابن ماجه، برقم: (١٤١٧)، سنن الدارمي برقم: (١٥٦٣)، مسَنَد الإمام أحَمِدَ، برقم: (١٣٣٦٣)، مسَنَد أبي يعلىٰ، برقم: (٢٧٥٦)، صَحِيح ابن خزيمة، برقم: (١٧٧٦).

هناك حجراً في مكة كان يسلم علىٰ رَسُول الله ﷺ، ويوم القيَامة تنطق الجلودُ بما عملت، فالذي أنطق الإنسَان من فمه ينطق الجلدَ بما شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله: (صعقوا وخروا لله سجداً) أي: أن المَلَائكَة إذا سَمعوا صوت الوَحْي صعقوا، الصَّعْق هو الإغماء الذي يصيب الإنسَان، فيصعقون ساجدين، أو يسجدون صاعقين؛ لأنَّ الواو في لغة العرب لا تدل إلا علىٰ مطلق الجمع، لو قلتَ: جاء عمرو وزيد، لا يدل علىٰ أن عمراً قبل زيد، بل يدل علىٰ مشاركتهما في المجيء، لكن الترتيب يؤخذ من لفظ آخر، و" ثمَّ " في اللغة العربية الأصلُ فيها الترتيب، لكن قد لا تأتي بالترتيب، وإنَّمَا تأتي لمجرد الجمَعَ بَيْنَ أمرين، فهنا الواو في قوله: (صعقوا وخروا) لا يدل علىٰ أن الصَّعْق قبل الخرّ؛ لأنَّ الصَّعْق هو أن يفقدوا إحساسَهم، فكَيْفَ يفقد إحساسَه ثمَّ يسجد؟ فلعله ـ والله أعلم ـ أنَّهم يسجدون، وفي حالة السُجُود يحدث لهم الصَّعْق؛ لأنَّ السُجُود حركة إرادية، أمَّا الصَّعْق حركة غير إرادية، فهنا يقول الشارح رَحِمَهُ الله إن الواو لا تقتضي الترتيب، وإنَّمَا تقتضي مجرد الجمع.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (فيكون أول من يرفع رأسه جبْريل) معنىٰ جبْريل عبدالله كما روىٰ ابن جرير وأبو الشَّيْخ الأصبهاني عن علي بن حسين قال: اسم جبْريل عبدالله، واسم ميكائيل عبيدالله، وإسرافيل عبدالرحمن، وكل شيء راجع الىٰ إيل فهو معبد لله عَزَّوَجَلَّ. وفيه دليل علىٰ فضيلة جبْريل عَلَيْهِ السَّلَامُ كما قال تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير:١٩-٢١].

قال أبو صالح في قوله: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ قال: جبْريل يدخل في سبعين حجاباً من نور بغير إذن.

وقد ورد في صفة جبْريل أحاديث صَحيحة منها ما رواه أحْمدَ بإسناد صَحيح عن عبدالله بن مسعود قال: (رأىٰ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جبْريل في صورته وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سد الأفق، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت والله به عليم).



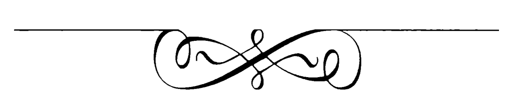
الشَّرح

جبْريل وميكائيل وإسرافيل ليست أسماءً عربية، بل أسماء عبرية، فإن نقل هذا المعنىٰ من أصحاب اللغة من أهل الكتاب فهو صَحيح، أمَّا إذا كان اجتهاداً واستنباطاً فهذا ليس مجال استنباط، إنَّمَا معرفة اللغة عن طريق أهلها، فإن كان منقولاً عنهم كما قال: أنَّ كل شيء يرجع إلىٰ إيل فيكون بمعنىٰ الله، وكل ما يضاف إليه يكون مُعبَّداً له، فيكون صَحيحاً والله أعلم.

قوله: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ هذا استطراد في بيان مكان جبْريل عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنَّه أول من يرفع رأسه بعد الصَّعْق، وجبْريل عَلَيْهِ السَّلَامُ هو أشرف المَلَائكَة،

وأفضلُهم عند الله ﷻ، ولهذا بعثه الله إلىٰ أفضل الرسل وأشرفهم، وهو نَبيّنا ﷺ، فإن جبْريل عليه السلام هو صاحب الوَحْي بَيْنَ الله والرسل.

قوله: (ما الله به عليم) الواو هنا انقلبت عن ميم، هنا في النسخ في الخط وقع تحريف، يسقط منه ميم ما الله به عليم، هذا حديث رواه الإمام أحَمدَ رحمه الله بسَنَد صَحيح، وهو في البُخَاري لكن بأقل من هذا اللفظ، فليس في البُخَاري إلا قول ابن مسعود رضي الله عنه رأىٰ جبْريلَ عليه السلام له ستمائة جناح فقط، أمَّا الشرح الباقي أنَّ كل جناح منها سد الأفق ويسقط من جناحه كذا وكذا فليس في البُخَاري، لكن إن صح الحَديث في كتاب آخر فإنَّه ليس في ذلك تعارض، بل يكون بعض الأَحَاديْث لفظه أتم من أحاديث أخرىٰ.

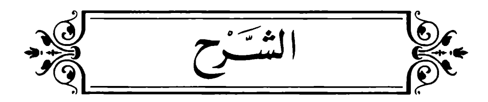




قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (ثمَّ يمر جبْريل علىٰ المَلَائكَة إلىٰ آخره) معناه ظاهر، فإذا كان هذا حال المَلَائكَة الذين هم أقوىٰ وأعظم ممن عبد من دون الله، وشدة خشيتهم من الله وهيبتهم له مَعَ ما أعطاهم الله من القوة العظيمة، التي لا يعلمها إلا الله، ومَعَ هذا فقد نفىٰ عنهم الشَّفَاعَة بغير إذنه كما قال: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم:٢٦].

وأخبر أنَّهم لا يملكون كشف الضُّر عمن دعاهم ولا تحويله فقال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ [الإسراء:٥٦]. وفي ضمن ذلك النهي عن دعائهم وعبادتهم الشَّفَاعَة أو غيرها كما قال تَعَالَىٰ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ﴾ [الزمر:٤٣، ٤٤].



الشَّرْح

هذا استطراد وبيان للمقصد من سياق الحَديث، فإن الحَديث ورد ليبيِّنَ أن المَلَائكَة خَلق من خلق الله، وأنَّها تخاف الله وترهبه وليس لها من الأمر شيء، فإذا كانت المَلَائكَة مَعَ شدة خلقهم وعظمه يخافون الله -عَزَّ وَجَلَّ- ويخشونه، فكَيْفَ يدعون من هو نفسُه يخافُ من الله، فلا يُدعىٰ إلا من لا يخاف من الله وكان شريكًا معه، وليس في الكون شريك معه -عَزَّ وَجَلَّ-، المَلَائكَة خلق من خلق الله ولا يجوز لنا أن ندعوهم من دون الله، أو أن نصرف لهم حَقّ الله، فإذا كانت المَلَائكَة وهم ممَّن دعوا من دون الله هذا حالهم فغيرهم من باب أولىٰ.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فكَيْفَ يدعوهم المُشرِك ويظَن أَنَّهم يَشفَعون له عند الله كما يَشفَع الوزراء عند الملوك، وإذا بطلت دعوتهم مَعَ أَنَّهم أحياء ناطقون مقربون عند الله، فدعاء غيرهم من الأموات الذين لا يستطيعون سَمعًا ولا يملكون ضراً ولا نفعًا أولىٰ بالبطلان، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأعراف:١٩٤].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [النَّحل:٢٠-٢٢].

الشَّرح

هذا استطراد في بيان عدم جواز دعاء المَلَائكَة، ولا يجوز أن نقيس المَلَائكَة مَعَ الله، كقياسنا في الدُّنيَا الوزراء مَعَ الملوك، أو المقربِيْنَ لدىٰ أصحاب الجاه، فشَتَّان بَيْنَ الخالق والمخلوق، فهنا يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فكَيْفَ يدعوهم المُشرك، ويظَن أَنَّهم يَشفَعون له عند الله، كما يَشفَع الوزراء عند الملوك، الوزير له مشاركة ومعاونة للملك، والملك لا يستغني عن وزرائه، لكن الله عَزَّ وَجَلَّ ليس مثل الملك، فالله غني، وكل خلقه محتاج إليه، وليس في خلقه من يشاركه ولا من يعينه، فالتشبيه خطأ، وسيأتي إن شاء الله في باب الشَّفَاعَة بيان ذلك، فالذي يعتقد أن الله عَزَّ وَجَلَّ يحتاج إلىٰ ملائكته، وأن المَلَائكَة تعين الله، وأَنَّها تملك مَعَ الله أو من دونه، فإن هذا يكون مخطئًا وجاهلاً، فلا يستطيع أحد من الخلق أن يَشفَع إلا بإذن من الله، لا ملك مقرب ولا نَبي مُرسَل.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (ثمَّ ينتهي جبْريل بالوَحْي إلىٰ حيث أمره الله عَزَّوَجَلَّ) قد بيض المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد هذا، ولعله أراد أن يكتب تمام الحَديث ومن رواه وتمامه: إلىٰ حيث أمره الله عَزَّوَجَلَّ من السَّمَاء والأرض، ورواه ابن جرير وابن خزيمة وابن أبي حاتم والطَّبَرَاني، وفي الحَديث من الفوائد إثبات الكلام خلافًا للجهمية، وإثبات الصَّوْت خلافًا لهم وللأشاعرة.

الشَّرْح

قوله: (قد بيض المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد هذا) يذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن المؤلف بيض، أي ترك مكانًا بياضًا؛ لأنَّ المؤلف إذا كتب حديثًا فإنَّه قد لا يستحضر كل لفظه، فيترك آخره حتىٰ يبحث عنه، لكن الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ كمله، وهو قوله: (إلىٰ حيث أمره الله عَزَّوَجَلَّ من السَّمَاء والأرض)[1] أي أن جبْريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ينطلق بالوَحْي إلىٰ حيث أمره الله عَزَّوَجَلَّ، ثمَّ ذكر من خرجه.

وذكر فيه فائدتين، الأُولَىٰ: إثبات الكلام أي لله عَزَّوَجَلَّ، خلافًا للجهمية، الله عَزَّوَجَلَّ يتكلم بكلام يليق بذاته وبجلاله وبكماله عَزَّوَجَلَّ، ليس ككلام المخلوق، قلنا إن بعض الطوائف الإسلامية قد غالت في تنزيه الله عَزَّوَجَلَّ حتىٰ أنكرت صفَاته، وهذا خطأ، التنزيه يقوم علىٰ الدليل الشَّرْعي، ولا يقوم علىٰ العَقْل،

---

(١) أخرجه الطَّبَرَاني في مسنَد الشاميين، برقم: (٥٩١)، (١/ ٣٣٦)، والطبري في تفسيره (٢٠/ ٣٩٧)، وابن خزيمة في التَّوحِيد، برقم: (٢٠٦)، (١/ ٢١٦)، وأخرجه أيضًا البيهقي في الأسماء والصِفَات، برقم: (٤٣٥)، (١/ ٥١٥)، وأبو نُعَيم في الحلية (٥/ ١٥٣)، وابن الأعرابي في المعجم، برقم: (٨٦٣).

وكما قلنا العَقْل لا يدرك القضايا الغَيْبية إلا عن طريق الوَحْي، ولهذا أوَلُ صفَات المؤمنين أنَّهم يُؤْمنون بالغَيْب، وموقفنا من الغيْب التسليم، وليس موقفنا منه البحث والتدقيق؛ لأنَّ الشهادة لم نستطع أن نحيط بها، فما بالك بالغَيْب؟ ، فربنا -ﷻ- يتكلم، القُرْآن كلام الله، تكلم به ﷻ بحرفٍ وصوت؛ لأنَّه جاء في الحَديث أنَّه ﷺ قال في قراءة القُرْآن: (**لا أقول الم حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف**)[١]، فأثبت الحرفية في كلام الله، وأمَّا الصَّوْت فقد صح في الحَديث عن أبي سعيد الخدري ﷺ، أنَّه قال: (**إن الله ﷻ يقول يوم القيَامة: يا آدم أخرج بعث النَّار، قال: فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج بعث النَّار أو تخرج من ذريتك بعث النَّار**)[٢]، وروىٰ البُخَاري لَكنَّه معلق، وقد وصل في غير البُخَاري، عن عبد الله بن أنيس ﷺ: (**أن الله ينادي يوم القيَامة يسَمعه من قرب كما يسَمعه من بعد، أنا الملك أنا الديان**)[٣]، وفي قوله -تَعَالَىٰ -في القُرْآن الكَريم: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر:١٦، ١٧]، الله يقول: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ﴾ فيجيبُ الله: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البُخَارِي بنحوه، كتاب التفسير، باب قوله تَعَالَىٰ: (وترىٰ النَّاس سكارىٰ)، برقم: (٤٧٤١)، ومسلم في صَحِيحه، كتاب الإيمان، باب قول الله لآدم ﷺ أخرج بعث النَّار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، برقم: (٢٢٢)، (١/ ٢٠١).

(٣) أخرجه البُخَارِي في صَحِيحه معلقاً، كتاب التَّوحِيد، باب قوله: (ولا تنفع الشَّفَاعَة إلا لمن أذن له)، ص١٤٢٧، ووصله في الأدب المفرد، باب المعانقة، برقم: (٩٧٠)، (١/ ٣٣٨)، ووصله أيضاً الإمام أحَمدَ في المسَنَد، برقم: (١٦٠٤٢)، (٢٥/ ٤٣٢)، والحَاكِم في المستدرك، كتاب التفسير، تفسير سورة حم المؤمن، برقم: (٣٦٩٥)، (٢/ ٥١٥)، وصححه، وأقره الذهبي في التخليص.

فربنا ﷻ يتكلم، لكن الذين يعتقدون أنا إذا أثبتنا الكلام لله لزم منه ما يلزم من كلام البَشَر فقد أدىٰ بهم هذا الفهم إلىٰ إنكار كلام الله، قلنا إن في العصر الحاضر صنع الإنسَان أجهزة، المذياع، والرائي الذي هو التلفزيون، والهاتف، وكلها أجهزة جامدة يخرج منها صوت بدون أسنان ولا حنجَرة ولا لسان، وهي من صناعة الإنسَان، فما بالك بخالق الخلق- ﷻ؟ ، فلا يلزم من أن يكون الله ﷻ متكلماً أن يكون له ما للإنسان، فالقُرْآن كله من أوله إلىٰ آخره: قال الله، قال الله، ولم يرد نص يدل علىٰ أنَّ هذا ليس من قول الله، ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦]، وكذلك عندما قال الله: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [طه:١٤]، من يجرُؤ أن يقول: إنَّني أنا الله؟ ، لا الشجرة ولا السَّمَاء ولا المَلَك، هذا كلام الله ﷻ، لكنَّنا نثبت الكلام لله مَعَ تنزيهه عن ممَّاثلة الخلق، ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١]، فكما أثبتنا لله سَمعاً وبصراً، ليس كسَمع الإنسَان ولا كبصره، نثبت لله كلامَاً ليس ككلام الإنسَان، فمنهج السلف لا يزيده الزمن إلا جدَة، ولا يزيده الزمن إلا تحَقّيقاً وثبوتاً.

والذين ظَنوا بعقولهم أنَّهم يستطيعون أن يضعوا لله القواعدَ والضوابط، فما قبلَتْه قواعدهم قبلوه، وما ردتهم قواعدهم ردُّوه، هؤلاء أصبح كلامهم حاكماً علىٰ كلام الله، فهنا يقول: (**خلافاً للجهمية**)؛ لأنَّ أولَ من أعلن إنكار كلام الله: الجهم بن صَفوَان، هذا ظهر في المشرق في أواخر القرن الأول، وهو تلميذ الجَعد بن درهم، فإنَّه أنكر كلام الله ﷻ، فقتله سالم بن أحوذ عام مائة وثمانية وعشرين للهجرة، فالجَعد بن درهم أنكر كلام الله لكن لم يُشعْه في النَّاس ولم ينشره، إنَّمَا نشره الجهم بن صَفوَان، فنسب إليه، وورث هذه المقالة البَاطلة المُعْتَزلَة، وزعموا أنَّ كلامَ الله مخلوق.

فنقول: يقول ﷻ: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس:٨٢]، الله يخلق الخلق بكلمة كن، فـ "كن" إذا كانت مخلوقة، بماذا صارت مخلوقة؟ بكلمة أخرىٰ" كن"؟! ، ثمَّ قبلها "كن "، فلابد أن ننتهي للفظٍ، وكما قال ﷻ: ﴿لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾ [الأعراف:٥٤]. فرَّق بَيْنَ الخَلق والأمر، فالخلق إنَّمَا يكون عن طريق الأمر الذي هو الكلام، فالقُرْآن كله يدل علىٰ كلام الله – تَعَالَىٰ–، والسُّنة كلها تدل عليه، لكن الذي جعل عقلَه مقياساً أو حاكماً فإنَّه انحرف عن هذه الحَقّيقة، فالمُعْتَزلَة ورَّثُوا الجهمية، والأشَاعرَة والمَاتريديَّة لم يرثوا الجهمية بكاملها، إنَّمَا أرادوا أن يتوسطوا، فأثبتوا لله كلاماً، لكن كلاماً نفسياً. هم لم يتصوروه أصلاً، وإنَّمَا أرادوا أن يخرجوا من الإشكال، وقالوا: إن اللفظ الذي بَيْنَ أيدينا مخلوق، فهم متفقون مَعَ المتعَزَّلة علىٰ أنَّ كلام الله الذي في المصاحف مَخلوق، فدعواهم أنَّهم متفقون مَعَ السلف دعوىٰ باطلة.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وإثبات الصَّوْت خلافا لهم وللأشاعرة**)، فالله يتكلم وكلامه يُسمَع، يسمَعه جبْريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وتسمَعه المَلَائكَة، ويوم القيَامة يخاطب الله النَّاس ويُحَاسب بَيْنَ هم، كلهم في وقت واحد، فإن الله ﷻ ليس كالإنسَان بحيث يشغله شخص عن شخصٍ، فالله يرزق النَّاس كلهم في وقت واحد، ويحفظهم في وقت واحد، ويخلق مئات الآلاف في وقت واحد، ويميت مئات الآلاف في وقت واحد، ويُحَاسب النَّاس في وقت واحد كما قال تَعَالَىٰ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [غافر:١٧]، الله لا يُحَاسب كل واحد علىٰ حدة، ويتعاقبون في الحسَاب، كلهم يُحَاسبهم في وقت واحد؛ لأنَّ الله ليس كالمخلوق، فلا يشغله سماع صوتك عن سماع صوت مخلوقٍ آخر في وقتٍ واحد، يدعوه النَّاس في كل الأرض ويسبّحه النَّاس في كل الأرض، ويعبده النَّاس في كل الأرض والله يسمَعهم جميعـًا، لا يشغله صوت عن صوت، وقد ضربنا لهذا مثلاً: الأنَّ الأطباق الفضائية، عندما يتكلم

الإنسَان بالهاتف ينطلق الكلام عبر الأسلاك إلىٰ هذا الطبق، والطبق يبث الأصوات من الأرض إلىٰ السَّمَاء إلىٰ القمر الصناعي في لحظة واحدة بدون أسلاك، ويعود مَرَّة أخرىٰ إلىٰ الأرض في لحظة واحدة ولا يختلط صوت بصوت، وتكون في اللحظة الواحدة مئات الآلاف من المكالمات ولا تختلط مكالمة بمكالمة، وهذا طبق صنعه الإنسَان، صَنعه بحسب قانون الله الذي جعلَه في الأرض، فالقانُون من خلق الله، فإذا كان الطبق يستقبل في وقت واحد مئات الآلاف من المكالمات وهو من صنع الإنسَان فما بالك بالخالق ﷻ؟ لأنَّ الإنسَان أحيانًا ما يتصور، وربما يقع في نفسه الإنكار، لكن ما يراه من صناعة الإنسَان يقرب له بعض المعاني الغَيْبية، فهذا من صناعة الإنسَان فما بالك بالخالق؟ كما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق:١٦]. ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦].

فصفَات الخالق ﷻ تختلف عن صفَات المخلوق، فنحن نثبت لله صفَاته، مَعَ اعتقادنا بأن الله ليس كخلقه ولا الخلق كالخالق، وهذا هو منهج أهل السُّنة والجماعة إثبات معناها وتفويض كَيْفَيتها إلىٰ الله؛ لأنَّ الألفاظ في الأفْعَال والأسماء لها جانبان: جانبُ المعنىٰ وجانبُ الكَيْفَ، فنحن ندرك في حَقِّ الإنسَان الجانَبيّنا لمعنىٰ والكَيْفَ، وفي حَقّ الله جانب المعنىٰ فقط، فإذا قلت: تكلَّم الله تدرك معنىٰ الكلام، لكن كَيْفَية الكلام لا تدركه، كما قال مالك رحمه الله القولة المشهورة التي أصبحت قاعدة لأهل السُّنة والجماعة عندما سئل عن الاستواء: الاستواء معلوم، والكَيْفَ مَجْهُول، الاستواء معلوم أي معناه في لغة العرب، ولكن الكَيْفَية مَجْهُولة، فهذه قاعدة في جميع أسماء الله وصفَاته وأفْعَاله، نثبت المعنىٰ الذي نفهمه في لغة العرب، ولكننا نفوض كَيْفَية اتصاف الله بها إليه -ﷻ-، فلا نكَيْفَ كَيْفَ صفة الله؛ لأنَّه لا يعلمها إلا الله - ﷻ -.

هذا هو آخر الباب باب قول الله تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ [سبأ:٢٣].

ونذكر في هذا المكان بعض فوائد هذا الباب.

الفائدة الأُولَى: رهبة المَلَائكَة وخشيتهم من الله -جَلَّ وَعَلَا- دليلُ عبوديتهم لله، فالذي يخشىٰ الله ويخافه ويرهبه خلق من خلقه، فالذي يكون هذا حالُه لا يُدعَىٰ ولا يُستغاث به ولا يلجأ إليه.

الفائدة الثانية: فرق بَيْنَ العُبُودية والرُبوبية، فالمخلوق عبد مخلوق مربوب، والله ربُّ الجميع -جَلَّ وَعَلَا-، ولكل حَقوق، ولا تختلط الحَقوق علىٰ المسلم، فالله له حَقّوق تخصُّه لا نصرفها لغيره، وللعبد حَقّوق تخصه لا يقُّصر فيها، فالمَلَائكَة لهم حَقّوق، والأَنبياء لهم حَقّوق، ولا نصرف حَقّ الله للمخلوق؛ لأنَّ حَقّ الله خاص به -جَلَّ وَعَلَا-، فحَقّ الله العبَادة، الذُّل والخضوعُ والخشيةُ والخَوف والدّعَاء.

الفائدة الثالثة: بيان طريقة استراق السَمَعَ من الشَّيَاطن، مرَّ في الأَحَاديْث أنَّ الشَّيَاطن تسترق السَمع، إذا أراد الله جَلَّ وَعَلَا أن يُوحي لمن شاء بما شاء فإنَّه يحدث في السَّمَاء صوت، وأنَّ المَلَائكَة تسأل جبْريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد أن تفيقَ من الصَّعْق: ماذا قال ربنا؟ فيقول جبْريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: قال الحَقُّ وهو العلي الكبير، وفي بعض الأَحَاديْث أن المَلَائكَة تنزل في العَنَان أي في السَّحَاب، والسَّحَاب في داخل الغلاف الجوي، فإن السَّمَاء إذا أُطلقت في اللغة يراد بها أحد معنيين: العُلُو، والجرم السماوي، وهناك سبع سماوات، والسَّمَاء في اللغة ما علا الإنسَان.

والسَّمَاء الدُّنيَا بعيدة جداً، ولهذا قال تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦ ﴾ [الواقعة:٧٥، ٧٦]، مواقع النجوم البعيدة المدىٰ القَسَم بها عظيم، فمكانُها بعيد، والإنسَان لا زال يتحرك تحت السَّمَاء الدُّنيَا ولم يستطع أن يصل إليها، والدارسون للسمَاوات اختلفوا في تحديدها، منهم من يقول: أنَّها عبارة عن أثير شديد التماسك لا يُخترق، هكذا

قالت مراصدهم أنَّ هناك طبقة من الأثير لا يُخترق، لكن هذا اجتهاد البَشَر، أمَّا نحن فلا نستطع أن نُحدد، وإن كان بعض الآيَات تدل علىٰ أن السَّمَاء قد تكون من المعدن؛ لأنَّ الله يقول: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾﴾ [المعارج:٨]، المهل هو الحديد المذاب، فربما تكون السَّمَاء الدُّنيَا من الحديد أو من المعادن، الله أعلم، لكن السَّمَاء الدُّنيَا بعيدة جداً، ولا نستطيع أن نُحدد حَقّيقتها، لكننا نؤمن بأن الله له سبع سماوات.

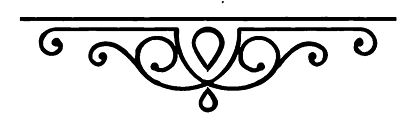
فاستراق الشَّيَاطن السمْع، إمَّا أن يكون من السَّمَاء الدُّنيَا أو من السَّحَاب، قد يقول إنسان: كَيْفَ يمكنهم أن ينقولوا الأصوات بهذه السرعة وبَيْنَ نا وبَيْنَ السَّمَاء الدُّنيَا مسافة طويلة؟ قلنا الآن في المكالمة الهاتفية التي ترتقي من الأرض إلىٰ القمر الصناعي إلىٰ أمريكا ثمَّ تعود إلىٰ القمر الصناعي ثمَّ تعود للأرض في لحظة كأنَّك تخاطب إنساناً أمامك، فالقوانين التي جعلها الله في الكون قوانين مَجْهُولة لنا، والشَّيَاطن وحركتها وطريقة استراقها مَجْهُول لنا، نحن لا نستطيع أن نحدد خلق الشَّيطَان كَيْفَ هو، ولا نستطيع أن نحدد خلق الجنَّ كَيْفَ هو، فكَيْفَ نستطيع أن نحدد حركته؟ هذا شيء خارج عن قدرة الإنسَان، والعَقْل البَشَري ليس قادراً علىٰ أن يحيط بكل شيء في الوجود، ولَكنَّه يسلم لما ورد في الخَبَر.

الفائدة الرابعة: بيان التَّعَاون بَيْنَ الشَّيَاطن والكُهَّان، الآن كثير من السّحرة والكهنة يستخدمون الشَّيَاطن ويخبرون بالمغيبات كما مرَّ في الحَديث أن الشَّيطَان يسترق الكلمة الواحدة ويزيد فيها هو أو الكاهنُ مائةَ كذبة، فالنَّاس يحفظون الكلمة الصَحيحة التي سَمعها الشَّيطَان ونقلها، وينسون مائة كذبة كذَبها علىٰ الإنسَان، فالكاهن يستعين بالشَّيطَان، والسَّاحر يستعين بالشَّيطَان، والشَّيَاطن لا تخدم الإنسَان إلا إذا أشرك مَعَ الله سبحانه وتعالى؛ لأنَّ الشَّيَاطين من مهمتها إضلال الإنسَان، وهذه بعض وسائل الإضلال أنَّها تساعد الإنسَان المنحرف ليضل الإنسَان المؤمن، فهي تسترق الكلمة وتبثها إلىٰ هذا الإنسَان.

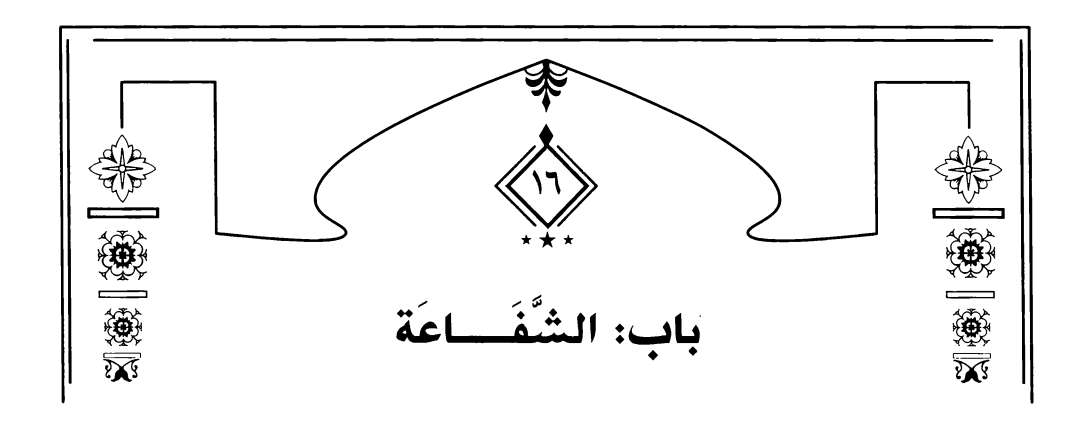
الفائدة الخامسة: نسيان النَّاس لكذب الكُهَّان وحفظ ما صدقوا فيه، فالنَّاس يحفظون محاسن الفساق والكفار وينسون مساوئهم، ويتعاملون مَعَ المسلمين بالعكس، يحفظون مساوئَ الُمسلم الصالح وينسون محاسنَه، فإذا صدق الكاهن مَرَّة جعلوها قاعدةً، وقد كذب معها مئات الكذبات، والإنسَان الصالح يُحسن طوال حياته ثمَّ يسيء مَرَّة أو مرتين أو ثلاثـًا أو عشرا، فيحفظون الإساءةَ وينسون الحسنة، وهذا خُلق ذميم أن لا تحفظ من أخيك إلا أخطاءه، أحدنا لو كان معه مرافق من الصَّبَاح إلىٰ المساء وقد تكلم من الصَّبَاح إلىٰ المساء آلاف الكلمات وعمل آلاف الأعمال لابد أن يكون فيها خطأ، في كلمة أو في عمل أو في عملين، فلو أخطأ المسلم في العام الواحد ثلاثمائة وستين خطأ ونشرها ينظر النَّاس لهذا الشَّخْص علىٰ أنَّه شخص سوء، مَعَ أن له من المحاسن أضعافها، ولهذا يقول الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في ترجمة قتادة بن دعامة الدوسي لو كان كل عالم يخطئ خطأً واحداً أو أخطاء معدودةً نترُك قولَه؛ ما استطعنا أن نجد إنسانـًا لا يخطئ، ويوم القيَامة الحسَاب بالحسنات والسيئات، فمن زادت حسناته دخل الجنَّة وإن كان له أخطاء ومعاصٍ، ومن زادت سيئاته دخل النَّار، فيقول الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: إذا كان للإنسان حسنات كثيرة فإنَّها تغمرُ سيئاته.

هذا حاطب بن أبي بلتعة من أصحاب رَسُول الله ﷺ، الرَسُول ﷺ يعَزِّم علىٰ فتح مكة، ويقول: اللهم عم عليهم خبرنا، ويأتي حاطب وهو من أهل بدر فيبعث برسالة إلىٰ أهل مكة يخبرهم بقصد رَسُول الله ﷺ، فيكشف الوَحْي ذلك، ويبعث الرَسُول ﷺ بشخصين إلىٰ امرأة تحمل خطاب حاطب، فيقول ﷺ: انطلقوا إلىٰ روضة خاخ فإن بها ضعينة معها كتاب، ائتوني بالكتاب، فيأتون إليها فيجدونها في هذا المكان، فتقول: ما عندي كتاب، فقال: الكتاب أو لنجردنك، ما كذب رَسُول الله ﷺ، فتقول: إليكم عني فتخرج الكتاب، فيأتي

بالكتاب فيقول: ما حملك يا حاطب، فيقول: لا والله يا رَسُول الله إلا أن ما من أحد من أصحابك إلا له قرابة يدفع الله بها أو يد يدفع الله بها عن قرابته، وإنني لست من أهل مكة، فأردت أن أتخذت لهم يداً يدفع الله بها عن أهل بيتي أو عن قرابتي، فقال عمر: دعني أضرب عنقه، فقال: دعه يا عمر، فإنَّه من أهل بدر وإن الله قد اطلع علىٰ أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم[1]، فهذا عمل خطير، لكن له حسنة كبيرة أعظم، فالنَّاس ينسون حسنات الصَّالحين، ولا يذكرون إلا أخطاءهم، وبالعكس ينسون أخطاء الفُساق والكُهَّان، ولا يذكرون إلا ما صدقوا فيه، وهذه قاعدة ابتلي بها النَّاس في كل جيل إلا من رحم الله، هذا ملخص لبعض الفوائد التي أوردها في هذا الباب.



(١) أخرجه البُخَاري في عدة مواضع من صَحِيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الجاسوس وقول الله تَعَالَىٰ: (لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء)، برقم: (٣٠٠٧)، ومسلم في صَحِيحه، كتاب فضائل الصَّحابَة، باب من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم وقصة حاطب بن أبي بلتعة، برقم: (٢٤٩٤)، (٤/ ١٩٤١).



باب: الشَّفَـــاعَة

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما كان المُشركون في قديم الزمان وَحَّديثه إنَّمَا وقعوا في الشرك لتعلقهم بأذيال الشَّفَاعَة، كما قال تَعَالَىٰ: ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ ﴾ [يونس:١٨].

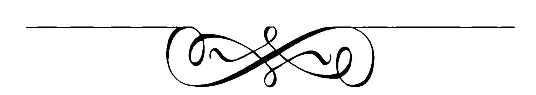
وقال تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ [الزمر:٣].



الشَّرح

هذا هو الباب السادس عشر من أبواب الكتاب، وهو يعرض لنا سبب شرك الأولين؛ لأنَّ الجيل الذي ظهر فيهم نَبِيّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، والأجيال التي ظهر فيها الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قد وقعوا في الشرك، وكان السبب في هذا الشرك أنَّهم عظموا بعض الصَّالحين أو عظموا المَلَائكَة أو الأنبياء تعظيماً زائداً، فصرفوا حَقّ الله لهم، وزعموا أنَّ هذا الفعل إنَّمَا هو للاستشفاع بهم، وهم يعبدونهم من دون الله، لا يستشفعون، كما قال تَعَالَىٰ: ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ ﴾ [يونس:١٨]، فصرفوا حَقّ الله

لهم، ثمَّ زعموا أن هذا ليَشفَعوا لهم عند الله، وشَتَّان بَيْنَ العملين: التقرُّب إلىٰ الوسيط ليَشفَع نوع، وصرف العبَادة للوسيط نوع، فهؤلاء عبدوا من دون الله من مخلوقاته، وزعموا أن هذا الفعل ليَشفَعوا لهم عند الله، ثمَّ قال في الآية الثانية: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ هنا يعترفون ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، هنا يعترفون بأنَّهم يعبدون، لكن يقولون: القصد من هذه العبَادة أن يقرّبونا إلىٰ الله؛ لأنَّه إذا ضعف العلْم الشَّرْعي لا يعرف النَّاس ما الذي يرضي الله وما الذي يغضبه، فالجهل إذا عمَّ قاسوا الخالق علىٰ المخلوق، فظَنوا أن الملكَ الخالقَ الجبارَ مثل ملوك الدُّنيَا الذين قد لا يريدون أن ينفعوا، ولا أن يعطوا إلا إذا جاء مؤثر خارجي، شَتَّان بَيْنَ الخالق والمخلوق، ربنا كريم رحيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما سيذكر الشارح، هذا ظَنهم، فربنا الخالق لا ينبغي أن يُقاس علىٰ المخلوق ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ:١١]، لا في فعله ولا في خلقه ولا في أسْمَائه ولا في صفَاته، فالجهل إذا عم يقع هذا التصور الخاطئ، فهذا التصور الخاطئ سبب للشرك.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وكذلك قطع الله أطماع المُشركين منها، وأخبر أنَّه شرك ونزه نفسه عنه، ونفىٰ أن يكون للخلق من دونه ولي أو شفيع، كما قال تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾ [السجدة:٤].

أراد المُصَنّف في هذا الباب إقامة الحجج علىٰ أنَّ ذلك هو عين الشرك، وأن الشَّفَاعَة التي يظَنها من دعا غير الله ليَشفَع له كما يَشفَع الوزير عند الملك منتفية دنيا وأخرىٰ، وإنَّمَا الله هو الذي يأذن للشافع ابتداء، لا يَشفَع ابتداء كما يظَنه أعداء الله.

الشَّرح

قوله تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [السجدة:٤]، أولاً: هذا تقرير مدةُ الخلق، وهي ستة أيام، وغالب الظَن أنَّها مثل أيامنا هذه، ثمَّ قال ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ هذا فعل حدث بعد خلق السَّمَاوَات والأرض، والعَرْش كان موجوداً قبل أن يَخلق الله السَّمَاوَات والأرض كما جاء في الحَديث: (وكان عرشه علىٰ الماء)[١]، وبعد أن خلقَ السَّمَاوَات والأرض استوىٰ علىٰ العَرْش، ولا يجوز أن نقول كَيْفَ استوىٰ؟ ، يجوز أن نقول ما معنىٰ استوىٰ، لكن لا نعلم كَيْفَية استواء الله علىٰ عرشه. لا ينبغي لنا أن نتصور؛ لأنَّ هذا فعلُ لله الذي لا نعرف ذاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعندنا قاعدة

(١) أخرجه البُخَارِي في مواضع من صَحِيحه، منها: كتاب بدء الخلق، باب قوله تَعَالَىٰ: (هو الذي يبدأ الخلق ثمَّ يعيده وهو أهون عليه)، برقم: (٣١٩١).

شرعية أنَّ ذات الله ليست كذوات المخلوق، فنعرف استواء المخلوق علىٰ المخلوق، استواء الإنسَان علىٰ الدابَّة، أو الكرسي، أو السفينة، هذا نعرفه معنىً وكَيْفًا، لكن في حَقّ الله نعرف معنىٰ استوىٰ في اللُّغة، لكن لا نعرف كَيْفَية استواء الله، والذهن البَشَري مهما حاول أن يستبعد من صورة الاستواء ربما لا يستطيع، لكن هذا من المَعفُو عنه، لكن لا ينبغي أن نقرره في ذهننا؛ لأنَّ كل شيء خطر ببالنا فالله علىٰ خلاف ذلك؛ لأنَّه لا يخطر ببالنا إلا ما نعرفه في حَقّ المخلوق، مثلا لو قالوا: إن البلدَ الفلاني صَنع طائرةً جديدة لا تشبه الطائرات الحَديثة، مهما حاولتَ أن تتصور صورة الطائرة الجديدة لا تستطيع أن تنفَك في ذهنك عن صورة الطائرة القديمة، هكذا البَشَر يقيسُ علىٰ ما يعرف، لكن الله ليس كذلك، ليس كالمخلوق، شَتَّان بَيْنَ الخالق والمخلوق، في ذاته، وفي أسْمَائه وفي صفَاته وفي أفْعَاله، والله قد قرّر هذا، ليس كمثله شيء ﷻ، لكن الذهن البَشَري قد يردُ عليه واردات وخواطر، هذا ممَّا يعفىٰ عنه، لكن لا تجعله قاعدة، ولا تجعله عقيدة، عقيدتك أن تنفي من ذهنك هذه الصور، وتعلم أنَّ الله استوىٰ علىٰ العَرْش، وأنَّ الله يطلع عليك - ﷻ -، لا تخفىٰ عليه منك خافية، هذا هو القَدْر الذي ينبغي أن تعلم، وأمَّا ما عداه فتكله إلىٰ الله.

قوله تَعَالَىٰ: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة:٤]، لم ينف الشَّفَاعَة، بل قال: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ﴾ أي: لابد من إذنه، ليس هذا نفيـًا للشَفَاعَة؛ لأنَّ في الآخرة شَفَاعَات، وردت أن فيها شَفَاعَة عظمىٰ لنَبيّنا ﷺ، وله شَفَاعَات أخرىٰ: سبع شَفَاعَات، وكذلك يَشفَع الأَنبياء ويَشفَع المَلَائكَة، ويَشفَع الصَّالحُون، فالله أراد ذلك في الآخرة ﷻ، وفي الدُّنيَا ليس هناك شَفَاعَة، هناك دعاء كما جاء عن عمر رضي الله عنه: (إن كنا نستسقي بنَبيك ﷺ، وإنا

نستسقي اليوم بالعباس، يا عباس ادع الله، فرفع العباس يديه ودعا معه الصَّحابَة)[١] كذلك فعل معاوية مَعَ يزيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: يا يزيد ادع الله فرفع يزيد بن الأسود الجرشي يديه، فرفع النَّاس معه أيديهم، فطلب الدّعَاء غير الاسْتشْفَاع بهم أو بذاتهم، فإنَّه لا يستشَفَع بذوات المخلوقات علىٰ الله جَلَّ وَعَلَا؛ لأنَّه ليس لأحد من الخلق علىٰ الله حَقّ إلا ما جعله الله، فإنَّ الله جعل علىٰ ذاته الكَريمة حَقّاً، وهذا الحَقّ أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا، أمَّا أن تعتقد أن للنَبي فلأنَّ علىٰ الله حَقّاً وتسأل الله بحَقّه عليك، فقد فعلت فعلا لم يأت عن نَبيّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا عن الصَّحابَة ولا عن التَّابعين، فما كانوا يستشَفَعون أو يدعون بحَقّ الصَّالحين، فالشَّفَاعَة في الآخرة مثبتة، لكن شَفَاعَة الدُّنيَا منفية، فالمُشركون كما قال الشارح رَحِمَهُ اللهُ يظَن أنَّه من دَعا غير الله ليَشَفَع له كما يَشَفَع الوزير عند الملك، شَتَّان، الإنسَان مهما علت مرتبته في الدُّنيَا يموت ويمرض ويضعف ويجبن ويحزن، ولهذا قال تَعَالَىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨]، لا تتوكل علىٰ من يموت، وتوكل علىٰ الذي لا يموت، هو الله جَلَّ وَعَلَا.

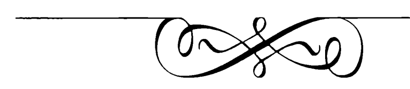
وقياس الخالق علىٰ الملك البَشَري غلط؛ لأنَّ الملك البَشَر لا يعلم إلا إذا أُعلم، ربما لا يريد إلا إذا دفع للإرادة، فيحتاج إلىٰ من يَشَفَع عنده، ولهذا قال نَبيّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (اشَفعوا تؤجروا)[٢] وهو سيد البَشَر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا شَفَع الإنسَان في الخَير كان له مثل أجره، وإذا شَفَع في الشرَّ كان عليه كفل منه، فالإنسَان ملكًا

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البُخَارِي في صَحِيحه، كتاب الزكاة، باب التحريض علىٰ الصدقة والشَّفَاعَة فيها، برقم: (١٤٣٢)، ومسلم في صَحِيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب الشَّفَاعَة فيما ليس بحرام، برقم: (٢٦٢٧)، (٤/ ٢٠٢٦).

أو سلطانـاً أو أميراً أو واليـاً لا يعلم حاجة النَّاس حتىٰ يعلم، لكنَّ الله يعلم حاجة خلقه، لا تخفىٰ عليه منهم خافية، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾ ما قال: قل لهم، بل أجاب بنفسه ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]، فالله قريب، فلا يحتاج إلىٰ وسيط أو شفيع من البَشَر.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فإن قلت: إذا كان من اتخذ شفيعًا عند الله إنَّمَا قصده تعظيم الرب تَعَالَىٰ وتقدس، أن يتوصل إليه بالشَفَعاء فلم كان هذا القدر شركًا؟

قيل: قصده للتعظيم لا يدل علىٰ أن ذلك تعظيم لله تَعَالَىٰ، فكم من يقصد التعظيم لشخص ينقصه بتعظيمه، ولهذا قيل في المثل المشهور: يضر الصديق الجاهل ولا يضر العدو العاقل.



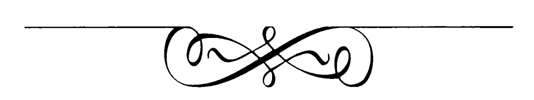
الشَّرح

هنا سؤال أورده الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا كان من اتخذ شفيعا عند الله إنَّمَا قصده تعظيم الله، فهل هذا يكون شركًا؟ ثمَّ يجيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ليس العبرةُ بالمقصد، فإنَّه لابد أن يكون للعمل جانبان، صورة العمل والمقصد، لابد أن يتَّفقا، والمثَل المشهور الذي ذكره هناك لفظ آخر: يضر الصديق الجاهل أكثر ممَّا يضر العدو العاقل، أي: صديقُك أحيانًا بجهله يريد أن ينفعك، ولَكنَّه يجهل صورة المنفعة فيضرُك، أمَّا العدو العاقل فإنَّه وإن ضرك فإنَّه يبقي بَيْنَك وبَيْنَه مجال للالتقاء؛ لأنَّه عاقل، يعلم أنَّ العداوة لا تستمر دائمًا، كما جاء في المثل المشهور: (أبغض بغيضك هونًا ما عسىٰ أن يكون حبيبك يومًا ما)، وهذا المثل يروىٰ عن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، (وأحبب حبيبك هونًا ما عسىٰ أن يكون بغيضك يومًا ما)[1]، فالعاقل يترك مجالاً للالتقاء، لكنَّ الصديق الجاهل لا يعرف، فقد

---

(١) هذا الأثر رواه مرفوعًا الطَّبَراني في المعجم الأوسط، برقم: (٣٣٩٥)، (٣/ ٣٥٧)، والضياء المقدسي في الأَحَادِيْث المختارة، برقم: (٤٣٦)، (٢/ ٥٦)، والقضاعي في مسَنَد الشِّهَاب، برقم: (٧٣٩)، (١/ ٤٣٠)، وأخرجه موقوفًا علىٰ علي البخاري في الأدب المفرد، باب

يضرُك وهو لا يعلم، فهذا النوع من النَّاس يقع في الشرك وهو يظَن أنَّه توحيد، وهذا للجهل؛ لأنَّه لم يتعلم، وليس لديه من يعلمَه أن هذا شرك، فيظَن أن هذا تعظيم لله، وهذا في الحَقّيقة تنقيص لله ﷻ؛ لأنك تشرك مَعَ الله غيره بدعوىٰ أن يقربك إلىٰ الله، فهذا تنقيص وليس تعظيماً.



= أحبب حبيبك هوناً ما، برقم: (١٣٢١)، (١/ ٤٤٧)، وابن أبي شيبة في المصنف، كتاب الأوائل، باب أول ما فعل ومن فعله، برقم: (٣٧٠٢٦)، (١٩/ ٥٥٤)، والترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، باب الاقتصاد في الحب والبغض، برقم: (١٩٩٧)، وضعفه مرفوعاً، وقال: "والصَحِيح عن علي موقوف"، وضعف المرفوع أيضاً الهيثمّي في مجمَعَ الزوائد (٨/ ٢)، ولكن صححه الطبري في تهذيب الآثار (٤/ ٤٩٠)، وكذا الشَّيْخ الألباني في تعليقه علىٰ الأدب المفرد.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فإن اتخاذ الشَفَعاء والأنداد من دون الله هضم لحَقّ الربوبية، وتَنَقُص للعظمة الإلهية وسوء ظَن برب العالمين، كما قال تَعَالَىٰ: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦] الآية.

فإِنَّهم ظَنوا به ظَن السوء حتىٰ أشركوا به، ولو أحسنوا به الظَن لوَحَّدوه حَقّ توحيده، ولهذا أخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن المُشركين أَنَّهم ما قدروه حَقّ قدره.



الشَّرْح

هنا يقول عَزَّ وَجَلَّ في سبب تعذيب المنافقين والمُشركين أَنَّهم ظَنوا بالله ظَن السوء، أي: أمَّا أنَّهم اعتقدوا أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لا ينفعهم أو لا يعطيهم أو لا يرحمهم، كل هذا من ظَن السوء، فإذا وقع في القلب الظَن السيء دفع صاحبه للعمل السيء؛ لأنَّ الأعمال إنَّمَا يحركُها ما في القلوب، فإذا كان في قلب شخص نية علىٰ العمل تحرك للعمل، وإذا لم يكن لديه عَزْم في القلب لا يتحرك للعمل، والعَزم سببه ما يقع في الذهن من تصورات صَحيحة أو خاطئة، فإذا تصور أن الله لا يرحمه إلا إذا كان هناك مؤثر خارجي، كما قال البوصيري وهو يخاطب نَبيّنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به   سواك عند حدوث الحادث العمم

ثمَّ قال:

ولن يضيق رسول الله جاهك بي   إذا الكريم تجلىٰ باسم منتقم

أي: أن الله يوم القيَامة يظهر في صورة الانتقام، وأنا أخاف علىٰ نفسي من

الله، ولن ينفعني إلا أنت يا رَسُول الله، أي: فَقَد الأمل في الله، وهذا ظَن السوء بالخالق، جاء في الحَديث: (**إن الله جعل الرحمة مائة جزء، فأنزل رحمة واحدة يتراحم بها الخلق إلىٰ يوم القيَامة وأبقىٰ عنده تسعة وتسعين رحمة ويوم القيَامة يضم الله تلك الرحمة إلىٰ التسعة والتسعين فيرحم الله بها الخلائق**)، فربنا يوم القيَامة تتجلىٰ رحمته علىٰ أوسع نطاق، وفي الدُّنيَا رحمة واحدة أنزلها الله بَيْنَ الخلائق، في الحَديث (**حتىٰ إن الدابة لترفع حافرها عن وليدها رحمة به**)[١] فرحمة الأمهات بأولادهم، والرحمة بَيْنَ النَّاس، طرف جزء يسير من الرحمة التي أنزلها الله ليتراحم النَّاس بها، ويوم القيَامة يضمها الله إلىٰ التسعة والتسعين فيرحم الله بها الخلائق، حتىٰ إنَّ إبليس ليطمَعَ في رحمة الله، فكَيْفَ يقول: يوم القيَامة إن الله يتَجلىٰ باسم مُنتقم.

وقد جاء في حديث الشَّفَاعَة أن النَّاس عندما يضيق بهم الأمر ويبحثون عمن يَشَفَع، ليَشَفَع لهم فيقول آدم ويقول كل الأَنبياء بعده: (**إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله**)[٢]، لكن هذا الغضب إنَّمَا هو علىٰ أعداء الله، علىٰ المُشركين علىٰ الظانين بالله ظَن السوء، أمَّا الصَّالحُون والمؤمنون فإن الله يرحمهم، وأنَّه تجلىٰ من رحمة الله يوم القيَامة ما لم يخطر بقلب بشر، قد مر قصة الشَّخْص الذي يكون في النَّار وهو آخر من يخرج منها، وأنَّ الله يقول: (**تمن في الجنَّة، فيتمنىٰ حتىٰ تنقطع أمنيته، ثمَّ يعطيه الله ما تمنىٰ ومثله عشر مرات**)[٣]، وقد مر قول الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن أحد مشايخه

---

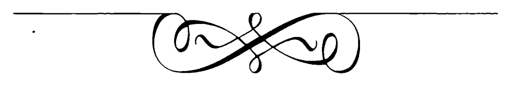
(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الشَّيْخان، صَحِيح البُخَارِي، كتاب أحاديث الأَنبِياء، باب قول الله: (ولقد أرسلنا نوحًا إلا قومه)، برقم: (٣٣٤٠)، صَحِيح مسلم، كتاب الإيمان، باب أدنىٰ أهل الجِنَّة منزلة فيها، برقم: (١٩٤)، (١/ ١٨٤).

(٣) أخرجه الشَّيْخان، صَحِيح البُخَارِي، كتاب الأذان، باب فضل السُجُود، برقم: (٨٠٦)،

من الصوفية قال له وهو صغير: إذا نزل بك أمر فلا تسأل الله؛ لأن الله لا يهمه أمرك، لكن اسأل الشَّيْخ أو الولي، فإنَّه تقضىٰ حاجتك، يقول: فاستبشع قلبي هذا الكلام، وبقي في قلبي حتىٰ كبرت وعرفت خرافاتهم، فكَيْفَ تلجأ إلىٰ المخلوق وتترك الخالق.

نعم نَبيّنا ﷺ يوم القيَامة يَشْفَع، لَكنَّه يَشْفَع بعد إذنه من الله، ويَشْفَع للمُوَحَّدين، كما قال أبو هريرة رضي الله عنه: (من أسعد النَّاس بشفاعتك يا رَسُول الله يوم القيَامة؟ قال: من قال لا إله إلا الله مخلصًا من قلبه)[1]، فكل مُوَحَّد يوم القيَامة يناله حَقّ الشَّفَاعَة، والدّعَاء الذي يقوله بعض النَّاس الجهلة: واسقني من يدك شربة لا أظمأ بعدها أبداً ليس بصَحيح؛ لأنَّه جعل الرَسُول ﷺ خادمًا يمر علىٰ أمته يسقيهم بيده، والحَقّ أن النَّاس يوم القيَامة يشربون بأيديهم من الكوثر، لا أنَّه ﷺ يسقي النَّاس، فلا ينقلب إلىٰ خادم في الآخرة، بل هو قائم علىٰ حوضه، والنَّاس يردون يشربون، فالشَّفَاعَة يوم القيَامة مثبتة، ولها مواصفَات وشروط وحيثيات، لكن الشَّفَاعَة في الدُّنيَا منتفية، والشَّفَاعَة الشركية أشد؛ لأنَّك تصرف حَقّ الله للمخلوق ليقربَك إلىٰ الله وهذا يبعدك من الله سبحانه وتعالى.



= صَحِيح مسلم، كتاب الإيمان، باب آخر أهل النَّار خروجًا، برقم: (١٨٦)، (١/ ١٧٣).

(١) أخرجه البخاري في صَحِيحه، كتاب العِلْم، باب الحرص علىٰ الحَدِيث، برقم: (٩٩).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وكَيْفَ يقدره حَقّ قدره من اتخذ من دونه نداً أو شفيعاً يحبه ويخافه ويرجوه ويذل له ويخضع له، ويهرب من سخطه ويؤثر مرضاته ويدعوه ويذبح له وينذر، وهذه هي التسوية التي أثبتها المُشركون بَيْنَ الله وبَيْنَ آلهتهم وعرفوا وهم في النَّار أَنَّها كانت باطلاً وضلالاً، فيقولون وهم في النَّار: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الشعراء:٩٧، ٩٨].

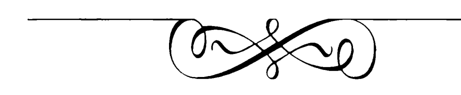
ومعلوم أَنَّهم ما ساووهم به في الذات والصفَات والأفْعَال، ولا قالوا: إن آلهتكم خلقت السموات والأرض، وأنَّها تحيي وتميت، وإنَّمَا ساووهم به في المحبة والتعظيم والعبَادة، كما ترىٰ عليه أهل الإشراك ممن ينتسب إلىٰ الإسلام.

الشَّرح

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: إن الذين أشركوا بالله إذا دخلوا النَّار وعرفوا أَنَّهم علىٰ ضلال ينطقون ويتكلمون، وممَّا يقولون: ﴿ تَٱللَّهِ ﴾ وهذا قسم ﴿إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ ﴾ يعترفون أَنَّهم كانوا ضالين، وكان الضلال ضلالاً بَيْنَ اً، لكن استبان لهم في الآخرة، ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ أي: نجعلُكم مثل الله، ما ساووهم مَعَ الله، وما قالوا: ذاتهم مثلُ ذات الله؟ أو أسماؤهم وصفَاتهم كصفَات الله؟ أو أفعَالهم كأفعَال الله؟ إنَّمَا ساووهم في حَقّ الله الذي صرفوه لهم من المحبة والتعظيم والدّعَاء والنذر والذَّبح والخشية والخَوف، كما قال تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥]، فهم ساووا الأنداد بالله في المحبة والتعظيم، وإلا فلا يعتقد

مشرك أن الصنَم يخلق مَعَ الله، ولهذا المُشركون ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان:٢٥].

يعلمون بأنَّ الخلق من خصائص الله، ولا يعتقدون أن الأصنام تخلق مَعَ الله، إنَّمَا ساووهم بهم في المحبَّة والتعظيم، فكل من صرف حَقّ الله من تعظيم أو محبةٍ أو تذلُّل أو خضوع أو دعاء أو نذْر أو خوف للمخلوق فقد ساوىٰ المخلوقَ بالخالق، وهذا شرك لا يغفره الله ﷻ، أمَّا المعاصي فإنَّها في رحمة الله، قد يُعذِّب وقد يغفر.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وإنَّمَا كان ذلك هضمًا لحَقّ الربوبية وتَنَقُّصًا لعظمة الإلهية، وسوء ظَن برب العالمين؛ لأنالمتخذ للشفَعاء والأنداد أمَّا أن يظَن أن الله سُبحانَه يحتاج إلىٰ من يدبر أمر العالم معه من وزير أو ظهير أو معين، وهذا أعظم التَنَقُّص لمن هو غني عن كل ما سواه بذاته، وكل ما سواه فقير إليه بذاته، وأمَّا أن يظَن أن الله سُبحانَه إنَّمَا تتم قدرته بقدرة الشفيع، وأمَّا أن يظَن أنَّه لا يعلم حتىٰ يعلمه الشفيع، أو لا يرحم حتىٰ يجعله الشفيع يرحم، أو لا يكفي وَحْده، أو لا يفعل ما يريد العبد حتىٰ يَشَفَع عنده كما يَشَفَع عند المخلوق، أو لا يجيب دعاء عباده حتىٰ يسألوا الشفيع أن يرفع حاجتهم إليه، كما هو حال ملوك الدُّنيَا، وهذا أصل شرك الخلق.



الشَّرْح

ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا تسعة احتمالات، تقع في ذهن من يشرك مَعَ الله.

الاحتمال الأول: أنَّ الله يحتاج إلىٰ من يُدبّر الأمر معه، فالذي يعتقد أن الله محتاج إلىٰ من يعينه ويدبر أمرَّ النَّاس معه أشرك مَعَ الله، فالشرك أساسُه الاعتقاد القلبي.

الاحتمال الثاني: أن قدرة الله ناقصة حتىٰ يُكملها الشفيع، أي: أنَّ الله لا يقدر أن يفعله حتىٰ يعينه الشفيع الذي يَشَفَع.

والثالث: أنَّه لا يعلَم حتىٰ يعلمَه الشَّفيع؛ لأنَّ ملوك الدُّنيَا لا يعلمون ماذا يحدث خلف أبوابهم إلا إذا أخبروا، فإذا جاء إنسان محتاج وطرق باب الملك أو باب صاحب الجاه ليعطيه، قد يطرده ولا يعطيه، أمَّا لأنَّه لا يعلم أنَّه محتاج، أو لأنَّه لا يريد أن يُوزع كل ما عنده فيبقىٰ صفرَ اليدين، أو أشياء في ذهنه، فيأتي

هذا الشَّخْص المحتاج بمن يخبر المَلكَ أو الوزيرَ أو الأميرَ أو الوالي بأن هذا إنسان محتاج ويحتاج إلىٰ مساعدة وإلىٰ رحمة، فيستدر رحمته فيعلمه بحاجته؛ لأنَّه لا يعلمها فيعطيه، فقاسوا الله علىٰ ما يقع في حياة المخلوق.

الرابع: أنَّه لا يَرحم حتىٰ يؤثرَ فيه الشفيعُ، فكم من صاحب سلطان أو صاحب مال لا يرحم النَّاس، ولا يرحم صاحبَ الحاجة، فإذا جاء شخص وشرح له حاله وما يعيشه من الفقر والحاجة ربما يرحم، فظَنوا أن الخالق مثل المخلوق، يحتاج إلىٰ من يؤثر ليرحمَ، والله رحيم لا يحتاج إلىٰ من يثير رحمة الله سبحانه وتعالى.

الخامس: أنَّه لا يكفي وَحدَه، وسيأتي اختصارها إلىٰ ستة أمور.

السادس: لا يُريد حتىٰ يُشفَعَ إليه، أي: عنده رحمة وعنده علم، ولكن لا يريد أن يعفوَ، فلابد من مُؤثر يؤثرُ عليه حتىٰ يعطي.

السابع: لا تُرفع الحاجات إليه إلا إذا رفعها الشَّافع، فلا تصل حاجات النَّاس إليه، أي: مَحجوزة، حتىٰ يأتي الشافع فيرفعها، وكان بعض الملوك في الماضي يخصصون أشخاصًا يرفعون حاجات النَّاس، فعندما يرىٰ أن هناك أشخاصًا يأخذون أوراقًا من النَّاس وطلباتهم، ويرفعونها إلىٰ المَلك فيظَنون أنَّ الله كذلك، وشَتَّان بَيْنَ الخالق والمخلوق، الله يرىٰ الإنسَان وحاجتَه، ومرَّ قولُ الزمخشري في أبيات قالها في التوبة:

يا من يرىٰ مد البعوض جناحه ... في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرىٰ عروق نياطها في نحرها ... والمخ في تلك العظام النَّحْل
اغفر لعبد تاب من فرطاته ... ما كان منه في الزمان الأول

الله لا تخفىٰ عليه خافية، ما يتحرك ذرة في الأرض ولا في السَّمَاء إلا ويراها ويطلع عليها ويعلمها، فشَتَّان بَيْنَ الخالق والمخلوق.

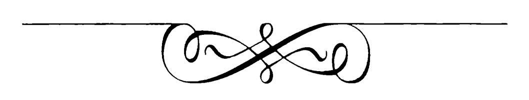
الثامن: أنَّه لا يسَمَعَ حتىٰ يرفع الشفيعُ إليه، لا يسَمَعَ دعاء النَّاس، فالله يسمع، ففي لحظة واحدة كل إنسان يُناجي الله، والله يسمَعُ الجميع، والإنسَان الواحد ما يستطيع أن يسمَعَ أكثر من شخص أثناء الكلام، ولا يظَن أنَّ الله مثله، كل واحد منا يناجي الله في مساجد المسلمين وفي الأرض جميعاً، والله يسمَعَ الجميع، وهناك مثال كما قلنا: الطبق الفضائي الذي يستقبل المكالمات العالمية، طبق واحد له سلك واحد، يستقبل في اللحظة الواحدة ملايين المكالمات، ويبثها إلىٰ القمر الصناعي في الفضاء، ويستقبل في اللحظة الواحدة ملايين المكالمات، ولا تختلط مكالمة بمكالمة، وهو من صنع الإنسَان، فما بالك بخالق الإنسَان -ﷻ-، ولهذا يوم القيَامة يُحَاسب النَّاس كلهم في وقت واحد، والله سريعُ الحسَاب، فكما أنّ الله يسَمَعهم في وقت واحد، ويستجيب لهم في وقت واحد، ويرعاهم في وقت واحد، ويرزقهم في وقت واحد، فالله يوم القيَامة يُحَاسبهم في وقت واحدٍ، فالله يسَمع، ولا يُقاس الخالق بالمخلوق.

التاسع: أن يَظُن أنَّ للشافع علىٰ الله حَقّاً، ليس لأحد علىٰ الله حَقّ، الله هو صاحب الحَقّ.

مُحَمَّد عبده المتوفىٰ (١٣٢٣) هـ، أحد العُلَماء في مصر سئل سؤالاً عن هذه المسألة، وكان السائل يظَن أنَّه سيجيب بغير هذا الجواب بأن يجيز أن تسأل بجاه غير الله، فأجاب بالجواب الصَحيح: أنَّه ليس لأحد من الخلق علىٰ الله حَقّ، والمَكَانَة التي لكل واحد من الصَّالحين عند الله ما جعلها الله سبباً ليتقرب بها الآخرون، هي سبب له لا لغيره، فأنت تقرب إلىٰ الله بالسبب الذي جعله الله لك، لكن الألوسي قبله، فمُحَمَّد عبده توفي (١٣٢٣ هـ)، والألوسي (١٢٧٠هـ)، وهو ممن يتبع السلف في كثير من أقوالهم، قال الألوسي إن مُحَمَّد عبده: إنَّمَا أفتىٰ ليراعي خاطر العامة، وهذا لا ينبغي للعالم أن يجامل عامة

النَّاس فيقرهم علىٰ شركهم، أو علىٰ بدعهم، أو علىٰ معاصيهم، وهذه خيانة، العالم إذا استفتي من العامة يفتيهم وخاصة في الحلال والحرام؛ لأنَّ العامة لا يعرفون الحَقّ إلا عن طريق علمائهم.

فليس للمخلوق علىٰ الله حَقّ، للمخلوقات عند الله مَكَانَة، الله الذي جعلها والذي تفضل بها، لكن له هو ليس لغيره، ولهذا لم نر الصَّحابَة رضي الله عنهم سألوا الله بحَقّ نَبيهم، أمَّا أن يكون الصَّحابَة لا يعلمون أن لنَبيهم علىٰ الله حَقّاً، أو أنَّ الصَّحابَة علموا أن لنَبيهم علىٰ الله حَقّاً ولَكنَّهم تكبروا ما سألوا الله بحَقّ نَبيهم، وهذا لا يُقال في حَقّ الصَّحابَة، ما ثبت أن أحداً من الصَّحابَة سأل الله بحَقّ نَبيه عليه الصلاة والسلام في أمر من الأمور، فهذا أمر محدث، وأمر مبتدع أن تسأل الله بحَقّ الصَّالحين أو بحَقّ الأنبياء، اسأل الله برحمته، فهو أرحم الراحمين، كما جاء في الحَديث أن امرأة كانت تجري في بعض الغزوات تبحث عن وليدها، فلقيت ابنها فوضعته علىٰ صدرها فقال عليه الصلاة والسلام: (أتظَنون أن هذه تضع ابنها في النَّار وهي تستطيع أن لا تضعه في النَّار؟ قالوا: لا. قال: لله أرحم بخلقه من هذه بوليدها)[1] ربنا رحيم، فكَيْفَ تترك الرحيم الرحمن، وتذهب إلىٰ الإنسَان الفقير المحتاج وتسأله بحَقّ خلقه، فالله يسأل مباشرة بدون واسطة.



(١) أخرجه الشَّيْخان في صَحِيحيهما، صَحِيح البُخَارِي، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، برقم: (٥٩٩٩)، صَحِيح مسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تَعَالَىٰ وأنَّها سبقت غضبه، برقم: (٢٧٥٤)، (٤/ ٢١٠٩).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

أو يظَن أنَّه لا يسَمَعَ حتىٰ يرفع الشفيع إليه ذلك، أو يظَن أن للشفيع عليه حَقّاً، فهو يقسم عليه بحَقّه ويتوسل إليه بذلك الشفيع، كما يتوسل النَّاس إلىٰ الأكابر والملوك بمن يعَزَّ عليهم، ولا تمكنهم مخالفته، وكل هذا تَنَقُص للربوبية وهضم لحَقّها، ذكر معناه ابن القيم، فلهذه الأمور وغيرها أخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن ذلك شرك ونزه نفسه عنه، فقال: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس:١٨].

فإن قلت: إنَّمَا حكم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالشرك علىٰ من عبد الشَفعاء، أمَّا من دعاهم للشَفَاعَة فقط فهو لم يعبدهم فلا يكون ذلك شركًا.

الشَّرح

قوله تَعَالَىٰ: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ [يونس:١٨]، كَيْفَ يضرُهم وهم يعبدونه، قال العُلَماء: أي: لا يضرهم لو لم يفعلوا، ولا ينفعهم إن فعلوا؛ لأنَّ هناك حذفًا، أي: لو لم يعبدوا أو يستشَفَعوا بهذه الأصنام أو الأنداد لا تضرهم، لا تملك، وإن فعلوا لا تنفعُهم، فالفعل والترك سواء بالنسبة لما يترتب عليه من الأنداد والأصنام، ففعلهم لا يترتب عليه مصلحة أو فائدة عاجلة، إنَّمَا يترتب عليه ضرر عليهم عند الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -.

هنا سؤال، يقولون: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حكم بالشرك علىٰ من عبدهم، أي: هذه طائفة ثانية، الشَّخْص الذي يعبدهم مشرك، لكن الذي يدعوهم للشَفَاعَة هل يشرك؟ ونحن قلنا: إن الدّعَاء عبادَة، لكن أحيانًا لا يكون هناك فهم لمسائل الاعتقاد.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قيل: مجرد اتخاذ الشَفَعاء ملزوم للشرك، والشرك لازم له، كما أن الشرك ملزوم لتَنَقُص الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والتَنَقُص لازم له ضرورة، شاء المُشرك أم أبىٰ، وعلىٰ هذا فالسؤال باطل من أصله لا وجود له في الخارج، وإنَّمَا هو شيء قدره المُشركون في أذهانِّهم، فإن الدّعَاء عبَادَة بل هو مخ العبَادة، فإذا دعاهم للشَفَاعَة فقد عبدهم وأشرك في عبَادَة الله شاء أم أبىٰ.

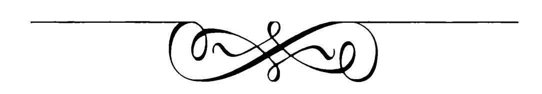

الشَّرْح

دعاؤهم شرك، فكَيْفَ يدعونهم ليَشفَعوا، أصلاً دعاءُ غير الله شرك، مثلاً لو قلت: يا مُحَمَّد أو يانَبي الله أو يا رَسُول الله اشفَع لي إلىٰ الله، لا يسمَعنىٰ رَسُول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكوني أدعوه وأعتقد أنَّه يسَمَعَ دعائي وصوتي وتوسلي هو شرك في أصله، ثمَّ سؤال الشَّفَاعَة في الدُّنيَا ليس مشروعًا، ولا مأذونًا به، لا تكون الشَّفَاعَة إلا في الآخرة عندما تنتهي الدُّنيَا وينتهي العمل يريد الله عَزَّ وَجَلَّ يوم القيَامة أن يبَيْنَ مَكَانَة أوليائه وأنَبيائه ورسله، فيظهر أن نَبيّنا صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أعلىٰ الدَرَجَات، ولهذا قال: (إذا سَمعتم المؤذن فقولوا مثلما يقول، وسلوا الله لي الوسيلة) ما هي الوسيلة؟ قال: (درجة في الجنَّة لعبد من عباد الله أرجو أن أكون أنا هو)[1] في أعلىٰ الجنَّة درجة واحدة لا يصلها إلا شخص من البَشَر، هو نَبيّنا صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأُمرنا أن ندعو له، فنَبيّنا عبد فقير محتاج، ليس إلهًا خالقًا غنياً، لَكنَّه

(١) سبق تخريجه.



يقول بعض العُلَماء: كَيْفَ نـأمر أن نـدعو لـه وهـو خيـر البَشَـر وأشـرف البَشَـر؟ قال: ليحصل لنـا الأجر؛ لأنَّـه مـن سـأل الله لـه الوسيلة حلـت لـه شـفاعتُه يـوم القيَامة، فيدخل في أصحاب الشَّفَاعَة، فنَبِيّنا ﷺ في أعلىٰ الـدَرَجَات ولـه أعلىٰ المقامَـات، فيـوم القيَامـة يقـوم المقـامُ المحمـود الـذي هـو الشَّـفَاعَة لأهـل الموقف.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

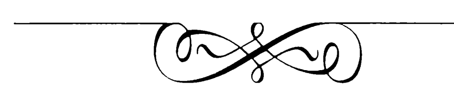
قال: وقول الله ﷻ: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ [الأنعام:٥١].

ش: الإنذار: هو الاعلام بموضع المخافة، وقوله (به): قال ابن عباس: بالقُرْآن، وقوله: (الذينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبّهِمْ) أي أنذر يا مُحَمَّد بالقُرْآن الذين هم من خشية ربهم مشفقون، الذين يخشون ربهم ويخافون سوء الحسَاب، وهم المؤمنون. كما روي ذلك عن ابن عباس والسدي.



الشَّرْح

نعم هذا بيان لمعنىٰ الآية ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ﴾ أي: يا مُحَمَّد خوف النَّاس بالقُرْآن، لكن الذين تخاطبهم والذين يستفيدون هم الذين يخافون أن يُحشروا إلىٰ ربهم، فالذي يُؤْمن بالقيَامة ويُؤْمن بالآخرة وبلقاء الله هو الذي يستفيد، أمَّا الذي لا يُؤْمن فلا يستفيد من سماع القُرْآن إلا إذا آمن وصدق وأقرَّ بعد ذلك، لكن الذي يسَمَعَ القُرْآن وقلبه مُنْكَر وقلبه جاحد وهو مُستكبر لا ينتفع بهذا القُرْآن ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥﴾ [ق:٤٥]، الذي لا يخاف وعيد الله لا يستفيد من هذا الكلام؛ لأنقلبه مغلق مقفل، كالإناء المقفل لا يدخله ماء، لكن الإناء الذي له فتحة يمكن أن يصل الماء إليه، كذلك القلب المغلق يحتاج أولاً إلىٰ فتح، فإذا فتح القلب دخل فيه الخير، فالذي لا يخاف الله ولا وعيده ولا يُؤْمن بالآخرة لا يستفيد من هذا القُرْآن.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:

وعن الفضيل بن عياض: ليس كل خلقه عاتب إنَّمَا عاتب الذين يعقلون فقال: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام:٥١] أي وهم المؤمنون أصحاب القلوب الواعية، فإنَّهم المقصودون والمنظور إليهم لا أصحاب التجمل والسيادة، فإن الله لا ينظر إلىٰ صوركم وأموالكم، ولكن ينظر الىٰ قلوبكم وأعمالكم.

وقوله: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ قال الزجاج: موضع ليس نصب علىٰ الحال كأنَّه قال: متخلين من ولي وشفيع، والعامل فيه: يخافون.

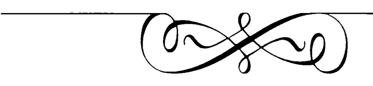


الشَّرح

يقول الفضيل رَحِمَهُ اللهُ وهو من سادات العبَاد: أنَّه لا يستفيد بهذا الكلام إلا الأوْليَاء الصَّالحُون لا أصحاب التجمل والسيادة. أي: لا أصحاب الرياسة والمَكَانَة، فكم من إنسان له في الدُّنيَا مكان عال، لَكنَّه يوم القيَامة يُحشر أمثال الذَّر، يكون في قلبه من الشر والكبر والإحتقار لدين الله ما يجعله يوم القيَامة يحشر أمثال الذر الصغير؛ لأنَّه قد جاء في الحَديث: **(أن المتكبرين يوم القيَامة يحشرون مثل الذر في صورة الذر تعلوهم المهانة من كل مكان)**[1]، فيستفيد من هذا التذكير المؤمنون الصَّالحُون الذين في قلوبهم خير، أمَّا القلب المُنْكَر الجاحد، القلب المغلق فإنَّه لا يستفيد بهذا القُرْآن.

(١) سبق تخريجه.

يقول الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إعرابها: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام:٥١]، هل هذه الجملة جملة استئنافية أو جملة حالية؟ فقال: أَنَّها حالية، والمعنىٰ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلىٰ ربهم ويعتقدون أَنَّه ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع، يعتقدون أَنَّه ليس هناك من يَلي أمرهم وينصرُهم ويَشفَع لهم من دون الله -عَزَّ وَجَلَّ -، هذا مراد الزَّجَّاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال ابن كثير: ليس لهم من دونه يومئذ ولي ولا شفيع من عذابه إن أرادهم به لعلهم يتقون فيعملون في هذه الدار عملاً ينجيهم الله به من عذاب يوم القيَامة.

قلت: فنفى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن المؤمنين أن يكون لهم ولي أو شفيع من دون الله كما هو دين المُشركين، فمن اتخذ من دون الله شفيعـًا فليس من المؤمنين ولا تحصل له الشَّفَاعَة، وليس في الآية دليل على نفي الشَّفَاعَة لأهل الكبائر بإذن الله كما ادعته المُعْتَزلَة، بل فيها دليل على نفي اتخاذ الشفَعاء من المؤمنين وعلى نفيها بغير إذن الله، ولهذا أثبت الشَّفَاعَة بإذنه في مواضع كما قال تَعَالَىٰ: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس:٣].

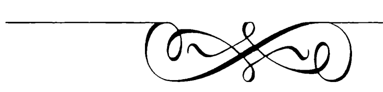
الشَّرْح

يشير رَحِمَهُ اللَّهُ هنا إلى أن بعضَ الطوائف الإسلامية أخطأت في فهمها لنصوص من القُرْآن والسُّنة، فإن بعض الطوائف تأتي إلى آيات فتفهَم منها معنىٰ، وتُأوّل الآيَات التي تخص هذا المعنىٰ، فهنا المُعْتَزلَة والخَوَارج يعتقدون أن الذي يموت مرتكبا للكبيرة أنَّه يوم القيَامة لا يَشفَع فيه، بل يدخل النَّار مَعَ الكفار ولا يخرج من النَّار، ويقولون الدليل قوله تَعَالَىٰ: ﴿لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ﴾ [الأنعام:٥١].

لكن ترتيب الآية يرد عليهم ﴿لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ﴾ أي ليس لهم من غير الله أو بغير إذنه شفيع؛ لأنالآية الأخرىٰ جاء فيها إثبات الشَّفَاعَة، كما قال تَعَالَىٰ: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ﴾ [يونس:٣]، وقال تَعَالَىٰ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ﴾ [الزمر:٤٤]، فهي لله، فإذا أذن الله للشافع أن يَشفَع شَفَع، وقد جاءت

الأَحاديْث الكثيرة تدل علىٰ الشَّفَاعَة، لكن المُعْتَزلَة أولوا الأَحاديْث أو ردوها، وكذلك الخَوَارج، أمَّا العقيدة الصَحيحة التي يدل عليها كلام الله -ﷻ- وكلام رَسُوله ﷺ: أن من مات مرتكبـًا للكبيرة يَشَفَع فيه إن دخل النَّار؛ لأنَّه قال تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨].

فما دون الشرك هو مغفور بإذن من الله، فقد يعفو الله عن الإنسَان قبل دخوله النَّار، وقد يدخل النَّار فيَشَفَع فيه الأنبياء، وقد جاءت الأَحاديْث الكثيرة في إثبات خروج المُوَحَّدين من النَّار، المُوَحَّد الذي يموت علىٰ التَّوحيد ليس مشركـًا بالله، لَكنَّه صاحبُ كبيرةٍ مات عليها ولم يَتب، هذا يوم القيَامة يَشفَع فيه الشافعون، وهذا رد علىٰ المُعْتَزلَة الذين أنكروا الشَّفَاعَة.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: وقوله ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٤].

ش: هكذا أوردها المُصنّف، ونتكلم عليها وعلى الآية التي قبلها ليتضح المعنى، قال الله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزمر:٤٣، ٤٤]. فقوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ﴾ أي بل اتخذوا أي المُشركون، والهمزة للإنكار من دون الله شَفعاء، أي أتشفَع لهم عند الله بزعمهم، كما قال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس:١٨] الآية.

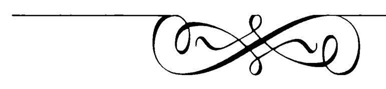
قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي من دون إذنه وأمره. والحال أنَّه لا يَشفَع عنده أحد إلا بإذنه، وأن يكون المشفوع له مرتضى، وههنا الشرطان مفقودان، فإن الله سُبحانَه لم يجعل اتخاذ الشَفَعاء ودعاءهم من دونه سببًا لإذنه ورضاه، بل ذلك سبب لمنعه وغضبه.

الشَّرح

هذه الآيَات كلها سبقت، وهي تبَيْنَ حال المُشركين في الجَاهليَّة، أنَّهم عبدوا من دون الله أصناما، أو ملائكة أو صالحين، وزعموا أنَّهم شُفَعاء لهم عند الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -؛ فالله يردُّ عليهم، ويوبخم على هذا الفعل، ويبَيْنَ أن الشَّفَاعَة ملك لله، والله لم يأذن بهذا لأحدٍ في الدُّنيا، نعم أذن في الدّعاء، ولهذا إذا مات المسلم فإننا ندعو، نصلي عليه صلاة الجنَّازة، ندعو الله له بالمغفرة، هذا دعاء قد يسمى شَفَاعَة، لَكنَّه دعاء؛ لأنَّ الشَّفَاعَة هي ما أذن الله فيه ووعد بتحَقّيقه،

وهنا قد ندعو لهذا الشَّخْص ولا يقبل الله، أمَّا في الآخرة فإنَّه تَعَالَىٰ يجيب الشافعين، فلنَبيّنا شَفَاعَات، وللأنَبياء شَفَاعَات، وللملائكة شَفَاعَات، وللصالحين شَفَاعَات، ولكل إنسان شَفَاعَة بحسبه، فالأنَبياء لهم شَفَاعَات عظمىٰ، لكن أعظمها هي شَفَاعَة نَبيّنا ﷺ.

قوله: (﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي من دون إذنه وأمره) عندما تقول للإنسان هل تفعل هذا من دوني؟ أي بدون أذني، أي أن الله لم يأذن به، فكَيْفَ تفعلون أمراً لم يشرعه الله ولم يأذن به.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الزمر:٤٣]. أي أيَشفَعون ولو كانوا علىٰ هذه الصّفَة كما تشاهدونهم جمادات لا تقدر ولا تعلم، أو أموات كذلك حتىٰ ولا يملكون الشَّفَاعَة، كما قال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٤] أي: هو مالكها كلها، فليس لمن تدعونهم منها شيء، قال البيضاوي: لعله رد لما عسىٰ يجيبون به، وهو أن الشَفَعاء أشخاص مقربون هي تماثيلهم، والمعنىٰ: أنَّه مالك الشَّفَاعَة كلها، لا يستطيع أحد شَفَاعَة إلا بإذنه، ولا يستقل بها.

وقوله: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تقرير لبطلأناتخاذ الشَفَعاء من دونه، بأنَّه مالك الملك كله، لا يملك أحد أن يتكلم في أمره دون إذنه ورضاه، فاندرج في ذلك ملك الشَّفَاعَة، فإذا كان هو مالكها بطل اتخاذ الشَفَعاء من دونه كائنًا من كان، وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي فتعلمون أنَّهم لا يَشفَعون، ويخيب سعيكم في عبادتهم، بل يكونون عليكم ضداً ويتبرؤون من عبادتكم كما قال تَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم:٨٢].

الشَّـرح

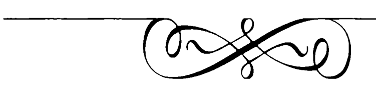
هذه الجملة شرح لقوله تَعَالَىٰ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾، فهذه الآية تتحدث عن واقع قريش، وأنَّهم عبدوا مَعَ الله غيره، وسموا تلك العبَادة أنَّهم إنَّمَا يستشَفعون بهم إلىٰ الله، والله -عَزَّ وَجَلَّ- يقول: أرأيتم هؤلاء الشَفَعاء، لو كانوا لا يملكون شيئًا؛ لأنَّ الكون كله ملك لله، والإنسَان قد يملك لَكنَّه ملك غير كامل، وملك مُؤقت، وملك يشوبه النقص، فملك الله ومُلكه عَزَّ وَجَلَّ محيط، فهو الذي يُدعىٰ؛ لأنَّ

الذي يُدعىٰ لابد أن يكون مالكـًا، وإلا فكَيْفَ يعطيه من ملك غيره، فلا يُدعىٰ ولا يُستشَفَع إلا بمن يكون مالكـًا.

وهنا الشـارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ يستشـهد بقـول أحـد المفسـرين، وهـو البيضـاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهناك تفاسير أخرىٰ كثيرة علىٰ مذهب أهل السنة كتفسير البغوي، وتفسير ابن كثير وقبلهما تفسير الطبري، لكن أحيانـًا تكون العبـارة التي ينتقيهـا الشَّـارح لا توجدُ إلا في غير هذه الكتب، ثمَّ إن الاستشهاد بمـا يصيبُ فيـه العـالمُ الـذي لا نوافقُه علىٰ كل مـا يقـول لـيس مَحـذُوراً، وقـد مـرّض أنَّ الشـارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ استشـهد بكلام جماعة من العُلَماء الـذين هـم علىٰ غيـر مـذهب أهـل السُّـنة والجماعـة، فاستشـهد بكـلام الزمخشـري، والزمخشـري معتزلـي، وقـد طـوَّع القُـرْآن كلـه بآرائـه الاعتزاليـة، واستشـهد بكـلام ابـن العربـي، وابـن العربـي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أشـعَري، واستشــهد بكــلام البيضــاوي هنــا، والبيضــاوي ماتريــدي أي علــىٰ مــذهب المتأولين، فالاستشهاد بكلام العالم الذي يصيب فيه لـيس فيـه محـذور، وهـذا منهج أهل السَّنة والجماعة، ولهذا قال ابن تَيميَة رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما معنىٰ كلامه أنَّه لـيس كل من نستشهد بقوله نَرضَىٰ كلَّ قوله، قد نستشهد بـه في مـوطن، ونـرد عليـه في موطن آخر، والامة الإسلامية امة واحـدة إلا مـا كـان مـن الـذين خرجـوا علىٰ الإسلام ببدع كفريـة، أمَّـا مـن وقـع في بـدع لا تصـل إلـىٰ الكفـر ولا يكـاد يسـلم عـالم مـن العُلَمـاء منـه فإنَّـه لا يـرد علمـه بـل يسـتفاد، فـإن كثيـراً مـن العُلَمـاء الأقدمين لا يصفو لهم كثير مـن أقـوالهم، بـل هنـاك مخالفـات أمَّـا عقديـة وأمَّـا فقهية وأمَّا في التفسير وأمَّـا في الحَـديث؛ لأنَّ الإنسَـان بشـر، ولا يكمـل مـن كـل الجوانب، وحسب الإنسَان أن تكون محاسنه أكثر كما قال الـذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّـه إذا كانت محاسن الإنسَان أكثر أغمضنا عن مساوئه؛ لأنَّه حتىٰ يوم القيَامـة الله عَزَّ وَجَلَّ يُحَاسب النَّاس كذلك، فمن زادت حسناته علىٰ سيئاته، ولـو كانـت لـه سيئات

كثيرة دخل الجنَّة، ليس في الإسلام أنَّه يدخل الجنَّة من لم يكن له معصية، فيدخل الجنَّة أصحاب المعاصي ولهم معاصٍ كثيرة، ولكن الحسنات أكثر، فهذا ميزان الله ﷻ، وإلا فلو كان الميزان يطبق في حَقّنا أننا لا يقبل منا إلا إذا أصبنا في كل ما نقول فإنك لن تجد أحداً من البَشَر يقبل قوله إلا الأنبياء.

فينبغي للإنسان العاقل أن لا يأخذه الحماس الزائد أو العاطفة الزائدة، ينبغي أن يكون إنساناً واقعياً يعامل النَّاس بحسب استطاعتهم، الإنسان بشر، وقدرته العَقْلية محدودة، واجتهاداته معرضة، كما قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قولي صواب يحتمل الخطأ، وقول غيري خطأ يحتمل الصواب، فهكذا الإنسَان المسلم يكون معتدلاً في منهجه وفي نظرته حتىٰ لا يَزيغ فينتهي به إلىٰ الغُلُو أو إلىٰ الإجحَاف في حَقّوق النَّاس.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يونس:٢٨، ٢٩].

في هذه الآية رد على المُشركين، الذين اتخذوا الشَفَعاء من دون الله من المَلَائكَة والأنبياء والأصنام المصورة على صور الصَّالحين وغيرهم، وظَنوا أنَّهم يَشفَعون عنده بغير إذنه فأنكر ذلك عليهم، وبَيْنَ عظيم ملكوته وكبريائه، وأن أحداً لا يتمالك أن يتكلم يوم القيَامة إلا إذا أذن له في الكلام، كقوله: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [النبأ:٣٨].

وقوله تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ﴾ [هود:١٠٥] قال ابن جرير في هذه الآية: نزلت لما قال الكفار ما نعبد أوثاننا هذه إلا ليقربونا إلى الله زلفي، فقال الله تَعَالَىٰ: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [طه:٦].

وتقرر في هذه الآية أن الله يأذن لمن يشاء في الشَّفَاعَة وهم الأَنبياء والعُلَماء وغيرهم، والإذن راجع إلى الأمر فيما نص عليه، كمُحَمَّد ﷺ إذا قيل له: اشَفَع تشَفَع، وكذلك قاله غير واحد من المفسرين.



الشَّرْح

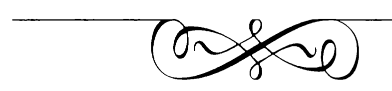
هذا معنى الشَّفَاعَة في الآخرة، لا يستطيع أحد أن يَشفَع إلا إذا أذن له الله جَلَّ وَعَلَا، لا الأَنبياء ولا المَلَائكَة ولا الصَّالحُون ولا غيرهم، فإن الآخرة يَشفَع

فيها الأنبياء، ويَشَفَع فيها المَلَائكَة كما في الصَحيح، ويَشَفَع فيها المؤمنون الصَّالحُون، ويَشفَع الشهداء، لكن الشَّفَاعَة لا تتم إلا بإذنه، فإن الله ﷻ ليس مثل المخلوق، وفي الدُّنيَا إذا أراد أن يَشَفَع إنسان عند مَلك أو وَزير أو صاحب جاه لا يستأذنه في الشَّفَاعَة، بل يذهب إليه ثمَّ يطلب منه مساعدة فلان أو إخراج فلان أو هكذا؛ لأنَّ الشَّافع والمشفُوع إليه كلاهما في حاجة بعضهما البعض، مهما بلغت مرتبة الإنسَان لا يستطيع أن يعيش إلا إذا خدمه غيره ولا يخدمه غيره إلا إذا أرضَاه، فلابد من أن يستجيب للشَّفَاعَة، يَشفَع عنده الُمقَّرب إليه أو من له تأثير عنده أو من يحتاجه، فإن الكبراء بشر مثلنا، إنَّمَا يستطيعون أن يملكوا وأن يتصرفوا إذا أطاعهم من تحتهم. وإنَّمَا يطيعهم من تحتهم إذا خدموهم كما قال:

النَّاس للنَّاس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

الكبير يخدم الصغير والصغير يخدم الكبير، فالشَّفَاعَة عندهم لا تحتاج إلىٰ إذن، لكن عند الله ﷻ من يجرُؤ يوم القيَامة أن يتقدم ليَشَفَع بدون أن يأذن له، هذا سيد البَشَر وأمام الأنبياء وخاتمهم ﷺ يوم القيَامة لا يَشَفَع حتىٰ يستأذن، فيأتي يسجْد يضع جبهته في التراب أمام الله -ﷻ- ويحَمدَه ويثني عليه زمنًا طويلاً وهو في حالة سجود، وحالة السُجُود حالة تذلل وخضوع وتمريغ للوجه في التراب أمام الله ﷻ، وكذلك في سجودنا نضع جبهتنا في الأرض تواضعًا لله وتذللاً له وتقربًا إليه ﷻ، فيفتح الله علىٰ نَبيّنا ﷺ

بمحامد قال (يعلمني ربي بمحامد لم أكن أذكرها من قبل)[١] ثمَّ بعد ذلك يقال له: يا مُحَمَّد ارفع رأسك، يأتي الإذن، وسل تعط، واشَفَع تشَفَع، عندئذ يَشَفَع، فشَتَّان بَيْنَ حال الشَّفَاعَة في الدُّنيَا وحال الشَّفَاعَة في الآخرة، لا يَشَفَع في الآخرة إلا في المُوَحَّدين كما سيأتي أنَّه قال أبو هريرة: يا رَسُول الله من أسعد النَّاس بشفاعتك يوم القيَامة؟ قال (من قال لا إله إلا الله مخلصـًا بها قلبه)[٢]، أمَّا من أشرك فليس له حظ في شَفَاعَة نَبيّنا ﷺ يوم القيَامة.



(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال: وقوله تَعَالَىٰ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ٢٦﴾ [النجم:٢٦].

ش: قال أبو حيان: كم خبرية، ومعناها التكثير، وهي في موضع رفع بالابتداء، والخَبَر لا تغني، والغناء: جلب النَّفْع ودفع الضُّرر بحسب الأمر الذي يكون فيه الغني.

وكم لفظها مفرد ومعناها جمع، وإذا كانت المَلَائكَة المقربون لا تغني شفاعتهم إلا بعد إذن الله ورضاه أن يرضاه أهلاً للشَفَاعَة فكَيْفَ تشَفَع الأصنام لمن عبدها؟

الشَّرْح

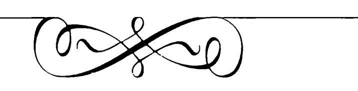
كم في اللغة تأتي علىٰ قسمين: كم خبرية، وكم استفهامية، الفرق بَيْنَ ها أن كم الخَبَرية؛ لإخبارك عن شيء، ليس استفهاماً منك، ولا تحتاج إلىٰ جواب، ويأتي بعدها الاسم مجروراً، أمَّا كم الاستفهامية فتحتاج إلىٰ جواب، ويأتي بعدها الاسم منصوبًا، فهنا ليس كم استفهامية، بل خبرية، تخبر أنَّه كم هناك من ملك من ملائكة الله لا تغني شفاعتهم عند الله شيئًا إلا إذا أذن الله -عَزَّ وَجَلَّ-، وهذا من باب الخَبَر، وهنا استشهد المؤلف بأبي حيان رَحِمَهُ اللَّهُ، وكان أستاذ اللغة في عصره، فهو صاحب كتاب (البحر المحيط) الذي أعرب القُرْآن وفسره بحسب اللغة، فهو من أئمة هذا الشأن.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قلت: في هذه الآيَات من الرد علىٰ من عبد المَلَائكَة والصَّالحين لشَفَاعَة أو غيرها ما لا يخفىٰ؛ لأنَّهم إذا كانوا لا يَشَفَعون إلا بإذن من الله ابتداء فلأي معنىٰ يدعون ويعبدون، وأيضًا فإن الله لا يأذن إلا لمن ارتضىٰ قوله وعمله وهو المُوَحَّد لا المُشرك كما قال: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ [طه:١٠٩] والله لا يرتضي إلا التَّوحيد كما قال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران:٨٥].

الشَّرح

الآية الأُولَىٰ تقول: أنَّه لا يملك أحد من المَلَائكَة الشَّفَاعَة إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضىٰ، يأذن الله لمن يشاء من المشفوع لهم ويرضىٰ عنه، وربنا لا يرضىٰ عن المُشرك، إنَّمَا يرضىٰ عن المُوَحَّد الطائع أو المُوَحَّد العاصي، فإن المُوَحَّد ولو عصىٰ فإن الله راض عنه بإعتبار توحيده، لكن الشرك لا يرضىٰ عنه الله -ﷻ-، وقوله تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ [طه:١٠٩]، بنفس المعنىٰ، الشَّفَاعَة لا تنفع إلا في المُوَحَّدين، ولهذا جاءت الآيَات أحيانًا تنفي الشَّفَاعَة وأحيانًا تثبتها، فنفيها عن المُشرك، فلا يرضىٰ له شَفَاعَة ولا تنفعه شَفَاعَة ولا يقبل منه شَفَاعَة، أمَّا الشَّفَاعَة المثبتة فهي للمسلم العاصي الذي وقع في المعصية ويحتاج إلىٰ أن يَشفَع فيه للتجاوز عنه، والمُعْتَزلَة لم يفرقوا بَيْنَ الأمرين نفوا الشَّفَاعَة مطلقًا، وأولوا ما ورَد في إثباتها، وهذا منهج خاطئ، فإن الشَّفَاعَة المنفية هي عن المُشركين والشَّفَاعَة المثبتة هي في المُوَحَّدين، وبهذا تتسق الآيَات.



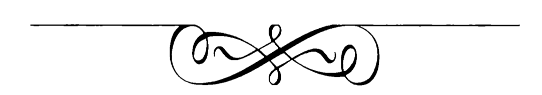
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال النَّبي ﷺ: (أسعد النَّاس بشفاعتي من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه)، فلم يقل: أسعد النَّاس بشفاعتي من دعاني، فإن قال المُشرك: أنا أعلم أَنَّهم لا يَشفَعون إلا بإذنه، لكن أدعوهم ليأذن الله لهم في الشَّفَاعَة لي، قيل: فإن الله لم يجعل الشرك به ودعاء غيره سببًا لإذنه ورضاه، بل ذلك سبب لغضبه، ولهذا نهىٰ عن دعاء غيره في غير آية كقوله ﴿ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [يونس:١٠٦].

فتبَيْنَ أن دعاء الصَّالحين من المَلَائكَة والأَنبياء وغيرهم شرك كما كان المُشركون الأولون يدعونهم ليَشفَعوا لهم عند الله فأنكرالله عليهم ذلك وأخبر أنَّه لا يرضاه ولا يأمر به كما قال تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران:٨٠].

الشَّـرح

هنا يقول: لو ناقشت إنسانًا فقال: أنا لا أدعو الملك أو النَّبي مباشرة إنَّمَا أدعوه ليَشفَع لي، فيقال له: أنت جمعت بَيْنَ أمرين، دعوتَ، والدّعَاء خاصّ لله عَزَّ وَجَلَّ لا يجوز أن تَصرف الدّعَاء لغيره - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، فإذا دعوت غير الله فقد وقعت في الشرك، فالدّعَاء عبادَة، وصرفُها لغير الله شرك، فلا يجمَعَ بَيْنَ الشرك وطلب الشَّفَاعَة؛ لأنَّ طلب الشَّفَاعَة لا يتحقّق إلا ممن لم يقع منه شرك.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال تعالى: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ﴾ [البقرة:١٦٦] الآية.

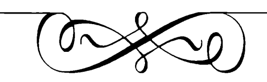
قال ابن كثير: تبرأت منهم المَلَائكَة الذين كانوا يزعمون أنَّهم يعبدونهم في الدُّنيَا، فتقول المَلَائكَة: ﴿تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ﴾ [القصص:٦٣].

الشَّـرْح

هنا قوله تَعَالَىٰ: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦﴾ [البقرة:١٦٦]، يوم القيَامة النَّاس الذين يدخلون في النَّار علىٰ درجات، أناس كانوا أئمة في الضلال سواء كانوا أصحاب أقلام أو أصحاب جاه، أو أصحاب مال، وهناك أناس من عامة النَّاس يعظمونهم، ويسَمعون كلامهم، ويقبلون منهم ما حرموا من الحلال، أو ما أحلوا من الحرام، فإذا دخلوا في النَّار تبرأ بعضهم من بعض، لكن لا ينفع، والله يذكر هذه الصور في الدُّنيَا في القُرْآن ليبَيْنَ لك حالك في الآخرة، فلا تتخذ إنسانـًا تتبعه علىٰ غير هدىٰ فإنَّه لن ينفعَك في الآخرة، وسيتبرأ منك فيها، ولا يحمل من معاصيك شيئـًا، فأنت تحمل مسئوليتَك بنفسك يوم القيَامة، فلا تقل: يا رب هذا الذي أضلني، أو هذا الذي منعني الحَقّ، ليس لك عذر، فقد جعل الله لك مسئولية تتحملها بنفسك في الدُّنيَا، فلا تُعذر بأن تعمل عملاً مجاملة لأحد وهو يغضب الله، أو تعمل عملاً لا تعلمُ حكمه عند الله اتباعـًا لشخص من الأشخاص كائنـًا مَن كان: صاحبُ جاه أو صاحبُ علم أو صاحبُ مال، لا تتبع إنسانـًا إلا إذا كان أمرك بالحَقّ، أو دعاك إليه، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذكرَ عدةَ صور في النَّار، خصام بَيْنَ أهل النَّار، وتبرؤ الأتباع من المتبُوعين، والمتبوعون

يتبرَّءون، ويقول التابعون: ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾ [البقرة:١٦٧]، أي: فنضلَّكم كما أضللتُمونا ثمَّ نتبرأَ منكم، لكن لم يعد هناك كرة أخرىٰ، فالإنسَان يحمل مسؤوليته يوم القيَامة بنفسه، ليس له عذر، ليس أحد من البَشَر له حَقّ أن يضع لك دينـًا، أو أن يحل لك الحرام، أو أن يُشَّرع لك، هذه حَقّوق الله، فإذا سلمتها لغيرك، يوم القيَامة لا ينفعك هذا الذي أسلمته قيادتك؛ لأنَّه هو نفسه يكون معك معذبـًا محاسبـًا.

﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة:١٦٦]، لم يعد هناك اتصال، فهذا توجيه لينجو الإنسَان بنفسه، ولا يقع في الشرك الذي يغضب الله- سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -، فإن يوم القيَامة المَلَائكَة تتبرأ والأنبياء تتبَرأ، والصَّالحُون يتبرَّءون، لا يرضىٰ أحد منهم بأن يشرك به مَعَ الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -، أمَّا من دخل النَّار فإنَّه يتبرأ أم لم يتبرأ فإنَّه لا ينفعُه.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن﴾ [المائدة:١١٦] الآية. وقال تَعَالَىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ [الإسراء:٥٦] الآية.

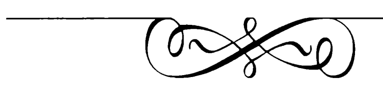
روىٰ سعيد بن منصور والبُخَاري والنسائي وابن جرير، عن ابن مسعود في الآية: (كان نفر من الإنس يعبدون نفراً من الجنَّ، فأسلم نفر من الجنَّ وتمسك الإنسيون بعبادتهم، فأنزل الله ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء:٥٧] كلاهما بالياء، وروىٰ ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية: (كان أهل الشرك يعبدون المَلائكة والمسيح وعَزَيراً) وفي رواية عنه عندهما في قوله: ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ﴾ قال: عيسىٰ وأمه وعَزَّير.

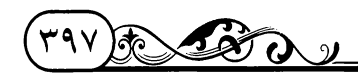


الشَّرْح

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ﴾ [المائدة:١١٦]، هذه الآية في عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ولم يأت بعد هذا السؤال، بل هذا السؤال يوم القيَامة، عندما يأتي النَّصَارَىٰ وقد عبدوا عيسىٰ، فيقول الله لعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أأنت قلت للنَّاس اعبدوني من الله وأمي من دون الله، فيقول عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: سبحانك أو ما ينزهه، ما قلت لهم إلا ما أمرتني به، أن اعبدوا الله، ما قلت لهم أن اعبدوني أو اعبدوا أمّي، أو اجعلوا ثالث ثلاثة، فيوم القيَامة يتبرأُ ممن عبدَه من دون الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -.

قوله تَعَالَىٰ: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الإسراء:٥٦]، هذه الآية تُوبّخ المُشركين من الإنس، فإنَّهم عند نزول القُرْآن كانوا لا زالوا يعبدون الجنَّ، وأولئك الجنَّ قد أسلموا ورجعوا إلىٰ الله وتابوا من شركهم، ولم يعلم الإنسُ، فبقوا علىٰ مذهبهم وشركهم، فالله ﷻ يقول: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ أي أولئك الذين تدعونَهم من دون الله الآن ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ هم يتقربون إلىٰ الله، والعُلَماء اختلفوا في سبب نزول هذه الآية: منهم من جعلها في عيسىٰ وأمه، ومنهم من جعلها في المَلَائكَة، ومنهم من فسرها بالجنَّ وهو الصَحيح الراجح في هذا المعنىٰ.





قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء:٩٨]. إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء:١٠١] الآية.

قال ابن اسحَقّ لما ذكر قصة ابن الزبعرىٰ ومخاطبته لرَسُول الله ﷺ عند نزول هذه الآية قال: وأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾. أي: عيسىٰ وعُزَّير، ومن عُبدَ من الأحبار والرُّهْبَان الذين مضوا علىٰ أمر الله فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أربابًا من دون الله.

الشَّرْح

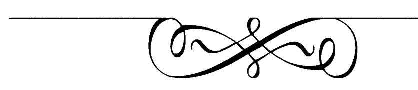
هنا عندما قال في القُرْآن ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء:٩٨]، قال ابن الزبعرىٰ واسمُه عبد الله، قد عُبد عيسىٰ وعبدت المَلَائكَة فهل هؤلاء حطبُ جهنم؟ ، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ وعبدُ الله بن الزبعرىٰ ممن كان يخاصمُ النَّبي ﷺ فيما ينزل من القُرْآن، وقد أسلَم وحسُن إسلامه، لَكنَّه لم يسلم إلا عامَ الفتح، فقال قصيدة يعتذر فيها ممَّا كان منه قبل ذلك، منها قوله يمدح فيها رَسُول الله ﷺ ويعتذر:

منع الرقاد بلابل وهموم ... والليل معتلج الرواقي بهيم
ممَّا أتاني أنّ أحمَدَ لامني ... فيه فبت كأنني محموم
يا خير من حملت علىٰ أوصالها ... عيرانة صرح اليدين خشوم

إني لمعتذر إليك من التي أهديت إذ أنا في الضلال أهيم
أيام تأمرني بأغوىٰ خطة سهم، وتأمرني بها مخزوم
وأمد أسباب الهوىٰ ويقودني أمر الغواة وأمرهم مشؤوم
فاليوم آمن بالنَّبي مُحَمَّد قلبي ومخطئ هذه محروم
مضت العداوة وانقضت أسبابها وأتت أواصر بَيْنَ نا وحلوم
فاغفر فدىٰ لك والدي كلاهما وارحم فإنك راحم مرحوم
وعليك من سمة المليك علامة نور أغر وخاتم مختوم
أعطاك بعد محبة برهانَه شرفًا وبرهان الإله عظيم

الشَّرْح

فقال هذه القصيدة يعتذر ممَّا وقع منه؛ لأنَّ قريشًا عندما نزل القُرْآن أعلنوا بالخصومة وبالسخرية والاستهزَاء، وهم يعلمون في قرارة أنفسهم أنَّهم علىٰ ضلال، وأحيانًا يكون للإنسان مصالح تمنعه من اتباع الحَقّ، فعندما فتح الرَسُول ﷺ مكة، ولم يعد هناك متمسك، نظروا بنظر يقين ونظرٍ حازم فانتهو إلىٰ الإسلام الصادق، ودخلوا في الإسلام عن صدق، ولهذا لم يرتد أهل مكة في عام الردة؛ لأنَّهم دخلوا في الإسلام عن يقين، وبعد ما رأوا الأحداث والاقتناع، وفي وقت الردَّة ارتد أكثر النَّاس، ولم تبق مدينة يقام فيها الجمعة إلا في مكة والمدينة والبحرين، وما عداها من المُدن والقُرىٰ كلها قد انقلبت، فبقي هؤلاء الأشخاص علىٰ دينهم واستقامتُهم -رحمهم الله ورضي عنهم-.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾ [الحج:٥٢].

وروىٰ ابن أبي حاتم عن الزهري قال: نزلت سورة النَّجْم وكان المُشركون يقولون: لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقررناه وأصحابه، ولكنَّه لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنَّصارىٰ بمثل الذي يذكر آلهتنا من السب والشتم والشر، وكان رَسُول الله ﷺ قد اشتد عليه ما نال أصحابه من أذاهم وتكذيبهم وأحزنه ضلالتهم، فكان يتمنىٰ هداهم، فلما أنزل الله سورة النَّجْم قال: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ٢٠﴾ [النَّجم:١٩، ٢٠]، ألقىٰ الشَّيطَان عندها كلمات حين ذكر الطواغيت، فقال: تلك الغرانيق العلىٰ وإن شفاعتهن لترتجىٰ، وكان ذلك من سجع الشَّيطَان وفتنته، فَوقَعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك بمكة، وذلت بها ألسنتهم، وتباشروا بها وقالوا: إن مُحَمَّداً قد رجع إلىٰ دينه الأول ودين قومه، فلما بلغ رَسُول الله ﷺ آخر النَّجْم سجد، وسجد كل من حضر من مسلم ومشرك، ففشت تلك الكلمة في النَّاس وأظهرها الشَّيطَان حتىٰ بلغت أرض الحبشة، فأنزل الله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾، فلما بيَّنَ الله قضاءه وبرأه من سجع الشَّيطَان، انقلب المُشركون بعداوتهم وضلالتهم للمسلمين، واشتدوا عليه.

وهي قصة مشهورة صَحيحة، رويت عن ابن عباس من طرق بعضها صَحيح، ورويت عن جماعة من التَّابعين بأسانيد صَحيحة، منهم: عروة، وسعيد



بن جبير، وأبو العالية، وأبو بكر بن عبدالرحمن، وعكرمة، والضحاك، وقتادة، ومُحَمَّد بن كعب القرظي، ومُحَمَّد بن قيس، والسدي وغيرهم، وذكرها أيضًا أهل السير وغيرهم، وأصلها في الصَحيحين، والمقصود منها قوله: تلك الغرانيق العلىٰ وإن شفاعتهن لترتجىٰ، فإن الغرَانيق هي: المَلَائكَة علىٰ قول، وعلىٰ آخر: هي الأصنام، ولا تنافي بَيْنَ هما فإن المقصود بعبادتهم الأصنام والمَلَائكَة والصَّالحين كما تقدم عن البيضاوي.



الشَّرْح

هنا يفهم من كلام الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هذه الحادثة صَحيحة، وقد سبقه غيره من العُلَماء وخاصة من المفسرين كالطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنَّه أورد هذه الأقوال، لكن بدراسة هذه الآثار التي تتحدث عن هذه القضية ننتهي إلىٰ أنَّها آثار لم تصح، والأقوال أوردها الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن جماعة من التَّابعين، ورويت عن ابن عباس أن النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقرأ بسورة النَّجْم في المَسْجد الحرام علىٰ مسمَعَ من المُشركين والمسلمين، فبعد أن قرأ قوله تَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم:١٩، ٢٠] قال: تلك الغرانيق العُلىٰ وإن شفاعَتَهن لَتُرتَجىٰ، هذه الكلمة كُفر، ولا تحدث من غير النَّبي، فكَيْفَ يقع من النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكفر الذي جاء لنقضه ومحاربته وإبطاله، فمنهم من قال: أنَّه سها، فألقاها الشَّيطَان علىٰ لسانه، وهذا خطير، إذا كان النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غير معصوم حتىٰ يمكن للشيطان أن يجعله يتكلم بكلام كفر مَعَ القُرْآن، فكَيْفَ يُوثَق بكلام الأنبياء؟، ومنهم من قال: ما نطق بها الرَسُول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَكنَّه سكت، فتكلم بها الشَّيطَان، وقلد صوت النَّبي، فظَن النَّاس أنَّها من القُرْآن، فما معنىٰ أن الرَسُول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسكت هنا

حتىٰ يُلقي الشَّيطَان ثمَّ يتكلم؟

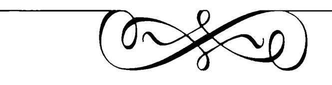
وهذه الحادثة قد قال بها جماعة من التَّابعين، وكذلك رويت عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، لكن بدراسة هذه الآثار عن ابن عباس والتي أوردها العُلَماء في تفاسيرهم تبيْنَ أنَّها لم تصح، وهناك رسالة قد كتبها الشَّيْخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ بعنوان (نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق)، وقد سبقه علماءُ، منهم القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ، حيث قال: اعلم أن لنا في الكلام علىٰ مشكل هذا الحَديث مأخذين،: أحدهما في تَوهين أصله، والثاني علىٰ تسليمه، أمَّا المأخذ الأول: فيكفيك أن هذا لم يأخذه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقَة بسَنَد متصلس.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلىٰ أرض الحبشة، ظَناً منهم أن مشركي قريش قد أسلموا، ولَكنَّها من طرق كلها مُرسَلة، ولم أرها مسَنَدة من وجه صَحيح، ونقل عن ابن خزيمة رَحِمَهُ اللهُ أنَّه قال: هذه القصة من وضع الزنادقة، وقال ابن حزم رَحِمَهُ اللهُ: وأمَّا الحَديث الذي فيه الغرانيق فكذب بَحت مَوضُوع؛ لأنَّه لم يصح قط من طريق النَّقْل، وقال الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ: ولم يصح شيء من هذا، ولا يثبت بشيء من الوجوه، وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ: اعلم أن مسألة الغرانيق مَعَ استحالتها شرعًا، ودلالة القُرْآن علىٰ بطلانها، لم تثبت من طريق صالح للاحتجاج.

وقال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ وهو ممن أورد القصة وأقرها، لكن كلامه يرد بعضه بعضًا، قال بعد أن ذكر الروايات: وكلها سُوىٰ طريق سعيد بن جبير إمَّا ضَعيف وإمَّا مُنقطع، لكن كثرة الطرق تدل علىٰ أن للفظة أصلاً مَعَ أن لها

طريقين آخرين مُرسَلين رجالهما على شرط الصَحيح، والشَّيْخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ جمَعَ هذه الطرق ودرسها، وانتهى إلى قوله: وكلها مُعَلَّة بالإرسال والضعف والجهَالة، ثمَّ قال البَزَّار رَحِمَهُ اللهُ في الطريق التي قال فيها ابن حجر أنَّها صَحيحة: لا يروى متصلاً إلا بهذا الإسناد تفرَّد بوصلة أمية بن خالد وهو ثقَة مَشهور قال: وإنَّمَا يروى هذا من طريق الكَلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، والكَلبي قال فيه ابن حجَر متروك ولا يعتمد عليه، فبدراسة الروايات على منهج المحدثين لا تثبت هذه القصة.

لكن في صَحيح البُخَاري لفظ مُجمل، وهو قوله أن النَّبي ﷺ قرأ سورة النَّجْم، وسجد فيها المسلمون والمُشركون والإنس والجنَّ، هذه الفقرة التي في البُخَاري، وليس فيها أنَّه قرأ: تلك الغَرانيق العُلى، هذا إنَّمَا جاء في الآثار المُرسَلة، والتي عن جماعة من التَّابعين، وهذه قضية من أخطر القضايا، لا يُقبَل فيها الأقوال المُرسَلة أو الآثَار المنقطعة أو التي لا يصح إسنادُها؛ لأنَّ هذا الدّين قد حفظه الله، وليس هناك أثرٌ أو حديث تحتاجه الأمَّة إلا وقد حفظه الله عَزَّ وَجَلَّ، أمَّا هذه الأقوال فهي كلها لا تصح، ولهذا لا يُسلَّم للشارح رَحِمَهُ اللهُ قوله: أنَّها قصة صَحيحة وأنَّها رويت عن ابن عباس من طرق بعضها صَحيح؛ لأنَّه بدراسة أسانيدها يتبَيْنَ لنا أنَّها لا تصح.



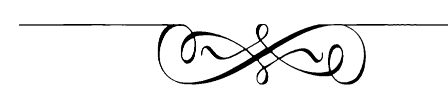
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فلما سَمَعَ المُشركون هذا الكلام المقتضي لجواز عبَادَة المَلَائكَة، رجاء شفاعتهم عند الله، ظَنوا أن رَسُول الله ﷺ قاله، فرضوا عنه وسجدوا معه، وحكموا بأَنَّه قد وافقهم علىٰ دينهم من دعاء المَلَائكَة والأصنام للشَفَاعَة، حتىٰ طارت الكلمة كل مطار وبلغ المهاجرين إلىٰ الحبشة أَنَّهم صالحوا رَسُول الله ﷺ.

فعرفت أن الفارق بَيْنَ هم وبَيْنَ رَسُول الله ﷺ هي مسألة الشَّفَاعَة؛ لأَنَّهم يقولون نريد من المَلَائكَة والأصنام المصورة علىٰ صورهم بزعمهم أن يَشْفَعوا لنا عند الله، والرَسُول ﷺ قد أتاهم بإبطال ذلك، والنهي عنه وتكفير من دان به وتضليلهم وتسفيه عقولهم، ولم يرخص لهم في سؤال الشَّفَاعَة من المَلَائكَة ولا من الأنبياء ولا الأصنام، بل أتاهم بقوله تَعَالَىٰ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ﴾ [الزمر:٤٤]. وقوله تَعَالَىٰ: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يس:٢٤،٢٣]. وهذا كثير جداً لمن تتبعه.

الشَّرْح

هنا يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن المُشركين عندما سَمعوا هذا الكلام، وأن الرَسُول ﷺ مدح الغرانيق التي يستشَفَعون بها فرحوا بهذا الذكر، فيتبَيَّنَ لنا أن سبب الخلاف بَيْنَ الرَسُول ﷺ وبَيْنَ قريش هو الشَّفَاعَة، لكن هذه القصة في الحَقِّيقة لم تثبُت، وعندنا من أدلة أخرىٰ تُغني عنها.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

والمقصود أن المُشركين الأولين يدعون المَلَائكَة والصَّالحين ليَشفَعوا لهم عند الله، كما تشهد به نصوص القُرْآن، وكتب التفسير والسير والآثار طافحة بذلك، ويكفي العاقل المنصف قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ:٤١،٤٠].

الشَّرح

هذا أحد المواقف التي يكون فيها السؤال والجوابُ يوم القيَامة، فمن كان يعبُد المَلَائكَة يوم القيَامة يَسألُ اللهُ المَلَائكَةَ عنهم: هل كان هؤلاء يعبدونكم قالوا: سبحانك، كما قال عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ [سبأ:٤١]، فنحن نسأل الذين يدعون الصَّالحين، والأنبياء والمَلَائكَة، ما معنىٰ هذه الآية؟ ما هي العبَادة التي وبَّخ الله هؤلاء لأجلها وسأل عنها يوم القيَامة؟ هل هو السُجُود والركوع؟ ما يستطيع أحد أن يقول أنَّهم سجَدوا للملائكة؛ لأنَّهم لا يرون المَلَائكَة حتىٰ يسجدوا لهم، إنَّمَا هو: الدّعَاء، دعوهم واستغاثُوا بهم واستنصروا بهم، هذا هو العبَادة، وليس أن قريشاً كانت تسجُد للملائكة وتركع لها، إنَّمَا كانت العبَادة هي الدّعَاء واللُّجوء إليهم والاستغاثة بهم وتعظيمهم من دون الله، فلا ندري ماذا يقول هؤلاء الذين يُقرّون بالاستغاثة بغير الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - وبدعاء غير الله، فالآيَات القُرْآنية واضحة صريحة لمن أراد الحَقّ، لكن أحيانـاً يقع الهوىٰ في قلب الإنسَان فيمنعه من قبول الحَقّ أو فهمه، وهذا مرض لابد له من علاج، وهو: دُعاء الله والاستغاثة به وسؤاله أن يُطَهِّر قلوبنا من هذه الأمراض العقدية.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

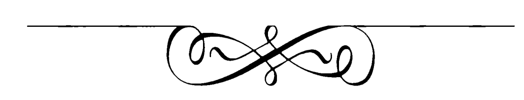
قال: وقوله: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [سبأ:٢٢].

ش: هذه الآية هي التي قال فيها بعض العُلَماء أنَّها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب لمن عقلها، قال ابن القيم في الكلام عليها: وقد قطع الله الأسباب التي يتعلق بها المُشركون جميعها قطعًا، يعلم من تأمله وعرفه أن من اتخذ من دون الله ولياً فمثله: ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ﴾ [العنكبوت:٤١].

الشَّرْح

هذا من كلام الله تَعَالَىٰ عن بيت العَنكَبُوت، والعَنكَبُوت إحدىٰ الحشرات العجيبة، وبعض النَّاس يقول: أوهن من بيت العَنكَبُوت، وهو خطأ، ليس هناك أوهن من بيت العَنكَبُوت، فالقُرْآن يقول: أوهن البيت بيت العَنكَبُوت، الإنسَان يمر علىٰ بيت العَنكَبُوت بيده ولا يحس، وهو قد قطع بيت العَنكَبُوت، بيت العَنكَبُوت فيه خيطوط دقيقة، يقول الدارسون لهذا النوع من الحشرات: إن الخيط الواحد الذي لا تكاد تراه في بيت العَنكَبُوت يتكون من أربعة آلاف خيط، والإنسَان يستعجب كَيْفَ أربعة آلاف خيط؟ ، هذا الخيط لا نراه إلا بدقَّة، والدارسون درسوه وقالوا: إنَّ هذا الخيط الدقيق يحتوي علىٰ أربعة آلاف شُعيرة دقيقة لا ترىٰ إلا بالمجهر، فهذه الحَشَرَة الغريبة تجعل هذا البيت لاصطياد الحشرات، وهذا أوهن البيوت، فيقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: الذي يدعو غير الله قد

تمسك بما هو مثل بيت العَنكَبُوت، فالذي يتمسك بحبل من خيوط بيت العَنكَبُوت هل يستطيع أن ينقذَه أو يرفعَه؟ ، هكذا الذي يتعلق بغير الله، فعله كفعل الذي يحتمي ببيت العَنكَبُوت، وكما تحتمي العَنكَبُوت بهذا البيت.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فالمُشرك إنَّمَا يتخذ معبوده لما يحصل له به من النَّفْع، والنَّفْع لا يكون إلا ممن يكون فيه خصلة من هذه الأربع، أمَّا مالك لما يريد عابده منه، فإن لم يكن مالكًا كان شريكًا للمالك، فإن لم يكن شريكًا له كان معينًا له وظهيراً، فإن لم يكن معينًا ولا ظهيراً كان شفيعًا عنده، فنفى سُبحانَه المراتب الأربع نفيًا مرتبًا منتقلاً من الأعلى إلى ما دونه، فنفى الملك والشركة والمظاهرة والشَّفَاعَة التي يطلبها المُشرك، وأثبت شَفَاعَة لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشَّفَاعَة بإذنه.

الشَّرْح

هنا الآية الكَريمة: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ [سبأ:٢٢]، لا يملكون استقلالا، ولا مشاركة، ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ أي ليس لله منهم معاون ولا مساعد، ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ:٢٣].

فلا يملكون ولا يشاركون، ولا يساعدُون الله، ولا يملكون الشَّفَاعَة، فكَيْفَ يُدعىٰ من ليس له إحدىٰ هذه الصفَات الأربع، فليس مالكًا ملكًا استقلالياً، والذي لا يملك كَيْفَ يُعطيك من مُلك غيره؟ ، وليس شريكًا في المُلك مَعَ الله، فكَيْفَ تدعوه وهو ليس له شرك حتىٰ يعطيك بعض ما يملك؟ ، وليس هو مُساعداً لله، ولا يَشْفَع إلا بإذن من الله، فقطعَ عروقَ الشرك كلها، فهذا كلُه حديث عن هذه القضايا في الجَاهليَّة، ومَعَ ذلك قد وقعَ في المسلمين مثل ما وَقع في الجَاهليَّة، وهم يقرءون هذا الكلام ولا يفهمون معناها؛ لأنَّ النَّاس لو قرءوا كلامَ الله وفهموا معناه ما وقعوا في هذه الشركيات التي كان فيها أهل الجَاهليَّة الأُولَىٰ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:

قال: فهو الذي يأذن للشافع، وإن لم يأذن له لم يتقدم في الشَّفَاعَة بَيْنَ يديه، كما يكون في حَقّ المخلوقين، فإن المشفوع عنده يحتاج إلىٰ الشافع ومعاونته له، فيقبل شفاعته وإن لم يأذن له فيها، وأمَّا كل ما سواه فقير إليه بذاته، وهو الغني بذاته عن كل ما سواه، فكَيْفَ يَشَفَع عنده أحد بدون إذنه، فكفىٰ بهذه الآية نوراً وبرهانـًا ونجاةً وتجريداً للتوحيد، وقطعـًا لأصول الشرك ومواده لمن عقلها، والقُرْآن مملوء من أمثالها ونظائرها، ولكن أكثر النَّاس لا يشعرون بدخول الواقع تحته وتضمنه له، ويظَنه في نوع وقوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثـًا، وهذا الذي يحول بَيْنَ القلب وبَيْنَ فهم القُرْآن، ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا فقد ورثهم من هو مثلهم وشر منهم ودونهم، وتناول القُرْآن لهم كتناوله لأولئك.

ولكن الأمر كما قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (إنَّمَا تنقض عرىٰ الإسلام عروة عروة، إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجَاهليَّة).



الشَّرْح

يقول رَحِمَهُ اللهُ: بعض النَّاس إذا قرأ القُرْآن ظَن أنَّه يتحدث عن الماضين فقط، ولا علاقة لهذا الحَديث بواقع النَّاس، وهذا فهم خاطئ، القُرْآن يتحدث عن أحداث وقضايا، إذا تكرر مثلثها فحكمُ القُرْآن ينسحبُ عليها، ذكر الله الأولين وما وقعوا فيه من الشرك والانحرافات والضلالات، فإذا وقع منَّا مثل ما وقعَ منهم يندرجُ تحت الحُكْم، لكن بعض النَّاس لا يفهم القُرْآن علىٰ هذا الفهم، يظَن أن القُرْآن يتحدث عن الأمَم الماضية، وتلك الأفْعَال التي وقعوا فيها لا تقع في الأمَّة الإسلامية كما سيأتي أن بعض النَّاس يعتقد أنَّه لا يقع في المسلمين عبَادَة للأوثان ولا شرك، وهذا ظَن عجيب، وقد جاءت السُّنة واضحة: (لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر، وذراعـًا بذراع، حتىٰ لو دخلوا جحر ضب

لدخلتموه، قال الصَّحابَة: اليهود والنَّصارَىٰ؟ قال: فمن؟)[١] وفي رواية: (كفارس والروم؟ قال: فمن النَّاس إلا أولئك؟)[٢] فمتابعة من سبقنا في الانحراف سيقع في هذه الأمَّة، والله ذكر ذلك ليربّينا من خلال القصص القُرْآني، ويحذرنا ما وقع في الماضين، فلا ينبغي لنا أن نظُن أن القُرْآن يتكلم في قضايا قد انتهت، ولا علاقة لها بحياتنا.

قول عمر رضي الله عنه: (**إنَّمَا تنقض عرىٰ الإسلام عروة عروة، إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجَاهليَّة**) هذا كلام عليه نور من هذا الخليفة الراشد رضي الله عنه، أي: لا يعرف الضلال إلا من عاشه، الذي عاش في الاستقامة لايعرف الضلال، ولا يعرف الجوع إلا من ذاقَه، ولا يعرف المرض إلا من وقع فيه، ولا يعرف الهمَّ إلا من عرَض له، فالذي يعيش في النعمة بدون انقطاع ما يعرف ألَمَ الجوع ولا قيمة النَّعمة، فكذلك الذي عاش في الإسلام من صغره إلىٰ أن مات لا يعرف الأمور التي كان عليها الجَاهليَّة المعرفة الحَقَّة، فيقع فيها بدون شُعور وإحساس؛ لأنَّه لا يعرفها، فالذي لا يعرف الضَّلال قد يقع فيه، وقد ينصرُه، وقد يُعينُ أهله، وهو لا يعرف أنَّه ضلال؛ لأنَّه عاش في الاستقامة وعاش في النُّور، كذلك الإنسَان الذي في النور ولم يعش في الظلام الحسي لا يعرف قيمة النُّور، ولا يعرف الظَّلام؛ لأنَّه ما عاشه، فهكذا الذين عاشوا في الإسلام لا يدركون تلك المعاني إلا إدراكًا نظرياً، لا يدركون حَقّائقها، ولهذا قد يقعون فيما وقع فيه السابقون وهم لا يشعرون.

---

(١) أخرجه البخاري في صَحِيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، برقم: (٣٤٥٦)، ومسلم في صَحِيحه، كتاب العِلْم، باب اتباع سنن اليهود والنصاري، برقم: (٢٦٦٩)، (٤/ ٢٠٥٤).

(٢) أخرج هذه الرواية البخاري في صَحِيحه، كتاب الاعتصام، باب قول النَّبِي صلى الله عليه وسلم: لتتبعن سنن من كان قبلكم، برقم: (٧٣١٩).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا لأَنَّه إذا لم يعرف الجَاهليَّة والشرك وما دعا به القُرْآن وذمه وقع فيه وأقره ودعا إليه وصوبه وحسنه، وهو لا يعرف أَنَّه الذي كان عليه الجَاهليَّة أو نظيره أو شر منه أو دونه، فتنتقض بذلك عرىٰ الإسلام ويعود المعروف مُنْكَراً والمُنْكَر معروفًا، والبِدْعَة سنة والسنة بِدْعَة، ويكفر الرجل بمحض الإيمان و تجريد التَّوحيد، ويبدع بتجريد متابعة الرَسُول ﷺ، ومفارقة الأهواء والبدع، ومن له بصيرة وقلب حي يرىٰ ذلك عيانًا فالله المستعان.

الشَّرح

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: إذا انقلبت الموازين وفشا الجهل بَيْنَ المسلمين أصبح الذي يدعو إلىٰ التَّوحيد يتهم بالابتداع، وأنَّه متطرف أو أنَّه أُصولي، أو أنَّه غالٍ، أو أنَّه خارجي، وللزمخشري في عصره وهو في القرن الخامس، وكذلك للشاطبي وابن بطة وجماعة من العُلَماء القدَماء حديث في هذه المعاني: أن الإنسَان إذا وقف للدَّعوة إلىٰ الله أو أراد أن يصحح بعض الأخطاء أو ينصح في بعض المفاسد يتهم بأنَّه إمَّا متشدد وإمَّا صاحب غُلو أو نحو ذلك من الألقاب والأوصاف، وهذا مر في عصور مضت، وفي كل عصر لا يكاد إنسان يقف للدعوة إلىٰ الله وينصح النَّاس ويوجهُهم إلا ويبتلىٰ، والشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ كان ممن رفع لواء محاربة البدع في توحيد العبَادة، مَعَ أنَّه رَحِمَهُ اللَّهُ كان واقعًا في التأويل، لَكنَّه من أقوىٰ وأشهر من دافع عن توحيد العبَادة، فاتهم بأنَّه خارجي، وبأنَّه عدو للصَّحابة؛ لأنَّه كلما دعا إلىٰ تصَحيح بِدْعَة بجانب من جوانب الدِّين ألحَقُّوه ببعض المتطرفين في تلك الدعوىٰ، هكذا يقول الشارح هنا: إن الإنسَان لا يكاد يَسضلم، فإن دعا إلىٰ التَّوحيد اتهموه، وإن دعا إلىٰ معروفٍ اتهموه، وإن صحَّح بعض الأخطاء اتهموه، لكن هذه طبيعة النَّاس، وعلىٰ الداعية أن يصبر، فإنَّه بالصبر تُنال المطالب كما كان الأَنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال الله تَعَالَىٰ حاكيًا عن أسلاف هؤلاء المُشركين: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزمر:٣].

فهذه حال من اتخذ من دون الله ولياً يزعم أنَّه يقربه إلىٰ الله تَعَالَىٰ، وما أعَزَّ من يخلص من هذا! ، بل ما أعَزَّ من يعادي من أنكره! ، والذي في قلوب هؤلاء المُشركين وسلفهم أن آلهتهم تشَفَع لهم عند الله، وهذا عين الشرك، وقد أنكره الله عليهم في كتابه وأبطله، وأخبر أن الشَّفَاعَة كلها له، وأنَّه لا يَشَفَع عنده أحد إلا لمن أذن الله تَعَالَىٰ أن يَشَفَع له فيه ورضي قوله وعمله، وهم أهل التَّوحيد الذين لم يتخذوا من دون الله شَفَعاء، فإنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يأذن في الشَّفَاعَة فيهم لمن يشاء، حيث لم يتخذوهم شَفَعاء من دونه، فيكون أسعد النَّاس بشفاعته من يأذن الله- تَعَالَىٰ- له صاحب التَّوحيد الذي لم يتخذ شفيعـًا من دون الله.

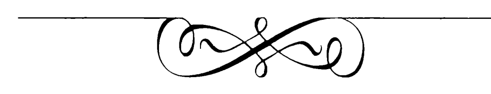
الشَّرْح

هذا المقطع من كلام الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ تعليق علىٰ قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ هنا كلمة محذوفة، وهي يقولون: لأنَّهم اتخذوا الشُفَعاء وهم يقولون إن اتخاذهم للشُفَعاء هو كذا وكذا، يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ لكن اعترافُهم بأنَّهم عبدوهم يدلُ علىٰ جهلهم؛ لأنَّ العبادة حَقّ الله جَلَّ وَعَلَا، فصرف حَقّه لغيره بدعوىٰ الرغبة في شَفَاعَة من يعبدونه، هذا شرك وهذا أعظم الذنوب، ولا يغفره الله -جَلَّ وَعَلَا-، ومَعَ ذلك يعترفون

بأنَّهم عبدوهم، صرفوا حَقّ الله لهم، ومقصدهم من ذلك أن يَشَفعوا لهم عند الله يوم القيَامة فيدخلهم الجنَّة، وهذا مسلك خاطئ، وعمل مردود، وفعل باطل لا يجوز، فيقول رَحِمَهُ اللهُ: إنَّ هؤلاء اتخذوا هؤلاء وزعموا أنَّ هذا الفعل إنَّمَا هو رغبة في شفاعتهم يوم القيَامة؛ لأنَّهم يعتقدون أنَّهم مقربون عند الله، ولهم عنده مَكَانَة، وهذه المَكَانَة تقتضي من النَّاس أن يستشَفَعوا بهم عند الله، وسيأتي أن هذا تشبيه للخالق بالمخلوق؛ لأنَّ الاسْتشْفَاع عند المخلوق إنَّمَا يستشَفَعون بمن هو مقرب عنده، من صديق له أو قريب له أو ذريته أو أولاده أو أحفاده، فتكون له عند المشفوع إليه مَكَانَة، فيأتي الشَّخْص إلىٰ صاحب المَكَانَة ليَشَفَع له عند من يحتاج، فهؤلاء قاسوا الخالقَ علىٰ المخلوق، وهذا شرك وعمل باطل، وقد رده الإسلام وبَيْنَ أن الشَّفَاعَة كلُها لله وأنَّه لا يأذن لمن يَشفَع إلا إذا كان أهلاً للشَفَاعَة، وإذا كان المشفُوع له صاحب معصية، أمَّا المُشرك فلا يستحَقّ الشَّفَاعَة.

والقُرْآن الكَريم جاءت فيه آيات تدل علىٰ نفي الشَّفَاعَة، كقوله تَعَالَىٰ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ۝٤٨﴾ [المدثر:٤٨]، وآيات أخرىٰ تدل علىٰ أن هناك من يَشفَع كقوله تعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]، فالآيَات التي فيها نفي الشَّفَاعَة أي: للمشركين، المُشرك لا يُقبل له شفيع؛ لأنَّ الشَّفَاعَة عمل لابد فيه من إذن، والله لا يأذن للشَفَاعَة للمشرك، فهذا هو ملخص قوله رَحِمَهُ اللهُ، أمَّا صاحب المعصية فإنَّه يَشَفَع فيه من الأنَبياء والصَّالحين والمَلاَئكَة والشهداء، وقد جاء في حديث الشَّفَاعَة أن المَلاَئكَة تشَفَع وأن الصَّالحين يَشَفَعون، ثمَّ لا يبقىٰ بعد ذلك إلا رحمة الله -عَزَّ وَجَلَّ-، فيخرُج الله من النَّار من لم يطع الله قط، لكن يكون في قلبه خير ولو كان قليلاً، فهذه الشَّفَاعَة إنَّمَا هي

لرفع درجة الشافع، ولبيان مكانته عند الله -وَجَلَّ عَزَّ-، فهذه الشَّفَاعَة يوم القيَامة لا تكون إلا لمن لم يشرك بالله، كما سيأتي من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: (يا رَسُول الله من أسعد النَّاس بشفاعتك يوم القيَامة؟ قال: من قال لا إله إلا الله مخلصًا بها قلبه)[1]، الإخلاص انتفاء الشرك، هذا تنفعه الشَّفَاعَة.



(١) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والشَّفَاعَة التي أثبتها الله تَعَالَىٰ ورَسُوله ﷺ هي الشَّفَاعَة الصادرة عن إذنه لمن وَحَّده، والتي نفاها الله تَعَالَىٰ هي الشَّفَاعَة الشركية التي في قلوب المُشركين المتخذين من دون الله شَفَعاء، فيعاملون بنقيض مقصودهم من شفاعتهم ويفوز بها المُوَحِّدون انتهىٰ.

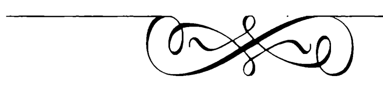
ولكن تأمل الآية كَيْفَ أمرهم تَعَالَىٰ بدعاء المَلَائكَة أمر تعجيز، والمراد بيان أَنَّهم لا يملكون شيئًا، فلا يدعون لا لشَفَاعَة ولا غيرها، ثمَّ أخبر أَنَّهم هم الذين اتخذوهم بزعمهم شَفَعاء، فنسبه إلىٰ زعمهم وإفكهم الذي ابتدعوه من غير برهان ولا حجة من الله، وهذه الآية نزلت في دعوة المَلَائكَة، ودخول غيرهم فيها من باب الأُولَىٰ، كما روىٰ ابن أبي حاتم عن السدي في قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ:٢٢]، يقول: من عون من المَلَائكَة، وكما يدل عليه قوله تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ [سبأ:٢٣] كما تقدم.



الشَّرح

قوله: (انتهىٰ) انتهىٰ هنا النَّقْل عن ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأنهذا النص كله منقول من ابن القيم، هنا يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ تأمل كَيْفَ أمرهم تَعَالَىٰ بدعاء المَلَائكَة أمر تعجيز؛ لأَنَّ اللفظ قد يكون في الأصل له معنىٰ، لكن يرد لمعنىٰ آخر بحسب السياق، فقوله تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ﴾ أي يا مُحَمَّد ﴿ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ فعل أمر، والله لا يأمر المُشركين أن يدعوا الذين زعموهم أولياء مَعَ الله. هذا أمر تعجيز، أي: لا يستطيعون أن يجيبوكم، فالأمر هنا للتعجيز، لا للإباحة ولا للوجوب.

﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ [سبأ:٢٢، ٢٣]، هذه أربعة شروط من كلام ابن القيم رحمه الله لا يستطيع من يدعىٰ من دون الله أن يحَقّق الدعوىٰ إلا إذا كان له أحد هذه الشروط الأربع وكلها منتفية، فليس لهم شرك وليسوا ظهيرين لله، وليسوا معاونين، ولا يملكون الشَّفَاعَة، فإذا انتفت هذه الشروط الأربعة أصبح زعمهم للاستشفاع باطلاً.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فإذا كان اتخاذ المَلَائِكَة شَفَعاء من دون الله شركًا فكَيْفَ باتخاذ الأموات كما يفعله عباد القبور، أم كَيْفَ باتخاذ الفجار والفساق إخوان الشَّيَاطن من المجاذيب الذين جذبهم إبليس إلىٰ جانبه وطاعته شَفَعاء، وأعظم من ذلك اعتقاد الربوبية في هؤلاء الملاعين، مَعَ ما يشاهده النَّاس منهم من الفجور وأنواع الفسوق، وترك الصلوات وفعل المُنْكَرات والمشي في الأسواق عراة، كما قال بعض المتأخرين:

كقوم عراة في ذرىٰ مصر ما لهم ... علىٰ عورة منهم هناك ثياب
يدورون فيها كاشفين لعورة ... تواتر هذا لا يقال كذاب
يعدونهم في مصر هم فضلاءهم ... دعاؤهم فيما يرون مجاب

الشَّرْح

هذا إشارة لبعض الأحوال في المجتمعات الإسلامية في الماضي وفي الحاضر، فيوجد بعض الطوائف يطلق عليهم الصوفية هؤلاء أكثر الطوائف تعلقًا بمن يزعمون أنَّهم أولياء، سواء كانوا من الأحياء أو من الأموات، ويوجد فيهم أشخاص بلغ بهم الضلال إلىٰ أنَّهم زعموا أنَّهم وصلوا إلىٰ درجة ارتفعت عنهم التكاليفُ، فلا يُصَلُّون، ولا يَصومُون، وربما فعلوا الفواحشَ علانيةَ، هؤلاء يقولون: أنَّهم بلغوا درجةَ اليقين، بل بعضهم يمشي في الأسواق عاريًا والنَّاس يتبرَّكُون به، ويزعمون أنَّه من أولياء الله، وأنَّه من المجاذيب، أي: قد وصل إلىٰ الله، فهذه حال كثير في بلاد المسلمين علّقوا قلوبهم بمن زعموا أنَّهم أولياء، ونحن لا ندري من أين أخذوا هذه المعاني، فإنَّها لم ترد

عـن نَبيّنـا ﷺ، وسـيرته سـيرة مكشـوفة يقرؤهـا كـل إنسـان، ولـم ينقـل عـن الصَّحابَة ﭫ أنَّهم فعلوا هـذا مَعَ رَسُـول الله ﷺ، ولـم يـزعم الرَسُـول ﷺ أنَّـه بلغ درجةَ اليقين، بل كان أكثرَ النَّـاس عبَـادَة، وقـد عـاش في ظـل العُبُـودية حتـىٰ توفـاه الله ﻷ، بـل كانـت عائشـة -ﭭ- تعاتبـه عنـدما كـان يقـوم الليـل حتـىٰ تورمت قدماه، فكانت تقول: (**يا رَسُول الله وقد غفر الله لـك ما تقـدم مـن ذنبـك وما تأخر، قال يا عائشة: أفلا أكون عبدا شكوراً**)(١)، فوصـف العُبُـودية للإنسـان لا ينقطع لا في الدُّنيَا ولا في الآخرة، العبـد عبـد والـرب ربّ، يبقـىٰ العبـد عبـداً، سواء كان في الدُّنيَا أو في الآخرة، ولهـذا نَبيّنـا ﷺ يـوم القيَامـة إذا أراد أن يَشْـفَع فإنَّه يأتي بمظهر العُبُودية، لا يأتي بمظهر آخر، يـأتي يسـجد تحـت العَـرْش، سـيد البَشَر، لَكنَّه أمام الله عبد، النَّاس أمام الله عبيد، فهذا مكـان رَسُـول الله ﷺ وهـو أفضـل البَشَـر، وأشـرفهم وأعلاهـم درجـة في الـدُّنيَا والآخـرة، وقـد جـاء في الحَديث الشريف أنَّه قال ﷺ: (**إذا سَمعتم المؤذن فقولوا مثلما يقول، ثمَّ صـلوا علي، فإنَّه من صلىٰ علي صلاة واحدة صلىٰ الله عليه بها عشـراً، ثـمَّ سـلوا الله لـي الوسيلة، فإنَّها منزلة في الجنَّة لا يبلغها إلا عبـد مـن عبـاد الله وأرجـو أن أكـون أنـا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشَّفَاعَة**)(٢)، فأعلىٰ درجة في الجنَّة لشـخص واحد هو نَبيّنـا ﷺ، وقـد جـاء في الحَـديث: (**أنـا سـيد ولـد آدم**)(٣)، ومَـعَ ذلـك يبقىٰ عبدا من عباد الله.

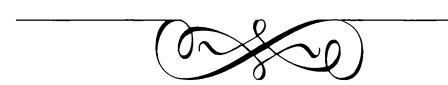
---

(١) أخرجه الشَّيْخان في صَحِيحيهما، صَحِيح البخاري، كتاب التفسير، باب قـول الله تَعَالَىٰ: (ليغفـر لـك الله مـا تقـدم مـن ذنبـك)، بـرقم: (٤٨٣٧)، صَحِيح مسـلم، كتـاب صـفة القِيَامـة والجِنَّة والنَّار، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العِبَادة، برقم: (٢٨٢٠)، (٤/ ٢١٧٢).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

قال تَعَالَىٰ: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء:١]، وقد ذكر الله عبوديته في القُرْآن الكَريم في عدة مواطن، فإذا كان رَسُول الله ﷺ لا ينفك من عبوديته لله، فكَيْفَ ينفك هؤلاء الأشخاص الذين يزعمون أنَّهم بلغوا درجة فَوقَ التكليف؟ فيوجد في بلاد المسلمين أشخاص في أشكال قذرة، ربما لم يتوضأ أعوامًا طويلة وربما لم يغسل ملابسَه سنوات، وهؤلاء يسمونهم المجاذيب أي: هذا الشَّخْص قد فقد عقله بسبب حبه لله وفنائه لله وفنائه عن نفسه، نسي نفسه ولهذا لا يدري أنَّه عارٍ ولا أنَّه يفعل الفواحش، وهذا من أغرب المعاني، هذه هي أفكار وعقائد المذاهب الفلسفية القديمة البوذية والهندوسية والنصرانية. الإسلام ليس فيه رهبانية، فهو دين يكرم الإنسَان، ولهذا جاء بالنظافة خمس مرات، يتوضأ المسلم ويحرص علىٰ نظافة ملابسه، وفي كل أسبوع يتطهر ويغتسل مَرَّة، وينظف فمه بالسواك، وهكذا يعيش المسلم دائمًا في طهارة، لكن هؤلاء من أين جاؤوا بهذه الأفكار؟ نعوذ بالله من شر هذه المفاهيم الخاطئة.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومن العجب أَنَّهم لم يأتوا بشيء يدل على كون هؤلاء الشَّيَاطن من جملة المسلمين فضلاً عن كونهم أولياء فضلاً عن كونهم يدعون ويستغاث بهم إلا بشيء من المخاريق والسّحر والشعبذة يدعون أن لهم كرامات وأَنَّهم أولياء لما يظهرونه من المخاريق.

واعلم: أن الضلال والكفر إِنَّمَا استولى على أكثر المتأخرين بسبب نبذهم كتاب الله وراء ظهورهم وإحسان الظَن بمن سحرهم ودعا إلى نفسه واقتصارهم على القوانين والدعاوي والأوضاع التي وضعوها لأنفسهم وإلا فلو قرؤوا كتاب الله وعملوا بما فيه ورجعوا عند الاختلاف إليه لوجدوا فيه الهدى والشفاء والنور، ولكن نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمَّنًا قليلاً فبئس ما يشترون، وتقدم الكلام على بقية الآية.



الشَّرْح

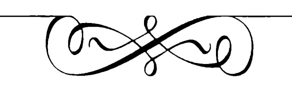
بعض الطوائف من المُتَصوّفَة يستخدمون السّحر، ولقد رأينا بعضهم يأتي في مجمَعَ من المريدين ويقوم في وسطهم وهو يرقص ويتمايل، ويأتي بالسكين ويضعها في جسمه ويخرقه ولا ينزل الدم، فيقول هذه من كرامات الشَّيْخ! ، أيُّ كرامةٍ هذه؟ ولهم أعمال كثيرة على هذا النوع، وفي عهد ابن تَيميَة رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان هناك طائفة تسمى البطحية، كان يأتي الشَّخْص منهم فيُدهن بدهان معين ويدخل النَّار ولا يؤثر فيه النَّار، فابن تَيميَة رَحِمَهُ ٱللَّهُ راهنهم على أن يدخل النَّار هو ووليهم بشرط أن يغتسلوا بمادة تبعد الزيت عن أجسامهم، فرفضوا! يضع مادة على جسمه ثمَّ يدخل النَّار، والنَّاس يظَنون أنَّ هذه كرامة، فيستخدمون السّحر ويستعينون بالجنَّ، والنَّاس يظَنون أنّ هؤلاء أصحاب كرامة، فالحَقّيقة

أنَّهم أصحاب كذب ودعاوىٰ باطلة، والذي يتطلع علىٰ سيرهم لا يرىٰ فيهم أخلاقَ المسلمين، فكَيْفَ يكونون أولياء؟ بل كَيْفَ يستغاث بهم إذا كانت أخلاقُهم وسلوكهم لا تثبت إسلامَهم؟ لأنَّ الإسلام لا يثبت إلا بعلامات، أولاها: إقامة الصلاة وصيام رمضان، وإيتاء الزكاة، وحج بيت الله، وهؤلاء لا يصلون ولا يصومون ولا يحجون، فكَيْفَ يزعمون أنَّهم أولياء الله؟ فالولاية لا تُنال إلا بطاعة الله، لا تُنال بمعصية الله، وكل دعوىٰ لم يكن عليها نَبيّنا ﷺ فإنَّها دعوة باطلة؛ لأنَّ نَبيّنا ﷺ هو القدوة هو النُموذَج والإسلام، ليس هناك إسلامات جديدة بأن يأتي في كل عصر إسلام غير الإسلام الأول، لكن النَّاس عندما يرون بعض المخاريق وبعض الأعمال ينخدعون، لَكنَّهم لو قرءوا القُرْآن والسنَّة وسيرة النَّبي ﷺ ما انخدعوا، لكن هؤلاء مُقَصّرون عن هذه الأصول، فلا يأخذون علومهم إلا من مشايخهم ومتبوعيهم.

قوله: (**واعلم أن الضلال والكفر إنَّمَا استولىٰ علىٰ أكثر المتأخرين بسبب نبذهم كتاب الله. . .**) يشير رَحِمَهُ الله إلىٰ السبب في وجود هذا الإنحراف، وهو أنَّهم نبذوا كتاب الله ولم يقرءوه، وإن قرءوا قرءوا فقط للبركة لا لفهمه، وإلا فالقُرْآن الكَريم يُبَيْنَ أن الأمر كله بيد الله، فلا يدعىٰ إلا الله ولا يستغاث إلا به، والقُرْآن يُبيّنَ مكانَ رَسُول الله ﷺ وأنَّه لا يعلم الغَيْب ولا ينفع ولا يضر، فإذا كان سيدُ البَشَر لا ينفع ولا يضر ولا يعلم الغَيْب فغيره من باب أولىٰ، لكن الذي يقرأ في تراجم من يسمونهم الأوْلِيَاء يرىٰ عجبًا! حَقّ الله بكامله أصبح بيدي هؤلاء الأوْلِيَاء! ! وقد سبق أنَّ بعضهم يقول: أنَّه لا تتحرك ذرة في الأرض ولا في السَّمَاء إلا بعلمي، فقال الثاني: لا تتحرك ذرة في الأرض ولا في السَّمَاء إلا بإذني. ماذا بقي للخالق جَلَّ وَعَلَا؟! ، هذا كلامهم ويزعمون أنَّهم أولياء، ويصنف طبقات الأوْلِيَاء في بيان كرَامَات هؤلاء كما يزعمون، والذي يقرأ

الكلام عن هؤلاء الأشخاص يراهم يعلمون الغَيْب وما في الصدور وما يقع في البلدان وماذا يقال عنهم في القرىٰ البعيدة، بل بعضهم يطير في الهواء وكل ذلك كذب ودَجل.

لكن كل طائفة تنافس الطائفة الأخرىٰ، هؤلاء رفاعية، وهؤلاء نقشبندية، وهؤلاء تيجانية، وهؤلاء جيلانية، وهكذا كل طائفة تحاول أن تبرز زعيمها أفضل من الآخرين، بل عند التيجانية وهي طائفة في أفريقيا يزعمون أنَّه لا يدخل الجنَّة إلا من كان في دائرة التيجَانية، وبلغ بهم قلة الأدب مَعَ الله ورَسُوله ﷺ أنَّهم زعموا أن هناك صلاة تسمىٰ صلاة الفاتح، وهي عبارة عن أربعة أسطر هي خير من قراءة القُرْآن ستة آلاف مَرَّة! ! وزعموا أنَّه لا يدخل الجنَّة إلا من كان تيجانياًّ! وأن التيجاني لو زنىٰ بامرأة غير تيجانية دخلت الجنَّة بفضل زناها له! ! ؛ لأنَّه احتك جسمها بجسمه! ، فالذي يقرأ كلامهم يرىٰ عجباً! لا يرىٰ إسلاماً بل كفراً وإلحاداً، ومَعَ ذلك يكون هؤلاء أولياء وصالحين، ويتبركون بذكرهم، ويدعونهم من دون الله، وهذا جهل بدين الله، القُرْآن نزل لتعظيم الله وتعبيد النَّاس كلهم لله، ليس في النَّاس من يستحَقّ أن يُعبد من دون الله، لكن عندما تنتشر الخرافةُ بَيْنَ هم وتعمق ويتوارثونها جيلاً بعد جيل فإن الحَقّ يضيع في غمَرَّة الجهل والبعد عن كتاب الله.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال المؤلف: قال أبو العباس: نفىٰ الله عما سواه كل ما يتعلق به المُشركون، فنفىٰ أن يكون لغيره ملك أو قسط منه أو يكون عونـًا لله، ولم يبق إلا الشَّفَاعَة، فبيَّنَ أنَّها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب كما قال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]، فهذه الشَّفَاعَة التي يظَنها المُشركون هي منتفية يوم القيَامة كما نفاها القُرْآن. وأخبر النَّبي ﷺ (أنَّه يأتي فيسجد لربه ويحَمدَه لا يبدأ بالشَّفَاعَة أولاً ثمَّ يقال له: ارفع رأسك وقل يسَمَعَ واسأل تعط واشَفَع تشَفَع).

وقال له أبو هريرة: من أسعد النَّاس بشفاعتك؟ قال: (من قال لا إله إلا الله خالصـًا من قلبه)، فتلك الشَّفَاعَة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولاتكون لمن أشرك بالله، وحَقّيقته أن الله سُبحانَه هو الذي يتفضل علىٰ أهل الإخلاص، فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يَشفَع ليكرمه وينال المقام المحمود، فالشَّفَاعَة التي نفاها القُرْآن ما كان فيها شرك، ولهذا أثبت الشَّفَاعَة بإذنه في مواضع، وقد بَيْنَ النَّبي ﷺ أنَّها لا تكون إلا لأهل التَّوحيد والإخلاص انتهىٰ كلامه.

الشَّرْح

قوله: (فهذه الشَّفَاعَة التي يظَنها المُشركون هي منتفية يوم القيَامة كما نفاها القُرْآن) هذه الشَّفَاعَة الشركية يوم القيَامة منتفية؛ لأنَّ الشَّفَاعَة لا تكون إلا لمن لم يكن مشركـًا كما سيأتي.

قوله: (أنَّه يأتي فيسجد لربه ويحَمدَه. . .) هذا حديث الشَّفَاعَة جزء منه وسيأتي بأطول من هذا إن شاء الله. هذه الجملة هي من كلام شيخ الإسلام ابن تَيميَة رَحِمَهُ اللَّهُ وهو الكلام الذي صدره المؤلف بقوله: قال أبو العباس، وهذه الجملة بكاملها سيشرحها الشارح فقرة فقرة.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

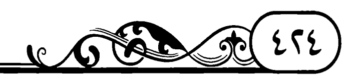
ش: قوله: (قال أبو العباس) هو شيخ الإسلام تقي الدِّين أَحَمدَ بن عبد الحليم بن عبدالسلام بن تَيميَة الإمام المشهور صاحب المُصَنّفات، شهرته وأمامته في علوم الإسلام وتفننه تغني عن الإطناب في وصفه. قال الذهبي: لم يأت قبله بخمسمائة سنة مثله، وفي رواية بأبعمائة، وقال أيضًا: لو حلفت بَيْنَ الركن والمقام لحلفت أني لم أر مثله وما رأىٰ بعينيه مثل نفسه ﵀. وقال ابن دقيق العيد: لما اجتمعت بابن تَيميَة رأيت رجلاً كل العُلُوم بَيْنَ عينيه، يأخذ ما يشاء ويدع ما يشاء، وبالجملة فما أتىٰ بعد عصر الإمام أَحَمدَ له نظير، وكانت وفاته سنة ثمَّان وعشرين وسبع مئة.



الشَّـرْح

هذا موجز لترجمة شيخ الإسلام ابن تَيميَة ﵀ وإلا فإن ترجمته ترجمة حافلة بذكر فضائله وذكر صفَاته وعلومه، والذي يطلع علىٰ كتبه يرىٰ شخصًا عجيبًا ذا حساسية شديدة وذا صفاء عجيب، لا يكاد يجد مثله فيمن عاصره أو من جاء بعده، فإنَّه ﵀ له حساسية شديدة جداً في التَّوحيد وفي مسائل الدِّين؛ لأنَّه في القرن السابع وقد بدأ انحطاطُ الأُمَّة إلىٰ درجة رهيبة جداً، وقد ظهر ﵀ في عصر كثرت فيه الفتن والبدع والإنحرافات حتىٰ امتزجت هذه البدع بكل علوم الإسلام، فظهرت في الفقْه قوانين، وفي الاعتقاد ظهر قوانين، ولا تكاد تجد فناً من فنون الإسلام إلا وقد دخلت فيه شوائب.

فقام ﵀ ودعا إلىٰ العودة إلىٰ الكتاب والسُّنة، فألف في بيان الأخطاء في عصره، وردَّ علىٰ جميع الطوائف، فردَّ علىٰ الفلاسفة بكتاب اسمه (الصفَدية)



وردَ علىٰ الشيعة الرافضة في (منهَاج السُّنة) في تسعة مجلدات، ورد علىٰ المتكلمين المُعْتَزلَة والأشَاعرَة في كتاب (تعارض العَقْل والنَّقْل) في عشر مجلدات تقريباً، وقد بدأه بأن ذكر القانون الذي جعله المتكلمون قانوناً لفهم الاعتقاد في الدِّين وتركوا القانون الإسلامي، فقالوا: إذا اختلف العَقْل والنَّقْل قدمنا العَقْل، أي: إذا جاء الدليل من القُرْآن والسنة وهما متناقضان قدَّموا العَقْل؛ لأنَّهم يزعمون أن العَقْل لا يكذب، فجاء ابن تَيميَة رَحِمَهُ اللَّهُ وفصل قال: إذا تعارض العَقْل والنَّقْل فلا يخلو من أربعة أحوال: إمَّا أن يكون النَّقْل صَحيحاً، فإذا كان النَّقْل صَحيحاً عرفنا أن النَّقْل هو المقدم، أو أن يكون النَّقْل ضَعيفاً لم يصح، فنقدم العَقْل؛ لأنَّه قطعي، وإمَّا أن تكون المسألة في النَّقْل قطعية وعند العَقْل قطعية فقال: لا يمكن أن تكون المسألة قد صحَّت بالدليل وعقلُ جميع النَّاس يردُها؛ لأنَّه إذا كانت المسألة قطعية بالنص ما يمكن أن يكون العَقْل يردها أبداً، **هذا الحال الأول**.

الحال الثاني: أن تكون المسألة ظَنية عند النَّقْل والعَقْل قال: هذه تبقىٰ مسألة اجتهادية وقدّم أيهما يكون أرجح.

الحال الثالث: أن تكون المسألة في النَّقْل قطعية وعند العَقْل ظَنية قال: نقدم القطعي.

الحال الرابع: أن تكون عند العَقْل قطعية وعند النَّقْل ظَنية نقدم القطع لا لأنَّها عقلية أو نقلية. فقال: يستحيل أن تكون هناك مسألة يتعارض فيها العَقْل والنَّقْل تعارضاً لا ترجيح لأحدهما قال: هذا يستحيل لكن العَقْل قد يجهل؛ لأنَّ الإسلام لا يأتي بما تحيله العقول، إنَّمَا يأتي بما تحار فيه العقول؛ لأنَّ علمَ الله أوسع، ولا يمكن للعلم البَشَري أن يكون مساوياً لله عَزَّ وَجَلَّ؛ فعندئذ يُسلِّمُ العَقْل للنقل.

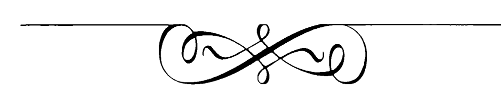
أَمَّا هؤلاء قالوا: إذا تعارض النَّقْل والعَقْل قدَّمنا العَقْل، فيقال لهم: عقل من يقدم؟ وهذا قد تبناه في العصر الحاضر مُحَمَّد عبده والمدرسة العَقْلية وقال: عقل من يقدم؟ عقل فلان أو فلان، عقل الجبائي أو عقل العلاف أو عقل الجاحظ أو عقل من من زعماء الاعتزال أو غيرهم يقدم؟ المشكلة أن هذه القاعدة قررها وقعدها المُعْتَزلَة وجاء الأَشَاعرَة بعدهم وأخذوها، والذي يطلع علىٰ عقائد المُعْتَزلَة والأَشَاعرَة يرىٰ أن الأَشَاعرَة قاموا في الظاهر للرد علىٰ المُعْتَزلَة لكن أصبحت معتقدات الأَشَاعرَة صورة لمعتقدات المُعْتَزلَة، وهناك رسالة علمية للدكتور منيف العتيبي بعنوان (أثر الفكر الاعتزالي في عقائد الأَشَاعرَة ـ عرض ونقد) وبَيَّنَ أنَّ عقائد الأَشَاعرَة هي صورة لعقائد المُعْتَزلَة تَمَاماً حرفاً بحرف، إذاً لماذا قاموا؟ لبعض المسائل المفردة خالفوا فيها، فكتاب تعارض العَقْل والنَّقْل رد علىٰ هؤلاء الذين قدموا العَقْل علىٰ النَّقْل.

وكذلك ردَّ علىٰ النَّصَارَىٰ في كتابه العظيم (الجواب الصَحيح لمن بدل دين المسيح)، وكل طائفة خصها بكتاب أو كتب فنافح في جميع المجالات، ثمَّ عنده رَحِمَهُ اللهُ حساسية شديدة جداً، فتراه حساساً جداً في قضية صفاء الاعتقاد، والذي يقرأ كلامه ثمَّ يقرأ في كلام الآخرين من الذين تأثروا بالفلسفة والمنطق اليوناني يرىٰ البون شاسعاً، يرىٰ فهماً قرآنياً يقابله فهم منطق فلسفي، الإسلام قد خلط بقواعد الفلسفة، لا يخلو كتاب من كتب المتكلمين الأَشَاعرَة والمَاتريديَّة من تأثر بالمنطق والفلسفة، لكن من يقرأ كلام ابن تَيميَة رَحِمَهُ اللهُ يرىٰ صفاء الإسلام، قال الله وقال رَسُوله، يقول مؤلف كتاب الأعمال الكاملة، صاحب المطبعة المنيرية: درسنا في الأزهر في العقيدة ستة أشهر في نصف صفحة، نصف صفحة مكثوا فيها ستة أشهر، يفكون رموزها؛ لأنَّ كلها رموز

وإشارات، أيُّ عقيدة هذه؟! هذا الدِّين جاء سهلاً، كما يقول الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: دين أمي يقرؤه العالم ويَسمَعه الجاهل، ويسمعه كل إنسان فيفهمه، يبقىٰ مسائلُ تفاضلٍ في العلْم، لو كان بهذه الصعوبة وهذا التعقيد ما أحد عبد الله عَزَّوَجَلَّ، ومَنْ منَ النَّاس قرأ في كتب المتكلمين ثمَّ أسلم؟ ، المتكلمون أنفسهم عند الموت يكونون أكثر شكاً في دينهم؛ لأنَّ هذه علوم مخلوطة بَيْنَ الإسلام السماوي الإلهي وبَيْنَ المذاهب البَشَرية، مثل الذي يزعم أن الإسلام دين ديمقراطي أو دين رأسمالي أو دين اشتراكي، يريد أن يجمَعَ بَيْنَ مذهب البَشَر ودين رب العالمين، كالذي يأتي بدراجة ويركبها في مرسيدس كبيرة!. دين الله رب العالمين عظيم، يُركَّب من مذاهب بشرية، ومرت بالامة فترة ضعف، منهم من سمىٰ اشتراكية الإسلام، ومنهم من قال ديمقراطية الإسلام؛ لأنَّ هؤلاء انبهروا بهذه المذاهب التي ظهرت في عصرهم، فأرادوا أن يُبينُوا أن الإسلام فيه هذه الأشياء، وفي كل عصر كل مذهب جديد نُركبُه في الإسلام، الإسلام هو الإسلام يبقىٰ إلىٰ قيام الساعة، لكن النَّاس عندما ينحرفون عن دينهم وينخدعون بالمصطلحات والمذاهب الجديدة يريدون أن يثبتوا أن الإسلام فيه هذه الأشياء حتىٰ يرغبوا النَّاس، كما قال معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّه يأتي في آخر الزمان قوم يقرءون القُرْآن ثمَّ يدعون النَّاس إلىٰ ما يريدون فلا يتبعون، فيقولون ما نراهم يتبعوننا إلا إذا أحدثنا لهم بدعًا، فيبتدعون لهم بعض البدع حتىٰ يرغبوهم في هذا الدِّين. وهذا انحراف، الإسلام يبقىٰ هو الإسلام في بساطته وسهولته وقربه.

فهذا العالم رَحِمَهُ اللَّهُ في عصره أبان الله به وطهر الله به ما شاب الإسلام من الشوائب، فأصبحت كتبه مرجعًا لمن أراد أن يفهم الإسلام الفهم السلفي الصَحيح، أمَّا الذي يقرأ كتب المتكلمين لا يرىٰ فيها إلا خلطًا من الفلسفة

والمنطق، لكن عندما تقرأ كتبه رَحِمَهُ اللَّهُ ترىٰ أن هؤلاء فهموا الإسلام فهماً خاطئًا، وقرروا قواعد كثيرة تخالف القُرْآن والسنة؛ لأنَّهم لم يستقوا العُلُوم من المصدرين، فهذا العالم رَحِمَهُ اللَّهُ كان له فضل بعد الله في جمَعَ عقيدة السلف وشرحها وبيانها، وكان في كل فن يتكلم فيه كأنَّه لا يجيد غيره، إن تكلم في الفقْه فكأنَّه من كبار الفقْهاء، وإن تكلم في التفسير فكان عجباً، وفي الحَديث كان قوياً لاستحضار الأدلة، حتىٰ قال بعضهم: كل حديث لا يعرفه ابن تَيميَة فليس بحديث لشدة إحاطته بمتون الأَحَاديْث، فقيده الله في عصره، وأصبح كل من جاء بعده يريد الحَقّ والاتباع يتأثر بكلامه ومنهجه، لكن لا أي: هذا أنَّه لا يخطئ، هو كان علماً وجبلاً، وكان عملاقاً، لكن يبقىٰ بشراً لا يُقدَّس، ولا يؤخذ قوله بدون دليل، لا هو ولا غيره، وهذا منهج المسلم؛ لأنَّه يعبد الله لا يعبد الأشخاص، فليس كل مسألة يقررها ابن تَيميَة تكون حَقّاً، لَكنَّه كان عملاقاً، وكان أعجوبة في فهمه للقرآن والسنة، ولهذا قل أن ترىٰ في كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ كلأمَّا مخالفاً، لكن نريد أن نركز أن بشرية الإنسَان لا تنفك عنه، ما الذي أوقع المسلمين في الانحراف والشرك التقديس، الصوفية قدسوا زعماءهم، والشيعة قدسوا من زعموهم أئمة، وهكذا كل طائفة تقدس زعماءها، وتنفرد بشركيات عن بقية الطوائف.



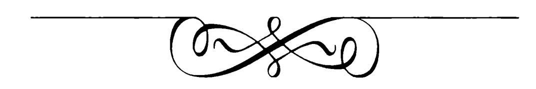
قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المُشركون)، أي أن الله تَعَالَىٰ نفى في الآية المذكورة قبل ما يتعلق به المُشركون من الاعتقاد في غير الله من الملك والشركة فيه، والمعاونة والشَّفَاعَة، فهذه الأمور الأربعة هي التي يتعلق بها المُشركون، قوله: (فنفى أن يكون لغيره ملك) وذلك في قوله تَعَالَىٰ: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [سبأ:٢٢]، ومن لا يملك هذا المقدار فليس بأهل أن يُدعىٰ.



الشرح

قوله: (ومن لا يملك هذا المقدار فليس بأهل أن يُدعىٰ) هذا أول صفة ليست فيمن يدعىٰ من دون الله، فالذي يدعىٰ من دون الله لا يملك مثقال ذرة، لا يملك مَعَ الله في كونه أحد، لا المَلَائكَة ولا الأَنبياء ولا الصَّالحُون ولا الشهداء، فالذي لا يملك كَيْفَ يدعىٰ؟ ، كَيْفَ يستغاث به؟ ، كَيْفَ يستشَفَع به؟ ، فهو مملوك، وتصرفاته محدودة، ولابد أن يؤذن له من المالك جَلَّ وَعَلَا، ومن كان هذا حاله فلا يستحَقّ أن يدعىٰ ولا يستغاث ولا يستشَفَع به من دون الله.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (أو قسط منه)، أي من الملك، والقسط بكسر القاف هو النصيب من الشيء، وذلك في قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أي ما لمن تدعون من المَلَائكَة وغيرهم فيها أي في السموات والأرض من شرك، ومن ليس بمالك ولا شريك للمالك فكَيْفَ يدعىٰ من دون الله؟.

قوله: (أو أن يكون عونـًا لله)، وذلك في قوله: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ أي ما لله ممن تدعونهم معين.



النفي الأول: نفىٰ أن يكون له ملك مستقل أي: ليس لهم ملك خاص بهم، قد يقول شخص أنَّهم مشاركون مَعَ الله، فجاءت الآية: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ لا ملك مستقل ولا ملك مشترك مَعَ الله ﷻ.

قولـه: (أو أن يكـون عونـًا لله) هـذا المرتبـة الثالثـة؛ لأنَّ النَّـاس يَقيسـون الخالقَ علىٰ المخلوق، فقد يكون مالكـًا، فنفىٰ الله الملـكَ، قـد يكـون شـريكـًا، فليس له شرك، قد يكـون مُعينـًا، مثـل الملـوك والرؤسـاء يعينهم علىٰ ملكهـم وتنفيـذ أمـرهم مـن لـديهم مـن الجنَّـود والعسكر، وإلا فلـو تمـرد هـؤلاء ولـم يطيعوهم ما استطاعوا أن يُنفـذُوا أمـراً، فقاسـوا المستشَـفَعَ بهـم عنـد الله بالـذين يعينون الملوك علىٰ تنفيذ أمرهم، فاعتقدوا أن هؤلاء لهـم إعانـة مَـعَ الله، وهـذا أيضـًا مَنفي، فلا هم يملكون، ولا يشاركون، ولا يعينون، فبقيت الشَّفَاعَة.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (ولم يبق إلا الشَّفَاعَة فبَيْنَ أَنَّها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب) إلخ، جملة الشروط التي لا بد وأن يكون أحدها في المدعو أربعة حتىٰ يقدر علىٰ إجابة من دعاه:

الأول: الملك: فنفاه بقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾.

الثاني: إذا لم يكن مالكًا فيكون شريكًا للمالك، فنفاه بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾.

الثالث: إذا لم يكن مالكًا ولا شريكًا للمالك فيكون عونًا ووزيراً، فنفاه بقوله: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

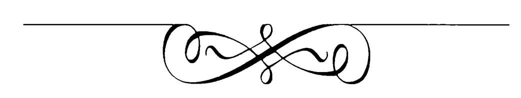
الرابع: إذا لم يكن مالكًا ولا شريكًا ولا عونًا فيكون شفيعًا، فنفىٰ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الشَّفَاعَة عنده إلا بإذنه، فهو الذي يأذن للشافع ابتداء فيَشْفَع، فبنفي هذه الأمور بطلت دعوة غير الله، إذ ليس عند غيره من النَّفْع والضُّر ما يوجب قصده بشيء من العبَادة، كما قال تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان:٣٠]، وقال تَعَالَىٰ: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [يس:٧٤، ٧٥].





الشَّرْح

قولـه: (ولـم يبـق إلا الشَّـفَاعَة) هـذه الشَّـفَاعَة آخـر شـيء، فـإذا كـانوا لا يملكـون، ولا يشـاركون، ولا يعينـون، قـد يكـون يَشـفَعون، لكـن قـد يكـون لـه شَفَاعَة وجاهة عند الله، فنفاها الله -عَزَّ وَجَلَّ-، الوجَاهة خاصة بالأنبياء والصَّالحين ولمن لم يكن مشركًا، وهذه في الآخرة ليست في الدُّنيَا، وسيذكر الأربعة أشياء وراء بعضها.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال تَعَالَىٰ: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾ [الفرقان:٥٥].

قوله: (فهذه الشَّفَاعَة التي يظَنها المُشركون هي منتفية يوم القيَامة كما نفاها القُرْآن)، أي: أن الشَّفَاعَة التي يطلبها المُشركون من الشُفَعاء والأنداد من دون الله منتفية دنيا وأخرىٰ، كما قال تَعَالَىٰ عن مؤمن يس: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يس:٢٣، ٢٤].

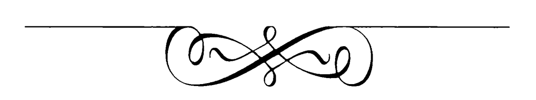
وقال تَعَالَىٰ عن مؤمن آل فرعون: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [غافر:٤٣]، وقال تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ [الأحقاف:٢٨]، وقال تَعَالَىٰ: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ [هود:١٠١].

وقال تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الأنعام:٩٤]، وقال تَعَالَىٰ: ﴿ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴾ [القصص:٦٤].



الشَّرْح

كل هذه الآيَات تقرر هـذا المعنىٰ أن هـؤلاء أخطئوا في تعلُّقهـم ودعـواهم الشَّفَاعَة لمخلوقات الله ﷻ، سواء كانوا من المَلَائكَة أو من الأموات، من البَشَر الميتين أو من غيرهم، فهؤلاء كلهم شفاعتهم مَنفية.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فهذه حال كل من دعي من دون الله لشَفَاعَة أو غيرها في الدُّنيَا والآخرة.

قوله: (وأخبر النَّبي ﷺ: (أنَّه يأتي فيسجد لربه ويحَمدَه) لا يبدأ بالشَّفَاعَة أولا) إلىٰ آخره، هذا ثابت في الصَحيحين وغيرهما من حديث أنس وغيره عنه ﷺ في حديث الشَّفَاعَة قال: (فأقوم فأمشي بَيْنَ سماطين من المؤمنين، حتىٰ أستأذن علىٰ ربي، فإذا رأيته وقعت له أو خررت ساجداً لربي، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثمَّ قال: ارفع مُحَمَّد، قل يسَمع، واشَفَع تشَفَع، وسل تعطه، فأرفع رأسي فأحَمدَ بتحميد يعلمنيه، ثمَّ أشَفَع فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنَّة ثمَّ أعود إليه الثانية، فإذا رأيت ربي وقعت له أو خررت ساجداً لربي، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثمَّ يقول ارفع مُحَمَّد، قل يسَمَعَ سل فتعطه، واشَفَع تشَفَع، فأرفع رأسي فأحَمدَه بتحميد يعلمنيه، ثمَّ أشَفَع فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنَّة، ثمَّ أعود الثالثة فإذا رأيت ربي وقعت له أو خررت ساجداً لربي، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثمَّ يقال: ارفع مُحَمَّد، قل يسَمع، وسل تعطه، واشَفَع تشَفَع، فأرفع رأسي، فأحَمدَه بتحميد يعلمنيه، ثمَّ أشَفَع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنَّة، ثمَّ أعود الرابعة، فأقول: يا رب ما بقي إلا من حبسه القُرْآن) الحَديث. فبَيْنَ ﷺ أنَّه لا يَشَفَع إلا بعد الإذن في الشَّفَاعَة، وفي المشفوع فيهم، كما قال: (فيحد لي حداً فأدخلهم الجنَّة).

الشَّرح

قوله: (فهذه حال كل من دعي من دون الله لشَفَاعَة أو غيرها في الدُّنيَا والآخرة) هذا هو نهاية الحَديث عن هذه الشَّفَاعَة، قلنا السبب في ضلال من ضلَّ أنَّها تعلقت قلوبهم بغير الله، واعتقدوا أنَّهم ينفعونهم أو يعينونهم لقضاء

حوائجهم، أو يَشفَعون لهم عند الله يوم القيَامة، فبَيْنَ لهم القُرْآن أن هؤلاء لا يملكون شيئًا، لا في الدُّنيَا ولا في الآخرة، فهذه الشَّفَاعَة المنفية، وسيذكر الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ بعد ذلك الشَّفاعَة المُثبَتة.

قوله: (وأخبر النَّبي ﷺ...)، هذا الحَديث في الحَقّيقة حديث عظيم، وهو أطول ممَّا ذكره رَحِمَهُ اللَّهُ، فإنَّه تحدث عما يقع يوم القيَامة من الحوادث العظيمة، وفي بداية الحَديث: أنَّه ﷺ كان مَعَ أصحابه علىٰ طعام وكان يحب الذّراع، فأخذ الذّراع فنهسَ منه نهسَةً، ثمَّ قال: (أنا سيد ولد آدم يوم القيَامة)[١] ثمَّ قال - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: (إن النَّاس يوم القيَامة يجتمعون، وينزل بهم من الكرب الشديد ما يجعله يبحثون عمن يَشفَع لهم، فيقولون: ألا ترون ما بلغ بكم، ألا تذهبون إلىٰ من يَشفَع لكم إلىٰ ربكم فيُحَاسبكم، فيذهبون إلىٰ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فآدم يعتذر، ثمَّ يذهبون إلىٰ نوح، ونوح يعتذر، ثمَّ يذهبون إلىٰ موسىٰ، وموسىٰ يعتذر، ثمَّ يذهبون إلىٰ إبراهيم، أو إبراهيم قبل موسىٰ، فيعتذر، ثمَّ عيسىٰ فيعتذر، كلهم يعتذرون، ثمَّ يأتون إلىٰ نَبيّنا ﷺ، فيقول: أنا لها، أنا لها)[٢] وهذا هو المقام المحمودُ الذي وُعدَ به عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لكن لا يَشفَع الرَسُول ﷺ قبل أن يَستأذن؛ لأنَّه أمام رب العالمين عَزَّ وَجَلَّ، ليس أمَام بشرٍ أو مخلوق، المقامُ مقامُ عبدٍ أمام ربٍ، فيأتي ﷺ، فيذهب فإذا رأىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ؛ يسجُد. أي: يضع جبهته علىٰ الأرض، تواضعًا وتذللاً وخضوعًا لخالقنا رب العالمين مالك الكون،

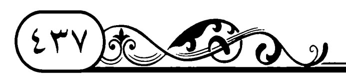
---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الشَّيْخان، صَحِيح البخاري، كتاب التَّوحِيد، باب كلام الرب عَزَّ وَجَلَّ يوم القِيَامة مَعَ الأَنبِياء وغيرهم، برقم: (٧٥١٠)، صَحِيح مسلم، كتاب الإيمان، باب أدنىٰ أهل الجِنَّة منزلة فيها، برقم: (١٩٣)، (١/ ١٨٠).

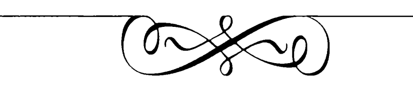
العَزِّيز القهار ﷻ، لا مقارنة ولا مقابلة بَيْنَ نَبيّنا ﷺ وبَيْنَ خالقنا ﷻ، اللثه خالق الوجود ومالك الكون العظيم المتعال، ومُحَمَّد ﷺ عبد من عباده، ولَكنَّه أشرف العبَاد، لَكنَّه عبدلإ لا ينفك عن عبوديته، فيأتي فيسجد، ثمَّ يطيل السُجُود، ويلهمه الله محامد يحَمَدُه بها، قال: (**ألهم محامد لا أعرفها الآن**) أو كما قال ﷺ، تكون محامد جديدة يلهمه إياها، ثمَّ بعد أن يذكر الله ويحَمَده يقول له: (**يا مُحَمَّد ارفع رأسك**) أي من السُجُود، ثمَّ اسأل، فيسأل ويَشَفَع، وهو قد جاء يَشَفَع في الحسَاب.

لكن العجيب أن جميع الروايات في كُتب السُّنة لم تذكر شفاعته ﷺ في أهل الموقف، ويبدو ـ والله أعلم ـ أنَّ الرَّاوي قد اختزل الحَديث؛ لأنَّه انتقل من الشَّفَاعَة لأهل الموقف إلىٰ الشَّفَاعَة لأمته ﷺ، فيقول ﷺ: يا رب أمتي أمتي، وهو جاء يَشَفَع لأهل الموقف لينقذَهم من موقفهم، ليُحَاسبهم الله؛ لأنَّ الشَّمْس يوم القيَامة تدنو من رءوس الخلائق ويعرق النَّاس، ويصبحون في العرق بحسب أعمالهم، منهم من يصل العرق إلىٰ أذنيه، ومنهم من يكون إلىٰ كتفه، ومنهم من يكون إلىٰ إبطه، ومنهم من يكون إلىٰ حَقّويه، ومنهم من يكون العرق إلىٰ رُكبتيه، ومنهم من يكون العرق فقط إلىٰ كعبيه، بحسب المعاصي، فالذي معاصيه شديدة يبلغ العرق فمُه، والنَّاس في مكان واحد، وهذا العرقُ إلىٰ فمه، وهذا إلىٰ كعبه، ليس هناك نظام الأواني المستطرقة كما في العصر الحاضر، لابد أن يكون الماء كله في مقاس واحد، ويوم القيَامة لكل إنسان هيئة تدل علىٰ عمله، فالنَّاس يتضجَّرون، فيقولون: يا رب اقضي ولو إلىٰ النَّار، لشدة الموقف، فيأتي الله ليُحَاسب الخلائق، والله سريع الحسَاب، فالحَديث أسقط منه هذا المقطع، لا يذكر شفاعته ﷺ في أهل الموقف، إنَّما ينتقل؛ لأنَّه ظهر في التَّابعين من أنكر الشَّفَاعَة، فكان همَّ الصَّحابَة ﷺ أن يردوا



علىٰ من أنكر الشَّفَاعَة التي هي إخراج المُوَحَّدين من النَّار، رداً علىٰ المتعَزَّلة في عصرهم، فلعل الراوي كان همُّه أن يردَّ علىٰ هذه البدْعَة، فأسقط هذا المقطع.

قوله: (فيحد لي حداً) أربع مرات، اختلف العُلَماء في هذا الحد، القول الأول: أنَّه يقال: أخرج أصحابَ المعاصي كذا، مثلاً من كان يتأخر عن الجماعة في الصلاة، أو من كان مُفرطاً في أداء الصلاة، أو من كان مرتكباً لفاحشة الزنىٰ، أي: يذكرُ النَّاس بأعمالهم، القول الثاني: أنَّهم يحد لهم بحسب إيمانهم، أخرج من كان إيمانُه أربعين في المائة أو ثلاثين في المائة، والنَّار واضحة فيها النَّاس بحسب أعمالهم، القول الثالث: أنَّه يقال له: أخرج الطبقة الفلانية؛ لأنَّ النَّاس في النَّار علىٰ طبقات، وأعلاها أخف النَّاس معاصي، فيقال: أخرج أصحاب الطبقة الأعلىٰ، ثمَّ التي تحتها، وهكذا، لكن يُحد له حد، ما يستطيع أن يخرج غير هذا الحد، إذا انتهىٰ رجع، فسجد وحَمدَ الله، واستأذن وهكذا، إذا كان هذا موقف سيد البَشَر ﷺ في كل مَرَّة يستأذن ويسجد ويحَمدَ الله فكَيْفَ يقال أن هؤلاء يَشَفَعون عند الله بدون إذن وحتىٰ لو كان في الشرك، فهذا هو مراده رَحِمَهُ اللهُ من حديث الشَّفَاعَة.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (وقال أبو هريرة: (من أسعد النَّاس بشفاعتك؟) إلىٰ آخره) هذا الحَديث رواه البُخَاري ومسلم والنسائي.

عن أبي هريرة قال: (قلت: يا رَسُول الله من أسعد النَّاس بشفاعتك يوم القيَامة؟ فقال: لقد ظَننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحَديث أحد أول منك؛ لما رأيت من حرصك علىٰ الحَديث، أسعد النَّاس بشفاعتي يوم القيَامة من قال لا إله إلا الله خالصًا من قبل نفسه) وفي رواية: (خالصًا مخلصًا من قلبه أو نفسه) رواه أحَمدَ من طريق آخر وصححه ابن حبَّان، (وفيه: وشفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصًا، يصدق قلبه لسأنَّه ولسأنَّه قلبه) قال شيخ الإسلام: فجعل أسعد النَّاس بشفاعته أكملهم إخلاصًا.

الشَّرْح

هذا الحَديث ورد في صَحيح البُخَاري بألفاظه التي ذكرها هنا مَعَ بعض التعديلات، وأمَّا رواية الإمام أحَمدَ فسَندَها ضَعيف، لكن المعنىٰ هو الذي ثبت في الصَحيح، فأبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سأل النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن قضية الشَّفَاعَة، من هو أسعد النَّاس؟ أو من هو أولىٰ النَّاس بشفاعتك يوم القيَامة؟ فأخبر نَبيّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: أنَّ أسعد النَّاس، أي أولىٰ النَّاس بها المُوَحَّد الذي يكون قلبُه ليس فيه إلا الله، لا يلتفت يمينًا ولا شمالاً، التَّوحيد يغمرث جوانح قلبه، قلبه مملوء بتعظيم الله ومحبته، وبالخَوف منه، والرَّجاء فيما عنده، ويتعامل مَعَ النَّاس تعاملَه مَعَ الأموات؛ فإن وجود الشرك في القلب أو عدم الإخلاص؛ لوجود خلل في توحيد الربوبية، أي: أن تعتقد أنَّه يوجد مَعَ الله من يشاركه في تدبير هذا الكون، أو أن هناك من يؤثر علىٰ الله، أو أن الله -عَزَّ وَجَلَّ- لا يرحمُ إلَّا أن يُدفعَ للرحمة،

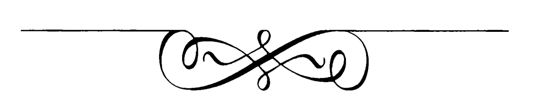
أو لا يَعلـم إلَّا أن يُعلَّـم، فيقـع في قلبـك أن تشـرك بـالله مـن تعتقـد فيـه بعـض الخواص، وبعض المؤثرات.

فهـذا الوجـود مـن خلـق الله ﷻ، شـجره، وحجـره، وإنسـانُه، وحيوانـه، وأرضه وسماؤه، خلق الله، لـم يشـارك الله أحد في خلـق الكـون، لا يوجد أحد من خلق الله يستطيع أن يشاركه في حفـظ شـيء مـن مخلوقاتـه؟. أنـت لـو رجـع تفكيرك إلىٰ الوراء عندما كنت في بطـن أمـك وأنـت جنين، مـن صـورك في هـذا المكان؟ من رعاك في هذا المكـان؟ مـن أخرجك بعـد أن اكتمـل خلقـك؟ الله، فـالله رعـاك وأنـت ضَـعيف ألا يرعـاك وأنـت أصبحت قويـاً؟ بلـىٰ. فـلا تُنـزل حاجتَـك إلا بـالله، ولا يقـعُ في قلبـك إشـراك بـالمخلوق، مَـن مـن المخلـوق يستطيع أن ينفعَ أو يضرُ بدون إذن من الله؟ ، فالإخلاص مطلـوب: (مـن قـال لا إله إلا الله مخلصـاً من قلبه) الإخلاص أي الصفاء، خلوص معتقدك، الخلوص هو أن لا يكون في قلبك غيرُ الله، والإنسَان ينبغي أن ينظر في هذا الوجـود، لكـن الله بيده الأسباب والمُسَببات.

فالقلب ينبغي أن لا يكون فيـه إلا الله ﷻ، لا ينبغـي أن يشـارك الله أحـد في قلبك، هذا الإخلاص هو الـذي ينَجّيك يـوم القيَامـة، حتـىٰ لـو جئـت بمعـاصٍ كثيرة، الإخلاص يحرق هذه الذنوب، لكن هل يجتمَـعَ الإخـلاص والـذنوب؟ نعم؛ لأنَّ الجهة مُنفَكَّة، الإخلاص أن لا تعمل الطاعات إلا لله، أمَّا المعصـية لا تحتاج نيةً، المعصية ضعف في الإنسَـان، والإنسَـان قـد يقـع في الخطيئـة، لكـن الأعمال الصالحة لا تعملها إلا ابتغاء وجه الله، فإذا ألـم بك أمـر أو حـدث، أول ما يقع في ذهنـك: اللهُ، لا ينبغـي أن يغيـب الله عـن ذهنـك، وأنـت في المنـزل وفي الشارع، وأنت في الصحة وفي المرض، وأنت في الفقر وفي الغنىٰ، إذا كان قلبـك مملوءاً بذكر الله؛ كل صعب يكون عليـك يسـيراً، وكـل فتنـة تنقلـب إلـىٰ نعمـة،

لكـن إذا ضـعف إيمانـك وتعلقـت بغيـر الله أصـبحت مُـوزَّع القلـب، مُـوزَّع الإحسـاس والمشـاعر، فتحـاول أن ترضـي كـل مـن تعتقـد أن لـه تـأثيراً، ولا تستطيع أن ترضيه، لهذا قال الشافعي ـ رَحِمَهُ اللَّهُ: " إرضاء النَّاس غاية لا تُدرك ".

كل شـيء تختلف فيـه الأهـواء، وتختلف فيـه المصـالح، فمـا تسـتطيع أن ترضي النَّاس، لكن تستطيع أن ترضي الله عَزَّ وَجَلَّ، فينبغي للإنسان أن يُخرج مـن قلبـه كـل مـا سـوىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ، وأن يتعامـل مَـعَ النَّـاس تعاملـه مَـعَ الجمـاد ومَـعَ الأحجار التي لا تُحرك ساكناً، بهذا تعيش مُطمئنَّ النَّفس، وتعلـم أن مـا وقـع عليـك لا يغير، ولـن يكـون إلا مـا وقـع، لا تقـل: لـو أني فعلـت كـذا وكـذا؛ لأنَّ الذي وقعَ لن يتغير، ولا تظَن أنَّه بإمكانـك أن تحتـاط هـذا هـو المقصـود الـذي قدره الله عليك، فإذا علمت أن الكون لا يسير إلا بإرادة الله عَزَّ وَجَلَّ، فقلبـك يكـون معلقـاً به، هذا الإخلاص نافع في الدُّنيَا ونافع يوم القيَامة.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال في الحَديث الصَّحِيح: (من سأل الله لي الوَسِيلَة حلَّت عليه شَفَاعَتِي يَومَ القِيَامَة)، ولم يقل كان أسعَد النَّاس بشَفَاعَتِي، فَعِلْم: إنَّما يَحصلُ للعبد بالتَّوحِيد والإِخلَاص من شَفَاعَة الرَّسُول ﷺ ما لا يحصل بغيره من الأعمال، وإن كان صالحًا؛ لسؤال الوَسِيلَة للرسول ﷺ، فكيف بما لم يأمر به من الأعمال، بل نَهىٰ عنه، فذلك لا يُنال به خيرٌ لا في الدُّنيَا ولا في الآخِرَة، مثل غُلُو النَّصارَىٰ في المسيح فَإِنَّه يضرهم ولا ينفعهم.



الشَّرْح

هذا الحَديث طرف من حديث في الصَّحِيح، وَرَدَت له ألفاظ، اللفْظ الأول أنَّه قال عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (إذا سمعتم المؤذن فقولوا كما يقول، ثُمَّ صلُّوا عليَّ، فَإِنَّه من صَلَّىٰ علي صلاة صَلَّىٰ الله عليه بها عشراً، ثُمَّ سلوا الله لي الوَسِيلَة، فَإِنَّها منزلة لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوَسِيلَة حلت له الشَّفَاعَة)[1] ليس فيه ماذا تقول. إنما تدعو الله له بالوَسِيلَة، اللَّفْظ الثاني وَرَدَ فيه ماذا تقول. وفيه: (من قال حين يسمع النداء: اللهم ربَّ هذه الدعوةِ التَّامة، والصلاة القائمة، آت مُحمَّداً الوَسِيلَة والفضيلة وابعثه مقامًا محموداً الذي وعدته)[2] هذا لفظ الصَّحِيح، في بعض نُسَخ البُخارِي (إنك لا تخلف الميعاد) لكن ابن حَجَر رَحِمَهُ اللَّهُ لم يعتد بهذه الرِّوَايَة، فمن زادها اعتماداً علىٰ وجودها في بعض نُسَخ البُخارِي فلا بأس، ومن وقف عند اللَّفْظ المتفق عليه فلا بأس،

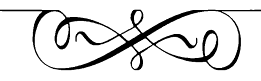
---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البُخارِي في صحيحه، كتاب الأذان، باب الدُّعَاء عند النداء، برقم: (٦١٤).

لكن هناك لفظ وَرَدَ زيادةً وهو " والدَّرجة الرفيعة "، وهذا خطأ من حيث اللَّفْظ؛ لَأنَّ الدَّرَجَة الرفيعة في الجَنَّة هي الوَسِيلَة؛ لأنه قال في الحَديث السابق: فَإِنَّها دَرَجَة في الجَنَّة، أو منزلة في الجَنَّة، فإن سألت الله للرسول ﷺ الوَسِيلَة فقد سألت له الدَّرَجَة الرفيعة التي في أعلىٰ الجَنَّة، فهي الوَسِيلَة والفضيلة.

فهناك لفظَان اللَّفْظ الأول لأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي قال: (من أسعدُ النَّاس) وهنا يقول: (من قال هذا حلَّت له شَفَاعَتِي)، لكن ليس أولَىٰ النَّاس؛ لَأنَّ الصَّلَاة علىٰ نبينا ﷺ، والدُّعَاء له بالوَسِيلَة عملٌ صالح يستحق به صاحبه الشَّفَاعَة، لكن ليس أسعد النَّاس بالشفاعة، إنما أسعدهم وأولاهم صاحب التَّوحِيد، ولهذا يقول الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ: هنا لم يقل: أسعدُ النَّاس، بل قال: حلَّت له شَفَاعَتِي،أي: يستحق الشَّفَاعَة، فالذي هو أولىٰ النَّاس بالشَّفاعة من قال لَا إِلَه إِلَّا الله مخلصاً من قلبه.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ونظير هذا في الصَّحِيح عنه ﷺ أنَّه قال: (لكل نبي دعوة مستجابة، وإني اختبأت دعوتي شَفَاعَة لأمتي يَومَ القِيَامَة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا) وكذلك في أحاديث الشَّفَاعَة كلها، إنما يشفع في أهل التَّوحِيد، فبحسب توحيد العبد لربه وإخلاصه دينه لله -تَعَالَىٰ- يستحق كرامة الله بالشفاعة وغيرها.

وقال ابن القيِّم ما معناه: تأمل هذا الحَديث كيف جعل أعظم الأسباب التي تنال بها شفاعته تجريد التَّوحِيد، عكس ما عند المُشرِكِين من أن الشَّفَاعَة تنال باتخاذهم شفعاء وعبادتهم وموالاتهم من دون الله، فقلب النَّبي ﷺ ما في زعمهم الكاذب، وأخبر أن سَبَبَ الشَّفَاعَة تجريدُ التَّوحِيد، فحينئذ يأذن الله للشافع أن يشفع، ومن جهل المشرك اعتقاده أن من اتخذه وليًا أو شفيعًا أنَّه يشفع له وينفعه عند الله، كما يكون خواص الملوك والولاة تنفع من والاهم، ولم يعلموا أن الله لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ولا يأذن في الشَّفَاعَة إلا من رضي قوله وعمله، كما قال -تَعَالَىٰ- في الفصل الأول: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وفي الفصل الثاني: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء:٢٨].

وبقي فصل ثالث وهو أنَّه لا يرضىٰ من القول والعمل إلا توحيده، واتباع رسوله ﷺ، فهذه ثلاثة فصول تقطع شجرة الشِّرْك من قلب من وعاها وعقلها انتهىٰ ملخصًا.

الشَّرْح

هذا الكلام منقول من كتاب (مدارج السالكين)لابن القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فَإِنَّه قد تحدث عن مسائل التَّوحِيد والشِّرْك كثيراً في هذا الكِتَاب، والشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَوَرَدَ ثلاثة أحاديث:

الحَديث الأول: (أنَّ أسعدَ النَّاس بشفاعتِه من قال لَا إِلَه إِلَّا الله مخلصًا من قلبه)[1].

والحَديث الثاني: (أنه من سَأل له الوَسِيلَة حلت له الشَّفَاعَة)[2].

والثالث: (أنه اختبأ دعوته شَفَاعَة لمن لم يشرِك بالله شيئًا من أمته)[3].

فكُلُّها على التَّوحِيد،الشَّفَاعَة خَاصَّة بالمُوَحِّدِين، فقال: عكس المُشرِكون الذين أشركوا الرُّسُل مع الله، وأشركوا الأَوْلِيَاء والصَّالِحين مع الله، فدعوهم من دون الله، واستغاثوا بهم من دون الله، وصرفوا حق الله لهم من دون الله، ويزعمون أنَّ هذا هو الذي يُرضي اللهَ، وهذا عَكس ما وَرَدَ في كلامِ الله جَلَّ وَعَلَا، وعكس ما وَرَدَ في سنة نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فإن القُرآن والسُّنَّة يركِّزان ويقرِّران أن الشَّفَاعَة لا يحصُل عليها إلا من كان مُوحِّداً.

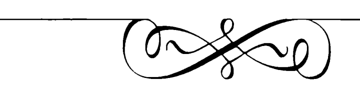
---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه آنفًا.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه بهذا اللَّفْظ الذي ساقه في المتن، كتاب الإيمان، باب اختباء النَّبِي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعوةالشَّفَاعَة لأمته، برقم: (١٩٩)، (١/ ١٨٩)، وفي البُخارِي معناه، كتاب الدعوات، باب لكل نبي دعوة مستجابة، برقم: (٦٣٠٤).

يقول ابن القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ هنا الفُصول الثلاثة: أولاً في الفصل الأول: أنَّه لا يَشفع عندَ الله إلا بإذنِه بخلاف الذين يقيسُون الله بالمُلوك والوُلاة، فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ: ومِن جَهلِ المُشركِ اعتقادُه أنَّ مَن اتخذه وَليـًا أو شَفيعـًا، أنَّه يشفَع له وينفعُه عند الله، كما أنَّ خواصَّ المُلُوك والولاة ينفعونَ من والاهم، هذا قياسٌ مع الفارق، فَإنَّهم عندما يرَون أنَّ المُقَرَّبين من أصحاب الجاه ينفعون من يستشفع بهم، ولو كان هذا المستشفع مخالفـًا، ولا يُحِبُّ المشفوع أو المستشفع إليه، فَإنَّه يصل إلىٰ حاجته عن طريقهم، أمَّا عند الله فيختلف، فالشرط الأول: أنَّه لا يشفع أحد عند الله إلا بإذنه، والشرط الثاني: أنَّه لا يشفعون إلا لمن ارتضىٰ الله عمله وقوله، أمَّا الذي لا يرضىٰ الله عنه فَإنَّه لا يشفع فيه، كما قال -تَعَالَىٰ -: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر:٤٨]. فلا تنفع الشَّفَاعَة إلا لمن كان مَرضياً عند الله، وإن كان صاحب مَعاصٍ، لكنَّه لما كان مُوحِّداً فَإنَّه عند الله مَرضيٌ عنه بتوحيدِه.



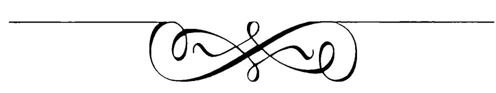
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال الحافظ: المُرَاد بهذهالشَّفَاعَة المسؤول عنها هنا بعض أنواعالشَّفَاعَة، هي التي يقول ﷺ: (أمتي أمتي) فيقال لـه، (أخـرج منالنَّـار مـن كـان في قلبـه وزن كـذا مـن الإيمـان)، فأسـعد النَّـاس بهذهالشَّـفَاعَة مـن يكـون إيمانـه أكمـل ممـن دونه،وأماالشَّفَاعَة العظمىٰ فالإراحة من كرب الموقـف، فأسعد النَّاس بهـا مـن يسبق إلىٰ الجَنَّة، وهم الذين يَدخُل ونها بغير حِسَاب، ثُـمَّ الـذين يلـونهم، وهـو من يَدخُل ها بغير عَذَاب بعد أن يحاسب ويستحق العَذَاب، ثُمَّ مـن يصيبه لفـح منالنَّار ولا يسقط.

الشَّـرح

هنـا يـذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنـواعَ الـداخِلين إلـىٰ الجَنَّـة، فهـم علـىٰ درجـات، الدَّرَجَـة الأُولَىٰ-: من يَدخُل الجَنَّـة بـدون حِسَـاب ولا عَـذَاب، وهـذا وَرَدَ في أحاديـث سـابقة منهـا حـديث السـبعين ألفـًا الـذين لا يكتَـوون، ولا يتَطَيـرون، ولا يَستَرقُون، وعلىٰ ربهم يَتوكَّلـون، ثُـمَّ جاء في أحاديث أخـرىٰ: أنَّ الله قـد زادَ في هذا العددِ، هؤلاء يَـومَ القِيَامَـة لا حِسَـاب علـيهم ولا عَـذَاب، وهـذا هـو كَمَـال التَّوحِيـد، صـاحبُ التَّوحِيـد الكامِـل لا يُحَاسـب ولا يُعَـذَب، لكـن إذا نَقَـص التَّوحِيد من القَلْب فنَقصُه علىٰ درجتين: نَقَص مـن كمالِـه المُستَحَب، ونَقصٌ من كمالِه الواجبِ؛ لَأنَّ الإنسَـان مطلـوب منـه أن يُكَمِّـل إيمانَـه، لكـنْ الإيمـانُ الواجبُ إذا نَقَص يستحق صاحبه العَذَاب، وقد يعفو الله عنه، وإذا نَقَصَ كمالُـه المُستَحَب فإنَّ هذا لا يَدخُل الجَنَّة مِن الوَهلَة الأُولَىٰ-، لابـدَّ لـه مـن حِسَـاب، لكـن الحِسَـاب في المُسلِمين هـو العَـرضُ، تُعـرَض عليـه أعمالُـه، لـيس تَـدقيق الحِسَاب، وإلَّا لو حُوسِب عُذب؛ لأنَّ مَعنَىٰ الحِسَاب أن يَذكرُ ما لـه ومـا عليـه،

فإن الإنسَان مهما عمِل فلا يستطيع أن يؤدي حق الله ﷻ، لكن هنا تعرض الأعمالُ عليه عرضًا، من باب بيان فضلِ الله عليه، ففي بعض الأحَادِيث أنَّ الله لا يعرِض عليه إلا صغارَ ذُنوبِه، ولا يَعرِض عليه كبارَ الذُّنُوب، فيَعجَب، فيأتيه الخبرُ بِأنَّ الله قد عفا عنها، فهذا يَدخُل الجَنَّة بعد الحِسَاب، وهناك أشخاصٌ يعذبون تعذيبًا خفيفًا، وهو ما يلحقهم في يوم الحشرِ من الخوف والقَلَق وكذلك يمشي علىٰ الصِّرَاط مَشيًا زاحفًا يَلحقُه بعضُ لفحِ النَّار، ثُمَّ يَنجو منها، وقد جاء في الحَديث: أنَّ آخرَ من ينجو من النَّار يلتفت إليها ويقول: الحَمْدُ لله الذي أنقذني منك، وهذا لا يدخل الجَنَّة إلا بعد فترةٍ، والنوع الرابع: يَدخُل الجَنَّة لكن بعد أن يسقط في النَّار، أي: يُمَحَّصُ، هؤلاء أصحاب الذُّنُوب الكثيرة من المُوَحِّدِين، هؤلاء هم الذين يشفَع فيهم يَومَ القِيَامَة، هذه الطبقة التي فيها المُوحِّدُون يخرج كل من فيها، فلا يبقىٰ فيها أحدٌ. بعض العُلَمَاء يُنزِّل كلامَ الإمام ابن تَيمِيَة والإمام ابن القَيِّم رحمهما الله علىٰ هذه الطبقة في قولهم: إنَّ النَّار لا يخلُد فيها أحد، فهؤلاء يُشفع فيهم، فهؤلاء طبقات دخول النَّاس إلىٰ الجَنَّة، أولهم من لا حِسَاب عليه، وثانيهم من يُعرِضُ عليه الحِسَاب لكن لا يُعذب، وثالثهم من يلحقُه لفحٌ من النَّارِ، ورابعُهم من يَدخُل النَّار التي هي نارُ العُصَاةِ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

واعِلْم أن شفاعته ﷺ في القِيَامَة ستة أنواع، كما ذكره ابن القَيِّم، الأول: الشَّفَاعَة الكبرىٰ التي يتأخر عنها أولو العزم عليهم الصَّلَاة والسلام، حتىٰ تنتهي إليه فيقول: أنا لها، وذلك حين يرغب الخلائق إلىٰ الأنْبِيَاء ليشفعوا لهم إلىٰ ربهم حتىٰ يريحهم من مقامهم في الموقف، وهذه شَفَاعَة يختص بها لا يشركه فيها أحد.

الثاني: شفاعته لأهل الجَنَّة في دخولها، وقد ذكرها أبو هريرة في حديثه الطويل المتفق عليه.

الثالث: شفاعته لقوم من العصاة من أمته، قد استوجبوا النَّار فيشفع لهم أن لا يَدخُلوها.

الرابع: شفاعته في العصاة من أهل التَّوحِيد الذين دخلوا النَّار بذنوبهم، والأحَادِيث بها متواترة عن النَّبِي ﷺ، وقد أجمع عليها الصَحَابَة وأهل السُّنَّة قاطبة، وبدعوا من أنكرها وصاحوا به من كل جانب، ونادوا عليه بالضلال.

الشَّرْح

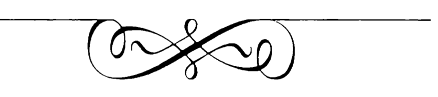
قوله: (واعِلْم أن شفاعته ﷺ في القِيَامَة ستة أنواع) هذه وَرَدَت بها الأحَادِيث الكثيرة الصَّحِيحة، وهي مما تواتَرت فيها الأحَادِيث، وهذه يُثبِتُها المُسلِمُوْن جميعًا ما عدا طائفتين: المُعتَزِلَة، والخَوَارِج، وأمَّا كلُّ المُسلِمِين فيثبتون الشَّفَاعَة الكُبرىٰ والعُظمىٰ يومَ القِيَامَة، فَإنَّه قد جاء في قولِه -تَعَالَىٰ-: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ۝٧٩﴾ [الإسراء:٧٩]. هذا هو المقامُ المحمودُ، وجاءت فيه الأحَادِيث الكثيرة، ويقول العُلَمَاء: أنها بلغت حدَ التَّواتر، فهذه

الشَّفَاعَة ينفرد بها نبينا ﷺ يومَ القِيَامَة من بين الأنْبِيَاء، هذه الشَّفَاعَة الكبرىٰ، وهي أن يشفع إلىٰ الله ليحاسبَ بين النَّاس، وقد مرَّ في الحَديث.

قولـه: (**شـفاعته لأهـل الجَنَّـة في دخولهـا**) هـذه الشَّـفَاعَة بعـد أن يتجـاوز المُسلِمُوْن الصِّرَاط يُوقفون علىٰ قنطِرة، ويتَأخَّرون في هـذا المكـان، يُحَاسِبُ الله المُسلِمِين بما بينهم من حقوقٍ، ويتحملها الله ﷻ عـن الـذين وَقَعـوا فيهـا من المُسلِمِين الذين يستحقون الجَنَّة، فبعد أن تُصفَّىٰ الحُقوقُ في هـذا المَـوطِن يشفعُ نبيُّنا ﷺ في هؤلاء في دُخولِ الجَنَّة، فأولُ من يأتي باب الجَنَّة فيقرعُـه نبيُّنـا - عليه الصلاة والسلام -.

قوله: (**شفاعته لقوم من العصاة من أمته**) هـذه الشَّـفَاعَة الثالثـة، أنَّ بعـض أمته ﷺ وَقَعَ في كبائر، وماتوا بدون توبةٍ، لكـن عنـدهم مـن مَحَبَـة الله وتعظيمـه ومتابعة السُّنَّة ما يستحقون به الشَّفَاعَة، فيشفع نبيُّنا ﷺ فيهم، فيعفـو الله عـنهم، فلا يعذبهم.

قوله: (**شفاعته في العصاة من أهل التَّوحِيد الذين دخلواالنَّـار بـذنوبهم**) هـذه الشَّفَاعَة هي التي أنكرهـا الخَـوَارِج والمُعتزِلَـة، أنكَـروا خـروجَ أحـد مـن النَّـار، يقولون: مـن دخـل النَّـار لا يخـرجُ منهـا، وهـذا تكـذيب للأحاديـث الصَّـحِيحة المُتَوَاتِرة، أمَّا عقيدة المُسلِمِين فإن من دخل النَّار من المُوَحِّدِين يخرج منهـا في يومٍ ما، لابدَّ من دُخول الجَنَّة لكـلِّ مُوَحِّـدٍ، حتـىٰ لـو لـم يكـن في قلبـه إلا مثقـالُ ذرةٍ من إيمانٍ، لكن الخَوَارِج والمُعتَزِلَة اتَّفقُوا علىٰ أنَّ من دخلَ النَّـار لا يخـرجُ منها، ونزَّلوا الآياتِ التي في الكُفَّار علىٰ عُصاةِ المُوَحِّدِين.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الخامس: شفاعته لقوم من أهل الجَنَّة في زيادة ثوابهم ورفع درجتهم، وهذه مما لم ينازع فيها أحد.

السادس: شفاعته في بعض الكُفَّار من أهل النَّار حتىٰ يخفف عَذَابه، وهذه خَاصَّة بأبي طَالِب وحده.



الشَّرح

قوله: (شفاعته لقوم من أهل الجَنَّة في زيادة ثوابهم) هذه الشَّفَاعَة الخامسة تدلنا علىٰ مدىٰ اهتمام نبينا - عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ - بأمَّته. يَدخُل النَّاس الجَنَّة، فتشغلهم المُتَع وما في الجَنَّة من شَهوات، ولكن نبيُّنا ﷺ يبقىٰ همُّ أمتِه في ذهنه، فهو لا يكتفي بإخراج من كان في النَّار، بل كذلك يشفَع لرفع من كان في الجَنَّة في الدَّرَجات الأُولَىٰ- إلىٰ الدَّرَجات العُليا.

قوله: (شفاعته في بعض الكُفَّار من أهل النَّار حتىٰ يخفف عَذَابه) هذه الشَّفَاعَة وَرَدَت في حديث صحيح أنَّه سُئل نبيُّنا - عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ - يا رَسُول الله، هل نفعت عمَّك أبا طَالِب بشيء، فَإِنَّه كان يحوطُك وينصرُك؟ قال: (نعم، أخرجته من النَّار في ضحضاح من النَّار، في قدميه نعلان من النَّار يغلي منها دماغه)[١] وهذا أقصىٰ ما يستطيع ﷺ، لا يستطيع أن يخرجه من النَّار، فما فعله في الدُّنيَا من نصرته لم يكن لله، وإلا لنفعه، وإنما كان حَميَّةً، فنفعه يَومَ القِيَامَة بِأَنَّ أخرجه من وسط النَّار إلىٰ هذا المكان الذي يُرىٰ أنَّه من أخف أهل النَّار، لكن هو نفسُه يرىٰ أنَّه مِن أشدِّ أهل النَّار؛ لأنَّ النَّار كلَها مؤذيةٌ ومؤلمةٌ.

---

(١) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

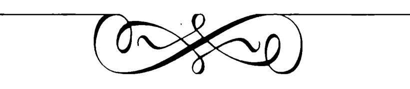
قوله: (وحقيقته) أي حقيقة الأمر، أي أمر الشَّفَاعَة أن الله سبحانه هو الذي يتفضل علىٰ أهل الإخلَاص، فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع، ليكرمه وينال المقام المحمود، فهذا هو حقيقة الشَّفَاعَة، لا كما يظن المُشرِكون والجهال، أن الشَّفَاعَة هي كون الشفيع يشفع ابتداء فيمن شاء، فيَدخُله الجَنَّة وينجيه من النَّار، ولهذا يسألونها من الأموات وغيرهم إذا زاروهم، وذلك أنهم قالوا: إن المَيِّت المعظم الذي لروحه قرب ومزية عند الله لا تزال تأتيه الألطاف من الله، وتفيض علىٰ روحه الخيرات، فإذا علق الزائر روحه به وأدناها منه فاض من روح المزور علىٰ روح الزائر من تلك الألطاف بواسطتها، كما ينعكس الشعاع من المرآة الصافية والماء ونحوه علىٰ الجسم المقابل له، قالوا: فتمام الزيارة أن يتوجه الزائر بروحه وقلبه إلىٰ المَيِّت، ويعكف بهمته عليه ويوجه قصده كله وإقباله عليه، بحيث لا يبقىٰ فيه التفات إلىٰ غيره، وكل ما كان جمع الهمة والقَلْب عليه أعظم كان أقرب إلىٰ انتفاعه به وشفاعته له.



الشَّرح

هذا الكلام لا ينبغي أن يكون إلا لله عَزَّ وَجَلَّ، لكن هؤلاء عندما انحرفت فطرتُهم ووَقَعَوا في هذا الجهل الخطير اعتقدوا أنَّ هذا أمر صحِيح ومشروع، فيأتي إلىٰ الأموات. قالوا: اجمع قلبَك حتىٰ يكون أدعَىٰ، فَإِنَّه كلما تعلق قلبُك بروح المَيِّت فَإِنَّه تنعكِس علىٰ روحك ألطافٌ من هذه الرُّوح المَيِّتة، وهذا عجبٌ!، ينبغي أن يجمع قلبه علىٰ ربه وأن يوحِّد الله ويعظمه، لينعكس عليه الخير ويأتيه من الله الفضل، لكن هؤلاء عكسوا فجعلوا تعلقَهم بالأموات، وزعموا أن الأرواحَ لها تصرفات، وقد مرَّ نصٌ بعض من يزعم أنَّه من أهل

العِلْم، وكان عضواً في هيئة كبارِ عُلَمَاء بلدِه، يزعم أنَّ المَيِّت ينفعُ ويجيب من دعاه، وهذا عجبٌ، هذا الكلام غيرُ موجود لا في القُرآن، ولا في السُّنة، ولم يرد عن الصَحَابَة، وقضايا الغيب قضايا خطيرة جداً، الكلامُ فيها خطير، فمحذورٌ أن تتكلم في الغَيبيَّات بتفكيرك، والمسلم ينبغي أن يكون أحرص النَّاس وأدقهم في هذه القضية، لكن هذا يتكلم كأنَّه ليس هناك حِسَاب، من أخبره أنَّ المَيِّت له هذه الرُّوح، وأنه يؤثر ويفيد؟،لو قال شخص: خلف هذا الجدار سيارة معترضة كلنا نكذبه، وهو قد يأتيه شيطان يخبرُه، فكيف بالآخِرَة؟ قضايا الآخِرَة قضايا خطيرةٌ جداً، قضايا البرزَخ واليوم الآخِر وما فيها من غيبيِّات لا تُعرف إلا عن طريق الوحي، وإذا لم يأت في السُّنَّة أو في القُرآن ما يخبرُنا عن هذه القضايا ما ينبغي لنا أن نتكلَّم فيها، ومع ذلك هذا عالمٌ يُشَارُ إليه في بلده بالبنان، يقول هذا الكلام الذي لا يقوله صِغار المُسلِمين، لكن الضلال إذا خيِّم علىٰ إنسان وتربىٰ عليه جعله في نفسِه حقاً، فهذا يقول: إذا جاء الزائرُ المَيِّت ينبغي له أن يُفرِّغ قلبَه له، حتىٰ ينعكس شعاعُ من روحِ المَيِّت إلىٰ روحه، هذا أمرٌ عجيب!، ومع ذلك كان يرُدُّ في بعض المقالات علىٰ من ينكر هذا ويَنبذُهم بالوهابية، يقول: هؤلاء الوهابية يكفرون النَّاس، ويقولون هذا توحِيد، من أخبرَكم أنَّ هذا توحيد فيرد عليهم؟، والذي يقرأ الكلام بقلب سليم يرىٰ الهوىٰ يحكم كلامَه وألفاظَه.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال ابن القيِّم: وقد ذكر هذه الزيارة علىٰ هذا الوجه ابن سينا والفارابي وغيرهما.



الشَّرح

ابن سينا والفارابي ممن يسمَّيهم بعضُ المُسلِمِين بالفلاسفة الإسلاميين، وقلنا إن الإسلام ليس فيه فلسفة؛ لَأنَّ الفَلسَفَة دين، فكيف تركب من دينين دينًا واحداً؟ مثل الذي يقول: اليَهُودية النَّصرانية!، أو الشيوعية الديمقراطية!، فهكذا الإسلام ليس فيه فلسفة،الفَلسَفَة مَذهَب وثني كان قبل الإسلام، له مَنْهَجه في التفكير، وله قضاياه، وله وسائله وله طرقه، فهو يضاد الإسلام، لا يجتمعان مثل الليل والنهار، و مُحمَّد الفارابي هذا يسمىٰ بالمعِلْم الثاني، والمعِلْم الأول أرسطو، والأنْبيَاء ليس لهم حظ في التعليم، هكذا يقول الفلاسفة، المعِلْم الأول هو أرسطو، والمعِلْم الثاني الفارابي، أين الأنْبِيَاء؟ أين نوح؟ أين إبرَاهِيم؟ أين موسىٰ؟ أين عيسىٰ؟ أين مُحمَّد ﷺ؟. والذي يقرأ في كلامهم يرىٰ أنهم يحاولون أن يمزجوا بين الوثنية والإسلام، فيأتون بالحقائق الفلسفية ويُلبِسونها ألفاظَ الإسلام، الحقيقةُ فَلسَفَةٌ والثوبُ الخَارجي إسلامٌ، فهذا الفارابي الذي يسمىٰ بالمعِلْم الثاني درَس علىٰ رجلين نصرانيين الأول: متَّىٰ بن يونس، والثاني: يوحنَّا بن حيلان، وكلاهما فيلسوفان نصرانيان وقد برع في المنطق والموسيقىٰ، الفارابي كان أول من برَع في الموسيقىٰ واخترع القانون، وقد توفي عام ثلاثمائة وتسعة وثلاثين هجرية، أي في منتصف القرن الرابع تقريبًا، وكُتُبه تدور علىٰ فَلسَفَة أرسطو وأفلاطون.

قال ابن تَيمِيَة رَحِمَهُ اللهُ وهـو يتحـدث عـن الصـابِئة المتفلسـفة: وعنـدهم لـيس خارجـًا عن نفس النَّبِي كلام، ولا ملك[١]، كما يزعمه من يزعمه من المتفلسـفة والصابئة المُشـرِكين، وزعمـوا أنهـم مؤمنـون، ويجمعـون بـين النُبـوَّة والفلسـفة كما يفعل الفارابي وابن سينا وغيرهمـا مـن المتفلسـفة، وقـال: والفـارابي كـان بارعـًا في الغناء[٢] الذي يسـمونه الموسـيقى، ولـه فيـه طريقـة عنـد أهـل صـناعة الغناء، وحكاياته مع ابن حمدان مشهورة، لما ضَرب فأبكاهم، ثُـمَّ أضـحكهم، ثُمَّ نومهم ثُمَّ خرج، إن صدقت الرِّوَاية، هذا الفارابي قد خالف في عدة قضـايا كل واحدة منها كافية لإخراجه مـن الإسـلام، أولهـا أنَّـه قـال: الكـون لـيس مـن خلْقِ الله، إنما من خلقِ القوى السماوية، يسـمون الله العِلَّـة الأُولَـى-، أي لـيس لها دور، إنما نتج عنها مَعلولها، العِلَّة الأُولَى- أوجدَت العَقْـل؛ لَأنَّ الواحـدَ لا يمكن أن يخلق الكثير، والعَقْلُ خلـقَ الـنَّفس، والـنَّفس أثَّـرت في المـادة، وكـان من نتائجها هذه المخلوقـات، فلـيس الله هـو الخَـالِق وإنمـا الخَـالِق هـو الـنَّفس التي بعد العَقْل أو العَقْل.

ثانياً: يقول: النُبوَّة ظاهرةٌ طبيعيةٌ ترتبط بالنظام الفلكـي العـام، تكـون لكـل إنسان تحقَّقت فيه الشروط، أي: ليست خَاصَّة بالاصـطفاء كـل مـن يفـرغ قلبـه وروحه يصبح نبياً إذا كان عنده قوة تخيل، فهذا غريب!، النُبوَّة ما تأتي من جهـد الإنسَان.

ثالثاً: يقول: الكلام المبلغ من الأنْبِيَـاء عـن الله إنمـا هـو مـن كـلام الأنْبِيَـاء، وليس كـلام الله قالتـه فحاكـت بـه قـوتهم المتخيلـة مـا فـاض علـيهم مـن العَقْـل المفارق، أي إنما هي تصورات، وليس هو كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

---

(١)مجموع الفتاوى (١١/ ٥٧٠)

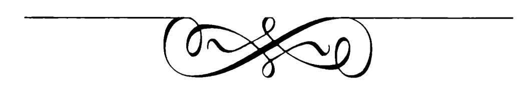
رابعاً: ما يسمعه الأنْبِيَاء من أصوات الملائكة إنما هو تخييل، وإلا فلا يسمعون شيئًا؛ لَأنَّ الآن المتصوفة الذين يجهدون أنفسهم بالجوع والعطش يسمعون أصواتًا، ويرون أشخاصًا، خيالات فيظنون أن النَّبِي هكذا كان يفعل.

خامساً: الثوابُ والعقابُ في الآخِرَة روحانيان عقلانيان، فلا بعثَ للأجسادِ ولا نعيمَ يَومَ القِيَامَة، وهذه عقيدةُ كلِّ الفلاسفة الذين يسمونَهم الإسلاميين.

سادساً: الثوابُ والعقابُ لا علاقةَ لهما بأحدٍ، وإنما يتِمَّان بحسبِ الأعمال تلقائيًا، ما هناك أحد يُعذَّب، الإنسَانُ عمِلَ كذا يحصل علىٰ كذا، ولهذا يُقسِّمون النفوسَ إلىٰ ثلاثة أقسام.

سابعاً: ليست كل النفوس تثاب وتعاقب، ومعظم النفوس تصير إلىٰ العدم، فإن النفوس علىٰ ثلاثة أنواع، عالمة فاضلة، وعالمة شريرة، وعالمة جاهلة، فقال: العَالِمة الفاضلة تُثاب، والعَالِمةُ الشريرة تُعاقب، والجَاهِلة لا تُثاب ولا تُعاقب تصبحُ عدمًا، هذا الكلامُ كيف يكون كلام مسلم يقرأ القُرآن والسُّنَّة!! هذا هو كلامُ الفارابي الذي يُوصف بأنه فيلسوف إسلامي، أمَّا ابنُ سينا فقد كان بعده، ويسمونه بالشيخ الرئيس، ما أطلقوا عليه المعِلْم الثاني، وإنما أطلقوا عليه الرئيس، هذا كان من أسرة إسماعيلية أي تنتسب إلىٰ الحاكم الفاطمي، وهو يعترف بهذا، يقول: وكان أبي ممن أجاب داعي المصريين، ويُعدُّ من الإسماعيلية وكذلك أخي، ابن سينا قرأ كُتُب الفَلسَفَة وكُتُب الطب، وتقوم كُتُبه علىٰ آراء الفلاسفة القدماء في ألفاظ إسلامية وهو فيلسوف صوفي وطبيب، قال ابن تَيمِيَة رَحِمَهُ اللهُ: فإن أهل بيته كان من الإسماعيلية أتباعِ الحاكمِ الذي كان في مصر وكانوا في زمنه، ودينهُم دينُ أصحابِ رسائل

إخوانِ الصفا وأمثالِهم من أئمةِ منافقي الأممِ الذين ليسوا بمسلمين ولا يهود ولا نصارىٰ. وإخوانُ الصفا مشهورون في التاريخ، وقد تكَوَّن في نصف القرن الرابع عام ثلاثمائة وثلاثة وسبعين جماعةٌ سريةٌ من كل الديانات، اجتمعوا وأرادوا أن يُوجِدوا دينـًا جديداً، انتخابياً يسمونه، فكُتُبوا قرابةَ خمسين رسالةً في الرياضيات، وفي الأخلاق، وفي السياسة وفي الاجتماعِ، وفي العقائد، وفي مَنْهَجِهم، وكانوا مَخفيين لا يُعرفون، وسمُّوهم: "إخوان الصفا وخلَّان الوفا"، ونشروها بين النَّاس، مثل الماسونية اليوم جماعةٌ تدعو إلىٰ نبذ كلِّ العقائد والأديان-، أمَّا توحيدها في دين واحد بحيث لا فرق بين النَّصراني واليَهُودي والمسلم والبوذي والهندوسي، أو لا دين، كما تفعله اليوم الماسونية، لكن هذه الجماعة ـ ولله الحَمْدُ ـ لم يكُتُب لها الذيوع والانتشار، قال ابن تَيمِيَة رَحِمَهُ ٱللَّهُ أحدث فَلسَفَةٌ ركبها من كلام سلفه اليونان، ومما أخذه من أهل الكلام المبتدعين الجَهمِيَّة ونحوهم، وسلك طريق الملاحدة الإسماعيلين في كثير من أمورهم العِلْمية والعملية ومزجه بشيء من كلام الصوفية، قال الذهبي: وله كتاب الشفاء وغيره وأشياء لا تحتمل، وقد كفره الغزالي في كتاب المنقذ من الضلال، وكذلك كفر الفارابي، ، وقد حصر الغزالي كلامه في مقاصد الفلاسفة ثُمَّ رد عليهم في تهافت الفلاسفة في عشرين مجلسـًا له كفره في ثلاث منها، وبدعه في البواقي، قال ابن خلكان: أنَّه تاب وجعل يختم القُرآن في كل ثلاث ليال، فإن صحت الروايات أنَّه تاب فنسأل الله أن يغفر له، وإن مات علىٰ فلسفته وإلحاده فالله عَزَّوَجَلَّ يتولاه بما شاء.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وصرح بها عباد الكواكب في عبادتها، وقالوا: إذا تعلقت النَّفس الناطقة بالأرواح العلوية فاض عليها منها النور، وبهذا السر عبدت الكواكب واتخذت لها الهياكل، وصنفت لها الدعوات واتخذت الأصنَام المجسدة لها، وهذا بعينه هو الذي أوجب لعباد القُبُور اتخاذ أعياد، وتعليق الستور عليها، وإيقاد السرج عليها وبناء المَسَاجِد عليها، وهو الذي قصد الرَّسُول ﷺ إبطاله ومحوه بالكلية، وسد الذَّرَائِع المفضية إليه، فوقف المُشرِكون في طريقه وناقضوه في قصده، وكان ﷺ في شق وهؤلاء في شق.

وهذا الذي ذكره هؤلاء المُشرِكون في زيارة القُبُور، هوالشَّفَاعَة التي ظنوا أن آلهتهم تنفعهم بها وتشفع لهم عند الله، قالوا: فإن العبد إذا تعلقت روحه بروح الوجيه المقرب عند الله وتوجه بهمته إليه، وعكف بقلبه عليه صار بينه وبينه اتصال يفيض به عليه منه نصيب مما يحصل له من الله، وشبهوا ذلك بمن يخدم ذا جاه وحظوة وقرب من السلطان، فهو شديد التعلق به، فما يحصل لذلك السلطان من الإنعام والإفضال ينال ذلك المتعلق بحسب تعلقه به، فهذا سر عِبَادَة الأصنَام، وهو الذي بعث الله رسله وأنزل كُتُبه بإبطاله وتكفير أصحابه ولعنهم وأباح دماءهم وأموالهم وسبي ذراريهم وأوجب لهمالنَّار، والقُرآن من أوله إلىٰ آخره مملوء من الرد علىٰ أهله، وإبطال مَذهَبهم انتهىٰ.

قوله: (وينال المقام المحمود)، أي المقام الذي يحمده فيه الخلائق كلهم وخالقهم ﷻ، قال ابن جرير: قال أكثر أهل التَأوِيل: ذلك المقام الذي يقومه ﷺالشَّفَاعَة للنَّاس ليريحهم ربهم مما هم فيه من شدة ذلك اليوم، وقال ابن عَبَّاس: المقام المحمود مقامالشَّفَاعَة، وكذا قال ابن ابي نجيح عن مجاهد، وقال قتادة: هو أول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع، وكان أهل العِلْم يرون أنَّه المقام المحمود.

قوله: (فالشفاعة التي نفاها القُرآن ما كان فيها شرك)، أي أنالشَّفَاعَة التي نفاها الله في القُرآن هيالشَّفَاعَة التي فيها شرك بالله، من دعاء غير الله وعبادته ليشفع له عند الله، فإن الله سبحانه نفىٰ هذهالشَّفَاعَة، وأخبر أنها لا تكون أبداً، بل أخبر أن ذلك شرك ونزه نفسه عنه، ونفىٰ أن يكون للمؤمنين ولي أو شفيع من دونه، مع أنالشَّفَاعَة يَومَ القِيَامَة لهم بإذنه لا للمشركين كما قال -تَعَالَىٰ-: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ [طه:١٠٩]. فنفىٰ سبحانه أن تنفع الشَّفَاعَة أحداً إلا من أذن له الرحمن ورضي قوله وعمله، وهو المؤمن المخلص، وأما المشرك الداعي لغير الله ليشفع له فلا تنفعهاالشَّفَاعَة، ولا يؤذن لأحد في الشَّفَاعَة فيه، كما قال: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر:٤٨]، وقال -تَعَالَىٰ-: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾ [القصص:٦٤].

قوله: (وقد بين النَّبِي ﷺ إلىٰ آخره)، تقدم ما يتعلق بذلك والله أعلم.



الشَّرْح

قولـه: (وصـرح بهـا عبـاد الكواكـب في عبادتهـا ...) إلـىٰ آخـره، استكمال للكلام الماضي أن عباد الكواكب كانوا بنفس التصور الذي كان عند عباد القُبُور، فإنَّهم يتوجهون إلىٰ الكواكب ويزعمون أنها تؤثر، ويناجونها ويخاطبونها، حتىٰ كُتُب بعضهم السر المكتوم في مخاطبة النجوم، فهو هذا الذي يفعله عباد القُبُور هو هو.

فهؤلاء تعلقت قلوبهم بأصنامهم كما تتعلق قلوب عباد الكواكب بالكواكب.

قوله: (المقام المحمود): هوالشَّفَاعَة العظمىٰ يَومَ القِيَامَة، ومر أن نبينا ﷺ يشفع إلىٰ الله ﷻ ليحاسب بين الخلائق.

هذا هو نهاية باب الشَّفَاعَة الذي أطال فيه الشارحُ رَحِمَهُ اللَّهُ، **ونخلص هنا إلى سبع فوائد مع الفوائد التي مرت.**

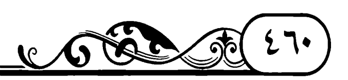
الفَائِدَةُ الأُولَى: أن أصل عِبَادَة الأصنَام الاعتقاد في شفاعتهم، أي أن الذين عبدوها إنما كانوا يعتقدون أن هذه الأصنَام تشفع عند الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -.

الفَائِدَةُ الثانية: أسباب التوجه إلىٰ الشفعاء سوء ظن برب العَالِمين؛ لأنه لا يلجأ الإنسَان إلىٰ المخلوق في أمر يتعلق بالخَالِق إلا إذا أساء ظنَّه بالخَالِق، وإلا فما لجأ إلىٰ المخلوق، يلجأ إلىٰ الخَالِق مباشرة، كما قال -تَعَالَىٰ -: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ [البقرة:١٨٦]. فإذا كان الله قريباً لماذا تلجأ إلىٰ المخلوق؟ فلو لم يكن هناك سوء ظن في قلب المشرك ما لجأ إلىٰ المخلوق.

الفَائِدَةُ الثالثة: أن الشَّفَاعَة لها شروط في الشافع والمشفوع له، فلا يشفع إلا بعد الإذن، ولا يشفع إلا لمن رَضِيَ عَنْهُ، فليس هناك شَفَاعَة يَومَ القِيَامَة إلا إذا توافرت فيها الشروط.

الفَائِدَةُ الرابعة: بطلانُ قصةِ الغرانيقِ، والشارح رَحِمَهُ اللَّهُ كان يقرر أنها صحيحة، لكنها في الحقيقة ليست صحيحة؛ لَأنَّ ظنَّ صحتِها خطيرٌ؛ لأنه يدل علىٰ أن الشَّيطَان ألقىٰ كلاماً فيه شرك علىٰ لسان رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا أخطر الكلام، والرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معصوم، لا يُخبِر إلا بوحي الله، فإذا استطاع إبليس أن يوحي مع الله نفقد الثقةَ في الأنبِيَاء، وقلنا إن هناك رسالةً مؤلفةً في هذه المسألة للشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ بعنوان: (نصب المجانيقِ لنسفِ قصةِ الغرانيق).

الفَائِدَةُ الخَامسة: أن المدعو لا بد أن يتحقق فيه أحد شروط ثلاثة، وكلها منتفية عن غير الله جَلَّ وَعَلَا ، لابد أن يكون مَالِكاً أو شريكاً كما هم يعتقدون، أو معاوناً للمَالِك، وكل هذه منتفية عن غير الله، كما قال -تَعَالَىٰ -: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟



ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ:٢٢]، فكيف تدعوهم وهم لا يملكون؟. ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ وليسوا مشاركين، ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ ما هناك أحد يعين الله سبحانه حتىٰ يدعىٰ من دونه.

الفَائدَةُ السادسة: أن نبيَّنا ﷺ لا يشفع يَومَ القِيَامَة إلا بإذن من الله، فإذا كان سيد البَشَر ﷺ لا يشفع إلا بإذن من الله، فكيف يُظنُّ أن أحداً من النَّاس يستطيع أن يشفع إلىٰ الله بدون إذنه، يقول: إن هذا قياس للخالق علىٰ المخلوق.

سابعا: أن لنبينا ﷺ ستَّ شفاعاتٍ يَومَ القِيَامَة، وبعضها مما انفرد بها -عليه الصلاة والسلام-: الأُولَىٰ-: المقام المحمود الذي وَرَدَ في القُرآن والسُّنَّة، وَرَدَ عن بعض السلف رأي مرجوح: أن المقامَ المحمود هو إقعاد الرَّسُول ﷺ علىٰ العَرْش، وهذا كلام مردودٌ، ليس فيه دليلٌ صحيح، بل هو نسب إلىٰ بعضِ التَّابِعِين، ولم يصح عن مجاهدَ، ولو صح فإن هذا مما لا يُؤخَذ إلا من الوحي، هذا وإن قال به بعض الأئمةِ كما ينسب إلىٰ الإمام أحمدَ رحمه الله وغيره فَإنَّه كلامٌ ليس له دليلٌ، والدينُ ليس قولاً أو رأياً، الدِّينُ: قال اللهُ وقال رسولُه. والغيبيات من أخطر القضايا، فلا يؤخذ بها إلا ما كان نصاً، حتىٰ لو كان الذي قالها معظماً عندنا محترماً، لكننا لا نقبل فيها إلا النَّصَ الذي يأتي من القُرآن أو السنة؛ لَأنَّ الغيب لا يعلمه أحدٌ إلا الله.





باب: قول الله تَعَالَىٰ:

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

أراد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ الرد علىٰ عباد القُبُور، الذين يعتقدون في الأنْبِيَاء والصَّالِحين أنهم ينفعون ويضرون، فيسألونهم مغفرة الذُّنُوب، وتفريج الكروب وهداية القلوب، وغير ذلك من أنواع المطَالِب الدنيوية والأخروية، ويعتقدون أن لهم التصرف بعد الموت علىٰ سبيل الكرامة، وقد وقفت علىٰ رسالة لرجل منهم في ذلك ويحتجون علىٰ ذلك بقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الشورىٰ:٢٢].

يقول قائلهم في حق رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

فإن من جودك الدُّنيا وضرتها؛ ومن علومك عِلْم اللَّوح والقلم



الشَّرح

هذا الباب يأتي بعد باب الشَّفَاعَة، ويتحدث عن إمكانيات رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهل يستطيع الرَّسُول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يغير القلوب أو أن يغفر الذُّنُوب؟ فاستفتح الباب بقوله -تَعَالَىٰ-: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص:٥٦].

وهذا خطاب لنبينا مُحمَّد - عليه الصلاة والسلام - من الخَالِق جل وعلا، الكون كله بيد الله، وليس للمخلوق مع الله تصرف، هذا خطاب لسيد البَشَر وأشرفهم، وأفضلهم ﷺ ﴿إِنَّكَ﴾ أي يا مُحمَّد، ﴿لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، الهِدَايَة المنفية هداية القلوب؛ لَأنَّ هذه الآية نزلت في أبي طَالِب كما سيأتي، وقوله سبحانه ﴿مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الآية تثبت مَحَبَة رَسُول الله ﷺ لأبي طَالِب، ولكن كيف يكون ذلك مع بقاء أبي طَالِب علىٰ الشِّرْك؟

الجواب: للمَحَبَة توجيهان: أمَّا أنَّه أراد إنك لا تهدي من أحببت هدايته، فيكون عندنا محبوبـًا، وهذا أسلوب متبع في العربية، وإما أن يكون إنك لا تهدي من أحببت وتكون علىٰ بابها، ولكن هذا الحُبّ هو حب طبيعي ليس حبـًا شرعيـًا، الحُبُّ الشَّرعي ما تبتغي به وجه الله، ما تتقرب به إلىٰ الله، لكن الحُبُّ الطبيعي كما أن الإنسَان يُحِبُّ زوجته، ويُحِبُّ أبناءه، ويُحِبُّ الدُّنيَا، وقد جاء في الحَديث أن النَّبي ﷺ كان يُحِبُّ الحلوىٰ، وكذلك وَرَدَ أنَّه كان يُحِبُّ عَائِشَة رضي الله عنها، كما في حديث عُمَرو بن العاص: **(من أحب النَّاس إليك يا رَسُول الله؟ قال: أَبُو بكْر، قال: من النِّسَاء، قال: عَائِشَة)**[1] أو وَرَدَ الحَديث مطلقـًا، فذكر أنَّه يُحِبُّ عَائِشَة - رضي الله عنها -، هذا حبُّ الزوج لزوجته، فالحُبُّ الطبيعي ليس فيه محذور، لكن هذا الحُبُّ الطبيعي يكون محكومـًا بالشَّرع، فإذا جاء أمر الله أو عارض أمر الله فَإنَّه ينبغي أن يرتفع، فأبو طَالِب رَبَّىٰ النَّبِي ﷺ، قرابةَ أربعين عامـًا، أربعون سنة ورسولُ الله ﷺ تحت إشراف أبي طَالِب، فكيف لا يميل قلبُه إليه؟، لكن النَّبِي ﷺ لا شك أنَّه لا يُحِبُّه مَحَبَة

---

(١) سبق تخريجه.

شرعية يتقرب بها إلىٰ الله، وسيأتي عندما زار قَبْر أمه ﷺ بكىٰ؛ لأنَّ الله لم يأذن له في أن يشفع لها، أو يدعو لها، أو يستغفر لها، فهذه من رحمة الابن بأبيه أو أمه، وكما جاء في كتاب الله في قصة نوح عليه السلام ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ [هود:٤٢]. وحرص علىٰ هدايته، ودعا الله لهدايته، حتىٰ أنزل الله - سبحانه وتعالى - عتاباً له ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود:٤٦]، فالحُبُّ الطبيعي يقع في القَلْبِ، وهذا الحُبُّ ليس حباً نتقرَّب به إلىٰ الله وإنما هو حب الإنسَان من يكون له عنده مصلحة أو فائدة، أو يكون بينه علاقة، لكن هذا الحُبُّ لا ينبغي له أن يمنعك من أداء واجب أو يدفعك إلىٰ محرم.

قال الشارح رحمه الله: إن المؤلف استفتح هذا الباب ليرد علىٰ الذين يعتقدون أن رَسُول الله ﷺ يستطيع أن يُغيث وأن ينفع، فاستفتح الباب بهذه الآية، وفي آية أخرىٰ ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٧٢]. وفي آية أخرىٰ ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [يوسف:١٠٣]، فالرسول ﷺ ليس لديه قدرة علىٰ أن يغير القلوب، وإلا لو كان قادراً أن يغير القلوب منذ بدأ دعوته كان غير قلوب أهل مكة، لماذا يعيش هذه الفترة الطويلة في قتال وحروب، وهو يملك أن يغير قلوب قُرَيْش ولا يغيرها؟، فإذا كان عجز عن عمه وهو أحب النَّاس إليه في ذلك الوقت من قُرَيْش فلا شك أنَّه ﷺ عاجز عن غيره؛ لأنَّ هذا من اختصاص الخَالِق، وليس تنقيصاً لرسول الله ﷺ، هذا حق الله، فإذا أعطاه الله بعض القدرات، وبعض الاختصاصات جاز، كما قال -تَعَالَىٰ-: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الشورىٰ:٢٢]، هذا مَعنَىٰ الآية أنهم في الآخِرَة لهم ما يشاءون، قد يقول قائل: الله يقول: لهم ما يشاءون، فكيف نُخصِّصُها؟ نقول: من أخبرك أنَّ الرَّسُول ﷺ شاء أن يُغفر لك، وكيف

رَسُول الله ﷺ يطمع إلىٰ أمر من خَصَائِص الخَالِق؟ فإن الذي يغفرُ الذنب هو الله، وليس المخلوق، جاء في قوله -تَعَالَىٰ-: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:٢]. الله الذي يغفر بل ويغفِر ذنب الرَّسُول ﷺ، فمغفرة الذُّنُوب وإجابة الدَّعوات ليست إلا للخالق - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- ، ولا يجوز أن نعتقد أنَّ المخلوق يشاركُ الله في ذلك.

ثم أوَرَدَ بيتاً للبُوصَيري في القصيدة المشهورة التي تُسمَّىٰ بالبُردَة محاكاةً للتي كانت في عهد النَّبِي ﷺ، وفي أولها:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم

يقول: ليس لي من ألوذُ وألجأُ إليه إلا أنت يا رَسُول الله، ولا شك أن هذا خطأ، أليس هناك الله ﷻ نَلجأ إليه، ونستغيثُ به، فهو أرحم الراحمين، فلا شك أنَّه بيت سيء أخطأ فيه قائله وإن كان أراد الخير، لكن ليس كل من أراد الخير يصيبُه، فلا شك أنَّ كل من أثنىٰ علىٰ رَسُول الله ﷺ أو مدحه، أو دعاه، لا شك أنَّه أراد الخير أي : لا ينبغي لنا أن نقول: أراد الشر ، لكنَّه لم يسلك الطريق الصَّحِيح، ابتدَع وجانب الطَّريق الصَّحِيح فوَقَعَ في الخطأ، وإلا فإنَّ الذين انحرفوا، وضلُّوا، وابتَدَعوا، ليس هدفُهم محاربةَ الدِّين أو كرهُه، أو كانوا يكرهون النَّبِي ﷺ، أو كانوا لا يُحِبُّون الإسلام.

وابن تَيمِيَة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابِ (اقتضاء الصِّرَاط المستقيم) يقول: "إنَّ الذين يقيمون الموالد قد يُؤجَرون علىٰ نيتهم، لكن يعاقبون علىٰ عدم التزامِهم بقَواعد الاجتهاد في الدين، فإن الاجتهاد في معرفة الدِّين له ضوابط، فالإنسَان قد يعملُ البِدعَة ويعتقد أنها سنَّة، فإن لم يُبَلَّغ ولم يُعَرَّف ربما يؤجر علىٰ فعله إن لم يُقصِّر في اجتهاده ". أحياناً النفوس لا تقبلُ هذا الكلام، لكن ينبغي لنا

أن لا نعطي أنفسنا حقَّ العتاب، أو حق تأثيم النَّاس، وإلا فَإنَّه كم في المُسلِمِين ممن أخطَأ، نقرأُ في التاريخ الإسلامي نجد عُلَمَاء أجلاء، وعقائدُهم عقائدُ فيها ابتدَاع، وفيها انحرَاف، وفيها تَأوِيل، فهؤلاء لا شك مأجُورون كما قال ابن تَيمِيَة رَحِمَهُ اللَّهُ إذا استفرَغوا جُهدَهم، وقد سبق ردُّ ابن تَيمِيَة رَحِمَهُ اللَّهُ علىٰ البَكري، يقول ما معناه: " لو قلت بقولكم كَفرتُ، ولكنَّكم لستم كفاراً عندي إذا كان هذا منتهىٰ تفكيرُكم؛ لَأنَّ الله لا يحاسبِكم علىٰ عقلي، ولكن يحاسبُكم علىٰ عقولكم." فإذا اجتَهد فأخطأ، وأرادَ الحقَّ وأراد الخير يُؤجر، ذلك الرجل الذي في صحيح البُخارِي، الذي لم يعمل خيرا قط، **فعندما جاءت الوفاة قال لأبنائه: إذا أنا مت فأحرقوني، واسحقوني، وذروني في البر والبحر، فإن الله إن قدر علي عذبني**، يظن أُنَّ الله لا يقدِر أن يعيدَه كما كان، ما الذي دفَعه إلىٰ هذا، حبُّ الخير أم الشرِ؟ الخوفُ من الله، الخوفُ من عِقاب الله، **فجاء في الحَديث أنَّ الله يعيده كما كان يقول للبرِّ أعد ما أخذت، وللبحر أعد ما أخذت، ثُمَّ يقول: (يا عبدي ما حملك علىٰ ما صنعت، فيقول: خوفًا منك يا رب، فيقول: قد غفرت لك)**[١]، هذا جهلٌ بِأنَّ الله قادرٌ أن يعيدَه، وهذا من أعظم الصفات، إنَّ الله قادر علىٰ ما يريد عَزَّ وَجَلَّ، ومع ذلك الله عفا عنه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -.

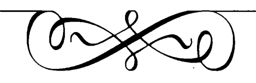
فالمسلم قد يخطئ، وهذا لا يعني أن نُبررَ أخطاءَ النَّاس، لكن لا ينبغي أن يُؤَثَّمَ النَّاسُ، الشَّخص أحيانًا يغار علىٰ الدِّين غيرةً مذمومة، فالغيرةُ تكون مربوطة بالشَّرع، في الحَديث: أنّض القاضي إذا اجتهد فأخطأ فله أجر، ليس فقط لا يعاقبُه بل يعطيه أجراً، هكذا الإنسَان لو اجتهد في مسألة فأخطأ فَإنَّه

---

(١) هذه القصة أخرجها البُخارِي في صحيحه، كتاب أحاديث الأنْبِيَاء، باب (٥٤)، برقم: (٣٤٧٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله -تَعَالَىٰ- وأنها سبقت غضبه، برقم: (٢٧٥٦)، (٤/ ٢١٠٩).

يُؤجَر عند الله، لكن لا نسكت علىٰ خطئه، نبُلِّغ النَّاس خَطأَه حتىٰ لا يقعوا فيه، ولا نُشنِّع عليه لشخصِه هو، شخصُه قد لقي الله لا يهمُنا شخصه، بل نسأل الله أن يغفرَ له، لكن الذي يهُمنَا ما خلَّفه من البِدعَة أو من الخطأ، فنبينُه للنَّاس حتىٰ لا يقعوا فيه، هذا المَنْهَج المُعتَدِل السليم الصائب.

وبعض النَّاس يتهَّور في أعراض النَّاس، وفي أعراضِ العُلَمَاء، وأعراضِ الدُّعَاةِ، ويجعل من نفسِه هو مِيزَانـًا، ما وافقَ عقلَه فهو حقٌ، وهذا ليس بصحِيح، فأنت بشرٌ كبقيةِ البَشَر، ربما يكون في ذهنك كثير من القضايا خطأٌ، فلا ينبغي لك أن تزِن النَّاس بمِيزَان عقلِك، المِيزَان هو الكِتَاب والسُّنَّة، قد يصيب الشَّخص وقد يخطئ، كما قال الشَّافِعِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قولي صواب يحتمل الخطأ". أي: لابد أن تجعل هناك احتمال أنَّك مُخطئ، ما بالك أنت إذا كان فهم الصَّحَابِي ليس شرعـًا، والتَّابعي ليس فهمُه شرعـًا، والأئمة الأربعة ليس فهمُهم شرعـًا، إنما هذا أقرب إلىٰ الصِّحة، وأقربُ إلىٰ الصواب، كما قال ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تَفسِير الصَّحَابِي أصوبُ من غيره، قد تكون كلُّها صوابـًا، لكن الصواب علىٰ درجات، ولم يقُل تَفسِير الصَّحَابِي حق وما عداه باطل، فلو كان الصَّحَابِي قوله شرعـًا فالصَحَابَة قد اختلفوا وقول من فيهم يكون شرعا؟، وأين الدَّلِيل علىٰ أن قول الصَّحَابِي شرع؟، ليس هناك دليلٌ، فيبقىٰ فهمك فهمـًا بشريـًا، وفهم العُلَمَاء فهمٌ بشريٌّ، إلا إذا جاء النَّص القاطع الواضح، فعندئذ تكون المسألة ليس فيها مجال للاجتهاد، فالإنسَان قد يجتهد فيخطِئ ويكون مأجُوراً، ولكنَّه إذا جاءه الحقُّ فكابَر وعانَد يكون مُعرَّضـًا للعقاب، والله أعلَم.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فإذا عرف الإنسَان مَعنَىٰ هـذه الآيـة، ومـن نزلـت فيـه تبين لـه بطـلان قـولهم وفساد شـركهم؛ لأنَّ رَسُـول الله ﷺ أفضـل الخلـق، وأقـربهم مـن الله وأعظمهـم جاهـًا عنده، ومع ذلك حرص واجتهد علىٰ هداية عمـه أبـي طَالِـب في حَيَـاة أبـي طَالِب وعند موته، فلم يتيسر ذلك ولم يقدر عليه، ثُـمَّ اسـتغفر لـه بعـد موتـه فلـم يغفر له حتىٰ نهاه الله عن ذلك، ففي هذا أعظـم البيـان وأوضـح البرهـان علـىٰ أنَّـه ﷺ لا يملك ضـراً ولا نفعـًا، ولا عطـاءً ولا منعـًا، وأن الأمـر كلـه بيـد الله، فهـو الذي يهـدي مـن يشـاء ويضـل مـن يشـاء، ويعـذب مـن يشـاء ويـرحم مـن يشـاء، ويكشف الضر عمن يشاء، ويصيب به من يشاء من عباده، وهـو الغفـور الـرحيم، وهو الذي من جوده الدُّنيَا والآخرة.

الشَّرْح

هنا أشار رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ أن النَّبي ﷺ حاول أن يَهدِي أبا طَالِب وهو حيٌ فعجز، ثُمَّ مات أبو طَالِب، ثُمَّ أرادَ أن يستغفرَ له، ليَغفِر الله لـه هـذا الشِّـرْك، فلـم يغفِـر الله له، بل أنزلَ الله منعـًا له، كما سيأتي في الحَديث، وإذا كـان هـذا رَسُـول الله - عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ - ، فما بالُك بغيره؟ فالقلوبُ هي مـن أشـرفَ مـا خلَـق الله، فـلا ينبغـي أن تتعلَّق إلا بالخَالِق، في أمور الدُّنيَا، وفي أمور الآخِرَة، القَلْب لا ينبغـي أن يسـكنَه إلا تعظيمُ الله ومحبتُه وما تعلَّق به - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -، فلا يسكنُه تعظيمُ غيرِ الله. الرَّسُـول ﷺ له علينا حق التَّعظِيم الذي لا يرفعه إلىٰ مكانة الله، تَعظيمُ رسُولٍ، لا تعظيمُ إلهٍ، نُعظِّمه تعظيمـًا يليقُ بمكانتـه ﷺ، لكـن لا نُعْطيـه خَصَـائِص الله، لا نرفعـه إلىٰ دَرَجَة الخَالِق، هذا ما فعلته النَّصارَىٰ، فالمُسلِمُوْن ينبغي أن لا يقعُـوا فيمـا وَقَعَت فيه النَّصارَىٰ.

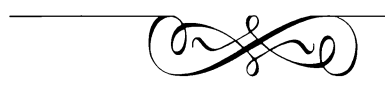
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهو بكل شيء عليم، ولو كان عنده ﷺ من هداية القلوب ومغفرة الذُّنُوب وتفريج الكروب شيء لكان أحق النَّاس به وأولاهم من قام معه أتم القيام، ونصره وأحاطه من بلوغه ثمان سنين، وإلىٰ ما بعد النُّبوَّة بثمان سنين أو أكثر.

الشَّرْح

قلنا عاش النَّبِي ﷺ تحت رعاية أبي طَالِب أربعين عامـًا، فإن جده عَبد المُطَّلِب توفي وعُمَره ثمان سنوات، ثُمَّ انتقلت كفالته إلىٰ أبي طَالِب، وبقي إلىٰ أن توفي أبو طَالِب بعد البعثة بثمان سنوات، أربعين سنة، وهو يعيش مع أبي طَالِب، وأبو طَالِب مقتنع أن هذا رَسُول الله، لكنه يقول: يخشىٰ أن تُعيرَه نساءُ قُرَيْش، تلك هي الحَمِيَّة الجَاهِلِيَّة، كم يقع في نفوس بعض النَّاس الأنفة من الخضوع للحق، وهذا ليس من صفات المسلم، فإن المسلم إذا جاءه الحق يقبله ويخضَع له، أمَّا إذا كان يحكُمه الهوىٰ لا يَقبَل، فإذا قال لك أحد اتق الله أو نصحك تعظيمـًا للخالق ينبغي لك أن تقبل، لا تأخذك العزَّة بالإثم؛ لَأنَّ هذا من صفات غير المُسلِمين كما قال -تَعَالَىٰ -: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ ﴾ [البقرة:٢٠٤-٢٠٦]، بعض النَّاس إذا قلت اتق الله يأنَف، أنت إذا قبلت النَّصيحةَ لك فيها أجران الأجرُ الأول اعترافُك بالخطأ، والأجر الثاني: تعظيمُ الذي أمرَك بِأنَّ تتقيَه وهو الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -.

فأبو طَالِب كانت عنده أَنَفَةٌ جَاهِلِيَّةٌ فلم يقبل الحقَّ، وخسر هو الخسرانَ المُبِينَ، والمسلم ينبغي أن يكون عكس ما كان عليه أبو طَالِب، إذا جاءه الحق يقبله، ويُحِبُّ من أهدىٰ إليه النَّصيحة، وإذا كان أخطأ في فهم المسألة وكنت أنت علىٰ الحق لا بأس، أولاً تثني عليه وتشكره علىٰ نصيحته، ثُمَّ تُبَين له ما عندَك إذا كان عندك ما يبرر عملك.





قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

بل قال -تعالى-: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٨٨].

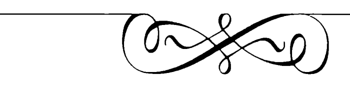
وقال -تعالى-: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾ [الأنعام:٥٠]. فهل يجتمع في قلب عبد الإيمان بهذه الآيات وما أشبهها والإيمان بذلك البيت وما أشبهه، ولكن قاتل الله أعداءه الذين جاوزوا الحَد في إطرائه والغُلُو فيه.



الشَّرْح

هاتان الآيتان - ومثلهما كثيرٌ في القُرآن الكَريم -، المُسلِمُوْن يقرءونها، ولا ندري بماذا يفسرونها، الله عَزَّ وَجَلَّ يقول لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنت قُل: أنت تَبَرَّأ، وإلا كان يمكن أن يأتي السياق أنَّ مُحمَّداً لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ولكن الله يقول: أنت أعِلْم بنفسِك هذا الأمرَ في الملأ. فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تبرأ من أنَّه يملك لنفسه نفعاً أو ضراً، ثُمَّ يقول: ولا أعِلْم الغيب، ولو كنت أعِلْم الغيبَ لاستكثرتُ من الخيرِ وما مسَّني السوء، فكم من مآزق وَقَعَ فيها النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحروب والقتال، ففي غزوة أُحُد سقط في الحُفرة، وأُوذي، وشُجَّ وجهُه الكَرِيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وغير ذلك كثير، كم كان يمرَض، وهذه كلُّها بأسباب، فلو كان هو يعرفُ الأسبابَ ويعلِمها - وهذا من الغيب - ما وَقَعَ عليه سوء، فهذه الآية تعرَفنا بمكان رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنَّه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً إلا ما شَاء الله.

قد يقول قائل: إن الله استثنىٰ: إلا ما شَاء الله، نقول: القاعدة الأساسية أنَّه لا يملكُ، هذا الاستثناء إنما هو خلاف القاعدَة، فنحتاج إلىٰ دليل يدل علىٰ أنَّ الله قد أعطاه من هذا النَّفْع والضُر كذا وكذا، ما جاء دليل يدلّ علىٰ أن الله أعطاه، فكيف نعتقد ونخالف القُرآن؟، الله يقول: لا يملك إلا ما شاء الله، وليس عندنا دليل أن الله شاء أن يعطيه أنَّه يغفر الذُّنُوب أو أنَّه يُجيب المَكروب، فالإنسَان ينبغي أن يتقي الله في اعتقاده وفي عبادته، فإذا عاش في مجتمع أو ورِث من أجداده انحرافًا يخالِف القُرآن والسُّنَّة لا ينبغي له أن يبقَىٰ عليه، ينبغي له أن يتَبرأ منه، فالقُرآن ينُص علىٰ أنَّه لا يملِك أحدٌ معَ الله شيئًا في الكونِ، بل الكونُ كلُّه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإذا كان سيدُ البَشَر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يملك، فغيره من باب أولىٰ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأما مَعنَىٰ الآية فقال ابن كثير: يقول -تعَالَىٰ - لرسوله ﷺ: إنك يا مُحمَّد لا تهدي من أحببت، أي ليس إليك ذلك، إنما عليك البلاغ والله يهدي من يشاء، وله الحِكمَة البالغة والحجة الدامغة. كما قال -تعَالَىٰ -: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٧٢]. وقال: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف:١٠٣]، وهذه الآية أخص من هذا كله فإنّه قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦]. أي: أعلَم بمن يستحق الهِدَاية ممن يستحق الغواية،

الشَّرح

قوله: (وهذه الآية أخص) أي: عندنا ثلاثُ آيات، آيةُ البابِ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦]، وهي خَاصَّة بمن يُحِبُّ، وآية: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٧٢]، عامَّة لكل قُرَيْش وغيرهم؛ لَأنَّ الآية تنفي أنَّه يهدي من دعَاهم إلىٰ الدِّين، قُرَيْشًا وغيرهم، والثالثة: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف:١٠٣]، كذلك عامَّة، أمَّا آيةُ الباب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ فهي خَاصَّة، وليس الرَّسُول ﷺ يُحِبُّ كلَّ قُرَيْش، ولا يُحِبُّ كل النَّاس، إنما كانت محبته خَاصَّة بأبي طَالِب، فإذا نفَىٰ عنه قدرته علىٰ هداية من يُحِبُّ، فهدايته لمن لا يُحِبُّ من باب الأُولَىٰ-، فهذه الآية أخصُّ من هذا كله.

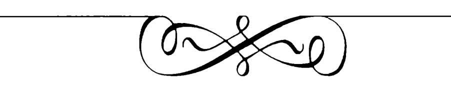
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد ثبت في الصَّحِيحين أنها نزلت في أبي طَالِب وقد كان يحوطه وينصره ويقوم في حقه ويُحِبُّه حباً طبعياً، لا حباً شرعياً فلما حضرته الوفاة وحان أجله دعاه رَسُول الله ﷺ إلىٰ الإيمان والدخول في الإسلام، فسبق القدر فيه واختطف من يده، فاستمر علىٰ ما كان عليه من الكُفْر ولله الحجة البالغة.



الشَّرْح

نقل الشارح تَفسِير ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ للآية، وهو المَعنَىٰ الذي سبق، وهذا كاف في بيان أنَّ الهِدَايَة خَاصَّة بالله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -، لكنه سيأتي في النَّص الذي بعده أن القُرآن وَرَدَ فيه آيتان، إحداهما قوله -تَعَالَىٰ -: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشورىٰ:٥٢]. وهذا إثبات أن الرَّسُول ﷺ يملك الهِدَايَة، وفي الثانية يقول: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص:٥٦]. فلابد من الجمع بين النَّصين المُختلفين: آيةٌ تنفي الهِدَايَة، وآيةٌ تثْبِت الهِدَايَة. ليس بينهما تناقُض؛ لأنَّ الهِدَايَة لها معنيان: هداية القلوب، وهدايةُ الدلَّالة، هدايةُ الدلَّالة يملكُها كلُّ إنسان، وإن كان للأنبياءِ النَّصيبُ الأوفرُ،الآن لو سألك شخص عن مكانٍ تستطيع أن تدلَّه، وهذه هداية دَلالة، تهديه أي: تدُلُّه علىٰ مُراده، فهذه الهِدَايَة هي التي أثبتها القُرآن للنَّبيِّ ﷺ، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ ﴾ أي: تدُل، ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ لكن تَغِييرُ القَلْب لا يملكه أحدٌ إلا الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -، فالآيتان ليس بينهما تعارُض إذاً.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فإن قلت: قال الله -تَعَالَىٰ-: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى:٥٢]. فالجمع بينها وبين الآية المترجم لها قيل: الهِدَايَة التي تصح نسبتها لغير الله بوجه ما هي هداية الإرشاد والدلالة، كما قال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ أي ترشد وتبين، والهِدَايَة المنفية عن غير الله هي هداية التوفيق وخلق القدرة على الطاعة. ذكره بعضهم بمعناه.

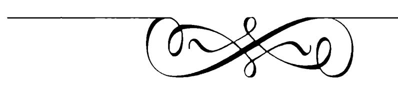
قال: في الصَّحِيح: عن ابن المُسَيِّب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طَالِب الوفاة جاءه رَسُول الله ﷺ، وعنده عبدالله بن أبي أمية وأبو جهل فقال: يا عم قل لَا إِلَه إِلَّا الله كلمة أحاج لك بها عند الله، فقالا له: أترغب عن مِلَّة عبدالمطلب، فأعاد عليه النَّبي ﷺ، فأعادا، فكان آخر ما قال: هو على مِلَّة عبدالمطلب، وأبى أن يقول لَا إِلَه إِلَّا الله، فقال النَّبي ﷺ: لأستغفرن لك ما لم أُنْه عنك فأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾ [التوبة:١١٣]. وأنزل الله في أبي طَالِب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦].

الشَّرح

قوله: (والهِدَايَة المنفية عن غير الله هي هداية التوفيق وخلق القدرة على الطاعة) أي: توجيه القَلْب إلى الله، والقَلْبُ يتجه إمَّا إلى الخيرِ وإمَّا إلى الشر، والإنسَانُ في حاجةٍ إلى معونةِ الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -، لهذا يقول في كل صلاة: ﴿إِيَّاكَ

نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ [الفاتحة:٥، ٦] فهو يدعو الله أن يعينه وأن يهديه، والسورة كان يقرأها ﷺ وكان يسأل الله الهِدَايَة والعون، فالإنسَان فقير محتاج إلىٰ الله - سبحانه وتعالى - ولو كان سيد البَشَر ﷺ.

قوله ﷺ: (يا عم قل لَا إِلَه إِلَّا الله ..) هذا النَّص وَرَدَ في الصَّحِيحين، وهي تثبت محاولة النَّبي ﷺ لهداية عمِّه أبي طَالِب، واسمُه عبد مناف، فإنَّ العرب أكثر ما تطلق بالكُنىٰ، فالنبي ﷺ زارَه عند موته؛ لرجاءِ هدايته، فحاول معه ولم يستطع، فلو كان بيده هدايةُ القلوبِ لهداه، فدلَّ علىٰ أنَّ هذا الأمر من خَصَائِص الخَالِق - سبحانه وتعالى -.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (في الصَّحِيح): أي الصَّحِيحين، قوله: (عن ابن المُسَيِّب)، هو سعيد بن المُسَيِّب بن حزن بن أبي وهب بن عُمَرو بن عائذ بن عُمَران بن مخزوم القرشي المخزومي، أحد العُلَمَاء الأثبات، الفُقَهَاء الكبار، الحفاظ، العباد، اتفقوا على أن مُرسَلاته أصح المراسيل، وقال ابن المديني: لا أعِلْم في التَّابِعِين أوسع عِلْماً منه، مات بعد التسعين وقد ناهز الثمانين، وأبوه المُسَيِّب صحابي بقي إلى خلافة عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وكذلك جده حزن صحابي استشهد باليمامة.

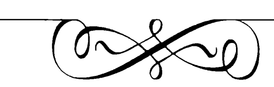
الشَّرح

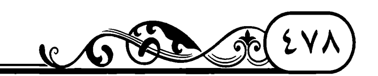
راوي الحَديث هو سعيد بن المُسَيِّب، رواه عن أبيه، وأبوه كان مشركاً آنذاك، لكنه حضر الواقعة، فإن أباه من بني مخزوم، وأبو جهل من بني مخزوم، وعبد الله بن أبي أمية من بني مخزوم، فكلهم من قبيلة واحدة، فحضورهم عند موت بعضهم أمر طبيعي.

فأبوه تحمل الرِّوَايَة أثناء شركِه، فهو لم يُسلِم إلا بعد ذلك، ثُمَّ رَوَىٰ هذه القصة، ورواها ابنه عالمُ المدينة من التَّابِعِين سعيد بن المُسَيِّب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان أعِلْم أهلِ المدينة وأفقهَهم، وسيرتُه كلها سيرةٌ عطرة، وكان مشهوراً بالزهد والورع، وتعبير الرؤية، فَإِنَّه كان عنده عِلْم من تَأوِيل الرؤية ، وتعبير الرُّؤْيَا كان يقعُ في نفسه، أي: الذي يعبر الرُّؤْيَا لا يتكلفها، وأنت تتكلمُ معه في الرُّؤْيَا وهو ينقدِح في ذهنه تعبيرُها وتَأوِيلها؛ لأنَّ الرُّؤَىٰ لها تَأوِيل، ليست كما هي إلا نادراً، لكن لا ينبغي للإنسان أن يبحث عمن يفسر كلَّ ما رأىٰ في كلِّ يوم، أحياناً تكونُ من حديث النَّفس ومن خواطر النَّفس، ومن الشَّيطَان، فالإنسَانُ

عليه إذا أتىٰ إلىٰ فراشِه أن يقرأ المعوذاتِ وآيةَ الكرسِي، ويقرأ ما وَرَدَ في أذكار النوم، حتىٰ يُحفظَ من الشَّيطَان بإذن الله ، وإلا فإذا فتح هذا الباب علىٰ نفسِه لا يتوقف.

ثم الرُّؤَىٰ لا ينبغي للإنسانِ أنِ يأخذ بها، فإنِ الرُّؤَىٰ لا تُحلُّ حراماً، ولا تحرِّم حلالاً، الرُّؤَىٰ إنما هي من المبشرات، وأحياناً قد تكون رُؤىٰ خاطئة، فلا ينبغي للإنسان أن يجعلَها دليلاً صحيحاً واجبَ الأخذِ به. عليك أن تحذرَ كثيراً من الرُّؤَىٰ، كم من الرُّؤَىٰ أدت إلىٰ فتنٍ ومصائبَ، فينبغي للإنسان أن يَحذرَ من فتحِ البابِ علىٰ نفسه، فليس كلُ ما تراه في المنام له تَأوِيل، إلا إذا كانت الرُّؤْيَا واضحةٌ صريحةٌ، لها مراحل واضِحة في ذهنك، ربما تكون هذه لها تَأوِيل.





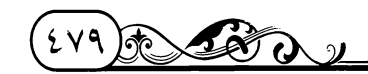
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (لما حضرت أبا طَالِب الوفاة)، أي حضرت علامات الوفاة، وإلا فلو كان انتهىٰ إلىٰ المعاينة لم ينفعه الإيمان لو آمن، ويدل علىٰ ذلك ما وَقَعَ من المراجعة بينه وبينهم، ويحتمل أن يكون انتهىٰ إلىٰ تلك الحالة، لكن رجا النَّبِي ﷺ أَنَّه إذا أقر بالتَّوحِيد ولو في تلك الحالة أن ذلك ينفعه بخصوصه، ويسوغ فيه شفاعته ﷺ، ولهذا قال: (أجادل لك بها وأشهد لك بها وأحاج لك بها) ويدل علىٰ الخصوصية أَنَّه بعد أن امتنع من الإقرار بالتَّوحِيد ومات علىٰ الامتناع منه لم يترك النَّبِي ﷺ الشَّفَاعَة له، بل شفع له حتىٰ خفف عنه العَذَاب بالنسبة إلىٰ غيره، وكان ذلك من الخَصَائِص في حقه.

الشَّرْح

يقول الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن أبا طَالِب قد حضرته الوفاة، والإنسَان إذا بلغ هذه الدَّرَجَة لم تقبل توبتُه كما قال -تَعَالَىٰ-: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾ [النساء:١٧]، ثُمَّ قال -تَعَالَىٰ-: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ﴾ [النساء:١٨].

فكيف يَطلُبُ منه أن يتوبَ، قالوا: لعل هذه من خُصوصياته ﷺ، أو أَنَّه لم يَصل إلىٰ الحالِ التي لم تُقبَل فيها توبَتُه، ثُمَّ كذلك الاستِغفَار له بعد موته من خَصَائِصه ﷺ، لا ينبغي للمسلم أن يستغفرَ لمن مات علىٰ الشِّرْك، ويفعل كما فعل رَسُول الله ﷺ؛ لأَنَّ الله قد أنزل النَّهِي كما سيأتي أَنَّه نهىٰ أن نستغفِر للمشركين ولو كانوا أولي قربىٰ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (جاءه رَسُول الله ﷺ) يحتمل أن يكون المُسَيِّب حضر هذه القصة، فإن المذكورين من بني مخزوم وهو أيضًا مخزومي، وكانوا يومئذ كفاراً، فمات أبو جهل على كفره وأسلم الآخران، وقول بعض الشراح: إن هذا الحَديث من مراسيل الصَحَابَة مردود، وفي هذا جواز عيادة المشرك إذا رجي إسلامه، وجواز حمل العِلْم إذا كان فيه مصلحة راجحة على عدمه.

قوله: (يا عم) منادى مضاف يجوز فيه إثبات الياء وحذفها.



الشَّرْح

هذه الفقرة بعض العُلَمَاء يرى أن المُسَيِّب رواها عن غيره، لكن قال الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ: لا يمنع أن يكون المُسَيِّب قد حضر وفاة أبي طَالِب، فَإنَّه كان في قُرَيْش، فليس هذا من المَراسيل التي يقال إنها من مراسيل الصَحَابَة، ثُمَّ كذلك فيه جوازُ عيادةِ المشركِ، هذا أدب رَسُول الله ﷺ، هذا مُشرك، والُمشرك في أشدِّ أنواع المَعاصِي، فكيف يزورُه ويأتيه إلى بيته ويحضر مرضَ موته، إنما زاره رجاءَ إسلامِه ليدعوَه إلى الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، وهكذا المسلم ينبغي له أن يحرص على زيارة أصحابَ المَعاصِي لدعوتهم ونصيحتهم، لكن إن تيقن أو ظنّ أنَّه لا سيستفِيد، إذا توَقَعَ أنَّه سيستفيد فعليه أن يحضر وأن يزور، كذلك زار ﷺ ولَداً يهودياً عند موته في المدينة، ودعاه إلى الإسلام فأسلَم، فزيارة أصحابُ المَعاصِي لدعوتِهم، أو لرجاء توبتِهم وعودتِهم إلى الله أمر من السُّنَّة النَّبَوية، فرسول الله ﷺ زار هذا المشرك رجاءَ إسلامِه، لكنه لم يصل إلى ما يريد، ومع ذلك قال: سأستغفر له، حتى نزَل النَّهي من الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -.

قوله: (يا عم منادى مضاف يجوز فيه إثبات الياء وحذفها) في اللغة المنادى إذا كان فيه ياء يجوز حذفها، ويجوز إضافتها.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

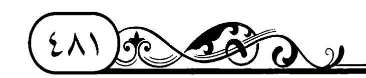
قوله: (قل لَا إِلَه إِلَّا الله)، أي قل هـذه الكلمـة عارفـًا لمعناهـا، معتقـداً لـه في هذه الحال، وإن لم تعمل به، إذ لا يمكن عند الموت إلا ذلـك، ولا بـد مـع ذلـك من شهادة أن مُحمَّداً رَسُول الله.

قوله: (كلمة)، قال القرطبي: أحسن ما تقيد كلمة بالنَّصب علىٰ أنَّه بـدل مـن لَا إِلَه إِلَّا الله، ويجوز رفعها علىٰ احتمال المبتدأ.

الشَّرح

قوله: (قل لَا إِلَه إِلَّا الله)، هذه الكلمـةُ للإنسـان منهـا ثـلاث مراحـل، أولاً: اعتقادُهـا، أي: لا يكفـي قولهُـا، فـإن اعتقـدَ صـحتَها، ينتقـل إلـىٰ قولِهـا، وإن اعتقدَها ولم يقُلْها لا يَنتفِع، ثُـمَّ المرحلـةُ الثالثـة: العمـلُ بهـا، والنبـيُّ ﷺ إنـما دعاه إلـىٰ قولهـا واعتقادِهـا، لا العمـلُ بهـا؛ لأنـه كـان قـد حضـرته الوفـاةُ، ومـن حضـرته الوفـاةُ لا يسـتطيع أن يعمـل بــ: "لَا إِلَـه إِلَّا الله"، لكـن طلـب منـه أن يقولها مُعتقداً لها، وإلا فلو قالها وهـو لا يعتقـدُ صـحتَها، لا تنفعُـه، فطلـبَ منـه قولها واعتقاد صحتها.

قوله: (أحسن ما تقيد كلمة بالنَّصب ..) هذا في إعراب الكلمـة أي: كلمـة " أحاجُّ لك بها عند الله "، هل تُنصب أو تُرفع؟ كلاهما جائز، فإذا نصبت تكـون بدلاً من لَا إِلَه إِلَّا الله؛ لَأنَّ لَا إِلَه إِلَّا الله مَقـول القـولِ في محـلِ نصـب، أو يكـون ابتداءً فكلاهما جائزٌ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (أحاج لك بها عند الله) هو بتشديد الجيم من المحاجة، وهي مفاعلة من الحجة، والجيم مفتوحة على الجزم وجواب الأمر، أي أشهد لك بها عند الله كما في الرِّوَايَة الأخرىٰ.

وفيه دليل علىٰ أن الأعمال بالخواتيم؛ لأنه لو قالها لنفعته، وإن مات علىٰ التَّوحِيد نفعته الشَّفَاعَة، وإن لم يعمل شيئًا غير ذلك، وأن من كان كافراً يجحدها إذا قالها عند الموت أجريت عليه أحكام الإسلام، فإن كان صادقًا من قلبه نفعته عند الله، وإلا فليس لنا إلا الظاهر بخلاف من كان يتكلم بها في حال كفره.

قوله: (فقالا له: أترغب عن مِلَّة عبدالمطلب؟) ذكراه الحجة الملعونة التي يتعلق بها المُشرِكون من الأولين والآخرين، ويردون بها علىٰ الرُّسُل، وهي تقليد الآباء والكبراء، وأخرجا الكلام مخرج الاستفهام مبالغة في الإنكار، لعظمة هذه الحجة في قلوب الضالين، وكذلك اكتفيا بها في المجادلة مع مبالغته ﷺ وتكريره، فلأجل عظمتها ووضوحها عندهم اقتصرا عليها. قال المصنف.

وفيه تَفسِير لا إِلَه إِلَّا الله، بخلاف ما عليه أكثر من يدعي العِلْم.

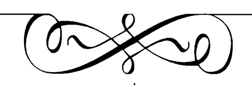


الشَّرح

يقول: إن الشَّخص الذي كان ينكر لَا إِلَه إِلَّا الله يطلب منه أن يقولها عند الموت، لكن إن كان يقولها في حال كفرِه كما يقولها اليَهُود فلا يكفي، لابد أن يقولها وأن يشهد الشهادات الأخرىٰ التي تُدعِمُها، وهي شهادة أَنَّ مُحمَّداً رَسُول الله، وأَنَّ عيسىٰ رَسُول الله وكلمته أَلقَاها إلىٰ مَرْيَم وروحٌ منه، فهذا مراده رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قوله: (**لأنه لو قالها لنفعته ...**) يقول ﷺ: إنهم ما كان عندَهم شيء يردُّون به علىٰ رَسُول الله ﷺ، إنما قالوا: أترغبُ عن مِلَّة عَبد المُطَّلِب؟ أي عن مِلَّة أبيك، فهذا الردُّ دلَّ علىٰ أنَّه ليس عندهم ما يُبطِل هذه الكلمة، إنما ذكَّرَاه بالتَّقلِيد، وتعظيمِ آبائه وأجداده، قالوا له: كيف ترغبُ؟، وكيف تترك مِلَّة أبيك عَبد المُطَّلِب؟، فذكَّرَاه بهذه الحُجَّة التي هي حجَّة باطلة، فإن الحق ليس في تقليدِ الآباء، فقد يكون الآباء مُخطِئِين، وليس عيباً أن ينتقل الإنسَان من الخَطأ إلىٰ الصواب، وإن كان الخطأُ عليه آباؤه، فقد يمَنُّ عليه، ويوفقه الله - ﷻ - حتىٰ يرَىٰ الحقَّ، فينبغي له أن يقبَله، ولا ينبغي أن يبقَىٰ علىٰ البَاطِل بحجَّة أن هذا كان دينَ آبائه.

قوله: (**وفيه تَفسِير لَا إلَه إلَّا الله، بخلاف ما عليه أكثر من يدعي العِلْم**) أن لَا إلَه إلَّا الله لها مَعنَىٰ، وأن أبا طَالِب كان يعرفُ معناها، وإلا لو كان المقصودُ القولَ فقط، أو كان المقصودُ الاعترافَ بالخَالِق لقالها أبو طَالِب؛ لَأنَّ قُرَيْشاً تؤمن بالخَالِق، كما قال -تَعَالَىٰ-: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان:٢٥]، فلو كان معناها الإيمان بالخَالِق ما امتنع أبو طَالِب من قولِها، ولو كان القَصدُ القولَ الَّلفْظي فقط ما امتنع أبو طَالِب من قولها، لكن لما كان لها مَعنَىٰ لا يريده أبو طَالِب؛ فَإنَّه لم يقُلها، فعدمُ قوله لها لأنَّه يعرف أنّض معناها ليس هو الذي فهمه بعض المُتأخرين من المتكلمين أنَّ معناها لا خالِق إلا الله، هذا ليس معناها لا لغة ولا شرعاً.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفيه أن أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النَّبِي ﷺ، إذا قال الرجل قل لَا إِلَه إِلَّا الله، فقبح الله من أبو جهل أعِلْم منه بأصل الإسلام.

قوله: (فأعاد عليه النَّبِي ﷺ. وأعادا)، أي أعاد عليه النَّبِي ﷺ مقالته، وأعادا عليه مقالتهما مبالغة منه ﷺ وحرصًا علىٰ إسلام عمه، ومع ذلك لم يقدر النَّبِي ﷺ علىٰ ذلك، ولا علىٰ تخليصه من عَذَاب الله، بل سبق فيه القضاء المحتوم واستمر علىٰ كفره، وأبىٰ أن يقول لَا إِلَه إِلَّا الله، فلو كان عند النَّبِي ﷺ من هداية القلوب وتفريج الكروب شيء لكان أحق النَّاس بذلك وأولاهم عمه الذي فعل معه ما فعل.



الشَّرْح

أبو جهل كان يعرف مَعنَىٰ لَا إِلَه إِلَّا الله، واسمه عُمَرو بن هشام، وكان يكنىٰ في الجَاهِلِيَّة بأبي الحكم، لكن عندما وقف المواقف السيئة من الإسلام سماه المُسلِمُوْن أبا جَهل، فهذا أبو جَهل امتنع من قول: "لَا إِلَه إِلَّا الله"؛ لأنها لها من المَعَانِي ما لا يريده، وهو يعترف بأنه ليس هناك إله إلا الله جَلَّ وَعَلَا، كما قالت قُرَيْش: ﴿ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥ ﴾ [ص:٥]، فهم أنكروا الأُلُوهِيَّة، ولم ينكروا الرُّبُوبِيَّة أن الله ربُ الخلقِ، وأنَّ اللهَ خالقُ الكون، فامتناعُ أبي جهل ليس عن إثباتِ الخَالِق، وإنما عن إثبات حق الخَالِق، الذي هو العِبَادَة الخاصَّة بالله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -.

قوله: (فأعاد عليه النَّبِي ﷺ) هذه كلمةٌ من الحَديث، قوله: (فأعادا)، أي عبد الله بن أبي أمية، وأبو جهل. الرَّسُول ﷺ يقول: يا عمي قل لَا إِلَه إِلَّا الله،

وهما يقولان له: أترغبُ عن مِلَّة عَبد المُطَّلِب؟، يذكِّرانه بما تعارف عليه أهل الجَاهِليَّة من العيب، كيف تترك مِلَّة أبيك؟، هذا طعنٌ في عقلِك وطعنٌ في أبيك، وقد وَرَدَ في صحيح مسلم أنَّه قال: (**لولا أن تعيرني قُرَيْش يقولون إنما حمله علىٰ ذلك الجزع لأقررت بها عينك**)(١) هذا هو الجَهلُ، يعلم أن هذه الكلمةَ حقٌ، لكن العزةُ بالإثم أخذَته ومنَعته من أن يقولها، يخشىٰ أن تُعيرَه نساءُ قُرَيْش يقُلن: أنَّه ضعيفٌ وجَبَان.

وكثير من النَّاس يترك الحقَّ ويأباه حتىٰ لا يُجرَح في شخصه كما يزعم، واتباع الحقِّ لا ينقُص، بل هو يرفَع. أذكر أنَّه قبل عدة سنوات، كانت هناك ندوة حضرها شيخان، فناقض كلامُ أحدِ الشيخين كلاَمَ الشيخ الآخر، فعندما جاءت الفُرصة للشيخ الثاني بَيَّنَ بأسلوب مُؤدب أنَّه ما أصاب فيما قال -أمام الملأ- وقال: في الحقيقة إنَّني أسحبُ كلامي، وإن الشيخ فلانًا قد أصابَ فيما قال، وأعتذرُ عمّا قلت!! من يقول هذا إلا العظماء، فالإنسَان أحيانًا يأخذه الكِبر وتأخذه الأنَفَةُ وهو يعلم أنَّه علىٰ البَاطِل فيأبي أن يقبل البَاطِل، وهذا ـ نعوذ بالله ـ ليس من خُلق المسلم، ولهذا يقول أهل العِلْم: ليس الفرقُ بين العَالِم والجَاهِل أنَّ العَالِم لا يخطئ، والجَاهِل يخطئ، بل الفرق بينهما: العَالِم يخطئ، لكنه يعرف صورة الحقِّ، فإذا ذُكِّر بها عرفها، لكن الجَاهِل يخطئ وهو لا يعرف الحقَّ أصلاً، مهما تَشرَح له لا يفهَم، ولهذا العَالِم إذا ذكر يذكر ويعرف الحق فيرجع، فإن لم يرجع كان استكباراً علىٰ الحق، ونقصًا في حقه، فهنا أبو طَالِب يرىٰ أن رجوعه إلىٰ الحق عيب عليه، ونقص في حقه، ويخشىٰ أن تعيره نساء قُرَيْش، فمات علىٰ الكُفْرِ، ومصيرُه جهنمُ وساءت مصيراً.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الدَّلِيل علىٰ صحة إسلام من حضره الموت مالم يشعر في النزع وهو الغرغرة...، برقم: (٢٥)، (١/ ٥٥).

وَرَدَ في الصَّحِيح حديثان، الأول: أنَّ العَبَّاس رضي الله عنه قال: يا رَسُول الله، كان عمُّك يحوطُك ويغضب لك، فهل نفعته بشيء؟ قال - عليه الصلاة والسلام - : (هو في ضحضاح من النَّار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النَّار)(١) هذه رواية، الرِّوَاية الثانية: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال ﷺ وقد ذكر له عمَّه فقال: (أرجو أن تنفعه شَفَاعَتِي يَومَ القِيَامَة) هنا لم يجزم قال: (أرجو أن تنفعه شَفَاعَتِي يَومَ القِيَامَة فيكون في ضحضاح من النَّار يصل إلىٰ كعبيه يغلي منهما دماغه)(٢) هذا أخفُّ شيء في النَّار، فهنا يرجو، أمَّا في الحَديث الأول، فقال: لولا أنا. أوَ ليس هذان اللَّفْظان وَرَدَا عن رَسُول الله ﷺ؟، لا شك أن الذي وَرَدَ أحدهما، وإن كانا في الصَّحِيح؛ لأنَّ المَوْرَدَ إذا كان واحداً لا يمكن أن يكون بلفظين، وسيأتي نموذج لهذا في أبوي النَّبي ﷺ، فَإنَّه قد وَرَدَت أحاديث في مسلم عندما سأله رجل، قال: يا رَسُول الله: أين أبي؟ قال: (في النَّار) وفي رواية: أنَّه تولىٰ قَفَا أي: ذهب، فقال: (وأبوك يا رَسُول الله؟(٣) قال:) في رواية أخرىٰ فقفا فقال: (إن أبي وأباك في النَّار)(٤) وفي لفظ آخر (حيثما مررت بقَبْر مشرك فبشره بالنار)(٥).

---

(١) أخرجه البُخارِي في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طَالِب، برقم: (٣٨٨٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب شَفَاعَة النَّبي ﷺ لأبي طَالِب والتخفيف عنه بسَبَبَه، برقم: (٢٠٩)، (١/ ١٩٤).

(٢) سبق تخريجه، والحَديث في الصَّحِيحين، وليس في مسلم فقط كما ذكر الشيخ.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه بلفظ: "فأين أبوك"، كتاب الجنائز، باب ما جاء في زيارة قُبُور المُشرِكِين، برقم: (١٥٧٣)، وصححه الألباني في تعليقه.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن من مات علىٰ الكُفْر فهو فيالنَّار ولا تناله شَفَاعَة ولا تنفعه قرابة المقربين، برقم: (٢٠٣)، (١/ ١٩١).

(٥) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في زيارة قُبُور المُشرِكِين، برقم: (١٥٧٣)، وصححه الألباني في تعليقه.

وبعض العُلَمَاء رأىٰ أن هذا اللَّفْظ هو المُقدم، وأنه ليس فيه نصٌّ علىٰ أن أباه في النَّار، وهذا ما رجحه السِّيُوطِي وانتصر له، وألف في هذه المسألة ست رسائل، يبينُ أن أبوي رَسُول الله ﷺ في الجَنَّة، ولا شك أنَّه تكلف في هذا، وخرج عن إطارِ الحقيقة وعن إطار البحث العِلْمي، وجمع من الروايات والأحَادِيث الضَّعِيفَة والموضوعة ما لا يُعارِضُ ما صحَّ في هذه المسألة، هب أنَّ هذا الحَديث صح باللفظ الثاني، لكن الحَديث الذي في مسلم أنَّه قال - عليه الصلاة والسلام - : (**استأذنت ربي في أن أستغفر لأمي فأبىٰ، واستأذنته في أن أزور قَبْرها فأذن لي**)(١) ماذا نقول في هذا الحَديث؟ وسيأتي أن النَوَوِي رحمه الله ذكر أن هذا الحَديث وَرَدَ في أصول المغاربة، ولم يرد في أُصول المشارقة، صحيح مُسلم له أصول، له نُسَخ، قال: وَرَدَ في بعضها، ولم يرد في البعض الآخر، لكنه قال بعد ذلك، ولكنه صحَّ من رواية الثقات، فأحياناً تجد الحَديث الواحدَ يأتي بأكثر من متن، وترجيحُ أحد المُتون يحتاج إلىٰ دراسة وبحث؛ لَأنَّ المُتون جاءت بألفاظ مختلفة، فإذا كانت الُمتون مخرجُها قصةٌ واحدة أو حديثاً واحداً لا يمكن أن يكون الرَّسُول ﷺ قال تلك الألفاظ كلها، لابد أن يكون القولُ الذي قاله بعضها؛ لَأنَّ العُلَمَاءَ كانوا يَستجيزون أن يَرووا بالمَعنىٰ، فبهذا يحتاج الترجِيح إلىٰ دراسة للمسألة.

فهنا عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل قالا: أترغب عن مِلَّة عَبد المُطَّلِب، فمات علىٰ مِلَّة عَبد المُطَّلِب، فدل علىٰ أن أبا طَالِب يعرف مَعنَىٰ لَا إِلَه إِلَّا الله، وأنها تعني الانتقالُ إلىٰ دينٍ جديد، وليس معناه أنَّه يُقرُّ أنَّ الله خالقٌ؛ لَأنَّ القُرآن يُقرِّر أنَّ قُرَيْشاً تعرف أنَّ اللهَ خالق.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب استئذان النَّبِي ﷺ ربه عز وجل في زيارة قَبْر أمه، برقم: (٩٧٦)، (٢/ ٦٧١).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفيه الحرص في الدعوة إلىٰ الله والصَّبْر علىٰ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المُنكَر، وإن رد ذلك علىٰ صاحبه وتكريره وعدم الاكتفاء بمرة واحدة.

قوله: (فكان آخر ما قال)، هو بنصب آخر علىٰ الظرفية أي آخر زمن تكليمه إياهم ويجوز رفعه.



الشَّرْح

قوله: (وفيه الحرص في الدعوة إلىٰ الله والصَّبْر علىٰ...) هذا من المسائل المستنبطة من الحَديث أن النَّبي ﷺ عندما ذهب إلىٰ أبي طَالِب، فرد عليه عبد الله بن أبي أمية، وأبو جهل لم يسكت النَّبي ﷺ بل ردَّ، نرىٰ هنا الأدب النبوي، ما تكلم معهما وما جرحَهما، إنما كان يُعلِّم أبا طَالِب أن يقول: لَا إِلَه إِلَّا الله، ما قال: أنتما سفِيهان، أنتما كافِران، أنتما كذا؛ لَأنَّ المقام ليس مقامَ مناظرةٍ، ولا مقامَ أحكام، إنما هدفُه أن يعِلْم أبا طَالِب، حرصًا علىٰ إسلامه لما كان يحوطه وينصره، لكن الله لم يرد، فعجز رَسُول الله ﷺ أن يهدي عمَّه؛ لَأنَّ هداية القلوب ليست للبشر، إنما هي بيد الله ﷻ، لكن هداية الإنسَان التي للنبي، أو الدُّعَاة أو العُلَمَاء إنما هي هداية دِلالة وتعليم، أمَّا هداية القَلْب لا يملكُها أحدٌ، ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص:٥٦]، فالشاهدُ أنَّه ﷺ لم يستطع أن يهدي عمه أبا طَالِب، فالذين يَدعُون الرَّسُول ﷺ ويستغيثون به لقضاء حوائجهم جِهلوا مَقامَ الرَّسُول ﷺ، هذا ليس من صلاحياته ولا من خَصَائِصه ﷺ، هذا من خَصَائِص الخَالِق، الله الذي يهدي، وهو الذي يعطي، وهو الذي يُستَغَاثُ به.

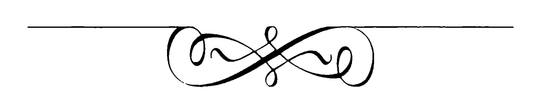
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قولـه: (هـو علىٰ مِلَّـة عبـدالمطلب)، الظـاهر أن أبـا طَالِـب قـال: أنـا، فغيـره الـرَّاوِي أنفـة أن يحكـي كـلام أبي طَالِـب، اسـتقباحـًا للفـظ المـذكور، وهـي مـن المتصرفات الحسنة، قاله الحافظ، وقد رواه الإمام أحمد بلفظ أنا، فـدل علىٰ مـا ذكرناه.

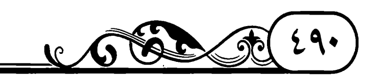
الشَّـرْح

آخر قول أبي طَالِـب الـذي مـات عليـه: أنـا علىٰ مِلَّـة عَبـد المُطَّلِـب، لكـن الرَّاوِي ما قال أنا، بل قال: هو، وحِكايةُ الكُفْر لا تُكَفِّر الإنسَان، لكن أحيانـًا قـد يترفَّع الإنسَان عنها حتىٰ لو كانت حكاية، يجوز للإنسان إذا أراد أن يـروي عـن كافرٍ قوله بِأنَّ يقول أنَّه قال: أنا علىٰ الكُفْر، لكن لـو قـال: هـو علىٰ الكُفْـر صـارَ أحسن، فكلاهما جائز، ولهذا الحَديث وَرَدَ بلفظين، في الصَّحِيحين بلفظ :هـو، وفي المسند بلفظ: أنا، وكذا الطَّلَاق، فلو قال فلان: طلقت زوجتي أو أنا أطلِّـق زوجتي، فيخاف الحاكي أن يقول :أنا، يخشىٰ لو قال هـذا الكـلام يقـع الطَّـلَاق علىٰ زوجته، فيقول: قال فلان إن زوجته طالق، فلا يذكر بضمير المتكلم، إنمـا بضمير الغائب، فكلاهمـا جـائز، فحكايـة الكُفْـر لا تـؤدي إلـىٰ الكُفْـر، وحكايـةُ الطَّلَاق لا تطلق الزوجـة، وحكايـة العتـق لا تُعتِـق، ومـن الطرائـف أن شخصـًا كان مع زوجته وكان يداعبُها في البيـت جالسين في جلسـة فيهـا الأُنسُ والَمـرح والحَديث الطيـب، فقـال لهـا: أنـت طـالقٌ ففزَعَـت، وقالـت : مـا هـذا مـا الـذي حدَث له، هذا رجلٌ جاهل، قال: معكِ الكاميرا الخفيـة، فـأراد هـو أن يـداعبُها، لكـن الطَّـلَاق لـيس فيـه مُداعَبـة، ولا فيـه كـاميرا خفيـة، كمـا جـاء في الحَـديث:

(ثلاث جدهن جد، وهزلهن جد: اليمين والطَّلَاق والعتاق)[١]، لو شخص قال لزوجته: أنت طالق يمزح ما يقبل منه، لو حلف علىٰ أمر كاذبًا وهو يمزح ما يقبل منه، فالجَّد في هذه المسائل والهزلُ واحدٌ، فحكايةُ الكُفْر أو حكايةُ الطَّلَاقِ عن الغَيرِ لا بأسَ بها، ولو عزاها إلىٰ القائلِ بضمير الغائبِ لكان أحسنَ، لكن لا ينبغي له أن يُداعِب فيها أو يُمازِح.



(١) ما وجدت هذا الحَديث بهذا اللَّفْظ، وأخرجه بلفظ: "النكاح والطَّلَاق والرجعة" أبو داود في سننه، كتاب الطَّلَاق، باب الطَّلَاق علىٰ الهزل، برقم: (٢١٩٤)، والترمذي في سننه، كتاب الطَّلَاق، باب ما جاء في الجد والهزل في الطَّلَاق، برقم: (١١٨٤)، وابن ماجه في سننه، كتاب الطَّلَاق، باب من طلق أو نكح أو راجع لاعبًا، برقم: (٢٠٣٩)، والحاكم في المستدرك، كتاب الطَّلَاق، برقم: (٢٥٨٩)، (٢/ ٢٣٦)، وصححه، ولكن ضعفه الذهبي في التلخيص، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرىٰ، كتاب الخلع والطَّلَاق، باب صريح ألفاظ الطَّلَاق، برقم: (١٤٩٩٣)، (٧/ ٥٥٧)، وأخرجه غيرهم كالدارقطني في سننه، وسعيد بن منصور في سننه، والطحاوي في شرح معاني الآثار، وابن الجارود في المنتقىٰ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (وأبىٰ أن يقول لَا إِلَه إِلَّا الله)، قال الحافظ: هذا تأكيد من الرَّاوِي في نفي وقوع ذلك من أبي طَالِب، وكأنه استند في ذلك إلىٰ عدم سماعه منه في تلك الحال، كذا قال، وفيه نظر بل نفيه مستند إلىٰ إباء أبي طَالِب عن قولها، بقوله: وهو علىٰ مِلَّة عَبد المُطَّلِب.

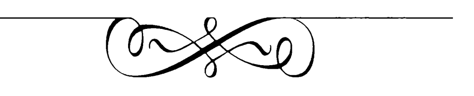
الشَّرْح

أحيانًا بعض الشُّرَّاح يُخرِج بعضَ الكلام وفقًا لمَذهَبه في مسألة من المسائل فإن الحافظُ يميل إلىٰ أن أبوي الرَّسُول ﷺ في الجَنَّة وأنهما مُسلمان، وإن لم يُصرِّح، وقد ذهب إلىٰ هذا بعض العُلَمَاء منهم الآبي :(شارح صحيح مسلم)، ومنهم ابن الجوزي عُزِيَ إليه، ومنهم السِّيُوطِي، وقلنا السِّيُوطِي ألف في ذلك ست رسائل هذه عناوينها:

- **الأول**: "مسالك الحنفاء في والدي المصطفىٰ".
- **والثاني**: "الدرج المنيفة في الآباء الشريفة".
- **والثالث**: "المقامة السَّنَدسية في النسبة المصطفوية".
- **والرابع**: "التَّعظِيم والمنة في أن أبوي رَسُولِ الله في الجَنَّة".
- **والخامس**: "نشر العِلْمَين المنيفَين في إحياء الأبوين الشريفين، أي الله أحياهما ثُمَّ أسلما".
- **السادس**: السبل الجلية في الآباء العلية.

كل هذه الرسائل الست يجمع فيها من الأقوال والأحَادِيث الضَّعِيفَة والتوجيهات التي فيها تكلُّف علىٰ أنهما في الجَنَّة، وهذا ليس لنا فيه مصلحة،

نحن لا نحكم عليهما أنهما في الجنة أو النَّار، إنما المقصَد هو اتباع ما وَرَدَ، فإذا جاء الحَديث قلنا به ونقفُ عنده، لكن لا نجعلها قضية ننشُرها، وقد جاء في الحَديث: (لا تسبوا أمواتنا فتؤذوا أحياءنا)(١)، فكان بعض الصَحَابَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في صدر الإسلام يسبون بعض المَيِّتين المُشرِكِين، ويظنون أن هذا تقرُّب إلىٰ الله، ليس في سبِّ المَيِّت قربىٰ، وسب إبليس ليس فيه قُربَىٰ، السبُّ ليس فيه قُربىٰ، القُربىٰ والتقرب هو المَحَبَة والعَدَاوَة في ذات الله، تحب هذا الشَّخص لله أو تكرهه لله، فإن هذا هو الذي فيه أجر، ذِكرُ الله، تسبيحُ الله، بيانُ الخطأ الذي وَقَعَ فيه إنسان مخالف، هذا عِبَادَةٌ، أَمَّا السبُّ والشتم ليسا عِبَادَة، فلو جلس شخص من الصباح إلىٰ المساء يسب إبليس ما له أجر، نحن لم يتعبدنا الله بالسب، فنقول: إنما لا ينبغي لنا أن تكون هذه قضية، ويكون فيها فريقان، وكل فريق ينتصر لما يقول، إذا صح الحَديث قلنا به، لكن مثل هذا الحَديث إذا كان له أكثر من مَتن يحتاج إلىٰ تحقيق، مثل حديث أم النَّبِي ﷺ، أي: كلا الحَديثين وَرَدَ فيهما ما يستدعِي البحث في كل منهما، وإن كانا في مسلم، لكن وَرَدَت بعض أقوال أهلِ العِلْم يحتاج إلىٰ بحثٍ وتدقيق حتىٰ لا نخطئ في أمرٍ لا ينفعُنا فيه الخطأ بل ربما يضُرُنا.



(١) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال المصنف: وفيه الرد على من زعم إسلام عبدالمطلب وأسلافه.



الشَّرح

هذا حديث صحيحٌ، فلو قال به الإنسَان لا يُلام؛ لَأنَّ الذي يُلام هو الذي يُخالف الحَديث، إلا إذا خالفَه بدراسة وبحث خرج منها إلى ما يدل على أن الحَديث ليس على لفظِه، أو أنَّ هناك ما يعارضه، لا نكون أغيرَ على دين الله من رَسُول الله ﷺ، قد يقول قائل كما يقول جمهور الأشاعرة: إن أبوي رَسُول الله ﷺ في الجَنَّة، قالوا: هذه فترةٌ وأهلُ الفترة لا يُعذَّبُون، كما قال -تَعالَىٰ-: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾ [الإسراء:١٥]، هذا هو الأصل، أنَّ الله لا يُعذِّب إلا إذا قامت الحُجَّة، ففي قُرَيْش كانت النُبوَّة مُندَثرة، ولم يكن النَّاس يعرفون الحقَّ ولا التَّوحِيد، لو كانت قُرَيْش تعرف التَّوحِيد كان الرَّسُول ﷺ استباح دماءهم من البداية، ما دعاهم إلى الله؛ لأنهم عرفوا الحقَّ وتركوه، فدل موقفه ﷺ على أنهم لا يعرِفون، وإلا لكانت دماؤهم مُباحة، وهناك دراسة أطول من هذا ذكرها السِّيُوطِي، وفيها شيء من الوجَاهة، لكن فيها تكلُّف؛ لَأنَّ الشَّخص قد يتخذ موقفاً ثُمَّ يذهب يبحث عما يؤيد الموقف، وليس بصحيح؛ لأنه جعل الشَّرعَ فرعاً، وجعل موقفه أصلاً، مثلاً: تقول: والد الرَّسُول ﷺ في الجَنَّة ولا يمكن أن يكون في النَّار، فالأحَادِيث وجدها تخالف هذا الموقف، فيحاول تأويلها بأي طريقة!.

والصَّحِيح أن تجعل ذهنك خاليـاً، ثُمَّ تبحث، فإذا بحثت في القُرآن والسُّنَّة أو في كلام العُلَمَاء وجدت الحقَّ ، والتوقُّف أحسن في هذه المسألة، فلا تجعل لك موقفاً في قضية من القضايا ثُمَّ تذهب تجعل القُرآنَ والسُّنَّة يؤيدان مَذهَبك؛ لَأنَّ الذي يجعل القُرآن والسُّنَّة تبعاً لهواه، ويتحمَّس، ويظن أن هذا

فيه نصر للدين على خطأ، لا ينبغي للإنسان أن يحرِص على أحد الجوابين، يجعل حرصه ما الذي يتقرر في الدَّلِيل، وبهذا يكون بإذن الله سلك المَنْهَج الصَّحِيح، هدفك اتباع ما صح من الدَّلِيل، وليس هدفك اتباع فلان، أو اتباع المَذهَب الفلاني، فالإنسَان المسلم المُعتَدِل المنصف الذي هو في مَنْهَج وسط مستقيم لا تكون لديه مقررات يذهب يبحث عمَّا يؤيدها في القُرآن والسُّنَّة، بل يجعل مقرراته تبعاً للكتاب والسُّنَّة، ولو خالفت هواه، هذا هو الصَّحِيح.

فهذه المسألة من المسائل التي تحتاج إلى بحث أطول؛ لأنه أحياناً يرد في الحَديث الواحد أكثر من متن، كما في حديث: (**أنه بيت فيه تمر لا يجوع أهله**)(١) هذا لفظ، وهذا هو اللَّفْظ الصَّحِيح. (**بيت لا تمر فيه أهله جياع**)(٢) هذا المتن ما صح؛ لأنه كم بيت في الأَرض ليس فيه تمر ولا يعرفون التَّمْر، وهم شابعون وآكِلون، وصحتهم على أحسنِ صحة، فهذا يخالف الواقع في الحقيقة، فنظرنا في المتنَين، فرأينا أن المتنَ الأول هو الذي قاله رَسُول الله ﷺ، أنَّ التَّمْر إذا كان في بيت أهلِه لا يجوعون؛ لَأنَّ التَّمْر والماء فيهما غذاءٌ كامل، فدلَّ على أن المتنَ الأولَ هو الصَّحِيح، ومسلم رَوَى كلا المتنَين لا ليصحِّحهما، إنما رَوَى المتنَ الأول، ودائماً مسلم رَحِمَهُ اللهُ له مَنْهَجٌ، يذكر الأحَادِيث الصَّحِيحة التي نسمِّيها أصولاً في أول الباب، ثُمَّ يذكر بعد ذلك الشواهد، وإسنادُها أقلُّ من السَّنَد الأول، هذه تسمى مُتَابعات أو شواهد، فالذي يذكره في بداية الباب هو المُعتَمدُ عنده، ويأتي بآخر بعده ليبين أنَّ للحديث مخرجاً، لا ليقرر أنَّ المتن صحيح؛ لَأنَّ المتن في الحقيقة بهذا اللَّفْظ ليس متناً سليماً، فقبل أن نُرجِّح أحد اللَّفْظين يحتاج إلى دراسة متأنِّية في أية مسالة وَرَدَ فيها ألفاظ مختلفة.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ومضرة أصحاب السوء علىٰ الإنسَان، ومضرة تعظيم الأسلاف والأكابر أي زيادة علىٰ المشروع، بحيث يجعل أقوالهم حجة يرجع إليها عند التنازع.



الشَّرْح

من فوائد الحَديث بيان مضرة أصحاب السوء، فلو لـم يحضـر عبد الله بـن أبي أمية، وأبو جهل عند أبي طَالِب ربما يُسلِم، لكن لما كانا هـذان الصـديقان السيئان حاضرين والرسول ﷺ عرض عليه الإسلام، ثُمَّ تدخلا وذكَّراه بمِلَّة أبيه، فهذه ثمرةُ الصَّدِيق السيء، فالإنسَان ينبغي أن يكون أصدقاؤه من الطيبين الذين يعينونه علىٰ طاعةِ الله، يعينونه علىٰ الحق، ولا يعينون البَاطِل والشَّيطَان عليه، فهذه من مَضـرة أصدقاء السوء، كذلك في الحَديث بيانُ مَضرَّة تعظيم الأسلَّاف والأكَابر. إذا كان هناك حقٌّ وهو مُؤَيد بالدَّلِيل، وخالفه إنسان كبير، فيقول بعض النَّاس: كيف فلان يُخَالف؟، والحق أنَّه إذا صحت المسألة بالدَّلِيل لا ننظر إلىٰ أحدٍ من البَشَر؛ لأنَّ الحق ليس مع البَشَر، ولا يُعرف بسلوك النَّاس، فهو بالدَّلِيل. الحُجَّة ليست في قول أحد من البَشَر كما قال أهل العِلْم: الحق لا يُعرَف بالرجال، إنما يُعرَف الرجال بالحقَّ، لو كان كل ما يقوله شخص حقـاً ولو خالفَ الدَّلِيل لكان هذا نَبِيـاً جديداً، فالحق إنما يُعرف بدليله، فإذا أخبرنا إنسان بمسألة بدليل واضح صريح وكان قد خالفَه إنسانٌ كبيرٌ، لا ننظر إلىٰ أفعال الكبير، وأبو طَالِب نظر إلىٰ جَدِّه، وَذَكَّراه بجده، قالا: كيف تموت علىٰ دين آخر غيرِ دينِ أبيك عَبد المُطَّلِب، هذا تَنقِيص لأبيك عَبد المُطَّلِب، فَبقِيَ علىٰ هذه العقيدة الكُفْرية؛ لأنَّه يظُنُّ أن تركها فيه نَقصٌ لأبيه عَبد المُطَّلِب.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (فقال النَّبي ﷺ: لأستغفرن لك ما لم أنَّه عنك)، أقسم ﷺ ليستغفرن له إلا أن ينهىٰ عنٰ ذلك، كما في رواية مسلم (أما والله لأستغفرن لك) قال النَوَوِي: وفيه جواز الحلف من غير استحلاف، وكأن الحلف هنا لتأكيد العزم علىٰ الاستِغفَار وتطييبًا لنفس أبي طَالِب، وكانت وفاة أبي طَالِب بمكة قبل الهجرة بقليل، قال ابن فارس: مات أبو طَالِب ولرسول الله ﷺ تسع وأربعون سنة وثمانية أشهر وأحد عشر يومًا، وتوفيت خديجة أم المُؤمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بعد موت أبي طَالِب بثمانية أيام.

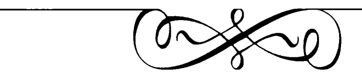
قوله فأنزل الله: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [التوبة:١١٣]. أي ما ينبغي لهم ذلك، وهو خبر بمَعنَىٰ النَّهي.



الشَّرح

قوله ﷺ: (أما والله لأستغفرن لك) ، الحَديث فيه أن الرَّسُول ﷺ أقسَمَ ليستغفرن لأبي طَالِب، وهو مُشرك، لحرصِه علىٰ هدايته، ولَّما كان يُحِبُّه حباً طبيعياً وليس حُباً شرعياً، وكان يودُّ أن يُسلِم، وكان أبو طَالِب يحميه ﷺ، وقد رأىٰ رَسُولُ الله ﷺ أربعين سنة، منذ كان عُمَره ثمان سنوات عند موتَ جَدِّه عَبد المُطَّلِب إلىٰ أن توفي، وأبو طالب يحمِيه ويحرسُه ويربيه ويمنعه من المُشرِكِين بعد أن أعلن النُبوَّة فالعشرة الطويلة جعلته ﷺ يعطف عليه ويرحمه، ويود أن لو يُسلِم، وعندما أبىٰ أن يُسلِم أراد أن يستغفر له، لكن جاء من الله النَّهي عن الاستِغفَار لمن مات مشركًا.

و(ما كان) عادةً في اللغة تأتي بمعنيين: تأتي للنفي، وللنهي، كقوله -تَعَالَى-: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران:١٤٥]، فهنا للنفي، لكن ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب:٥٣]، نهي، فهنا قوله -تَعَالَى-: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾: نهي، هذا أسلوب من أساليب النَّهِي، وصيغة من صيغه غير المباشرة، أي لا ينبغي لكم، لكن لو جاء الأمر لا تستغفروا، فإن هذا يكون نهياً صريحاً.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقد رَوَىٰ الطبراني عن عُمَرو بن دينار قال: قال رَسُول الله ﷺ: (استغفر إبرَاهِيم لأبيه وهو مشرك، فلا أزال أستغفر لأبي طَالِب حتىٰ ينهاني عنه ربي) فقال أصحابه: نستغفر لآبائنا كما استغفر نبينا لعمه فنزلت ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ [التوبة:١١٣، ١١٤]، وهذا فيه إشكال؛ لأنَّ وفاة أبي طَالِب بمكة قبل الهجرة اتفاقًا.

وقد ثبت أن النَّبي ﷺ أتىٰ قَبْر أمه لما اعتمر فاستأذن ربه أن يستغفر لها فنزلت هذه الآية.

الشَّرح

قوله: (وقد رَوَىٰ الطبراني عن عُمَرو بن دينار قال: قال رَسُول الله ....)(١) هذا الحَديث يبين سَبَبَ نزول الآية، وهو وإن كان ضعيفًا، لكن معناه قريب من مَعنَىٰ الآية؛ لأنَّ الآية تقول: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ

---

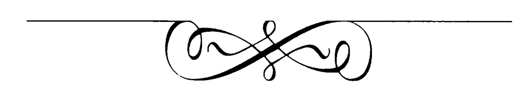
(١) ما وجدته في الطبراني في النسخة المطبوعة ولكن ذكرها ابن حجر في فتح الباري لابن حجر (٨/ ٥٠٨) وعزاها للطبراني، وقد أخرج الحاكم في المستدرك، أن النَّبي ﷺ لما مات أبو طَالِب قال: "رحمك الله وغفر لك يا عم، ولا أزال أستغفر لك حتىٰ ينهاني الله ﷻ ، فأخذ المُسلِمُوْن يستغفرون لموتاهم الذين ماتوا وهم مشركون، فأنزل الله -تَعالَىٰ -: (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربىٰ من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم)، كتاب تَفسِير القُرآن، تَفسِير سورة التوبة، برقم: (٣٣٥٠)، (٢/ ٣٩٨)، وأخرجه أيضًا ابن سعد في الطبقات (١/ ١٢٤).

﴿لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾ كأنه حدث في المجتمع المُسلم أن بعضهم استغفر للمشركين من آبائه وأقربائه، فأنزل الله هذا النَّهي، وكأنَّ المُسلِمُين فهموا من استغفارِ إبرَاهِيم عليه السلام لأبيه أنَّه يَجُوز للمُسلم أن يستغفر للأب المُشرك كما قال -تعَالَىٰ-: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤].

ففيه عليه السلام أُسوة، والذي ليس لنا فيه أُسوةٌ جاء بعدها مباشرةً: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ ليس لكم فيه أُسوةٌ، ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ هذه هي الموعِدةُ، إبرَاهِيم عليه السلام وعدَ أباه أن يستغفر له، فالله يقول في الآية السابقة: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة:١١٣، ١١٤] أي: هو وعَد أباه بالاستِغفَار، لكن عندما عرَف أنَّه من أهل الجحيم تبرَّأ، كذلك أنتم أيها المُسلِمُوْن، لا تَستغفرُوا لمن عرفتم أنَّه من أصحابِ النَّار.

فهل الاستِغفَار للمُشرك وَرَدَ نصاً في كتاب الله؟ هل هذه الرِّواية صحت أنَّه عند ما استغفر الرَّسُول ﷺ لعمه أبي طَالِب قال بعض المُسلِمِين: إنا لنستغفرن لآبائنا، فيه احتمال، لكن الحَديث فيه ضَعف؛ لأنَّه مُرسَل، وعُمَرو بن دينار ليس صحَّابياً، بل من التَّابِعين، بل إن لم يكن من أتباع التَّابِعين، فأيُ تابِعي يقول: قال رَسُول الله، أو حدث في وقت رَسُول الله فإن هذا يسمىٰ مُرسَلاً، والمُرسَل ضعيف؛ لأنه سقط منه رواة.

قوله: (وقد ثبت أن النَّبِي ﷺ أتىٰ قَبْر أمه..)[١] هذا الحَديث قال فيه المُحقَّق: أنَّه استَأذن في زيارتها، ولكن لم يذكر مُسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنها سَبَبَ نزول الآية؛ لَأنَّ الآية في أبي طَالِب كما في الصَّحِيحين، فلم يَذكُر مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ الآية نزلت في هذه المناسبة، لكن من عادة الشارح أنَّه إذا كان أصلُ الحَديث في مسلم أوفي البُخارِي وليس فيه نفس الَّلفْظ يقول: رواه مُسلم أو البُخارِي؛ لأنه يعتقد أن البُخارِي ومسلماً قد تصرَّفا في تركِ بعض لفظه، وكذلك بعض المؤلفين مثل البَغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح السُّنة، يقول: رواه البُخارِي لكن ليس بنفس الَّلفْظ، فَإِنَّه يذكر الحَديث بسنده، ومتنِه، وليس في البُخارِي ولا في مسلم بنفس المتن، فلا ينبغي أن ننخدِع إذا رأينا أحد العُلَمَاء يقول: رواه البُخارِي بِأنَّ نَظُن أنَّه بنفس الَّلفْظ، فالعُلَمَاءُ يرون الحَديث إذا كان أصله في البُخارِي وليس بنفس الَّلفْظ إنَّما هو بلفظ آخر، لكنه بنفس السَّنَد الذي في البُخارِي، هذا مَنْهَج لكنَّه ليس مَنْهَجاً دقيقاً، فينبغي أن يُتَنبَّه حتىٰ لا يُظَن أن الحَديث في الكِتَاب وهو ليس فيه.



(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب استئذان النَّبِي ﷺ ربه ﷻ في زيارة قَبْر أمه، برقم: (٩٧٦)، (٢/ ٦٧١).

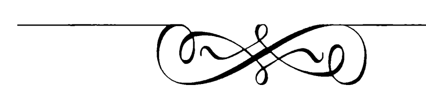
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفيه دلالة علىٰ تأخر نزول الآية عن وفاة أبي طَالِب، ولكن يحتمل أن يكون نزول الآية تأخر، وإن كان سَبَبَها تقدم، ويكون لنزولها سَبَبَان متقدم وهو أمر أبي طَالِب ومتأخر وهو أمر أمه، ويؤيد تأخر النزول استغفاره ﷺ للمنافقين حتىٰ نزل النَّهي عن ذلك، فإن ذلك يقتضي تأخر النزول وإن تقدم السَبَبَ، ويشير إلىٰ ذلك أيضًا قوله في حديث الباب وأنزل الله في أبي طَالِب ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ [القصص:٥٦]؛ لأنه يشعر بِأَنَّ الأُولَىٰ- نزلت في أبي طَالِب وفي غيره، والثانية فيه وحده ويؤيد تعدد السَبَبَ.

الشَّرح

إذا وَرَدَت أحاديثُ متعارضةٌ فللعُلَمَاء في الجَمعِ بينها مَنَاهِج، فإذا وَرَدَ حديثان يذكران سَبَبَ نُزول الآية، لكن كل حديثٍ يذكر سَبَبًا غير الحَديث الآخر، هنا يرىٰ الحافظ ابن حَجَر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ الآية ربما يكون لها نزولان، نزلت في المرة الأُولَىٰ- في حادثة، وتأتي مرة أخرىٰ في حادثة أخرىٰ، وهذا فيه شيءٌ من التَّكلُّف، لكن ينبغي أن نعمدَ إلىٰ دراسة الأَسَانيد؛ ولهذا فإن القاسِمِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ المُفسِر الشامي في كتابه (محاسن التأوِيل) ذَكر في مقدمةِ الكِتَاب أن مراد الصَّحَابِي إذا قال: الآية نزلت في كذا أن الآيةَ تشمَل المسألة، وليس مرادُه أن المسألة سَبَبَ النزول، وأَورَدَ عدة نماذج، فإذا قال الرَّاوِي: سَبَبُ النزول كذا؛ فله معنيان، المَعنَىٰ الأول: أنَّ الحادثةَ كانت سَبَبًا لنزول الآية بعدها، هذا هو الظاهر المعروف، لكن الصَحَابَة يستخدمون كلمة نَزَل لهذا المَعنَىٰ ولمَعنَىٰ آخر، فيحدثُ الإشكالُ عند الذي لا يعرف مُراد الصَحَابَة من هذا الكلام،

فالصَّحَابِي قد يقول: الآية نزلت في كذا أراد أن هذه الحادثةَ سَبَبٌ للآية نزولُها، أو أراد أن الآية حكمُها يشمل هذه المسألة، فليس هنا إشكال ولا تعارُض، وهذا قاله القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالتَّتبَع، وذكر نماذج في مقدمة (محاسن التأوِيل) ، فلا إشكال إذا قال الصَّحَابِي في آيةٍ واحدة أنها نزلت في كذا، وقال الآخر: نزلت في كذا؛ لأنه يكون مراد أحدهما أن المسألة سَبَبَ نزول الآية، ومراد الآخر أن الآية تشمَل المسألة التي ذكرَها وأشارِ إليها.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ما أخرج أحمد عن علي قال: سمعت رجلاً يستغفر لوالديه وهما مشركان فذكرت ذلك للنبي ﷺ فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [التوبة:١١٣]. **قاله الحافظ، وفيه تحريم الاستِغفَار للمشركين، وتحريم موالاتهم ومحبتهم؛ لأنه إذا حرم الاستِغفَار لهم فموالاتهم ومحبتهم أولىٰ بالتحريم.**

الشَّرح

هذا الحَديث الذي يذكر أن سَبَبَ نزول الآية أن علياً رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ سمع شخصاً يستغفر لأبويه وهما مشركان، فأخبر النبيﷺ بذلك فنزلت الآية في إسناده ضعف، فليس كل حديث يرد في كُتُب التَفسِير سَبَبًا للنِّزول يُؤخذ به، لابد من دراسة الإسناد، فإذا صح الحَديث كان مَقبولاً في تعليل نزول الآية، وإذا لم يصح لا يُؤخذ؛ لَأنَّ التفاسير مملوءة بالأحَادِيث الضَّعِيفَة بل والموضُوعة والإسرائيليات، مثل الزمخشري في كتابه (الكشاف) يذكر في نهاية كل سورة حديثًا موضوعًا عن فضل السورة، لا تكاد تجد سورة إلا ويذكر لها حديثًا في فضِلها، ونحن نعرف أن ما وَرَدَ في فضائل السور قليل جداً، لم يرد في كلِّ سورة فِضل، وإن كان القُرآن كله له فَضل، وهذا كما أَلَّفوا في أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ ، يذكر لكل اسمٍ من أسماء الله خَصَائِص، يقول هذا الاسم من خَصَائِصه أنَّك إذا قرأته خمسين مرة وقرأته علىٰ ماء، وقرأته في كذا تحلُّ عندَك البركة، وهذا الاسم من خَصَائِصه أنك إذا قلته تنجَح في حياتك، وهذا كلُّه كذب. أسماء الله مباركة وعظيمة، لكن هذه الأقوال من القول علىٰ الله بغير عِلْم، من أخبرك أن

هـذا الاسـم مـن خَصَائِصـه كـذا؟، وهـذا مَـنْهَج بعـض المصـنفين، وهـو مَـنْهَج خاطئ، وهذا كذب علىٰ الله ورسوله ﷺ، وهناك مؤلف اسمه رزين، جمع الكُتُب السُّنَّة: البُخَارِي ومسلماً وأبا داود، والنسائي المُوطَّأ والترمذي في كتاب واحد، وأَوَرَدَ أحاديثَ لا يُعرف من أين أتىٰ بها، ولم يَذكر مصدَرها، مع أنَّه كتابه إنما جمع الكُتُب السُّنَّة، ولهذا ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ عندما جاء إلىٰ (جامع الأُصُول) إذا انتهىٰ الباب من أحاديث الباب جاء بأحاديث جديدة وقال: رواه رزين، أي وضعَ العُهدة علىٰ ذمته، ولا يُعرف من أين أتىٰ بها، فقال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ قولاً شديداً علىٰ رُزَين، فمن الغشِّ للمسلمينَ أن تذكر أحاديثَ لا يُعرَف مصدرُها في كتاب تزعم أنَّك أخذته من الكُتُب السُّنَّة، ثُمَّ تعمد إلىٰ أحاديثَ ليست فيها وتذكرهُ بينها، فهذا غش للمسلمين، وإن كان عالماً لكن هذا مَنْهَج خاطئ؛ لأنَّ هذا دِين، والدِّين ما قال الله وقال رسوله ﷺ، فأيُّ حديثٍ ليس له مَصدر لا ينبغي لك أن تذكره باسم مصدر ليس فيها، وهكذا إذا جاءت الأحَادِيث الصَّحِيحة قلنا بها وإذا لم تَصح لا نقول بها؛ لأنَّ العمدةَ في معرفة المسائل إنما هو فيما صحَّ عن رَسُولِ الله ﷺ.

هذا هو آخرُ الباب الذي مرَّ معنا، وهو قولُه: بابُ قولِ الله -تَعَالَىٰ-: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ وفي نهايته نذكر بعضَ المسائلِ، لكن قبل أن نذكرَ بعضَ المسائل نذكر قولَ النَوَوِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حديث أمِّ رَسُول الله ﷺ: **(أنه استأذنت ربي في أن استغفر لأمي، فلم يأذن لي واستأذنته في أن أزور قَبْرها فأذن لي)**[١] قال: هذا الحَديث وُجِد في روايةِ أبي العلاء بن ماهان من أهل المَغرِب،

---

(١) سبق تخريجه.

ولم يُوجد في بلادنا من جهة عبد الغافر الفارسي، ولكنه يُوجد في كثير من الأُصُول في آخر كتاب (الجنائز)، ويُضبَّبُ عليه، أي يوضع عليه علامة أَنَّه ليس من الكِتَاب، فصحيح مسلم له عدة نُسَخ، نُسَخ في المَغرِب رواها أهل المَغرِب بأسانيده، وترجع بعض الأسانيد إلىٰ أبي العلاء بن ماهان، ونسخ عند المشارقة ترجع إلىٰ عبد الغافر الفارسي، قال: وإذا وجد فَإِنَّه يضبب عليه، أي يذكر عليه علامة، أن هذا الحَديث ليس من الأصل هذا يحتاج إلىٰ تدقيق ودراسة، لكن قال في آخر الحَديث: وربما كُتُب في الحاشية، بعض الأُصُول يكْتُب في المتن، وبعضها يكْتُب في الحاشية، كتابته في الحاشية أي أَنَّه ليس بالأصل، ثُمَّ قال: رواه أبو داود في سننه عن مُحمَّد بن سليمان الأنباري عن مُحمَّد بن عبيد بهذا الإسناد، ورواه النسائي عن قتيبة عن مُحمَّد بن عبيد، ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن مُحمَّد بن عبيد، وهؤلاء كلُّهم ثقات فهو صحيح بلا شك، فالنَوَوِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وإن ذكر عدمَ ورودِه في بعض الأُصُول، لكن انتهىٰ إلىٰ أَنَّه صحيح؛ لأنه وَرَدَ في كُتُب أخرىٰ من كُتُب الحَديث كسنن أبي داود وهو كتابٌ مَشهور، وقال إن الرواة ثقات، هذا لا يكفي في دراسة الحَديث، ويحتاج إلىٰ دراسة أوسع، هذا ما يتعلق بهذه المسألة.و نذكر بعض فوائد هذا الباب.

الأُولَى: تأكيدُ تَفرُّد الله عَزَّ وَجَلَّ بالتصرُّف في الكون، أراد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يُبين أَنَّه لا يملك أحدٌ مع الله تَصرِيف الكون، ولا تَصرِيف القلوب، ولا إجابة الداعي، فإن هذا من خَصَائِص الخَالِق، فإذا كان رَسُول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو سيد البَشَر، وأفضلهم وأعلاهم لا يستطيع أن يَهدي عمَّه مع رغبته وحرصه علىٰ أن يهديه لله، حتىٰ أنزل الله عندما رأىٰ من حرصِه الشديد: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ

يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص:٥٦]، فأخبره أنَّ هذا ليس من قدرتك، ولا من اختصاصِك، بل هذا من خَصَائِص الخَالِق.

الثانية: بيان بشرِية الأنْبِيَاء، وعُبُودِيتهم لله عَزَّ وَجَلَّ، فالأنْبِيَاء بشر ليسوا آلهة، ولا أرباباً، فرَفعُ البَشَر إلىٰ مكانة الخَالِق هو الذي فعله النَّصارَىٰ مع عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد جاء في الحَديث (لا تطروني) أي: لاتمدحوني (كما أطرت النَّصارَىٰ عيسىٰ بن مَرْيَم إنما أنا عبد الله ورسوله)[1] فالذي يعتقد في الرَّسُول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه ربٌّ قد أساء في حق الخَالِق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حيث أشرك معه أحد عباده.

الثالثة: أن هداية القلوب مما اختصَّ الله عَزَّ وَجَلَّ بها، والقَلْب لا يملك أحدٌ أن يغَيره إلا الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، فينبغي لنا أن نلجأ إلىٰ الخَالِق لهدايةِ القلوب.

الرابعة: وجوب إفراد الله عَزَّ وَجَلَّ بأنواع العِبَادَة، فإذا كان المخلوق لا يستطيع أن يجيب؛ فلا ندعوه، بل نجعل العِبَادَة لله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -.

الخامسة: أنَّ الشِّرْك لا يغفِره الله عَزَّ وَجَلَّ، لكن المَعْصِية يغفرها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

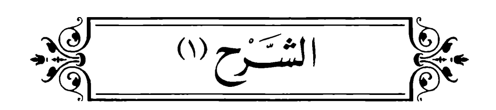
السادسة: أن الغُلُو في مدح النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يؤدي إلىٰ الشِّرْك.



(١) سبق تخريجه.



باب: ما جاء أن سَبَبَ كفر بني آدم وتركهم دينهم هو: الغُلُو في الصَّالِحين



المؤلف رَحِمَهُ اللهُ صاحب كتابِ التَّوحِيد، عندما ذكر بعض مسائل التَّوحِيد، ثُمَّ ذكر بعض مسائل الشِّرْك ناسب أن يذكَر السَبَبَ الذي من أجله أشرك الإنسَان؛ لَأنَّ كل عملٍ له سَبَبَ، فهل هناك أسباب أدت إلىٰ وقوع الإنسَان في الشِّرْك حتىٰ نحذر، والسَبَبُ في اللغة هو ما يُتَوصل به إلىٰ الشِّرْك، وأمَّا في اصطلاح الشَّرع فهو ما يوجد معه النتيجة، وقد لا تُوجد إذا وجد سَبَبَ آخر يمنعُ ذلك، فالسَبَبَ والشرطُ والدَّلِيل والعلامةُ، كل هذه المباحث في كُتُب الأُصُول، بينها فوارق، كل اصطلاح له مَعنَىٰ، فمثلاً: الحركة سَبَبُ الرِّزق، قد يتحرك الإنسَان ويُرزَق، كذلك الزَّواج سَبَبُ الإنجابِ، قد يتزوَّج ولا ينجبُ، فالسَبَبُ توجدُ معه النتيجةُ إن لم يعارِضه سَبَبٌ آخر، أي ليس شرطاً إذا وجد

(١) الشارح – رَحِمَه الله – أكتفىٰ في هذا الباب بالتعليق علىٰ متن كتاب التَّوحِيد وذكر الأمور المهمة في التيسير.

السَبَب وُجِد المُسَبَبُ، لكنه عادة يرتبط السَبَبُ بمسَبِّبه، لكن قد يوجد السَبَبُ ولا يوجد معه مُسَبَّبُ، إذا كان هناك سَبَب فعارضه، فهنا يذكر المؤلف رحمه الله أن سَبَبَ الشِّرْك الذي وَقَعَ فيه النَّاس هو الغُلُو في الصَّالِحين.

والغُلُو في اللغة هو مُجاوزة الحَد، فإذا تجاوز سمي غاليـًا، ولهذا يقال إذا ارتفعت أسعار البضائع: غلَت، أي زادت عن حدها، ويقال للماء غلا أي ارتفع عن حده، فالشيء الزائد عن حدِّه، يقال فيه: غلا يغْلُو غُلُواً، فالشَّارِع شرَع حقوقـًا، فالذي يزيد علىٰ ما شرَع الشَّارِع يسمىٰ غاليـًا، فسَبَبُ ما وَقَعَ فيه النَّاس من الشِّرْك هو الغُلُو في الصَّالِحين، والإنسَان أمام الحق له ثلاثة مواقف: إمَّا أن يعطي الحق، وإمَّا أن يعطيه وزيادة، وإمَّا أن يمتنع من أداء الحق، فإذا أعطىٰ الحق كما هو يُسمىٰ: معتدلاً، وإذا زاد يُسمىٰ: مُحسنـًا، وإذا نَقَص يُسمىٰ: ظالمـًا، لكن الله شرع حقاً له عز وجل، وشرع لأنبيائه حقـًا، وشرع للنَّاس حقوقـًا، فإذا أعطينا حقَّ الله - عز وجل - لأنبيائه نكون قد غَالَينا في حقِّ الأنْبِيَاء فرفعناهم إلىٰ مكانةِ الله، ولهذا قال الله عز وجل عن بني إسرائيل: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣١]، غَلَوا فيهم. الله جعل للأحبار والعُلَمَاء حقاً، فهؤلاء زادوا في إعطائهم حقهم حتىٰ رفعوهم إلىٰ مكانة الله، جعلوهم أربَابـًا، فهذا الغُلُو هو سَبَبُ ما وَقَعَ فيه الماضون من الشِّرْك.

فيقول المؤلفُ رحمه الله: (**باب ما جاء أن سَبَبَ كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغُلُو في الصَّالِحين**)، فهنا (وتركهم) معطوفة علىٰ كفرهم، سَبَبَ كفرهم وسَبَبَ تركِهم، و" دينَهم " منصوب؛ لَأنَّ المصدرَ ينصب، فهنا " تركُهم " مصدر مضاف إلىٰ فاعله، و"دينُهم" مفعول به، وهو ضمير وصل، هذا لا يعرب، فالغُلُو في الصَّالِحين هو سَبَبُ ما وَقَعَ فيه الماضون من الشِّرْك. مَحَبَةَ

الصَّالِحين من الدِّين، لكنَّ المَحَبَة التي ترفع الصَّالِح إلىٰ أن يعبد وأن يدعىٰ، وأن يستغاث به هو الغُلُو المَذمُومِ، فهذا البابُ عقدَه رَحِمَهُ الله ليبينَ السَّبَبَ الذي وَقَعَ الماضون في الشِّرْكِ من أجله، فالغُلُوُّ بعضُ الأسباب التي أدت إلىٰ وقوع الشِّرْك، وهناك إمَّا غُلُوٌّ وإما تَقصِيرٌ، هذان طرفان، وكلاهما مذمومان، والمطلوب الاعتدالُ، والمؤلفُ رَحِمَهُ الله يتحدث عن طَائِفَة، وإلا فإن هناك طَائِفَة أخرىٰ بل هي أوسع دائرةً وهي المُقصِّرة في الدين، لكن الحَديث هنا عمن تجاوز الحَد في إعطاء الحقوق حتىٰ أخطأ فيها فوَقَعَ في الشِّرْك، فالغُلو هو سَبَبُ الوقوع في الشِّرْك في الماضين.

والغُلُوُّ قد يكون في الأشخاص، وقد يكون في العقائد، وقد يكون في العِبَادَات، فالله جعل حقوقاً لفئاتٍ معينة فجعلَ للأزواج علىٰ زوجاتهم حقوقاً، قد يَغلُو الزوج في طلب حقه حتىٰ يهضِم حق زوجته، وقد تُغلُو هي في إعطائه حقه حتىٰ تقع في معصية الله، كذلك الوالدان لهما علىٰ أولادهم حق فقد يَغلُو الوالدان في طلب الحق حتىٰ يهضِم أولادهم في حقوقهم، وقد يغالي الأبناء في إعطاء الآباء حقوقهم حتىٰ يوصلهم إلىٰ مكانة الخَالِق عَزَّ وَجَلَّ، والحقوق تُعطىٰ بقدرها، لا نتجَاوز فيها، كذلك العُلَمَاء لهم حقٌّ لكن لا نتجاوز إعطاءهم الحقوقَ حتىٰ نجعلهم يُشَرِّعُون كما قال الله عن بني إسرائيل: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣١]، فقال عدي بن حاتم: والله يا رَسُول الله ما عَبَدناهم، قال: **(ألم يكونوا يحلون لكم الحرام فتحلونه؟ قالوا: بلىٰ، قال: ويحرمون الحلال فتحرمونه؟ قال: بلىٰ، قال: فتلك عبادتكم لهم)**[١] كذلك المُغالاة في إعطاء السلطان حقاً حتىٰ يجعل له حقَّ التشريع من دون الله.

---

(١) سبق تخريجه .

وهـذا وَقَـعَ في الماضـين أعطـوا الأحبـار والرهبـان حقوقـاً حتـىٰ شـرَّعوا، ووَقَـعَ للشيعة مـع أئمتهـم فَـإِنَّهم رفعـوهم إلـىٰ مكانـة الخَـالِق حتـىٰ قـال أحـدُ زعمائهم: أن لأئمتنا مكانة لا يصل إليها مَلَكٌ مُقـرَب، ولا نبـيٌ مُرسَـل، والـذي يقـرأ كُتُـبهم في العقائـد يـرىٰ عجبـاً، ففـي كتـاب (الكـافي) للشـيعة، وهـو مثـل البُخارِي عند أهل السنة، بابُ "أنَّ الإمـام لا يمـوت حتـىٰ يخبر متـىٰ يمـوت"، باب " أنَّـه لا يقـع في الكـون شـيء حتـىٰ يعلَـم الإمـام لمـاذا يقـع "، أي: جعلـوا الكون كلَّه تحـتَ تصـرفه، كـذلك مـن يسـمون بأوليـاء الصـوفية، الـذي يقـرأ في كُتُب الطبقات الصوفية يرىٰ عجباً، وقد مرَّ بعض القصص أن مِن الأَوْلِيَـاء مـن قال: لا تتحرك ذرة في الأَرض ولا في السَّمَاء في صباح ولا مساء إلا وأنـا أراهـا، قـال الثـاني: أنـا أكـبر مـن ذلـك لا تتحـرك ذرة في الأَرض ولا في السَّـمَاء ولا في الصباح ولا في المساء إلا بإذني، فهؤلاء عندما رَأوا أتباعهم عظّمـوهم تَجاوزوا الحَـد، فسَـبَبُ هـذا هـو مجـاوزةُ الحَـد، فكـل صـاحب حـق يعطـىٰ حقـه، ولا نتجـاوز، ولا نقصـر، فـالزوج لـه حقـوق، والزوجـة لهـا حقـوق، والآبـاء لهـم حقوق، والأبناء لهم حقوق، والخَالِق له حقوق، والمخلوق له حقـوق، فـالحق نعطيه بقدِره لا نتجاوز، ولهذا لما سُئل بعض العُلَمَاء عن بعـض أهـل الصـوفية الذين إذا سـمعوا القُـرآن يتواجَـدون حتـىٰ يسقطون مـن شـدة الجَـذب أي فقَـد وعيـه، فقـال: هـذا فاسـدٌ لَأنَّ أكمـل الأحـوالِ أحـوالُ نبينا ﷺ، وكـان يسـمعُ القُرآن ولا يُغمَىٰ عليه، فكلُّ فعلٍ تجاوزَ فعلَ الرَّسُول ﷺ مذمومٌ، هم يقولـون أن هذا كمال، وهذا من شدة الخشية، لا، هـذا مـن ضـعف الـنَّفس، أو أنهـم مـن الصغِر تدربوا علىٰ هذه الحالات، فالدين حَدٌ، إن تجاوزته فوق تُسمىٰ غَاليـاً، وإن تجاوزته تحت تُسمىٰ مُقصراً.

كـذلك في العقائدِ، الطوائـف المنتسبة إلـىٰ الإسـلام تجـاوزت، وأول مـن تجاوز وضلَّ من الفرق هم الخوراجُ، فَإِنَّهم بالغُوا في العِبَادَة، وبالغُوا في تطبيقِ

الوعيد، حتىٰ طبقوا ما جاء في الكُفَّارِ علىٰ المُسلِمِين، فكانوا بذلك غُلاةً، وقد أخبر النَّبِي ﷺ أنهم في النَّار، كما قال: **(يخرج فيكم قوم، تحقرون صلاتكم إلىٰ صلاتهم، وصيامكم إلىٰ صيامهم، يقرؤون القُرآن لا يجاوز حناجرهم، ثُمَّ قال: يمرقون من الدِّين كما يمرق السهم من الرمية)**[١] وقد بالغوا وتجاوزوا الحَد، ثُمَّ جاء بعدهم من تجاوز في القَدَر، وجاء بعدهم من تجاوز في الأسمَاء والصفات، وأول من خرج في الأُمَّة الإسلامية: جعدُ بن درهم الذي نفىٰ أسماءَ الله وصِفَاتِه بزعم أنَّه يُنزِّهُ الله، فغلا حتىٰ خرَج، وهكذا لا نجد طَائِفَة من طوائف المُسلِمِين إلا وفيها طرف من الغُلُو، وقابلَ الخَوَارِج طَائِفَة المُرجِئة فهؤلاء كانوا في جانب التَقصِير، قالوا: أنَّه مَن قال لَا إلَه إلَّا الله فهو مُؤمن سواء عمِل أو لم يعمل، والخَوَارِج قالوا: من قال لَا إلَه إلَّا الله إذا ارتكب بعض الكَبَائِر إلىٰ جانب كل الصَّلاح يكون كافراً.

فالعقائد فيها غُلُو و تَقصِير، والعِبَادَات فيها غُلُو تَقصِير، فمثلا بعض الطوائف غالت في النِّيَّة في الصَّلَاة، فقالت لابد من استحضار النِّيَّة، وكيف تستحضرها، لابد وأنت ترفع يديك لتكبيرة الإحرام أن تكون في نفسك حضور الصَّلَاة التي تؤديها، وقدكان معنا شيخ يدرسُنا يقف في الركعة حتىٰ نكادُ نكَّبر للركوع، وهو يريد أن يستحضر النِّيَّة، لم تأته النِّيَّة حتىٰ يقرأ الإمامُ الفاتحةَ، ويقرأ السورة التي بعد الفاتحة ونكاد نركع وهو لا زال يطلب النِّيَّة!، لو كنا كلنا نطلب النِّيَّة والإمام يطلب النِّيَّة كم نُكبِّر للإحرام؟!، الوقت ينتهي ولم نكبِّر، أخطئوا ف يفهمَ كلام إمامهم، وابن تَيمِيَة رحمه الله قال كلامًا جميلاً،

---

(١) أخرجه البُخارِي في صحيحه، كتاب فضائل القُرآن، باب إثم من راءىٰ بقراءة القُرآن أو تأكل به أو فخر به، برقم: (٥٠٥٨)، ومسلم في صحيحه باختلاف يسير، كتاب الزكاة، باب التحريض علىٰ قتل الخَوَارِج، برقم: (١٠٦٦)، (٢/ ٧٤٦).

قال: النِّيَّة أصلاً حاضرة في قلب كل مسلم، لماذا خرج من بيته؟ لماذا توضأ أصلا؟ فالنِّيَّة حاصلة، وتحصيل الحاصل مُتعذر، هو حاصل في القَلْب، فأنت ما توضأت وخرجت من بيتك وجئت إلىٰ المَسْجِد إلا وأنت تريد أن تصلي الصَّلَاة المعروفة، كذلك في رمضان الإنسَان قد نوىٰ أن يصوم رمضان فيأتي رمضان و يَدخُل ويأتي في السحور ويتسَحر ويبدأ في صيام اليوم الثاني، ربما ما ذكر أصلاً، لكن لو جلس يستحضر عند كل عملٍ من أعمال العِبَادَات حضور النِّيَّة لأرهق نفسه إرهاقاً شديداً، ولا يستطيع أن يفيَ بحقها، فالنِّيَّة أمر مُتيسر، لكن المبالغة في تحصيل الحاصل يؤدي إلىٰ هذا، كذلك الوضوء، بعض الأشخاص يريد أن يكون وضوؤه وضوءاً كاملاً، فتجده يبقىٰ في محل الوضوء حتىٰ تكاد تنتهي الصَّلَاة، وهذا يسمىٰ بالوَسواس، فالغُلُوُّ: المبالغةُ في الشيء. فلا يرضىٰ بأمر الشَّرع، وهذا مذموم، فأمورالدِّين مبنية علىٰ التيسير والتسهيل، فالمبالغةُ في العقائد أو في العِبَادَات أو في الأشخاص تسمىٰ غُلُواً.

ثم من الذي يحدد الغُلُوَ؟ مثلاً في العصر الحاضر نسمع عن مصطلحات قريبة من الغُلُوِ، مثلا: مُتطرف، إرهابي، مُصطلحات شبيهة بمصطلح الغُلُوِ، الكافر الذي لا يعرف الدِّين ليس له حق أن يَصِف بالغُلُو أو التطرف؛ لأنه هو كافرٌ عدوٌّ للدين كلِه،لا يرضىٰ بالدينِ الذي فيه اعتدالٌ، لكنَّه يجد ضعفاً في المُسلِمِين فيحارب المُسلِمِين بعضهم ببعضٍ، فيستغلُّ هذا الخطأ، لا شك أنَّه يُوجَد في المُسلِمِين من غالَىٰ في الدينِ، وتطرف فيه، لكنهم فئةٌ قليلة، ويوجد أضعاف الذين غالوا من المُسلِمِين لا يعمَلون بالإسلام، بل ربما يكرهونه، فما بالنا نتجه إلىٰ فئةٍ مُعينةٍ ونترك الذين قد قصَّروا؟، ثُمَّ المنحرفون المُقصِّرون يستغُلُون هذه الظاهرةَ الخاطئةَ، لا لمحاربتها وحدها، بل لمحاربة المُستقيمِين أنفسهم، "إياكِ أعني واسمعي يا جارة"، هذا يقع في كثير من بلاد المُسلِمِين، حرب للإسلام باسم محارَبة التطَرف، والذي يحارب هو

الشَّخص الذي لا يقيم الصَّلَاة ولا يعرف الدِّينَ يَنبري خطيبًا وواعظًا، يعظ في التطرف والإرهاب، ويعظ في الغُلُوِّ، وهو لا يعرفُ الدِّينَ، وقد ثبت في الصَّحِيح أنَّه قال - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - لشخصين مرًّا، قال: (ما أظن أن فلانًا وفلانًا يعرفان شيئًا مِن ديننا)(١) وهم ربما يكون كما قال بعض العُلَمَاء: بعض المنافقين كان يقف في المَسْجِد ويقول: هذا رَسُولُ الله اتبِعوه، هذا هو حظُّكم من الأنْبِيَاء وهو مُنافق، لكن يستر نفاقَه، كما فعلوا عندما بنوا مَسْجِد الضرار، بنوا مَسْجِداً للعِبَادَة في الظاهر، وهدفُهم محاربةُ الله ورسولِه، فتوجدُ أحيانا مفاهيم عجيبة، تجد الشَّخص الذي لا يصلي ولا يعرفا لدِّين يصفك بأنك متطرِفٌ، كيف عرَف وهو أصلاً لا يعرف الدِّين، لو سألته عن بعض أحكام الصَّلَاة ما عرفها، بل بعض من نُصِّبَ في بلاد المُسلِمِين صعد قبل فترة في جموعٍ من أهل العِلْم وقرأ آيةً قرآنيةً، ولكنه ما استطاع أن يحسن قراءتها، وقد أراد أن يُنصِّب نفسه واعظًا بين أهل العِلْم، وكان من حقه أن يكون تلميذاً أمام أهل العِلْم، ولكن هكذا ركوب المَوجَات، الموجةُ الآن موجة العودةُ إلىٰ الله في كل مكان، وبعض ضعاف النفوس يظن أنَّه يستطيع أن يخدع المُسلِمِين، والمُسلِمُوْن لا ينخدعون، وكلُّ إنسان لديه من الفهم والإدراك ما يعرف الصوابَ والخطأ إلا القليل.

فالغُلُوُّ المَذمُومِ هو تجاوز الحَد، أمَّا الذي يقيم الدِّين ويلتزم بأمر الله، ويحرص علىٰ متابعة رَسُول الله ﷺ فليس متطرفًا ولا غاليًا، والذي لا يعرف الدِّين ليس من حقه أن يصف النَّاس ولا يصنف النَّاس ولا يطلق عليهم الأحكام، عليه أن يتعِلَّم الدين، حتىٰ يُنقذ نفسه من عَذَاب الله يَومَ القِيَامَة، فإذا

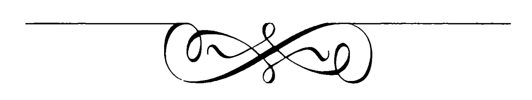
---

(١) أخرجه البُخارِي في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما يجوز من الظن، برقم: (٦٠٦٧).

أراد الله به خيراً بصَّره بعيوب نفسه، أمَّا أن ينظر إلىٰ المستقيمين علىٰ أنهم مُتطَرِّفون، فهذا ابتِلَاء لا تكاد تجد عصراً من العصور إلا وفيه ابتِلَاء، وأن تتعرّض للابتِلَاء هذا من تكريم الله لك؛ لَأنَّ الله يريد أن يُبينُ لأعداءِ الإسلام أن هذا الدِّينَ غالٍ وأنه يُوجدُ في عبادي من يُضحِّي بحياته من أجلِه، فيقيمَ الحُجَّة عليهم يَومَ القِيَامَة، لماذا يسمىٰ الشَّهِيدُ شهيداً؟ لأنه مات صَّبْر علىٰ الدينِ، وقُتِلَ فيه، وهذا شهيدٌ علىٰ أن هذا الدِّين حقٌ وأن هذا الشَّخصَ ضحَّىٰ بأغلىٰ ما يملك في سبيلِه. بلال ﷺ في مكة كان يُعذَّب ويُجرُّ في الرمضاء ويقول: أحدٌ أحدٌ، يُرغِمُهم بهذه الكلمة، يضعون الصخرة علىٰ صدره، ويقول: أحدٌ أحدٌ، لا يطمع في منصب أو في جاه أو في مال، يطمع في أعظم من ذلك، المال يزول، والجاه يزول، أين مالُ فرعون، أين مالُ قارون؟ وأين جاهُ فرعون؟ تنتهي، ماذا بقي؟ الآخِرَة، كما قالت امرأةُ فرعون: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ [التحريم:١١]، لا أريد بيت الدُّنيَا، فإن بيت الدُّنيَا يخرب، وزينة الدُّنيَا تنتهي ولا يبقىٰ إلا ما كان عند الله، ابن لي عندك، قال ابن القَيِّم ﷺ :طلبت الجِوار قبل الدار؛ لأنها تعيش في خَوف، وتُريد أن تأمن أولاً قبل المنزل، فسبق لسانها أن طلبت الجِوار، قالت: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ [التحريم:١١] كم بُني في الدُّنيَا من بيوت وقصور، وكم وجد فيها من أموال، والذي يقرأ تاريخَ القدماء في الهند يجد مَلكـًا بنىٰ بيتـًا لزوجته، ولا زال حتىٰ الآن مَعلَمـًا ضخمـًا، جمع له عشرات المهندسين من كل مكان، وتفنَّنوا في بنائه، أين هو الآن، أين من كان فيه؟ رحلوا، فالإنسَان المؤمن يقصِد ونفسُه تتوق إلىٰ أعظم من ذلك كما قال عُمَر بن عبد العزيز ﷺ يقول: تاقت نفسي إلىٰ الإمارة، أي أحببت أن أكون أميراً علىٰ ولاية، فوصلتها، ثُمَّ تاقت نفسي للخلافة فوصلتها، ثُمَّ تاقت نفسي إلىٰ الجَنَّة، فزهدت في الدُّنيَا، ونسأل الله أن

يسكننا وإياه جنات النعيم، والشاهد أن الدنيا تنتهي، فلابد من الصَّبْر علىٰ ما يقابل الإنسَان في الدُّنيَا، كم من إنسان يتذوق ما يصيبه من البَلاء في سبيل بقائه علىٰ إيمانه؛ لأنه يعِلْم أن هذا يرضي الله، يرضي به الخَالِق؛ لَأنَّ كل شيء في الدُّنيَا يزول ولا يبقىٰ إلا ما كان يرضي الله - ﷻ -.

فهذا العنوان أَوَرَدَه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لبيان أن الغُلُو في الصَّالِحين سَبَبَ ما وَقَعَ فيه الماضون من الشِّرْك، وهذا تحذير لنا حتىٰ لا نغالي في الصَّالِحين وحتىٰ لا نغالي في الأنْبِيَاء؛ لَأنَّ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرد علىٰ من غالىٰ في أنبياء الله أو في نبينا ﷺ، حتىٰ جعله مكان الله - ﷻ - في العِبَادَة والدُّعَاء وغير ذلك.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء:١٧١].



الشَّرح

هذا الخطاب من الله - سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - لأهل الكِتَاب الماضين اليَهُود والنَّصارَىٰ، فَإِنَّهم قد غَلَوا في الدِّين وكان سَبَبًا لهلاكهم، والله ﷻ يقص ما حدث في الماضين ليربيَ الأُمَّة الإسلامية، فهذا من باب التربية بالقصص وذكر الحوادثِ الماضية، فَإِنَّه عاش قبلنا أمم أنزل الله لها كُتُبًا، وبعث لها رسُلاً، ولكنهم وَقَعَوا في الشِّرْك، وسَبَبْث وقوعهم في الشِّرْك: الغُلُو، فالله يخاطبهم ليذكرنا: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ [النساء:١٧١]، فهم غَلَوا في عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهم طوائف، منهم من زعم أنَّه ثالث ثلاثة، ومنهم من زعم أنَّه ابن الله، ومنهم من زعم أنَّه الله، فالقُرآنُ يخاطب كل هذه الطوائف، ويبين انحرافهم، ويذكر أن هذا غُلُو، نعم عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ له حقٌّ، هو نبي الله نحبُه ونجله، هذا خطاب لمن كان من أمته، لكن ليس من حقه أن نرفعه إلىٰ مكانة الله، وهكذا كل نبي له حق محبته وتعظيمه وتوقيره، لكن لا ينبغي أن نرفَعه إلىٰ مكانة الله أو أن نعطيَه حق الله - سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -، فهذا اعتداء علىٰ حق الله وأمر لا يرضاه رَسُول الله ﷺ، فهذا خطاب لليهود والنَّصارَىٰ، فإذا خاطب الله من قبلنا بهذا كنا أيضًا مخاطبون به.

فالغُلُو في الدِّين مذموم بِأن نتجاوز الحَد بالزيادة فيه، أو أن نُقصِّر فيه، لكن التَقصِير أمر معروف، إنَّما الذي يشتبه علىٰ النَّاس الزيادة، فالناس يظنون أن هذا هو الدِّين الحق، ولهذا يوجد في كل عصر وفي كل جيل من تراهم يُكَفِّرون المُسلِمِين، ولا يصلون معهم، ولا يستبيحون طعامهم، بل يستبيحون دماءهم وأخذَ أموالهم، كما وَقَعَ في الخَوَارِج، مع أنهم يتسامحون مع غير المُسلِمِين، ويتجاوزون مع غير المُسلِمِين، لكن مع المُسلِمِين لا يتجاوزون ولا يتسامحون، وهذا ـ نعوذ بالله ـ من الضلال، وذلك كله باسم الدِّين، أخطر ضلال هو ما كان باسم الدِّين، أمَّا ما كان باسم الفساد والانحراف فهو يخص أصحابه، لكن الذي يظلِم باسم الخَالِق ويقتل باسمه ويسرق باسمه أشد، كما قال ابن القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ عن المفتين: (إعلام الموَقَعَين عن رب العَالِمين)، قال: المفتي يقول: هذا حكم الله وهذا توقيعي نيابة عن الله، فقال: انتبه أيها المفتي الموَقَعَ عن رب العَالِمين، فالذي يقول: هذا الدِّين هو ليس من الدين ينحرف ويقول: هذا ضعفٌ مِني، وهذا فساد مني، وهذا تصرف شخصي، هذا أهون، لكن الذي يظلم النَّاس باسم الدين، هذا هو الغُلُو في الأحكام كما قال العُلَمَاء: أول ما ظهر الغُلُو في المُسلِمِين هو في إطلاق الأحكام، الكُفْر والإيمان، هذا مؤمن أو كافر، فالغُلُو مذموم، سواء في الأشخاص، أو في العقائد، أو في العِبَادَات، أو في المعاملات، أمَّا التَقصِير فلا شك أنَّه أيضًا مذموم، ولكنه أمر واضح.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: في الصَّحِيح عن ابن عَبَّاس في قول الله -تَعَالَىٰ -: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح:٢٣]. قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحىٰ الشَّيطَان إلىٰ قومهم أن أنصبوا إلىٰ مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا وسموها بأسمائهم، ففعلوا ولم تعبد، حتىٰ إذا هلك أولئك ونسي العِلْم عبدت.

الشَّرْح

هذا الحَديث أشار إليه المؤلفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه في صحِيح البُخارِي، قلنا: هناك أحاديث في صحيح البُخارِي وَقَعَ فيها إشكال من العُلَمَاء، فهذا الحَديث من رواية ابن جُريج عن عطاء، عن ابن عَبَّاس، ابن جريج رَوَىٰ عن شخصين كلاهما يُسميان عطاء، وهما المشهوران في رجال الحَديث، عَطاء الخراساني، وعَطاء بن أبي رباح، عطاء بن أبي رباح رَوَىٰ عن الصَحَابَة، أمَّا عطاء الخراساني لم يرو عن الصَحَابَة، فكيف يَروي عطاء عن ابن عَبَّاس؟، هذا فيه انقطاع، لكن البُخارِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يقل: عطاء الخراساني، ولا عطاء بن أبي رباح، وقد رَوَىٰ عن الشَّخصين كليهما، فكيف نعرف؟ قال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا جاء اسم عطاء مطلقًا يدل علىٰ أنَّه عطاء بن أبي رباح الذي رَوَىٰ عن الصَحَابَة، لكن يُعكّر علىٰ هذا أن نفس الحَديث رواه عبد الرزاق في مصنفه أو في تَفسِيره فقال: عن عطاء الخرساني، وابن جريج لم يسمع التَفسِير من عطاء الخراساني إلا في سورتي البقرة وآل عُمَران، وما عداه لم يسمع، وهذه الآية في سورة النِّسَاء، قالوا: إن ابن عطاء الخراساني اسمه عثمان دفع إلىٰ ابن جريج

صحيفة فيها التَفسِير، فكان يستجيز ابن جريج في المناولة أي: أن يقول: أخبرنا، وهذا في الحقيقة جرَحٌ في الرَّاوِي، وابن جُريج مُدلِّس عند العُلَمَاء، هذا لا يجوز، كيف أخبرك، لكن يستجيز أنَّه يقول أخبرنا إذا كان كتاباً، فالعُلَمَاء لهم في هذا كلام نذكره.

قال ابن حَجَر رَحِمَهُ اللَّهُ: (ذكر صالح بن أحمد بن حنبل في العلل عن علي بن المديني، قال: سألت يحيىٰ القطان عن حديث ابن جريج عن عطاء الخرساني فقال ضعيف، فقلت: أنَّه يقول: أخبرنا، قال: لا شيء، إنما هو كتاب دفعه إليه)، قال ابن حَجَر رَحِمَهُ اللَّهُ: (وكان ابن جريج يستجيز إطلاق أخبرنا في المناولة والمكاتبة، وقد ذكر أبو علي الجياني في تقييدِ الُمهمل عن علي بن المديني أنَّه قال: سمعت هشام بن يوسف يقول: قال لي ابن جريج سألت عطاء عن التَفسِير من البقرة وآل عُمَران ثُمَّ قال اعفني من هذا)، أي لم يسمع منه إلا تَفسِير سورتي البقرة وآل عُمَران، ثُمَّ قال اعفني من هذا، فكيف يروي حديثاً في سورة النِّسَاء بعد آل عُمَران، قال ابن حَجَر رَحِمَهُ اللَّهُ معقباً علىٰ هذه المسألة: (وهذا مما استعظم علىٰ البُخارِي أن يخفىٰ عليه، لكن الذي قوي عندي أن هذا الحَديث بخصوصه عند ابن جريج عن عطاء الخراساني وعن عطاء بن أبي رباح جميعاً)، ونحن نقول: ولهذا البُخارِي رَحِمَهُ اللَّهُ أطلق، ولم يقل: عطاء الخراساني، ولا عطاء بن أبي رباح، ولكن الخطيب البغدادي رَحِمَهُ اللَّهُ رجَّح أنَّ رواية ابن جريج عن عطاء عن ابن عَبَّاس بدون نِسبَة أي: عطاء بن أبي رباح؛ لأنه هو الذي رَوَىٰ عن ابن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أمَّا الخراساني فلم يسمع منه، ولكنه يعكر عليه أن عبد الرزاق قد صرح بأنه الخراساني، لكن البُخارِي رَحِمَهُ اللَّهُ دقيق في

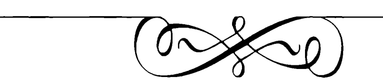
الإسـناد، قـال في إسـناده: (حـدثنا إبرَاهِيم بـن موسىٰ، أخبرنـا هشـام عـن ابـن جريج، وقال عطاء)، فلم يقـل أخبرنـا عطـاء، ولا حـدثنا عطـاء، إنمـا جـاء بهـذه العبارة لتدل علىٰ أن البُخارِي رَحِمَهُ اللَّهُ ليس عنده هذا الحَديث مسنداً، والبخـاري يـوَرَدَ المعلقـات، فالبخـاري لا يـؤثر عليـه هـذا الحَـديث؛ لأنـه رَحِمَهُ اللَّهُ ذكـر أن الحَديث كأنَّه عنده فيه انقطاع وليس متصلاً، إنمـا قـال: "وقـال عطـاء" ، وهـذا يدل علىٰ عدم السماع، فالبخاري رَحِمَهُ اللَّهُ دقيقٌ في إيراد هذه القصة.

فالقصة في البُخارِي فيها توقُف، فلا يجزم بصحتها ولا بعدم صحتها إلا بعد دراسة أوسع، لكن هذا مُلخص ما قال العُلَمَاء في القصة: أنّ هذا الحَديث مما أشكل في صحيح البُخارِي؛ لَأنَّ الماضي غيب، ولا يعرف الغيب إلا عن طريق الوحي، وابن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ما أسنَدَه إلىٰ رَسُول الله ﷺ، فَإنَّه قال: في الصَّحِيح عن ابن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قول الله -تَعالَىٰ-: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح إلىٰ آخره، ولم يسنده إلىٰ رَسُول الله ﷺ والماضي غَيبٌ لا نعرفه عن طريق الاستنباط، والصَّحَابِي يستنبط حكمـاً، واستنباط الصَّحَابِي الحكمَ الشَّرعي من الآية من أقوىٰ الاستنباطَات، لكن الحَديث عن الماضي غيبٌ، ولهذا اختلف العُلَمَاء هل قول الصَّحَابِي في الغيبيات التي لا تعرف بالعَقْل له حكمُ الرفع أم لا؟ علىٰ قولين: والراجح أنَّه ليس له حكمُ الرَّفع، وإن كان الأكثرية يقولون بحكم الرَّفع، ولهذا ابن القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: نعوذ بالله أن نقول علىٰ الرَّسُول ﷺ ما لم يقل؛ لَأنَّ مَعنَىٰ حكم الرَّفع أي: أن الرَّسُول ﷺ قاله، فلا ينبغي أن نعتبر قول الصَّحَابِي في الغيبيات مُسنَداً، بل قد يكون سمعه من

أهل الكِتَاب، وقد أسلم كثير من اليَهُود والنَّصارَىٰ في عهد الصَحَابَة، وعندهم علوم من الكُتُب الماضية، وكانوا يخبرون الصَحَابَة، وقد جاء الإذن من رَسُول الله ﷺ بِأنَّ نُحدِّث عن بني إسرائيل، فربما يكون الصَّحَابِي قد رأىٰ أن ما سمعه من أهل الكِتَاب يُفسر الآية، فاعتمده حقاً فلا ينبغي لنا أن نعتقد أن الصَّحَابِي إذا قال قولاً في الغيبيات أن نجعل له حكم الرفع، وإذا كان الصَّحَابِي نفسه ما جرُؤ أن يقول: قال رَسُول الله ﷺ فكيف تعتمد أنَّ له حكمُ الرَّفع؟، فلهذا نقول: أنَّه اجتهاد من الصَّحَابِي إمَّا أنَّه سمعه من أهل الكِتَاب، أو أنَّه فهمه، لكن لو وَرَدَ منقولاً مسندا إلىٰ رَسُول الله ﷺ قلنا به، فالراجح أن قول الصَّحَابِي ليس له حكم الرفع، وابن القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ له كلام طويل في" إعلام المُوَقَعين " في آخره، وفي رد بعض الكُتُب الأخرىٰ مثل: (روضة المحبين)، تكلَّم عن المسألة مختصرة، قال فيه: نعوذ بالله أن نقول علىٰ رَسُول الله ﷺ ما لم يقل؛ لَأنَّ إذا قلت أن قول الصَّحَابِي فيما لا يعِلْم بالعَقْل له حكم الرَّفع فقد عزوته إلىٰ رَسُول الله ﷺ. وإن لم تصرح بـ"قال رَسُول الله"، والصَّحَابِي لم يستجز أن يقول: قال رَسُول الله، فكيف تستجيز أن ترفعه إلىٰ رَسُول الله ﷺ.

ذكر ابن عَبَّاس ـ إن صحت هذه الرِّوَايَة عنه ـ أن السَبَبَ في وجود الشِّرْك في القوم الذين بعث فيهم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، أي لما بعث فيهم، لا بعدهم؛ لَأنَّ نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ بعث إلىٰ قوم مشركين، وعندهم أصنام، وهذا كان بعد آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فسَبَبَ هذا الشِّرْك هو الغُلُو في الصَّالِحين، فذكر أنهم كان عندهم قوم صالحون، فعندما مات هؤلاء الصَّالِحون جاء الذين يُحِبُّونهم فقالوا: انصبوا إلىٰ مجالسهم أنصاباً أي اجعلوا لهم تماثيل في صورهم نتذكر بها أولئك

الصَّالِحين، حتىٰ نجتهد في العِبَادَة، فالجيل الأول لـم يعبُـدوهم، لكـن الأجيـال التـي جـاءت بعـد رأوا أن آبـاءهم عظَّمـوا هـذه الصُّـوَر ولـم يـدركوا مـرادَهم، فعبـدوهم مـن دون الله، فكـلام ابـن عَبَّـاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقتضـي أن النَّـاس جعلـوا في أماكنهم التي كانوا يجلسون فيها للعِبَادَة أنصابـًا، لكن ابـن القَيِّـم رَحِمَهُ اللَّهُ قـال كمـا سيأتي في القـول الثـاني: إنهـم جعلـوا الأنصـاب علـىٰ القُبُـور، ثُـمَّ عنـدما هلَـك أولئك ونُسِي العِلْمُ وَقَعَ الشِّرْك، العِلْم إذا كـان موجـوداً يَحمـي المجتمـع، وإذا اختفىٰ يقع النَّاس في الشِّرْك والمَعاصِي، وفي آخر الزمان يُقبض العِلْـم، ويَتخـذ النَّاس رؤسـاء جهـالاً، فيُسـأَلون في ديـن الله فيُفتـون خطـأ، وهـذا وَقَـعَ في الأمـم الماضية، ثُمَّ بعث الله رسولنا ﷺ فأحيا العِلْـمَ الشَّـرعي، وأُوحـىٰ إليـه القُـرآن، فعاد النّضور كما كان، فـلا يعـود النَّـاس إلـىٰ الشِّـرْك، وتـرىٰ المجتمعـات التـي خفي فيها العِلْم الشَّرعي ظهر فيها الشِّرْك وعبَدوا غير الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: وقال ابن القَيِّم: قال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا علىٰ قُبُورهم ثُمَّ صوروا تماثيلهم، ثُمَّ طال عليهم الأمر فعبدوهم.

قال: وعن عُمَر أن رَسُول الله ﷺ قال: (لا تُطْرُونِي كماَ أَطْرَتْ النَّصارَىٰ ابنَ مَرْيَم، فإِنَّماَ أناَ عَبدٌ، فقُولُوا عَبدُ الله ورَسُولُه) أخرجاه.



الشَّرْح

قول ابن القَيِّم: (...ثم صوروا تماثيلهم، ثُمَّ طال عليهم الأمر فعبدوهم..) فكلاهما متقَاربان، أي المُحبون للصَّالحين عملوا عملاً خاطئًا، وهو أنهم صوَّروا لهم صُوراً، سواء كانوا جعلوها في أماكن العِبَادَة، أو جعلوها علىٰ القُبُور، ثُمَّ أخيراً انتهوا إلىٰ عِبادَة تلك الصُّوَر التي هي التماثيل، ولهذا جاءت الأحَادِيث تحذر من التَّصوِّير، حتىٰ قال ﷺ: (لعن الله المصورين)[١] فلعنَهم؛ لأنهم هم سَبَبُ كل بلاءٍ، فعندما صوَّروا تلك الصُّوَر نتج عنها أن الأجيال عبدَت تلك الصُّوَر.

قوله ﷺ: (لا تطروني كما أطرت النَّصارَىٰ ابن مَرْيَم)[٢] نبينا ﷺ قد حذر من الغُلُو، وهو سيد البَشَر، وقد أخبره الله بما وَقَعَ في الماضين في القُرآن وفي غيره، فخشي أن الأُمَّة الإسلامية تقع فيما وَقعَت فيه بنو إسرائيل، وقد سمع بوادر ذلك من بعض الصَحَابَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عندما أثنىٰ عليه ومدَحه وأطراه، قال: (لا تَطروني كما أطرت النَّصارَىٰ عيسىٰ بن مَريَم) لا تفعلوا مثل ما فَعل من سبقكم من الأمم، الإطرَاء هو المَدح، وقد يكون الإطراء مَدحًا حقاً، وقد

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

يكون الإطراء مَدحاً مُتجاوزاً، فكثرة الإطرَاء والمَدح والثناء تؤدي إلىٰ الوقوع في المحذور، وإلا فإنّ رسولنا ﷺ هو أعظم البَشَر، وأكملُهم، وسيدُهم، وفيه كل الخلال العظيمة، والكمال البَشَري، فهو يستحقُّ أن يُثنىٰ ويمدح ﷺ، لكن لا ينبغي أن نَتجاوز الحَدَّ؛ لأنه عبدُ الله ورسوله، فإذا تجاوزنا ورفعناه كما رفعت بنو إسرائيل عيسىٰ عليه السلام وَقَعنا في الشِّرْك.

ولكن كثيراً من المُسلِمين وَقَعوا في مجاوزة الحَد، وقد مرت قصيدة البوصيري، وهي نموذج من نماذج الغُلُو والإطراء،قال:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

فجعل الدُّنيَا والآخرة من جُودِ رَسُول الله ﷺ، ونحن لا نعلم كيف من جُوده وهو بشرق مخلوقٌ؟، والدّنيا من خلق الله، والآخرة من خلقِ الله وكلها من فضل الله، ورسول الله ﷺ نفسه من فضلِ الله، فإن من كرِم الله أن بعث لنا نبياً يعلِّمنا الدين، كيف تكون الآخِرَة من جود شَخص مَخلوق ضعيف يحيا ويموت، ويمرضُ ويصحُّ، ويجوعُ ويشبعُ، كيف تكون الدُّنيَا من جودِه، والآخرة من جُوده؟، وكيف يكون عِلْم اللَّوح الذي هو عِلْم الله يكون عِلْم رَسُول الله ﷺ، وهذا من أعجب العجبِ، والرسول ﷺ يتبرأ في كلام الله ويقول: ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ [الأنعام:٥٠]، ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ [الأعراف:١٨٨]، لا أعِلْم الغيب؛ لَأنَّ الغيب من عِلْم الله، فكيف يعِلْم عِلْم اللَّوح بكامله، هذا ـ نعوذ بالله ـ غُلُو، وقد تجاوز ما أمر رَسُول الله ﷺ، قال: (لا تطروني كما أطرت النَّصارَىٰ عيسىٰ بن مَرْيَم، إنما أنا عبد الله ورسوله) فرسولنا له صفتان، صِفَة بجهده، وصِفَة من كرم الله، فالذي من جهده هو العُبُودِيَّة، فقد كان نبينا ﷺ في أعلىٰ درجات العُبُودِيَّة، حتىٰ كان يقيم الليل حتىٰ ورمَت قدماه، فكان مطيعـاً لربه ممتثلاً لأمره لا يتجاوزُ أمرَ الله ولا نهيه، فقد طَبَّقَ الدِّين تطبيقـاً كاملاً، لكن الرِّسَالَة كرَمٌ من الله، ليس من جُهدِه، الله

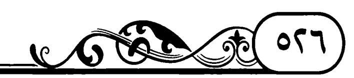
أعطاه الرِّسَالَة، فهو مَوصوفٌ بصفتَين صِفَة من فعلِه هي العُبُودِيَّة، وصِفَة من كرِم الله وعطَائه، هي الرِّسَالَة.

وأكثر ما يأتي في القُرآن الكَرِيم وصف الرَّسُول ﷺ بالعُبُودِيَّة ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء:١]. ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [الجن:١٩]، فالعُبُودِيَّة وصف تكريم لرسولنا ﷺ، ليس فيه إهانة، لكن الجهلة من المُسلِمين ظنوا أن العُبُودِيَّة وَصفُ نَقصٍ، فلابد أن يرفع إلىٰ الرُّبُوبيِّة، فيُعطىٰ خَصَائِص الخَالِق، فيُدعَىٰ من دون الله، ويُستَغاثُ به من دون الله ويُلجَأ إليه في قضاء الحاجات، وهذا تجاوزٌ للحدِّ، وغُلُو مذموم أدىٰ إلىٰ الشِّرْك كما وَقَعَ فيه الماضين.

فالرسول ﷺ له حقوقٌ، لكن لا ينبغي لنا أن نتجَاوز في إعطائه حقاً ليس من حقه، ولا ينبغي أن نُقصر، بعض النَّاس يتعامل مع رَسُولِ الله ﷺ كأنَّه بشر عادي، وهذا تَقصِير، رسولنُا ﷺ سيِّدُ البَشَر، وأكملهم وأشرفُهم. قلنا إنَّ البَشَرية تمَّثِلُ هرماً مثل الجبل تضيق قمته وتتسع قاعدته، في رأس القمة نبينا ﷺ، كما قال: (أنا سيد ولد آدم)[1]، ولا ينبغي أن نقول سيدُ الخلق؛ لأنَّ الخلق يشمل كل المخلوقات؛ لأنَّ ما عندنا دليل علىٰ أنَّه سيدُ الخلق، وليس هذا تنقِيصاً له، كما قال بعضهم: قَبْرُه ﷺ أشرفُ من الكَعبَة!، وأشرفُ من العَرْش!، وأشرفُ من الجَنَّة والنار!، هذا هو الغُلُوُّ، لا شكَّ أن نبينا ﷺ أشرفُ بني آدم، وسيدهم، لكن لا تتلفظ بكلام لم يرِد في الشَّرع، فهذا غُلُوٌّ زائدٌ، فالرسول ﷺ له حقوق، نعطيه حقه من المَحَبَة والتَّعظِيم والطاعة والاتباعِ، نحبُّه ونحبُّ من تابعه، ونحبُّ ما جاء به، وننصرُه، لكن لا نتجاوز، فالإطراء أمرٌ مذمومٌ لا ينبغي لنا أن نقع فيه حتىٰ لا نخالف أمرَ رَسُولِ الله ﷺ.

---

(١) سبق تخريجه.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال المصنف: قال رَسُول الله ﷺ: (إياكم والغُلُو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغُلُو).

قال: ولمسلم عن ابن مسعود أن رَسُول الله ﷺ قال: (هلك المتنطعون، قالها ثلاثًا).



الشَّرح

قوله ﷺ: **(إياكم والغُلُو، فإنما أهلك ..)** هذا الحَديث له مناسبة، فقد رَوَىٰ الحَديث ابن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أي: عبد الله بن عَبَّاس وفي بعض الروايات أنَّه الفضل، لكن الروايات الكثيرة أنَّه عبد الله بن عَبَّاس، أنَّ رَسُول الله ﷺ قال: **(القط لي حصا)** قال ابن عَبَّاس: **(فلقطت له سبع حصيات هن حصىٰ الخذف)** أي: صغيرة، **(فجعل رَسُول الله ﷺ ينفضهن في يده ويقول: (أمثال هذه فارموا، وإياكم والغُلُو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغُلُو في الدين)**(١) أهلكهم أي: جعلَهم تجاوزُوا الحَدَّ فوَقَعوا في الشِّرْك المَذمُوم، فغضب الله عليهم، والذي يأتي إلىٰ رمِي الجَمْرَة فيرمي بحَجَر كبير قد خرج عن الأمر، فهو غالٍ، والذي يرمِي بدل السبع بسبعين غَالٍ، والذي يأتي إلىٰ الجَمْرَة فيضربها بالحذاء غالٍ، قد رأينا بعض الأشخاص يأتي إلىٰ الجَمْرَة ويظن أن الشَّيطَان مختفٍ هنا، فيأتي بالحذاء ويضرب الجَمْرَة ويقول: أنت فرَّقت بيني وبين زوجتي، أنت فعلتَ كذا للشيطان، هذا رَمزٌ، وليس الشَّيطَان، ولا نقول: الشَّيطَان الكبير أو الشَّيطَان الصغير، بل الجَمْرَة الكبرىٰ والجَمْرَة الصغرىٰ، فهذا غُلُو، وزيادة عن الحَد، (وإياكم والغُلُو في الدِّين فَإِنَّه أهلك من كان قبلكم) أي: أنكم إذا

---

(١) سبق تخريجه.

فعلتموه هلكتم، فالذي يتجاوز الحَد يقعُ في الهلاك، وهذا نصٌ يبين أنَّ النَّبِي ﷺ قد حذَّر أتباعه من الغُلُو ومن الإطراء الزائد ومن التَّنَطُّع كما سيأتي في الحَديث الثاني.

قوله ﷺ: (هلك المتنطعون قالها ثلاثـًا)[١] المُتنطَّع هو المُتكلِّف الذي لا يكتفي بالأمر اليسير، كما حدث للثلاثة الذين جاءوا إلىٰ النَّبِي ﷺ عندما سألوا أمهات المُؤمِنِينَ عن عِبَادَة رَسُول الله، فكأنهم تقالّوها، فأرادوا أن يعبدوا عِبَادَة زائدة، فقال شخص: أمَّا أنا فأصوم الدهر ولا أفطر، وقال الثاني: أمَّا أنا فإنني أقوم الليل ولا أنام، وأما الثالث: فقال إنني لا أتزوج النِّسَاء[٢]. كل شخصٌ أراد أن يعمل عملاً زائداً؛ فهذا تنطعٌ في الدِّين، أنت إن قمت بما أمرت به من الدِّين، فإن فيه سعادتُك، وفيه كفايتُك.

والتَّنَطُّع والتعمق وتَقَفُّر العِلْم، بالبحث عن دقائق المسائل التي قد لا يتنبه لها حتىٰ كبار العُلَمَاء، هذا هو التكلُّف، كما وَرَدَ في حديث عبد الله بن عُمَر رضي الله عنهما، أنَّ قومـًا جاءوا إليه وقالوا: (إنَّه ظهر قِبَلَنا قوم يتقفرون العِلْم يقولون: إنّض الأمر أَنَف، وأنه لا قدر) يَتَقَفَّرون العِلْم أي: يبحثون عن دقائق العِلْم. (فقال: أخبرهم بِأنَّ ابن عُمَر منهم بريء حتىٰ يؤمنوا بالقدر)[٣]. أي: بلغ بهم الأمر إلىٰ أن نفَوا عن الله القدر، قالوا: إذا قلنا أن هذا قدَّره الله علىٰ النَّاس، وأن النَّاس لابد أن يعمَلوه،فكأن الله ظلَم النَّاس، ولم يفهمُوا مَعنَىٰ القَدر، الله خلق هذا الإنسَان وقدَّر له قَدَره، وأعطاه إمكانـًا واستطَاعة، وعِلْم أنَّه سيستخدِم قدرتَه في كذا، فإن ربنا ما أجبر النَّاس علىٰ فِعل، إنما عِلْم أن هذا

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب العِلْم، باب هلك المتنطعون، برقم: (٢٦٧٠)، (٤/ ٢٠٥٥).

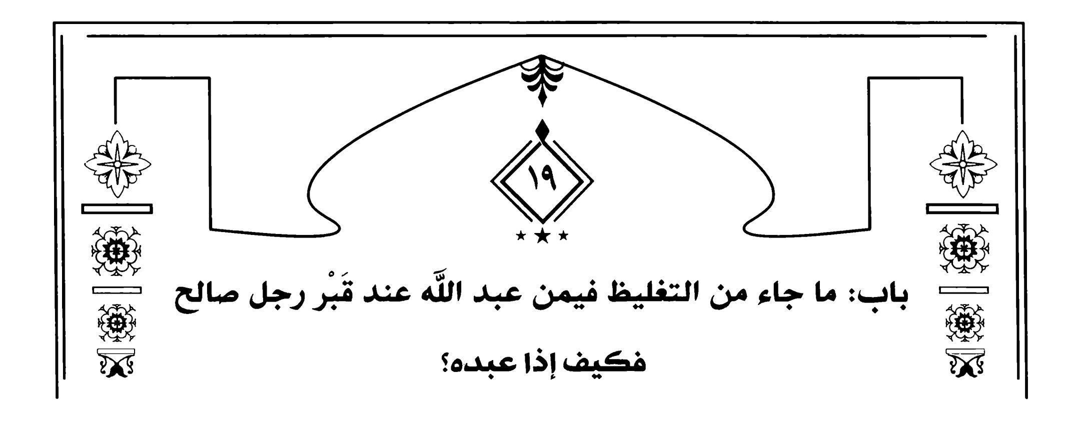
(٢) أخرجه البُخارِي باختلاف في اللَّفظ، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، برقم: (٥٠٦٣).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، بلفظ: "فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم وأنهم برآء مني" كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله -تعَالَىٰ-، برقم: (٨)، (١/ ٣٦).

الإنسَان سيأتيه الأنْبِيَاء، وسيأتيه الأمر والنَّهِي، وأنـه سيكون عملُـه كـذا وكـذا، فكُتُـب الله عليـه مـا سـيعمله باختيـاره، لا نعتقـد أن الله ﷻ يقـدر عليـك أي يلزمك أن تفعل فعلاً ثُمَّ يعاقبك، ولكـن الله ﷻ عِلْـم بعِلْمـه القـديم أنَّ فلانـًا سيخلق في المكان الفلاني، في الزمن الفلاني، وأنه سيأتيه الأمرُ، وسيأتيه الـدُّعَاة إلىٰ الله وسيأتيه الدِّين وأنَّه سيستجِيب، وسيطيعُ ويمـوتُ علىٰ الـدِّين، فكُتُب الله ذلك، فلا يخرج عمَّا كُتُبه الله، ليس ذلك مُلزمـًا له، إنَّما كُتُب الله مـا ستفعلُه باختيارك، فالذين نفُوا القدرَ زعموا أنَّه لا قَدَر، وأن الأمر أَنَف ، وهؤلاء كانوا في بداية الأمر أنكروا عِلْم الله، ثُمَّ أخيراً انتهت البِدعَة إلىٰ أنهم أقروا بالعِلْم لكنهم نفَوا قـدرَه علىٰ النَّاس، فتَقفُّرُهم للعِلْـم وتتبعهم لمسائل العِلْـم الدقيقة أدَّىٰ إلىٰ هذا التَّنَطُّع، ولهذا قال: (هلك المتنطعون، هلك المتنطعون).

والغُلُو والتَّنَطُّع متقاربَان كما قلنا استحضـار النِّيَّـة إلىٰ دَرَجَـة أن الشَّـخص تنتهي الصَّلَاة أو بعضها وهو لم يكبر تكبيرة الإحرام، فهـذا شـبيه بـالغُلُو وكلها مجاوزةٌ للحد، فالتَّنَطُّع والتعمُّق كلاهما متقاربان، فهذا الحَديث يقـول (هلـك المتنطعون)؛ لأنهم عملوا عملاً ليس عليه أمرُ الله، وكل إنسان عمِل عملا لـيس عليه أمـرُ الله فَإنَّـه يكـون فيـه هلاكـه، مع أنَّـه أرادَ النجـاة ولـم يـرد الهـلاك، كل هؤلاء الذين غَالوا، والذين أطروَا، والذين تَنطَّعـوا، مَقصدُهم الخيـر، لكـن لـم يُصيبُوه؛ لأنهم أخطئوا طريقةَ البحثِ عن الحقِّ، لا أنهـم أخطئـوا في فهـم الحـقِّ ثُمَّ عُوقِبـوا، بـل هـم أسـاءوا فخرجـوا، فوصـلوا إلىٰ نتيجـة ليسـت مـن الـدِّين، فتعبدوا الله بما لـم يَشرَع، وإلا فالإنسَان قد يجتهد في فهم الحق فيخطـئ، وهـذا لا يُـلام، لكـن إذا جـاءه النَّهِـي: لا تُغَـال، لا تتَنطـع، لا تتكلـف، فخـالف فغـالىٰ وتنطَّع وتكَّلف، وَقَعَ في المحذور فهلَك؛ لأنه لا يُؤجر، بل يـأثَم ويعاقـب علىٰ ما فعل.





١٩

باب: ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قَبْر رجل صالح فكيف إذا عبده؟

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: عبد القَبْر أو الرجل الصَّالِح، ولما كان عباد القُبُور إنما ذهبوا من حيث ظنوا أنهم محسنون، فرأوا أن أعمالهم القبيحة حسنة، كما قال -تَعَالَىٰ-: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ ﴾ [فاطر:٨].



الشَّرْح

هذا الباب جاءَ بعد بابِ ما جاء أن سَبَبَ كفرِ بني آدم وتركهم دينهم هو الغُلُو في الصَّالِحين،وهذا البابُ يتحدث عن شكل العِبَادَة، فإن العِبَادَة ينبغي أن يكون لُبُّهَا وحقيقتُها لله، وينبغي أن تكون الصُّورَة الظاهِرة لا يظهر عليها ما يشوبهُا، فالمسلم يحرص علىٰ حقيقة العِبَادَة، وعلىٰ صورتِها، فعِبَادَة الله عند القُبُور مُحرَّمة؛ لَأنَّ شكلها ربما يوحي بأنَّك تعبد القَبْر، كذلك الصَّلَاة في أوقات عِبَادَة الكُفَّار منهي عنها؛ لأننا نشابه الكُفَّار، بل حتىٰ الأماكن التي بُنيت للمعصية لا يجوزُ أن نُقيم فيها الطَّاعة، ولهذا في مَسْجِد الضرار لما بناه المنافقون جاء الأمرُّ من السَّمَاء أن لا يقوم فيه، فأحرقه رَسُول الله ﷺ، وكان بالإمكان أن يُغيرَ إمامَه وأن يدعوا المُسلِمِين إلىٰ الصلاة فيه، لكن بيتاً بُني

لغير الله لا يستحق أن يُصلىٰ فيه، فالمسلم مطلوب بِأنَّ يُصفِّي عبادته لله وأن يحرص أن يكون شكلَها الظاهري لا يتّضفق مع صور عِبَادَة المُشرِكِين، ولهذا كل بيت وكل بناء وكل عمل أقيم لغير الله لا يجوز أن نشارك فيه، حتىٰ ولو كان للطاعة؛ لَأنَّ العِبَادَةَ ينبغي أن تكون حقيقتها لله، وأن تكون صورتُها كذلك لله، وهذا هو البابُ الذي عقده المؤلف: (باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قَبْر رجلٍ صالح). لم يُعبَد القَبْر، بل عُبد الله، لكن عند قَبْر، والقُبُور مُحرَّم أن نصلي إليها وأن نصلي فيها، لا لنجاستها كما يقول بعضُ النَّاس، بل لَأنَّ الصَّلَاة عندها تُوحي بأنها شرِك، وإلا فإن قُبُور الأَنْبِيَاء ليست نَجسة، أجساد الأَنْبِيَاء شريفةٌ طاهِرة، فلو كانت العِلَّة النَّجَاسَة لكانت العِلَّة في قَبْر الرَّسُول ﷺ خارجةً، مع أن الحَديث جاء في قُبُور الأَنْبِيَاء: (**لعن الله اليَهُود والنَّصارَىٰ، اتخذوا قُبُور أنبيائهم مَسَاجِد**)[(١)] فالعِلَّة ليست كما يقول بعض الفُقَهَاء هي للنَّجَاسة، بل العِلَّة أنها توهم إشراك صاحب القَبْر مع الله، فوجب أنَّ نجتنب كل عملٍ يُوهم بِأنَّ فيه شركـًا مع الله - سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -.

قوله -تَعَالَىٰ-: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ ﴾ [فاطر:٨] أي: شر النَّاس من يعمل المَعْصِيَة أو البِدعَة، ويظنُّها طاعةً لله عَزَّ وَجَلَّ، سوءُ العمل يصبح عند الإنسَان مُزينـًا حسنـًا للجهل بشريعة الله، لا يحدث هذا التزيين للعمل البَاطِل في قلب إنسان إلا مع وجودِ الجهل، فلا يراه قبيحـًا؛ لأَنَّه جاهل لا يعرف القبيحَ والحسن في الإسلام، فالذي لا يعرف الدِّين يظنُّ الأعمالَ البَاطِلةَ صالحةَ، ويظن الشرَّ خيراً، ويظن الشِّرْك توحيداً، وقد قلنا أَنَّه يوجد اليوم في بلاد المُسلِمِين الشِّرْك في القُبُور ـ وهو شرك ساذج ـ للجهل المتناهي،

---

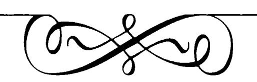
(١) سبق تخريجه.

وأقل عِلْم من علوم الشريعة يكفي لبيان أن عِبَادَة القَبْر مُنكَر، فكيف وأنت ترىٰ بلاد المُسلِمِين لا تكاد تدخل مدينة ولا قرية إلا وفيها قَبْر يُعبَد من دون الله، فهذا زُيِّن له سوءُ عمله فرآه حسنـًا، ويُنكِر علىٰ من يَنكِر عليه ويتهمه بأَنَّه غالٍ، وأنه مُتطَرف، وأنه يكره الرَّسُول ﷺ ويكره الأَوْلِيَاء، وهذا من الجهل، وإلا لو كان عندهم عِلْم لرأوا البَاطِل باطلاً.

لا يكشف البَاطِل إلا العِلْم الشَّرعي كما قال -تَعَالَىٰ-: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام:١٢٢]. النَّور: الوحيُ، لكن إذا كان الإنسَان بصرُه قويٌّ لكنه في ظلام لا يرىٰ، وإن كان عنده بصر، وأحيانـًا يغالط نفسه أنَّه يرىٰ، لكنه لا يرىٰ، كذلك النَّور في القَلْب، لا يُنير القَلْب إلا بالقُرآن وبالعِلْم الشَّرعي، فإذا جاء العِلْم الشَّرعي يرىٰ الأمور علىٰ حقيقتها، وإذا فقد العِلْم الشَّرعي يرىٰ الأمور علىٰ غير حقيقتها، ويظنها صحيحة، فهذا هو مَعنَىٰ ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾، وهنا الفعل مبني للمجهول، أي: مَن زَيَّن له سوءُ عملِه؟ هل هو إبليس؟ أو الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - عقابـًا له؟ كلاهما فيه احتمال، أمَّا أن يكون إبليس زيَّن له سوءُ عملِه فرآه هو حسنـًا، أو أن الله عاقبَه علىٰ معصية سبقت بِأنَّ لم يكشِف له نورَ الحقيقة، فرأىٰ البَاطِل حقاً، وهذا ـ نعوذ بالله ـ من أشدِّ الخُذلان، أن الإنسَان يعمل العمل السيء، ويظُنُّه حسنـًا، والعِلْم الشَّرعي هو الذي يُصفّشي ويكشف، وجهل الأُمَّة اليوم وما وَقَعَت فيه من بلاء وانحطَاط وتأخُر وفساد واضطراب، وتخلخل وفوضَىٰ سَبَبَه الجهل بالشَّرع، ليس هناك جهلٌ شرعي، فالجهل لا يُنسب إلىٰ الشَّرع؛ لأنَّه جهل، لكن فقد العِلْم الشَّرعي هو السَبَبَ فيما تعيشه الأُمَّة من هذا الانحطاط والفسَاد والضعف والتخلخُل، وكثرة الشِّرْك والمَعاصِي.



والناس علىٰ طرفي نقيض منهم من يتشدد في الدِّين إلىٰ دَرَجَة الغُلُو، وهم أقلية، ومنهم من يتساهل في الدِّين إلىٰ دَرَجَة التَّسَامُح حتىٰ في الشِّرْك وهم الأكثرية، وقليل من وفقَّه الله ليكون متوسطـًا علىٰ طريق الحق، الطريق المستقيم الذي نطلبه في كل ركعة فنقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة:٦]، إذاً الاستقامة، لا إفراطَ ولا تفريط. دين اللهِ وسط بين الغَالي فيه والجافي عنه، فالعِلْم الشَّرعي هو الذي ينُقِذُ الأُمَّة، وما لم تتعِلْم الأُمَّة دينها علىٰ الأسس الشَّرعية فستبقَىٰ في هذا الفساد، وهناك من يستفيد من هذا الفسَاد فيريد أن يستمر هذا الفسَاد بتجهِيل الأُمَّة وتجهيل المُسلِمِين، لكن ـ والحمد لله ـ الصحوة اليوم في العَالِم الإسلامي صحُوة قوية، لكن يخشىٰ أن هذه الصحوة تُسرع أكثر من المطلوب منها، فيؤدي بها إلىٰ الغُلُو الزائد عن الحقِّ، فالشَّخص في الطريق السريع إنْ يسرع فهو في خطر، والذي يمشي مَشياً بطيئـًا في خَطر، ولا يريد الإنسَان في الطريق السريع إلا أن يكون في سرعة محدودةِ منضبطـًا واعيـًا منتبهـًا، فهكذا السير في فهم الدِّين ينبغي أن يكون سيراً مُنضبطـًا، سيراً متزنـًا، لا غُلُو في دين الله ولا إفراط، فهذا هو الوسط الذي نحن قد أمرنا به.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

نوع المصنف التحذير من الافتتان بالقُبُور، وأخرجه في أبواب مختلفة، ليكون أوَقَعَ في القَلْب وأحسن في التعليم وأعظم في الترهيب، فإذا كان قصد قُبُور الصَّالِحين لعِبَادَة الله عندها فيه من النَّهِي والوعيد ما سيمر بك إن شاء الله، فكيف بعِبَادَة أربابها من دون الله واعتيادها لذلك في اليوم والأسبوع والشهر مرات كثيرة؟.

الشَّرح

هنا إشارة إلىٰ واقع المُسلِمِين في أكثر بلاد المُسلِمِين، فَإنَّهم قد عظَّموا القُبُور وبنوا عليها مَسَاجِد، وأصبحت هذه المَسَاجِد التي فيها قُبُور يعتادها النَّاس ويرتادها أكثر من المَسَاجِد التي ليس فيها قُبُور، وقد ذهبنا إلىٰ بعض البُلْدَان الإسلامية فرأيت المَسْجِد الذي ليس فيه قَبْر لا يكاد يفتح أبوابه إلا بعد أن يؤذن المؤذن، ولا يحضره إلا أفراد يعدون بالأصابع، وأراه مهجوراً وليس مهتماً به، وأما المَسَاجِد التي فيها قُبُور فكأنها خلية نحل، فالتَّعظِيم لمن؟ هل هو لله أو لصاحب القَبْر؟ هكذا بلغ الجهل بالمُسلِمِين إلىٰ أنهم يعظمون المقْبُور في هذا المَسْجِد أكثر من تعظيمهم لله ﷻ، وهذا هو سَبَبَ البلاء في الأُمَّة الإسلامية، وجود هذا الشِّرْك الساذِج الذي لا يقَع إلا في نفس إنسان جاهلٍ، قليل الوَعي، صغير العَقْل، كيف تعبد من مات وتترك الحي الذي لا يموتٍ؟، كيف تعظم البَشَر وتترك رب البَشَر؟ الله أراد أن يكرمك، قال: يا عبدي أنت عندي كريم، لا تُنجِّس نفسَك بِأن تذلَّ لغيري، لا تذِل إلا لي، ويعِلْمنا في كل ركعة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وحدك ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ هذا هو الاستعلاء، المسلمُ عنده استعلاء وعزَّة لا يذل إلا لله ولا يخضع إلا لله، ولا

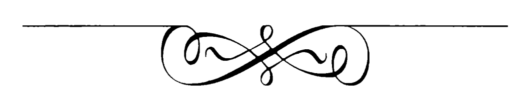
يسجُد إلا لله، فكيف إذا جاء المسلم وإذا به يعبُد القُبُور والأموات، ويتضرَّع إليهم، ويستغيثُ بهم، ويدعُوهم، ويخشاهم، ويخافُ منهم؟، كما سيأتي كلام الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: أنَّ الشَّخص إذا طلب منه أن يثقسم بالله علىٰ أمر كاذب أقسم، وإذا قيل: أقسم بالشيخ الفلاني ما يُقسم، ما أعظم هذا الجهل الفاضِح!، وقد ذكر بعضُ العُلَمَاء في التاريخ أنَّه كان في جَدةَ قبل أن يكون هناك تَوحِيد ـ ولله الحَمْدُ ـ شخص كان عليه دَينٌ لإنسان تاجر، فأقسم بالله أنَّه ليس له عنده شيء، فقال: أقسِم بفلان، بالشيخ الفلاني، فلم يُقسم!، تعظيم المخلوق المَيِّت عنده أعظم من الخَالِق عَزَّوَجَلَّ ، فكيف يكون هذا إسلاماً؟، وكيف يكون توحيداً؟ والذي لا يفهَم هذه المَعَانِي وهي من بداية الإسلام كيف يفهَم ما هو أدق وأكبرُ من ذلك؟، ليس هناك أكبرُ من ذلك لكن هناك أدق في الفهمِ والإدراك، فالشاهد: أنَّ الإنسَان لا يتدَنَّىٰ إلىٰ هذا المستوىٰ إلا عندما يغيبُ العِلْم الشَّرعي، وينتشر الجهَل.

الأُمَّة الإسلامية لا تعود إلىٰ دينها إلا بالعِلْم الشَّرعي، هذه أول خطوة، فأول مراحل عمَل الأنْبِيَاء أن يُعلِّموا النَّاس وأن يصَّبْروا علىٰ أذاهم؛ لَأنَّ الإنسَان أثناء التعليم لابد أن يأتيه ابتِلَاء، وهذا ما ذكره الشيخ مُحمَّد بن عبدالوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ في تَفسِير سورة العصر قال: أربعة مسائل ينبغي أن تتعِلْمها: الإيمان، والعمَل، والدِّعوة إلىٰ الإيمان، والصَّبْر علىٰ الأذىٰ فيه، هذه معاني سورة العصر، وقد سبقت قصةُ بلال رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وهو في مكة، وقصة آل ياسر، كان صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يمر بهم وهم يعذَّبون، ويوضَعون في الشمس، وربما رمَوهم بالحِراب، فكان يقول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: "صبْراً آلَ ياسر، فإن موعدَكم الجَنَّةُ"، ما عمل معركة، لكن الصَّبْر، الدعوة إلىٰ الله لا ينجحها إلا الصَّبْر، لكن ليس مَعنَىٰ الصَّبْر التخاذل، وأن لا تعِلْم النَّاس، الصَّبْر أن تعِلْم وتصَّبْر، وينبغي أن تترفق في تعليمهم، لا

تجرحهم، لا تسئ إليهم، لا تستعجل إصدار الأحكام، النَّفس البَشَرية تحتاج إلىٰ دقة في التَّعامل، يمرُّ النَّبِيُ ﷺ عند قوم يعذَّبون أمامَ عينه، ولا يمدُّ يدَه، ولا يرسلُ من يغتال من يفعل هذه الأفعال، وهم أفراد، والصَحَابَةُ ﷺ في مكةَ كانوا لا يقلون عن ثلثِ أهلِ مكةَ، ومع ذلك صَّبْروا، فكانت الغلبَةُ لهم، فالدَّعوة إلىٰ الله تحتاج أن تكون علىٰ منهاجِ الأنْبِيَاء، دعوةٌ وصَّبْر، وحُسنُ خُلُق، وحُسنُ معامِلَّة، وصَّبْر علىٰ أذىٰ النَّاس والترفقُ بهم، ومراعاةُ خواطِرهم، وعدمُ جرحِهم، إذا جرحَت إنسانـاً ثُمَّ أغنيته بالمال لا يَرضَىٰ، كرامةُ الإنسَان عنده أعظمُ من أي شيءٍ آخر، ولهذا لو قلت لإنسان مَالِك قليلٌ، يقول: نعم، قوتُك قليلة، يقول: نعم، أولادُك قليلون؟ يقول: نعم، تقول: عقلُك قليلٌ، لا يرضَىٰ، تجرحُه في عقله، لا يرضىٰ أبداً، ولو كان من أجهل النَّاس، فلابد أثناء مخاطبةِ الآخرين أن تحترمَ عقولهم، وتعطيه فرصة ليعبر عمَّا في نفسه وإن كان خطأ، وتناقشَه بهدوء، ولا تستعجل الثَّمرةَ أو الإقناعَ، بعض النَّاس إذا ناقَش الإنسَان في بِدعَة ظاهرة أو معصية ظاهرة ما يرضىٰ يتركه حتىٰ يجرحه، وحتىٰ يسيء إليه، وحتىٰ يسبه، لا يعطيه فرصة يفكر، الكلام مثل البذرة، أرأيتم بذرة القمح والشعير، تُقذف في الأَرض، قد لا تنبت اليوم بل تنبت غداً، لا تضيع البذرة بإذن الله، الكلمةُ الطيبةُ لا تضيع، فينبغي للداعي إلىٰ الله أن يحاور النَّاس بأدب واحترام حتىٰ لو كانوا مُبطلين ، يقول -تَعَالَىٰ- : ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢٤﴾﴾ [سبأ:٢٤]. فالمسلم وهو يناقش لا يفترض أن هذا الشَّخص يعرف الحقَّ، حتىٰ ولو كان الحقُّ واضحـاً، فالمسلم قد يخفىٰ عليه بعض الجوانب، قد يخفىٰ عليه طرف من الحق، وليس هناك فكرة كلها باطل، لابد أن يكون فيها شيء من الحق، هذا الذي ظهر لهذا الشَّخص أخفىٰ وراءه البَاطِل، فيحتاج منك أن تكشف هذا البَاطِل المختفي. وراء الحق

فينبغي لكل مسلم أن يكون عنده صَّبْر في الدعوة وجَلَد واستمرار وتعليم للنَّاس مما عِلْمه الله ﷻ، فإن بداية العودة إلى الله وبداية إصلاح الفساد في العَالِم الإسلامي بالعِلْم الشَّرعي، ولهذا نرى أن البُلْدَان التي فيها عِلْم شرعي لا ترى فيها غُلُواً كثيراً، مثلاً هذه البلاد ـ ولله الحَمْدُ ـ الغُلُو فيها قليل، لكن خذ بعض البُلْدَان التي ليس فيها عِلْم شرعي ترى فيها غُلُواً شديداً؛ لأنهم لا يدرسون الدِّين والعِلْم الشَّرعي في مدارسهم، فيفهم من الدِّين أفهامـاً خاطئة ويريد أن يحقق الدين، يقرأُ القُرآن فيرى فيه: هذا كُفر وهذا كُفر، والكُفَّار لابد أن يقاتَلوا ويجاهَدوا، فيُعلن الجهادَ، ولم يدرس العِلْم الشَّرعي. الذي لم يدرس العِلْم الشَّرعي يرى التناقض في المجتمع، فيكون هذا سَبَبًا لإيجاد الغُلُو والتطرف، التطرف في ترك الدِّين سَبَبَ لإيجاد التطرف في فَهم الدين، فلا ينقذ أمة إلا أن يكون فيها عِلْم بالدين يدرسه الصغار وينشأ عليه الكبار حتى يكون هذا هو الحافز للمجتمع، وصمام الأمان، أمَّا إذا لم يدرسوا العِلْم الشَّرعي فسيظهر في الأُمَّة أضعاف ما يراد، وكلما تقدم التاريخ ظهر أكثر؛ لَأنَّ النَّاس يفهمون أنهم خُلقوا من أجل عِبَادَة الله، وأنهم مُسلِمُوْن، وحيل بينهم وبين الإسلام، فيرون أنَّه ليس هناك مجال إلا القتال في سبيل الله، وإعلان الجهاد، ولم يتربوا على العِلْم الشَّرعي، وإلا فلو تربوا على العِلْم الشَّرعي ما حدث هذا الخلط في المفاهيم الشَّرعية، فلا يعصم الأُمَّة إلا العِلْمُ الشَّرعي، يدرس في مدارس المُسلِمِين، وفي بيوت الله، ويفسح المجال للمسلمين أن يفهموا دينهم، ويطبق في مجتمعاتهم، هذا هو الذي يجعل المجتمع آمنـاً، أمَّا إذا أخفي الإسلام، وأبعد عن المَنَاهِج فسيظهر جيل أشد من الأجيال الماضية؛ لَأنَّ النَّاس اليوم بدأوا يعودون إلى الله ﷻ، ولا يمكن أن يُحال بينهم وبين دينهم، فلا يعصمُنا إلا العِلْم الشَّرعي في مدارسنا، وفي مَنَاهِجنا، وفي وسائل إعلامنا، وفي مَسَاجِدنا، ينبغي أن يكون العِلْم الشَّرعي هو العِلْم

الذي يعِلِّم ويدرَّس ، هذا يجعل الأُمَّة تعيش آمنة، وفي هذه البلاد ـ ولله الحَمْدُ ـ قد جربنا هذا ورأينا هذه الثمرة العاجَلة، فينبغي أن يكون العِلْم الشَّرعي هو الأساس، وأن نحرص عليه ونوسع الدائرة، وأن نسعىٰ إلىٰ تزويده وتكثيفه، هذا هو الذي يعصمنا، أمَّا إذا ضعفَ العِلْمُ الشَّرعي فسيظهر جيلٌ سيكون أخطرُ من جميع المظاهر السابقة؛ لَأنَّ الُمسلم يقرأ القُرآنَ،- لا يستطيع إنسان أن يحول بين المسلم والقُرآن-، فيرىٰ الكُفْر، والجهادَ في سبيل الله، وقاتلوا الكُفَّار، من هم الكُفَّار؟ إخوانُه مِن حولِه يرىٰ أنهم كفَّارٌ، فيدعو إلىٰ الجهَاد، وتتنامىٰ وتكثر، فلا يعصِم النَّاس من المفاهيم الخاطئةِ والغُلُوِّ الزائدِ والتفريطِ إلا العِلْمُ الشَّرعي، فنسأل الله أن يعصمنا من الزلل.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قـال: في الصَّحِيح عـن عَائِشَـة، أن أمَّ سـلمة ذكـرَتْ لرسـول الله ﷺ كَنِيسـةً رأتْها بأرضِ الحُبْشَة وما فيها من الصُّـوَر، فقـال ﷺ: (إنَّ أولئكَ إذا كـانَ فيهم الرجُلُ الصَّالِح أو العبدُ الصَّالِح فماتَ، بَنَوْا علىٰ قَبْرِهِ مَسْجِداً وصوَّرُوا فيه تلكَ الصُّوَر، أولئكَ شِرارُ الخَلقِ عند الله يَومَ القِيَامَة) فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القُبُور وفتنة التماثيل.

قوله: (في الصَّحِيح) أي في الصَّحِيحين.

قوله: (أن أم سلمة) هي هند بنت أبي أمية بن المغيـرة بـن عبدالله بـن عُمَـرو بن مخزوم القرشية المخزومية، تزوجها النَّبِي ﷺ بعد أبي سلمة سنة أربع وقيل ثلاث، وكانت قد هاجرت مع أبي سلمة إلىٰ الحُبْشَة، ماتت سنة اثنتين وستين.

الشَّـرْح

قوله: (إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصَّالِح أو العبد الصَّالِح فمـات ..)(١)

هـذا الحَـديث أخرجـه الشـيخان في الصَّـحِيحين، ولكـن أكثـر الروايـات في البُخـارِي أن الـرَّاوِي للحـديث هـو أم سـلمة، وأم حبيبـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كلتاهمـا؛ لأنَّ كلتيهما قد هاجرتا إلىٰ الحبشَة، وهذه رواية واحدة في البُخارِي، أمَّا في مسلم فجميـع رواياتـه وَرَدَت عـن أم سـلمة وأم حبيبـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فالحَـديث ذكـر أن هـذا الأمر عرض علىٰ رَسُول الله ﷺ في آخر حياته وهو في سياق الموت، فقال هـذا الكلام، وسيأتي في حديث أوضح من هذا.

---

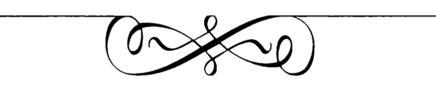
(١) سبق تخريجه.

قوله: (في الصَّحِيح أي في الصَّحِيحين) ليس في مسلم هذه الرِّوَاية، وفيه أن التي رواها أم حبيبة وأم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا كلتاهما، وكذلك في أكثر روايات البُخارِي، وذكر أم سلمة - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - فقط ليس إلا في رواية من روايات البُخارِي.

قوله: (أن أم سلمة هي هند بنت أبي أمية بن المغيرة ...) أم سلمة - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - هي إحدىٰ أمهات المُؤمِنِينَ، وهي ممن أسلم قديماً مع زوجها أبي سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وهاجر أبو سلَمة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بها إلىٰ الحُبّشَة، وبقي في الحُبّشَة عدة سنوات، ثُمَّ رجع إلىٰ مكة، وقد ولدت له سلَمة، فعندما رجع إلىٰ مكة بعد هجرة النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ المدينة، أراد أن يهاجر إلىٰ المدينة، فاصطحب زوجته أم سلمة، وابنه سلمة، وعندما خرج من مكة اعترضته قبيلة زوجته بنو المغيرة، وقالوا: ها أنت قد غلبتنا علىٰ نفسِك، فلن تأخذ معك صاحبتَنا، أي ابنتنا، والله لا تسافر بابنتنا معك، فأخذوها منه، فجاء قبيلة أبي سلمة بنو أسد، وقالوا: ها أنتم أخذتم صاحبتكم، فعلام نترك ابن صاحبنا معكم سلمة، فسحبوه منهم، فتجذابوه حتىٰ خلعوا يده، ثُمَّ أخذوه، وسافر أبو سلَمة، وبقيت زوجته في مكة عند أهلها، وسلمة عند قبيلة أبي سلمة، فقالت: بقيت سبعة أيام أخرج إلىٰ الأبطَح كل يوم أبكي، ثُمَّ مرَّ بها رجل فرآها علىٰ هذه الحال، فذهب إلىٰ بني المغيرة وقال: اتقوا الله في هذه المرأة، فرقتم بينها وبين زوجها وولدها، فسمحوا لها بالهجرة، فأعاد بنو أسد لها ابنها، فخرجت، وفي الطريق رآها رجلٌ في التنعيم، اسمه عثمان بن أبي طلحة، فقال إلىٰ أين؟ قالت: إلىٰ المدينة، قال: من معَك؟ قالت: ابني، قال: والله لا تذهبين وحدك، فأخذ خطام جملَها وهو كافرٌ، ثُمَّ انطلق بها في الطريق، فقالت: والله ما رأيت رجلاً أكرَم منه، كان إذا أناخ البعير تنحَّىٰ عني حتىٰ أنزل، وإذا أراد أن يَرحَل قرَّب البعير مني، ثُمَّ ابتعد عنِّي حتىٰ أركب، فأخذ بخطام جملها حتىٰ أوصلها إلىٰ قريب

المدينة، قباء، ثُمَّ قال: هذه قرية بني عُمَرو بن عوف، فيه زوجُك، ثُمَّ تركها ورجع، فهذه أم سلمة ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ، فبقيت مع زوجها حتىٰ أنجبت له ثلاثة أطفال، ثُمَّ مات أبو سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فخطبها أبُو بكْر فامتنعت، فخطبها النَّبِي ﷺ، فقالت: يا رَسُول الله إني امرأةٌ غيرَىٰ، وإني مُسبِية أي عندي أولاد صغار، قال: أمَّا الغيرة فسأدعو الله أن يذهبها عنك، وأما الصبية فسنكفيكَهم إن شاء الله، فدعا الله، فأذهب غيرتها فتزوجها ﷺ.

وكذلك أم حبيبة رمِلَّة بنت أبي سفيان، هاجرت إلىٰ الحُبّشَة مع زوجها عبيد الله بن جحش، وعندما وصل إلىٰ الحُبّشَة تنصَّر ورجع إلىٰ النَّصرانية، وهي مهاجرة، وكانت قد رأت رؤية سيئةً فيه، ولكنه لم يسمعها، فمات في الحُبّشَة، وبعد أن انتهت عدتها أرسل النَّبِي ﷺ إلىٰ ملِك الحُبّشَة فخطبها من نفسها، فزوجها لرسول الله ﷺ، فبقيت هناك حتىٰ العام السابع للهجرة، ثُمَّ جاءت إلىٰ المدينة المنورة، فكلتاهما كانتا في الحُبّشَة، فرأتا كنائس النَّصارَىٰ وفيها الصُّوَر والتماثيل، فأخبرتا رَسُول الله ﷺ فقال هذا الكلام: **(أولئك إذا كان فيهم الرجل الصَّالِح أو العبد الصَّالِح فمات، بنوا علىٰ قَبْره مَسْجِداً، وصوروا تلك التماثيل)**[1].



(١) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (ذكرت لرسول الله ﷺ) كان ذكر أم سلمة هذه الكنيسة للنبي ﷺ في مرض موته، كما جاء مبيناً في رواية في الصَّحِيح وفي الصَّحِيحين، أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا ذلك لرسول الله ﷺ.

قوله: (كنيسة) وفي رواية يقال لها مارية، وهي بفتح الكاف وكسر النون معبد النَّصارَىٰ.

قوله: (أولئك) بفتح الكاف وكسرها.

قوله: (إذا مات فيهم الرجل الصَّالِح أو العبد الصَّالِح) هذا والله أعلم شك من بعض رواة الحَديث، هل قال النَّبي ﷺ هذا أو هذا، ففيه التحري في الرِّوَاية وجواز رواية الحَديث بالمَعنَىٰ.

قوله: (بنوا علىٰ قَبْره مَسْجِداً) أي موضعًا للعِبَادَة وإن لم يسم مَسْجِداً كالكنائس والمَشَاهِد.

قوله: (وصوروا فيه تلك الصُّوَر) الإشارة بتلك الصُّوَر إلىٰ ما ذكرت أم سلمة وأم حبيبة من التصاوير التي في الكنيسة، كما في بعض ألفاظ الحَديث فذكرتا من حسنها وتصاوير فيها.



كَنيسَة بفتح الكاف وكسر النون، وهذا اسم يطلق علىٰ مَعابد النَّصارَىٰ.

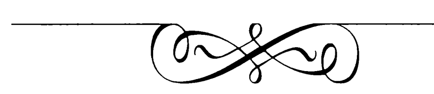
قوله: (أولئك) هذا اسم إشارة، يجوز في الحَديث أن تقول أولئكَ وأنت تخاطب الرجل، وتخاطب المرأة، وتخاطُب الجماعة، ويجوز أن يكون الضمير متفقًا مع ما بعده، تقول: أولئكِ، وأولئكَ، وأولئكُم، وأولئكنَّ،

ويجوز أن يكون بالكسر والفتح فقط، أولئكِ، وأولئكَ، فكلها جائز من حيث العربية.

قوله: (**الرجل الصَّالِح أو العبد الصَّالِح**) أي: الرَّاوِي شك، هل قال النَّبِي ﷺ الرجل أو قال العبد، فكلاهما سواء، لكن الرَّاوِي شك، فلم يجزم بأحدهما.

قوله: (**بنوا علىٰ قَبْره مَسْجِداً**) مَسْجِد للتعريف؛ لَأنَّ اسم مَسْجِد اسم إسلامي، ولأصحاب الديانة السابقة كنائس وبِيَع، لكنها تُسمىٰ مَسْجِداً؛ لأنه اسم يُطلق علىٰ كل مكان يكون فيه عِبَادَة، فليس في إطلاق مَسْجِد علىٰ معابد النَّصارَىٰ حرَج.

قوله: (**وصوروا فيه تلك الصُّوَر**) هذه بعض الألفاظ في الحَديث، ووَرَدَ أنهما عندما ذكرتا الكنسيةَ ذكَرتا من حُسنِها، أي اعتنوا ببنائها وتجميلِها وتذويقِها، وكذلك الصُّوَر فيها، فإنَّ الكنائس كان فيها صورة مَرْيَم - عليها السلام -، وصورةُ عيسىٰ، وصورةُ جِبريل، فهم يصورُون هذه الصُّوَر في كنائسهم إلىٰ اليوم، بل قد توسعوا إلىٰ أنهم نَحتُوا تماثيل، وهذه كلها محرَّمَة في الشَّرع.



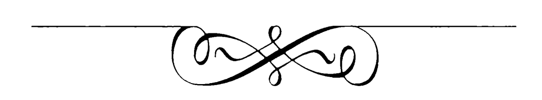
قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (أولئك شرار الخلق عند الله) مقتضىٰ هذا تحريم ما ذكر لا سيما وقد ثبت الَّلعن عليه، قال البيضاوي: لما كانت اليَهُود والنَّصارَىٰ يسجدون لقُبُور الأنْبِيَاء تعظيمًا لشأنهم، ويجعلونها قبلةً يتوجهون في الصَّلَاة نحوها، واتخذوها أوثانًا لعنهم النَّبِي ﷺ ومنع المُسلِمِين عن مثل ذلك.

قال القرطبي: وإنما صور أوائلهم الصُّوَر ليتأسوا بها، ويتذكروا أفعالهم الصَّالِحة فيجتهدون كاجتهادهم، ويعبدون الله عند قُبُورهم، ثُمَّ خلفهم قوم جهلوا مرادهم، ووسوس لهم الشَّيطَان أن أسلافكم كانوا يعبدون هذه الصُّوَر ويعظمونها، فحذر النَّبِي ﷺ عن مثل ذلك سداً للذريعة المؤدية إلىٰ ذلك.

الشَّرح

هنا يقول القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: إنهم لم يكتفوا بصور عيسىٰ ولا مَرْيَم ولا جِبرِيل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فكانوا إذا مات فيهم العبدُ الصَّالِح صَوَّرُوا صورَته كما فعل قومُ نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فالجيلُ الأول لم يعبدوا الصُّوَر، لكن بعد أن جاء الجيلُ الثاني والثالث ورأىٰ من تعظيم الأوائل لهذه الصُّوَر عظموها ثُمَّ عبدوها بعدَ ذلك.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين إلىٰ آخره). هذا من كلام شيخ الإسلام ذكره المصنف عنه، أي أن الذين بنوا هذه الكنيسة جمعوا فيها بين فتنتين ضل بها كثير من الخلق، الأُولَىٰ-: فتنة القُبُور؛ لأنهم افتتنوا بقُبُور الصَّالِحين وعظموها تعظيمًا مبتدعًا، فآل بهم إلىٰ الشِّرْك، وهي أعظم الفتنتين بل هي مبدأ الفِتنَة الثانية، وهي فتنة التماثيل أي الصُّوَر، فَإنَّهم لما افتتنوا بقُبُور الصَّالِحين وعظموها وبنوا عليها المَسَاجِد وصوروا فيها الصُّوَر للقصد الذي ذكره القرطبي، فآل الأمر إلىٰ أن عبدت الصُّوَر، ومن هي صورته من دون الله، وهاتان الفتنتان هما سَبَب عِبَادَة الصَّالِحين كاللات وود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، وغيرهم من الصَّالِحين.

الشَّرْح

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن سَبَبَ الشِّرْك هو: أولاً في تعظيم القُبُور، وثانيًا: في تصوير الموتىٰ والصَّالِحين بصور إمَّا مُجسَّمة كالتماثِيل أو صور عادية، فهذه بداية الشِّرْك، أي: تعظيم المخلُوق من الذين ماتوا، فإن القُبُورَ تُبنىٰ علىٰ من مات، فتعظيم القَبْر يؤدي إلىٰ تعظيم صاحبه، ومع الزمن تَظُن الأجيال اللاحقة أنَّ هذا المَيِّت ينفَع ويضُر مع الله أو من دون الله، وكذلك التماثيل، ولهذا نرىٰ في العَالِم جميعًا بدون استثناء في الدول المحيطة بنا التماثيل في كل ميدان، وفي بعض البُلْدَان الإسلامية تراها حتىٰ أمام البيوت، منهم من يزعُم أنها تطرُد الشياطين، ومنهم من يزعم أنها تذكرُهم آباءهم، ومنهم من يزعم أنها لصالحين، وكل إنسان له مزعَم.

فهذه التماثيل هي سَبَبَ هذا الشِّرْك. المخلوق يُحتَرمُ، لكن لا يُعظم تعظيماً يرفعُه فوق مكانته، التَّعظِيم المطلَق لله ﷻ ، القَلْبُ ينبغي أن يكون فيه اللهُ وحدَه، المَحَبَةُ لله، والتَّعظِيم له، والتذللُ والخضوع ، نحب كل من له علاقة بالله ﷻ ، مثل الرُّسُل ، ومثل الصَّالِحين، نحبهم، لكن لا نرفعهم فوق منزلتهم، ولا نبخسُهم حقهم، فلا نحتقر الصَّالِحين أو أهل العِلْم أو من له علاقة بدين الله، بل من لوازم مَحَبَة الله أن نحب من يُحِبُّه الله ﷻ ، لكن الحُبَّ الشَّرعي الذي ليس فيه غُلُو عن الحق، يقول الشوكاني رحمه الله وهو يصوِّرُ حال بلده، ولعل الصُّوَرة لا زالت إلىٰ اليوم؛ لَأنَّ البُلْدَان الإسلامية لم تحظ بما حظيت به هذه البلاد ـ ولله الحَمْدُ ـ من تطهيرها من هذه المظاهر، يقول:" وكم قد سرىٰ عن تشييد أبنية القُبُور وتحسينها من مفاسدَ يبكي لها الإسلام، منها اعتقاد الجهلة فيها، كاعتقاد الكُفَّار للأصنام، وعظُم ذلك فظنُّوا أنها قادرة علىٰ جلب النَّفْع ودفع الضرر، فجعلوها مقصداً لطلب قضاء الحوائج، وملجأ لنجاح المطَالِب، وسألوا منها ما يسأله العبادُ من ربهم، وشدُّوا إليها الرحال، وتمَسَّحوا بها، واستغاثوا بها، وبالجمِلَّة إنهم لم يدَعُوا شيئاً مما كانت الجَاهِلِيَّة تفعله بالأصنَام إلا فعلوه فإنَّا لله وإنا إليه راجعون، ومع هذا المُنكَر الشنيع، والكُفْر الفظيع لا تجد من يغضب لله، ويغار حمية للدين الحنيف، لا عالماً، ولا متعِلْماً، ولا أميراً، ولا وزيراً، ولا ملكاً، وقد توارد إلينا من الأخبار ما لا يشك معه أن كثيراً من هؤلاء القُبُوريين أو أكثرهم، إذا توجَّبَت عليه يمين من جهة خصمه حلف بالله فاجراً، فإذا قيل له بعد ذلك: احلف بشيخك ومعتقدك الولي الفلاني تلعثَم وتلكأ وأبىٰ واعترف بالحقِّ، وهذا من أبين الأدِلَّة علىٰ أن شركهم قد بلغ فوق شرك من قال أنَّه -تَعالَىٰ- ثاني اثنين أو ثالث ثلاثة. فيا عُلَمَاءَ الدين، ويا ملوكَ المُسلِمِين أيُّ رزءٍ للإسلام أشدُ من الكُفْر، وأيُّ بلاءٍ

لهذا الدِّين أضرُّ عليه من عِبَادَة غير الله، وأيُ مُصيبة يصاب بها المُسلِمُوْن تعدِلُ هذه المصيبة، وأيُ مُنكَر يجب إنكاره إن لم يكن إنكار هذا الشِّرْك البَيِّن واجبًا.

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حَيَاة لمن تنادي
ولو ناراً نفخت بها أضاءت ولكن أنت تنفخ في رمادي

هذا قاله في (نيل الأوطار) وهو يتكلم عن شرح هذا الحَديث، فهذا الوضع يوجد في غالب بلاد المُسلِمِين، شركٌ يدنس الإسلام ويشوهه، فإذا رأىٰ الكافرَ هذا المسلم الذي يعفر جبهته في التُرَاب أمام المَيِّت كيف يقبلُ الإسلام؟ وكيف يُحِبُّ الإسلام؟ كيف يقتنع بالإسلام؟ النَّاس ينظُرون إلىٰ أفعال المُسلِمِين، فكل داعية إلىٰ مبدأ أو إلىٰ دِين أول ما ينظر المَدُعو ينظر إلىٰ سلوكه، وعمله وحياته، وواقعه، فإذا رأىٰ سلوكَه وأخلاقه ومفاهيمه منحطة، فَإنَّه يُصَدُّ عن دين الله، فواقع المُسلِمِين يَصدُّ النَّاس عن دين الله، والناس لا يثقون بالكلامِ وبالمبادِئ النظرية، لا يثقون إلا إذا رأوا الواقع يدُل علىٰ القول، فوجود هذا الشِّرْك من أكبر الصدِّ عن دين الله - سبحانه وتعالى -، والنَّاس وإن كانوا كفاراً لديهم عقول، ينظرون ويتأملون، ويعتقدون، هذا الدِّين دين رب العَالِمين خالق الوجود، ولابد أن يكون هذا الدِّين أرقىٰ من جميع الأديان؛ لَأنَّ الكون مُحكَم متقن، جميل وشامل وواسع، فلا بد أن يكون الدِّين مثل هذا الكون، جميلاً واسعًا شاملاً؛ لَأنَّ مصدرهما من الله عز وجل ، فإذا رأوا الدِّين أفكاراً وآراء ونظريات وسلوكيات منحطة لا يصدِّقون أنَّ هذا دين الخَالِق عز وجل .

فدين الله - سبحانه وتعالى - دين محكمٌ، فإذا كان فهمنا فهمًا مشوهًا صدَّ النَّاسَ عن دين الله، في العَالِم كم فيه من البَشَر؟ يقدر عدد العَالِم بأكثر من أربع

مليارات، وأربعة آلاف مليون إنسان،كم يعيشون ويموتون وهم لا يعرفون دين الحقِ، ذنبهم في رقاب المُسلِمين؛ لَأنَّ الله جعل مهمة الرَّسُول ﷺ علىٰ المُسلِمين، فإذا كان الذي يدعو إلىٰ الله هو أول من يخالف الدِّين فكيف يمكن للمَدعُو أن يفهم الدين؟ وإذا كان الذي يدعو إلىٰ الله هو أول من يشوه الدِّين فكيف يفهم المَدعوا هذا الدِّين؟ فنحن في الحقيقة نصدُّ النَّاس عن دين الله والله يقول: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ﴾ [البقرة:١٤٣]،نحن شهداء، بلغناهم فلم يستجيوا، كما أن الرَّسُول ﷺ شهيدٌ علينا، ولكن إذا كان واقعنا هو هذا، كيف يمكن للنَّاس أن يفهموا هذا الدِّين وأن يُحِبُّوه.

فينبغي أن نحرص علىٰ أن نُحسن وضعنا وواقعنا حتىٰ تكون الصُّوَرة للإسلام التي ندعوا إليها صورة صحيحة صادقة.هل الإسلام لا يحكم المُسلِمين في أفرادِهم، وفي مجتمعاتِهم، وفي عقائدِهم، وفي أخلاقهم؟ هم يُحكِّمون الإسلام، متىٰ ما أرادوا أخذوا الحكمَ، ومتىٰ ما أرادوا تركوه، لابد أن يكون الإسلام صورة في حياتنا حتىٰ إذا جاء الكافر ورأىٰ واقعَ المُسلِمين، وقالوا: هذا الإسلام، فَإنَّه يؤمن به، ولهذا بعض من أسلم يقول: الحَمْدُ لله أنني عرفت الإسلام قبل أن أعرف المُسلِمين؛ لَأنَّ المُسلِمين يزعمون كما في القُرآن والسُّنَّة من الأخلاقِيات والمثاليات، والمفاهيم الدقيقة والجميلة، فإذا جاء ورأىٰ واقع المُسلِمين صدَّه هذا الواقع عن دِين الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -، هذه الصُّوَرة التي ذكرها الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ صورة توجد في أكثر بلاد المُسلِمين إلىٰ اليوم، نسأل الله أن يعجِّل بتطهيرها وبعلاجها.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال شيخ الإسلام -رحمه الله تعالَى-: وهذه العِلَّة التي لأجلها نهىٰ الشَّارع عن اتخاذ المَسَاجِد علىٰ القُبُور، وهي التىٰ أوَقَعَت كثيراً من الأمم أمَّا في الشِّرْك الأكبر أو فيما دونه من الشِّرْك، فإن النفوس قد أشركت بتماثيل القوم الصَّالِحين وتماثيل يزعمون أنها طلاسم لكواكب ونحو ذلك، فإن الشِّرْك بقَبْر الرجل الذي يعتقد صلاحه أقرب إلىٰ النفوس من الشِّرْك بخشبة أو حَجَر، ولهذا تجد أهل الشِّرْك يتضرعون عندها ويخشعون ويخضعون، ويعبدون بقلوبهم عِبَادَة لا يفعلونها في بيوت الله، ولا وقت السحر، ومنهم من يسجد لها وأكثرهم يرجون من بركة الصَّلَاة عندها والدُّعَاء ما لا يرجونه في المَسَاجِد، فلأجل هذه المفسدة حسم النَّبِي ﷺ مادتها، حتىٰ نهىٰ عن الصَّلَاة في المقبْرة مطلقـاً، وإن لم يقصد المصلي بركة البقعة بصلاته، كما يقصد بصلاته بركة المَسَاجِد.



الشَّرح

هذا هو السَبَبَ في تحريم الصَّلَاة عند القُبُور ألا يؤدي إلىٰ تعظيمِها، بعض النَّاس قد يصلي عند القَبْر ولا يعتقد البركة فيه، لكن هذا محذور، لا يجوز الصَّلَاة عند القُبُور ولا الصَّلَاة إليها، وكل مَسْجِد بني علىٰ قَبْر ينبغي أن يُهدَم المَسْجِد؛ لَأنَّ القبْر قَبلَ المَسْجِد، فلا يجوز أن نبني علىٰ القُبُور مَسَاجِد، لكن لو أدخلنا قَبْراً في المَسْجِد بعد ذلك فالقَبْر يُخرَج؛ لَأنَّ الحقَّ للأول، فإذا كان القَبْر في قبلة المَسْجِد في داخل المَسْجِد لا تجوز الصَّلَاة في المَسْجِد، وإذا كان القَبْر خارج المَسْجِد يُفصل بينهما جدار، فيصلىٰ فيه إن لم يكن هناك غيره، وإذا كان القَبْر في آخر المَسْجِد فكذلك يصلىٰ فيه إن لم يكن فيه غيرُه، لكن إن كان في قبلة المَسْجِد وداخل الجدار فلا يجوز؛ لَأنَّ هذا مَنهِي عنه شرعـاً.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

كما نهىٰ عن الصَّلَاة وقت طلوع الشمس وغروبها؛ لأنها أوقات يقصد المُشرِكون فيها الصَّلَاة للشمس، فنهىٰ أمته عن الصَّلَاة حينئذ وإن لم يقصد ما قصده المُشرِكون سداً للذريعة.

الشَّرْح

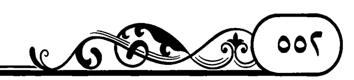
هذه بعض الأحكام الشَّرعية التي روعي فيها سد الذَّرَائِع، وقلنا سدُّ الذَّرَائِع من مقاصد الإسلام، فأحياناً ينهىٰ عن الشيء لا لأنَّه حرام، لكن سداً للذريعة، فَإِنَّه قد يؤدي هذا الفعل إلىٰ حرام، فإذا كان الفعل المباح أو العِبَادَة تؤدي إلىٰ شِرك أو إلىٰ معصية فَإِنَّها تُمنع، فإن الصَّلَاة بعد الفجر لله، وهي عِبَادَة، لكن لما كانت هذه تؤدي إلىٰ مشابهة المُشرِكين نُهِي عنها، وهي صلاة لله ﷻ، فالفعل قد يُنهَىٰ عنه لَأنَّ فيه شَبهاً أو تَشبُهاً بالكُفَّار؛ لَأنَّ الله أراد أن نكون أمَّة متميزة في عبادتها وفي حياتها، ما نكون أمَّة تابعة، أمَّة مُقلِّدة تسير علىٰ أخلاق المُشرِكين؛ فالمُشرِكون ليسوا أهلاً لَأنَّ نقلدهم، ينبغي أن نُقلَّدَ نحن، نحن الأُمَّة الربانية، نحن أمُّة القُرآن، فنحن ينبغي أن نكون القدوة في أخلاقنا وفي عقائدنا وفي سلوكنا، وفي معاملاتِنا، أمَّا إذا هبطنا عن هذا المستوىٰ فَإِنَّه تتقاسمُنا التقاليد، نقلد غيرنا، ونذل لغيرنا، ونُسير وراءه، يتضح ذلك من سورة الفاتحة، وهي سورة عجيبة، تربي فينا التميز والاستقلال: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ [الفاتحة:٦، ٧]، أنت تستعلي، لا يجب أن تسير في طريقهم، الله يُعلِّمُك أن تطلب منه أن يجعلك في طريقٍ بعيداً عن المغضوب عليهم والضالين؛ لأنَّك إنسان رباني، أنت من أمة الإسلام فكيف تسير وراءهم؟، فالله يعلِمك أن تدعوه أن يسلك بك طريقاً مستقيماً بعيداً عن طريق اليَهُود والنَّصارَىٰ، لكن إذا قلت هذا في

الصَّلَاة وخرجت من الصَّلَاة وإذا أنت في بيتك علىٰ طريق اليَهُود والنَّصارَىٰ، وفي أخلاقك علىٰ طريقهم، وفي عقائدك علىٰ طريقهم، وفي تشريعاتِك علىٰ عقائدهم، فأنت كذَّاب، لم تصدُق، كيف تقول: يا رب أبعدني عن طريقِهم وأنت بين يدِيه، ثُمَّ إذا خرجت وإذا بك في حياتك العامة علىٰ طريقِهم.

فهذه الصُّوَرة صورةٌ تحمي المجتمع، وتربي فيه التميز والاستقلال والاستعلاء، الشَّخص إذا نظَر إلىٰ الكُفَّار نظرةَ إعجاب وتقدير فبهذا قد خان فَهَمَ الإسلام، الكافرُ ولو بلغَ القَمَرَ، ولو وصل السَّحابَ، ولو طار إلىٰ الفضاء إنسانٌ مصيرُه إلىٰ جهنم، ليس له قيمة، إنسان لا يعرف لماذا يعيش؟ هو عرف الكفَّار، وفجر الذرة، واخترع الصاروخ، وطار إلىٰ القَمَر، لكن ما فائدةُ إنسانٍ يعرف الأشياءَ الخارجية، ويجهل نفسه هو، ولا يدري من هو؟ لماذا وُجَد؟ ما عملُه في الحَيَاة؟ ماذا بعد الموت؟ هذه هي الأسس والأُصُول التي هي أعظمُ المعارف، فإذا جهلها الإنسَان فلا قيمةَ له. ولو اكتشف ولو اخترع. قارون كان أغنىٰ النَّاس، فرعون كان ملكـاً جباراً، لكنه فقد الإيمان فكان حقيراً، أحدُهما خَسف الله به، والثاني أغرقه الله، فالمَعَانِي المادية ليست هي التي ترفَع الإنسَان، وإنما المَعَانِي الأخلاقية العقدية السلوكية، والمفاهيم الربَّانية، هي التي تجعل الإنسَان متميزاً، ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٦، ٧] تُعظِّم الذين أنعم الله عليهم، وتحبُّهم، وتعيش معهم، وتكون علىٰ طريقهم. فتسأل من هم؟ ما أخلاق هؤلاء الذين أنعم الله عليهم؟، كيف حياتُهم حتىٰ أولادك تسميهم بأسمائهم، وبناتك بأسمائهم؟، لكن الكُفَّار تحتقِرُهم، وإن صنعوا واخترعوا، نحن اليوم عظَّمنا الكافر؛ لأنه اخترع الكهرباء، والصواب أن نقول: اكتشف ولم يخترع؛ لَأنَّ الكهرباء مِوجودَة، إنما اكتشفها، واخترع مثلا الطائرة، اخترع الأجهزة الحَديث فعظمناه، لكن هو يجهَل نفسه، فلا قيمة له.

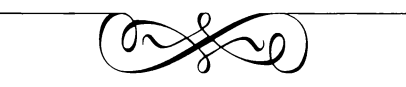
وعندما جهلوا هذا ؛جميع هذه الحضارة المادية لم توجِد في قلوبهم الأمن ولا الطمأنينة، يعيشون في قَلَق شديد، والمتتبع لأخبارهم يحمد الله ولو عاش علىٰ الخبز الناشف، ولو لم يعرف الكهرباء؛ لَأنَّ نِعمَة الإيمان أعظم النعم، طمأنينة القَلْب أعظم من كل لذة في الحَيَاة، ما قيمة الحَيَاة تعيش في خارجك وفي الداخل خواء، وفي الداخل تمزُّق، وقَلَق واضطراب، حتىٰ يؤدي إلىٰ انتحار، الآن المنتحرون في الغرب كثيرون، وهو يعيش في أحسن حَيَاة مادية، ورقي، ونعيم، ورغدِ العيش، لماذا؟ القَلْبُ في الداخل يعيش في تمزُّق، يعيش في قَلَقٍ، يعيش في خوف؛ لأنه ليس فيه إيمان، فسعادةُ الإنسَان الأَولَىٰ- أن يَطمَئِنَّ القَلْبُ، ولو كان فقيراً، وشقاؤه في أن يتفرَّغ القَلْبُ فتعبث به الشياطينُ.

فِنِعمَة الإيمان نِعمَة عظيمة، وهذه النِعمَة ينبغي أن نحرص عليها وأن نبحث عنها، فإن حصل في قلوبنا ضعف أو قَلَق أو اضطراب فإنما هو بسَبَبَ نَقَص إيماننا بالله ﷻ ، فالإسلام يحرص علىٰ تميز المسلم في أخلاقه وسلوكه وعباداته، وهناك بعض الأمثال يضربها بعض الإخوة الدُّعَاة: إنسان صاد أسداً صغيراً من الغابة، ورباه مع الغنم، الأسد يفتك بالحيوانات، لكن إذا تربّىٰ ودُرِّب علىٰ عدَم أكل الأغنام لم يأكلها، شبَّ وكبُر هذا الأسد حتىٰ أصبح أسداً كبيراً، وهو يرعىٰ مع الغنم، يذهبُ مع الغنم، فرآه أسدٌ من الغابةِ، فهجم علىٰ الغنم، فهرب الأسدُ، فدعاه بِلغتِه، ارجع أنت أسد، قال: لا أنا من الغنم، قال: تعال انظر في صورتك في البئرِ، جاء به عند البئر في ماء، قال: صورتُك مثلُ صورتي أنا، أنت أسدٌ وأنا أسدٌ، قال: لا لا، أنا غنمٌ، وهرب؛ لأنه تربَّىٰ مع الغنم. فهكذا الإنسَان إذا تربَّىٰ علىٰ أنَّه بهيمةٌ فَإنَّه يبقىٰ بهيمةً طولَ حياتِه.



وكذلك بنو إسرائيل عندما عاشوا في مصر تحت حكم فرعون وأذلهم، كان المصري يأخذ الإسرائيلي من الشَّارِع، ويضع علىٰ ظهره الحطب، ويأخذ به إلىٰ البيت ثُمَّ يتركه، فأذلوهم، فعندما خرج بهم موسىٰ عليه السلام، وأراد بهم أن يَدخُلوا القريةَ امتنعوا، وقالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة:٢٢]، ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة:٢٤]، جبناء، وحكم الله عليهم بالتِّيه أربعين سنة، عُمَر جيل، فظهر جيل من أبنائهم لم يتربوا علىٰ الذُّل الذي كان في عهد فرعون، هم الذين فتحوا المدينة.

فالتربِّي علىٰ العقيدة الصَّحِيحة، والأفكار الصَّحِيحة، والأخلاق الصَّحِيحة هي التي تجعل الإنسَان المسلم يشعر بلذة واستعلاء وعزَّة نفس، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون:٨]، فأنت عزيزٌ بهذا الدين، ولو كنت فقيراً، ولو كنت لا تملك شيئًا من المال، عزةُ الإيمان أقوىٰ، أنت متصل بمَالِك المال مَالِك الدُّنيَا، مَالِك الكون، لك صلة بخالق هذا الوجود، أنت عزيز، فهذا الدِّين يُرِّبي فينا الاستقلاليةَ حتىٰ في العِبَادَة، فالعِبَادَة صورتها إذا كانت تُشابه صورة عِبَادَة الكُفَّار الإسلام يرفضها؛ لأنه يريد منك أن تكون إنسانًا متميزاً حتىٰ في عباداتك، لكن إذا فرطت في هذه المَعَانِي وتركتها تكون أنت الجاني علىٰ نفسك في الدُّنيَا، وما في الآخِرَة من عقاب أشد، أعاذنا الله من عقابه.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: وأما إذا قصد الرجل الصَّلَاة عند القُبُور، متبركًا بالصلاة في تلك البقعة فهذا عينِ المحادة لله ورسوله، والمخالفة لدينه، وابتداع دين لم يأذن به الله، فإن المُسلِمِين قد أجمعوا علىٰ ما عِلْموه بالاضطرار من دين رَسُول الله ﷺ أن الصَّلَاة عند القُبُور منهي عنها، وأنه لعن من اتخذها مَسَاجِد، فمن أعظم المحدثات وأسبابالشِّرْك الصَّلَاة عندها، واتخاذها مَسَاجِد وبناء المَسَاجِد عليها، فقد تواترت النَّصوص عن النَّبي ﷺ بالنَّهي عن ذلك والتغليظ فيه. وقد صرح عامة الطوائف بالنَّهي عن بناء المَسَاجِد عليها، متابعة منهم للسنة الصَّحِيحة الصريحة، وصرح أصحاب أحمد وغيرهم من أصحاب مَالِك والشَّافِعِي بتحريم ذلك، وطَائِفَة أطلقت الكَرَاهَة، والذي ينبغي أن تحمل علىٰ كراهة التحريم إحسانًا للظن بالعُلَمَاء، وأن لا يظن بهم أن يجوزوا فعل ما تواتر عن رَسُول الله ﷺ لعن فاعله والنَّهي عنه.

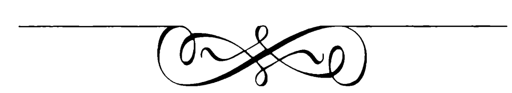


الشَّرْح

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن الأحَادِيث الصَّحِيحة المُتَوَاتِرة تنهىٰ وتُحَرِّم الصَّلَاة عند المقابر، وعُلَمَاء المُسلِمِين أصحاب المَذَاهِب الأربعة كلهم قالوا بالتحريم، إلا بعض المَذَاهِب قالت بالكَرَاهَة، هل أرادوا بالكَرَاهَة الاصطلاح الشَّرعي المشهور، أم أرادوا به الكَرَاهَة التحريمية؟ قال: نحن نظن بهم خيراً، ما يمكن لمسلم يسمع النَّصوص الشَّرعية المُتَوَاتِرة الصَّحِيحة في أصحِّ الكُتُب عن رَسُول الله ﷺ تلعن من بنىٰ مَسْجِداً، وتنهىٰ عن بناء المَسَاجِد، وتُبيِّنُ أن من

بناها يكون من شرارِ الخلق عند الله، ثُـمَّ بعـد ذلـك يقـول: يُكـرَه، كيـف يكـون فعلٌ يلعنُ الرَّسُول ﷺ صاحبه ويكون من فعلَ هذا الفعل مكروهـًا؟.

قال العُلَمَاء: علامةُ الكَبيرة أن تكون إمَّا أن يوصف صاحبها بأنَّه ملعـون، أو يُتَوَعد صاحبها بالنار، فأيُ فعل قال فيه الرَّسُول ﷺ لعـن الله كـذا يـدل علىٰ أنَّه من الكَبَائِر، فكيـف يكـون الفعـل كبيـرة ونقـول هـذا الفعـل مكـروه؟، إلا أن نُحسن الظن؛ لَأنَّ بعض العُلَمَاء في الحقيقة تسامحوا في هـذا، وقـالوا: أنَّـه يكـره الصَّلَاة عند المقابر، الأحَادِيث كلها شديدة في هذا الجانب، ثُمَّ تقـول: يكـره!، فنحسـن الظـن بهـم أنهـم مـا أرادوا الكَرَاهَـة التـي هـي اصـطلاح مشـهور مـن الأحكام الخمسة، وإنما الكَرَاهَة التحريمية، وهذا اصطلاح بعض العُلَمَـاء، إذا قال أكره كذا أو يكره كذا أراد به التحريم، وليس الكَرَاهَة التي من فعلها لا يـأثم ومن تركها يؤجر، بل من فعل هذا عند المَسْجِد فَإنَّـه يـأثم وهـو مُتَوَعَّـدٌ بـالَّلعن من رَسُول الله ﷺ، فهذا أمر مُحرَّم بكلام العُلَماء.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: ولهما عنها قالت لما نُزِل برسول الله ﷺ: (طفِقَ يَطرَحُ خَمِيصةً له علىٰ وَجهِه، فإذا اغْتَمَّ بها كشَفَها، فقال وهو كذلك: لعنةُ الله علىٰ اليَهُود والنَّصارَىٰ، اتخذُوا قُبُور أَنبيائِهم مَسَاجِد، يُحَذِّرُ ما صَنَعُوا) قالت: ولولا ذلك أبرز قَبْره غير أنَّه خشي أن يتخذ مَسْجِداً أخرجاه.

الشَّرْح

هذا الحَديث من رواية عَائِشَة ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا ـ، وهنا تظهر حكمة تعدُّد زوجات رَسُول الله ﷺ، الرَّسُول ﷺ مُرسَل للبشر كافة نساءً ورجالاً، ويحتاج أن تُنقَل حياته، وأن ينقَل كلامه، وأن تُروَىٰ أفعاله، فإذا كان في بيت واحد، ومع زوجة واحدة، ربما يفوت عليها الكثير، والنِّسَاء في حاجة إلىٰ أن يسمعن ما يتعلق بحقوقهن، وكذلك ما يكون في حياته في داخل بيته ﷺ.

فأمهاتُ المُؤمِنِينَ نَقلَن حَياةَ رَسُولِ الله ﷺ الداخليةَ كما هي، كيف كان ينامُ، وكيف كان يأكل، وكيف كان يأتي أهلَه ، حياتُه الداخليةِ مكشوفةٌ، من يرضىٰ منا أن تكون حياته الداخلية في بيته مكشوفةً؟، كثيرٌ منا لا يرضىٰ، بل ربما كلُّنا؛ لأننا في داخل بيوتنا يقع منَّا أخطاءٌ وضعفٌ بشري، ولا يوجد زعيم من الزعماء يرضىٰ أن تنكشف حياتُه أبداً؛ لَأنَّ كثيراً منهم في حياتهم أشياء لا يُحِبُّ أن تنشر، لكن سيد البَشَر ﷺ ليس في حياته أسرار، حياته مكشوفة، رواها نساؤه؛ لأنَّه كان في قمة الكمال البَشَري ﷺ، البَشَر أعطاهم الله قدرة في الكمال، قمته عاشها نبينا ﷺ، لكن البَشَر الآخرون ما يُحِبُّون أن تنكشف أسرارهم، ولا ضعفهم البَشَري، كم لنا من علاقات لا نحب أن تنكشفَ، كم لنا من عاداتٍ لا نحبُّ أن تُكشف، كم لنا من معاملاتٍ لا نحبُّ أن تُكشفَ،

لكن سيد البَشَر ﷺ حياته مكشوفة، ونساؤه رَوَين كلَّ حياته، وهـذا يـدلُّنا علىٰ أن هذا الرجلَ الذي هو رسولُنا ﷺ ليس بشراً عادياً، بـل هـذا مصطفًى مُختارٌ ترعاه عنايـةُ الله ﷻ ، وقـد حفظـه الله حتىٰ وصـل إلىٰ مـدارجِ الكمـال، ولهـذا ليس في حياته ضعف أو نَقَص يَستحيِىٰ من ذكره، ولم يُنقل أنَّه ﷺ نهىٰ أزواجه أو أصحابه عن نقل شيء من حياتِه، إن خرج مع أصحابه رَوَوا كـل حياتـه، وإن دخل مع زوجاته رَوين كلَّ حياته، وهـذا يـدلُّنا علىٰ الكمـال البَشَـري فيـه ﷺ. فهو في الدُّنيَا في أعلىٰ قمة البَشَر، وفي الآخِرَة في أعلىٰ دَرَجَةٍ في الجَنَّة، كمـا قـال: (**وسألوا الله لي الوَسِيلَة فَإنَّهادَرَجَة في الجَنَّة لا يبلغهـا إلا رجـل واحـد، أو قـال: عبد واحد، وأرجو أن أكون أنا هو**)[(١)].

وعندما نزل به المرض: مرضُ الموت، واشتدَّ به، كان يطرح خميصةً أي ثوبـاً علىٰ وجهه ﷺ، فإذا اغتم بها كشفَها، وبعـد أن يكشفها يقـول: (**لعنـة الله علىٰ اليَهُود والنَّصارَىٰ، اتخـذوا قُبُور أنبيـائهم مَسَاجِد**)[(٢)] عجبـاً بهـذا التوجيـه الكَرِيم!، كثير من النَّاس عند الموت يجزَع، ولا يستطيع أن يحفظ نفسه، ونبينا في غمـرةِ المـوت وهـو يحـذِّر أمتَـه مـن أن تفعـل مـا فعلتـه اليَهُـود والنَّصـارَىٰ، فيقول: (لعنة الله علىٰ اليَهُود والنَّصارَىٰ، اتخذوا قُبُور أنبيائهم مَسَاجِد) وسيأتي في حديث آخـر: (**إنِي أنهـاكم عـن ذلـك**)، وفي حـديث آخر قـال: (**أولئك شـرار النَّاس، كانوا إذا مات فيهم الرجـل الصَّـالِح أو العبـد الصَّـالِح اتخـذوا علىٰ قَبْـره مَسْجِداً، وصوروا فيه تلك الصُّوَر**)[(٣)] فكـم حـديث وَرَدَ فيـه النَّهِـي والزَجـر عـن أن نفعـل كمـا فعلـت اليَهُـود والنَّصـارَىٰ مـن إقامـة القِبـاب أو المَسَـاجِد علـىٰ القُبُور، فهذا تحذير منه ﷺ.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هكـذا ثبـت في أول هـذا الحَـديث، (ولهمـا) وفي آخـره (أخرجـاه) بخـط المصنف، وأحد اللَّفْظين يغني عن الآخر؛ لأَنَّ المُرَاد صاحبا الصَّحِيحين.

قولـه: (لما نـزل) هـو بضـم النون وكسـر الـزاي، أي نـزل بـه ملـك المـوت والملائكة الكرام عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

قوله: (طفق) بكسر الفاء وفتحها، والكسر أفصح، وبه جـاء القُـرآن، ومعنـاه جعل.

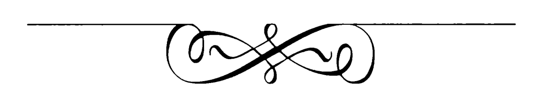
قولـه: (خميصـة) بفـتح المعجمـة كسـاء لـه أعـلام، قولـه: (فـإذا اغـتم بهـا كشفها)، أي إذا احتبس نفسه عن الخروج كشفها عن وجهه.



قوله: (ولهما وفي آخره أخرجاه بخـط المصنف، وأحـد اللَّفْظين يغنـي عـن الآخر) هذا تصحيح من الشـارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهـو حفيـد المصـنف، يقـول: المصـنف ذكر لفظين أحدهما ينوب عن الآخر، ففي أول الحَـديث قـال: (ولهمـا)، وهـذا اصطلاح يراد بـه البُخـارِي ومسـلم، وبعـد أن سـاق الحَـديث قـال: (أخرجـاه)، وقد عرفنا من بداية الحَديث أنَّه أخرجه الشيخان، فقال: (أحـد اللَّفْظـين ينـوب عن الآخر)، وكل لفظ ينوب عن لفظٍ آخر استُحسِن عدم إيراده،

قوله: (قوله: طفق) طِفق، أو طَفق أيهما أفصح؟ كلاهما جـائزان في اللغـة، طفَق يفعل كذا. وطِفق يفعل كذا، وهناك كلمات كثيـرة تـأتي بتشـكيل مختلـف، كلها جَائِزَة، فمنها هذا اللَّفْظ، طَفق أو طِفق، والأفصح أن يقول: طِفق، لكن لـو

قال: طَفق لا بأس بذلك، وهذا تصوير لحاله ﷺ، وهو في غمرة المـوت، كـان من شدةِ الحرِّ والألم يضع خميصةً علىٰ وجهه ﷺ، لعله يمسـح بهـا العـرقَ، - والله أعِلْم-، لكن لعلَّه هذا، فإذا كشفها قال: (لعنـةُ الله علـىٰ اليَهُـودِ والنَّصـارَىٰ اتخذوا قُبُورَ أنبيائهم مَسَاجِد).



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

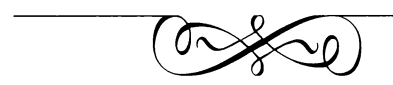
قوله: (لعن الله اليَهُود والنَّصارَىٰ إلىٰ آخره) لعنهم ﷺ علىٰ هذا الفعل بعينه، وهو اتخاذ قُبُور الأنْبِيَاء والصَّالِحين مَسَاجِد، أي كنائس وبيع يتعبدون ويسجدون فيها لله، وإن لم يسموها مَسَاجِد، فإن الاعتبار بالمَعنَىٰ لا بالاسم، ومثل ذلك القباب والمَشَاهِد المبينة علىٰ قُبُور الأنْبِيَاء والصَّالِحين، فَإنَّها هي المَسَاجِد الملعون من بناها علىٰ قُبُورهم، وإن لم يسمها من بناها مَسَاجِد،

وفيه رد علىٰ من أجاز البناء علىٰ قُبُور العُلَمَاء والصَّالِحين، تمييزا لهم عن غيرهم، فإذا كان ﷺ لعن من بنىٰ المَسَاجِد علىٰ قُبُور الأنْبِيَاء، فكيف بمن بناها علىٰ قُبُور غيرهم؟.

الشَّرح

قوله: (لعن الله) إذا جاء في الحَديث: لعن الله من فعل كذا لها وجهان: إمَّا أن تكون إنشاء أو إخباراً، فإذا كان إنشاء أي: أن الرَّسُول ﷺ دعا عليهم أن يلعن الله من فعل كذا، وإذا كان إخباراً أي: يُخبر أنَّ الله قد لعنَ من فعل كذا، وعلىٰ أي وجه حملنا الحَديث فإن المُرَاد هو النَّهي عن هذا الفعل، فإن أخبر أنَّ من فعل هذا لعنه الله أي لا تفعلوا حتىٰ لا تقعوا في لعنةِ الله، وإن كان دعاء أي احذروا فإني ألعَن من فعل كذا، فاللَّعن يدلُّ علىٰ التحريم، ولهذا قال العُلَمَاء: أن من علامات الكَبَائِر أن ترد بصيغة اللَّعن أو يُتَوعَّد صاحبُها بالنار أو بالعَذَاب، فدلَّ علىٰ أنَّ هذا الفعل وضع القباب أو المَسَاجِد علىٰ القُبُور من الكَبَائِر، لكن من صَلَّىٰ إلىٰ القَبْر فَإنَّه شِرك، لكن من أقام المَسْجِد أو وضع القُبَّة علىٰ القَبْر فإنَّ هذا من الكَبَائِر، وقد لعَن من فعل هذا وأخبَر أنَّه من شرار النَّاس، فإذا كان هذا فيمن فعله في حقِّ الأنْبِيَاء، فمن كان دون الأنْبِيَاء من باب

أولىٰ، هذا يـدُل علـىٰ التحـريم، ولا يجـوز أن يُوضـع مَسْـجِد علـىٰ قَبْر، ولا أن يُدفن شخصٌ في مَسْجِد، وهذا علىٰ التحـريم، الماضـون اتخـذوا قُبُـور أنبيـائهم مَسَاجِد، ولكن ما كانت تسمىٰ مَسَاجِد في الماضـي، كانـت تسـمىٰ في كـل ديانـة باسم آخر، فالنَّصارَىٰ يسـمونها كنـائس، واليَهُـود يسـمونها البِيَـع، ولكـل طَائِفَـة اسـم لمعابـدهم، لكـن المَعنَـىٰ العـام مـن حيـث اللغـة هـو المَسْـجِد أي: محـل عِبَادَة، فليس هناك حرج في تسميتها بالمَسَاجِد.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (يحذر ما صنعوا)، الظاهر أن هذا من كلام عَائِشَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، أي أن الرَّسُول ﷺ لعن اليَهُود والنَّصارَىٰ علىٰ ذلك تحذيراً لأمته أن تصنع ما صنعوا. قال القرطبي: وكل ذلك لقطع الذريعة المؤدية إلىٰ عِبَادَة من فيها، كما كان السَبَبَ في عِبَادَة الأصنَام.



الشَّرح

هذا المنعُ سداً للذريعة، وسد الذَّرَائِع اصطلاح يأتي في كُتُب الأُصُول كثيراً، أي الفعل قد يكون مباحًا، وقد يكون مستحبًا، وقد يكون واجبًا، فإذا كان سيؤدي هذا الفعل إلىٰ مُنكَر وجَب تركُه، مثلا قوله -تَعَالَىٰ - في قُرَيْش عندما كان النَّبِي ﷺ يسبُّ آلهتهَم ويذمُّها، قالوا: يا مُحمَّد لئن لم تنته عن سبِّ آلهتنا فإننا سنسبُّ ربَّك، فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ﴾ [الأنعام:١٠٨]، هؤلاء جهلة لا تسبوا أصنامهم، مع أن سب الأصنَام وبيان بطلانها وانحطاطها وفسادها، وعدم قدرتها علىٰ فعل الخير أو الشر قد يكون من الواجبات، لكن لما كان هذا يؤدي إلىٰ مُنكَر أكبر وجَب تركُه، وهذا من باب سدِّ الذَّرَائِع.

وقلنا إن ابن القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ استطرد في بيان هذا الباب في كتاب (إعلام المُوَقِّعين) حتىٰ أَورَدَ تسعًا وتسعين صورة، وقال هذه بعدد أسماء الله الحسنىٰ رجاءَ أن من فعلها وعمل بها يَدخُل الجَنَّة، ذكرَ سدَّ الذَّرَائِع في الصَّلَاة وفي الصيام وفي المعاملات، وفي الحَيَاة، وهو جدير لَأَنَّ يُرجَع إليه ليُستفاد منه.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (ولولا ذلك)، أي لولا تحذير النَّبي ﷺ ما صنعوا ولعن من فعل ذلك.

قوله: (لأبرز قَبْره)، أي لدفن خارج بيته.

ومنه الحَديث كان رَسُول الله ﷺ يومًا بارزاً للنَّاس، أي جالسًا خارج بيته.

قوله: (غير أنَّه خشي أن يتخذ مَسْجِداً)، روي بفتح الخاء وضمها بالبناء للفاعل والمفعول.

قالوا: فأما رواية الفتح فَإنَّها تقتضي أن النَّبي ﷺ هو الذي أمرهم بذلك، وأما رواية الضم فيحتمل أن تكون عَائِشَة هي التي خشيت. كما في لفظ آخر: غير أني أخشىٰ، أو هي ومن معها من الصَحَابَة. قلت: وهذا أظهر، ورواية غير أني أخشىٰ لا تخالفه.

الشَّرح

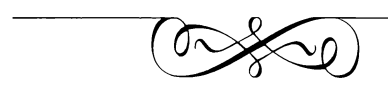
قوله: (ولولا ذلك) أي لولا أنَّ الرَّسُول ﷺ لعَن من فعل ذلك لدفن الرَّسُول ﷺ خارج البيت، خارج حَجَرة عَائِشَة، لكن خشِي أن يُتَخذ مكانًا للعِبَادَة، أو مَسْجِداً، فدُفِن في حُجرَة عَائِشَة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ.

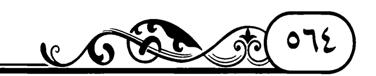
قوله: (ومنه الحَديث كان رَسُول الله ﷺ يومًا بارزاً للنَّاس)(١) هذا هو

---

(١) أخرجه البُخارِي في صحيحه، كتاب التَفسِير، باب قوله -تَعَالَىٰ-: (إن الله عنده عِلْم السَّاعَة)، برقم: (٤٧٧٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، برقم: (٩)، (١/ ٣٩).

حديثُ جِبرِيل عليه السلام الذي وَرَدَ في ذكِر بيان الإسلام والإيمان والإحسان، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أخرجه البُخارِي، ولم يخرج البُخارِي رحمه الله حديث ابن عُمَر أو حديث عُمَر الذي في حديث جِبرِيل عليه السلام، وهو أكثر بيانـًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، لكن البُخارِي رحمه الله لم يذكر إلا حديث أبي هريرة، فالرَّاوِي قال: أن الرَّسُول صلى الله عليه وسلم لما كان بارزاً أي خارج البيت، فكلمة بارز أي يكون خارج البيت، برز من بيته أي خرَج من بيته، فقال: لأبرز، أي لأخرج من بيته، لولا ذلك لأبرز قَبْره، لكن خشي أن يتخذ مَسْجِداً.



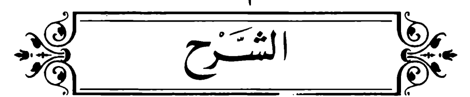


قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال القرطبي: ولهذا بالغ المُسلِمُوْن في سد الذريعة في قَبْر النَّبي ﷺ، فأعلوا حيطان تربته، وسدوا المداخل إليها وجعلوها محدقة بقَبْره ﷺ، ثُمَّ خافوا أن يتخذ موضع قَبْره قبلة إذا كان مستقبل المصلين، فتصور الصَّلَاة إليه بصورة العِبَادَة، فبنوا جدارين من ركني القَبْر الشماليين، وحرفوهما حتىٰ التقيا علىٰ زاوية مثلثة من ناحية الشمال حتىٰ لا يتمكن أحد من استقبال قَبْره.

قلت: وفي الحَديثين مسائل نبه المصنف علىٰ بعضها، منها: ما ذكر الرَّسُول ﷺ فيمن بني مَسْجِداً يعبد الله فيه علىٰ قَبْر رجل صالح، ولو صحت نية الفاعل، ومنها: النَّهي عن التماثيل بتغليظ الأمر، ومنها: نهيه عن فعله عند قَبْره قبل أن يوجد القَبْر، ومنها: أنَّه من سنن اليَهُود والنَّصارىٰ في قُبُور أنبيائهم، ومنها: لعنه إياهم علىٰ ذلك، ومنها: مراده بذلك تحذيره إيانا عن قَبْره، ومنها: العِلَّة في عدم إبراز قَبْره، ومنها: ما بلي به ﷺ من شدة النزع.

قلت: ومنها التنبيه علىٰ علة تحريم ذلك وعلة لعن من فعله.



الشَّرح

هذا إشارة إلىٰ قَبْر النَّبي ﷺ، فإن الرَّسُول ﷺ عندما مات دفن في حَجَرة عَائِشَة - رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا -، والحُجرَة وكذلك الحُجرات الأخرىٰ التسع كانت خارج المَسْجِد، والمَسْجِد كان منفصلاً عنها، وكان لرسول الله ﷺ باب من حُجرتِه إلىٰ المَسْجِد، فال حُجرة كانت خارج المَسْجِد، وفي عهد الصَحَابَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ بنوا علىٰ الحُجرة ثلاثة جدران، جدار أمامي، وجدارين خلفيين زاوية، مثلث، فالذي يُصلِّي وراءها يصلي إلىٰ مثلث، وليس إلىٰ جدار أمامه، بقي هكذا في عهد الصَحَابَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ إلىٰ أن مات جميع الصَحَابَة في المدينة.

وفي عهد الوليد بن عبد الملك أدخلت الحُجرة التي فيها القَبْر النبوي الشريف إلىٰ المَسْجِد، فالوليد هو أول خَلِيفَة بعد أبيه؛ لَأنَّ أباه قد ترك أربعة كلهم حكموا، الوليد، وسليمان، ويزيد، وهشام، وكان بجانب المَسْجِد النبوي بيوت آل البيت، وكانت تتعلق قلوب النَّاس بهم، وكانوا يرغبون أن يكون أحدهم يحكم بعد انتهاء الخلفاء الراشدين، فالوليد بن عبد الملك خاف، فاحتال لإبعاد آل البيت من جانب المَسْجِد، فأدخل بيوتهم والحُجرات التسع في المَسْجِد حتىٰ ينقلهم بعيداً عن المَسْجِد، فأدخل القَبْر النبوي الشريف في داخل المَسْجِد، وهو لم يَدخُل في عهد الصَحَابَة ﷺ كما يقول العُلَمَاء؛ لَأنَّ الوليد حكم عام ستة وثمانين أو أربعة وثمانين إلىٰ عام ستة وتسعين، وأدخله في هذه الفترة، لم يبق أحد من الصَحَابَة في المدينة في هذه الفترة، بقي علىٰ هذا الحال إلىٰ أن جاء العصر الحاضر، ولم يَدخُل بهذه الصُّوَرة في المَسْجِد إلا في العصر الحاضر، لكنه كما قال العلَماء: أنَّه محاط بجدران، ويرجىٰ أن تكون هذه الإحاطة تمنع أن يكون داخلَ المَسْجِد، لكن في الحقيقة أنَّ فيه إشكالاً والله أعِلْم.

قوله: (**قلت: وفي الحَديثين مسائل نبه المصنف علىٰ بعضها**) هذه كلها فوائد تؤخذ من الحَديث، منها: لعنُ من فعل، والتحذيرُ من الفعل، وكيف كان يعاني ﷺ شدة النزع عند الموت. فإن الموت أمرُه عظيم، فإن الرُّوح تخرج من كل خلية من الجسم، وخروجها أشقُّ، وأعظم مصيبة للإنسان هو الموت، فهو أعظم مصائب الدُّنيَا، وأشدها ألمـًا، لكنه أهون مصائب الآخِرَة؛ لَأنَّ الموت ينتقل من حَيَاة إلىٰ حَيَاة، لكن إذا دخل إنسان جهنَّم ـ أعاذنا الله ـ فإن عَذَابها لا ينتهي.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

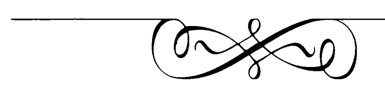
قال: ولمسلم عن جندب بن عبدالله قال: سمعتُ النَّبِي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: (إني أبرَأُ إلىٰ الله أن يكونَ لِي منكم خَليلٌ، فإن الله قد اتخذَنِي خَلِيلاً كما اتخذ إبرَاهِيم خليلاً، ولو كنتُ متخِذًا من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتَّخِذُون قُبُور أَنبِيائِهم مَسَاجِد، ألا فلا تتخذُوا القُبُور مَسَاجِد، إني أَنْهاَكُمْ عنْ ذَلِكَ). فقد نهىٰ عنه وهو في آخر حياته، ثُمَّ أَنَّه لعن وهو في السياق من فعله، والصلاة عندها من ذلك وإن لم يبن مَسْجِداً، وهو مَعنَىٰ قوله: (أخشىٰ أن يتخذ مَسْجِداً) فإن الصَحَابَة لم يكونوا ليبنوا حول قَبْره مَسْجِداً، وكل موضع قصدت الصَّلَاة فيه فقد اتخذ مَسْجِداً، بل كل موضع يصلىٰ فيه يسمىٰ مَسْجِداً، كما قال ﷺ: (جعلت لي الأرض مَسْجِداً وطهوراً).

الشَّرح

قوله ﷺ: (إني أبرأ إلىٰ الله أن يكون لي منكم خليل)[1] هذا هو الحَديث الثاني، وهو يشير إلىٰ قضيتين القضية الأُولَىٰ-: أنَّ نبيَّنا - عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ - لم يتخذ من البَشَر خليلاً، والخُلَّةُ هي أعلىٰ درجَات المَحبَة، وإنما جعل ذلك لله عَزَّ وَجَلَّ ؛ لأنَّ الله قد اتخذه خليلاً، كما اتخذ إبرَاهِيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خليلاً، فالخُلَّة في اللغة العربية أعلىٰ درجات المَحبَة، لكن هل يقال أن رَسُول الله ﷺ حبيبُ الله؟ نعم هو حبيب الله، لكن ليس هذا الوصف خاصاً به ﷺ، فإن المَحبَّة ثابتة للرسول ﷺ،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المَسَاجِد ومواضع الصَّلَاة، باب النَّهي عن بناء المَسْجِد علىٰ القُبُور واتخاذ السور فيها والنَّهي عن اتخاذ القُبُور مَسَاجِد، برقم: (٥٣٢)، (١/ ٣٧٧).

وللتوابين، والمتَطهرين، والمتَّقين، فالحُبّ عام، لهذا بعض النَّاس يظن أنَّه عندما يقول: اللهم صل على حبيب الله أنَّ هذا وصف أعلى من كلمة خَليل الله، وهذا خطأٌ، فإنَّ الخُلَّة أعظم دَرَجَةً من المَحَبَّة، وقد أخبر ﷺ أنَّه يُحِبُّ زوجته عَائِشَة، ويُحِبُّ أباها، فهو يُحِبُّ بعض النَّاس، لكن لم يتخذ من النَّاس خليلاً؛ لأنَّ الخُلَّة أعلى، فرسولنا ﷺ خليل الله، وهذا وصف خاصٌ به وبإبرَاهِيم -عليهما السلام





قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (عن جندب بن عبدالله) أي ابن سفيان البجلي أبو عبدالله، وينسب إلىٰ جده، صحابي مشهور مات بعد الستين.

قوله: (إني أبرأ إلىٰ الله أن يكون لي منكم خليل) أي أمتنع من هذا وأنكره، والخليل هو المحبوب غاية المَحَبَة، مشتق من الخلة بفتح الخاء وهي تخلل المودة في القَلْب. كما قال الشاعر:

قد تخللت مسلك الرُّوح مني وبذا سمي الخليل خليلاً.

هذا هو الصَّحِيح في معناه كما ذكره شيخ الإسلام، وابن القَيِّم وابن كثير وغيرهم. قال القرطبي: وإنما كان في ذلك؛ لأَنَّ قلبه ﷺ قد امتلأ من مَحَبَة الله وتعظيمه ومعرفته، فلا يسع لمخالة غيره.



الشَّرح

جندب بن عبد الله هذا مشهور، وله حديث حد الساحر ضربة بالسيف[(١)]، وسيأتي هل هو جندب بن عبد الله، أو جندب بن كعب، أو غيرهما؟ لَأَنَّ وَرَدَ في أسماء الصَحَابَة رضي الله عنهم جندب لأكثر من شخص، وهناك حديث آخر عن جندب هذا: أَنَّه رضي الله عنه كان في الكوفة، وكان هناك والٍ يأتي بالساحر، فكان هذا

---

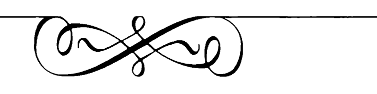
(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الحَدود، باب ما جاء في حد الساحر، برقم: (١٤٦٠)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ، كتاب القسامة، باب تكفير الساحر وقتله إن كان ما يسحر كلام كفر صريح، برقم: (١٦٥٠٠)، (٨/ ٢٣٤)، والحاكم في المستدرك، كتاب الحَدود، برقم: (٨١٥٥)، (٤/ ٥١٢)، والدارقطني في سننه، كتاب الحَدود، برقم: (٣٢٠٤)، والحَديث ضعفه الترمذي والبيهقي والدارقطني لضعف إسماعيل بن مسلم المكي وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وضعفه الألباني في تعليقه علىٰ سنن الترمذي.

الساحر يقتل ثُمَّ يحيي، فغضِب هـذا الصَّـحَابِي، فاشتمل علىٰ سيفه ثُـمَّ جاء إلىٰ هذا المكـان، فقتـل السـاحرَ، وقـال: إن كـان يحيـي المَيِّـت فليحيي نفسـه، والوالي كان الوليد بن عقبَّة، وكان واليا في عهد عثمان ﷺ، وكـان فيـه مجـون، فيقال أنَّه كان يحضر بين يديه من كـان علىٰ هـذا المنـوال، فتـذكر الروايـات أن جنـدبـاً هـذا قتـل هـذا السـاحر، فسُـجن، فـأنكر سـلمان الفارسـي ﷺ علـىٰ الشَّخصين كليهما، أنكر علىٰ الوالي عبثه ومجونه، وأنكر علىٰ جندب أنَّـه نفَّـذ حداً ليس إليه؛ لَأنَّ الحَد من حق الإمام، فلو كان الشَّـخص كلمـا وجَـد مُنكَـراً، أو صاحب حدٍّ يستحق العقاب نفَّذ فيه الحَد لأدَّىٰ هذا إلـىٰ فوضـىٰ وإلـىٰ قتـال بين النَّاس في داخل المجتمع، فالحَدود إلىٰ الحـاكم، فـلا ينبغـي أن يُقـام الحَـدُّ إلا من صاحب الولاية، حفاظـاً علىٰ أمن النَّاس، ودمائهم.

قوله: (**قد تخللت**) أي: محبتُك قد تخلَّلَت مسلك الرُّوح مني أي دخلت في كل جزء في جسمي، فربما سميت الخُلَّـة بهـذا؛ لأنهـا تتخلَّـل، فكأنهـا تخـالط الدم، أي: قد تخلَّلت، أي: سلكت، فهذا مراده بالخُلَّة في اللغة العربية.

قوله: (**وإنما كان في ذلك لَأنَّ قلبه ﷺ قـد امـتلأ مـن مَحَبَـة الله**) هكـذا قلـب المؤمن، فإن المـؤمن يمتلِئُ قلبـه مـن حـب ربـه ﷻ ، وهـذا الحُـبّ هـو الـذي يدفعه لتحمل المشـاقِّ في سـبيل تنفيـذ أمـر الله واجتنـاب نهيـه، كـم يفـوت علـىٰ الإنسَان الُمسلم في الدُّنيَا من شهوات، وكم يُنقص عليه من حظوظ نفس، لكنـه راض بذلك، فالإنسَان المسـلم إذا فاتـه مَحَبَّـة الله فاتـه كـلُ شـيء، بـل الإنسَـان عمومـاً إذا فاته مَحَبَّة الله فَإنَّه يفوته كل شيء، وإذا حصل علـىٰ حـبِّ الله فَإنَّـه لا يفوتـه شـيء، فمَحَبَّـة الله ينبغـي أن تكـون في قلـب كـل إنسـان، الله الـذي خلقَـه وأوجدَه، وسخَّر له هذا الكون، ورعاه بـالنِّعم، وأنـزل الكُتُـب، وبعـثَ الرُّسُـل، ووعده إن اتقـاه بجنـات النَّعيم التـي لا مـوتَ فيهـا، ولا حـزنَ، ولا نصـبَ، ولا تعبَ، بل هي حَيَاة رِضا، وحَيَاة طُمأنينَة، وحَيَاة أنس، وحَيَاة مستمرة لا تنقطع، فيعوضه الله ما فاته في الدُّنيَا بتلك الجنات.

فينبغي أن يكون المُسلم يُحِبُّ ربَّه ﷻ ، ولا ينبغي أن يُحِبَّ أحداً مع الله، ولا أن يكون حُبُّ أحد في الحَيَاة يوازن حُبَّ الله، أو يُعارِض حُبَّ الله، لكن قد يُحِبُّ الإنسَان حباً طبيعياً يُحِبُّ أخاه، ويُحِبُّ أباه، ويُحِبُّ أمه، ويُحِبُّ زوجته، ويُحِبُّ المال، هذا الحُبّ طبيعي، لكن يكون شرعياًّ، إذا كان حبك لهذا الشيء يجعلك تتحرك من أجله، وتتوقف من أجله ، وتقيم العلاقات من أجله، وتقطع العلاقات من أجله، هذا هو الحُبّ الشَّرعي، ولا يكون إلا لله ﷻ ، فإن كان هذا الحُبّ جعلته للمخلوق، فقد اتخذته رباًّ، كما جاء في الحَديث، (**تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط**)(١) أي: حبُّه ورضاه مُتعلقٌ بالعطاء، فإن أُعطيَ من الدُّنيَا من الحاكم رضي عنه، وإن لم يعط منه سخط عليه، أي: حبُّه ورضاه مُعلَّق بالمال، هذا هو العِبَادَة، فينبغي أن يكون قلبُ الإنسَان مملوءاً بحبّش ربه ﷻ ، والذي يُحِبُّ الله يعمل ما يرضيه، ويجتنب ما يُسخطه، كما قال -تَعَالَىٰ-: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ ﴾ [آل عمران:٣١]، فعلامة حب الله متابعة رسوله ﷺ، أمَّا الذي يزعم الحُبّ ويسمع أذان المؤذن، وهو جالس في بيته لا يقوم فليس يُحِبُّ الله، يكون في سهرة أو في رحلة، أو في جلسة، يسمع ربه قد أمر المؤذن أن يقول: حي علىٰ الصَّلَاة، أقبل، أمر من الله، دعوة من الله، ومع ذلك لا يقبل، بل يتباطئ ويجلس، فإن هذا ليس محباًّ لله، هذا مدعٍ، والمدعون كثيرون.



(١) سبق تخريجه .

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (فإن الله قد اتخذني خليلاً) فيه التصريح بِأنَّ الخلة أكمل من المَحَبَة، قال ابن القيِّم: وأما ما يظنه بعض الغالطين من أن المَحَبَة أكمل من الخلة، وأن إبرَاهِيم خليل الله، و مُحمَّد ﷺ حبيب الله فمن جهلهم، فإن المَحَبَة عامة، والخلة خَاصَّة، وهي نهاية المَحَبَة. قال: وقد أخبر النَّبِي ﷺ أن الله قد اتخذه خليلاً، ونفىٰ أن يكون له خليل غير ربه، مع إخباره بحبه لعَائِشَة ولأبيها ولعُمَر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وغيرهم، وأيضاً فإن الله يُحِبُّ التوابين ويُحِبُّ المتطهرين ويُحِبُّ الصابرين، وخلته خَاصَّة بالخليلين، وفيه جواز ذكر الإنسَان ما فيه من الفضل إذا دعت الحاجة الشَّرعية إلىٰ ذلك.

الشَّرْح

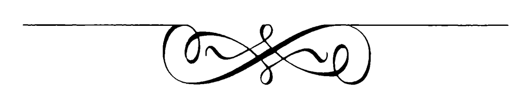
هنا ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يشير إلىٰ ما مرَّ سابقاً، أن الله يُحِبُّ الصابرين، ويُحِبُّ التوابين، ويُحِبُّ المتقين، وليس حب الله لإبرَاهِيم و مُحمَّد - عليهما السلام- ، كمحبته لبقية المُؤمِنِينَ، بل حب الله لهما أكثر وأعظم، كيف نصِفُ حبَّ الله لإبرَاهِيم و مُحمَّد ؟ نصفُه بالوصف الذي هو أعلىٰ من المَحَبَة وهو الخلة، وهذا هو الذي وَرَدَ في القُرآن والسُّنَّة، فوصف الله إبرَاهِيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأنَّه خليله، ووصف نبينا ﷺ نفسه بأنه خليلَ الله، فكلاهما خليلان، أي: لهما من مَحَبَة الله أعظم من مَحَبَة الله لبقية المُؤمِنِينَ، لكن لا ينبغي أن نقيس مَحَبَّة الله لأنبيائه وللمؤمنين كمَحَبَّة الإنسَان للإنسان، فمَحَبَّة خالقٌ لمخلوقٍ ليست كمَحَبَة مخلوقٍ لمخلوقٍ، صفات الله غير صفات المخلوق، فنحن نُثبت لله المَحَبّة، أنَّه يُحِبُّ بعض خلقه من الصَّالِحين، وأنه يُحَبُّ، يُحِبُّه عبادُه الصَّالِحون، لكن

هذه الصفات نفَاها المتكلمون، وأوَّلُوها، وتوهموا أنَّ فيها تشبيهـًا بـالمخلوق، وهذا من جهلِهم، فإن الأسمَاءَ والأفعالَ لهـا جانبـان: جانـب الكَيْـف، وجانـبَ المَعنَىٰ، فنحن نثبت في حقِّ الله المَعنَىٰ، أمَّا الكَيْـفَ فـلا نعرفـه، فهنـاك إشـكالٌ، لكنَّ المتكلمين لـم يفصِلوا بينهما، فـاختلطَ علـيهم الكَيْـف بـالمَعنَىٰ، كمـا قـال مَالِك رَحِمَهُ اللهُ: "الاستواء معلوم"، أي: معناه، "والكَيْـف مجهـول"، وهـذه قاعـدة لأهل السُّنةِ، مثلاً استوىٰ الله علىٰ عرشِه، لها معنيـان: المَعنَـىٰ الـذي يُفهـم مـن لغـة العـرب، أن الله فـوق عرشِـه، لكـن لا نـدري كيفيتـه، فـنحن نُثبـتُ المَعنَـىٰ، ونُفوِّض الكَيْف، أمَّا المتكلمون فَإِنَّهم يُفوضُون المَعنَـىٰ والكَيْـف، يقولـون: لا نعِلم المَعنَىٰ، وهذا جهل، نقـول: هـل الَّلفْظـة عربيـة؟ نعـم، وهـل لهـا مَعنَـىٰ في العربية؟ نعم، لكن ليس معناها في حق الخَالِق كمعناها في حق المخلوق.

والعَقْل البَشَرىٰ ربما يقع في التشبيه، مثلا: نعِلْم جميعـًا الطائرة، لها جناحان، ولها زعنفة، ولها مقدمة، ولها عجلات، فلو قيل أن الدولة الفلانية اخترعت طائرة جديدة لا تشبه هذه الطائرة فلا نستطيع أن نتصور طائرة مخالفة لما في أذهاننا مطلقـًا، نحاول أن نَّقيس، وهذا من ضَعف العَقْل البَشَري، وعدم قدرته علىٰ أن يُفهم شيئـًا لم يُرَّ مثله، فالعَقْل البَشَري ربما يقع في التمثيل أو التشبيه، لكن هذا مما يعفَىٰ عنه، لكن عندنا قاعدة في كل أسماء الله وصِفَاتِه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١]، كلما جاءت صِفَة لله تضع في ذهنك أنَّك تثبتُ معناها، وتُفوِّض الكَيْفيةَ، وهذا هو المَذهَب الذي عاش عليه السلَف، نثبتُ لله مَعنَىٰ الصِفَة، ونفوض الكَيْف، والمُئَوِّلة يقعون في حيرة عجيبة، عندما ينفون أن الله استوىٰ علىٰ العَرْش، وأنَّ الله في جهة العُّلو مثلاً، ثُمَّ عندما يأتي في الحَديث أن الله ينزل إلىٰ السَّمَاء الدُّنيَا قالوا: ينزِل المَلك، قال العُلَمَاء: من أين ينزل؟ أنتم لا تُثبتون لله جهةً أصلاً،

هذا تناقُض، فالذي لا يلتزم بالنَّصوص، ويُلغي عقلَه في هذا المجال، فَإنَّه يُصاب باضطراب.

العَقْل مجاله التَّسليم، ليس مجالُه التصوير، العَقْل دائمـًا يقيس الغَيبيات علىٰ ما يَعرِف، فنحن نقول: لا يا عقل، أنتَ تقيس الغيبيات علىٰ ما تعرف في حق المخلوق، لكن في حقِّ الخَالِق لا. ولهذا قال ابن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن الآخِرَة، والآخرةُ من مخلوقاتِ الله، يقول: ليس في الآخِرَةِ مما في الدُّنيَا إلا الأسمَاء، في الدُّنيَا اسم النخلِ، واسم اللبنِ، واسمُ العسلِ، واسمُ الماءِ، هذه أسماءٌ، وليس لبنُ الآخِرَة، وعسَلُها، وحياتها كحَيَاة الدُّنيَا، لَكن المَعنَىٰ مُتقارب، لو لم نفهم المَعنَىٰ في الدُّنيَا ما نفهم المَعنَىٰ في الآخِرَة، ولو لم نفهم المَعنَىٰ فيما نعرف ما استطعنا أن نفهم عن الله وعن صِفَاتِه، لكن نحن نعرف المَعَانِي التي تخاطب بها العرب، وجاء بها القُرآن، لكن نفوض كيفياتها إلىٰ الله جَلَّ وَعَلَا، ولا نقول المَعنَىٰ لا نعرفه، لكن في حقِّ الله نفوضُ الكَيْفَ وليس المَعنَىٰ.





قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

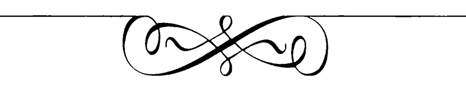
قوله: (ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً) فيه دليل على أن الصديق أفضل الصَحَابَة، حيث صرح ﷺ أَنَّه لو اتخذ خليلاً غير ربه لاتخذ أبا بكر، ففيه رد على الرَّافِضَة وعلى الجَهمِيَّة، الذين هم شر أهل البِدَع، بل أخرجهم بعض السلف من الثنتين والسبعين فرقة، وبسَبَبَ الرَّافِضَة حدثالشِّرْك وعِبَادَة القُبُور، وهم أول من بنى عليها المَسَاجِد، قاتلهم الله قاله المصنف.

الشَّرْح

هنا يشير رَحِمَهُ اللَّهُ إلى طائفتين من الطوائف المنحرفة، الأُولَى-: الرَّافِضَة، كلمة الرَّافِضَة تطلق على طَائِفَةٍ شيعيةٍ، وهي الطَائِفَة التي بقيت إلى اليوم، سمَّاهم بهذا الاسم زيد بن علي، فَإِنَّه قال: رفضتُموني، فأطلَق عليهم الرَّافِضَة، هذا الاسم أصبح اسماً وعِلْماً عليهم، هؤلاء يُعظِّمون المقابرَ ويبنون عليها القباب، ويهجُرون المَسَاجِد، ولا يقيمون الصَّلَاة جماعة أبداً، إلا في العصر الحاضر عندما ظهر إمامُهم الخميني، هو الذي جعلهم يصلون في المَسَاجِد، صلاة سياسيةً حتى يخطبَ فيهم فقط، وإلا فَإِنَّهم لا يُجوزُون أن يؤمَّ أحدٌ النَّاسَ إلا الإمامُ المنتَظَر، يقولون ما هناك أحد يستحق الإمامة إلا المَهدي الغائب، ومهديهم هذا خيال، يقولون: المكان الذي فيه في سرمن رأى، هذا المكان الذي يزعمون أنَّه اختفى فيه، لو دخل فيه فأر لا يستطيع أن يَدخُل لصغرِه، يقولون: اختفى فيه الإمام، وينتظرون خروجه، متى يخرج؟ قالوا: إذا فسَد النَّاس، قلنا: أنتم السَبَبَ في عدم خروجه قالوا: لماذا؟، قلنا: هل النَّاس فاسدون؟ قالوا: نعم، قلنا: من بقيَ؟ قالوا: الشِّيعَة. قلنا: فأنتم السَبَبَ في عدم

الخروج، افسدوا حتىٰ يخرجَ؛ لأنه لا يخرج إلا إذا أصبحَ الفساد عامَّـًا، أمَّا إذا كان صلاحٌ فلا يخرج، فالنَّاس كلهم فاسدون عندهم، ما بقي صالح إلا هم، وهم دائمـًا يَدعُون، : "عجَّل اللهُ بخروجِه، وعجَّل اللهُ بفرجِه".

فالرَّافِضَة يهتمونَ بالقُبُور، حتىٰ إنِ بعض عُلَمائهم يُسمىٰ :الُمفيد، المتوفىٰ عام أربعمائة وستة عشر، ألف كتابـًا سماه (مناسك المَشَاهِد)، أي: مناسك القُبُور، وجوَّز فيه الحج إلىٰ قُبُور المخلوقين، وقد سبق أن بعض المغاربة قبل عدة قرون جاء من المَغرِب يحج إلىٰ قبْر النَّبِي ﷺ ورجع إلىٰ بلاده ولم يحج إلىٰ الكَعبَة المشرفة، وهذا - نعوذ بالله - ضلال، تقديس القُبُور وزيارتها بهذه الصُّوَرة، هذا شرك، فألفوا في هذه الكُتُب، ولهذا تجد في بلاد الرَّافِضَة القباب الكثيرة علىٰ القُبُور، وهم أول من بنىٰ واهتم بإقامة القباب علىٰ القُبُور، فيشير الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ أن الرَّافِضَة قد خالفت هذه الأحَادِيث، وأما الجَهمِيَّة فهي نسبة إلىٰ جهم بن صفوان، المقتول عام مائة وثمانية وعشرين هجرية، علىٰ يد سلم بن أحمس، هذا هو أول من أحدث التَأوِيل، فَإنَّه أول مَحبَة الله، ولم يثبت لله مَحَبَّة، فيقول: الحَديث يرد علىٰ الجَهمِيَّة، ويرد علىٰ الرَّافِضَة.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفيه إشارة إلىٰ خلافته؛ لأنَّ من كانت محبته لشخص أشد، فهو أحق النَّاس بالنيابة عنه، لا سيما وقد قال ذلك في مرض موته، خصوصًا وقد استخلفه علىٰ الصَّلَاة بالناس، وغضب لما صَلَّىٰ بهم عُمَر، واسم أبي بكر عبدالله بن عثمان بن عامر بن عُمَرو بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة الصديق الأكبر خَلِيفَة رَسُول الله ﷺ، وأفضل الصَحَابَة بإجماع من يعتد به من أهل السنة، مات في جمادىٰ الأُولَىٰ- سنة ثلاث عشرة وله ثلاث وستون سنة.

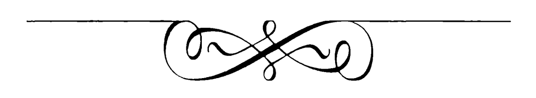
الشَّرْح

هذه ترجمة للصدِّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فَإنَّه أفضل الأُمَّة، والصَحَابَة قد أجمعوا علىٰ بيعته، وقد أجمعوا علىٰ أنَّه أفضلهم، كما قال ابن عُمَر: كنا نعد أبا بكر، ثُمَّ عُمَر، ثُمَّ عثمان، ثُمَّ نترك، أي ما كان علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في أول الإسلام ذكر مع الثلاثة، لكن أهل السُّنَّة يقدمون علياً علىٰ غيره، فعلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ هو رابع الخلفاء الراشدين، لكن أولهم أبُو بكْر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وهو أحب النَّاس إلىٰ رَسُول الله ﷺ بهذا الحَديث وغيره، وعند موته أمرَه أن يصلي بالناس، والإمامة في الدِّين إمامة عامَّة، فالذي يصلي ورضي ﷺ بِأنَّ يصلي بالناس في محرابه أهل للإمامة العامة، فهذا يدلُّ علىٰ أنَّه ﷺ رضيَه أن يكون خَلِيفَة عنه، لكن ليس هناك أحاديث تدلُّ علىٰ أنَّه أمرَ أن يكون خَلِيفَةً بعده، فَإنَّه لم يثبت أنَّه أوصىٰ بالخلافةِ إلىٰ أحدٍ، هم بِأنَّ يكْتُب، لكن لا يدرىٰ ماذا سيكْتُب؟ وإلا فَإنَّه قال: (يأبىٰ الله والمؤمنون إلا أبا بكر)(١) أو كما قال ﷺ، فحدث اللغط في مجلسه

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب معرفة الصَحَابَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، ذكر مناقب عبد الرحمن بن أبي

فأخرجه من مجلسه ولم يكْتُب شيئًا ولم يوصِ، لكن هذه كلها قرائن واضحة بينات ودلالات واضحة على خلافته، وعندما صَلَّىٰ عُمَر ﵁ غضب ﷺ، فَإِنَّه أمر أبي بكر ﵁ بِأَنَّ يصلي بالناس إشارة إلىٰ أَنَّه الخَلِيفَة بعده، وقال عند موته (إنني أبرأ إلىٰ الله من كلِ خليلٍ، ولو كنت متخذاً من أهلِ الأرضِ خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً)[1] وهذا دلالة علىٰ أَنَّه أحب النَّاس إليه، وكونه أحب النَّاس إليه يُحِبُّ أن يخلفه بعده ﷺ، فهذه كلها علامات ودلالات علىٰ أَنَّه أراد أن يكون أبُو بكْر هو الخَلِيفَة بعده، وقد أراد الله ذلك فكان ﵁ خَلِيفَة بعد رَسُول الله ﷺ، ولم يبق أحدٌ من الصَحَابَة لم يبايعه، نعم علي ﵁ تأخر ستة أشهر، لكن قالوا: أَنَّه كان عاتبًا أن بتَّ في الأمر ولم يُؤخذ رأيه، لا أَنَّه يعتقد أَنَّه أفضل من الصديق، وإلا فإن عليًّا ﵁ عندما أصبح خَلِيفَةً في عصرِه، لم يقل إني كنت أحقُّ بالخلافة، فربما قد يقول قائل: أَنَّه خاف أن يقول في عهد أبي بكر وعُمَر وعثمان ﵃، لكن بعد أن أصبح خَلِيفَةً لمَ يقل إنني كنت أنا أحق بالخلافةِ ؟ بل ثبت أَنَّه قال: من قدَّمني علىٰ أبي بكر جلدتُه حدَّ المُفتري، قاله علىٰ منبر الكوفة، فالخَلِيفَةُ بعد رَسُولِ الله ﷺ هو أبُو بكْر الصديق ﵁.



= بكر ﵁، برقم: (٦٠٨٧)، (٣/ ٥٨٤)، وقد أخرج البُخارِي معناه، كتاب الأحكام، باب الاستخلاف، برقم: (٧٢١٧).

(١) سبق تخريجه.

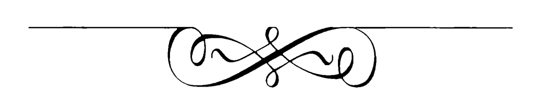
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون القُبُور مَسَاجِد) إلىٰ آخر الحَديث. قال الخلخالي: وإنكار النَّبي ﷺ صنيعهم هذا يخرج علىٰ وجهين، أحدهما: أنهم يسجدون لقُبُور الأنْبِيَاء تعظيماً لهم، والثاني: أنهم يجوزون الصَّلَاة في مدافن الأنْبِيَاء، والسجود في مقابرهم والتوجه إليها حالة الصَّلَاة، نظراً منهم بذلك إلىٰ عِبَادَة الله، والمبالغة في تعظيم الأنْبِيَاء، والأول هوالشِّرْك الجلي، والثاني الخفي، فلذلك استحقوا اللَّعن.

الشَّرْح

الخلخالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: إن اللَّعنِ يخرج علىٰ أحدِ وجهين: إمَّا أن اليَهُود والنَّصارَىٰ عبَدوا القُبُور، وهذا شركٌ جَليٌّ أي: شركٌ واضح، وإما أنهم عظموها وتبركوا بالصلاة فيها، وهذا شِركٌ خفي، ليس شركاً جلياًّ، ليس شركاً أكبر، أن يصلي في بقعة يعتقد بركتَها ليس شركاً أكبر، إنما يكون الشِّرْك الأكبر إذا صَلَّىٰ للمخلوق، أو صرَف بعض العِبَادَات له، ولهذا السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أعطانا قاعدةً في الفرق بين الشِّرْك الأكبر والشِّرْك الأصغر،- وهي جميلةٌ-، فيقول:الشِّرْكُ الأكبَر في المَقَاصِد أي في الأشياء التي أمرنا بِأنَّ نتقرَّب إلىٰ الله بها، والشِّرْك الأصغر في الوَسَائِل، فكل أمرٍ أمرنا الله بِأنَّ نتقرَّب به إليه إذا صرفته لغير الله تكون قد ارتكبتَ شركاً أكبرَ، مثلا الذَّبح أمُرنا أن يكون لله، ولو ذَبحتَ لغيرَ الله شِركٌ أكبر، السُجودُ لله، الطوافُ والقيامُ لله، والدُّعَاء من الله، الاستغاثة بالله، كلها جاءت فيها نصوص، ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ

أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الجن:١٨]. فمن دعا غير الله فقد أشرك مع الله، من استغاث بغير الله فقد أشرك مع الله، لكن الشِّرْكَ الأصغرَ مثلُ قولِ الإنسَان: ما شاء الله وشئت، فهنا أشرك مع الله شركًا لفظياًّ، لكن لو اعتقد أن الإنسَان يشارك الله في المشيئة، كان هذا شركًا أكبر، ففرق بين الشِّرْك الأكبر والشِّرْك الأصغر.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قلت: الحَديث أعم من ذلك فيشمله، ويشمل بناء المَسَاجِد والقباب عليها.

قوله: (فقد نهىٰ عنه في آخر حياته) أي كما في حديث جندب، قوله: (ثم أنَّه لعن وهو في السياق من فعله)، أي كما في حديث عَائِشَة. قوله: (والصلاة عندها من ذلك، وإن لم يبن مَسْجِداً)، أي أن الصَّلَاة عند القُبُور وإليها من اتخاذها مَسَاجِد الملعون من فعله، وإن لم يبن مَسْجِداً، فتحرم الصَّلَاة في المقبْرة وإلىٰ القُبُور، بل لا تنعقد أصلاً لما في هذه الأحَادِيث الصَّحِيحة وغيرها، من لعن من اتخذها مَسَاجِد.



الشَّرْح

قوله: (ويشمل بناء المَسَاجِد والقباب عليها) كل صورة تؤدي إلىٰ تعظيم المَيِّت أو الحي تعظيماً خاصاً بالخَالِق تكون شِركًا أكبر، أمَّا التَّعظِيم الذي ليس هو في المَقَاصِد فَإِنَّه يكون من الشِّرْك الخفي، والحَديث يشمل تعظيم للقُبُور، سواء كان بناء مَسْجِد أو بناء القُبَّة، أو تجصيص القَبْر، أي شيء في تعظيم القَبْر فَإِنَّه منهي عنه، بهذه الأحَادِيث الصَّحِيحة في الصَّحِيحين وغيرهما.

هذه الأحَادِيث واضحة الدلالة، صريحة في تحريم بناء المَسْجِد أو اتخاذها مَسْجِداً، لكن الإنسَان يعجب عندما يرجع إلىٰ كُتُب الفُقَهَاء، فإن هناك تساهلاً من بعض الفُقَهَاء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، فنأتي إلىٰ مَذهَب الأحناف مثلاً، فنجد أنهم يُكرِّهُون الصَّلَاة في المقابر فقط، وإن كان بعضهم يقول: إنها كراهة تحريمية، إن كانت كراهة تحريمية فذلك؛ لأنَّ الأدِلَّة واضحة علىٰ الحُرمة

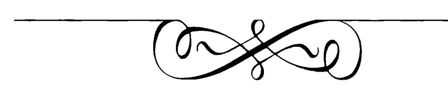
الشديدة، ونأتي بعدهم إلىٰ المَالِكية، فهم أجازوا الصَّلَاة علىٰ المقابر إلا إذا كان هناك نجاسة، عظامٌ أو شيء واضح، أمَّا إذا لم يكن هناك شيء فالصلاة فيها جَائِزَة، ولا كراهة في ذلك، ونأتي إلىٰ الشَّافِعِية، فنجد أن الشَّافِعِي رَحِمَهُ اللَّهُ يفرق بين المقْبَرة المنبُوشة والمقبْرة غير المنبوشة، فالمقْبَرة المنبُوشة لا تجوز الصَّلَاة فيها، وغير المنبُوشة تجوز، لكن الحنابلة حرموا الصَّلَاة علىٰ المقابر، فهذه الأدِلَّة الشديدة الصَّحِيحة في أصحِّ الكُتُب، كيف تُصرَف إلىٰ الكَرَاهَة، أو إلىٰ عدم الكَرَاهَة، أو التفريق بين المنبوشة وغير المنبوشة، **(لعن الله اليَهُود والنَّصارَىٰ، اتخذوا قُبُور أنبيائهم مَسَاجِد)**[١] أي مكاناً للصلاة، **(يحذر ما صنعوا)**[٢]، **(وإني أنهاكم عن ذلك)**[٣]، **(وأولئك شرار الخلق عند الله)**[٤] فالنَّصوص شديدةُ اللهجة، قوية في بيان الحرمة، ومع ذلك نجد هناك تساهلاً من الفُقَهَاء رَحِمَهُمُ اللَّهُ في هذه المسألة.

ولا ينبغي للمسلم إذا وجد قولاً لعالم يُخالف النَّصَّ أن يأخذه، إنما نتبع القول إذا كان النَّص صحيحاً، فلا يظن أنَّ هذا ترجيحٌ لمَذهَب الحنابلة علىٰ بقية المَذَاهِب، لا، فلو جاء في مَذهَب الحنابلِة مسألة تخالف النَّص لا يجوز لنا أن نتبعها، هذا دينٌ، المَذَاهِب دورها فيما ليس فيه نص، أمَّا في النَّصوص ليس هناك مذاهب، فإن القول واحد، أمَّا إذا كانت مسألة ما فيها نص، فكل واحد منا يتبع المَذهَب الذي يراه مناسباً في طريقة استنباط الأحكام، مثلاً:

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) سبق تخريجه.

مَـذهَب يقـول بـالمفهوم، ومَـذهَب يأخـذ بالحَـديث المُرسَـل، ومَـذهَب يأخـذ بالمُقيَّد الذي يقيد العموم، ومَذهَب لا يقـول بالمقيَـد، هـذه قواعـد عامَّـة فقهيـة في خارج النَّص، أمَّا إذا جاء الـنَّص مـن القُـرآن والسُّـنَّة، فـلا يجـوز للمسـلم أن يقول: مَذهَبي، بل مَذهَبنا جميعـًا الكِتَاب والسُّنَّة، هـذا هـو الـذي يُـبرئ ذمتـك، لكن لو كانت مسألة ليس فيها نَص فـلا حـرج أن تأخـذ بـأي مَـذهَب، بمَـذهَب الأحنـاف، مَـذهَب المَالِكيـة، مَـذهَب الشَّـافِعِية، مَـذهَب الحنابلـة؛ لَأنَّ هنـاك مَنَاهِج للفهـم، هذه مَنَاهِج فهم، أمَّا إذا وَرَدَ الـنَّص القـاطع، فـلا كـلام مـع كـلام رَسُول الله ﷺ، فهذه الأحَادِيث قاطعة، تلعن من فعل، وتنهىٰ من فعل، وتـذكر أن هؤلاء شـرار النَّـاس عنـد الله، ثُـمَّ يقـال: إن الصَّـلَاة في المقـابر مكروهـة، مـا يقال هذا، هذا تسَاهل في الحكم والله أعلَم.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ورَوَىٰ مسلم عن أبي مرثد الغنوي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رَسُول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لا تجلسوا علىٰ القُبُور ولا تصلوا إليها).



الشَّرح

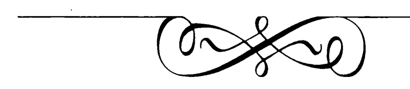
وهذا نصٌّ واضحٌ في(مسلم): (لا تجلسوا علىٰ القُبُور ولا تصلوا إليها)(١) فكيف يقال إن الصَّلَاة إليها مكروهة، إن لم يفهم من هذه النَّصوص الحرمة فلا حرمة في الدين، هذه كلها أدلة قاطعة، فلا ينبغي للمسلم أن يتساهل في طريقة أخذ دينه؛ لأنك مطَالِب بِأنَّ تعمل بما أنزل الله بما قاله الله وقاله رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، العَالِم قد يكون معذوراً إذا أخطأ، لكن أنت لا يجوز لك أن تتابعه في الخطأ.

أبو مرثد اسمه كناس، صحابي، وهذا الحَديث أحد الأحَادِيث التي أوَرَدَها الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليبين آداب المسلم مع القُبُور، فلا يصلي إليها ولا يُجلَس عليها، وإن كان صاحب القَبْرِ قد دُفِن، وقد انتهىٰ، لكن ربما هذا الحَديث يدُل علىٰ أنَّ المَيِّت يتأذىٰ من فعل الحي، فينبغي للمسلم أن يَحرصَ علىٰ هذا الأدب، وهذا في صحيح مُسلم، في أصح الكُتُب، إلَّا يُجلس علىٰ القُبُور، وإلَّا يُصلي إليها، من العُلَمَاء من فسر الجلوس أو القعود تَفسِيراً آخر، وهو قال: إن هذا كناية عن قضاءِ الحاجة، فلا يقضي حاجته علىٰ القَبْر، هذا أشد، أي ذكر الطرفين، ذكر التَّعظِيم الذي هو في طرف، وذكر الإهانة التي هي في طرف،

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب النَّهي عن الجلوس علىٰ القَبْر والصلاة إليه، برقم: (٩٧٢)، (٢/ ٦٦٨).

فالقُبُور لا ينبغي أن تعظم حتىٰ يؤدي التَّعظِيم إلىٰ أن نُقدِّسها ونعظمها، ونُصلي إليها، ولا يُؤدي بنا الاستهانة بها إلىٰ أننا نقضي حاجاتنا عليها، أي: نعطيها حقها من الاحترام، لكن لا يصل إلىٰ التقديس، ولا يدفعنا عدم تقديسها إلىٰ أن نقضي حاجاتِنا عليها، خير الأمور أوسطها.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وعن أبي سعيد الخدري مرفوعًا: (الأرض كلها مَسْجِد إلا المقبَرة والحَمَّام) رواه أحمد وأهل السنن، وصححه ابن حِبَّان والحاكم من طرق علىٰ شرط الشيخين.



الشَّرح

هذا الحَديث حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (الأرض كلها مَسْجِد إلا المقبْرة والحَمَّام)[1] سنَده صحيح، لكن متنَه فيه إشكال؛ لَأنَّ المصطلَحات التي لم تُعرف في عهد النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أتت في حديث يدل علىٰ أن الحَديث ليس من كلام النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لم يكن في عهد رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيءٌ معروف يُسمىٰ حمَّامًا، فكيف تكلَّم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشيء لم يكن في عهدِه، الحَمَّام يطلق علىٰ مكان الاستحمام الاغتسال، وإن كان الآن أصبح يُطلق علىٰ مكان قضاء الحاجة، لكن في الماضي كان في الأحياء والقرىٰ والمدن ـ وكانت صغيرة ليست بهذا الحجم ـ حمامات للاغتسال حمَّامات بُخارية يُوقد فيها نار، وتُبخِّر هذه النَّار المياه في

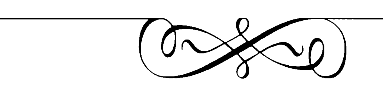
---

(١) أخرجه أبوداود في سننه، كتاب الصَّلَاة، باب المواضع التي لا تجوز فيها الصَّلَاة، برقم: (٤٩٢)، والترمذي في سننه، كتاب مواقيت الصَّلَاة، باب ما جاء أن الأَرض كلها مَسْجِد إلا المقبْرة والحَمَّام، برقم: (٣١٧)، وابن ماجه في سننه، كتاب المَسَاجِد والجماعة، باب المواضع التي تكرة فيها الصَّلَاة، برقم: (٧٤٥)، والإمام أحمد في المسند، برقم: (١١٧٨٨)، (١٨/ ٣١٢)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ، كتاب الصَّلَاة، باب ما جاء في النَّهي عن الصَّلَاة في المقبْرة والحَمَّام، برقم: (٤٢٧٢)، (٢/ ٦٠٩)، والحاكم في المستدرك، كتاب الصَّلَاة، برقم: (٩٢٢)، (١/ ٣٦٩)، وأخرجه أيضًا ابن حِبَّان في صحيحه، وابن خزيمة في صحيحه، وأبو يعلىٰ في مسنده، وابن أبي شيبة في مصنفه، وعبد الرزاق في مصنفه، وصححه الحاكم وتابعه الذهبي عليه، وكذا صححه الألباني في تعليقه علىٰ الترمذي وأبي داود.

داخل الحَمَّام، فيجلس فيها النَّاس فيعرق الشَّخص ثُمَّ يستحم بالماء. هذا لم يكن في عهد النَّبي ﷺ، فكيف قال شيئًا لم يكن في عصره، والعُلَمَاء يقولون: هذا يُضعف الحَديث، أيّ لفظ أو اصطلاح لم يكن في عهده ﷺ يأتي في حديث فَإِنَّه يدُلُّ على عدم صحته؛ لَأنَّ النَّبِي ﷺ إنما يتكلم بما كان في عصره، فلم يكن في عصره هذا الذي يعرف بالحَمَّام، سواء كان الاستحمام أو كان يَقضى فيه الحاجة، كان يُسمى في الماضي الكُنُف، والكُنُف جَمعُ كَنيف، ويُسمَّى به مكانُ قضاء الحاجة في البيوت، ومع ذلك نرى أن السَّنَد ليس فيه علة واضحة.

وأحيانًا الحَديث لا يكون فيه علّة، وليس صحيحًا، وأذكر حديثًا في السُّنَّة لابن أبي عاصم علق عليه الشيخ الألباني رحمه الله، قال فيه: السَّنَد صحيح، وكأنّ المتن من وضع اليَهُود؛ لَأنَّ فيه عبارة من التوراة، تتحدث عن الخَالِق عز وجل، أنَّ الله استراح يوم السبت، فقال: السَّنَد صحيح لكن العبارة ليست عبارة إسلامية؛ لأنها تصف الله عز وجل بما يتنزه عنه - سبحانه وتعالى -، فأحيانًا السَّنَد يصح، لهذا ذكر ابن القَيِّم رحمه الله في رسالته المسماةُ :(المنار المنيف) عن بيان معرفة الحَديث الصَّحِيح من الضعيف، ذكر عدة علامات في المتن تدل على عدم صحة الحَديث، فليس كل حديث صح سنده يكون متنه صحيحًا، لكن لا يعتي هذا أن نتشكك في كل الأحَادِيث، فأهل العِلْم نرجع إليهم في هذا فمثلاً: كتاب البُخارِي ومسلم كلاهما كتابان صحيحان، انتقد بعضُ ما فيهما بعضُ أهل العِلْم، منه ما كان مع من انتقد، ومنه ما رد انتقاده، لكنها قليلة، أمَّا في غير الصَّحِيحين فلابد من معرفة الحَديث هل هو صحيح أم ضعيف حتى نعمل به؛ لَأنَّ أصحابها لم يشترطوا الصحة، إنما أوَرَدَوا فيها كل ما رأوه صالحًا للاحتجاج، سنن أبي داود مملوء بالأحَادِيث، فيه أكثر من خمسة آلاف حديث، وفيه أحاديث ضعيفة كثيرة، كذلك سنن الترمذي، وسنن النسائي،

وسنن ابن ماجه، فيها أحاديث ضعيفة، لا يعمل بالحَديث إلا إذا عُرف أنَّه صحيح، وينبغي أن نتشدد في قبول الحَديث، بعض النَّاس يقول: كيف تَردُّ بعضُ الأحَادِيث، أليس فيه ردٌّ لكلام النَّبِي ﷺ، وليس بصحيح، كيف تجرؤ أن تنسب إلىٰ رَسُول الله ﷺ قولاً لم يصح أو فيه ضعف أو فيه علَّة؟ هذا أشدُّ، فكلاهما خطأ، ردُّ الحَديث الصَّحِيح خطأ، وإثباتُ ما لم يصح خطأٌ، فلا بد من التثبت في قبول الحَديث؛ لَأنَّ هذا دين، ربما تُثبت حديثاً ظاهرهُ يكون فيه شيء من قضاء بعض المطَالِب، لكن ربما يؤدِي إلىٰ الإساءة إلىٰ الدِّين، والدِّين لا يكون فيه خطأ، فإذا رأيت حديثاً ظهر فيه خطأ في المستقبل أثر علىٰ الدِّين، فنحن ينبغي أن نتثَبت من كل حديث حتىٰ لا ننسب إلىٰ رَسُول الله ﷺ ما لم يقله.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي صحيح البُخارِي أن عُمَر بن الخطاب رضي الله عنه رأىٰ أنس بن مَالِك يصلي عند قَبْر. فقال: القَبْر القَبْر وهذا يدل علىٰ أنَّه كان من المستقر عند الصَحَابَة ما نهاهم عنه نبيهم ﷺ من الصَّلَاة عند القُبُور، وفعل أنس لا يدل علىٰ اعتقاد جوازه، فَإنَّه لعله لم يره، ولم يعِلْم أنَّه قَبْرٌ، أو ذهل عنه فلما نبهه عُمَر تنبه.

الشَّرح

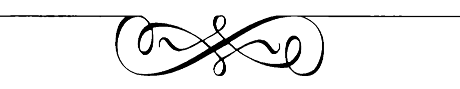
هذا الحَديث في صحيح البُخارِي مُعلَّقٌ ليس موصولاً، والمعلَّق في صحيح البُخارِي ما يكون سندُه ليس متصلاً إلىٰ النَّبِي ﷺ، أي يكون فيه انقطاع، ووجوده في صحيح البُخارِي ليس علامة علىٰ صحَّتِه؛ لَأنَّ البُخارِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُورِدُ في كتابه الأحَادِيث علىٰ صُور: صورة يقول: حدثنا فلان، عن فلان، عن فلان، أو حدثنا فلان، أنبأنا فلان، حتىٰ يصل إلىٰ النَّبِي ﷺ، هذا موصول أو متصل، وصورة يقول: قال فلان أن النَّبِي ﷺ قال: كذا وكذا، أو أن عُمَر قال: كذا وكذا، فهذا كله منقطع، وهو معلق أيضاً، ليس له سند، فهذا من الأحَادِيث التي لم يذكر البُخارِي لها سنداً، لكن ابن حَجَر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر أن شيخ البُخارِي أبا نعيم وصلَه، وكذلك البيهقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وصلَه، قال البيهقي: أنبأنا مُحمَّد بن موسىٰ بن الفضل، حدثنا أبو العَبَّاس مُحمَّد بن يعقوب، حدثنا مُحمَّد بن هشام، حدثنا مروان بن معاوية، حدثنا حميد عن أنس، قال: **كنت يوماً أصلي وبين يدي قَبْر لا أشعر به، فناداني عُمَر، القَبْر القَبْر، فظننت أنَّه أي القَمَر، فقال لي بعض من يليني إنما أي القَبْر، فتنحيت عنه**[1].

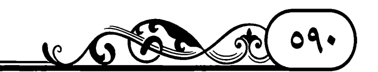
---

(١) أخرجه البُخارِي معلقاً في صحيحه، كتاب الصَّلَاة، باب هل تنبش قُبُور مشركي الجَاهِلِيَّة ويتخذ مكانها مَسَاجِد، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرىٰ مفصلاً، كتاب الصَّلَاة، باب النَّهي عن الصَّلَاة إلىٰ القُبُور، برقم: (٤٢٧٧)، (٢/ ٦١٠).

فالحَديث موصول.

ومن عادة البُخارِي رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّه ربما لا يكون الحَديث عنده على شرطه، فلا يورَدَه موصولاً؛ لأنَّ شرط البُخارِي أشدُّ الشروط، البُخارِي لا يقبل حديثَ رجلٍ إلا إذا ثبت أنَّه سمع من شيخه، أمَّا مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ يكتفي أن الرَّاوِي كان في عصرِ الشيخ، حتىٰ لو كان في مدينة ثانية، شيخه مثلاً بصري وهو كوفي، ما يمنع الرِّوَاية إذا كان ثقة، لكن البُخارِي لا بد عنده أن يثبت أن الرَّاوِي لقي الشيخ، ولو جاء حديث وصاحبه ثقة، لكن لم يثبت عند البُخارِي أنَّه لقي الشيخ لا يورَدَه، وهذا أشد الشروط، ولهذا نرىٰ مسلماً رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب الصَّحِيح في المقدمة، اشتد علىٰ البُخارِي بدون أن يذكر اسمَه، قال: هذا شرط فيه تعنُّف، ولم يرضَ بهذا الشرط، قال: بل يكفي أن يكون الرَّاوِي معاصراً لمن رَوَىٰ عنه، أي: في عصره، وأن يكون ثقة غير معروف بالتَّدلِيس، أي لا يُدَلِّس فيكتفىٰ بذلك، فهذا الحَديث ليس علىٰ شرط البُخارِي، فرَواه مُعلَّقاً، ثُمَّ وجدنا هذا الحَديث في كُتُب أخرىٰ موصولاً، فهذا يدل علىٰ أن الصَحَابَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا ينهون عن الصَّلَاة إلىٰ القَبْر، فأنس بن مَالِك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما صَلَّىٰ إلىٰ القَبْر لم يره، ولكن عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رآه، فصاح عُمَر عليه: القَبْر القَبْر، أي: اجتنب القَبْر، فأنس عندما سمع عُمَر لم يدر ماذا يقول: فرفَع رأسه إلىٰ السَّمَاء يظنه يقول: القَمَر؛ لأنه قد يكون بعيداً عنه، فقال من يليه، إنما أراد القَبْر، قال أنس: فتنحيت عنه، ثُمَّ أكملت الصَّلَاة، فدل علىٰ أنَّه الصَحَابَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ استقر في أذهانهم أن الصَّلَاة إلىٰ القَبْر غيرُ جَائِزَة.





قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفي هذا كله إبطال قول من زعم أن النَّهِي عن الصَّلَاة فيها لأجل النَّجَاسَة، فهذا أبعد شيء عن مقاصد الرَّسُول ﷺ، بل العِلَّة في ذلك الخوف على الأُمَّة أن يقعوا فيما وَقَعَت فيه اليَهُود والنَّصارَىٰ، وعباد اللات والعزىٰ منالشِّرْك، ويدل علىٰ ذلك أن النَّبِي ﷺ لعن اليَهُود والنَّصارَىٰ علىٰ اتخاذ قُبُور أنبيائهم مَسَاجِد، ومعلوم قطعًا أن هذا ليس لأجل النَّجَاسَة؛ لَأنَّ قُبُور الأَنْبِيَاء من أطهر البقاع، فإن الله حرم علىٰ الأَرض أن تأكل أجسادهم، فهم في قُبُورهم طريون.

الشَّرْح

هذا يقول: ما هي العِلَّة في النَّهِي ولعن من صَلَّىٰ علىٰ القُبُور، أو اتخذ القُبُور مَسَاجِد، هل العِلَّة فيها النَّجَاسَة؟ أي: هل القُبُور لا يصلىٰ فيها لأنها نجسة؛ لَأنَّ الجسم إذا تحلل ربما يختلط بالتُّراب الذي يلي مكان الصَّلَاة، أو أن هناك علة أخرىٰ، العِلَّة ليست النَّجَاسَة؛ لَأنَّ الألفاظ شديدة: (لعن الله اليَهُود والنَّصارَىٰ) هكذا بهذه الشدة. (اتخذوا قُبُور أنبيائهم مَسَاجِد يحذر ما صنعوا)[1]، فليست العِلَّة هي النَّجَاسَة، العِلَّة: أنَّ هذا فيه صورة من صور الشِّرْك، أو لسدِّ باب من أبواب الشِّرْك.

وكذلك وَرَدَ عن أكثر من ستة أو سبعة من الصَّحَابَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم، جاءت أحاديثهم تلعَن وتُحذِّر وتنهىٰ، هذه الأَحَادِيث كلَّها ليست لَأنَّ القُبُور نَجِسة، ومع ذلك يوجد من الفُقَهَاء من تسامح في هذا وأجاز، فمثلاً قال البيضاوي

(١) سبق تخريجه.

رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو من الأحناف، وماتريدي العقيدةِ، يقول: فأمَّا من اتخذ مَسْجِداً في جوارِ صالحٍ، وقصدَ التبرُّكَ بالقربِ منه لا التَّعظِيمَ له، ولا التوجُّهَ نحَوه، فلا يَدخُلُ في ذلك الوعيدِ!!! . نقول له من أخبرك؟!، والأحَادِيث فيها وعيدٌ لمن صَلَّىٰ أو جعل علىٰ القُبُور مَسَاجِد ثُمَّ أنت تُفرِّق بينهما، بأي: دليل تُفرِّق؟، دليلُ تحريم الصَّلَاة علىٰ القُبُور أو اتخاذها مَسَاجِد قطعي، وليس هناك تفريق، وقال: ملا علي طارق من الحنفية: (أما من اتخذ مَسْجِداً في جوار صالح، أو صَلَّىٰ في مقبْرة، وقصد الاستظهار بروحه، أو وصول أثر من آثار عبادته إليه، لا للتعظيم له والتوجُّه نحوه، فلا حرج عليه، ألا ترىٰ أن مرقد إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في المَسْجِد الحرام عند الحطيم، ثُمَّ إن في ذلك المَسْجِد أفضل مكان يتحرىٰ الُمصلِّي لصلاته، والنَّهِي عن الصَّلَاة في المقابِر مختص بالقُبُور المنبوشة لما فيها من النَّجَاسَة). هذا استشهاد ضعيف!.

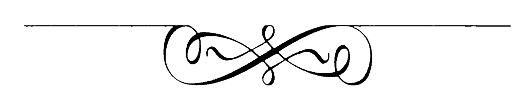
قال ملا وذكر غيره: إن صورة قَبْر إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في الحِجْر تحت الميزاب، وأنَّ في الحطيم بين الحَجَر الأسود وزمزم قَبْر سبعين نبياً!!! . من أخبركم؟ من أين أخذتم هذه المعلومات؟ لو جاء شخص وقال: إن في جبل أبي قبيس قَبْر مائتي نبي يكون كلاماً فارغاً؛ لَأنَّ الماضي تاريخ، والتاريخ لا يعرف إلا عن طريق النَّقل، والنَّقْل إمَّا أن يكون عن طريق الأنْبِيَاء، أو عن طريق السَّنَد الصَّحِيح، ولم يأت عن طريق الأنْبِيَاء، لم يذكره نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا أحدٌ من الصَحَابَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، كيف عرفت أنَّ في الحِجْر قَبْرُ إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؟ كم بُنِيَت الكَعبَة منذ بُنيَت أول يوم إلىٰ اليوم، عشرات المرات بُنيت وهُدِمت، ما ذكروا قَبْراً، ولم يُنقل لنا أن قَبْرَ إسماعيلِ في الحرم أبداً، هذه كلُها كلام خُرَافات، والدِّينُ لا يُبنىٰ علىٰ الخُرَافة؛ لأنَّه لو كان كلُّ إنسان يقول في الدِّين ما يقول أصبح الدِّين مَملوءاً بالخرافات، وأثقلَ كاهلَ المسلم بكثرة الخرافاتِ، هذا

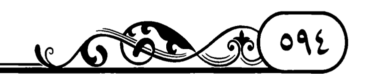
الدِّين لا يُقبلُ فيه إلا النَّقْل الصَّحِيح، لا يُقبَل فيه هذه الدعاوىٰ، ثُـمَّ يقـول هنـا: إن النَّهِـي عـن الصَّـلَاة في المقـابرِ مُخـتص بـالقُبُور المنبوشـة، مـن أخـبرك؟، الأحَادِيث تلعَن من اتخذ قَبْر الأنْبِيَاء مَسَاجِد، واللَّعـن هـو أشـد أنـواع العقوبـة، طردٌ من رحمة الله.

فأحيانـًا يكون من بعض الفُقَهَاء تساهُل في هذا المجال، والغريب أنَّه يقرأ لكثير من العُلَمَاء، وهم عُلَمَاء لديهم عِلْم، لكن تجد صفاءَ الاعتقادِ وصفاء التَّوحِيد ضعيفـًا، والتَّوحِيد هو حق الله ﷻ، الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - يعفو عن كل ذنبٍ فيه شهوة، أو فيه ضعفٌ للإنسان، لكن لا يعفو عن ذنبٍ فيه تَنَقُّص لحقِه ﷻ، الله يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء:٤٨]. كل صورة من صورِ الشِّرْك بالخَالِق لا يغفرها الله. ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ فآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وإبليس كلاهما أذنب، آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ أذنب، وإبليس أذنب، لكن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ذنبه كان شهوة، ليس كبراً، وليس تَنَقُّصـًا لحقِ الخَالِق، لكن إبليس تَنَقّص حقَّ الخَالِق: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ [الأعراف:١٢]، كأنَّه قال: أنت يا رب لا تعرف، فالله أمره بالسجود وامتنع عنه وقال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ كأنَّه يُذّكر الله ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ١٢﴾، فلعنه الله، فأيُّ تَنَقُّص لحق الله لا يقبله الله، وجاءت الأحَادِيث تسدُّ هذا الباب، الإنسَان قد يُصلي علىٰ القَبْر أو يصلي إليه، ولا يقصِد بذلك تعظيمه، لكن هذه صورة في الظاهر شركٌ، والإسلام يسدَّ أبواب الشِّرْك وأبوابَ المَعْصِيَة.

فيقول: إن سَبَبَ تحريم الصَّلَاة علىٰ القُبُور لما فيهـا مـن النَّجَاسَـة نقـول: الحَـديث جـاء في قُبُـور الأنْبِيَـاء، وقُبُـور الأنْبِيَـاء أشـرف القُبُـور وأنظفهـا، فـإن الأَرض لا تأكل أجساد الأنْبِيَاء، فإذا جـاء اللَّعـن فيمن اتخـذ مَسْجِداً علىٰ قَبْـر الأنْبِيَاء، وقُبُور الأنْبِيَاء نظيفة طاهرة؛ لأنَّ فيها أجساداً طاهرة لا تأكلها الأَرض،

فما بالك ببقية القُبُورِ؟، ذكر العِلَّة في الحكم الشَّرعي، والعِلَّة أن الله شرَع كذا لكذا، وإيجاد العِلَّة من عندنا لا يَجُوز؛ لأنَّه إن لم يأت الدَّلِيل من الله ورسوله علىٰ أن الحُكم أو الحِكمَة هي كذا فلا يجوز لشخص أن يقول العِلَّة كذا، فكونه يقول: إن تحريمَ الصَّلَاة علىٰ القُبُور واتخاذها مَسَاجِد بسَبَبَ النَّجَاسَة، هذا خطأٌ، وهذا ليس عليه دليلٌ.



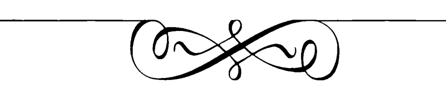


قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقـد لعـن النَّبِـي ﷺ متخـذي المَسَـاجِد عليهـا، وموقـدي السـرج عليهـا، ومعلوم أن إيقاد السرج عليهـا إنمـا هـو لعـن فاعلـه، لكونـه وسـيلة إلىٰ تعظيمها وجعلها نصبًا يوفض إليها المُشرِكون كما هو الواقـع، فهكـذا اتخـاذ المَسَـاجِد عليها.

الشَّـرْح

في الماضي كانوا يضعون عليها سـرجًا أي: مصـابيح، والآن هنـاك كهربـاء تضـاء بالليـل حتـىٰ يكـون مـن ذهـب إليـه في الليـل يجـد نـوراً، حتـىٰ يَتـبرك بـه ويعظِّمَه، فالذي يضع النور لم يسجُد، وجاء الحَديث بلعنـه، لكـن هـذا وسـيلة إلىٰ الشِّرْك؛ لَأنَّ الشِّرْكَ نوعان إمَّا في المَقَاصِد وإما في الوَسَـائِل، فالـذي يصـلي إلىٰ القَبْر، هذه الصُّوَرة صورة مقصد، لكن الذي يضع القنديل عليها هذا شـركٌ أصغر من الكَبَائِر؛ لَأنَّ هذا عظمها لكن لـم يسـجد إليهـا، فـإذا جـاء اللَّعـن لمـن وضـع القنـديلَ أو السَـرجُ عليهـا، فمـا ظنـك بمـن سـجدَ إليهـا، أو وضـع عليهـا مَسْجِداً، هذا أشد.



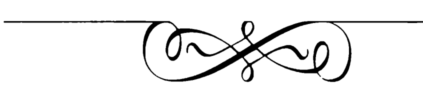
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال ابن القيِّم: وبالجمِلَّة فمن له معرفة بالشرك وأسبابه وذرائعه، وفهم عن الرَّسُول ﷺ مقاصده جزم جزمـًا لا يحتمل النقيض أن هذه المبالغة واللَّعن والنَّهي بصيغتيه: صيغة لا تفعلوا، وصيغة إني أنهاكم، ليس لأجل النَّجَاسَة، بل هو لأجل نجاسةالشِّرْك اللاحقة بمن عصاه، وارتكب ما عنه نهاه واتبع هواه ولم يخش ربه ومولاه، وقل نصيبه أو عدم من تحقيق لَا إلَه إلَّا الله، فإن هذا وأمثاله من النَّبِي ﷺ صيانة لحمىٰ التَّوحِيد، أن يلحقهاالشِّرْك ويغشاه وتجريد له وغضب لربه أن يعدل به سواه، فأبىٰ المُشرِكون إلا معصية لأمره وارتكابـًا لنهيه، وغرهم الشَّيطَان بِأنَّ هذا التَّعظِيم لقُبُور المشايخ والصَّالِحين، وكلما كنتم أشد لها تعظيمـًا وأشد فيهم غُلُواً كنتم بقربهم أسعد ومن أعدائهم أبعد، ولعُمَر الله من هذا الباب بعينه دخل علىٰ عباد يغوث ويعوق ونسر، ودخل علىٰ عباد الأصنَام منذ كانوا إلىٰ يَومَ القِيامَة، فجمع المُشرِكون بين الغُلُو فيهم والطعن في طريقتهم، وهدىٰ الله أهل التَّوحِيد لسلوك طريقهم وإنزالهم منازلهم التي أنزلهم الله إياها من العُبُودِيَّة، وسلب خَصَائِص الإلهية.

الشَّرح

ابن القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: إن السَبَبَ في هذا الشِّرْك أنهم ظنوا أنَّ هذا من مَحَبَّة الصَّالِحين، ومن تكريمهم. وقال: هذا طعن فيما جاءوا به هم، فإن الأنْبِيَاء والصَّالِحين لم يدعوا إلىٰ هذا الطريق، فالأنْبِيَاء دعوا النَّاس إلىٰ عِبَادَة الله، وهؤلاء عبدوا الأنْبِيَاء، ومن نهاهم اتهموه أنَّه لا يُحِبُّ الأنْبِيَاء، وأنه يكره الأنْبِيَاء، ويذكر عن كثير من النَّاس في الماضي أنهم كانوا يفهمون أنَّ النَّاس في هذه البلاد لا يصلُّون علىٰ النَّبِيِّ ﷺ، قالوا: إنَّ هؤلاء يكرهون النَّبِيَّ ﷺ؛

لأنهم نُهوا عن تعظيمِه ﷺ. التَّعظِيم الذي هو من حقِّ الله، فهذا غُلُوٌّ، وبالغ نَقَلةُ المَذهَب أو الخلافِ إلىٰ دَرَجَة أنهم أوهموا النَّاسَ أن النَّاس في هذه البلاد يكرهون النَّبي ﷺ، ولا يُحِبُّون الصَّالِحين، ولا يُحِبُّون الأَوْلِيَاء، وهذا عجب، مَحَبَة الأنبِيَاء متابعتهم، وتعظيمهم، والدفاع عن سنتهم، واتباع طريقتهم، أمَّا أنك تزعم مَحَبَة النَّبي ﷺ وتخالف طريقته ولا تتبع سنته، أي مَحَبَة هذه ؟ المَحَبَة هي سلوك واتباع، وليست دعاوىٰ، فلو كان كل من يزعم المَحَبَة تكون دعواه صحيحة لكان ادَّعَىٰ مَن شاءَ ما شاء، ولهذا لما ادَّعىٰ قومٌ مَحَبَةَ النَّبي ﷺ أو مَحَبَة الله ﷻ قال اللهُ - سبحَانه - : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]. علامة مَحَبَّة الله أن تتَّبعَ نبيَه ﷺ، لكن الذي يزعم مَحَبَّة الرَّسُول ﷺ ولا يتبِعه، ولا يطيعُه، ولا يعمل بسنتِه، ولا يُدافع عنها، بل ربما يكون أول من يخالفُها ويعاديها، هذا كاذبٌ في دعواه.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قلت: وممن علل بخوف الفِتنَة والشِّرْك الشَّافِعِي وأبُو بكْر الأثرم وأبو مُحمَّد المقدسي وشيخ الإسلام وغيرهم، وهو الحق.

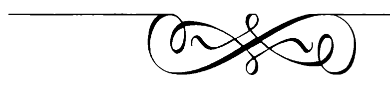
قوله: (فإن الصَحَابَة لم يكونوا ليبنوا حول قَبْره مَسْجِداً)، أي لما عِلْموا من تشديده في ذلك وتغليظه ولعن من فعله، فكيف يتخذون علىٰ قَبْره مَسْجِداً، وإنما خشوا أن يعتاده بعض الجهال للصلاة عنده من غير شعور من الصَحَابَة بذلك، فلذلك دفنوه في بيته.

الشَّرح

قوله: (وممن علل بخوف الفِتنَة والشِّرْك الشَّافِعِي ..) أي هناك أناس عللوا النَّهي في بناء المَسَاجِد علىٰ القُبُور بالنَّجَاسَة، ولكن عُلَمَاء آخرين علَّلوا ذلك بِأَنَّ بناء المَسَاجِد علىٰ القُبُور يؤدي إلىٰ الشِّرْك، هذا هو الصَّحِيح؛ لأَنَّ الأحَادِيث ليس فيها ذكر للنجاسة، والأحَادِيث جاءت في قُبُور الأنْبِيَاء، وقُبُور الأنْبِيَاء طاهرة ليس فيها نجاسة، فالتعليل بالنَّجَاسَة تعليلٌ خاطئ.

قوله: (وإنما خشوا أن يعتاده بعض الجهال للصلاة عنده من غير شعور من الصَحَابَة بذلك فلذلك دفنوه في بيته) هذا هو السَبَبُ في عدم دفن النَّبِي ﷺ خارج بيته، أنَّ الصَحَابَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ خافوا أن يُبنىٰ عليه مَسْجِد، أو أن يتخذ مزاراً، أو أن يُطاف علىٰ قَبْره، فدفنوه في بيته حتىٰ لا يصل النَّاس إليه، وقلنا أنَّ البيت الذي دُفن فيه هو بيت عَائِشَة ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا ـ، وكان بجوار المَسْجِد النبوي، وهكذا حُجُرات زوجاته ﷺ كانت بجوار المَسْجِد، ولم تدخل حجرته الشريفة في المَسْجِد النبوي إلا بعد موت جميع الصَحَابَة بالمدينة، أدخلها الوليد بن عبد

الملك، ما بين عام (٨٤) هـ إلىٰ عام (٩٦) هـ، وقد سبق أن ذكرنا أنَّ سَبَبَ إدخاله للحُجرة في المَسْجِد ليس سَبَبًا دينيًا، وإنما كان سَبَبًا سياسيًا؛ لأنَّ آلَ البيت كان النَّاسُ يأتون إليهم في الحجِّ والعُمَرة والزيارةِ ويلتقون بهم، والوليد بن عبد الملك ليس من آل البيتِ، وكان الوليد يخشىٰ أن هذا اللقاء بآل البيت يؤدِّي إلىٰ حربٍ ضده، فأراد أن يُفرِّق آلَ البيت من جوار المَسْجِد النبوي، فأدخلَ جميع الحجرات والبُيوت التي بجانب المَسْجِد ليوسِّع المَسْجِد، وأدىٰ إلىٰ ابتعاد هولاء، فبنوا بيوتًا بعيداً عن المَسْجِد، هذا هو السَبَبُ، فما أدخله بقصد التَبرُكِ أو التَّعظِيم، لكنه أصبح بعد ذلك داخل المَسْجِد، وإن كان محاطًا بجدران، ولا يصله أحد، ولا يستطيع أحد أن يتبرك بقَبْره، فهذا محفوظ ـ ولله الحَمْدُ ـ بجدر من جميع الأطراف.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (وكل موضع قصدت الصَّلَاة فيه فقد اتخذ مَسْجِداً)، أي وإن لم يبن مَسْجِد.

قوله: (بل كل موضع يصلىٰ فيه يسمىٰ مَسْجِداً)، الظاهر أن الأول في الأمكنة المعدة للصلاة، وإن لم يبن فيها مَسْجِد، وهذا في أي موضع صلي فيه، وإن لم يعد لذلك، كالمواضع التي يصلي فيها المسافر ونحو ذلك، فعلىٰ هذا إذا صَلَّىٰ عند القُبُور ولو مرة واحدة وإن لم يكن هناك مَسْجِد فقد اتخذها مَسَاجِد.

قوله: (كما قال ﷺ: وجعلت لي الأرض مَسْجِداً وطهوراً) أي فسمىٰ الأرض مَسْجِداً، وليست مَسْجِداً مبنياً، لكن لما كانت يسجد فيها سميت مَسْجِداً، فدل هذا الحَديث أن من صَلَّىٰ عند القُبُور أو إليها فقد اتخذها مَسَاجِد، وهذا الحَديث طرف من حديث صحيح متفق عليه، عن جابر قال البغوي في شرح السنة: أراد أن أهل الكِتَاب لم تبح لهم الصَّلَاة إلا في بيعهم وكنائسهم، وأباح الله لهذه الأُمَّة الصَّلَاة حيث كانوا؛ تخفيفًا عليهم وتيسيراً، ثُمَّ خص من جميع المواضع الحَمَّام والمقْبرة والمكان النجس.

الشَّرح

قوله: (وكل موضع قصدت الصَّلَاة فيه فقد اتخذ مَسْجِداً) أي ليس شرطًا للتحريم أن يكون في المَسْجِد مبني البناء المعروف، فإن كل مكان صَلَّىٰ فيه شخص يعتبراً مَسْجِد، بل الأَرض كلها مَسْجِد كما سيأتي في الحَديث، فالتحريم ليس فقط في البناء، إنَّما التحريمُ للعمل والعِبَادَة، لا تَجُوز الصَّلَاة في المقْبَرة ولا إليها؛ لَأنَّ هذا من اتخاذها مَسَاجِد، فقال: التَّحريم ليس خاصاً بالبناء بل بالفعل.

قوله ﷺ: (وجعلت لي الأَرض مَسْجِداً وطهوراً) هذا طَرف من حديث: (**أعطيت خمسًا لم يعطهن نبي قبلي، ومنها وجعلت لي الأَرض مَسْجِداً وطهوراً**)[١] الطهور هو الذي إشارة إلىٰ التَيَمُّم، وفي بعض الأحَادِيث: (**وجعلت لي تربتها**)[٢] ولهذا اختلف الفُقَهَاء هل التيَمُّم يكون بالتربة الصافية، أو يكون بوجه الأَرض سواء كان صخراً أو حَجَراً أو تراباً؟ فالأحناف والمَالِكية قالوا: يتيمم علىٰ أي أرض سواء كانت صلبة صخرة أم لا، فالحَديث عام، جعلت لي الأَرض، ما قال: تربتُها، فإن قيل: جاء في رواية أخرىٰ تربتها قالوا: الأشهرُ والأوثقُ والأقوىٰ يُقدَّم، أمَّا الرَّاوِي الثاني فلعله رَوَىٰ بالمَعنَىٰ، ولهذا المَالِكية والأحناف يَرون أنَّه يجوز أن تتيمم علىٰ أي مكان، سواء كان فيه تراب أم ليس فيه تراب، أمَّا الحنابلة والشَّافِعِية فَإنَّهم يقولون لابد أن يكون التَيَمُّم علىٰ التُراب، هذا هو سَبَبُ الخلاف في الأحَادِيث.

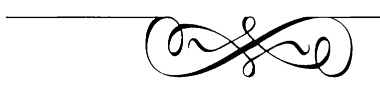
والآية القُرآنية ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء:٤٣]، ما مَعنَىٰ الصَّعِيد؟ الزجاج رحمه الله قال: الصَّعِيد في اللغة يطلق علىٰ ظاهر الأَرض، وبعض العُلَمَاء يرىٰ أن الصَّعِيد يطلق علىٰ التُرَاب، ويطلق علىٰ ظهر الأَرض، فالخلاف في تَفسِير الآية، وفي إثبات الرِّوَاية في الأحَادِيث، فرأوا أن الصَّعِيد هو وجه الأَرض، ولهذا قالوا: يجوز أن تتيمم علىٰ الجدار،علىٰ أي مكان، ربما يكون في هذا تيسير للمرضىٰ في المستشفيات والأماكن التي لا يكون فيها تربة؛ لأَنَّ الغرض ليس هو إيصال التُراب إلىٰ الوجه إنما الغرض أن تستبدل فعل

---

(١) أخرجه البُخارِي في صحيحه، كتاب التَيَمُّم، باب (١)، برقم: (٣٣٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب المَسَاجِد ومواضع الصَّلَاة، برقم: (٥٢١)، (١/ ٣٧٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المَسَاجِد ومواضع الصَّلَاة، برقم: (٥٢٢)، (١/ ٣٧١).

الوضوء بفعل تطئمن به نفسك، وإلا فإن الله قادر أن يقول: من لم يجد الماء فلا يتيمم، لكن يبقىٰ في النَّفس حرج، لكن إذا ضرب بيديه علىٰ أي مكان، ومسح بوجهه، ثُمَّ مسح بشماله علىٰ يمينه، ربما هذا يخفف من وجودِ الجنَابة أو وجود الحَدث الأصغر، وكان الصَحَابَة اختلفوا في قضية الحَدث الأكبر، يتيمم له أم لا؟ فابن مسعود رضي الله عنه لا يرضىٰ التَيَمُّم للحديث الأكبر، ولو بقي أشهراً، لكن المسألة هنا قضية الطهور، فالطهور يراد به التَيَمُّم عند فقد الماء سواء كان حدثـًا أصغر أو حدثـًا أكبر.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: (طهوراً) أراد به التيَمُّم، وفي حديث جندب من الفوائد أيضًا: العبرة في مبالغته ﷺ في النَّهِي عن بناء المَسَاجِد على القُبُور، كيف بين لهم ذلك أولاً، ثُمَّ قبل موته بخمس قال ما قال، ثُمَّ لما كان في النزع لم يكتف بما تقدم بل لعن من فعل ذلك، فدلت هذه الأحَادِيث الصَّحِيحة الصريحة على تحريم البناء على القُبُور مطلقًا، فلذلك اكتفى المصنف بإيرادها عن غيرها.



الشَّرح

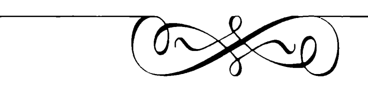
يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: صور التحذير متنوعة، وأكثرها عند الموت، مرَّ حديثُ عَائِشَة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- : (أنه لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها، وقال: لعنة الله على اليَهُود والنَّصارَى اتخذوا قُبُور أنبيائهم مَسَاجِد)[١] وجاء في حديث بعض الصَحَابَة أنَّه ﷺ قال قبل أن يموت بخمس: (لعن الله اليَهُود اتخذوا قُبُور أنبيائهم مَسَاجِد) أو (إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قُبُور أنبيائهم مَسَاجِد، ألا إني أنهاكم عن ذلك)[٢] كل ذلك قبل موته بأيام، وكذلك عند موته ﷺ؛ لأنه يعِلْم أن حبَّ الأتبَاع للأنبياء يُؤدي إلى هذا الشِّرْك، فأراد أن يكون هذا حاضراً في أذهانهم، وفعلاً كان هذا حاضراً في أذهانهم، فعندما مات ما اختلف الصَحَابَة، ولم يقل أحدٌ منهم نبني عليه قُبَّة أو مَسْجِداً، ولم يقل أحد منهم ندفنه في المَسْجِد أبداً؛ لَأنَّ التوجيهات والتوصيات والتحذيرات لا زالت طرية في أذهانهم، فهذا يدل على أن

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

الصَحَابَة ﭫ ليس في أذهانهم جواز هذا الفعل، ولم يصح حديث في أنهم سمعوا مناديًا ينادي من طرف الحُجرة أنَّ الأنْبِيَاء يموتون في أماكنهم، هذه كلها في السِّير، وإنَّما الذي صح أن الصَحَابَة ﭫ لصفاء توحيدهم وأذهانهم لم يقع في أذهانهم أن يدفِنوه في المَسْجِد، ولا أن يبنوا عليه قُبَّة.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

كحديث جابر (أن النَّبي ﷺ نهىٰ أن يجصص القَبْر، وأن يقعد عليه، وأن يبنىٰ عليه) رواه مسلم وغيره. وزاد أبو داود والحاكم: (وأن يكُتُب عليه).

قال: ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعودٍ مرفوعًا: (إنَّ مِن شِرَارِ النَّاس مَنْ تُدْرِكُهُم السَّاعَة وهُمْ أَحْياَء، والذِينَ يَتَّخِذُونَ القُبُور مَسَاجِد) رواه أبو حاتم في صحيحه.

ش قوله: (إن من شرار النَّاس) هو بكسر الشين جمع شر. قوله: (من تدركهم السَّاعَة وهم أحياء) أي من تقوم عليهم السَّاعَة بحيث ينفخ في الصُّوَر وهم أحياء، وهذا كحديثه الآخر الذي في مسلم: (لا تقوم السَّاعَة إلا علىٰ شرار النَّاس).

فإن قلت: ما الجمع بين هذا وبين حديث ثوبان: (لا تزال طَائِفَة من أمتي علىٰ الحق) وما في معناه؟ قيل حديث ثوبان مستغرق للأزمنة عام فيها، وهذا مخصص وسيأتي زيادة لذلك عند الكلام علىٰ حديث ثوبان إن شاء الله تَعَالَىٰ.

الشَّرح

قوله: (أن النَّبي ﷺ نهىٰ أن يجصص القَبْر)[1] هذا الحَديث صحيح، فنهىٌ عن التجصيص، ونهيٌ عن البناء، ونهيٌ عن القعود. والجلوسُ فُسِّر بِأَنَّ يجلس عليه الجلوس العادي أو أن يقضىٰ عليه الحاجة، فهذه ممَّا صحَّ من الأحَادِيث.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب النَّهي عن تجصيص القَبْر والبناء عليه، برقم: (٩٧٠)، (٢/ ٦٦٧).

قوله: (رواه أبو حاتم في صحيحه) أبو حاتم هنا يراد به ابن حِبَّان رَحِمَهُ اللَّهُ، وكتاب ابن حِبَّان ليس كله صحيحاً، بل هو من المتساهلين، والمتساهلون الذين اشتهروا بالتساهل من المحدثين ثلاثة أشخاص، أكثرهم تساهلاً الحاكم، ثُمَّ يأتي بعده ابن حِبَّان، ثُمَّ يأتي بعده الترمذي رَحِمَهُمُ اللَّهُ جميعاً. لكن هذا الحَديث في المُسنَد، وقال صاحب الكِتَاب أن إسناده جيد.

قوله ﷺ: (إن من شرار النَّاس من تدركهم السَّاعَة وهم أحياء)[1] هذا الحَديث في المسند يقوي الحَديث الذي في مسلم: (لا تقوم السَّاعَة إلا على شرار النَّاس)[2] لكن يكون هناك إشكال؛ لَأنَّ هذا حديث، وهناك حديث آخر: (لا تزال طَائِفَة من أمتي ظاهرين على الحق)[3] وهذا جاء بعدة روايات، فكيف يجمع بينهما؟

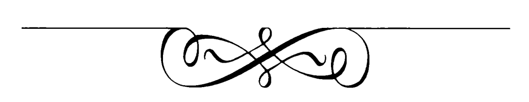
ليس في ذلك إشكال، فإن الحَديث الذي فيه: (لا تزال طَائِفَة من أمتي على الحق ظاهرين) أي: مُستمِرة من عهد النَّبي ﷺ إلى قيام السَّاعَة، لكن عند قيام السَّاعَة، أو ابتداء قيامها، يقبِض الله أرواح الصَّالِحين، ولا يبقى إلا

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند، برقم: (٤١٤٣)، (٧/ ٢٠٩)، وابن حِبَّان في صحيحه، كتاب التاريخ، باب إخباره ﷺ عما يكون في أمته من الفتن والحوادث، برقم: (٦٨٤٧)، (١٥/ ٢٦٠)، والطبراني في المعجم الكبير، برقم: (١٠٤١٣)، (١٠/ ٢٣٢)، وأبو يعلى في مسنده، برقم: (٥٣١٦)، (٩/ ٢١٦)، وأخرجه أيضاً ابن خزيمة في صحيحه، وابن أبي شيبة في مصنفه، والبزار في مسنده، وفي البُخارِي الجمِلَّة الأُولَى- من الحَديث، كتاب الفتن، باب ظهور الفتن، برقم: (٧٠٦٧).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط السَّاعَة، باب قرب السَّاعَة، برقم: (٢٩٤٩)، (٤/ ٢٢٦٨).

(٣) سبق تخريجه.

شرارُ النَّاس، قال في الحَديث: (يتسافدون كما تتسافد البهائم في الطُّرُقات)[١] أي ليس عندهم ضوابط أخلاقية، ولا يعرِفون الله، وجاء في الحَديث الآخر: (لا تقوم السَّاعَة وفي الأَرض من يقول الله الله)[٢] أي: الدِّين يختفي ولا يبقىٰ أحدٌ يذكر الله، حتىٰ يذكر اسم الله، فما بالك بعبادته؟، فعندئذ ينتهي الدور الذي من أجله خلق الله الكون، الله خلق الكون لعبادته، فإذا لم يبق أحد يعبُدُ الله ولم يَعد هناك مجالٌ لإرسال الرُّسُل، انتهت الغايةُ من خلقِ الكون، عندئذ يُحطِّم الله الكون، وتنتهي هذه الحَيَاة الدُّنيَا وينتقل النَّاس إلىٰ حَيَاة أخرىٰ.



(١) أخرجه موقوفًا الحاكم في المستدرك باختلاف في الَّلفْظ موقوفًا، كتاب الفتن والملاحم، برقم: (٨٤٧٦)، (٤/ ٦٢٤)، والطبراني في المعجم الكبير، برقم: (٨٥٨٥)، (٩/ ١١٩).

(٢) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

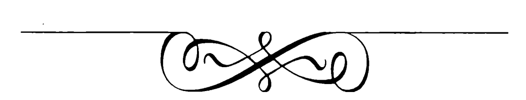
قوله: (والذين يتخذون القُبُور مَسَاجِد) الذين في محل نصب عطفًا علىٰ من الموصولة، أي إن من شرار النَّاس الذين يتخذون القُبُور مَسَاجِد، بالصلاة عندها وإليها وبناء المَسَاجِد عليها، وهذا المَعنَىٰ متواتر عن النَّبِي ﷺ معلوم بالاضطرار من دينه، وكل ذلك شفقة علىٰ الأُمَّة، وخوفًا عليهم أن يقودهم ذلك إليالشِّرْك بها وبأصحابها، كما قاد إلىٰ ذلك اليَهُود والنَّصارَىٰ، فأبىٰ عباد القُبُور إلا الضرب بهذه الأحَادِيث الجدار ونبذها وراء الظهر أو الدفع في صدورها وأعجازها بحمل ذلك علىٰ غير قُبُور الأنْبِيَاء والصَّالِحين، أمَّا قُبُورهم فتجوز الصَّلَاة إليها وعندها وبناء المَسَاجِد والقباب عليها؛ رجاء أن تصل إليهم العواطف الرُّوحانية.

ولا ريب أن هذا مراغمة ومحادة لله ورسوله، وهذا هو قول اليَهُود سمعنا وعصينا، فإن النَّبِي ﷺ إنما لعن من اتخذ قُبُور الأنْبِيَاء والصَّالِحين مَسَاجِد، كما هو نص حديث عَائِشَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا وغيره، وقُبُور غيرهم إنما أخذ النَّهِي عن البناء عليها من هذه الأحَادِيث ونحوها بقياس الأُولَىٰ-، أو من عموم أحاديث أخر. فمن أعظم المراغمة والمناسبة والمحادة لله ورسوله أن تحمل علىٰ غير ما وَرَدَت فيه، ويباح ما وَرَدَت بالنَّهِي عنه ولعن من فعله، ولكن هذا شأن عباد القُبُور ﴿أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٥٠].

وقد أجمع العُلَمَاء علىٰ النَّهِي عن البناء علىٰ القُبُور، وتحريمه ووجوب هدمه لهذه الأحَادِيث الصَّحِيحة الصريحة، التي لا مطعن فيها بوجه من الوجوه، ولا فرق في ذلك بين البناء في مقْبَرة مسبلة أو مملوكة، إلا أنَّه في المملوكة أشد، ولا عبرة بمن شذ من المتأخرين فأباح ذلك أمَّا مطلقًا وإما في المملوكة.

الشَّرْح

هذه إشارة إلىٰ الواقع في كثير من بلاد المُسلِمِين، أن القُبُور قد بُنيت عليها مَسَاجِد خَاصَّة قُبُور الصَّالِحين، ومات قبل فترة قصيرة بعض العُلَمَاء في بعض البلاد الإسلامية، وقد أصدرت الصُّوفية في ذلك البَلَد فتوىٰ أو إعلانًا بأنه سيوضع علىٰ قَبْرِه قُبَّةً ويُتخَذث مَزاراً، وهذا عجبٌ، إذا كانت الأحَادِيث التي صحت في الصَّحِيحين لا يُعمل بها، وإنما يُعمل بالهوىٰ، فعندئذ يصبح الدِّين هوىٰ مُتَّبَع ، فالبلاد الإسلامية مبتلاة في هذه المظاهر الشِّرْكية، كلما مات فيهم صالح أو عالم أو عابد اتخذوا علىٰ قَبْره مَسْجِداً، وزعموا أنَّ هذا من كمال محبتهم للصالحين، وهذه محادَّة لله ورسولِه، فإن الرَّسُول ﷺ قبل موته بأيام، وأثناء النَّزع وهو يحذِّر من هذا الفعل، ومع ذلك أبَوا إلا أن يبنُوا المَسَاجِد علىٰ القُبُور محادَّةً لله ورسولِه.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال الإمام أبو مُحمَّد بن قدامة: ولا يجوز اتخاذ المَسَاجِد علىٰ القُبُور؛ لَأنَّ النَّبِي ﷺ قال: (لعن الله اليَهُود والنَّصارَىٰ اتخذوا قُبُور أنبيائهم مَسَاجِد، يحذر ما صنعوا) ولأن تخصيص القُبُور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنَام بالسجود لها والتقرب إليها، وقد روينا أن ابتداء عِبَادَة الأصنَام تعظيم الأموات باتخاذ صورهم، والتمسح بها والصلاة عندها، وقال شيخ الإسلام: أمَّا بناء المَسَاجِد علىٰ القُبُور فقد صرح عامة عُلَمَاء الطوائف بالنَّهي عنه، متابعة للأحاديث الصَّحِيحة، وصرح أصحابنا وغيرهم من أصحاب مَالِك والشَّافِعِي بتحريمه، قال: ولا ريب في القطع بتحريمه، ثُمَّ ذكر الأحَادِيث في ذلك إلىٰ أن قال: فهذه المَسَاجِد المبنية علىٰ قُبُور الأنْبِيَاء والصَّالِحين أو الملوك وغيرهم تتعين إزالتها بهدم أو بغيره، هذا مما لا أعِلْم فيه خلافًا بين العُلَمَاء المعروفين.

الشَّرح

شيخُ الإسلام ابن تَيمِيَة رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: لا أعِلْم في ذلك خلافًا بين العُلَمَاء المعروفين، وهنا الشارح أوَرَدَ قول ثلاثة عشر عالمًا، كلهم يُحرمون بناء المَسَاجِد علىٰ القُبُور من شتىٰ المَذَاهِب، من المَالِكية والحنفية والشَّافِعِية والحنبلية، والاستشهاد بكلام أئمة المَذَاهِب، حتىٰ لا يقال إنَّ هذا هو مَذهَب معين، فإنَّ الدِّين ليس خاصًّا بالمَذَاهِب، ولا ينبغي للمسلم أن يتبع مسألة قال بها مَذهَبه ليس فيها دليل؛ لَأنَّ العبرة ليس بالمَذهَب، العبرة بالدَّلِيل، فإذا صح الدَّلِيل قلنا به؛ لَأنَّ الذي يعبد الله بالهوىٰ غير الذي يعبد الله بالدَّلِيل، فالذي يعبدُ الله بالدَّلِيل لا يعملُ عملاً إلا إذا دلَّ عليه القُرآن والسُّنَّة، أمَّا الذي يعبُدُ الله بالهوىٰ فَإنَّه يتمسك بكل خرافة أو كل موروث عن آبائه وأجداده صح أو لم يصح.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال ابن القَيِّم: يجب هدم القباب التي علىٰ القُبُور؛ لأنها أسست علىٰ معصية الرَّسُول ﷺ. وقال أبو حفص: تحرم ال حَجَرة بل تهدم، فإذا كان هذا كلامه في ال حَجَرة فكيف بالقُبَّة.

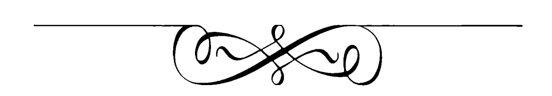
وقال الشَّافِعِي: أكره أن يعظم مخلوق حتىٰ يجعل قَبْره مَسْجِداً؛ مخافة الفِتنَة عليه وعلىٰ من بعده من النَّاس، وقال أيضاً: تسطح القُبُور ولا تبنىٰ ولا ترفع وتكون علىٰ وجه الأَرض، وقد أفتىٰ جماعة من الشَّافِعِية بهدم ما في القرافة من الأبنية، منهم ابن الجميزىٰ والظهير الترميني وغيرهما، وقال القاضي بن كج: ولا يجوز أن تجصص القُبُور، ولا أن يبنىٰ عليها قباب ولا غير قباب، والوصية بها باطلة، وقال الأذرعي: وأما بطلان الوصية ببناء القباب وغيرها من الأبنية العظيمة، وإنفاق الأموال الكثيرة فلا ريب في تحريمه.



الشَّرح

قول ابن القَيِّم ـ: (يجب هدم القباب التي علىٰ القُبُور ..) يقول: إن الحُجرة التي تبنىٰ علىٰ القَبرِ بيتاً مثل تُهدَم، والقُبَّة التي توضع علىٰ الحُجرة هذا من باب أولىٰ، فكل قَبرٍ يُبنىٰ عليه بناء يَجب هدمُه، والقباب من باب أولىٰ.

(ابن الجميزىٰ،والظهير الترميني، القاضي بن كج) هؤلاء كلهم من عُلَماء الشَّافِعِية.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

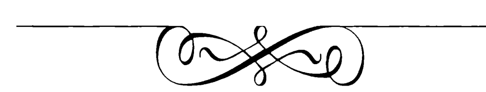
قلت: وجزم النَوَوِي في شرح المهذب بتحريم البناء مطلقـًا، وذكـر في شـرح مسلم نحوه أيضـًا، وقال القرطبي: في حديث جابر نهىٰ أن يجصص القَبْر أو يبنىٰ عليه، وبظاهر هذا الحَديث قال مَالِك: وكـره البنـاء والجـص علىٰ القُبُور، وقـد أجازه غيره، وهذا الحَديث حجة عليه، ووجه النَّهي عن البناء والتجصيص في القُبُور: أن ذلك مباهاة واستعمال زينة الـدُّنيَا في أول منازل الآخِرَة، وتشبه بمـن كان يعبد القُبُور ويعظمها، وباعتبار هذه المَعَانِي وبظاهر هذا النَّص ينبغي أن يقال هو حرام، كما قال به بعض أهل العِلْم، وقال ابن مرشد: كره مَالِك البناء علىٰ القَبْر وجعل البلاطة المكتوبة، وهو من بدع أهل الطول أحدثوه إرادة الفخر والمباهاة والسمعة وهو مما لا اختلاف فيه، وقال الزيلعي في شرح الكنز: ويكـره أن يبني علىٰ القَبْر، وفي الخلاصة: ولا يجصص القَبْر ولا يطين ولا يرفع عليه بناء، وذكر أيضـًا قاضي خان أنَّه لا يجصص القَبْر ولا يبنىٰ عليه، لما روي عن النَّبي ﷺ أنَّه نهىٰ عن التجصيص وعن البناء فوق القَبْر، والمُرَاد بالكَرَاهَة عند الحنفية كراهة التحريم، التي هي في مقابلة ترك الواجب، وقد ذكر ذلك ابن نجيم في شرح الكنز، ومثل هذا كثير في كلام العُلَمَاء أتباع الأئمة الأربعة وغيرهم، والمقصود أن كلام العُلَمَاء موافق لما دلت عليه السُّنَّة الصَّحِيحة في النَّهي عن البناء علىٰ القُبُور.



الشَّرح

هنا ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ عُلَمَاء الشَّافِعِية وذكر من عُلَمَاء المَالِكية القرطبي، وذكر كذلك من عُلَمَاء الأحناف الزيلعي وابن نجيم، فهو رَحِمَهُ اللَّهُ استشهد بأقوال الأئمة المشهورين في المَذَاهِب، وأنهم جميعـًا اتفقوا علىٰ التحريم، لكن عند

الأحنـاف أَوَرَدَ صـيغة النَّهـي أو المنـعَ بالكَرَاهَـة، والكَرَاهَـة تطلـق وتقابـل المُستَحَب، وتُطلق وتقابِل الواجِبَ، فما المُرَاد بالكَرَاهَة عند الأحناف؟ قـال: المُرَاد بالكَرَاهَة عند الأحناف، الكَرَاهَة التحريمية، وليس الكَرَاهَـة التـي تقابـل المُستَحَب؛ لَأنَّ الكَرَاهَة التي تقابِل المُستَحَب ليس فيها نص قاطع، لكـن هـذه المسألة فيها نص قاطع، النَّهي، واللَّعن، والتحذير، إذا كان كـل هـذه الصيـغ مـا يفهم منها التحريم فكيف يفهم التحـريم؟ إذا كـان يلعـن مـن فعـل كـذا، وينهىٰ عن فعل كـذا، ويحـذر مـن فعـل كـذا، ويقـول: لا تفعلـوا كـذا، هـذه كلهـا صيـغ تؤدي إلىٰ التحريم، إذا كانت هذه الصيغ ما تـؤدي إلـىٰ التحـريم فليسـت هنـاك صيغة في اللغة تؤدي إلىٰ التحريم، فإذا قـال الأحنـاف يكـره، أرادوا بـه الكَرَاهَـة التحريمية، ولهذا ينبغي أن نتنبه، ليس كل ما في كُتُب العُلَمَـاء مـن ذكـر الكَرَاهَـة يفهم منه مقابل المُستَحَب؛ لَأنَّ المكروه إن لـم تفعله فأنـت مـأجُور، وإن فعلتـه ليس عليك ذنـب، والمُستَحَب إن فعلتـه أنـت مـأجُور، وإن تركتـه لـيس عليـك ذنب، فالمُستَحَب والمكروه ليس هو المُرَاد هنا.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

واعِلْم أنَّه قد وَقَعَ بسَبَبَ البناء علىٰ القُبُور من المفاسد التي لا يحيط بها علىٰ التفصيل إلا الله، ما يغضب لله من أجله كل من في قلبه رائحة إيمان، كما نبه عليه ابن القيِّم وغيره، فمنها: اعتيادها للصلاة عندها، وقد نهىٰ النَّبي ﷺ عن ذلك، ومنها: تحري الدُّعَاء عندها، ويقولون: من دعا الله عند قَبْر فلان استجاب له، وقَبْر فلان الترياق المجرب، وهذا بِدعَة مُنكَرة.



الشَّرح

قلنا ذَكَر أربعة عشرَ عالمـًا، فمن الحنابلة ذكر ابن تَيمِيَة وابن القَيِّم، وأبا حفص، وأبو حفص -لم يظهر لي المُرَاد منه -[1]، وذكر ستةً من الشَّافِعِية، فذكر الشَّافِعِيَّ وابن الجميزي، والظهير الترميني، والقاضي ابن كج، والأذرعي، والنَوَوِي، وذكر من المَالِكية مَالِكـًا، والقرطبي، وذكر من الأحناف الزيلعي، وقاضي خان، وابن نجيم، وهذا حسب ما حضره من المراجع والكُتُب، وإلا فإنَّ جمهور عُلَمَاء المَذَاهِب لا يُقرُّون البِدَع التي أحدثها بعض الأتباع عند القُبُور؛ لأنها تصادم النَّصوص الشَّرعية، وعُلماء المَذَاهِب عُلَمَاء مُسلِمُوْن يستقون علومهم من الكِتَاب والسُّنَّة، فهذه أقوال مرَّت، ثُمَّ ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعض ما ينتج عند القُبُور التي يعظمها أصحابها مما لا يجوز أن يكون إلا لله؛ لَأنَّ الله شرع العِبَادَات للتذلل له، فأيُّ عملٍ يتَذَلَّلُ به الإنسَانَ لغيرِ الله، أو في

(١) ولعله أبو حفص عُمَر بن مُحمَّد العكبري، فإن هذه العبارة (تحرم ال حَجَرة بل تهدم) قد نقلها عنه المرداوي في الإنصاف، والبهوتي في كشاف القناع، والرحيباني في مطَالِب أولي النهىٰ، وغيرهم، والله أعلَم.

مكان لم يشرعْه الله فإن هذا يكون بِدعَة مُنكَرة، وقد يكون شركًا، فذكر رَحِمَهُ اللهُ أنَّه يحدث عند هذه القُبُور من البِدَع والمُنكَرات، ما يغضبُ له كلُّ من في قلبِه إيمان، ثُمَّ قال: إنَّ بعضَ النَّاس يتحرَّىٰ الدُّعَاء عند القُبُور، ويقولون: من دعا الله عند قَبْر فلان استجيبَ له، وأن الدُّعَاءَ عند قَبْرِ فلانٌ الترياقُ المجرَّبُ، أي: العلاجُ الدواءُ.

وقد يقع في هذه البِدَع أناس من أهل العِلْم، لكنهم مجتهدون في هذا، ونسأل الله أن يغفر لهم، منهم الذهبي رَحِمَهُ اللهُ، هو من أعلام المَذهَب السلفي وهو مشهور باعتقادِه السليم، ومناصرتِه للعقيدة السليمةِ، لكنه رَحِمَهُ اللهُ يرَىٰ أن الدُّعَاءَ عند قُبُور الأنْبِيَاءِ والصَّالِحين مُستجابٌ فقد ذَكَر في (سيرُ أعلامِ النبلاءِ) في الجزء السابع عشر: " والدُّعَاء مُستجابٌ عند قُبُور الأنْبِيَاءِ والأولياءِ " ، ثُمَّ ألحقَ بذلك سائرَ البقاعِ، لكن كونه يُخصص هذين المكانين فيه مخالفة لمَذهَب السلفِ، ولكن قال: " لكنَّ سَبَبَ الإجابة حضورُ الدَّاعي وخشوعُه "، أي: أن يكون قلبُه حاضراً، لكن الدُّعَاء عند القُبُورِ فلم يَرِد في الشَّرع أنَّه مكان يُستجاب فيه الدُّعَاء، والدِّين يقوم علىٰ النَّص من القُرآن أو السنة، لا يقوم علىٰ الاعتقاد الذي وُرِّث، أو علىٰ الاجتهاد الذي لا يكون له أصل من النَّص الشَّرعي، فمن أين قالَ الذَّهبي هذا؟ نحن نحاكِم كلُ قائل إلىٰ القواعد الشَّرعية، القُرآن والسُّنَّة مصدران لمعرفة الأحكام الشَّرعية، القُرآن الكَرِيم لا شك صحيح بكامله؛ لأنه منقول بالتواتر، لكن تبقىٰ السنة، هل وَرَدَ في السُّنَّة حديث يحثُّ علىٰ الدُّعَاء عند القُبُور، ما وَرَدَ لا صحيح، ولا حسن، ولا ضعيف، فكيف يقول الذهبي هذا؟ الذهبي وغيره من العُلَمَاء يرون أحيانًا التَّبرُّك بأماكن الصَّالِحين، والتبرُّك بملابس الصَّالِحين، والتبرك بآثار الصَّالِحين،ولا شك أنَّه مخالفة، وذريعة إلىٰ الشِّرْك؛ لأننا إذا عظمنا المخلوق

فَإِنَّه يؤدي إلىٰ صرف حق الله له، فلا ينبغي أن نأخذ قول قائل إلا إذا كان بدليل. ينبغي أن نُعوِّد أنفسنا مقصدنا من اتباع العَالِم إذا كان معه الدَّلِيل، قد لا يكون دليلٌ مع العَالِم الذي نميل إلىٰ متابعته، فلا نقبل قولَه، هذا دين، نتعبد الله به، مَحَبَة العَالِم لا ينبغي أن تنسينا.

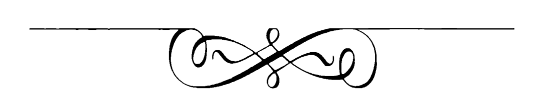
وعُلَمَاء الأُصُول ذكروا قضيةً وهي: هل يَدخُل النِّسَاء في خطاب الذكور، أي: إذا أمر الله الرجال مثلاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء:١٣٦]، الخطاب للرجال، هل يَدخُل فيه النِّسَاء أم لا؟ أقوال للعُلَمَاء، منهم من فصَّل ومنهم من أجمَل، فيقول أحد عُلَمَاء الأُصُول من الحنابلة: "إنَّ الصواب مع الذين خالفوا المَذهَب، ولكن نصرة شيخنا أولىٰ" وهذه صعبة جداًّ!! وهو من العُلَمَاء، فاتباع العَالِم مع مخالفة الصواب خطأٌ، وقد ذكر ابن تَيمِيَة رَحِمَهُ اللهُ إنَّ من اتبع عالماً لعصبية أو هوىٰ فَإِنَّه آثم ولو ظهَر بعد ذلك أن العَالِم كان مُصيباً، فينبغي أن تُحسن نيتك، وأن لا تتبع العَالِم إلا إذا اعتقدت أنَّه أصابَ الحقَّ، وإلا فكأنك تجعل منه نبياًّ، والعُلَمَاء ليسوا أنبياء، بل بشر، لكن لا يدرك هذا إلا أهل العِلْم الذين يطلعون علىٰ أقوال العُلَمَاء الذين هم في مستوىٰ أولئك العُلَمَاء الذين قد تقع منهم المخالفة.

فالعَالِم قد يخطئ، والذهبي رَحِمَهُ اللهُ في هذه المسألة في الحقيقة لم يصب، وإن كان رَحِمَهُ اللهُ عِملاقاً، من يقرأ كُتُب الذهبي سير أعلام النبلاء يرىٰ أُعجوبة، متىٰ قرأ ومتىٰ حفظ، ومتىٰ كُتُب؟!!، كذلك تاريخ الإسلام، أي: عشرات المجلدات، ومِيزَان الاعتدال، وغيرها من الكُتُب، فالشاهد أن هذا العَالِم العملاق يخطئ، وينبغي أن نتربىٰ علىٰ هذا، العَالِم بشَر، ليس مَعصوماً، وسيبقىٰ فيه نقص، ولهذا مَالِك رَحِمَهُ اللهُ لما سئل عن قرابة أربعين مسألة ما أجاب إلا في خمس أو أربع مسائل، والباقي قال: الله أعلَمُ، وعندما ناظر مَالِك رَحِمَهُ اللهُ

رجلاً انتقده ذلك الرجل في مسألة، فقال: ما سمعنا بهذا العِلْم، قال مَالِك: هل سمعت كلَّ العِلْم؟ قال: لا. قال: هل سمعت ثلثيه؟ قال: لا، قال: هل سمعت نصفه؟ قال: ربما، قال: اجعلها من النَّصف الذي لم تسمعه، وكثير من طلبة العِلْم الصغار يقول إذا حدثته بمسألة: ما سمعنا بهذا، وهل نحن قرأنا العِلْم كله أو سمعناه، فما ينبغي أن يقال هذا، فالعَالِم ليس في عِلْمه كالأنْبِيَاء، فسيبقىٰ في عِلْمه نقص، هذا النقص يأتي منه الخطأ، لكن أخطاء العُلَمَاء الكبار قليلةٌ، أمَّا أخطاؤنا نحن طلبة العِلْم فلا تُعد ولا تُحصىٰ، بعض الأشخاص يَستنكر أن يقال العَالِم أخطأ، نقول له: لا تستنكر؛ لأنَّ من رحمة الله بنا أن الكبار يُخطئون، ولو لم يخطئوا لقدَّسناهم، فيخطئون خطأ يدركه صغار الطلبة، لكن ليس هذا تنقيصًا له أبداً، إنما هذا ذكر طبيعة البَشَر، فطبيعة البَشَر النَّقصُ والخطأُ، ليس هناك إنسانٌ لا يُخطِئ، والكمالُ البَشَري هو قلَّةُ الخطأِ وليس عدمَه، قلنا إن نبينًّا ﷺ في قمةِ البَشَر، وقد عاتبَه الله في أكثر من موطنٍ في القُرآن الكَرِيم؛ لأنَّ الكمالَ البَشَري ليس هو عدمُ الخطأ، بل نَدرَتُه.

ولهذا قال -تَعَالَىٰ-: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء:٨٢]، أي لو كان القُرآن من عند غير الله لابد أن يكون فيه خطأ، يقول بعض العُلَمَاء: هذا إعذار للمؤلفين؛ لأنَّ المؤلفين بشر، فإذا وَقَعَ فيهم الخطأ فقد أخبر الله عن ذلك، أصح الكُتُب بعد القُرآن صحيح البُخارِي، ومع ذلك انتُقِد فيه أحاديث، انتقدها العُلَمَاء الكبار، وبعضها أصابوا فيه، وبعضها ردُّ، وبَيَّنَ أراء البُخارِي في سَبَبَ إيراده لهذه الأحَادِيث الضَّعِيفَة، فالشاهد أننا عندما نسمع أن العَالِم لم يصب في مسألة أولاً: لا نستنكر، ثانيًا: لا ننقص من قيمته، فكلنا عالة علىٰ علمائنا القدماء، وعُلَمَاء المَالِكية والأحناف والشَّافِعِية والحنابلة عُلَمَاؤنا، هذا دينٌ واحد، هذا التقسيم تقسيم فني، وإلا فكلهم عِلْماؤنا نستقي منهم جميعًا، فما ينبغي أن يقول: أنا حنبلي، أنا شافعي، لك

أن تختار بعض المَذَاهِب فيما ليس فيها دليل، إنما فيها اجتهاد، فترىٰ أن قواعد الحنابلة مناسبة، أو قواعدَ الحنفية مناسبة، أو قواعدَ الشَّافِعِية مناسبةٌ، أمَّا الأدِلَّة فنأخذ القولَ الذي معه دليل من أي مَذهَب، وليس معناه أننا ننتقي الأقوال التي فيها تسهيل لنا، إنما نبحث عن المسألة التي صحَّ فيها الدَّلِيل، ولو قاله غير من نتمَذهَب علىٰ مَذهَبه، وهذا هو الذي سيكون في المستقبل بإذن الله؛ لَأنَّ الماضي كان عصور مذاهب وجماعات، الآن في كل مكان نهضة وعودة إلىٰ الأُصُول، أصحاب المَنْهَج أنفسهم يبحثون عن الدَّلِيل، لم يكن هذا من قبل موجوداً، هذه ظاهرة حديثة، في كل بلد تجِد الشباب المتدينين بدءوا يعودون إلىٰ البحث عن الدَّلِيل، ولكن سيبقىٰ أشخاص لم تأخذ هذه الظاهرة العامة، لكن بدأ في كل مكان في أصحاب المَذَاهِب البحث عما صح من الدَّلِيل؛ لَأنَّ المستقبل مستقبل الأُمَّة، ليس مستقبل مذاهب، الجماعات أدت دوراً، وهو المحافظة علىٰ وعي الأُمَّة وتنبيههم، فالأُمَّة انتبهت، فالآن ستعود إلىٰ ما كانت عليه، أمَّة واحدة بإذن الله.





قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ومنها: ظنهم أن لها خصوصيات بأنفسها في دفع البلاء وجلب النعماء، ويقولون إن البلاء يدفع عن أهل البُلْدَان بقُبُور من فيها من الصَّالِحين، ولا ريب أن هذا مخالف للكتاب والسُّنَّة والإجماع، فبيت المقدس كان عنده من قُبُور الأنْبِيَاء والصَّالِحين ما شاء الله، فلما عصوا الرَّسُول وخالفوا ما أمرهم الله به سلط الله عليهم من انتقم منهم، وكذلك أهل المدينة لما تغيروا بعض التغير جرىٰ عليهم عام الحرة من النهب والقتل وغير ذلك من المصائب ما لم يجر عليهم قبل ذلك، وهذا أكثر من أن يحصر.



الشَّرح

بعضُ الذين يعتقدون في الأموات يظنون أنَّ المَيِّت الصَّالِح يدفع عن البَلَدة الشرَّ، وصل بهم الأمر إلىٰ هذا الاعتقاد، فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ: بيتُ المقدس فيه أنبياءُ، ولكن لما وَقَعَت في هذه البَلَدةِ انحرافَات و معاصٍ عُوقبوا، ولم يُدفَع عنهم، وكذلك المدينة في عام الحرة استباحها الجيش الذي دخلها ثلاثة أيام، وكم قُتِلَ؟ وكم وَقَعَت في ذلك الوقت من أحداثٍ مؤلمةٍ؟ فليس هذا صحيحًا، ويُرَوَىٰ عن بعض القرىٰ في بعض بلاد المُسلِمِين أنهم دفنوا أربعة ممن يسمونهم أولياء، قد لا يكونون أولياء في كل اتجاه، في الشمال قَبْر، والجنوب قَبْر، وفي الشرق قَبْر، والغرب قَبْر قالوا: لعل هذه تحمي البَلَدة، وفي يومٍ من الأيام دخل اللصوص وسرقوا بعض أبقار أهل القرية، وهربوا من جهة قَبْرٍ من القُبُور، فغضب أهلُ القرية، وأطفئوا السُّرُجَ التي علىٰ القَبْر، قالوا: أنت ما حميت البَلَدة من اللصوص، والله لنطفِأنَّ السرج التي تنير علىٰ قَبْرك، وأطفئوها أسبوعًا تقريبًا، هذا الذي يعجز عن أن يوقد السراج علىٰ نفسه، أو ينفع نفسه أو يضرها، هل ينفع القرية؟

لكن الضلال إذا تمكن من القَلْب يعمي صاحبه، وإلا فلو تأملوا بعض التأمل عندما ناظر إبرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أصحاب الأصنَام، وقالوا: من فعل هذا بآلهتنا، فناظرهم، وقال: إنَّه كبيرُهم، ثُمَّ قال: اسألوهم، فنُكسوا علىٰ رءوسهم، فاعترفوا أن الأصنَام لا تنفع ولا تضر، لكنْ الحَميَّةُ للشرك والضلالة منعتهم من قبول الحق، فهكذا قد يتمكن الضلال من قلب إنسان، فيمنعه من رؤية الحق، وربما يعرف الحق لكن لا يعترفه، مثلا: العُلَمَاء الذين في البُلْدَان الإسلامية، ألم يقرءوا أحاديث النَّبِي ﷺ في لعن من بنىٰ القُبُور علىٰ المَسَاجِد، حتماً لابد أنهم قرءوها، مثلا في الباكستان والهند والدول الشرقية، يقرءون كُتُبَ السُّنَّة، فالسنَّة تقرأ في المدارس، ألم يمر عليهم أحاديث اللّعن والنَّهي؟ بلىٰ، ولم ينكروه، يقولون: محافظة علىٰ بقاء قلوب العامة!!، ألم يأت الأنْبِيَاءُ والناس مجتمِعون علىٰ الضلال، ودَعَوهم، فهذا عذرٌ قبيح من العَالِم!، أن يرىٰ المُنكَر ويعرف أنَّه مُنكَر، ويسكت عنه، هذا ليس له عند الله عذر، ولهذا عندما بعثَ النَّبي ﷺ بخطاب إلىٰ هرقل، فقال: فإن أعرضت فإن عليك إثم الإريسيين؛ لَأنَّ هرقل كان عالمـاً، والأريسيون هم الطبقة الدُّنيَا من التُّجَّار والمزارعين والعمال الذين ليس عندهم عِلْم، فإذا رأوا العَالِم يُقرُّ هذا المُنكَرَ انخدعوا به، فعُلَمَاءُ الضلال إذا سكتوا علىٰ أمر هم يعرفونه فَإنَّهم عند الله يحمِلون أوزارهم، وأوزار من ضَلُّوا، وهم يرون وبإمكانهم أن ينكِروا، لكن المحافظة علىٰ السلامة أحياناً تدفع العَالِم إلىٰ السكوت، وهذا ضعف في الإيمان.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومنها: الدخول في لعنة رَسُول الله ﷺ باتخاذ المَسَاجِد عليها وإيقاد السرج عليها.

ومنها: أن ذلك يتضمن عمارة المَشَاهِد، وخراب المَسَاجِد كما هو الواقع، ودين الله بضد ذلك.



الشَّرح

قوله: (الدخول في لعنة رَسُول الله ﷺ باتخاذ المَسَاجِد عليها) هذا من الآثار التي تنتج عن بناء المَسَاجِد علىٰ القُبُور أن أصحابها يشملهم لعن النَّبِي ﷺ.

قوله: (أن ذلك يتضمن عمارة المَشَاهِد وخراب المَسَاجِد) الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أذن أن ترفع المَسَاجِد، ولم يأذن أن تُبنىٰ مشاهدُ، بل حذر الشَّرع من هذا لكن إذا أقيمت المَشَاهِدُ تكون هي والمَسَاجِد علىٰ القُبُور معمورة أكثر من المَسَاجِد التي ليس فيها قُبُور، وقد زرنا بعض البُلْدَان الإسلامية، ورأينا في رمضان بعض المَسَاجِد التي فيها بعض الصَّالِحين كما يقولون مدفنين مفتوحة طوال الليل، وبقربهم مَسْجِد في أعرق جامع في بلاد المُسلِمِين، وليس فيه قَبْر ولا يفتح أحياناً في بعض الصلوات، وترىٰ أصحابَ العمائم يذهبون إلىٰ هذا القَبْر، ألا يتقون الله عَزَّ وَجَلَّ ، لكن هكذا ـ نعوذ بالله ـ المجاملات علىٰ حِسَاب دين الله، إن كانوا لم يقرءوا الحَديث هذه مُصيبة، كيف لم يقرأ شخص أحاديث البُخارِي ومسلم وهو عالمٌ؟، وإن قرأها وسكت فتلك مصيبةٌ أخرىٰ، وإن قرأها ولم يفهم فكيف يكون عالماً، ومع ذلك ترىٰ العُلَمَاء المُعممَّين يشاركون النَّاس في هذه البقاع التي فيها نهي عن وجودها وإيجادها ولا يتكلمون، وقيل إن بعضهم يقول: نحافظ علىٰ قلوبِ النَّاس!- نعوذ بالله-



ومنها: اجتماعهم لزيارتها واختلاط النِّسَاء بالرجال، وما يقع في ضمن ذلك من الفواحش وترك الصلوات، ويزعمون أن صاحب التربة تحملها عنهم، بل اشتهر أن البغايا يسقطن أجرتهن علىٰ البغاء في أيام زيارة المشايخ كالبدوي وغيره؛ تقربـًا إلىٰ الله بذلك، فهل بعد هذا في الكُفْر غاية!.

الشَّـرْح

يعتقدون أنَّ مَن زار الشيخ وتبرَّك بقَبْرِ الشيخ أو الولي يُسقِطُ عنه الذُّنُوبَ. بأي دليلٍ هذا؟ من رحمةِ الله أنَّه جعل للمسلمين أدلةً تُبينُ لهم الحقَ والبَاطِل والصوابَ والخطأَ، وتعهد بحفظها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما قال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ [الحجر:٩]. هذا الذِّكر هو دليل الرِّسَالَة، وأدلة الأحكام في داخل الرِّسَالَة، والله تعهد بحفظه إلىٰ يَومَ القِيَامَة، فالقُرآن الكَرِيم والسُّنَّة النبوية حفظها الله عَزَّ وَجَلَّ، فهي تبقىٰ مناراً للمسلم طوال حياته، فهذه الأُصُول ليس فيها أن زيارة القَبْر ترفع أو تؤدي إلىٰ تكفير الخطايا، بل الأحَادِيث تلعنُ من يفعلها، أصحاب الفواحش يُحِبُّون، حتىٰ بعض الذين يقيمون المولد النبوي يعتقدون أنَّه يُكفِّر السَّنة الماضية، أين الدَّلِيل؟ هذا غرور من الشَّيطَان ـ نعوذ بالله ـ، فهو يبتدع ويعتقد أنَّ البِدعَة تمسح ما لم يمسحه كثير من العِبَادَات المشروعة، فهذا ضلال، اعتقادُ سلامةِ العمل، ثُمَّ اعتقادُ الأجرِ المُرتَّبُ علىٰ هذا العمل ؛بِدعَةٌ مركبةٌ وجهلٌ مركبٌ.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ومنها: كسوتها بالثياب النفيسة المنسوجة بالحرير والذهب والفضة ونحو ذلك، ومنها: جعل الخزائن والأموال ووقف الوقوف لما يحتاج إليه من ترميمها ونحو ذلك، ومنها: إهداء الأموال ونذر النذور ولسدنتها العاكفين عليها، الذين هم أصل كل بلية وكفر، فَإِنَّهم الذين يكذبون علىٰ الجهال والطغام، بِأَنَّ فلاناً دعا صاحب التربة فأجابه، واستغاثه فأغاثه، ومرادهم بذلك تكثير النذر والهدايا لهم.

الشَّرْح

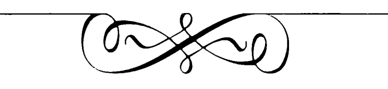
قد ذكرنا أن في بعض البُلْدَان الإسلامية جعلوا القُبُور مَوْرَدَاً اقتصادياً، فهناك مئات المَسَاجِد التي أقيمت علىٰ قُبُور، ويأتي إليها ألوف النَّاس بالهدايا والأموال، والسدنة كانوا يأخذونها، والدولة كانت تشرف عليها، لكن لا يأتيها المبالغ التي توضع في هذا المكان، فسلَّمت القُبُورَ لشركة مُناقَصةً، والشِّرْكة استثمارية تريد المال، فتأتي اليوم عند هذا القَبْر بإنسان كفيف في الظاهر، ويبقىٰ يتمسَّح به شهراً، ثُمَّ إذا به يُبصر، فيُعلَم أنَّ فلان بن فلان جاء يوم كذا من المكان الفلاني وهو كفيفٌ وأصبح مُبصراً، وتأتي امرأةٌ إلىٰ مكان آخر لم تكن تحمل، وبعد شهرين تجدها حاملاً، وهي حاملُ في الأساس، فالناس مساكين ينخدعون ويأتون بالأموال، تدفع الشِّرْكة خمسين مليوناً مثلاً للدولة ويأتيها ما لا يقل عن مائتي مليون، وهكذا تغريرٌ بالأُمَّة بصورةٍ منظمةٍ، بعضُ النَّصارىٰ أو اليَهُود يُسلِمون في الظاهر، وهم كذبة ويأتون إلىٰ قَبْر من القُبُور، فيزعمون أنَّ هذا القَبْر جاءوا إليه مرَّة فشفوا، وقصدهم تعميق مَحَبَة القُبُور في قلوبِ المُسلِمين، وكم يحدث من هذه الأشياء في القُبُور في بلاد العَالِم الإسلامي، ويوجد من العُلَمَاء من يُدرك أن هذا خطأ، لكن كما قال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: أنَّه لا يُغار لهذا كثيرٌ ممن لهم سُلطة عِلْمية، أو سُلطة دنيوية.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومنها: جعل السدنة لها كسدنة عباد الأصنَام، ومنها: الإقسام علىٰ الله في الدُّعَاء بالمدفون فيها، ومنها: أن كثيراً من الزوار إذا رأىٰ البناء الذي علىٰ قَبْر صاحب التربة سجد له، ولا ريب أن هذا كفر بنص الكِتَاب والسُّنَّة وإجماع الأُمَّة، بل هذا هو عِبَادَة الأوثان؛ لأنَّ السجود للقُبَّة عِبَادَة لها، وهو من جنس عِبَادَة النَّصارَىٰ للصور التي في كنائسهم علىٰ صور من يعبدونه بزعمهم البَاطِل، فَإِنَّهم عبدوها ومن هي صورته، وكذلك عباد القُبُور لما بنوا القباب علىٰ القُبُور آل بهم إلىٰ أن عبدت القباب ومن بنيت عليه من دون الله عَزَّ وَجَلَّ.

الشَّرْح

هذه القُبُور تعظم، والذي يأتي إليها من مكان بعيد ويسمع عن آثار الشيخ الولي وما انتفع به من النَّاس، وأنَّ الولي يعرِف من يزوره ويعرِف من يأتيه كل هذا يجعل الذي يأتي إلىٰ القَبْر يأتي خائفاً، فيضعون علىٰ القَبْر الزهور والورود والهيبة العامة، فالإنسَان الذي يأتي ضعيف إذا رأىٰ الهيلمان حول هذا القَبْر يقع في قلبه الخُشوع فيسجد، حتىٰ وإن كان سجد لله لكن هذه الصُّوَرة شرك، وكُفر؛ لَأنَّ السجود للقُبُور أو السُجود لغير الله كُفر - نعوذ بالله -، هذه من آثار تعظيم القُبُور وبناء المَسَاجِد عليها.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومنها: النذر للمدفون فيها، وفرض نصيب من المال والولد، وهذا هو الذي قال الله فيه: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ﴾ [الأنعام:١٣٦]، بل هذا أبلغ، فإن المُشرِكين ما كانوا يبيعون أولادهم لأوثانهم.

ومنها: أن المدفون فيها أعظم في قلوب عباد القُبُور من الله وأخوف، ولهذا لو طلبت من أحدهم اليمين بالله -تَعَالَىٰ- أعطاك ما شئت من الأيمان كاذبًا أو صادقًا، وإذا طلبت بصاحب التربة لم يقدم إن كان كاذبًا، ولا ريب أن عباد الأوثان ما بلغ شركهم إلىٰ هذا الحَد، بل كانوا إذا أرادوا تغليظ اليمين غلظوها بالله كما في قصة القسامة وغيرها.



الشَّرْح

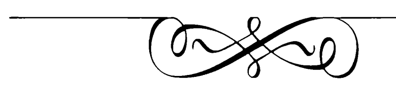
قوله: (ومنها: النذر للمدفون فيها) بعض الأُسر تنذُر أنها إذا جاءها ولد أن تجعله خادمًا لهذا القَبْر، وهذا غير معروف في الإسلام، نَذرُ الأولادِ للمَسَاجِد أو للكعَبة غير معروف في الإسلام لكن يبلغ ببعضِهم تعظيمُ هذا القَبْر -خَاصَّة من كان زوجتُه لا تلِد- ينذرُ أنَّه إن جاء له ولدٌ يجعله خادمًا لهذا القَبْرِ، وهذا مُنكَر وضَلال.

قوله: (ومنها: أن المدفون فيها أعظم في قلوب عباد القُبُور من الله وأخوف) يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ " إنَّ الذين يُعظِّمون القُبُور لو اختلف مع إنسان في حق فقيل له احلف بالله وهو كاذب لحلف بالله كاذبًا، لكن لو قيل: احلف بالولي فلان لا يحلف"، وهذه وقائع كثيرة يذكرها بعض المؤلفين، ويذكر كتاب (معارج

الألباب) قصة وَقَعَت في جدة بين تاجر واحد الاشخاص، فعندما كان في جدة قَبْر معين لبعض الأَوْلِيَاء اختلف مع شخص في مال، فقيل له: احلف بالله، فحلف، فقيل: احلف بالسيد فلان فامتنع، فتعظيم الإنسَان المَيِّت في قلبه أعظمُ من الله.

يقول الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهذا لم يكن في قُرَيْش وهم عُبَّادُ أصنام، ويذكر قصة القَسامة التي مَرَّت أكثر من مرة، وهي قصةٌ مشهورة عن ابن عَبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، أن صاحب إبل استأجر شخصاً من قُرَيْش، ليرعىٰ معه إبله، فخرجوا بطلب الرعي، وفي الطريق كان كل جمل له عقال يعقل به، فمرَّ عند هذا الراعي شخص معه بَعير عليه طعام، فقال: يا فلان هل عندك من حبل حتىٰ أربط به هذا الطعام علىٰ جَملي، فقال: ما عندي إلا عقالُ بعيرٍ واحد، خذه فأعطاه، فجاء صاحب الإبل فرأىٰ جميع الإبل معقلة إلا جملاً، فقال: أين عقاله؟ فقال: أعطيته فلاناً، فغضب عليه وأخذ عصاً في رأسها حربة، فرماه فوَقَعَت في مقتل فسقط، فتركَه وذهب بالإبل، فمرَّ عليه شخص فقال: أنا فلان بن فلان أبلِغ عَبدَ المُطَّلِب في قُرَيْش أنَّ هذا فلاناً قتلني، قال: فبقي عنده حتىٰ مات ثُمَّ واراه ودفنَه وذهب، وكان عَبدُ المُطَّلِب قد ذهب عند صاحب الإبلِ عندما رجع قبل أن يأتي هذا الُمخبر، فسأل صاحب الإبل: أين صاحبُنا؟، قال: مرض فمرضته حتىٰ توفي ودفنته في الطريق، فعندما جاءه هذا المخبر في الحجِّ جاء إلىٰ صاحب الإبل وقال: أنت قتلت صاحبنا، قال: ما قتلته، فقال: نطلب منكم خمسين يميناً أو تدفعون مائةً من الإبل مقابل كلِّ يمين بعيرين، فرفض أن يدفعَ الجمالَ، فاستعدَّت القبيلةُ أن تحلِف، فجاءت إحدىٰ النِّسَاء إلىٰ عَبد المُطَّلِب قالت: ابني من هذه القبيلةِ، وأنا أفتدي ابني بجملين حتىٰ لا يحلِف، هذان جملان عن يمين ابني، وجاء شخص ثان بنفس الطريقة، وبقي ثمانية

وأربعون شخصًا، فاجتمعوا وأقسموا بالله أن صاحبَنا لم يَقتُل صاحبكم، وهذا في صحيح البُخارِي، يقول ابن عَبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: والله ما مرَّ عليهم عام كامل وفيهم عين تطرف، هلكوا جميعًا باليمين الفاجِرة، فيقول المؤلف: إن هذه قصة يستشهد بها أن قُرَيْشًا في أعظم أمورها ما تحلف بالأصنَام، ما حلفوا بهبل، ولا باللات، ولا بالعزىٰ، حلفوا بالله، لكن عُبَّادُ القُبُور اليوم يحلف بالله كاذبًا، ويعظم أن يحلف بصاحب القَبْر إذا كان كاذبًا، هذا ـ نعوذ بالله ـ أشد من شرك الأولين.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

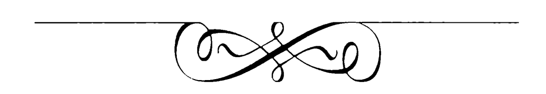
ومنها: سؤال المَيِّت قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، والإخلاص له من دون الله في أكثر الحالات.

ومنها: التضرع عند مصارع الأموات، والبكاء بالهيبة والخشوع لمن فيها، أعظم مما يفعلونه مع الله في المَسَاجِد والصلوات، ومنها: تفضيلها علىٰ خير البقاع وأحبها إلىٰ الله وهي المَسَاجِد، فيعتقدون أن العِبَادَة والعكوف فيها أفضل من العِبَادَة والعكوف في المَسَاجِد، وهذا أمر ما بلغ إليه شرك الأولين، فَإِنَّهم يعظمون المَسْجِد الحرام أعظم من بيوت الأصنَام، يرون فضله عليها، وهؤلاء يرون العكوف في المَشَاهِد أفضل من العكوف في المَسَاجِد.



قوله: (ومنها سؤال المَيِّت قضاء الحاجات) إذا تعلَّق القَلْب بصاحب القَبْر دعوه لحوائجهم وسألوه حوائجَهم، ويستمر في هذا الحال.

قوله: (ومنها التضرع عند مصارع الأموات ..) فالمَسَاجِد التي فيها قُبُور لا تقفل أبوابُها، بل رأينا في بعض مَسَاجِد المُسلِمِين من هذا النوع مما اشتهر بتعظيمه أنَّه يُهدىٰ له منابر من المُطعَّمة بالفضة من غير المُسلِمِين، فإن الإسماعيلية في الهند بعثوا إلىٰ بعض المَسَاجِد التي فيها قَبْر بمنبر مُطعَّم بالفضة، وهؤلاء محسوبون علىٰ المُسلِمِين وليسوا من المُسلِمِين، فالشاهد أنَّ هذه المَسَاجِد تُعظَّم، وتعمَّر، ويخضع فيها النَّاس أكثر من المَسَاجِد التي ليس فيها قَبْر، وهذا ـ نعوذ بالله ـ مُحادَّة لله ورسوله.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومنها: أن الذي شرعه الرَّسُول ﷺ في زيارة القُبُور إنما هو تذكرة الآخِرَة، كما قال: (زوروا القُبُور فَإِنَّها تذكركم الآخِرَة)، والإحسان إلىٰ المزور بالترحم عليه والدُّعَاء له والاستِغفَار، وسؤال العافية له، فيكون الزائر محسنًا إلىٰ نفسه وإلىٰ المَيِّت، فقلب عباد القُبُور الأمر وعكسوا الدين، وجعلوا المقصود بالزيارة الشِّرْك بالمَيِّت ودعاءه والدُّعَاء به، وسؤاله حوائجهم ونصرهم علىٰ الأعداء ونحو ذلك، فصاروا مسيئين إلىٰ نفوسهم وإلىٰ المَيِّت ولو لم يكن إلا بحرمانه بركة ما شرعه الله من الدُّعَاء والترحم عليه والاستِغفَار له.

ومنها: إيذاء أصحابها بما يفعله عباد القُبُور بها، فَإِنَّه يؤذيهم ما يفعلونه عند قُبُورهم ويكرهونه غاية الكَرَاهَة، كما أن المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يكره ما يفعله النَّصارَىٰ، وكذلك غيره من الأَنبِيَاء والأولياء يؤذيهم ما يفعله أشباه النَّصارَىٰ عند قُبُورهم، ويوم القِيَامَة يتبرؤون منهم كما قال -تَعَالَىٰ-: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ۝٦ ﴾ [الأحقاف:٥، ٦].

ومنها: محادة الله ورسوله ومناقضة ما شرعه فيها، ومنها: التعب العظيم مع الوزر الكبير والإثم العظيم.

وكل هذه المفاسد العظيمة وغيرها مما لم يذكر إنما حدثت بسَبَبَ البناء علىٰ القُبُور؛ ولهذا تجد القُبُور التي ليس عليها قباب لا يأتيها أحد، ولا يعتادها لشيء مما ذكر إلا ما شاء الله، وصاحب الشَّرع أَعلَم بما يؤول إليه هذا الأمر، فلذلك غلظ فيه وأبدأ وأعاد، ولعن من فعله، فالخير والهدىٰ في طاعته، والشر والضلال في معصيته ومخالفته، والعجب ممن يشاهد هذه المفاسد العظيمة عند القُبُور، ثُمَّ يظن أن النَّبِي ﷺ إنما نهىٰ عن اتخاذ المَسَاجِد عليها لأجل

النَّجَاسَة، كما يظنه بعض متأخري الفُقَهَاء، ولو كان ذلك لأجل النَّجَاسَة لكان ذكر المجازر والحشوش، بل ذكر التحرز من البول والغائط أولىٰ، وإنما ذلك لأجل نجاسةالشِّرْك التي وَقَعَت من عباد القُبُور لما خالفوا ذلك، فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنًا قليلاً، فبئس ما يشترون.



الشَّرح

قوله: (شرعه الرَّسُول ﷺ في زيارة القُبُور إنما هو تذكرة الآخِرَة) هو المشروع في الدِّين أن نزور القُبُور لندعو لهم ونتذكر الآخِرَة، لا لندعو أصحابها ونَتبرَّك بهم.

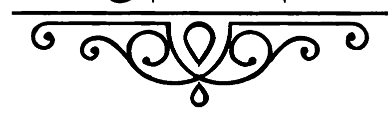
قوله: (والإحسان إلىٰ المزور بالترحم عليه والدُّعَاء له والاستِغفَار) أي: الشَّارِع أمر أن نزور القُبُور لتذكر الآخِرَة والدُّعَاء لأصحابها، وهؤلاء عكسوا، زاروا القُبُور لدعاءِ أصحابها أو سؤال الله بهم، فَإنَّهم يُقسمون علىٰ الله بجاه هؤلاء الصَّالِحين، وهذا يحرمُهم من بركةَ ما شرعه الله ﷻ، من زيارة القُبُور لتذكر الآخِرَة والدُّعَاء لأصحابها.

قوله: (ومنها إيذاء أصحابها بما يفعله عباد القُبُور بها) نحن نعتقد ولا شك أنَّه هو الصَّحِيح أنَّ الأموات الصَّالِحين لا يرضون بهذا العمل؛ لَأنَّ هذا العمل شرك، فيؤذي الصَّالِحين أن تُشركَ بهم مع الله ﷻ، ولهذا ذكر - سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - أنَّ الذين أشركوا بهم يَومَ القِيَامَة يتبرءون ممن أشرك بهم مع الله ﷻ.

قوله: (ومنها محادة الله ورسوله ومناقضة ما شرعه فيها....) هذه بعض المفاسد التي تنتج من مخالفة الشَّرع، فالشَّرع حرَّم بناء المَسَاجِد علىٰ القُبُور، فعندما عصينا وبنينا المَسَاجِد علىٰ القُبُور نتجَ عنها هذه المفاسد الشِّرْكية، لكن بعضُ العُلَمَاء رَحِمَهُمُ اللَّهُ من الفُقَهَاء المُتأخرين أخطأ في فَهم الحِكمَة التي من أجلها جاء النَّهي عن بناء المَسَاجِد علىٰ القُبُور، فكثير من النَّاس يقع في خطأ

إذا لم يعرف المقصَد من التشريع، فجاءت الأحَادِيث تشدِّدُ في النَّهي عن بناء المَسَاجِد علىٰ القُبُور، بِلعنِ من فعل والتحذير وبيان أنهم شِرار النَّاس إلىٰ غير ذلك من الأساليب، بعضهم ظَنَّ أَنَّ هذا لأجل النَّجَاسَة، فردَّ عليهم أولاً: لم يذكر في النَّصوص الشَّرعية كلمة النَّجَاسَة، ثانياً: أن قُبُور الأنْبِيَاء طاهرة؛ لأنَّ أجساد الأنْبِيَاء طاهرة، وأجساد الأنْبِيَاء لا تأكلها الأَرض، ليس فيها صديد حتىٰ يطلع علىٰ التربة ونحو ذلك، فكيف عرفتم أن السَبَبَ في هذه الأحَادِيث هو النَّجَاسَة؟، وهذا مما أخطأ فيه بعض الفُقَهَاء المتأخرين بل وبعض الأوائل كما مرَّ من أقوالِ الأئمة في تحريم الصَّلَاة في القُبُور، بعض العُلَمَاء يقول: إن كانت القُبُور غير منبوشة تجوز فيها الصَّلَاة كالشَّافِعِية، وهذا يـرَوَىٰ عن الشَّافِعِي رَحِمَهُ اللَّهُ نفسه، وهذا عجَبٌ!! لأنَّ النَّصوص الشَّرعية شديدة جداً في هذا الامر.

فالشاهد: أنَّه قد يُخطِئ العَالِم المقصدَ من الحكمِ، فيفهمَ منه فهماً آخر، لكن العَالِم معذور إذا أخطأ في فهم المُرَاد من النَّص، لكنه يُنبَّه علىٰ خطئِه، ولا يُشنَّع عليه، وإلا فما من عالم من عُلَمَاء المُسلِمِين إلا وقد خالفَ نصاً أو نصوصاً، والمتتبعُ لأقوالِ الفُقَهَاء في كُتُب الفقهِ الإسلامي يرىٰ هذا واضحاً، من يقرأ المجموع للنووي يراه واضحاً، من يقرأ في(المغني) لابن قُدَامة يرىٰ هذا واضحاً، فَإنَّه لا تجد مسألة من مسائل الفروع إلا وفيها خلاف، وبعض الخلاف مخالفٌ للنص، لكن لم يرد لهذا الفقيه أو العَالِم مخالفة النَّص، إنما له عذر في المخالفة ؛ لعدم صحة النَّص عنده، أو لفهمه منه غيرَ المُرَاد، أو لبعض العلَل التي تحدث للمُجتهد، فينبَّه علىٰ خطأ العَالِم لكن لا يُشنَّع عليه، هذا هو مَنْهَج المسلم أن ينظر إلىٰ أخطاء الآخرين علىٰ أنها أخطاء وَقَعَت عن اجتهاد، فيغفر الله لهم اجتهادهم مع التنبيه علىٰ خطئهم.





٢٠

باب: ما جاء أن الغُلُوِ في قُبُورِ الصَّالِحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله

قال المؤلف رحمه الله:

ش: أراد المصنف رحمه الله بهذه الترجمة أموراً:

الأول: التحذير من الغُلُو في قُبُور الصَّالِحين. الثاني: أن الغُلُو فيها يؤول إلىٰ عبادتها. الثالث: أنها إذا عبدت سميت أوثانـًا ولو كانت قُبُور الصَّالِحين. الرابع: التنبيه علىٰ العِلَّة في المنع من البناء عليها واتخاذها مَسَاجِد.

والأوثـان هـي المعبـودات التـي لا صـورة لهـا كـالقُبُور والأشـجار والعمـد والحيطان والأحجـار ونحوهـا، وقـد تقـدم بيـان ذلـك، وقيـل: الـوثن هـو الصـنم والصـنم هـو الـوثن، وهـذا غيـر صـحيح إلا مـع التجريـد، فأحـدهما قـد يعنـىٰ بـه الآخر، وأما مع الاقتران فيفسر كل واحد بمعناه.



الشَّرْح

هذا هو البابُ العشرون من أبواب الكِتَاب، وهـو يبيـن مـا ينـتج عـن عِبَادَة القَبْر، فإن القَبْر يصبح وثنـًا إذا عبد من دون الله ولو كـان صـاحبه صـالحـًا، ولـو كان نبيـًا، يصبح وثنـًا لمن عبده، لا أنَّه هو نفسـه يُصبح وثنـًا يسـتحق العقـاب، فالقَبْرُ ليس له ذنبٌ، كما أنَّ الأشجار والأحجار والأبقار التي عبـدت مـن دون

الله ليس لها ذنب، الذنب ذنبُ العابِد، وهذا وثن بالنسبة لمن فعل، ليس بالنسبة إلىٰ الشيء الذي عُبدَ من دون الله كما سيأتي في حديث النَّبِي ﷺ أنَّه قال: (**اللهم لا تجعل قَبْري وثنًا يُعبد**)(١) فهو يُبَين أنَّ الذي يعبد من دون الله وثن، ويسأل الله أن لا يجعل قَبْره وثنًا، وقد حمىٰ الله قَبْره الشريف، فلم يُحفَظ أنَّه عُبد من دون الله مع أن قُبُور كثير من أتباعه عُبِدت من دون الله، واتُخذَت معبودات يَتبرَّكون بها ويدعُون أصحابها ويطوفون حولها، ولكن الله حمىٰ قَبْره الشريف من أن يكون وثنًا يعبد.

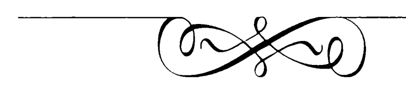
قوله: (**التنبيه علىٰ العِلَّة في المنع من البناء عليها واتخاذها مَسَاجِد**) العِلَّة بمَعنَىٰ الحِكمَة، أي: لماذا شرع الله كذا؟، العِلَّة قد تظهر من النَّص، وقد لا تظهر، مثلا ما هو الحِكمَة من التيَمُّم؟، قد لا تظهر الحِكمَة لكثير من النَّاس، وقد تظهر لبعض النَّاس، وقد يعلل شخص بغير التعليل، فالعِلَّةُ التي تظهر من النَّصوص الشَّرعية في النَّهي عن اتخاذ القُبُور مَسَاجِد واضحة وهي الشِّرْك بها، وحديث (اللهم لا تجعل قَبْري وثنا يعبد) دل علىٰ أن النَّهي عن البناء علىٰ القُبُور أو تعظيم القُبُور ألا تكون أوثانًا، فأحيانًا النَّص يفهم منه المُرَاد منه والعِلَّة.

قوله: (**والأوثان هي المعبودات التي لا صورة...**) هذا من حيث المَعنَىٰ اللغوي، ما الفرق بين الوثَن والصنم؟ من العُلَمَاء من يرىٰ أن مَعنَىٰ الوثن هو نفسه مَعنَىٰ الصنَم، ومنهم من يُفرِّق يقول: الوثَنُ كلُّ ما عُبِد من دون الله، سواء كانت له صورةٌ أو لم تكن له صورةٌ، وأمَّا الصنمُ فهو خاصٌ بالمُجسَّمات،

---

(١) سبق تخريجه.

بالتماثيلِ التي تكون مصورةً علىٰ شكل مخلوقٌ حيٍّ إمَّا إنسان أو أسد أو بقر، فهذا يُسمىٰ صنمًا، لكنَّ الوثَنَ أشملُ، فهنا يقول رَحِمَهُ اللهُ أنَّه إذا جاء ذكرُ الوثَن والصنم؛ فبينهما فرقٌ، أي: مثل ما يذكر الإيمان والإسلام في نص واحد، لكن إذا أُطلِق الوثن دخَل فيه الصنم، وإذا ذكر الصنم دخل فيه الوثن، فقال: كلاهما بمَعنَىٰ واحد إذا تفرَّقا.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:

قال: رَوَىٰ مَالِك في المُوطَّأ: أن رَسُول الله ﷺ قال: (اللهم لا تجعل قَبْري وثنًا يعبد، اشتد غضب الله علىٰ قوم اتخذوا قُبُور أنبيائهم مَسَاجِد)

ش: هذا الحَديث رواه مَالِك في باب جامع الصَّلَاة مُرسَلاً، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار أن رَسُول الله ﷺ قاله، ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه عن أبي خالد الأحمر، عن ابن عجلان عن زيد بن أسلم به، ولم يذكر عطاء، ورواه البزار عن عُمَر ابن مُحمَّد عن زيد عن عطاء عن أبي سعيد الخدري مرفوعًا، وعُمَر بن مُحمَّد بن زيد بن عبدالله بن عُمَر بن الخطاب ثقة من أشراف أهل المدينة، رَوَىٰ عنه مَالِك والثوري وسليمان بن بلال، فالحَديث صحيح عند من يحتج بمراسيل الثقات، وعند من قال بالمسند لإسناد عُمَر بن مُحمَّد له بلفظ المُوطَّأ سواء، وهو ممن تقبل زيادته.

الشَّرْح

ذكر رَحِمَهُ اللهُ هذا الحَديث وعزاه إلىٰ المُوطَّأ، والمُوطَّأ للإمام مَالِك رَحِمَهُ اللهُ معروف ومشهور، ثُمَّ ذكر الطُّرُق، فذكر له ثلاث طُرق، الأُولَىٰ- طريق مَالِك بن أنس رَحِمَهُ اللهُ، فَإِنَّه رواه عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن النَّبي ﷺ، وهذا مُرسَل؛ لأَنَّ عطاء بن يسار ليس صحابيًا، ثُمَّ قال: وَرَدَ هذا الحَديث بثلاث صور، صورة ليس فيها بين زيد بن أسلم وبين النَّبي ﷺ أحد، فسقط منها راويان، وهذه رواها ابن أبي شيبة، وصورة بين زيد بن أبي أسلم وبين النَّبيِّ ﷺ شخصٌ واحد وهو عطاء بن يسار، وهذه في المُوطَّأ، وصورة فيها ثلاثة أشخاص، زيد بن أسلم عن عطاء عن أبي سعيد الخدري، هذا يسمىٰ

اضطراباً في السَّنَد، أي زيد بن أسلم اضطرب في رواية الحَديث، مرة ذكر الحَديث مباشرة، ومرة أسنَدَه إلىٰ تابعي، ومرة أسنَدَه إلىٰ تابعي عن صحابي، فهذا الاضطراب في السَّنَد يضعف الحَديث، أي يدل علىٰ أنَّه الرَّاوِي لم يحفظ، فمَالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يروه متصلاً، إنما رواه منقطعاً مُرسَلاً، فالرّواة ثقات، لكن هذا الإرسال يُضَعِّفُ الحَديثَ، فَإنَّه إذا سقط الرَّاوِي الصَّحَابِي لا ندري هل التابعي رَوَىٰ عن تابعي آخر ضَعيفٍ؟ هذا يجعلنا نتوقف في قبوله.

لكن يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنَّ هذا مَقبول عند من يَقبَلُ المراسيلَ، وهذا كان في الماضي، لكن المتأخرين قالوا: إن المُرسَل لا يُقبَل؛ لَأنَّ فيه مجهولاً، أي: لا ندري عمَّن يرويه التابعي، وهذا هو الصَّحِيح، إذا كان الُمسَند لا يُقبل إلا بعد فحص رواته وإذا كان فيهم شخص مجهول العين أو مجهول الحال يُردُّ، فكيف بمن يكون مجهولَ العينِ والحال؟ فمن حيث السَّنَد وَرَدَ له ثلاثُ صثور، بعض العُلَمَاء يُحسنَه خَاصَّة عندما يأتي شاهد له عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في الُمسَند أنَّه يشهد لهذا الحَديث؛ لأنه بمعناه، فقال: هذه بعضُها يقوي بعضاً. وإن لم تكن هذه قاعدة عامة، فكثرة الطُّرُق لا تُقوي بعضها بعضاً في كثير من المواطن. فإن بعض العُلَمَاء يذكر للحديث عدة مخارج :خمس طرق ست طرق، عشر طرق، وكلها تكون ضعيفة مردودة، وخاصة إذا قابلت الأحَادِيث الصَّحِيحة، لكن هذا الحديث في ظاهرِه إن شاء الله موصولٌ وحسنٌ.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وله شاهد عند الإمام أحمد والعقيلي من طريق سفيان عن حمزة بن المغيرة عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رفعه: (اللهم لاتجعل قَبْري وثنـًا يعبد، لعن الله قومـًا اتخذوا قُبُور أنبيائهم مَسَاجِد).

قوله: (رَوَىٰ مَالِك في المُوطَّأ) هـو الإمـام مَالِـك بـن أنس بـن مَالِـك بـن أبـي عامر بن عُمَر الأصبحي أبو عبدالله المدني الفقيه، إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة، وأحد المتقنين في الحَديث، حتىٰ قال البُخارِي أصح الأسانيد كلها مَالِك عن نافع عن ابن عُمَر، مات سنة تسع وسبعين ومائة، وكان مولده سنة ثلاث وتسعين وقال الواقدي: بلغ تسعين سنة.



الشَّرْح

قوله: (وله شاهد عند الإمام أحمد..) هذا الحَديث جاء من سند آخر، وهو يشهد لما تقدم من حديث مَالِك في موطئه.

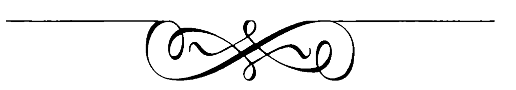
قوله: (هو الإمام مَالِك بن أنس بن مَالِك..) هـذه ترجمـة لـراوي الحَـديث الإمام مَالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، مَالِك بن أنس هو أحد الأئمة الأربعة، ويأتي في الترتيب بعد أبي حنيفة، أبو حنيفة قد سبقَه في الولادة والموت، ثُمَّ جاء بعده مَالِك، وبعد مَالِك الشَّافِعِي، وبعد الشَّافِعِي أحمد رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، هكذا ترتيبهم في الزمن، فمَالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ إمامٌ عَدلٌ مشهور، وله كلام ومواقف جميلة، بعضها أصبحت عمدَّة لأهل السُّنَّة والجماعة، خَاصَّة فيما يتعلق بالأسمَاء والصفات، فكان رده علىٰ من سأله علىٰ الاستواء أصبح قاعدة لأهل السنة، وهو كلام في غاية الجودة والدقة، وكما قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه من صدَق واتقىٰ نطقَ بالحِكمَة، فكلامه حكمة،

وهو قوله: " الاستواء معلوم، والكَيْفُ مجهولٌ، والإيمان به واجبٌ، والسؤال عنه بِدعَة " ، أربع كلمات تكْتُب بماء الذهب، الاستواء معلوم، أي: معلوم معناه في اللغة، وليس المُرَاد معناه أنَّه معلوم صح في الحَديث أو في القُرآن والسُّنَّة، إنما أراد أن معناه معلوم، لكن الذي لا يُعِلْم الكَيْف، فأصبحت قاعدة لأهل السُّنَّة في جميع الغيبيات، فالمَعنَىٰ اللغوي للذي وَرَدَ في القُرآن والسُّنَّة معروف، لكن الذي لا نعرفه هو الكَيْف؛ لأنه يتعلق بالغيب.

والإنسَان يصعب عليه أن ينفك من ذهنه الفرق، تفريق المَعنَىٰ عن الكَيْف يصعب جداًّ، لكن ينبغي أن نعود أنفسنا، وإلا فكل إنسان يقع في ذهنه وصف الله بأنه مثل خلقه عندما يقرأ صفات الله، لكن هذا مدفوع بالنَّص؛ لَأنَّ الله قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١]. ويصعُب عليه أن ينفَك، سيبقىٰ في ذهنه شيء، لذا فهو مما يُعفىٰ عنه، ويجب أن تعتقد أن أسماء الله وصِفَاتِه وذاته ليست كأسماء المخلوق ولا كصِفَاتِهم، ولا كذواتهم. فالمَعنَىٰ في لغة العرب لجميع ما جاء في القُرآن والسُّنَّة معروفٌ، والاستواء في اللغة معروف، واليد في اللغة معروفة، والوجه في اللغة معروف، لكن لا نعرف الكَيْفَ، أمَّا المخلوق فنعرف فيه المَعنَىٰ والكَيْف، فنعرف في الخَالِق جانبـًا من اللَّفْظ ولا نعرف جانبـًا آخر، ولهذا قال ابن تَيمِيَة رَحِمَهُ اللَّهُ في (التدمُرية): إنَّا نَعلمُ بعضَ ما أخبرنا به، ولا نعِلْم بعضَ ما أخبرنا به. أي نفسُ كلام مَالِك رَحِمَهُ اللَّهُ، الاستواء معلوم، أي:الصفات والغيبيات معناها التي وَرَدَت بها الألفاظ معروفة، لكن الكَيْفية مجهولة.

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يكره الجدلَ حتىٰ قال: الجدال في الدِّين ينشيء المراء ويطفئ نور العِلْم من القَلْب، ويُقسِّي ويورث الضغن، والمِراء أن يأتي شخصان في قضية ويبقيان يتجادلان، ينتهيان إلىٰ المراء، إلىٰ الجدال ثُمَّ إلىٰ خسارة

القَلْب، ثُمَّ إلىٰ العَدَاوَة، ما تكاد تجد شخصين يتناقشان في قضية ويكثران فيها إلا وينتج عنه عداء، ربما يلتزم بعضهم لوازم باطلة، أو يصر علىٰ موقفه وهو يعلم أنَّه باطل، ما الذي دفعه؟ المراء، وأذكر قصة: كنا ندرس في الجامعة وكان معنا شابان مغربيان، أحدهما علىٰ مَذهَب السلف، والثاني مَالِكي متعصب، فأربع سنوات لا نكاد نخرج للفسح إلا وهما يتناظران في الإسبال والضم؛ لَأنَّ المَالِكية يُسبلون، وهذا خلاف ما في المُوطَّأ، وخلاف ما جاءت به النَّصوص الصَّحِيحة، هذا يأتي بأحاديث ضعيفة من كُتُب مغمورة لا ندري من أين هذه الكُتُب؟، وهذا يأتي بما يعرفه من أحاديث، وترىٰ الطلبة بعد كل فسحة يتناقشان ويجتمع الطلبة عليهما، أربع سنوات لم ينتهيا من الجدال؛ لَأنَّ المراء إذا دخل في شيء وأصبح عناداً يتخذه الشَّخص موقِفًا، ربما قد يظهر له الحق، ولهذا لما سئل الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا كنتُ في مجلس وفيه بِدعَة ماذا أصنع؟ قال أَخبرْهم بالسنة، قال: ثُمَّ ماذا؟ قال: ثُمَّ تسكُت، لا تدخل في حوار وفي صراع؛ لأنك تدفع الذي يواجهك إلىٰ التمسك بالبِدعَة والبحث عن أدلَّة، ولن يعدم، سيجد في كلام المخالفين أدلَّة، فمَالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: المراء في الدِّين يقسي القَلْب، والجدال في الدِّين ينشئ المراء، ويذهب نور العِلْم، ويُقسي ويورث الضغائن، فهذا من كلامه، وهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما كان يجادل.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:

قوله: (اللهم لا تجعل قَبْري وثنًا يعبد) قد استجاب الله دعاء رسوله ﷺ، فمنع النَّاس من الوصول إلىٰ قَبْره، لئلا يعبد استجابة لدعاء رسوله ﷺ، كما قال ابن القَيِّم: فأجاب رب العَالِمين دعاءه ؛ وأحاطه بثلاثة الجدران، ودل الحَديث عن أن قَبْر الرَّسُول ﷺ لو عبد لكان وثنًا، فما ظنك بقَبْر غيره من القُبُور التي عبدت هي وأربابها من دون الله؟، وإذا أريد تغيير شيء من ذلك أَنِفَ عُبادها واشمأزت قلوبهم، واستكبرت نفوسهم، وقالوا: تَنَقُّص أهل الرتب العالية، ورموهم بالعظائم، فماذا يقولون لو قيل لهم: إنها أوثان تعبد من دون الله؟!، فالله المستعان علىٰ غربة الإسلام.

الشَّرح

هذا الحَديث مرَّ في أول الباب، وهو قوله - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - : (اللهم لا تجعل قَبْري وثنا يعبد، اشتد غضب الله علىٰ قوم اتخذوا قُبُور أنبيائهم مَسَاجِد)[١] وهذا الحَديث لم يروه أحدٌ من أئمة الإسلام في الكُتُب السُّنَّة، لا أصحاب الصَّحِيحين ولا أصحاب السنن، وإنما وَرَدَ في مصنفات أخرىٰ، فقد رواه مَالِك وابن أبي شيبة وغيرهما، ومرَّ أن الحَديث مضطرب السَّنَد، وأنه يقوم علىٰ زيد بن أسلم، رواه مرة مرفوعًا إلىٰ رَسُول الله ﷺ، ومرَّةً عن عطاء عن رَسُول الله ﷺ، ومرَّةً عن عطاء عن أبي سعيد الخدري عن النَّبِيِّ ﷺ، من العُلَمَاءِ من يرىٰ أن الحَديث إذا وَرَدَ بهذه الصُّوَرة يكون اضطرابًا يُضعِّفُ الحَديث، ولهذا مَالِك رَحِمَهُ اللهُ لم يروه إلا مُرسَلاً منقطعًا، لم يذكره موصولاً،

(١) سبق تخريجه.

وإنما أَوَرَدَه في الرِّوَاية الأُولَىٰ- عن زيد بن أسلم أن رَسُول الله ﷺ قال كذا، فمثل هذا يضعف الحَديث.

وعادة إذا أراد الشَّخص أن يستشهد بحديث لقضية ما؛ فَإِنَّه يغضُّ الطرف عن بعض عُيوبه، وهذا لا يصلُح في المَنْهَج، فإذا أردت أن يكون مَنْهَجك سليمًا؛ لك وعليك، ضع مَنْهَجًا تقبَل به الأحَادِيث لك وعليك؛ لَأنَّ الأحَادِيث التي يريدها أصحابُ البِدَع كثيرة، وكثير منها مثل هذا الحَديث إمَّا أن تكون منقطعة، وإمَّا أن تكون مُرسَلة، وإمَّا أن تكون مضطربة، ونحن نطعن في روايتهم بهذا، فينبغي لنا أن لا نستشهد بمثل ما نرده، إذا خالف المَنْهَج، فهذا الحَديث في الحقيقة وكثير مثله في هذا الكِتَاب ليس هو العمدة في بيان المسألة، لكن العُلَمَاء يستجِيزُون إذا أَوَرَدَوا مسألة عليها أدلَّة واضحة أن يذكروا أحاديثَ في سندها شيء من الضعف، وهذا لا يُضير إن شاء الله، لكن العمدة ليس علىٰ هذا الحَديث، فإن الأحَادِيث التي تنهىٰ عن اتخاذ القُبُور مَسَاجِد صحَّت بأصح الأسانيد، كما مرَّ من حديثِ عَائِشَةَ وأمِّ سلمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيرها من الأحَادِيث، لكن هذه جاءت كمُكمِّل، أو كعارضٍ، فليس فيه - لو لم يصح - حرجٌ إن شاء الله.

ابن القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ يبدو أنَّه كان في عصره لا زال القَبْر ثلاثي الجدارن؛ لَأنَّ القَبْر الشريف كان أمامَه جهة القبلة جدار، ثُمَّ من الجدار الأمامي هناك جداران كمثلث، فكانت الحُجرة مُثلثًا، هكذا بنوها حتىٰ لا يتمكن أحدٌ أن يصلي إليها كقِبلة، لكن الآن أصبحت الحُجرة مُربّعة أو مستطيلة، ولا يستطيع أحد أن يصل إلىٰ القَبْر، بخلاف القُبُور التي دفن أصحابها في العراء، في المقابر أو في أماكن أخرىٰ في المَسَاجِد، فيستطيع الإنسَان أن يلمسها بيده، أمَّا قَبْر نبينا ﷺ فقد أحاطه الله بجدران من عهد عَائِشَة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - إلىٰ اليوم، ولم يستطع أحد أن يصل إليه، بل محاط بجدران أربع، ولكن الآن أصبح في داخل المَسْجِد، ولا شك أن فيه إشكالاً، لكن هذا هو الواقع.

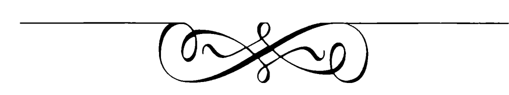
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذه هي الفِتنَة العظمىٰ التي قال فيها عبد الله بن مسعود: كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يهرم فيها الكبير وينشأ فيها الصغير؟ تجري علىٰ النَّاس يتخذونها سنة، إذا غيرت قيل غيرت السنة.

الشَّرح

مثلاً: الآن القَبْر الشريف وضعه ليس سليماً، لكن لو أراد أحدٌ أن يغيره، كم سيقوم من أشخاص في العَالِم الإسلامي ينكر هذا؟ لَأنَّ العَالِم ألفوا هذا المنظر، وتعودوا أن يروا القَبْر داخل المَسْجِد، وهكذا أيُ بِدعَة أو أيُ عمل محدَث إذا عاش النَّاس عليه وأراد أحد أهل العِلْم أو أهل الخير أن يغيرَه، فإن النَّاس ينكرون عليه، ويقولون: هذا مُنكَر أو أنَّه غَيَّر السنَّة، أو أنَّه تَنَقُّص أهلَ الرتَب من الأنبِيَاء والصَّالِحين، فهذا قول ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: كيف بكم إذا لبِستكُم فتنة يهرم فيها الكبير وينشأ فيها الصغير، فإذا غَيرتَ قيل غَيرتَ السنَّة. فالمُنكَر أول ما يظهر ينكر، ثُمَّ يكثر الإنكار في ظهوره، ثُمَّ يضعف الإنكار، ويضعف ، ويضعف، حتىٰ ينسَىٰ النَّاس المُنكَر المتفشي، هذه الدشات أول ما ظهرت قام أهل العِلْم في كل مكان، وأنكروا وبينوا وكُتُبوا وخطبوا، ثُمَّ خفَّت المسألة، خفَّت وخفَّت، حتىٰ أصبح لا يكاد يذكره أحد!! وربما يأتي بعد عشر سنوات لو أنكر شخص هذه الدشات لقالوا: أنت مبتدع، هذه عاش النَّاس عليها، كما وَرَدَ في صلاة الرغائب التي في شهر رجب عندما اختلف العُلَمَاء فيها كالعز بن عبد السلام وابن الصلاح، فإن العزَّ بن عبد السلام أنكر هذه الصَّلَاة، وكذلك ابن الصلاح أنكرها، وكلاهما كانا متعاصرين، لكن ابن

الصلاح يقول:" كيف تنكر شيئًا عاشَت عليه الأُمَّة ". ليس كل ما عاشت عليه الأُمَّة يكون صوابًا أبداً، الحق هو ما وَرَدَ في الكِتَاب والسُّنَّة، فأحيانًا إذا سكَت النَّاس عن المُنكر بعد فترة من الزمن إذا أراد أحد أن يُغيِّره فإن أهلَه ينكرون على الذي يُريد أن يُغير، وهذا ـ نعوذ بالله ـ هو الذي أشار إليه ابن مسعود رضي الله عنه.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

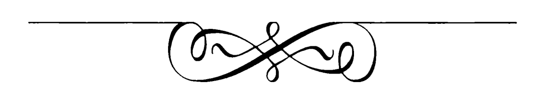
ويؤخذ من الحَديث المنع من تتبع آثار الأَنْبِيَاء والصَّالِحين، كقُبُورهم ومجالسهم ومواضع صلاتهم للصلاة والدُّعَاء عندها، فإن ذلك من البِدَع أنكره السلف من الصَحَابَة والتَّابِعِين وغيرهم، ولا نعِلْم أحداً أجازه أو فعله إلا ابن عُمَر، علىٰ وجه غير معروف عند عباد القُبُور، وهو إرادة التشبه برسول الله ﷺ في الصَّلَاة فيما صَلَّىٰ فيه ونحو ذلك، ومع ذلك فلا نعِلْم أحداً وافقه عليه من الصَحَابَة، بل خالفه أبوه وغيره؛ لئلا يفضي ذلك إلىٰ اتخاذها أوثانًا كما وَقَعَ.

الشَّرْح

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن آثار الأَنْبِيَاء لا يجوز ولا ينبغي لنا أن نتتبعها؛ لَأنَّ هذا يفضي إلىٰ الشِّرْك، ثُمَّ يشير إلىٰ مسألة احتج بها أصحاب البِدَع، قالوا: هذا ابن عُمَر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وكان من خيرة الصَحَابَة وأعبدُهم وأعِلْمهم، كان يحرص علىٰ أن يصلي في الأماكن التي صَلَّىٰ فيها نبينا ﷺ، بل كان يَنزل يقضي حاجَته في الأماكن التي كان يقضي فيها النَّبِي ﷺ حاجته.

فيقول الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ابن عُمَر كان هدفُه الاتِّبَاع، وليس هدفه الابتِداع، مع أنَّ الصَحَابَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لم يوافقوه، بل هذا أبوه خالفه، كما سيأتي فإن أباه عُمَر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قد أمر بقطع شجرةِ بيعة الرضوان، عندما رأىٰ النَّاس يذهبون يصلون عندها، أي اتخذوها مَسْجِداً فأمر بقطعها، وعُمَر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ رأيه مُقدَّم علىٰ رأي ابنه، فَإنَّه من الخلفاء الراشدين الذين أُمِرنا بِأنَّ نتبع سُنَّتهم، (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء

الراشدين)[١] فإذا خالفَ ابنه عبد الله أباه، فإننا نأخذ برأي عُمَر ولا نأخذ برأي ابنه؛ لأننا مأمُورون باتباع ما سنَّه عُمَرُ رضي الله عنه، ولسنا مأمورين باتباع ما سنَّه ابنُه، ولهذا عبد الله بن عُمَر رضي الله عنهما في هذه المسألة لم يوافقْه أحدٌ من الصَحَابَة رضي الله عنهم، ولو كانت مسألة مشهورة والصَحَابَة فهموا فَهمَ بن عُمَر لنُقِل إلينا وسمعنا بهذا، مع أنَّه لم يُنقَل، بل أبوه خالفه في اتخاذ أماكن الأنْبِيَاء للتَّبرُّك بها، ونهىٰ عن ذلك.



---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب العِلْم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البِدَع، برقم: (٢٦٧٦)، وابن ماجه في مقدمة سننه، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، برقم: (٤٢)، والإمام أحمد في المسند، برقم: (١٧١٤٢)، (٢٨/ ٣٦٧)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ، كتاب آداب القاضي، باب ما يقضي به القاضي ويفتي به المفتي فَإنَّه غير جائز له أن يقلد أحداً، برقم: (٢٠٣٣٨)، (١٠/ ١٩٥)، والحاكم في المستدرك، كتاب العِلْم، برقم: (٣٢٩)، (١/ ١٦٤)، وصححه ووافقه الذهبي عليه، وأخرجه أيضـًا الطبراني في المعجم الكبير، والدارمي في سننه، وابن حِبَّان في صحيحه، والبزار في مسنده، والطحاوي في شرح معاني الآثار.

قال المؤلف رحمه الله:

قال ابن عبد الباقي في شرح المُوطَّأ: رَوَىٰ أشهب عن مَالِك أنَّه كره لذلك أن يدفنٍ في المَسْجِد، قال: وإذا منع من ذلك فسائر آثاره أحرىٰ بذلك، وقد كره مَالِك طلب موضع شجرة بيعة الرضوان مخالفة لليهود والنَّصارَىٰ. انتهىٰ.

وقال ابن وضاح: سمعت عيسىٰ بن يونس يقول: أمر عُمَر بن الخطاب بقطع الشجرة التي بويع تحتها النَّبِي ﷺ، فقطعها؛ لأنَّ النَّاس كانوا يذهبون فيصلون تحتها، فخاف عليهم الفِتنَة.

قال عيسىٰ بن يونس: وهو عندنا من حديث ابن عون عن نافع: أن النَّاس كانوا يأتون الشجرة، فقطعها عُمَر رضي الله عنه.



الشَّرْح

قوله: (وقد كره مَالِك طلب موضع شجرة بيعة الرضوان مخالفة لليهود والنَّصارَىٰ) وكلمة " كَرِهَ " في اصطلاح السابقين كثيراً ما تَرد علىٰ التحريم، علىٰ الكَرَاهَة التحريمية، لا الكَرَاهَة التنزيهية؛ لأنَّ العُلَمَاء لا يقولون بكراهَة شيء وَرَدَت فيه أحاديث كهذه الأحَادِيث الشديدة، فهذا حُكم ضعيف بالنسبة لما وَرَدَ فيه من الأدِلَّة القويةِ، فَإنَّه جاءت الأحَادِيث الصَّحِيحة بالتشدِيد في قضية بناء القُبُورِ علىٰ المَسَاجِد، فمَالِك رحمه الله كَرِه ذلك بمَعنَىٰ - والله أعلَم - الكراهة التحريمية.

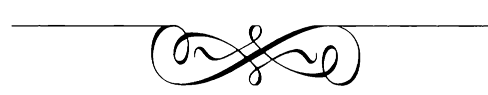
قوله: (وقال ابن وضاح..) ابن وضَّاح من أوائل من كَتَب في البِدَع، وقد عاش في أوائل القرن الثالث، وله كِتاب (البِدَع والنَّهي عنها)، وهذا من أوائل الكُتُب في هذه المسألة، فهذا الأثر أوْرَدَه في هذا الكِتَاب الذي ألفَّه للرد علىٰ البِدَع وأهلِها وبيان خطورتها.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال المعرور بن سويد: صليت مع عُمَر بن الخطاب في طريق مكة صلاة الصبح، فقرأ فيها: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾ و ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾ ثُمَّ رأىٰ النَّاس يذهبون مذاهب، فقال: أين يذهب هؤلاء؟ فقيل: يا أمير المُؤمِنِينَ مَسْجِد صَلَّىٰ فيه رَسُول الله ﷺ، فهم يصلون فيه، فقال: إنما أهلك من كان قبلكم بمثل هذا، كانوا يتتبعون آثار أنبيائهم ويتخذونها كنائس وبيعًا، فمن أدركته الصَّلَاة في هذه المَسَاجِد فليصل، ومن لا فليمض ولا يتعمدها.

الشَّرح

هذان أثران عن عُمَر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، الأول: الأمرَ بقطع الشجرة، والثاني: النَّهي عن الذهاب إلىٰ المَسْجِد الذي كان يصلي فيه النَّبي ﷺ، فنهىٰ عن الصَّلَاة فيه، وهنا: العبارة تحتاج إلىٰ تَصحيح، وهي قوله: (إنَّما أهلك من كان قبلكم بمثل هذا)، لا يستقيم هذا الأسلوب، فإما أن تحذف الألف في أهلك، فتكون العبارة:" إنما هلك من قبلكم بمثل هذا "، فتكون الهمزة زائدة، وإما أن تحذف الباء من مثل، فنقول: " إنما أهلك من كان قبلكم مثل هذا "، فتُصحَّح العبارة؛ لَأنَّ فيها حرفاً زائداً إمَّا في (أهلك)، وإمَّا في (بمثل).





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي مغازي ابن اسحق من زيادات يونس بن بكير عن أبي خلدة خالد بن دينار، حدثنا أبو العالية، قال: لما فتحنا تستر وجدنا في بيت مال الهرمزان سريراً عليه رجل ميت عند رأسه مصحف، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عُمَر، فدعا له كعبًا فنسخه بالعربية، فأنا أول رجل قرأه من العرب، قرأته مثل ما أقرأ القُرآن، فقلت لأبي العالية ما كان فيه؟ قال: سيرتكم وأموركم ولحون كلامكم، وما هو كائن بعد، قلت: فما صنعتم بالرجل؟ قال حفرنا له بالنهار ثلاثة عشر قَبْراً متفرقة، فلما كان بالليل دفناه وسوينا القُبُور كلها لِنعمِّيَه على النَّاس لا ينبشونه، قلت: وما يرجون منه؟ قال: كانت السَّمَاء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون، فقلت: من كنتم تظنون الرجل؟ قال: رجل يقال له دانيال. فقلت: منذ كم وجدتموه مات؟ قال منذ ثلاث مائة سنة. قلت: ما كان تغير منه شيء؟ قال: لا إلا شعيرات من قفاه، إن لحوم الأَنْبِيَاء لا تبليها الأَرض.

قال ابن القَيِّم -رحمه الله تَعَالَى-: ففي هذه القصة ما فعله المهاجرون والأنصار من تعمية قَبْره؛ لئلا يفتتن به، ولم يبرزوه للدعاء عنده والتبرك به، ولو ظفر به المتأخرون لجالدوا عليه بالسيوف، ولعبدوه من دون الله.

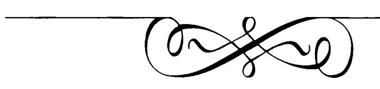


الشَّرح

هذا الأثر من آثار السير، ولفظه يدل على عدم صحته، أولاً: الكِتَاب يقول أنَّ فيه ذكراً لأمورنا، وسيرتِنا، ولُحون كلامنا، أي الحَديث عن المُسلِمين وعن سيرتِهم، وهذا لم يعرف في أي كتابٍ مضى، الذي جاء عن هذا في التوراة أو الإنجيل كلامٌ موجزٌ جداً، ليس هناك شرح لحال المُسلِمين، حتى أنَّه جاء في بعض الأحَادِيث في بعض المصنفات أنَّه دخل شخص في كنيسةٍ وفيها

صور، فرأىٰ صُورة النَّبِي ﷺ وخلفه صُورة أبي بكر، وخلفه صورة عُمَر، وخلفهم شخص لم يعرفه، هذه كلها في الحقيقة لا تصحُّ ولا تثبتُ، فهذا الحَديث وهذا الأثر لفظهما يدل علىٰ عدم صحتهما.

ثانيًا: الهرمزان من الفرس، والفرس ليسوا أصحابُ دين، بل هم عُبَّادُ نارٍ، ليس عندهم أنبياءُ يعظمونهم، ثُمَّ كعبُ الأحبارِ كيف يفهَم اللغةَ الفارسيةَ، إضافةٍ إلىٰ هذا: نفسُ السَّنَد، وهو في كُتُب السير ليس له أسانيد، هذه القصة في الحقيقة ما أظنها ثابتةً والله أعلم، وإن كانت ثبتت فيؤخذ منها هذا الدَّلِيل، وهو أن الصَحَابَةُ ﷺ دفنُوا هذا الشَّخص في مكان بعد أن حفروا ثلاثة عشر قَبْراً حتىٰ يُعمُّوه عن النَّاس.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

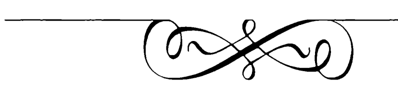
قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: وهو إنكار منهم لذلك، فمن قصد بقعة يرجو الخير بقصدها، ولم يستحب الشَّارع قصدها فهو من المُنكَرات، وبعضه أشد من بعض، سواء قصدها ليصلي عندها أو ليدعو عندها أو ليقرأ عندها، أو ليذكر الله عندها، أو لينسك عندها، بحيث يخص تلك البقعة بنوع من العِبَادَة التي لم يشرع تخصيصها به لا نوعًا ولا عينًا؛ لأَنَّ ذلك قد يجوز بحكم الاتفاق لا لقصد الدُّعَاء فيها، كمن يدعو الله في طريقه ويتفق أن يمر في طريقه بالقُبُور، أو كمن يزورها ويُسلِم عليها ويسأل الله العافية له وللموتى، كما جاءت به السُّنَّة فإن ذلك ونحوه لا بأس به.



الشَّرْح

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ إن العِبَادَة توقِيفيةٌ زمنًا ومكانًا وهيئةً، فلا يجوز للمسلم أن يتخذ عِبَادَةً محددةً في زمن معين أو في مكانٍ معين، ولا يجوز أن يُتعبَّد الله في مكان معين يبتغي بركته إذا لم يرد في النَّص ما يدل على أَنَّه مكان مُبَارك، فكيف إذا كان هذا المكان قد نُهِينا عن التَّعبُد فيه؟، هذا عين مُشَاقَّة الله ورسولِه، فاتخاذ مكان معين ليُعبَد اللهُ فيه تشريعٌ، والتَّشرِيع لا يجوز، فإن العِبَادَة توقيفيةٌ. معرفة المكان الذي تصح فيه العِبَادَة أو يُضاعف فيه الأجر تَوقِيفي، ومعرفة الزمان الذي تُضاعف فيه الأجور، وحثَّ فيه الشَّارِع على العمل الصَّالِح تُوقيفي أيضًا؛ فلا يجوز لك أن تتخذ عِبَادَةً في زمان أو في مكانٍ، أو عِبَادَة لها هيئة معينة، مثلاً: الإنسَان يلتزم بِأَنَّ يسبِّح الله بعد كل زوال ألف مرَّة، والتسبيح جائز ومُستحب، لكن إذا أَلزَمت نفسَك بعدد مُعين، وفي وقت مُعين تكون مبتدعًا، فالالتزام بزمن أو بمكان أو بهيئة بِدعَة، أو مثلاً تلزم

نفسك أن تصلي ركعتين في المَسْجِد كلما سافرت، الصَّلَاة أمرُها مفتوح، لكن تجعل هذا أمراً مُلزماً، وإذا خالفته يوماً من الأيام تعتقد أنَّك قد خالفت أمراً مشروعاً، فأنت بهذا تكون قد أحدَثت، لكن لو اتفق لك أن تصلي في أوقات معينة أو في بعض الأزمنة هذا لا بأس فيه، الذّكر مفتوح والعِبَادَات مفتوحة، لكن التحديد يؤدي إلىٰ أن يبتدع بِدعَة، وربما يُقلِّدك غيرُك عليها ويعتقد أنها من السُّنَّة ويصعب عليه تركها، وربما لو تركَها يكون هناك من يوبِّخه أو يُؤثِّمه علىٰ تركها، فالعِبَادَات تَوقِيفيةٌ مكاناً وزماناً وهيئةً، هنا يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فمن قصد بقعة يرجو الخير بقصده ولم يستحب الشَّارِع قصدها فهو من المُنكَرات)** أي: من استحب بقعة معينة، ورأىٰ أن هذه البقعة مباركة باجتهاده الشَّخصي فَإِنَّه يكون من المُنكَرات التي يتنصح صاحبها.

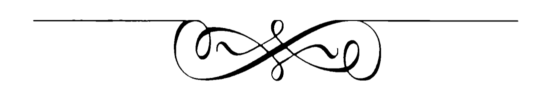


قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما تحري الدُّعَاء عندها، بحيث يستشعر أن الدُّعَاء هناك أجوب منه في غيره، فهذا هو المنهي عنه، والفرق بين النوعين ظاهر، فإن الرجل لو كان يدعو الله واجتاز في ممره بصنم أو صليب أو كنيسة، أو دخل إليها ليبيت فيها مبيتًا جائزاً، ودعا الله في الليل ، أو أتىٰ بعض أصدقائه، ودعا الله في بيته، لم يكن بهذا بأس، ولو تحرىٰ الدُّعَاء عند هذه المواضع لكان من العظائم، بل قد يكون كفراً.

الشَّرْح

قوله: (بل قد يكون كفراً) هذا إذا كان الشَّخص ارتكب مُكفِراً، لكن لو أنَّه صَلَّىٰ في مكان يعتقِد بركَته فَإنَّه يكون مُبتدِعًا، لكن لو ارتكب فيه أمراً أعظم من ذلك ربما يكون كُفراً، لكن لا يقال فيمن عبد الله في مكان يرجو بركَته أنَّ هذا كُفرٌ، بل هذا مُحرَّم، هذا قد شَرَّع، والتشريع حقٌ الله ﷻ ، لكن لا ينبغي لنا أن نحكم بِكفر من فعل ذلك إلا إذا كان هناك نصٌ يُكفِّره؛ لأنَّ هذه كلها ذرائع للشرك، وليست شركًا، تعظيم الأماكن ليس شركًا، وإنما ذريعة إلىٰ الشِّرْك؛ لأنَّك إذا عظَّمت مكانًا، وكان في بداية الأمر إنما تعتقد أن فيه برَكة من الله يفضي بعد ذلك إلىٰ أن يُقدَّس ويُعظَّم من دون الله ﷻ ، أمَّا القُبُور التي جاء فيها النَّص فإن أداء الصَّلَاة فيها أو العِبَادَة فيها مُصادِم للنص.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قولـه: (اشـتد غضـب الله علـىٰ قـوم اتخـذوا قُبُـور أنبيـائهم مَسَـاجِد)، هـذه الجمِلَّة بعد الأُولَىٰ-، تنبيه علىٰ سَبَبَ لحوق الَّلعن بهم، وهو توسلهم بذلك إلىٰ أن تصير أوثانـًا تُعبد، ففيه إشارة إلىٰ مـا تـرجم لـه المصنف، وفيـه تحـريم البنـاء علىٰ القُبُور، وتحريم الصَّلَاة عندها، وقـد رَوَىٰ أصـحاب مَالِـك عنـه أنَّـه كـره أن يقول القائل: زرت قَبْر النَّبِي ﷺ، وعلـل وجـه الكَرَاهَـة بقولـه: (اللهـم لا تجعـل قَبْري وثنـًا يعبد، اشتد غضب الله علىٰ قوم اتخذوا قُبُـور أنبيـائهم مَسَـاجِد) فكـره إضافة هذا الَّلفْظ إلىٰ القَبْر؛ لئلا يقع التشـبه بفعـل أولئـك سـداً للذريعـة وحسـمـًا للبـاب، ذكـره الطبـري، وفيـه أنَّـه ﷺ لـم يسـتعذ إلا ممـا يخـاف وقوعـه، ذكـره المصنف.

الشَّـرْح

مَالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ كره أن يقول الرجل: زرتُ قَبْرَ النَّبِي ﷺ، قـال الشـارح: كراهـة أن يتشبه بالذين ذكرهم النَّبِي ﷺ في الحَديث وهو قوله: (اشتد غضب الله علىٰ قوم اتخذوا قُبُور أنبيائهم مَسَاجِد)(١) أي أكثروا من المَجيء إليها والتَّعبُد فيهـا، فكـره مَالِـك قـول الشَّـخص: زثـرت قَبْـرَ النَّبِـي ﷺ، لكـن يقـول: زرت مَسْـجِدَ النَّبِـي ﷺ، وهـذا مـن مَالِـك رَحِمَهُ ٱللَّهُ لعلـه مـن بـاب سـدِّ الذريعـة، وإن كـان بعـض أتباعه يقول: إن مَالِكـًا أراد أنَّ الشَّخص لا ينبغـي لـه أن يقـول زرت قَبْـر النبـيَ؛ لَأنَّ الرَّسُول ﷺ حي في قَبْره، هذا فيه تنقيص للنبي ﷺ، بل يقول: زرت النَّبِـي ﷺ، وهـذا مـا أراده مَالِـك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لكـن هكـذا إذا كـان شـخص في قلبـه ميـل إلـىٰ مسألةٍ معينة حمَل النَّصَ علىٰ هذه المسألة خَاصَّة إذا كان النَّص قد يُحتمل.

---

(١) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال: ولابن جرير بسنده عن سفيانَ عن منصور عن مجاهد: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [النجم:١٩] قال: كان يلتُّ لهم السويقَ فماتَ، فعَكَفُوا علىٰ قَبْره، وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عَبَّاس: كان يلت السويق للحاج.

قوله: (ولابن جرير) هو الإمام الحافظ مُحمَّد بن جرير بن يزيد الطبري، صاحب التَفسِير والتاريخ وغيرهما، قال ابن خزيمة: لا أعِلْم علىٰ الأَرض أعِلْم من مُحمَّد بن جرير، وكان من الأئمة المجتهدين لا يقلد أحداً، وله أصحاب يتفقهون علىٰ مَذهَبه، ولد سنة أربع وعشرين ومائتين، ومات ليومين بقيا من شوال سنة عشر وثلاثمائة.



الشَّرح

قوله ابن عَبَّاس: (كان يلت السويق للحاج..)[1] هذا الأثر عن مجاهد رواه البُخارِي في صحيحه عن ابن عَبَّاس، ونفس الأثر رواه الطبري في تَفسِيره من أكثر من طريق، فاللات وَرَدَ في القُرآن الكَرِيم: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ ما هو اللات؟ قال مجاهد: وقال ابن عَبَّاس: اللات هو رجل كان في الطائف يَلُتُّ السَّويقَ ويخلطُه بالزبيب، ويسقيه الحاج، أي الحجاج الذين يأتون إلىٰ مكة، فمات هذا الشَّخص فدفنوه في مكان وعكفوا علىٰ قَبْره تعظيماً له، حتىٰ أصبح هذا المكان يُعبَد من دون الله، فجاء التحذير منه في القُرآن الكَرِيم، فبداية عِبَادَةِ القَبْر هو مَحَبَة الصَّالِحين والغُلُو فيهم، فعندما غَلَوا في هذا

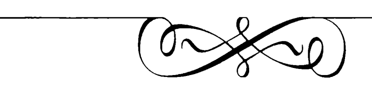
---

(١) أخرجه البُخارِي في صحيحه، كتاب التَفسِير، باب (أفرأيتم اللات والعزىٰ)، برقم: (٤٨٥٩).

الشَّخص، واتخذوا قَبْره مَسْجِداً أدىٰ إلىٰ أنهم عبدوه من دون الله، فهذا هو مراد مجاهد وابن عَبَّاس أنَّ هذا الشَّخص الذي كان يلُت السويق عندما تُوفي أرادوا أن يحيوا ذكره فبنوا علىٰ قَبْره مكاناً لتعظيمه والتَّبرُّك به، حتىٰ أصبح ذلك المكان فيه صنمق يُعبَد من دون الله.

الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ عالمٌ مجتهدٌ، وهو علىٰ مَذهَب أهل السنَّة، وكان حافظاً واسع الرِّوَاية، وقد عرض علىٰ أصحابه أن يفسر القُرآن لهم في ثلاثين ألف صفحة، فقالوا: من يطيق ذلك؟، فاختصره للعشر، فهو عُشر ما أراد أن يكُتُب من التَفسِير، ومع ذلك هو أكبر تَفسِير للقرآن الكَرِيم. كذلك كِتاب التاريخ المشهور (تاريخ الأمم والملوك)، وهو من أوسع التواريخ مع أنَّه أرَّخ إلىٰ عصره إلىٰ نهاية القرن الثالث، فلو كان متأخراً لكان تاريخه أكبر التواريخ، لكنه رَحِمَهُ اللَّهُ مُتسَاهل في مسألة التاريخ فيروي عن شيعي رافضي اتهمه العُلَمَاء اسمه: "أبو مُخنف"، فمن يطلع علىٰ تاريخِه يرىٰ أنَّه دائماً يقول: "حدثنا أبو مخنف". ومثل هذا لا يُؤخذ كلامه ولا يوثق به، لكن الطبري كان يروي بالسَّنَد، وهذا مَنْهَج القدماءِ، يروون الآثار والأحَادِيث بالسَّنَد، ويرون أنَّه يعفيهم من العهدةِ، لكن الذين جاءوا بعدهم ليسوا علىٰ عِلْمٍ بالرجال ولا بالجرحِ والتعديلِ مما جعل هذه الكُتُبَ فيها من الطامَّات ما لا يستطيع معرفتُه إلا أهل العِلْم، فتاريخه مملوءٌ بالروايات الضَّعِيفَة بل والموضوعة، فينبغي أن نتنبه، وله كتاب في الفقه لم يَصلنا، وكتاب في الحَديثِ لو كمل لكان أعجوبة لما اشتمل عليه من مَنْهَج البحث ومَنْهَج الجمعِ، فَإنَّه يذكر حديثاً واحداً، ويذكر طُرقَه وما يعارضُه، ويذكر التَّعلِيل ويُصحح ويُضعف بطريقة عجيبة، منها (مسند ابن عَبَّاس)، والذي يطلع عليه يرىٰ أن هذا الرجل كان موسوعة عِلْمية عجيبة.

وكان فقيهاً وقد وَقَعَت بينه وبين الحنابلة في عهده فجوة ومُشكلة حتىٰ سَدُّوا باب بيته بالحجارة، ولم يستطع أن يخرج، اتهموه بأنه يخالف مَذهَب الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ويحدث في كل عصر خلاف بين الأعلام، وربما أحدهم يبتلىٰ، فالبخاري كانت تستقبله المدينة بقضِّها وقضيدِها، وينثر علىٰ رأسه الورود والزهور، ولا يلبث أن يبقىٰ أياماً في المدينة حتىٰ يخرج وحيداً طريداً؛ لَأنَّ الشَّيطَان يَدخُل بين أهل العِلْم بالحسدِ، فالبخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ مات ولم يحضرُ جنازتَه إلا ثلاثة أشخاص، فالطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ اتهموه بالبِدَع، ودفنوا باب بيته بالحجارة حتىٰ ما استطاع أن يخرج إلا عن طريق بعض النَّاس أزاحوا الحجارة حتىٰ خرج، فهذا العَالِم عِلْمه واسعٌ واستنباطه دقيق، كتابه (كتاب الآثار) لو كَمُلَ لكان أعظم كتاب في فنِّه، كما أن عمدة المفسرين (تَفسِير الطبري)؛ لأنه من أحسن التفاسير وأبعدها عن البِدَع والإحداث، بل كلها علىٰ مَنْهَج أهل السُّنَّة والجماعة.





قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (عن سفيان) هو أحد السفيانين أمَّا ابن عيينة وإما الثوري، فإن كان ابن عيينة فقد تقدمت ترجمته، وإن كان الثوري وهو الأظهر، فهو سفيان بن سعيد بن مسروق أبو عبدالله الكوفي ثقة حافظ فقيه، إمام حجة عابد، وكان مجتهداً له أتباع وأصحاب يتفقهون علىٰ مَذهَبه، مات سنة إحدىٰ وستين ومائة وله أربع وستون سنة.

قوله: (عن منصور) هو ابن المعتمر بن عبد الله السلمي أبو عتاب بمثناة ثقيلة ثُمَّ موحدة، الكوفي ثقة ثبت فقيه مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

الشَّرح

عادة ما يأتي في السَّنَد سُفيان مُبهماً، هناك شخصان يطلق عليهما هذا الاسم، سُفيان بن عيينة، وسُفيان الثوري، كيف نعرف أنَّه الثوري أو ابن عُيينة؟ نأتي إلىٰ التلاميذ من رَوَىٰ عن سفيان؟ فلان، هل فلان من تلاميذ سفيان الثوري أو من تلاميذ سفيان بن عيينة؟ ونأتي إلىٰ الشيخ الذي رَوَىٰ عنه سفيان، مثلا سفيان عن منصور، هل منصور شيخ سفيان بن عيينة أو شيخ سفيان الثوري؟ توجد هذه المعلومات في كُتُب التراجم وخاصة تهذيب الكمال، هو أحسن كتابٌ يبين لنا هذه المسألة؛ لأنه رَحِمَهُ اللَّهُ أراد أن يَستقصي كل شيوخ الرَّاوِي وكلَّ تلاميذه، فيُرْجَع إلىٰ هذا الكِتَاب لمعرفة أيهما، فهنا يقول: الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو إمام مشهور زاهد عابد عالم، وله مواقف جميلة، وكان أمَّاراً بالمعروف، وناهياً عن المُنكَر وزاهداً في الدُّنيَا، وله كلامٌ جميل في الزهد وطريقة الزهد، وطريقة الأمر بالمعروف والنَّهِي عن المُنكَر، وقد ترجم له الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في أكثر من عشرين صفحة، فيحسُن مراجعته للاستفادة منه.

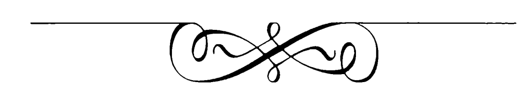
قوله: (عن منصور) كذلك منصور من العُلَمَاء، لكنه ليس في دَرَجَة الثوري.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (عن مجاهد) هو ابن جبر بالجيم والموحدة أبو الحجاج المخزومي مولاهم المكي ثقة، إمام في التَفسِيرِ والعِلْم، أخذ التَفسِيرِ عنِ ابنِ عَبَّاسٍ وغيره، مات سنة أربع ومائة قاله يحيىٰ القطان، وقال ابن حِبَّان: مات سنة اثنتين أو ثلاث ومائة وهو ساجد، وكان مولده سنة إحدىٰ وعشرين في خلافة عُمَر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الشَّرْح

ابن عَبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عاش أواخر حياته في مكة ثُمَّ انتقل إلىٰ الطائف، وقد لازمه مجاهِد المكي ملازمة طويلة حتىٰ قال: عرضْتُ المصحف علىٰ ابن عَبَّاس مرتين أُوقفه عند كلِّ آيةٍ، وقال الشَّافِعِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا جاءك التَفسِير عن مجاهد فحسبُك، أي: يكفيك، فهو من تلاميذ ابن عَبَّاس الخاصين، والطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعتمد علىٰ أقواله كثيراً في التَفسِير.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:

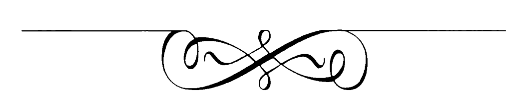
قوله: (كان يلت لهم السويق فمات فعكفوا علىٰ قَبْره)، لـت السويق هـو خلطه بسمن ونحوه، وقد قيل: إن اسم الرجل صرمة بن غنم، وعـن ابـن عَبَّاس: (كان يلت السويق علىٰ الحجر، فلا يشرب منه أحد إلا سمن فعبدوه) رواه ابـن أبي حاتم، وعن مجاهد: كان اللات رجلاً في الجَاهِلِيَّة، وكان له غنم فكـان يسلو من رسلها، ويأخذ من زبيب الطائف والأقط فيجعل منه حيسًا، ويطعم مـن يمر من النَّاس، فلما مات عبدوه، وقالوا: هو اللات، وكان يقرأ الـلات مشـددة، رواه سعيد بن منصور والفاكهي.

قوله: (وكذا قال أبو الجوزاء إلىٰ آخره)، هو أوس بـن عبـدالله الربعي بفـتح الراء والباء ثقة مشهور مات سنة ثلاث وثمانين، وهذا الاثر ذكـره المصنف ولـم يعزه، وقد رواه البُخارِي، ولا تخالف بين هـذا التَفسِير والقـراءة وبين قـراءة مـن قرأ بالتخفيف، وقال أنَّه كان حَجَراً فعبدوه، واشتقوا لـه مـن اسـم الله الإلـه، كمـا تقدم تقريـره في بـاب مـن تبـرك بشـجرة، وأيضـًا فيجـاب علـىٰ الأول بِـأَنَّ أصـله التشديد وخفف لكثرة الاستعمال، وأما كـونهم اشـتقوا هـذا الاسـم مـن اسـم الله الإله فلا ينافي ذلك أيضـًا، فقد رأيت أن سَبَبَ عِبَادَة اللات هو الغُلُو في قَبْره حتىٰ صار وثنًا يعبد، كما كان ذلك هو السَبَبَ في عِبَادَة الصَّالِحين ود وسواع ويغـوث ويعوق نسر وغيرهم، وكما كان ذلك هو السَبَبَ في عِبَادَة الصَّالِحين من الأموات وغيرهم اليوم، فَإِنَّهم غُلُوا فيهم وبنوا علىٰ قُبُورهم القباب والمَشَاهِد، وجعلوهـا ملاذاً لقضاء المآرب.



الشَّرح

هذا استطراد لبيان ما كان في الجَاهِليَّة من تعظيم وغُلُو في الأشخاص أدىٰ بهم إلىٰ أنْ عبدوهم من دونْ الله، وهذه مقارنةٌ بين ما كانْ في الجَاهِليَّة الأُولَىٰ- ، وبين ما يُوجد اليوم في كثيرٍ من بلاد المُسلِمِين.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وبالجملة، فالغُلُو أصلالشِّرْك في الأولين والآخرين إلىٰ يَومَ القِيَامَة، وقد أمرنا الله -تَعَالَىٰ- بمَحَبَة أوليائه وإنزالهم منازلهم من العُبُودِيَّة وسلب خَصَائِص الإلهية عنهم، وهذا غاية تعظيمهم وطاعتهم، ونهانا عن الغُلُو فيهم، فلا نرفعهم فوق منزلتهم، ولا نحطهم منها لما يعلمه -تَعَالَىٰ- في ذلك من الفساد العظيم، فما وَقَعَالشِّرْك إلا بسَبَبَ الغُلُو فيهم، فإنالشِّرْك بهم غُلُو فيهم، وأنزلوهم منازل الإلهية، وعصوا أمرهم وتَنَقُّصوهم في صورة التَّعظِيم لهم، فتجد أكثر هؤلاء الغالين فيهم العاكفين علىٰ قُبُورهم معرضين عن طريقة من فيها وهديه وسنته، عائبين لها، مشتغلين بقُبُورهم عما أمروا به ودعوا إليه، وتعظيم الأنْبِيَاء والصَّالِحين ومحبتهم إنما هي باتباع ما دعوا إليه من العِلْم النافع والعمل الصَّالِح واقتفاء آثارهم وسلوك طريقتهم دون عبادتهم وعِبَادَة قُبُورهم والعكوف عليها، كالذين يعكفون علىٰ الأصنَام واتخاذها أعياداً ومجامع للزيارات والفواحش وترك الصلوات، فإن من اقتفىٰ آثارهم كان متسَبِبًا في تكثير أجورهم باتباعه لهم، ودعوته النَّاس إلىٰ اتباعهم، فإذا أعرض عما دعوا إليه، واشتغل بضده حرم نفسه وحرمهم ذلك الأجر، فأي تعظيم لهم واحترام في هذا.

الشَّرْح

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ إن الغُلُو هو أصلُ وسَبَبُ الشِّرْك، ومن الدِّين أن تُحب الصَّالِحين، وتحب الأنْبِيَاء، فهم أعظم الصَّالِحين وأشرف النَّاس أجمعين، ثُمَّ تُحب أتباعهم الصَّالِحين، ومحبَّتُنا للأنبياءِ: اتباعُ سنتهم، وإتباعُ آثارِهم، والدعوةُ إلىٰ دينهم، فكلما كثر إتباعُ دينِهم كثرُ أجرُهم، فإذا كنت صادقَ الحُبِّ فهذا هو الحُبُّ الصَّحِيح: العمل بما تركوه والدعوةُ إلىٰ ما تركوه من

العِلْم، تعمل به وتدعو إليه، لكن لا ترفعهم إلىٰ مكانة الله، لا تصرف حق الله لهم، فإن بعض النَّاس يظن أن من مَحَبّة الصَّالِحين أن يرفعهم إلىٰ دَرَجَة الله ﷻ، فيعتقد فيهم أنهم ينفعون ويضرون، ويُجيبون من دعاهم، وهذا في الحقيقة تَنَقُّص لهم، بل تَنَقُّص لحق الخَالِق -ﷻ- حيث أشرك عبدَه معه في خَصَائِصه، فإن إجابة الدُّعَاء، وعِلْم الغيب، والنَّفْع والضُر بيدي الله، فإذا رفعت المخلوق وأعطيته هذه الخَصَائِص فقد تَنَقُّصت حق الخَالِق -ﷻ- ورفعت عبدَه معه، ورفعت المخلوق معه، وهذا غاية العمل السيء الذي لا يُرضِي الله -سبحانه وتعالى-، بل يُغضِبه، ويُغضِب جميعَ الصَّالِحين الذين رُفِعوا إلىٰ هذه الدَّرَجَة.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: وعن ابن عَبَّاس قال: (لَعَنَ رَسُول الله ﷺ زائراتِ القُبُور، والمتخِذِين عليها المَسَاجِد والسّرجَ) رواه أهل السنن.



الشَّرح

هذا الحَديث الذي أَورَدَه عن ابن عَبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا هو في مسألة زيارة النِّسَاء للقُبُور، هل يجوز للنساء زيارة القُبُور أم لا؟ ثلاثة أقوال:

القول الأول: يُحرِّم زيارة النِّسَاء للقُبُور، واستشهد أصحاب هذا القول بحديثين حديث ابن عَبَّاس هذا، وحديث آخر لأبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فأمَّا هذا الحَديث **(لعن رَسُول الله زائرات القُبُور)**[1] ففيه أبو صالح باذان مولىٰ أم هانئ، والجمهور علىٰ تضعيفه، وحديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **(لعن الله زوارات القُبُور)**[2]

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجنائز، باب في زيارة النِّسَاء القُبُور، برقم: (٣٢٣٤)، والترمذي في سننه، كتاب الصَّلَاة، باب ما جاء في كراهية أن يتخذ علىٰ القَبْر مَسْجِداً، برقم: (٣٢٠)، والنسائي في سننه، كتاب الجنائز، باب التغليظ في اتخاذ السرج علىٰ القُبُور، برقم: (٢٠٤٣)، والإمام أحمد في المسند، برقم: (٢٩٨٤)، (٥/ ١٢٨)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ، كتاب الجنائز، باب ما وَرَدَ عن نهيهن عن زيارة القُبُور، برقم: (٧٢٠٦)، (٤/ ١٣٠)، والحاكم في المستدرك، كُتُب الجنائز، برقم: (١٣٨٥)، (١/ ٥٢٤)، وأخرجه أيضاً ابن حِبَّان في صحيحه، والطحاوي في شرح مشكل الآثار والطبراني في المعجم الكبير وغيرهم، والحَديث ضعيف كما بينه الشيخ.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في كراهية زيارة القُبُور للنساء، برقم: (١٠٥٦)، وابن ماجه في سننه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في النَّهي عن زيارة النِّسَاء القُبُور، برقم: (١٥٧٤)، والإمام أحمد في المسند، برقم: (٨٤٤٩)، (١٤/ ١٦٤)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ، كتاب الجنائز، باب ما وَرَدَ عن نهيهن عن زيارة القُبُور، برقم: (٧٢٠٥)، (٤/ ١٣٠)، والحاكم في المستدرك، كُتُب الجنائز، برقم: (١٣٨٦)، (١/ ٥٢٤)، وأخرجه غيرهم كالطبراني

في سنده رجلٌ اسمه عُمَر بن أبي سلمة وهو ضعيف، فكلا الحَديثين ضعيفان، والحَديث الثاني بنفس مَعنَىٰ الحَديث الأول، لكن هنا زائرات، وهناك زَوَّارَات، وبين اللَّفْظين خلاف، الزَّائر هو الفعل مطلقاً، والزوَّار هو الذي يُكثر، وهذه صيغة مبالغة، مثل: فلان كاذب، وفلان كذَّاب. فهذا وصفُ مبالغة، لكن الحَديث فيه رجل كذلك ضعفه الجمهور، وهو عُمَر بن أبي سلمة، وسيورَد الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ حديثاً آخر عن حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه عبد الرحمن بن بهران، وهذا مجهول، وإن كان ابن جحر قال فيه: مقبول، لكنه لم يروِ عنه إلا رجلٌ واحد، فتكون الأحَادِيث التي تنهىٰ عن زيارة النِّسَاء ضعيفة، فكيف نُلزِم النِّسَاء بحكم شرعي لم يثبت فيه حديثٌ صحيحٌ؟ والنِّسَاءُ شقائقُ الرجالِ، والأحكامُ الشَّرعية سواء كانت للرجال أو للنساء ينبغي أن نَتثَبت منها، وإن كان العُلَمَاءُ القدماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ ربما نظروا إلىٰ ما يرافق هذه الزيارةَ من مفسدةٍ، لكن نُقيِّد: إن رافقَ الزيارةَ مفسدةٌ من الرجال أو النِّسَاء فَإِنَّها حرامٌ، لا لذات الزيارةِ، ولكن لما رافقَها من مُنكَر.

والقول الثاني: تُكره الزيارةُ للنساء؛ لحديث أم عطية في الصَّحِيحين أنها قالت: (**نهينا عن اتباع الجنائز، ولم يعزم علينا**)[1]. أي: لم نُأمر أمراً شديداً، إنما النَّهي كان للكراهة لا للتحريم؛ لَأنَّ عدم العزيمة معناه كراهية الزيارة "لكن لم يَعزِم علينا" ، أي: أنَّهن نُهين عن اتباع الجنازة لا عن زيارة القُبُور، وبينهما فرقٌ، اتباع الجنازة يتبعها الرجال؛ لأنهم هم الذين يحملونها، وهم الذين يدفنونها، فهو عمل الرَّجال، النِّسَاء ليس لهن عمل، والنِّسَاء عادة إذا كان

= في المعجم الكبير وأبي يعلىٰ والطيالسي والبزار في مساندهم .

(١) صحيح البُخارِي، كتاب الجنائز، باب اتباع النِّسَاء الجنائز، برقم: (١٢٧٨)، صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب نهي النِّسَاء عن اتباع الجنائز، برقم: (٩٣٨)، (٢/ ٦٤٦).

المَيِّت لا زال طريـًا لا تسيطر علىٰ نفسها، ثُمَّ لا يخلو من الاختلاطِ بالرجال، فالنَّهي عن اتباع الجنازة غير النَّهي عن زيارة القُبُور، ومن العُلَمَاء من استنبطَ منه كراهةِ زيارةِ القُبُور لهن،وهذا ليس نصًّا في عدم زيارةِ القُبُور.

والقول الثالث: تجوز للنساءِ زيارةُ القُبُور، والأدِلَّة الصَّحِيحة تؤيد هذا المَذهَب، الدَّلِيل الأول: حديث المرأة التي وجدها النَّبِي ﷺ عند القَبْر تبكي علىٰ ابنها، فقال لها: **(اصْبري، فقالت: إليك عني، فإنك لم تصاب بمثل مصيبتي، فتركها وانصرف، فأخبروها بِأنَّ هذا رَسُول الله، فلحقته تعتذر، فلم يعذرها وقال: إنما الصَّبْر عند الصدمة الأُولَىٰ)**[1] هي لم تعرف النَّبِي ﷺ: فقالت: (إليك عني) أي: ابتعد (فإنك لم تصب بمثل مصيبتي) فذهب وتركها النَّبِي ﷺ، فأُخبرت أنَّ هذا رَسُول الله، فندمت وذهبت إليه تعتذر، قال الرَّاوِي: فلم يقبل عُذرَها أي: في عدمِ الصَّبْر، لا في أنها لم تعرِفه، وقال ﷺ: (إنما الصَّبْر عند الصدمة الأُولَىٰ)، وهذا الحَديث رواه البُخارِي ومسلم، فهذا الحَديث لم ينهَها عن زيارةِ القُبُور، وإنما أمرها بالصَّبْر وعدمَ الجزعِ، فقالوا: لو كان وجودُها في المقبَرة محرَّمـًا لنهاها عن هذا الفعل، والحَديث الثاني حديث عَائِشَة ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ أنها قالت: **(سألت النَّبِي ﷺ ماذا أقول إذا زرت القُبُور؟)** وهذا الحَديث في مسلم، سألته ماذا تقول إذا زارت القُبُور، فلم يقل لا تزوريها فَإِنَّها حرام، بل عَلَّمَها دعاءَ الزِّيارة، فقال: **(قولي: السلام عليكم أهل الديار من المُؤمِنِينَ)**[2] إلىٰ آخر الحَديث. فكونه يعِلْمها دعاء للزيارة

(١) أخرجه البُخارِي في صحيحه، كتاب الجنائز، باب زيارة القُبُور، برقم: (١٢٨٣)، ومسلم في صحيحه بدون ذكر قصة المرأة، كتاب الجنائز، باب في الصَّبْر علىٰ المصيبة عند الصدمة الأُولَىٰ، برقم: (٩٢٦)، (٢/ ٦٣٧).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما يقال عند دخول القُبُور والدُّعَاء لأهلها، برقم: (٩٧٥)، (٢/ ٦٧١).

للقُبُور يدل علىٰ أن هذا ليس محرماً، والحَديث الثالث: (كنت نهيتكم عن زيارة القُبُور ألا فزوروها فَإِنَّها تذكركم الآخِرَة)[1]، وتّذّكُر الآخِرَة تحتاجه المرأة ويحتاجه الرجلُ، كلُّ مسلمٍ امرأةٌ أو رجلٌ يَحتاج إلىٰ أن يَتذكَّر الآخِرَةَ، والخطاب هنا للأمَّة للمجتمع بكامله، وإن كان سيأتي قول الشارح: هل يَدخُل النِّسَاء في لفظ الضمير الُمذكر؟ أي: إذا خاطب النَّبِيُ ﷺ المجتمع، أو خاطب القُرآن الذكور، مثلاً: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [النساء:١٣٥]. هل يَدخُل فيه النِّسَاء أم خاص بالرجال؟ فمن العُلَمَاء من يرىٰ أنَّه لابد أن يكون الخطاب موجهـاً للنساء؛ لَأنَّ الذين آمنوا، غير اللائي آمن، فيقول: هناك فرق، لكن نرىٰ القُرآن كله خطاب للرجال؛ لأنه إذا خاطب القُرآن الرجال والنِّسَاء خاطبهم بلفظ الرجال، ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة:٢٣٨]. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة:٦]، كلُّها خطاب للرجال، فيَدخُل فيها النِّسَاء حتمـاً، إلا إذا جاء ما يدُل علىٰ عدم دخولهن، هذا الحَديث: (كنت نهيتكم) هو: نهيُ الجميع، ثُمَّ قال: (زوروها)، وزيارة الرجل للقَبْر بقصد السلام والتذكر، وهذه المرأةُ من حقِّها أن تتذكر، فهي في حاجة إلىٰ التذَكُّر، بل حاجةُ المرأة لتذَكُّر الآخِرَة أشدُّ من حاجة الرجل، أكثر ما يقع الفساد في المجتمعات من النِّسَاء، فعندما نقول: المرأةُ لا تزور القَبْر كأننا نقول: لا تتذَكَّرُ الآخِرَةَ.

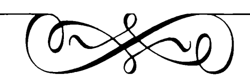
هذه الأحَادِيث كلُّها صحيحةٌ تدل علىٰ أن زيارةَ المرأة للقَبْر ليس حرامـاً، لكنَّ العُلَمَاءَ أحيانـاً يـذكرون التحـريم ويقولـون: المـرأةُ لا تصَّبْر وأنها تجزع، وأنَّها قد تشقُّ الثوبَ، فإذا كانت المرأة سيرافق زيارتها للقَبْر هذه الصُّـورة فَإِنَّها

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب استئذان النَّبِي ﷺ ربه -- عَزَّ وَجَلَّ -- في زيارة قَبْر أمه، برقم: (٩٧٧)، (٢/ ٦٧٢).

حرامٌ، والأدِلَّة الصَّحِيحة تبيحُ للمرأةِ أن تزور القُبُور وأن تسلِّم علىٰ أهلها، ولو كان الرجلُ نفسه لا يصَّبْر ويشقُّ الجيبَ ويستعملُ النياحةَ لحرُمَ عليه أن يزور القَبْر، ليس لأجل الزيارةِ، لكن لأجل ما يرافقُ الزيارةِ من مُنكَر، فزيارةُ المرأة أو الرجل للقَبْر إن رافقها مُنكر فَإنَّه يحرم لما يرافقها من مُنكَر.

هذه أدلة المَذَاهِب في هذه المسألة، ويظهر لنا هنا أن أدلة المبيحين هي أقوىٰ من أدلة المانعين. فكيف نترك ما في الصَّحِيحين، ونبحث عن أدلة بعيدة في غير الصَّحِيحين ونستشهد بها؟، ومن الناحية العَقْلية ما الفرق بين الرجل والمرأة في الدُّعَاء لأصحابِ القُبُور؟ ما الفرق بين حاجةِ المرأة إلىٰ التذكُّرِ وحاجةِ الرجلِ؟ ليس هناك علَّة واضحة إلا ما قيل من ضعفِ قلبِها، فإن كانت المرأة ضعيفة القَلْب إن زارت القُبُور تتأثر ولا تصَّبْر يحرُم عليها هذا، ومَنْهَج إصدار الأحكام هو الدَّلِيل الصَّحِيح، فإن صحَّ الدَّلِيل قلنا به.

فهذا الحَديث الذي أوَرَدَه المصنف يدل لفظه علىٰ تحريم زيارة النِّسَاء للقُبُور، لكنَّه يدل إذا صح، وليس كل حديث يرد في كُتُب العُلَمَاء يكون صحيحًا؛ لأننا نعتقد أن الله ﷻ قد حفظ الدِّين، ويستحيل أن يكون هناك جزء من الدِّين، أو مسألة من الدِّين وَرَدَ فيها نصٌّ عن نبينا ﷺ ولا يكون صحيحًا؛ لأنَّ الله قال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر:٩]. فتعَهَّد الله بحفظه، والذكرُ هو: القُرآنُ الكَرِيم، وما يتعلَّق بشرحِه وبيانِه من كلامِ رَسُولِ الله ﷺ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ش: قوله: (لعن رَسُول الله ﷺ زائرات القُبُور) أي من النِّسَاء، وهذا يدل علىٰ تحريم زيارة القُبُور عليهن، كما هو مَذهَب أحمد وطَائِفَة، وقيل: في تعليل ذلك أَنَّه يخرجها إلىٰ الجزع والندب والنياحة والافتتان بها وبصورتها، وتأذي المَيِّت ببكائها. كما في حديث آخر: (فإنكن تفتن الحي وتؤذين المَيِّت).



قلنا: إن رافق الزيارة مُنكَر حرمت الزيارة لأجل ما يرافقها من مُنكَر.

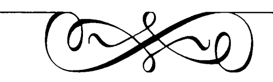
قوله ﷺ: (فإنكن تفتن الحي وتؤذين المَيِّت)(١) هذا الحَديث في سنده أبو هدبة، إبرَاهِيم بن هدبة أجمعوا علىٰ تكذيبه، وقد رَوَىٰ هذا الحَديث الخطيب البغدادي في تاريخه عن أنس بن مَالِك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النَّبِيَّ ﷺ تبع جنازةً، فإذا هو بنسوةٍ خلفَ الجنازةِ قال: فنظر إليهن وهو يقول: (ارجعن مأزورات غير مأجورات، مفتنات الأحياء، مؤذيات الأموات)(٢)، لكن هذا الحَديث لم يصح، والأحَادِيث التي في كُتُب التاريخ ولم نجدها في كُتُب داووين السُّنَّة ينبغي أن نتوقف عندها كثيراً، ليس كل ما نرىٰ سند حديث في كتاب من كُتُب التاريخ

---

(١) لم أجد بهذا اللَّفْظ، وقريب منه في تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٦/ ٢٠٠).

(٢) الجمِلَّة الأُولَىٰ- من الحَديث "ارجعن مأزورات غير مأجورات" أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في اتباع النِّسَاء الجنائز، برقم: (١٥٧٨)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ، كتاب الجنائز، باب ما وَرَدَ في نهي النِّسَاء من اتباع الجنائز، برقم: (٧٢٠١)، (٤/ ١٣٠)، وأبو يعلىٰ في مسنده، برقم: (٤٠٥٦)، (٧/ ١٠٩)، وعبد الرزاق في المصنف، برقم: (٦٢٩٨)، (٣/ ٤٥٦)، وأما الحَديث كاملاً ففي تاريخ بغداد (المرجع السابق) كما ذكره الشيخ.

نُصحِّحُه؛ لَأنَّ هذه الكُتُب لا نطمئن إلىٰ صحة ما فيهـا، خَاصَّـة التـواريخ، فـإن الكُتُـبَ قـد مـرت بمراحـل، كـان النسـخ في القـديم تنسـخ في البطاقـات، كـان العُلَمَاء يكتُبون بطاقات، ويكِلون نُسَخها إلىٰ نسَّاخين، فما اهـتم بهـا العُلَمَـاءُ كاهتمـامهم بكُتُـب السُّـنَّة المشـهورة، ولهـذا الـدهلوي في كتابـه (حجـة الله البالغة)، قد جعل كُتُب السُّنَّة علىٰ طبقات، قـال: كُتُب مَظنَـة الصَّـحِيح فقـط، وكُتُب مظنَّة الصَّحِيح والضعيف، وكُتُب مظنَّة الموضُـوع، فجعـل الكُتُـب التـي بعد السنن الأربعة جعلها مظنـة الموضـوعات، فـلا ينبغـي لنـا أن نـأتي إلـىٰ كـل كتاب نجد فيه حديثاً فيه سند صحيح أو ثقـات نُصـحِّحُته؛ لَأنَّ العُلَمَـاء الـذين هم حُفَّاظ الأُمَّة، وكان مقصدهم أن يجمعـوا حـديث رَسُـول الله ﷺ الصَّـحِيح في مصنفاتهم فلم يدونوا هذا الحَديث أين كانوا عنه؟، نأتي إلىٰ الطبقة الأُولَـىٰ- هذا ابن أبي شيبة، وبعده عبد الرزاق، ثُمَّ الإمام أحمد، ثُمَّ البُخـارِي، ومسـلم، وأبو داود ﷺ، هؤلاء حُفَّاظ الأُمَّة، كان مقصدُهم أن يجمعـوا أدلـةَ كـلِّ مسـألةٍ دينيةٍ مما صحَّ، فما بالهم لم يأتوا بهذه الأحَادِيث؟ فما ينبغـي لنـا أن نسـتعجل، وسيأتي بعض طرق التحقيق في طريقة قبولِ الحَديث، ونرىٰ هنـاك دقـة العُلَمَـاء القدماءِ ﷺ في انتقاءِ الأحَادِيث، قد ينتقـي العَـالِمُ أحاديـثَ راوٍ عـن شـيخٍ، ولا يروي حديثه عن شيخ آخر. وهذه دقةٌ عجيبـةٌ، مـثلا نـأتي إلـىٰ راوٍ نجـد لـه مـثلاً أربعةَ عشر شيخـاً، لم يرو مسلمُ عن هذا الشَّـخص إلا روايـةً واحـدةً عـن شـيخ واحدٍ فقط مـن هـؤلاء المشـايخ، ولـم يـرو حديثـه عـن شـيوخ آخـرين، وسـيأتي تحقيق ابن عبد الهادي والزيلعي الحنفي من أجمل التحقيقات في هذه المسـألة إن شاء الله.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وإذا كانت زيارة النِّسَاء مظنة وسَبَبًا للأمور المحرمة في حقهن وحق الرجال، وتقدير ذلك غير مضبوط؛ لأنه لا يمكن حد المقدار الذي لا يفضي إلىٰ ذلك، ولا التمييز بين نوع ونوع، ومن أصول الشريعة أن الحِكمَة إذا كانت خفية أو منتشرة علق الحكم بمظنتها، فتحرم سداً للذريعة كما حرم النظر إلىٰ الزينة الباطنة لما في ذلك من الفِتنَة، وكما حرمت الخلوة بالأجنبية، وليس في زيارتها من المصلحة ما يعارض هذه المفسدة؛ لأنه ليس في زيارتها إلا دعواها للميت أو اعتبارها به، وذلك ممكن في بيتها.

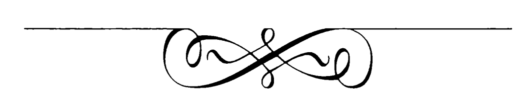


الشَّرْح

هنا الشارح والمؤلف رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ قَويَّا هذا الحَديثَ لا لأجل زيارة النِّسَاء، إنما لأجلِ (والمتخذين عليها المَسَاجِد والسرج)، لكن جاءت أحاديث صحيحة تُحرِّم اتخاذ المَسَاجِد، فهذه الأحَادِيث في دَرَجَة ثالثة أو رابعة من حيث المصدر، فقد صح الحَديث في أنَّه ﷺ لعن من اتخذ القُبُور مَسَاجِد، وبين أنهم شِرار الأُمَّة، وقال: إني أنهاكم عن ذلك، وكُلُّها في الصَّحِيحين، فاتخاذ المَسَاجِد علىٰ القُبُور مُحرَّم بالنَّص القاطع، وهذا الحَديث لو لم يصح لا يؤثر علىٰ القضية، وإنما قَوَّيَا هذا الحَديث لقضية السَّرجِ والزِّينة علىٰ القُبُور، فإذا حرَّم الإسلام اتخاذ المَسَاجِد أي: تعظيم القُبُور، فكل ما يتعلق بالتَّعظِيم حرام، وأدلته صحيحة، ولو لم يصح هذا الحَديث لا يؤثر علىٰ المسألة.

قوله: (لأنه ليس في زيارتها إلا دعواها للميت أو اعتبارها به) يبدو أن هنا تحريفًا في الَّلفْظ؛ لأنه ليس في زيارتها دعواها، بل دُعاؤها، أي: أن الدعوىٰ ليست بمَعنَىٰ الدُّعَاء، فهذا الَّلفْظ لا يؤدي نفس المَعنَىٰ المطلوب، فما هو إلا

دعاؤها للميت. يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن الشَّارِع قد يُحرِّم أمراً لأنه يُفضِي إلىٰ مُنكر، لكن ذاته قد لا يكون حرامـًا، وهذا يكون من باب سد الذَّرَائِع، فالشَّرع قد يُحرِّم فعلاً مباحـًا؛ لأنه يفضي إلىٰ أمر محرم، كما وَرَدَ في قوله -تَعَالَىٰ-: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١٠٨]، الله نهانا أن نَسُبَّ معبوداتِ الكُفَّار، مع أنَّه ليس لمعبودات الكُفَّار حُرمة، لكن خشيةَ أن يؤدي فعلنا المباح إلىٰ أن ينتج منهم فعل مُنكَر في حقِ الخَالِق عَزَّ وَجَلَّ، فيسبوا الله عدواً بغير عِلْم، فحرَّم الله سبَّ آلهة الكُفَّار التي هي الأصنَام وهو مُبَاح، لو سب المسلم لا يعاقب شرعـًا عليه، فالشَّارِع قد يُحرِّم الفعل المباح لما يترتب عليه من مفسدةٍ أو مُنكَر أعظم، فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن تحريمَ زيارةَ المرأةِ للقَبْرِ خشيةَ أن يصدَر منها فعلٌ مُنكَر، وهو النياحةُ، أو عدم الصَّبْر، هذا هو التعليلُ الذي ذكرَه.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد رَوَىٰ الإمام أحمد وابن ماجه والحاكم عن حسان بن ثابت مرفوعًا: (لعن الله زوارات القُبُور)، وعن أبي هريرة (أنِ رَسُول الله ﷺ لعن زوارات القُبُور) رواه أحمد وابن ماجه والترمذي وصححه، وضعفه عبدالحق وحسنه ابن القطان، ولا يعارض هذا حديث: (كنت نهيتكم عن زيارة القُبُور فزوروها) رواه مسلم وغيره؛ لأَنَّ هذا إن سلم دخول النِّسَاء فيه فهو عام، والأول خاص، والخاص مقدم عليه، وأيضًا ففي دخول النِّسَاء في خطاب الذكور خلاف عندالأُصُوليين.

قوله: (والمتخذين عليها المَسَاجِد) تقدم في الباب قبله شرحه وتعليله، قوله: (والسرج) هذا دليل علىٰ تحريم اتخاذ السرج علىٰ القُبُور، قال أبو مُحمَّد المقدسي: لو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله؛ لأَنَّ فيه تضييعًا للمال في غير فائدة وإفراطًا في تعظيم القُبُور أشبه تعظيم الأصنَام.

وقال ابن القَيِّم: اتخاذها مَسَاجِد وإيقاد السرج عليها من الكَبَائِر، ووجه إيراد المصنف هذا الحَديث في هذا الباب دون الذي قبله، هو أَنَّه لعن المتخذين عليها المَسَاجِد والسرج، وقرن بينهما، فهما قرينان في الَّلعنة، فدل ذلك علىٰ أَنَّه ليس المنع من اتخاذ المَسَاجِد عليها لأجل النَّجَاسَة، بل لأجل نجاسةالشِّرْك، ولذلك قرن بينه وبين من لا سراج عليها، وليس النَّهي عن الإسراج لأجل النَّجَاسَة فكذلك البناء.

قوله: (رواه أهل السنن) أي هنا أبا داود وابن ماجه والترمذي فقط ولم يروه النسائي.

الشَّرْح

قوله: (دخول النِّسَاء في خطاب الذكور خلاف عندالأُصُوليين) الأُصُـوليون يبحثون في الألفاظ ودلالاتها، والعام والخاص والمُطلق والُمقيد، فهنا: (كنت نهيتكم) عَامٌّ، فلو صح الحَديث: (لعن رَسُول الله ﷺ زائرات القُبُور) لكان هذا حكماً خاصَّاً للنساء، فيخرج من العام النِّسَاء، ويبقىٰ في حقِّ الرجال، لكن ما صحَّ الحَديث، فالمسألة تبقىٰ علىٰ عمومِها.

قوله: (والسرج) السَّرج والتجصيص الذي هو البناء بالحجارة الجميلة كل هذه من لواحق اتخاذ القُبُور مَسَاجِد؛ لَأنَّ التَّوحِيد أعظم قضية، والشِّرْك أعظم ناقِد، ولهذا يُعاقب الله علىٰ الشِّرْك ما لا يُعاقب علىٰ المَعْصِيَة؛ لَأنَّ الشِّرْك يَتعلق بحقِّ الخَالِق، فإذا صرفته للمخلوق عبدِه يغضَب ﷻ ، لكن المَعْصِيَة ضعف الإنسَان، فالإنسَان قد يضعف، قد يجهل، لكن لا تصرف العِبَادَة للمخلوق، فأنت إذاً لا تستحق تكريمَ الله ﷻ ، فالشرك أعظم الذُّنُوب، فلهذا كل ما يتعلق بتعظيم القُبُور نحن منهيون عنه؛ لأنه يُؤدِّي إلىٰ الشِّرْك، وهذا هو الغُلُوُّ الذي كان سَبَبَ شركِ الأممِ الماضية.

قوله: (وقال ابن القيِّم: اتخاذها مَسَاجِد وإيقاد السرج عليها من الكَبَائِر) يوري رحمه الله بمن يزعم أن النَّهي عن اتخاذها مَسَاجِد خشية التَنَجس، وقد مرَّ أنَّه قال رحمه الله إن قُبُور الأنْبِيَاءَ طاهرةٌ؛ لَأنَّ أجساد الأنْبِيَاء لا يأكلها التُرَاب، فأيُّ نجاسة إذاً نهينا من أجلها؟!، وبعض الفُقَهَاء أباح الصَّلَاة في المقابر، وقال: إنما نهينا عن الصَّلَاة إذا كان فيها قُبُورٌ منبوشةٌ؛ خشيةَ التنَجُّسِ. وليس بصحيحٍ؛ لَأنَّ هذا اللَّعن الشديدَ في التحريم لو كان لأجلِ النَّجَاسَة التي علىٰ القُبُور كان بالإمكان أن يقول: لا تصلوا في المكان النجسِ، لكن جاءت أحاديثُ: "لعنَ الرَّسُولُ من فعل"، "ولعنَ الله من فعلَ"، "أولئك شِرار الخلق

عند الله"،" ألا وإني أنهاكم عن ذلك"، والألفاظ كثيرة في الصَّحِيحين تدل علىٰ أن النَّهِيَ ليس لأجل النَّجَاسَة، وإنما هو لأجل الشِّرْك الذي هو أعظم الذُّنُوب.

قوله: (ولم يروه النسائي) يبين رَحِمَهُ اللَّهُ أن هذا الحَديث لم يخرجه النسائي في سننه، وأصحاب السنن إذا أطلقت يراد بها الأربع، مع أن هناك سنناً أخرىٰ، سنن سعيد بن منصور وسنن الدارقطني وسنن الدارمي وغيرها، ولكن لا يَدخُل شيء منها في هذا الاسم، هذا اصطلاح خاص بالأربع، وهم: أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه رحمهم الله جميعاً.

وفي نهاية هذا الباب نذكر فوائد في البابين الماضيين. فنذكر عشر فوائد.

الفَائدَةُ الأُولَى: بيانُ أسبابِ انحراف الأمم الماضية، الأحَادِيث التي مرت ذكرت سَبَبَ انحراف الماضين، أنهم كانوا إذا مات فيهم الرجل الصَّالِح بنوا علىٰ قَبْره مَسْجِداً، وصوروا فيه تلك التماثيل، فسَبَبُ انحراف الأمم الماضية هو الغُلُو في الصَّالِحين.

الفَائدَةُ الثانية: أنَّ الغُلُو من أعظم أسباب الشِّرْك، أسبابُ الشِّرْك كثيرة، لكن أهمّها الغُلُوُ في الأشخاص أحياءً وأمواتاً. هذا هو سَبَبُ الشِّرْك، فالأمم الماضية غالوا في الصَّالِحين، فالنَّصارَىٰ غالوا في عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ كما جاء في الحَديث أنَّه قال: (**لا تطروني كما أطرت النَّصارَىٰ عيسىٰ بن مَرْيَم**) أي: لا تُبالغوا في مدحي، (**إنما أنا عبد الله ورسوله**)(١).

الفَائدَةُ الثالثة: أنَّ الجهل سَبَبُ كل ضلال في البَشَرية، لماذا يشرك النَّاس، لماذا يعظمون البَشَر، لماذا يصرِفون حق الخَالِق للمخلوق؟ سَبَبُه الجهل بالشَّرع.

الفَائدَةُ الرابعة: حِرص النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الشديدُ علىٰ أمته، وهذا سيكون عنوان الباب القادم.

---

(١) سبق تخريجه.

الفَائِدَةُ الخامسة: النَّهيُ الصريحُ عن إقامةِ المَسَاجِد علىٰ القُبُور، كلُّ الأحَادِيث التي سبقت ألفاظها واضحةٌ لمن أراد الحقَّ، ولا تأوِيل فيها إلا لمن أرادَ نصرَ البَاطِل، وإلا فإن الألفاظَ واضحةً.

الفَائِدَةُ السادسة: النَّهي الصريح عن زخرَفة القُبُور، وهو ما مرَّ في هذا الحَديث إن صح كما قلنا.

الفَائِدَةُ السابعة: اتفاق المحققين من جميع المَذَاهِب علىٰ حُرمة تعظيم القُبُور، وقد مرَّ أن الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ أوَرَدَ قول أربعة عشر عالماً، من كل المَذَاهِب، من الأحناف والمَالِكية والشَّافِعِية والحنابلة، أوَرَدَ أقوالهم التي تدل علىٰ حرمة تعظيم القُبُور.

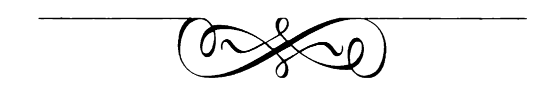
الفَائِدَةُ الثامنة: أنَّ الدِّينَ إذا حرَّم شيئاً حرَّم أسبابه، حرَّم الزنىٰ وحرَّم أسبابه، حرَّم الربا وحرَّم أسبابه، وما من سَبَبٍ يؤدي إلىٰ حرامٍ إلا ويكون حراماً، ولهذا قال العُلَمَاءُ: ما لا يتم الواجبُ إلا به فهو واجبٌ، كذلك ما لا يتمُّ الحرامُ إلا به فهو حرامٌ، فإذا كان الفعلُ حراماً كان ما يؤدِّي إليه حراماً، لذا نجد في القُرآن الكَريم لما حرَّمَ اللهُ الزنىٰ ذَكر حتىٰ الأسبابَ التي قد لا تؤثر إلا في نفسياتِ بعضِ النَّاس، حرَّم النظرَ، وحرَّم سماعَ الصوتِ، ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب:٣٢]، صوت المرأةِ قد يُؤثِّر في أشخاص وقد لا يؤثِّر في أشخاصٍ، رؤيةُ المرأة قد تؤثِّر في أشخاص وقد لا يتأثَّر بها أشخاص، وبعض الأشخاص يتأثر بالسماعِ أكثر من الرؤية، وقال -تَعَالَىٰ-: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١]. المرأة في الماضي كانت تلبس الخلخال الذهب في القدم، وعندما تمشي يُسمَع صوتُ الخُلخَالَ، الله ينهاها أن تتعمدَ إسماع النَّاس صوت الخلخال، هذه كلها سدٌّ لمنافذ الزِّنا والفاحشةِ، فإذا سُدَّ في المجتمع منافذُ الفاحشةِ، أين تقع الفاحشةُ؟ لكن إذا فتحت أبواب الفاحشةِ علىٰ مصراعيها وَقَعَت الفاحشةُ.

أشدُّ شهوات الإنسَان هو الجنسُ، ويعلم الكُفَّارُ هذا الأمر، ولهذا الآن غيروا أسلوب الحربِ علىٰ المُسلِمين وتدميرِ البَشَرية بالاتجاه إلىٰ إفسادِ الأخلاقِ، وهذا ما يحرصون عليه، هناك لفتةٌ جميلةٌ في قوله -تَعَالَىٰ - في إبليس: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا ﴾ [الأعراف:٢٠]، إبليس يحرصث علىٰ كشف عورةِ آدم وحواء؛ لَأنَّ الذي يصونُ المرأةَ والرجل من الفاحشة هو الحَياءُ، فإذا سُلِخَ الحياءُ سُهُلَ علىٰ الإنسَان أن يفسدَ وأن ينحرفَ، الآن في الغرب ليس هناك شيء اسمه حياءٌ أبداً، وهذا من ثمار الثورة الفرنسية التي أعطت النَّاس حقَّ العمل: اعمل ما شئتَ وقل ما شئتَ، وتحرَّك حيثما شئت.

هناك فرق بين الإنسَان والحيوان، الإنسَان له ضوابط، الحيوان ليس عنده ضوابط، ولهذا قال العُلَمَاء: الله جعل البكارةَ للمرأةِ ولم يجعلها لأنثىٰ الحيوان، المرأةُ هي الوحيدةُ التي عندها بكارةٌ؛ لَأنَّ العفةَ مطلوبة في المرأة بخلافِ بقيةِ الحيوانات، فكل ما يجرحُ الخلقَ وكلُّ ما يفتح بابَ الفاحشةِ الإسلامُ سدَّه، وهذا يُسمَّىٰ من بابِ سدِّ الذَّرَائِع، فكل حرام جاء الإسلام بتحريمِه سدَّ منافذَه، لكن إذا فُتِحت يصبح الإنسَان معرضاً للوقوع فيها، والمعصوم من عَصمَه الله. الآن الفتن التي يمر بها النَّاس في مسائل الأخلاق. لم يمر علىٰ البَشَرية مثلها، ولهذا الاستقامة علىٰ الدِّين في هذا العصر لها عند الله مكانة؛ لَأنَّ الإنسَان محاط من كل مكان بالشهوات والمغريات والفِتنَة، فالاستقامة أمرها في هذا الزمن صعب، لكن أجرها عند الله عظيم، فينبغي لنا أن نحرصَ أن لا نفتح في بيوتنا ولا علىٰ أنفسِنا أبوابَ الفِتنَة، فإن الإنسَان بيكاد لا يستطيع أن يثبتَ إذا تعمَّد فتحَ الباب لنفسه، فليحرص علىٰ غلقِ الأبوابِ. مَالِكُ رَحِمَهُ اللهُ مرَّ عنده شخصٌ صاحبُ بِدعَة، ومَالِك يعرف أنَّه صاحبُ بِدعَة، قال: يا أبا عبد الله سؤال، قال: ولا نصف سؤال، قال: أقرأ عليك آيةً، قال: ما تقرأ ولا نصف آية، فطرده، فسأله أحد التلاميذ، قال: يا أبا عبد الله، لو قرأ

عليك آيةً السؤال يمكن، قال: إن القَلْب ضعيف وأخشىٰ أن يقرأ آية فيُحرِّفها فيَدخُل في قلبي بِدعَة لا أستطيع ردَّها. هذا إمامُ المُسلِمِين؛ لَأنَّ الإنسَان فيه ضعف، فلا ينبغي أن تعرِّض نفسك لفتنةٍ، ولهذا جاء في الحَديث أنَّه **إذا سمعتم بالدجال فلا تذهبوا إليه**[1]، بعض الأشخاص يُحِبُّ الاستطلاع، يذهب إليه ليستطلعَ ولا يعود إلا وهو من أتباعِه، لا تعرض نفسك للفتنة، شخص يقول أذهب للغرب أطلِّع ماذا فيه، وبعد أيام إذا بِرقبته سلسلةٌ، وفي يده كلبٌ، يذهب إلىٰ مكان الفسادِ، والمغريات. أيُّ إغراءٍ فتنةٌ، والإنسَان فيه ضعف، فلا ينبغي له أن يُعرِّض نفسه للفتنة، فهذا يُسمَّىٰ: سدُّ الذَّرَائِع، وهذا هو الباب الذي سيذكره المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ.

القَائدَةُ التاسعة: أنَّ كل ما عبد من دون الله فَإِنَّه يُسمىٰ وثنًا بالنسبة لفاعله، في الحَديث: (اللهم لا تجعل قَبْري وثنًا يعبد)[2] إنَّ صح الحَديث، لكن لا نقول: قَبر الرَّسُول ﷺ وثن؟. نقول: اتخذه فلان وثنًا، وإلا فإن القَبْرَ لا يسمىٰ وثنًا إلا إذا اتخذه شخص وثنًا، فننسب الوثنية إلىٰ الفاعل، لا إلىٰ قَبر النَّبِي ﷺ، فقَبرُ النَّبِي قَبْرٌ مكرَّم محترم، لكن من عبده قد جعله وثنًا، من عظمه قد جعله وثنًا، فهو وثن عند من فعَل لا في حقيقة الأمر.



(١) أخرجه بلفظ: "من سمع بالدجال فلينأ عنه" أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب خروج الدجال، برقم: (٤٣١٩)، والإمام أحمد في المسند، برقم: (١٩٨٧٥)، (٣٣/ ١٠٧)، والحاكم في المستدرك، كتاب الفتن والملاحم، برقم: (٨٦٨١)، (٤/ ٧٠٤)، والطبراني في المعجم الكبير، برقم: (١٨/ ٢٢٠).

(٢) سبق تخريجه.



باب: ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التَّوحِيد وسده كل طريق يوصل إلى الشِّرْك

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

الجناب هو الجانب، واعِلْم أن في الأبواب المتقدمة شيئًا من حمايته ﷺ لجناب التَّوحِيد، ولكن أراد المصنف هنا بيان حمايته الخاصة، ولقد بالغ ﷺ وحذر وأنذر وأبدأ وأعاد، وخص وعم في حماية الحنيفية السمحة التي بعثه الله بها، فهي حنيفية في التَّوحِيد سمحة في العمل، كما قال بعض العُلَمَاء: هي أشد الشرائع في التَّوحِيد والإبعاد عنالشِّرْك وأسمح الشرائع في العمل.

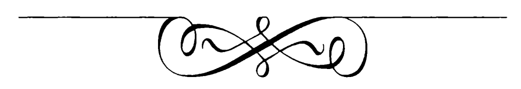


الشَّرح

قوله: (جناب التَّوحِيد) كلمةُ "جَنَابُ" تُطلق على الناحية المعنوية، أي: جَنَابُ فلانٍ، من باب التكريم، لكن الجَانب يُطلَق على المَعنوي وعلى الحسي، والتَّوحِيدُ ليس له جانبٌ، لكن قد يُنسَب الجانبُ للتوحيد، مثلاً للتوحيدِ ثلاثةُ جوانب، أو كما قال ابن تَيمِيَة أنواع، فلو قلنا جوانب ربما تكون أدقَّ؛ لأنَّ المخالفين قالوا: كيف تقول: التَّوحِيد أنواعٌ، أو التوحيد أقسام، فقالوا: لا يُطلق على الواحدِ أقسامٌ، لكن لا مُشَاحَّة في الاصطلاح، أراد رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ فعلَ الإنسَان نوعٌ من أنواع التَّوحِيد، وفعلُ الله نوعٌ آخر، فإذا نظرنا إلى فعل

الخَالِق نقول توحيد الرُّبُوبيِّة وتوحيدُ الأسمَاء والصفات، أي: توحيدُ المعرفة والإثباتِ، وإذا نظرنا إلىٰ فعلنا نقول توحيدُ القصدِ والطلبِ، هذا التقسيم ليس يُراد به أن التَّوحِيد اثنان، بل إنما هذا من باب التنويعِ أو بيان جوانبِ التَّوحِيد.

وفي كل الشرائع جاء التأكيد والتشديد علىٰ أصل التَّوحِيد، ولم يقع أن جاءت شريعة بالتَّسَامُح في جانبه؛ لَأنَّ هذا حق الله ﷻ، لكن الشريعة الإسلامية فيما يتعلق بأحكام الحلال والحرام أسمحُ الشرائع، ولهذا كان بعض الماضين لا يصلي إلا في مكان المعبد، لكن في المُسلِمِين: (وجعلت لي الأَرض مَسْجِداً وطهوراً)[١] حيث أدركتنا الصَّلَاة نصلي، هذا فيه سماحة وتيسير، كذلك الإنسَان المريض يسر عليه في العِبَادَة، كذلك الثمسافر يسر عليه في العِبَادَة، كذلك المرأة إذا عرضَت لها الدورةُ الشهرية تُعفىٰ من الصَّلَاة، وهكذا هذا الدِّين فيه سماحة في تشريعه، لكن جميع الشرائع السابقة وجميع الديانات كلها تُشدِّد علىٰ جانب التَّوحِيد؛ لَأنَّ هذا حق الله - ﷻ -، قال - تَعَالَىٰ -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء:٤٨]. فما تعلَّق بحقِّه - ﷻ - فإنَّ كلَّ الشرائعِ قد اهتمت به.



(١) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال: وقوله -تَعَالَىٰ-: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة:١٢٨] الآية.

قوله: (﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾) هذا خطاب من الله -تَعَالَىٰ- للعرب في قول الجمهور، وهذا علىٰ جهة تعديده نعمه عليهم، إذ جاءهم بلسانهم وبما يفهمونه من الأغراض والفصاحة، وشرفوا به أبد الآبدين.

الشَّرح

هذا الباب أَوْرَدَ فيه المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ آية وحديثين، الآية الوحيدة قوله -تَعَالَىٰ-: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة:١٢٨] الآية. ما المُرَاد بـ: (من أنفسكم)، هل المُرَاد به من العرب؟ أو المُرَاد به من البَشَر؟ قولان، وكأنه ـ والله أعلَم ـ أراد به من البَشَر، كما قال -تَعَالَىٰ-: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران:١٦٤]، المؤمنون فيهم الفارسي، وفيهم الرومي، وفيهم الحَبشي، وفيهم القرشي، فكأن الله يقول: أرسلتُ إليكم رسولاً من أنفسكم، لم أبعث ملكًا وأجعله كما طلبوا بشراً، أو أبعث لكم رسولاً من الجنِّ،أو مما لا تعرفون؛ لأنَّ الله قال: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾.

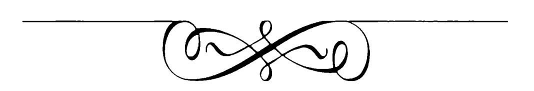
والجمهور علىٰ أنَّه خطاب للعرب، وأما الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ فيرىٰ أنَّه خطاب للبشرية، أي بعثت لكم رسولاً من جنسِكم إنسانًا، وإن كان انفردَ به الزَّجاج فإنَّه قوي؛ لأنَّ الخطاب في الآية الثانية للمؤمنين، ولم يخاطب قُرَيْشًا فقط،

وستأتي هذه الآية. فعلىٰ كل هو بُعثَ من العرب ومن البَشَر، فالمِنَّةُ علىٰ العربِ أكثر من غيرها؛ لَأنَّ الله اختار منهم شخصاً من أنفسهم ليكون رسولاً للبشرية، وهذا تكريمٌ لهم، ولهذا يقول بعض الباحثين: إن اللهَ اختار هذه المنطقةِ؛ لأنها أوسطُ المناطق، وأوسطُ المجتمعات، حتىٰ في اللغةِ، أي الغربي عند الحَديثِ إذا تكلَّم يفتح فمه كثيراً حتىٰ ترىٰ الحرف مفخَّماً، والشرقي لا يفتح فمَه، أي: يتكلم الحرفَ لا يخرج من فمه، العربُ وسطٌ في إخراج الكلمةِ، قال: هكذا الوسطيةُ في اللغة، والوسطيةُ في التفكير، والوسطيةُ في الصفات، فقال: اختار الله من هذا المكان هذا الرَّسُول ﷺ ليكون خاتم الرُّسُل ورسوله للبشرية لوجود ميزات في هذا المكان وفي هذا الجنس لا توجد في غيره.

لكن من كَفَر منهم ليس له تكريم عند الله ﷻ ، وليس له تشريف، إنما التشريف لمن آمن، لو كان الكافر عربياً وهناك مؤمن غير عربي، فلا يفضل الله العربي علىٰ غيره؛ لَأنَّ الجنس ليس له تفضيل، ليس له تكريم خاص، إنما التفضيل للعمل، والقُرآنُ كلُّه من أوله لآخره يقول: (الذين آمنوا وعملوا الصَّالِحات)، ليس فيه: الذين هم عرب، لكن لا شك أنَّ الله ربَّ العَالِمين هو أعرف، وليس بين الله وخلقِه نسبٌ حتىٰ يقال أنَّه سيُحابِي قوماً علىٰ قوم، ولابد أن يختار الله رسولاً واحداً، من قبيلة واحدة، من مجتمع واحد، وما يمكن يختار من كل مكان رسولاً، سواء كان من هنا أو من هناك أو من مكان آخر، لكن الله اختار هذا الرَّسُول ﷺ من هذه البلاد، فلا بد أن يكون في أهلها من الصفات ما ترشح هذا الاختيار، لكن قد ينصر الله الدِّين من غيرهم؛ لَأنَّ هذا الدِّين ليس خاصاً، إنما الإبلاغ كان بلغتِهم، وكان من أنفسهم، وعندما آمن هذا الجيلُ القليل الذي كان يعد علىٰ الأصابع، وكانوا أفراداً قليلين

بالنسبة للبشرية إذا بهم يفتحُون الأَرضَ في نصف قرنٍ من الزمان، فتحوا الأَرضَ أو أكثرها في خمسين سنةً مع وسائل قليلة وعددٌ قليل، فعندما جاء الإسلام واعتنقوه أصبح فيهم الذكاءُ وظهرت العبقرية، وتفجَّرت الحِكمَة من أفواههم، والعدل والشجاعةِ ما لم يوجد مثله في بقية المجتمعات الأخرىٰ.

فهذا الرَّسُولُ ﷺ من أنفسهم قد يُراد به من العربِ، ويكون يمتن الله علىٰ العرب، لكن إن لم يتَّبعوا الرَّسُولَ كان لهم عقابان، يذكر أن شخصاً في بعض البُلْدَان المجاورة مر علىٰ قبيلة ومعه سيارة وفيها خَمرٌ، وكانت القبيلةُ لا تسمح بدخول السيارات إلا بعد التفتيش، فتشوا السيارةَ وجدوا فيها خمراً، أخذوا السائقَ ومعه التاجر فضربُوهما، فقال السائق: هذا فلان بن الشيخ فلان، قالوا: ابنُ الشيخ فلان؟!، قال: نعم، قالوا: نضِربُه مرةً ثانية!، ضربوا ابن الشيخ فلان الذي يُهرِّب الخمرَ، قال: هذا شريفٌ من السادة، قالوا: هذا شريفٌ!، إذاً نضربُه مرةً ثالثةً!؛ لأنَّه كيف يكون شريفاً من آل البيتِ ويهرِّب خمراً؟، فالشَّخص إذا كان لله عليه نِعمَةٌ إضافية فَإنَّه يُعاقَب إذا انحرف في الدِّين أكثر مما يعاقَب غيره. كما قال اَلله في أمهات المُؤمِنِينَ أنهن إذا اتقين الله فإن لهن أجرين، فهكذا من قال أن من أنفسكم معناه من العرب، والقول الثاني: أنَّه من جنس البَشَر، والخطاب - والله أعلم - يدل علىٰ أنَّه يراد به من جنس البَشَر.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

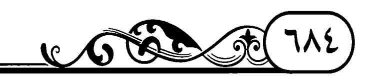
وقوله: (رَسُولٌ) أي رَسُول عظيم أرسله الله إليكم، (مِنْ أَنْفُسِكُمْ) أي ترجعون معه إلىٰ نفس واحدة؛ لأنه وأنتم من أب قريب، كما قال -تَعَالَىٰ- عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أنَّه قال: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة:١٢٩].

وذلك أقرب وأسرع إلىٰ فهم الحجة، وأبعد من المحك واللجاجة، وهذا يقتضي مدحًا لنسب النَّبِي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنه من صميم العرب. قال جعفر بن مُحمَّد في قوله: (من أنفسكم) قال: لم يصبه شيء من ولادة الجَاهِليَّة.

الشَّرْح

أي: يفهم من هذا النَّص براءةَ نسب رَسُول الله - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -، وأنه من أنفسهم أي: من أب وأم من نكاح وليس من سفاح، هذا مفهوم من اللَّفْظ وليس نصًّا فيه، مع أن النَّبِيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا شك أنَّه قد حفظه الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -، وهكذا عادةُ الله مع أنبيائه ورسله أن يحفظهم في أنسابهم، ويحفظهم في عقائدهم، ويحفظهم في أخلاقهم، فلا يعرف عن النَّبِي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل النُبوَّة ما يخِلُّ بالشرف، لا يكذِبُ كما مرَّ في قصة هرقل عندما سأل أبا سفيان هل جرَّبتم عليه كذبًا قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا. مع أن أبا سفيان كان مُعاديًا للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المدة . بعد الاتفاق الذي اتفقوا فيه صلح الحَديبية، بعد الصلح سافر أبو سفيان في تجارة إلىٰ الشام وكان علىٰ الكُفْر فسأله هرقل، هل جربتم عليه كذبًا، أبو سفيان كان يود أن يقول كلمةً يطعن فيها في رَسُول الله، لكن ما استطاع، قال: لا ما جربنا

عليه كذبـًا، فقال هرقل: إني أقول: ما كان ليذر الكـذب علىٰ النَّاس ثُمَّ يـذهب يكذب علىٰ الله، فالله يحفظ الرُّسُلَ في عقائدهم وفي أخلاقهم قبل النُبـوَّة حتىٰ يكون هذا دليلاً علىٰ أنَّ هؤلاء نُبِّئوا من اللهِ - سبحانه وتعالى -.



قال المؤلف رحمه الله:

وقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي شديد عليه جداً ما عنتم، أي عنتكم وهو لحاق الأذىٰ الذي يضيق به الصدر ولا يهتدي للمخرج، وهي هنا لفظ عام أي ما شق عليكم من كفر وضلال وقتل وأسر، وامتحان بِسَبَبَ الخلق، و ما مصدرية وهي مبتدأ، و عزيز خبر مقدم، ويجوز أن يكون ما عنتم فاعلاً بعزيز، و عزيز صِفَة للرسول، وهذا أصوب.

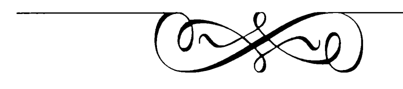
وقوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ بليغ الحرص عليكم أي علىٰ نفعكم وإيمانكم وهداكم، والحرص: شدة طلب الشيء علىٰ الاجتهاد فيه. ورَوَىٰ الطبراني بإسناد جيد عن أبي ذر رضي الله عنه قال: (تركنا رَسُول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في الهوىٰ، إلا وهو يذكر لنا منه عِلْمًا) قال: (وقال: ما بقي شيء يقرب من الجَنَّة ويباعد منالنَّار إلا وقد بينته لكم).

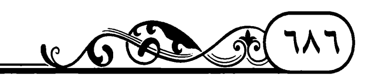


الشَّرح

يتكلّم هنا عن تركيب الجمِلَّة؛ لأنَّ الله يقول: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾، فالآيةُ تقتضي أنَّ رَسُولَ الله ﷺ حريصٌ علىٰ هدَاية قومِه، وأنه لابد أن يبلغهم، وأن يخبِرهم بما يحفظُ لهم دينَهم؛ لأنَّ مَعنَىٰ الآية، أنَّه حريصٌ علىٰ ما ينفعهم يَتأذَّىٰ مما يتأذَّون منه،﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أيك عَنتُكم ومَشقتُكم تؤذِيه، ويتأذىٰ منها إذا وَقَعَت، فكونه هذه صِفَاتِه تدل علىٰ أنَّه لابد أن يكون حريصاً علىٰ إخبارهم بما يحفظ لهم دينِهم، وهذا يقتضي أن يُخبرهم بكل ما هو محذورٌ في عقيدتهم، أو في أخلاقِهم أو في معاملاتهم.

قوله: (وقال: ما بقي شيء يقرب من الجَنَّة ويباعد من النَّار إلا وقد بينته لكم) هذا يدلُّ أن ليس هناك في الدِّين أمر ليس فيه خبرٌ من نبيِّنا ﷺ، سواء كان في العقيدةِ أم كان في الشريعة، هذا يدلُّ علىٰ أنَّ الرَّسُول ﷺ قد أخبر أمته بكل ما فيه حمايةٌ لدينِهم.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وروىٰ مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رَسُول الله ﷺ: (مثلي كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التي فيالنَّار يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبنه فيتقحمن فيها، قال: فذلك مثلي ومثلكم، أنا آخذ بحجزكم عنالنَّار هلمَّ عنالنَّار، هلمَّ عنالنَّار فتغلبونني، وتقحمون فيها).

وقوله: (بِالمُؤْمِنِينَ) أي لا بغيرهم كما يفيده تقديم الجار، (رَؤُوفٌ) أي بليغ الشفقة. قال أبو عبيدة: الرأفة أرق الرحمة، (رَحِيمٌ) أي بليغ الرحمة كما هو اللائق بشريف منصبه وعظيم خلقه.

فتأمل هذه الآية وما فيها من أوصافه الكَريمة، ومحاسنه الجمة التي تقتضي أن ينصح لأمته ويبلغ البلاغ المبين، ويسد الطُّرُق الموصلة إليالشِّرْك، ويحمي جناب التَّوحِيد غاية الحماية، ويبالغ أشد المبالغة في ذلك؛ لئلا تقع الأُمَّة فيالشِّرْك، وأعظم ذلك الفِتنَة بالقُبُور، فإن الغُلُو فيها هو الذي جر النَّاس في قديم الزمان وحديثه إليالشِّرْك، لاجرم فعل النَّبي ﷺ ذلك وحمىٰ جناب التَّوحِيد حتىٰ في قَبْره الذي هو أشرف القُبُور.



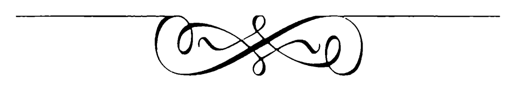
الشَّرح

قوله ﷺ: (مثلي كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش..)[1] هذا الحَديث في الصَّحِيح، وهو تصوير بديعٌ، والنبيُّ ﷺ كثيراً ما

---

(١) أخرجه البُخارِي في صحيحه، كتاب الرقاق، باب الانتهاء عن المَعاصِي، برقم: (٦٤٨٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب شفقته ﷺ علىٰ أمته ومبالغته في تحذيرهم عما

يضرب الأمثالَ؛ لَأنَّ ضربَ المثل يُقرِّب الحقيقةَ إلىٰ الأذهان، والفراشُ لعلَّه ما يعرفُه إلا من كان يعيش خارج المدن، الفَرَاشُ يأتي إذا أوقَدَ الإنسَانُ ناراً في مكان من الأماكن، هو طائرٌ صغير يُحِبُّ النَّارَ، فيسارعَ إلىٰ النَّار فيسقُطَ فيها، والذي يرىٰ النَّار يرىٰ هذا الفراشَ يتساقطَ فيها، مهما حاولتَ أن تحميَه من النَّارِ لا تستطيع، فهو ﷺ يُشبِّه أصحابَ المَعْصِيَة الذين ضعُفَ إيمانُهم، وضَعُف دينُهم، قال: قد أنذرتُكم وأخبرتُكم، وبلَّغتُكم وحذَّرتُكم، وما تركتُ طريقاً يقرِّبُكم إلىٰ الجَنَّة إلا أخبرتكم به، ولا طريقاً يُقرِّبكم إلىٰ النَّار إلا أخبرتكم به، هذه حمايتُه ﷺ، ليست بيده، إنما إخباره، وتنبيهه، وتحذيره، هذا مَعنَىٰ أنَّه يمنعَنا من النَّار، ونحن نُصرُّ ونأبىٰ إلا أن نقتحمَ النَّار، مثل الفراش، كم من المُسلِمين يعلَمون الحقَّ والخيرَ، ويعلَمون البَاطِلَ والشرَّ، ويُصِّرون علىٰ أن يقعوا في البَاطِل ويُصِرون علىٰ المَعْصِيَة، مثلاً اليوم كم من المُسلِمين يعلَم أنَّ هذه الدِّشات حرام؟ كُلُّهم كم منهم سلَّم منها؟ قليل، أي: يُصرُّ علىٰ النَّار ، يريدُ أن يفسدَ أهلَه وأخلاقَ بناتِه وأولاده، هذا هو تَقَحُّمُ النَّار، فهذا الحَديثُ تصويرٌ بديعٌ لأحوال النَّاس، أنَّه ﷺ قد بلَّغ وحذَّر وأنذر ومع ذلك نحن مثلُ الفراشِ نأتي إلىٰ النَّار ونُلقِي بأنفسِنا فيها، وهكذا هذا الحَديثُ يدلُّ علىٰ أنَّه أخبر أمتَه بكل ما فيه صلاحُهم في دينِهم ودُنياهم، وأنَّ الإنسَان ليس له عند الله عذرٌ وحُجَّة إذا عَرَفَ هذا الدِّين، ثُمَّ مع ذلك يقع في النَّارِ باختيارِه.



= يضرهم، برقم: (٢٢٨٤)، (٤/ ١٧٨٩)، وهذا لفظ مسلم كما قاله المصنف.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي الآية مسائلُ منها: التنبيهُ علىٰ هذه النِّعمَة العظيمة، وهي إرسال الرَّسُولُ ﷺ فينا، كَمْا قَالَ - تَعَالَىٰ -: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران:١٦٤].

الشَّرح

هذه الآيةُ العظيمةُ يَمْتَنُّ اللهُ بها علىٰ المُسلِمين، ولو استرجعنا التاريخَ واستعرضنا ما كان عليه العَرَب قبل الإسْلَام نراهم مجتمعـًا يعبدُ الأصنامَ ويسجدُ للأحجارِ، ويشربُ الخمرَ، ويقتلُ الأولادَ والبناتَ خشيةَ الفقرِ وخشيةَ العار، ويأكلُ الجُعلان وجميعَ الدوابَّ التي في الأَرْض، مجتمعـًا تثورُ الحروبث بينه لأتفه الأسبابِ، مجتمعـًا لا قيمةَ له في الحياة، كان أحدهم يعبدُ التمرةَ فإذا جاعَ أكلَها، وكان أحدُهم إذا خرج لسفر لا يخرج حتىٰ يستقسمَ بالأزلامِ ويستأذنَ الأصنامَ، هذا المُجْتَمَع نزلَ عليه الوحيُ وإذا به يصوغه صياغة جديدةً، ولو لم ينزلْ الإسْلَام علىٰ العَرَب كيف تكونُ حالهُم؟ لا قيمةَ لهم في التاريخ، نزَلَ الإسْلَام وصاغَ هذا العَرَبي صياغةً أخرىٰ، وأصبح نسبُه لا إلىٰ لغته ولا إلىٰ قومِه ولكن نسبُه إلىٰ الله ، وإذا بهم يصبحون قادةَ البَشَرية، يُعلِّمُون البَشَريةَ.

لو تصورنا هذه النِّعمَة وقدَّرناها حق قدرِها ما أهملنا في هذا الدِّين، والله امتنَّ علينا: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران:١٦٤]، ويزكيهم

يُطهرُهم، المُسلِم هو الوحيد الذي يعرف الطَّهَارَة الجسدية، يتطهر من كل الأقذارِ، يُطهرُ قلبه من أدناس الشِّرْك، ويطهر جسمه من الأوساخ، لا يُوَجَدُ في جميع المُجْتَمَعات علىٰ الإطلاق رغم الحضارة المادية من يتطهر تطهر المُسلِم، في البُلدَان الغربية المتحضرة مادياً لا يعرِفون الاستنجاءَ أبداً، وإن جلست بجانبِ أحدِهم تشمُّ منه رائحةً عَفِنةً، يذكرُ بعضُ الإخوة أنَّه ذهب إلىٰ بعض البلاد الغربية، وكان يصطحب معه إبريقاً للوضوء أثناء دخوله إلىٰ مكان قضاء الحاجةِ، فسأله الطبيب الذي يعالِج ابنه ماذا تفعلث بهذا؟ فأخبرَه، فسكت الطبيبُ، وذهب الطبيبث وأخذَ له إبريقاً وفعلكَمْا فعل المُسلِم، وبعد أيام قَالَ: والله هذا جميلٌ، نظافةٌ!، هذا معنىٰ يزُكِّيهم، فأصبح هذا الإنسَان الذي كان لا قيمةَ له إنسانـًا طاهراً في قلبِه وفي جوارحِه.

قال: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران:١٦٤]،كَمْ تعلموا من الحِكْمَة التي علموها البَشَرية،كَمْ علمهم القُرْآن من آدابِ الإجتماع، ونظامِ الاقتصادِ، والنظام السياسي، ونظامِ الأخلاقِ، زكَّىٰ أخلاقَهم، وزكَّىٰ أرواحَهم، وزكَىٰ مجتمعَهم من الفساد، تقول عائشة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ: كان البِغاء في الجَاهِليَّة علىٰ أربعةِ أنحاء: نوعٌ يدخُل الفئةُ من النَّاس علىٰ المَرْأَةِ واحدٌ، واحدٌ، ثُمَّ إذا حمَلت استدعتهم جميعـًا وألحقت ابنها بأي واحدٍ منهم، ولا يستطيع أن يَمْتَنع، ونوعٌ يقول الرَّجُل لزوجته: اذهبي إلىٰ فلان فاستبضِعي منه[1]، يكون هناك إنسان شجاعٌ أو صاحبُ مكانة فيرسلُها زوجها إلىٰ هذا الشخص يَزني بها ليأتيَ له ولدٌ منه. جاء الإسْلَام وغير وهذَّب الأخلاق، ونظم بناء الأسرة، وهذا معنىٰ ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران:١٦٤]،

---

(١) أخرجه البُخَارِي في صحيحه، كتاب النكاح، باب من قَالَ لا نكاح إلا بولي، برقم: (٥١٢٨).

الضلال واضح، هذه النقلة العظيمة بين ما كانوا عليه في الجَاهِلِيَّة وبين ما هم عليه في الإِسْلَام نقلةٌ تستحقُ أن نشكرَ الله عليها، مِنةٌ من الله ﷻ أن جَعَلَ الإِسْلَام الدِّين الأخير ينزل علىٰ المُسلِمين فينقلهم نقلةً عظيمةً من جاهليتهم إلىٰ هذا الدِّين العظِيم.

هذه المنةُ فيها عدةُ مِننٌ، الأولىٰ أنَّ اللهَ جَعَلَ النَّبي ﷺ من أنفسنا بَشَراً لم يجعله مَلَكـًا، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، وهذه كلها من المِنَن التي يَمْتَنُّ الله بها علىٰ عِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ، وليست المنة علىٰ العَرَب وحدهم، العَرَب يدخلون في المنَّة؛ لأنَّ الله قَالَ: علىٰ المُؤْمِنِينَ، والمؤمنون ليست خاصة ب العَرَب، وإن كان الرَّسُولُ ﷺ خرج منهم؛ لأن الله لحكمة يعلمُها اختار أنْ يكون من العَرَبِ، لكن لا قيمة للعَرَبِي إن لم يكن مُسلِمـًا، هذا أبو جهل عَرَبِي وهو من أهلِ النَّار، أبو طالب عمُّ النَّبِي ﷺ عَرَبِي، وهو في النَّارِ، فهذا الدِّين لا يكرِّم الإنسَان بالأنساب، إنَّمَا يكرِّمه بالدِّين ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

فهذه الآية تشير إلىٰ المِنَّـة التي امتنَّ الله بها علَىٰ المُسلِمين بإنزالِ هـذا الكِتَـاب، لـو تصورنا أن هـذا الكِتَـابَ ليس مُوجـوداً مـاذا يكـون حـالُ النَّـاس، وخاصَّـة المُسلِمين ؟ لا قيمـةَ لهـم، فهـذه منّـةٌ عظيمـة يُذَّكر الله بهـا المُـؤْمِنِينَ ليتذكروها ويحرصوا عليها، ولقد عرف الصَّحَابَة ﵃ هـذه المنةَ فكـانوا أشـدَّ النَّاس تمسُّكـًا بهذا الدِّين، وبهذا الكِتَاب استطاعوا أن يفتحوا الأَرْض في خلال نصف قرن من الزمـان بوسـائل ضـعيفة وعـدد قليـل، وأصبحوا قـادة ال بَشَـرية يعلمون النَّاس الحِكْمَة، و الحِكْمَة إمَّا أن تكون هي سُنَّة رَسُـول اللهِ - عليه الصلاة والسلام - ، وَإِمَّا أن تكونَ ما تعلموه من القُرْآن والسُّنَّة.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومنها: كونه منا نعمة أخرىٰ عظيمة، ومنها: كونه بهذه الصفات نعم متعددة، ومنها: مدح نسبه ﷺ، فهو أشرف العَرَب بيتًا ونسبًا، ومنها: رأفته بالمؤمنين، ومنها: غلظته علىٰ الكفار والمنافقين.

قال: عن أبي هريرة قَالَ: قَالَ رَسُول اللهِ ﷺ: (لا تجعلُوا بيوتَكم قُبُوْراً، ولا تجعلُوا قَبرِي عيداً، وصلُّوا عليَّ، فإنَّ صلاتَكُم تَبْلُغُنِي حيثُ كُنْتُمْ) رواه أبو داود بإسناد حسن، رواته ثقات.

الشَّـرح

قوله: (كونه منا نعمة أخرىٰ عظيمة ...) هذه تتعلق بالآيةِ الأُولَىٰ التي ذكرها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أول الباب ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة:١٢٨]. فهو ﷺ رحيم بأمته ويعزُّ عليه أنْ يقعُوا في الضلال، ولهذا قد علَّمهم كلَّ ما يقربهم منَ الجَنَّة، وحذَّرهم من كل ما يقربهم من النَّار، وهذا من كَمال رحمته- عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ - .

قوله ﷺ: (لا تجعلوا بيوتكم قُبُوْراً...)[1] هذا الحَدِيث الذي رواه أبو داود فيه ثلاث مسائل.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب المناسك، باب زيارة القُبُور، برقم: (٢٠٤٢)، والإمام أحمد في المسند، برقم: (٨٨٠٤)، (١٤/ ٤٠٣)، والبيهقي في شعب الإيمان، برقم: (٤١٦٢)، (٣/ ٤٩١)،والطبراني في المعجم الأوسط، برقم: (٨٠٣٠)، (٨/ ٨١)، وعبد الرزاق في المصنف، كتاب الصَّلَاة، باب التطوع في البيت، برقم: (٤٨٣٩)، (٣/ ٧١)، وابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الصَّلَاة، باب في الصَّلَاة عند قبر النَّبِي ﷺ وإتي أنَّه، برقم: (٧٦٢٤)، (٥/ ١٧٨).

المَسْأَلَة الأولى: المراد بها حث المُسلِم علىٰ التنفل في بيته، وهي قوله (لا تجعلوا بيوتكم قُبُوْراً) العُلَمَاء قَالَوا: إنَّ النَّص يدلُ علىٰ الحكم إمَّا بالظاهر، وَإِمَّا بالمفهومِ: مفهومِ الموافقةِ أو مفهومُ المخالفةِ، فهنا يؤخذُ الحكمُ من مفهوم المخالفةِ، صَلُّوا في بيوتكم، لا تجعلوها قُبُوْراً أي: أنَّ القُبُور لا يُصلىٰ بها، فهذه المَسْأَلَة وردت فيها أحاديثُ مرَّت معنا كثيرةٌ وهي: (**لعنة الله علىٰ اليَهُود والنصارىٰ الذين اتخذوا قُبُوْر أنبيائهم مَسَاجِد**)[1] ومنها قوله ﷺ: (**إني أنَّهاكم عن ذلك**)[2] ومنها: قوله: (**أولئك كان إذا مات فيهم العبد الصالح والرَّجُل الصالح صوروا تلك الصور، وبنوا عليها تلك القباب**)[3] وقال: تلك كالتماثيل. فالأحاديث الصَّحِيحة تدل علىٰ أن القُبُورَ ليست مكاناً للصلاة.

والمسألة الثانية: (لا تجعلوا قَبري عيداً)، يُفهَم منها أنّ العيدَ هو الذي يتكرَّر كلَّ عامٍ، لا تكرِّرُوا الزيارة لقبري في كلِّ مناسبةٍ حتىٰ لا يكونُ شبيهاً بالعيدِ.

والمسألة الثالثة: (**وصلُّوا عليَّ، فإنَّ صلاتَكم تبلغني حيث كنتم**) هذه لها أحد معنيين: إمَّا أن يُفهمَ منها أنَّه تبلُغني: يَصلُني فائدتها؛ لأنّ الصَّلَاة هي: الدُّعَاء، والنبي ﷺ قد أمرنا أن ندعو له حتىٰ بعد الأذان (**إذا سمعتم المؤذان فقولواكَمْا يقول، ثُمَّ صلوا علي، وسلوا الله الوسيلة فإنَّها منزلة في الجَنَّة لا يبلغها إلا عبد صالح، وأرجو أن أكون أنا هو**)[4]، فأمرنا أن ندعُوَ له، لا لأنَّ الرَّسُولُ ﷺ مُحتاجٌ إلينا، لكن كلما دعونا للرسولِ ﷺ كُتب لنا أجرٌ، فقال: (**من فعل**

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

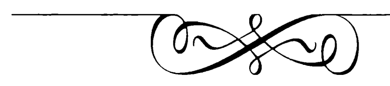
ذلك كنت له شفيعـًا يومَ القِيَامَة)[١] أوكَما قَالَ- عليه الصلاة والسلام - ، فالصلاةُ تبلغُه بمعنىٰ يصلُه ثوابُها، وأمَّا إذا فُهِم منها أنَّه يخبر بها فهذا هو الذي سيكون الآن محل الحَدِيث.

هذا الحَدِيث لم يَروِه صاحبا الصَّحِيحَينِ، وفي سَنَده شخصٌ من رُوَاة مُسلِم اسمه عبد الله بن نافع الصائغ، والجُمهور علىٰ تضعيفه، كيف يُخرِّج مُسلِم لضعيفٍ؟! . مُسلِم ينتقي من أحاديث الضعفاء، فهذا الرَّجُل له أربعة عشرة شيخًا أحدهم مَالِك بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ إمَّام دار الهجرة، وعبد الله بن نافع الصائغ كان من أخص تلاميذه، فمُسلم رَحِمَهُ اللَّهُ رَوَىٰ حَدِيثه عن مَالِك فقط، ولم يَروِ حَدِيثه عن غيره، وسيأتي تحقيق هذه المَسْأَلَة من كلام ابن عبد الهادي الشَّافِعِي، ومن كلام الزيلعي الحنفي، قَعَّدَا تقعِيداً في غاية الجمال، وقالا: بعض الأشخاص إذا رأىٰ الرَّاوِي في سَنَد مُسلِم ظنَّ أنَّه علىٰ شرطِ مُسلِم، وقالا: ليس هذا صحيحًا، فهذا الذي أوقع الحاكمَ في مستدركِه إلىٰ أن يستدركَ أحاديث بظنّ أنَّ هذا الرَّاوِي من شرطِ مُسلِم، وليس كذلك، مُسلِم رَحِمَهُ اللَّهُ يخرج للضعيف عن بعض شيوخه فقط، وعندما سئل مُسلِم رَحِمَهُ اللَّهُ كيف تروي عن سوِيد بن سعيد وهذا شخص قد كذبه العُلَمَاء، بل قَالَ بعض العُلَمَاء لو كانت لي قدرة لقاتلته، فقال مُسلِم: من أين كنت آتي بنسخة فلان؟ أي: شيخه سويد، هذه النسخة ثبتت عنده من سَنَد آخر، لكنه بنزولٍ، وهو أراد السَّنَد العالىٰ، ولكنه لم يُخرِّج له في الأُصُول؛ لأن مُسلِمًا رَحِمَهُ اللَّهُ له مَنهَج في كتابه يُخرِّج الصَّحِيح في أول الباب، ثُمَّ يذكر بعده ما هو أقلَّ دَرَجَة منه شاهِداً أو متابعًا، فينبي أن نتفطَّنَ لهذا، يُخرج للضُّعفاء، أولاً يَنتقي، ثانيًا: لا يُخرِّج لهم في الأُصُول، يذكر في أول الباب الصَّحِيح ثُمَّ يتبعه بما هو أضعف منه.

---

(١) سبق تخريجه.

هذا الحَدِيث هو من رواية عبد الله بن نافع الصائغ، وليس من طريق مَالِك، مُسلِم خرج له عن طريق مَالِك فقط، فإنَّه كان من تلاميذه، وقد تقلَّد مذهبَه، فكان أوثق النَّاس به، وأكثر النَّاس أخذاً عنه، فرضوا ما رواه عن مَالِك، وهذا الحَدِيث عن ابن أبي ذئب الذي هو مُعاصر للإمام مَالِك، وكانت بينهما فَجوة، أحياناً الُمعاصرة تُؤدي إلىٰ المُنافرة، حتىٰ قَالَ ابن أبي ذئبٍ في مَالِكٍ: ينبغي أن يُستتَاب مَالِكٌ من ردِّه حَدِيث خيارِ المَجلس؛ لأنَّ مَالِكاً رَحِمَهُ اللَّهُ ردَّ الحَدِيث، لم يردُّه كراهةً في السُنَّة، ولكن لم يصحْ عنده، وهذا الرَّاوِي رَوَىٰ عن ابن أبي ذئب هذا الحَدِيث، والصَّحيح أنَّ هذا الحَدِيث لا يرقَىٰ إلىٰ دَرَجَة الصِّحَّة.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ش قوله: (لا تجعلوا بيوتكم قُبُوْراً)، قَالَ شيخ الإسْلَام نور الله ضريحه: أي لاتعطلوها من الصَّلَاة فيها والدعاء والقراءة، فتكون بمنزلة القُبُور، فأمر بتحري العبادة في البيوت، ونهىٰ عن تحريها عند القُبُور، عكس ما يفعله المشركون من النَّصَارىٰ ومن تشبه بهم.

وفي الصَّحِحَينِ عن ابن عمر مرفوعًا: (اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قُبُوْراً).

الشَّرح

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ الشَّارِعَ نهىٰ عن الصَّلَاةِ عند القُبُورِ، وبعض المُسلِمين خالف النَّص، فجعل القَبْر مسجداً، وهجر المَسَاجِد التي ليس فيها قُبُوْر، ولا يعظم إلا المَسْجِد الذي فيه قبر، وهذا عكس ما أمر به النَّبي ﷺ.

فالفقرة الأولىٰ: (اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قُبُوْراً)[١]، لها شواهد في كتب الصحاح، فصحت المَسْأَلَة الأولىٰ؛ لأن المَسْأَلَة أوردها الشَّارِح رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهذا الغرض، لكن في آخر الحَدِيث إشكال،في قوله: (فصلاتكم تبلغني حيث كنتم) إن كان في الدُّنيَا، فلم نعرفْ أنَّ النَّبي ﷺ كان تبلغُه الصَّلَاة، ولم يخبر أنَّه بلغته الصَّلَاة من أحدٍ في الأَرْض، وإن كان بعد المَوْت

---

(١) أخرجه البُخَارِي في صحيحه، كتاب الصَّلَاة، باب كراهية الصَّلَاة في المقابر، برقم: (٤٣٢)، ومسلم في صحيحه، كتابصَلَاة المسافرين وقصرها، باب استحبابصَلَاة النافلة في بيته وجوازها في المَسْجِد، برقم: (٧٧٧)، (١/ ٥٣٨).

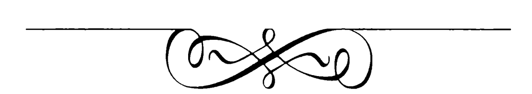
ففي الأَرْض مليار مُسلِم الآن، في كل لحظة صَلَاة وفيها سَلَام علىٰ النَّبِي ﷺ، وهـذا الاستيعاب لهـذه الجمـوع لا يكـون إلا مـن خـالِق، العبـدُ المَخْلُـوق لا يستطيع يسمعَ كل المليـار، ولا مليـون ولا مائـة ألـف ولا شخصين يتكلمـون، فلا يُرفع ﷺ إلىٰ دَرَجَة الخَالِق، سماعُ الأصوات وتلبيةُ الحاجاتِ، وسماعُ الدعواتِ من الخَلْق جميعـًا لا يحيطُ بها إلا الخَالِقُ، لكـنَّ المبالغـةَ في تعظيـم النَّبِـي ﷺ أدَّىٰ إلـىٰ مثـل هـذه الأحَادِيـث، فينبغـي أن نُحقـقَ؛ لأننـا نقـول: إن خَصَائص الخَالِقِ غيرِ خَصَائص المَخْلُوق، المَخْلُوقُ قدرتُه محدودة، وسماعُه محدودٌ، ثُمَّ لماذا يُبلَّغ الصَّلَاة ﷺ، هل هو الذي سيُعطي النَّاس أجراً؟ الـذي سيُعطينا الأجرَ هو الله ﷻ، فلمَ نُشغل بما سيقع؟ وكذا جاء في بعض الروايات أنَّه يُبَلغ بما تفعله أمتُه، فجعلـوه مثلَ الله ﷺ، بـل في الصَّحِيح أنَّـه يـومَ القِيَامَـة عندما يأتي عند الحوض، فيأتي أناسٌ يُذادون عـن الحـوضِ فيقـول ﷺ: (**هلـم، فيمنعون من الحوض، فيقول الملك: إنك لا تدري ماذا أحدثوا بعـدك**)[1] نصـًا صحيحـًا، فيكف يقول: " لا تَدري " ، وهنا يقول: يُبلَّغ بكل شيء.

ولهذا نقول: جاءت أحاديثُ عجيبةٌ في هـذه المَسْألَة، وستأتي إن شاء الله نمـاذج منهـا، تبين أن النَّبِـيَّ ﷺ يسـمعُ كـلّ شـيء، وهـذا جهـلٌ بخصـائصِ المَخْلُـوق مَـعَ خَصَـائصِ الخَـالِقِ، فسماعُ جميـعِ الأصـوات والـدعواتِ مـن خَصَـائصِ الخَـالِقِ ﷻ، يجـب علـىٰ الأُمَّـة أن تُعظِّـم الرَّسُـولَ ﷺ، وتحبـه وتقدِّره، لكن لا تُشركُه مَعَ الله، هـذا الشِّرْك خطيرٌ جداً، تعظيم الرَّسُولُ ﷺ

---

(١) سبق تخريجه باختلاف في اللفظ.

ليس شرطًا فيه أن يكونَ مثل الله، بعضُ النَّاس يذكرُ الله ولا يهتزُ قلبُه، ويذكر الرَّسُولَ ﷺ ويضطربُ، وكأنَّه ﷺ في قلبه أعظمُ من الخَالِقِ، وبعض النَّاس بالعكس لا يضطرب لا للخالِق ولا للمخلوقِ، فلا إفراطَ ولا تفريطَ، نعرفُ حقَّ الخَالِقِ ولا نصرفُه لغيره، ونعرفُ حقّ المَخْلُوق ولا نعطيه فوق حقِّه، فالأنبياءُ لهم حقٌّ، لكنهم بَشَر عبيدٌ لله، ليست عندهم قدرةُ الخَالِقِ، بَشَر يبقون في بَشَريتهم قبل المَوْت وبعد المَوْت، وستأتي أحاديثُ تدل علىٰ أن سماع الأصوات من جميع النَّاس ليس من خَصَائص المخلوق، وأنَّها من خَصَائص الخالِق. يُبلَّغُ السلام من كل الأَرْض!، فهذا مبالغةٌ، وبدارسة الأسانيد نرىٰ أنَّها لم تثبت، ولهذا لا ينبغي للمسلم أن يعمل أو يقول إلا بما صح عن رَسُول اللهِ ﷺ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفي صحيح مُسلِم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (لا تجعلوا بيوتكم مقابر، فإن الشَّيطَان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة)، وفيه أن الصَّلَاة في المقبرة لا تجوز، وأن التطوع في البيت أفضل منه في المَسْجِد، وفي حَدِيث أبي هريرة الذي ذكرنا كراهة القراءة في المقابر، وكل هذا إبعاد لأمته عن الشِّرْك.

الشَّرح

قوله: (لا تجعلوا بيوتكم مقابر إن الشَّيطَان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة)[1] فإذا لم يُقرأ فيه شيء من القُرْآن حلَّت فيه الشَّيَاطِين، فإذا كانت فيه آلات الملاهي الفاسقة فرَّخت فيه الشَّيَاطِين، فيصبحَ البيتُ مأوىً للشَّياطين، وهذا حالُ كثيرٍ من بيوتِ المُسلِمين اليومَ، هل تُقرأ فيه سورةُ البقرة؟ هل تُقرأُ فيه سورةُ آل عمران؟ هل يُتلىٰ كتابُ الله؟ لا يُسمعُ فيه إلا أصواتَ الملاهي، فإذا دَخلَت هذه البيوت رأيت فيها الانشقاقَ والخلافَ، والأمراضَ النَّفْسيةَ، والصراعات الزوجيةَ، والخلافاتِ الأسريةِ؛ لأن الشَّيَاطِين قد فرَّخت في هذه البيوت، وإلا لو قُرِئت آيات الله لخرج الشَّيطَانُ، لكن نحن أخرجنا القُرْآنَ فدخل الشَّيطَانُ، وهذا كلامُ أرحمُ النَّاس بأمته، يعلمنا كيف نحفظُ بيوتنا، كيف تُقرأُ السورُ في البيوتِ حتىٰ تحفظَ بها البيوتُ، فإن القلبَ إذا تعود علىٰ الملاهي وتعوَّد علىٰ مشاهدةِ الفسادِ لا يحتملُ القُرْآنَ، والقرآنُ لا يسكن بيتاً فيه فسادٌ، فينبغي أن نحرصَ أن ننظف بيوتنا من الفسادِ، حتىٰ نحميها ونحمي أسرنا من الشَّيَاطِين.

---

(١) أخرجه مُسلِم في صحيحه، كتابصَلَاة المسافرين وقصرها، باب استحبابصَلَاة النافلة في بيته وجوازها في المَسْجِد، برقم: (٨٧٠)، (١/ ٥٣٩).

هذا الحَدِيث دليلٌ واضح علىٰ أنَّ البيتَ الذي ليس فيه قرآن يدخلُ فيه الشَّيطَانَ؛ لأنَّه يقول ﷺ: (إن الشَّيطَان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة) فإذا لم تقرأ فيه سورة البقرةُ لا يَنفر، فينبغي لنا أن نُحصِّن بيوتَنا وقلوبَنا، وأنَّ نقرأ الأوراد، والأذكار صباحًا ومساءً، احفظ نفسك بآيات الله، لكن الآن لا ترَىٰ القُرْآنَ يُسمع، بل إذا جاء القُرْآن ربما يُقفلُ الجهاز ؛ لأنَّ الشَّيطَان قد سكن،ولهذا بعض العُلَمَاء يقول: شيطانُ الإنسَان المؤمن ضعيفٌ نحيفٌ؛ لأنَّه إن دَخَلَ البيت سمَّىٰ الله ، فما دَخَلَ معه، إن أكل سمَّىٰ الله فما أكل معه، إن شرب سمَّىٰ الله ، فالشيطان ضعيفٌ، ما يستطيع يجبرَه علىٰ شيء، لكن شيطانَ الفاسق سمِينٌ؛ لأنَّه يشاركُه بل يأكلُ أكثر مما يأكلُ هو، فلا يستطيع الفاسقُ أن يَمْتَنُّع من الشَّيطَان؛ لأن شيطانه قويٌ، والإنسَان المُؤمِن هو الذي يعيش مَعَ الله في طعامِه وشرابِه ومبيته وإتيانه أهلَه، حركتُه كلُها مَعَ الله كَمْا قَالَ – تَعَالَىٰ – : ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْۚ﴾ [النساء:١٠٣].

إذا انتهت الصَّلَاة ذكرُ الله مرافقٌ معه في كل لحظةٍ، فاذكر الله وأنت واقفٌ وأنت نائمٌ، وأنت جالسٌ، وأنت تتحرك، فإذا كان الله معك في كل لحظة ما يستطيع عدوكَ أن يأسِركَ أبداً، بل يشرُد منك.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (ولا تجعلوا قبري عيداً) قَالَ شيخ الإسْلَام: العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام علىٰ وجه معتاد، عائداً إمَّا بعود السنة أو بعود الأسبوع أو الشهر ونحو ذلك، وتقدم ذلك.



الشَّرْح

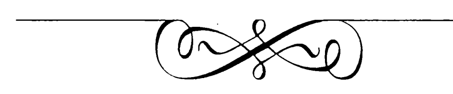
العُودُ غيرُ العَودِ، العَودُ: التَّكرار، والعُودُ: قطعةٌ من الخشب، فما هو الصَّحِيح في القراءة.

هنا تفسير لمعنىٰ العِيد، مُرادُ الحَدِيث: (**لا تجعلوا قبري عيداً**)[1] لا يتكرر مجيئُكم لهذا القَبْر، وإن قلنا إنَّ هذا الحَدِيث لا يصح، لكن معناه صحّ من أحاديث أُخرىٰ، فإن الصَّحَابَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لم يُنقل عنهم أنَّهم كانوا يأتون قبرَه أبداً، نادراً كان يأتون، بعض الصَّحَابَة إن جاء من مَسيرٍ بعيدٍ زار القَبْرَ للسلام عليه، لكن لم يُنقل أنَّهم كانوا يأتون القَبْر كَمْا يُفعل اليوم، وكما فُعل قبل سنوات، واستمر كثيرٌ من المُسلِمين علىٰ تقديس القَبْرِ الشريفِ، وقبر نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبرٌ معظَّم، لكن تعظيمه ليس بهذه الصورة، تعظيمُه احترام من فيه واتباع سنته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ليس تعظيمُه بأن تتمسحَ بترابه، أو بحديدِه، الآن الشبك الحديد ليس من عهدِ النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، صُنع قريباً، والذي صنعَه قد يكون كافراً؛ لأنَّه لم تكن عندنا صناعات أصلاً في السابق، فتتمسح بصناعةِ كُفَّار، صحيح أنَّ الحجرةَ النَّبوية لها قيمتها عند الله، ومُحترمة، لكن هذا الحديد لم تمسه يدُ رَسُول اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حتىٰ تأتي إلىٰ هذا الحديد وتتمسح به!!.

---

(١) سبق تخريجه.

فليس من الإِسْلَام الَّتمسُّح بالأحجار أو الجدران، أو الحديد. محبَّةُ الرَّسُولِ في اتِّباعه ﷺ ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران:٣١]، ما قَالَ: تمسحوا بالجدارن تمسحوا بالحديد، ترىٰ بعض المُسلِمين لا يعرف سُنَّة النَّبِي ﷺ ولا يُحسنُ الصَّلَاة، ويزعُم محبَّة الرَّسُولِ ﷺ، أين محبَّة الرَّسُول ﷺ؟ رَسُولُ اللهِ جاء بأمر عظيم هو هذا الدِّين، أعظم من حياته ﷺ، قَالَ عندما قَالَ عمُّه أبو طالب: يا ابن أخي إن قومك قد تأذَّوا منك، فخفِّف مما تفعل: (والله يا عمي لو وضعوا الشَّمْس في يميني والقمر في يساري علىٰ أن أترك هذا الأمر ما تركته حتىٰ يظهره الله أو أهلك دونه)[1] يموتُ أو يُقتلُ، فهذا الدِّين أعظم من حياتِه ﷺ، فأنت تحبُّه بأن تُعظِّم ما يُعظِّم ﷺ، فهو يُعظِّم دينَ الله، أمَّا أن تتركَ دينَ الله وتزعُم أنَّك تحبُ الرسول مرة في السُنَّة وتحتفل بميلاده ﷺ، أو تعظمه بزيارة القَبْر الشريف فليست هذه محبَّة النَّبِي ﷺ.



(١) هذه الواقعة مذكورة بتفصيلها في كتب السير، مثلاً: سيرة ابن هشام (١/ ٣٣٣)، سير ابن كثير (١/ ٤٧٤)، ولم أجده في دواوين السُنَّة.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال ابن القَيِّم -رحمه الله تَعَالَى-: العيد ما يعتاد مجيئه وقصده من زمان ومكان، مأخوذ من المعاودة والاعتياد، فإن كان اسمًا للمكان فهو المكان الذي يقصد فيه الاجتماع، وانتيابه للعبادة أو لغيرها، كَمْا أن المَسْجِد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر جَعَلَها الله عيداً للحنفاء ومثابة، كَمْا جَعَلَ أيام العيد فيها عيداً، وكان للمشركين أعياد زمانية ومكانية، فلما جاء الله بالإسلام أبطلها وعوض الحنفاء منها عيد الفطر وعيد النحر وأيام منى، كَمْا عوضهم عن أعياد المشركين المكانية بالكعبة ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر.

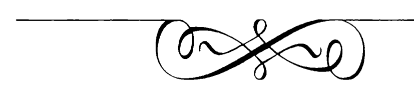


الشَّرْح

ابن القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يذكر الأعيادَ المكانية والزمانيةَ، فالمكانيةُ هي مكانُ العباداتِ التي هي مِنىٰ، مُزدلفة، والمسجِد الحرام، هذه يعتاد فيها النَّاسُ كلَّ عام يأتون إليها، وكذلك الأعيادُ، عيدانُ للمسلمين عيدٌ للفطر، وعيدٌ للأضحىٰ، وليس هناك أعيادٌ للمسلمين غيرها، وما استحدثه النَّاسُ اليوم أهواءٌ، الآن الذي يذهب للدول الخارجية يرَىٰ عجبًا، السَنَة كلُها أعيادٌ، عيدُ الأم وعيدُ الأب، وعيدُ القلب، حتىٰ أحيانًا الأسبوع تُغلقُ فيه الإدارات أكثر من مرَّة، فهذه أهواء. المُسلِمون عندهم فقط عِيدان.

وسرَت هذه العادةُ إلىٰ بلاد المُسلِمين؛ لأنَّ العالم يعيش في وسط استعمارٍ عام، الاقتصاد بأيدِيهم، والأمورُ بأيديهم، فلو أرادوا أن يمسُّوا دولةً من الدول حركوا عُلماءها وأسقطوها، فالنَّاس يعيشون تحت رحمتِهم؛ لأنَّ النَّاس يعيشون في ضعف، تركوا أمر الله فسلَّط الله عليهم من يعذبُهم، فهم قرَّروا الأعيادَ وعمَّموها، والباقون نفَّذوها، وليس عندنا هذه الأعياد؛ لأنَّ

العيدَ فعلٌ تَعبدي عند المُسْلِم، لا ينبغي له أن يُحدِث لنفسه عيداً من هواه أو يشارك الكافرَ في أعياده، فينبغي أن يكون هناك استقلال للمسلمين، لكن هناك ضعفٌ عام، فكلما عيَّدوا عيَّدنا، وإن حزِنوا حزنَّا، وإن ضحكُوا ضَحِكنا هكذا، ينبغي أن يكون هناك استقلاليةٌ في الأعيادِ، ولا يكون عندنا إلا العيدان، عيدُ الفطر؛ لأننا نفرحُ بالعبادة، في ختامِ العبادةِ نفرحُ، أمَّا في غيرها فما ينبغي لنا أن نستجيبَ لما يحدث عند غيرنا.

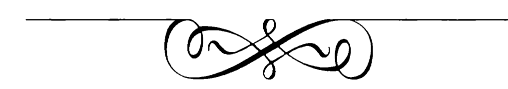


قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال غيره: هذا أمر بملازمة قبره والعكوف عنده واعتياد قصده وانتيابه، ونهىٰ أن يجعل كالعيد الذي إنَّمَا يكون في العام مرة أو مرتين، فكأَنَّه قَالَ: لا تجعلوه كالعيد الذي يكون من الحولِ إلىٰ الحولِ، واقصدوه كلَّ ساعةٍ وكل وقت.

الشَّرح

هنا ابن القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ يذكرُ فهمَ بعض الذين ضلَّت أفهامهم، يقول: الرَّسُولُ ﷺ أراد لا تجعلوا قبري عِيداً ،لا تتركوا القَبْرَ إلىٰ آخر العام ثُمَّ تأتوا إليه، أي: ينبغي أن تأتوا إليه في كل يوم أو كل أسبوع، هذا الفهمُ السقيم العجيب!، قَالَ: هذا أقرب إلىٰ التدلِيس منه إلىٰ الإفهَام، ما يقولُ هذا شخص أرادَ أن يُفهِّم النَّاسَ ما يريد، ابن القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ سيعلق علىٰ هذا الجملة.

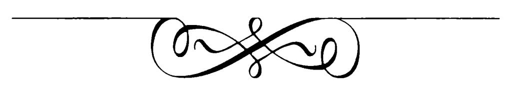


قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهذا مراغمة ومحادة ومناقضة لما قصده الرَّسُولُ ﷺ، وقلب للحقائق ونسبة الرَّسُولُ ﷺ إلىٰ التلبيس والتدليس بعد التناقض، فقاتل الله أهل الباطل أنىٰ يؤفكون، ولا ريب أن من أمر النَّاس باعتياد أمر وملازمته وكثرة انتيابه، بقوله: (لا تجعلوا عيداً) فهو إلىٰ التلبيس وضد البيان أقرب منه إلىٰ الدلالة والبيان، وهكذا غيرت أديان الرسل، ولولا أن الله أقام لدينه الأنصار والأعوان الذابين عنه لجرىٰ عليه ما جرىٰ علىٰ الأديان قبله، ولو أراد رَسُول اللهِ ﷺ ما قَالَه هؤلاء الضلال لم ينه عن اتخاذ قُبُوْر الأَنْبِيَاء مَسَاجِد، ويلعن فاعل ذلك، فإنَّه إذا لعن من اتخذها مَسَاجِد يعبد الله فيها، فكيف يأمر بملازمتها والعكوف عندها وأن يعتاد قصدها وانتيابها، ولا تجعل كالعيد الذي يجيء من الحول إلىٰ الحول، وكيف يسأل ربه أن لا يجعل قبره وثناً يعبد، وكيف يقول أعلم الخَلْق بذلك: (ولولا ذلك لأبرز قبره) ولكن خشي أن يتخذ مسجداً، وكيف يقول: (لا تجعلوا قبري عيداً وصلوا علي حي ثُمَّا كنتم) وكيف لم يفهم أصحابه وأهل بيته من ذلك ما فهمه هؤلاء الضلال الذين جمعوا بين الشِّرْك والتحريف، وهذا أفضل التَّابِعِين من أهل بيته علي بن الحسين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: نهىٰ ذلك الرَّجُل أن يتحرىٰ الدُّعَاء عند قبره ﷺ، واستدل بالحديث، وهو الذي رواه وسمعه من أبيه الحسين عن جده علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وهو أعلم بمعناه من هؤلاء الضلال، وكذلك ابن عمه الحسن بن الحسن، شيخ أهل بيته كره أن يقصد الرَّجُل القَبْر إذا لم يكن يريد المَسْجِد، ورأىٰ أن ذلك من اتخاذه عيداً انتهىٰ.

الشَّرح

هذا النَّص نقله عن ابن القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: عندنا أحاديث صحيحةٌ صريحةٌ، فقد جاءُ لعنُ من اتخذ القُبُورَ مَسَاجِد، ولعنُ من صوَّرَ عليها الصورَ وأقام التَّمَاثِيل، فكيف يقول هذا : " لا تجعلوا قبري عيداً " معناها: تعالوا إلي كل يوم أو كل أسبوع؟!!، فقال: هذا الفهمُ اتهام للرسول ﷺ بأنَّه متناقضٌ، و أنَّه يُلبِّس علىٰ أمته، فقال: هم أرادوا شيئًا وطوَّعوا وفَسَّروا الحَدِيث علىٰ ما يريدون، لقد كان هذا الفعل سببًا في لعنِ اليَهُودكَمَا مَرَّ، قَالَ - تَعَالَىٰ -: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة:١٣]. هذا هو التَّحريف، يُحرَّف الكلمَ عن معناه؛ لأنَّ الكَلَام له معنىٰ، فالذي يُحرِّف الكَلَام ليتفقَ مَعَ هواه هو ممن تلحقه اللَّعْنَةُ، لا ينبغي أن يُجعل القُرْآنُ تبعًا للهوىٰ، بل يكون الهوىٰ تِبعًا للقرآن، فتأتي إلىٰ القُرْآن وأنت خَالي الذِّهن، لتأخذ الحُكمَ من القُرْآن، لا تأتْ إلىٰ القُرْآن وأنت قد اخترت أمراً فتبحث عمَّا يؤيد هذا الأمر، وتلوي عُنقَ الآياتِ ليتفقَّ مَعَ ما تريد، فقد جَعَلَتَ القُرْآنَ تبعًا لك، ولم تجعل نفسكَ تبعًا للقرآن، وشتانَ بين الأمرين.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قلت: وكيف يريد النَّبِي ﷺ هذا المعنى، ويعبر عنه بهذا الكَلَام مَعَ أَنَّه أفصح الخَلْق وأنصحهم، وكان يمكنه أن يقول: أكثروا زيارة قبري أو اجعلوه عيداً تعتادون المجيء إليه والعبادة عنده، فظهر بطلان هذا القول، إذا تبين ذلك فمعنى الحَدِيث نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص، واجتماع معهود كالعيد الذي يكون على وجه مخصوص في زمان مخصوص، وذلك يدل على المنع في جميع القُبُور وغيرها؛ لأن قبر رَسُول اللهِ ﷺ أفضل قبر على وجه الأَرْض، وقد نهى عن اتخاذه عيداً، فقبر غيره أولى بالنهي كائناً من كان، قَالَ المصنف: وفيه النهي عن الإكثار من الزيارة.

قوله: (وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم) قَالَ شيخ الإِسْلَام: يشير بذلك إلى أن ما ينالني منكم من الصَّلَاة والسلام يحصل مَعَ قربكم من قبري وبعدكم، فلا حاجة بكم إلى اتخاذه عيداً انتهى.

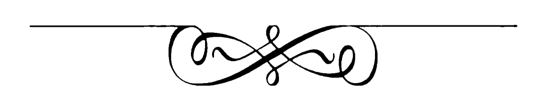


الشَّرح

قوله: (قلت: وكيف يريد النَّبِي ﷺ هذا المعنى..) وردَ النهي عن اتخاذ قُبُوْرِ الأَنْبِيَاء مَسَاجِد مَعَ أَنَّهم هم أفضَلُ البَشَر، فالنَّهي عن اتخاذ قُبُوْرهم مَسَاجِد نهيٌ عن غيرها؛ لأن قُبُوْرَ الأَنْبِيَاء أفضلُ القُبُورِ كَمْا أَنَّ الأَنْبِيَاء أفضل الخَلْقِ، هنا يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: إذا كان هذا حُكمُ قبره ﷺ، فحكمُ قبرِ غيره من باب أولى.

قوله: (قال شيخ الإِسْلَام: يشير بذلك إلى أن ما ينالني منكم من الصَّلَاة..) هذا هو التفسير الثاني الذي قلنا أَنَّه له أحدُ تفسيرين، إمَّا أَنَّه أراد أَنَّه "يَبلُغُهُ"

بمعنى: يسمَعُه، أو يُخبَر به، وَإِمَّا أَنَّه ينالُه من صلاتهم وسلامهم ما يحصُل من الأجرِ . وقربُهم وبعدهم مكاناً عنه سواءٌ، يحصلُ للنبي ﷺ ما يصلُه من هذه الدعواتِ والصلاةِ والسلام، فإن الصَّلَاة والسلام دعوات له ﷺ، سواء كان الإنسَان قريبًا أو بعيداً.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقد رَوَىٰ أبو داود عن أبي هريرة مرفوعـًا: (ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتىٰ أردَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ).

الشَّـرح

قوله ﷺ: (ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتىٰ أرد عَلَيْهِ السَّلَامُ)(١)، هذا الحَدِيث قَالَ المحققُ: إنَّ إسناده جيدٌ، وهو من الأحَادِيث التي سَندرسها من خلال أقوال العُلَمَاء رَحِمَهُمُ اللَّهُ، فإنَّه قد عَرض هذا الحَدِيث ابن عبد الهادي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه (الصارمُ الُمنكِي للردِّ علىٰ السُّبكي)، وبين قواعد لأهل العلم في التعامل مَعَ تصحيح الأحَادِيث وتضعيفها، فقال: أولاً هذا الحَدِيث رواه أبو داودَ عن حَيوةَ عن أبي صخر حميد بن زياد، عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: لا يَسلَم من مقالٍ في إسنادِه ونِزاعٍ في دلالتِه، أمَّا المقالُ في إسناده فمن جهةِ تَفرُّدِ أبي صخر به عن ابن قسيط عن أبي هريرة، ولم يُتابع ابن قسيط أحدٌ في روايته عن أبي هريرة، بمعنىٰ: أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَمْ له من رُوَاةٍ؟ عشراتٌ، قد روي عن أبي هريرة أكثر من خمسة آلاف حَدِيث، لم يذكر أحدُ طلاب أبي هريرة غيرَ هذا الشخص هذا الحَدِيث، فيقولُ ابنُ عبد الهادي رَحِمَهُ اللَّهُ: أنَّه لم يُتَابعه أحدٌ، ولا يُتابع أبا صخرٍ أحدٌ في روايته عن ابن

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب المناسك، باب زيارة القُبُور، برقم: (٢٠٤١)، والإمام أحمد في المسند، برقم: (١٠٨١٥)، (١٦/ ٤٧٧)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ، كتاب الحج، باب زيارة قبر النَّبِي ﷺ، برقم: (١٠٢٧٠)، (٥/ ٤٠٢)، والطبراني في المعجم والأوسط، برقم: (٩٣٢٩)، (٩/ ١٣٠).

قسيط، كِلا الشخصين تفرَّدا به، وهذا ما ذَكَره الطبراني عندما قَالَ في أحدِ كُتُبِه: تفرَّد به حيوة عن أبي صخرٍ عن عبد الله بن يزيد، فهذا الحَدِيث تفرَّد به راوٍ، والمشكلةُ في حميد بن زياد الذي رواه عن يزيد بن عبد الله، قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: قد اختلف الأئمةُ في عدالتِه، فوثَّقه بعضُهم، وتكلَّم فيه آخرون، واختلفَت الرُّوَايَة عن يحيىٰ بن معين، فمرَّة وثَّقَه وأخرىٰ ضعَّفه، وكذلك الإمام أحمد، ثُمَّ أورّد له أحاديثَ مما أنكر عليه فيها.

قال: وهذا الرَّاوِي خرَّج له مُسلِم، لكن قد يقال: كيف هو من رُوَاة مُسلِم ويُضعَّف؟ قَالَ: وقد ذكر بعض الأئمةُ أنَّه علىٰ شرطِ مُسلِم، وفي ذلك نظر، فإن ابن قُسيط وإن كان مُسلِم قد رَوَىٰ في صحيحه من روايةِ أبي صخر عنه، لكنه لم يخرج من روايته عن أبي هريرة شيئًا، فلو كان قد أخرج في الأُصُول حَدِيثًا من روايته عن أبي صخر عن ابن قسيط عن أبي هريرة أمكن أن يقال في الحَدِيث علىٰ شرطِه، إذاً لم يخرج في الأُصُول حَدِيثًا من رواية هذا الشخص.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: واعلم أنَّ كثيراً ما يَروي أصحابُ الصَّحِيح حَدِيث الرَّجُل عن شيخٍ مُعينٍ بخصوصيته به، ومعرفته بحديثِه وضبطِه له، ولا يُخرِّجُون من حَدِيثه عن غيرِه، لكونِه غيرِ مشهورٍ بالروايةِ عنه، ولا معروفٍ بضبطِ حَدِيثه أو لغيرِ ذلك، فيجيءُ مَن لا تحقيقَ عنده، فيرىٰ ذلك الرَّجُل المخرِّج له في الصَّحِيح قد رَوَىٰ حَدِيثًا عمَّن خرج له في الصَّحِيح من غيرِ طريق ذلك الرَّجُل، فيقول: هذا علىٰ شرطِ الشيخين أو علىٰ شرط البُخَارِي أو علىٰ شرط مُسلِم؛ لأنَّهما احتجا بذلك الرَّجُل في الجملة، قَالَ: وهذا فيه نوع تساهلٍ، فإنَّ صاحبيَ الصَّحِيح لم يحتجَّا به إلا في شيخ مُعين لا في غيره، فلا يكونُ علىٰ شرطِهما، وهذا كَمْا يُخرِّج البُخَارِي ومسلمُ حَدِيث خالدٍ بن مخلد القطواني عن سليمان بن بلال، وعن علي بن مسهل وغيرهما، ولا يخرِّجان حَدِيثه ـخالد ـ عن عبد الله بن المثنىٰ، وإن كان البُخَارِي قد رَوَىٰ لعبد الله بن المثنىٰ

من غير رواية خالد. فإذا قَالَ قائل في حَدِيثه عن عبد الله بن المثنىٰ: هذا علىٰ شرط البُخَارِي كَمْا قَالَه بعضهم في حَدِيثه عن ثابت البناني عن أنس بن مَالِك: (أول ما كُرهت الحِجامَة لصائم... إلخ)[١] كان في كلامه نوعُ تساهلٍ، فإن خالداً غيرُ مشهورٍ بالرواية عن عبد الله بن المثنىٰ، والحديث فيه شذوذ وكلام مذكور في غير هذا الموضع.

قال: وكما يُخرِّج مُسلِم حَدِيث حماد بن سلمة عن ثابت في الأُصُول دون الشَّوَاهِد، ويخرج حَدِيثه عن غيره في الشَّوَاهِد، ولا يُخَرِّج حَدِيثه عن عبد الله بن أبي بكر بن أنس بن مَالِك، وعامر الأحول، وهشام بن حسان، وهشام بن زيد بن مَالِك وغيرهم، وذلك لأن حماد بن سلمة أثبت من رَوَىٰ عن ثابت، وكما يخرج مُسلِم أيضاً حَدِيث سويد بن سعيد عن حفص بن ميسرة الصنعاني مَعَ أن سويداً ممن كثر الكَلَام فيه واشتهر؛ لأن نُسخة حفص ثابتةٌ عند مُسلِم من طريقِ غيرِ سويدُ، لكن بنزولٍ، وهي عنده من روايةِ سويدٍ بعُلوٍ، فلذلك رواها عنه، قَالَ إبراهيمُ بن أبي طالب: قلت لمسلم: كيف استجزت الرِّوَايَة عن سويد في الصَّحِيح؟ قَالَ: ومِن أين كنتُ آتي بنسخةِ حفص بن ميسرة؟، فليس لقائل أن يقول في كل حَدِيث رواه سويد بن سعيد عن رجل رَوَىٰ له مُسلِم من غير طريق سُوَيد عنه: هذا علىٰ شرط مُسلِم، فاعلم ذلك، إلىٰ أن قَالَ: وهكذا عادةُ مُسلِم غالباً إذا رَوَىٰ لرجل قد تُكلِّم فيه، ونُسبَ إلىٰ ضعفٍ وسوءِ حفظ وقلةِ ضبطٍ، إنَّمَا يروي له في الشَّوَاهِد والمُتابعات، ولا يخرج له شيئاً انفرد به لم يتابع عليه، فعلم أن هذا الحَدِيث الذي انفرد به أبو صخر عن

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرىٰ، كتاب الصيام، باب ما يستدل به علىٰ نسخ حَدِيث "أفطر الحاجم والمحجوم"، برقم: (٨٣٠٢)، (٤/ ٤٤٧)، والدارقطني في سننه، كتاب الصيام، باب حجامة الصائم، برقم: (٢٢٦٠)، (٣/ ١٤٩).

ابن قسيط عن أبي هريرة لا ينبغي أن يقال هو علىٰ شرط مُسلِم، وإنما هو حَدِيث إسناده مُقارب، وهو صالح أن يكون مُتابعًا لغيره وعارِضًا له، قَالَ ابن القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: وسألت شيخَنا عن سماعِ يزيد بن عبد الله عن أبي هريرة فقال: "ما كان أدرَكه، وهو ضعيفٌ، وفي سماعه منه نظر زيادة علىٰ الأفهام ".

هذا الكَلَام لعالم من علماء الشَّافِعِية، وهو ابن عبد الهادي رَحِمَهُ اللَّهُ، المتوفىٰ عام سَبْعمائة وأربعة وأربعين هِجرية، جاء بعده الزيلَعي وهو مُتوفىٰ عام ثُمانمائة وتسعة وسبعين، بعد أكثر من مائة عام، له كتاب: (نصبُ الراية) هذا أعظم كتاب تكلم علىٰ أحاديث الأحكام بأسلوب العالم المحقِّق، فإنَّه رَحِمَهُ اللَّهُ خَرَّجَ أحاديثَ كتاب (الهداية)، وكان يقف وقفاتٍ جميلةً، منها وقوفه عند قضية البَسْمَلَة، هل البَسْمَلَةُ يقرأ بها في أول السورةِ جهرةً أم لا؟ فعندما تكلَّم علىٰ هذه القضية تكلَّم بنفس كلامِ ابن عبد الهادي رَحِمَهُ اللَّهُ وكان يُعلِّق علىٰ تضعيفِ راوٍ رَوَىٰ له مُسلِم، أي: كيف أنَّ بعضَ النَّاس إذا رأىٰ راويًا رَوَىٰ له أصحابُ الصَّحِحَينِ أو أحدُهما اعتمدَ ذلك، وحيثُمَا وجدَ ذلك الرَّاوِي نسَبَ إخراجَ حَدِيثه إلىٰ البُخَارِي ومسلم أو إلىٰ أحدهما، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: إن صاحبي الصَّحِيح قد يُخرِّجان لمن تُكلِّم فيه، ولكنهما إذا أخرجا لمن تُكلِّم فيه فإنَّهما ينتقيان من حَدِيثه ما تُوبع عليه وظهرت شواهده وعُلم أنَّ له أصلاً، ولا يرويان ما تَفرَّد به سِيَّما إذا خالفه الثقات، وهذه العلَّة راجت علىٰ كثير ممن استدرَك علىٰ الصَّحِحَينِ، فتساهلُوا في استدراكِهم، ومِن أكثرهم تساهلاً الحاكمُ أبو عبد الله في كتاب(المُسْتَدْرَك)، فإنَّه يقول: هذا حَدِيث علىٰ شرط الشيخين أو أحدِهما، وفيه هذه العلَّة، إذ لا يَلزَم من كون الرَّاوِي مُحتَجًّا به في الصَّحِيح أنَّه إذا وُجِد في حَدِيث آخر كان ذلك الحَدِيث علىٰ شرطه. إلىٰ آخر ما تكلَّم رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه المَسْأَلَة.

هذا تدقيقٌ في تتبعِ بعضِ المحققين إذا رأىٰ الرَّجُلَ في صحيحِ البُخَارِي أو صحيحِ مُسلِم اعتبرَه ثقة، وقول بعضِهم: من رَوَىٰ له البُخَارِي ومُسلم فقد جاوز القنطَرةَ ليس علىٰ الإطلاق؛ لأنَّ صاحبَ الصَّحِيح يَنتقي، فليس كلُّ حَدِيثٍ ورد فيه راوٍ رَوَىٰ له أصحابُ الصَّحِيحَينِ يكون علىٰ شرطِهما، و أنَّهم إنَّمَا ينتقون الحَدِيث انتقاءً.

فهذا الحَدِيث: (ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتىٰ أرد عليه السلام)(١) لم يصح، فكم يسلم عليه ﷺ في الصَّلَاة، كل مُسلِم يصلي الصَّلَاة يصلي عليه، في كل لحظة صَلَاة؛ لأنَّ الأَرْض محاطةٌ بالأوقات الخمسة للصلوات الخمسِ، ما تخلو منها أبداً، وعندما قسَّمَ العُلَمَاءُ الأَرْضَ تقسيماً وهمياً إلىٰ خطوط طول وعرض جَعَلَوا بين كل خط وخط أربع درجاتٍ بحيث لا ينتهي مؤذن من خط إلا ويؤذن المؤذن الثاني في الخط الثاني؛ لأنَّ الصلوات مَعَ حركة الشَّمْس، ففي كل لحظة صلواتُ الملايين أو مئات الآلاف وسلامُهم علىٰ النَّبِي ﷺ، كيف تُردُّ روحُه؟، لا يستطيع اللحاقَ، فأحياناً متنُ الحَدِيث يكون فيه نكَارةٌ واضحة، نبينا ﷺ بَشَر، بعد المَوْت وقبل المَوْت، وقبل المَوْت ما كان يستطيع ﷺ أن يسمَع أكثرَ من واحد، وعندما اختلف عليه بعضُ الصَّحَابَة في غزوة حُنين، قَالَ: ارتفِعوا حتىٰ أصل إلىٰ آرائكم؛ لأنَّه كثرُ الكَلَام، ولكنه ﷺ في قمة البَشَرية، لكن لا نقول أنَّه فيه صفاتُ الخَالِق، فكونه يبلِّغ السلامُ من كل الأَرْض، ويعرِف مَن صلَّىٰ وسلَّم عليه فيه غُلُو، هذا حقَّ الله صرَفناه للمخلوق الذي هو نبيُّنا ﷺ، فهذا الحَدِيث لم يصحْ من حيثُ السَّنَد.

---

(١) سبق تخريجه قريباً.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:

وعن أوس بن أوس مرفوعـًا: (أكثروا من الصَّلَاة علي يوم الجمعة وليلة الجمعة، فإن صلاتكم معروضة علي، قَالَوا يا رَسُول اللهِ: كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت؟ قَالَ: إن الله حرم علىٰ الأَرْض أن تأكل لحوم الأَنبِيَاء) رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه، فهذه الأحَادِيث وغيرها تدل علىٰ أن صلاتنا عليه تبلغه سواء كنا عند قبره أو لم نكن، فلا مزية لمن سلم عليه أو صلىٰ عند قبره كمْا قَالَ الحسن بن الحسن: ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء.

وأما حَدِيث: (من صلىٰ علي عند قبري سمعته، ومن صلىٰ علي غائبـًا بلغته) فرواه البيهقي وغيره من حَدِيث العلاء بن عمرو الحنفي.

الشَّرح

هذا الحَدِيث قَالَ المحقق في آخره: إسنادُه صحيح، وهذا الحَدِيث قد أعلَّه حفاظ الأُمَّة: البُخَارِي وأبو حاتم والمزي صاحب تهذيب الكمال، والعلَّة أنَّ فيه راويـًا اسمه حسين الجعفي، قد وهَم في شيخه، هناك شخصان، الأول عبد الله بن يزيد بن جابر، هذا ثِقة، ولكنه لم يسمع منه حسين الجعفي، والثاني: عبد الله بن يزيد بن تميم، هو الذي سمع منه حسين الجعفي، ولكنه لا يُحتَج به، فوقع خلطٌ بين الشخصين، نبَّه عليه البُخَارِي، وأبو حاتم، والمزي، لكن ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ في (جلاء الأفهام) حاول أن يدافعَ، فهو رَحِمَهُ اللهُ أراد أن يُكثِّر من أمَاكن الصَّلَاة علىٰ النَّبِي ﷺ، ولكن لا يسلَم له ما قَالَ، فإن هؤلاء الأعلامَ ذكروا أنَّ هذا عِلَّةٌ يَردُّ به الحَدِيث؛ لأنَّه وَهِمَ في شيخه، فقال: عن عبد الله بن يزيد بن جابر وهو لم يسمع منه، فحديث الصَّلَاة يومُ الجمعة الذي رواه أبو داود وغيره لم يصح.

فهذا الحَدِيث فيه مُحَمَّد بن مروان وهو متهمٌ بالكذِب، وكذا السَّدي الصغير.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

حدثنا أبو عبدالرحمن عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النَّبِي ﷺ فذكره. قَالَ البيهقي: أبو عبدالرحمن هذا هو مُحَمَّد بن مروان السدي فيما أرىٰ وفيه نظر، قلت: مُحَمَّد بن مروان السدي الصغير قَالَ فيه يحيىٰ بن معين: ليس بثقة، وقال الجوزجاني: ذاهب الحَدِيث. وقال النسائي: متروك الحَدِيث. وكذلك قَالَ أبو حاتم الرازي والأزدي. وقال صالح بن مُحَمَّد: كان يضع الحَدِيث، علىٰ أن معناه صحيح معلوم من أحاديث أخر، كإخباره بسماع المَوْتىٰ لسلام من يسلم عليهم إذا مر علىٰ قُبُوْرهم.



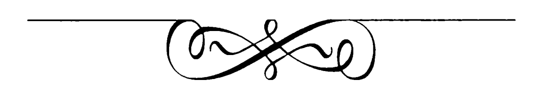
الشَّرح

قوله: (كان يضع الحَدِيث) أي: هذا الشخص مُتهمٌ بالوضعِ.

ثُمَّ هذا تعليقٌ علىٰ الحَدِيث المتقدِّم: (ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتىٰ أرد عَلَيْهِ السَّلَامُ)[1]؛ لأنَّ الحَدِيث لا زال عن السلام علىٰ رَسُول اللهِ ﷺ، وما ورد فيه من أحاديث، وهذا الحَدِيث كان محور كلام ابن عبد الهادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حيث ذكر أن هذا الحَدِيث وإن كان رجاله ثقات في العموم، لكنه فيه ضعف كَمْا مر قَالَ: لا يسلم من مقال في سَنَده ونزاعٌ في دلالتِه، والسَّند قد تحدث وقال: أن في هذا السَّنَد أبا صخر رَوَىٰ عن ابن قسيط عن أبي هريرة، وهو وإن كان من رُوَاة مُسلِم لكن مُسلِماً لم يروْ عن ابن قسيط عن أبي هريرة؛ لأنَّه لا يُعرف بالرَّواية عن أبي هريرة. وهذا مَنهَجق دقيقٌ، أي: عندما نرىٰ الشخص من رجال مُسلِم أو رجال البُخَارِي. ليس هذا دلالةٌ علىٰ أنَّ هذا

(١) سبق تخريجه.

الشخص قد تجاوز القنطَرةَ؛ لأن مُسلِماً رَحِمَهُ ٱللَّهُ يروي لبعض الأشخاص ممن وصِفوا بالضعف كَمْا في هذا الشخص ويَروِي لهم في المُتَابَعَات والشَّواهد لا يَروي لهم في الأُصُولِ، والبابُ يُقسِّمه إلىٰ قسمين، في بداية البابِ يَذكرُ ما صحَّ عنده من السَّنَد، ثُمَّ يُردِفُه بسندٍ قد يكون أحياناً أضعف من السَّنَد الأول؛ لأنَّه لا يُعتمد علىٰ السَّنَد الثاني، إنَّمَا يُعتمد علىٰ السَّنَد الأول، فهذا الحَدِيث ليس علىٰ شرط مُسلِم،كَمْا فعل الحاكم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عندما توسع في هذا، مرَّ أن ابن عبد الهادي الشَّافِعِي المَذهب، والزيلعي الحنفي المذهب قَالَا: هذا مَنهَج خاطئٌ، فالحديث السابق في ثبوتِه نظرٌ.



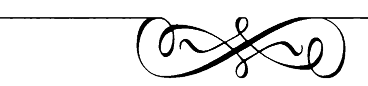
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قيل: إذا سمع سَلَام المُسلِم عليه عند قبره حصلت المزية بسماعه، قيل: هذا لو حصل الوصول إلىٰ قبره، أمَا وقد منع النَّاس من الوصول إليه بثلاثة جدران فلا تحصل مزية، فسواء سلم عليه عند قبره أو في مسجده إذا دَخَلَه، أو في أقصىٰ المشرق والمغرب فالكل يبلغهكَمْا وردت به الأحَادِيث، وليس في شيء منها أَنَّه يسمع صوت المصلي و المُسلِم بنفسه،إنما فيها أن ذلك يعرض عليه ويبلغه ﷺ، ومعلوم أَنَّه أراد بذلك الصَّلَاة والسلام الذي أمر الله به، سواء صلىٰ عليه في مسجده أو في مدينته أو في مكان آخر، فعلم أن ما أمر الله به من ذلك فإنَّه يبلغه، وَأمَّا من سلم عليه عند قبره فأنَّه يرد عليه، وذلك كالسلام علىٰ سائر المُؤْمِنِينَ، ليس هو من خَصَائصه، ولكن لا يوصل إلىٰ قبره ﷺ.

الشَّرح

قول الشَّارِحِ هنا: (**وذلك كالسلام علىٰ سائر المُؤْمِنِينَ ليس من خَصَائصه**)، هذا يحتاجُ إلىٰ دليلٍ، لم يثبت أنَّ المُؤْمِنِينَ الذين يكونون في القَبْرِ إذا سُلِّم عليهم أنَّهم يردُّون علىٰ من سلّضم عليهم، نحن أُمرنا بأن نُسلِّم علىٰ الأموات إذا مررنا علىٰ قُبُوْرهم، فنقول: "السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، يرحمُ الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين، اللهم لا تحرمنا أجرَهم، ولا تفتنا بعدَهم، واغفر لنا ولهم"، لكن ليس فيها أنَّهم يرُدُّون، فإثبات الردِّ من النَّبي ﷺ أو من الأموات لم يصح فيها حَدِيث، فلو أن إنسانًا جالس في هذا المَسْجِد ودخلَ عليه ألفُ رجلٍ، وكلُ واحدٍ يقول: السلامُ عليكم، فيقول: عليكمُ السلامُ ورحمةُ الله وبركاته،كَمْ يستطيعُ أن يردَّ عليه من النَّاس، وهل هذا فيه تكريمٌ؟، هل يجلس شخصًا في مكان،

ويمرُّ ألفُ شخصٍ من الصباح إلىٰ المغرب يقولون: السلام عليكم، ويرد: وعليكم السلام؛ذلك لأنَّ قبرَ النَّبِي ﷺ لا يتوقف عنه الزيارة، هل هذا تكريمٌ؟، فهذا الحَدِيث أصلا بهذه الصورة ليس له هذا المعنىٰ، معنىٰ يُبلغُه أي : يصل إليه أثره أو أجره؛ لأن النَّبِي ﷺ أمر المُسلِمين بأن يصلوا عليه، بل هذا أمر الله ﷻ، فنحن نُصلي عليه، هذه الصَّلَاة والسلام يصلُه نفعه، أمَّا أنَّه يصلُه ثُمَّ يردُّ لم يَرِدْ فيه حَدِيثٌ صحيحٌ، هذه الأحَادِيث في أسانيدها مقال، فمن صلىٰ علىٰ رَسُول اللهِ ﷺ عند قبره أو عن بعد فأنَّه يصل إليه أثره أو نفعه، أمَّا أنَّه يرد عليه فهذا يحتاج إلىٰ إثبات، وليس في ذلك أحاديث تسلَم من مقال.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال: وعن عليٰ بن الحسين أنَّه رأىٰ رجلاً يجيء إلىٰ فرجةٍ كانتْ عِندَ قَبْرِ النَّبي ﷺ، فيدخل فيها فيدعو فنهاه، وقال: ألا أحدثُكمْ حَدِيثاً سَمِعْتُه من أبي عن جدِّي عن رَسُول اللهِ ﷺ قَالَ: (لا تتخذوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قُبُوْراً، فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم) رواه في المختارة.

ش: هذان الحَدِيثان جيدان حسنا الإسنادين: إمَّا الحَدِيث الأول فرواه أبو داود وغيره من حَدِيث عبد الله بن نافع الصائغ، قَالَ: أخبرني ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة فذكره. ورواته ثقات مشاهير، لكن عبدالله بن نافع فيه لين لا يمنع الاحتجاج به، قَالَ ابن معين: هو ثقة، وقال أبو زرعة: لا بأس به. وقال أبو حاتم الرازي: ليس بالحافظ تعرف وتنكر، قَالَ شيخ الإسْلَام رَحِمَهُ اللَّهُ: ومثال هذا قد يخاف أن يغلط أحياناً، فإذا كان لحديثه شواهد علم أنَّه محفوظ، وهذا له شواهد متعددة. وقال الحافظ ابن عبدالهادي: هو حَدِيث حسن جيد الإسناد، وله شواهد كثيرة يرتقىٰ بها إلىٰ دَرَجَة الصِّحَّة.

الشَّرح

قوله: (رواه في المختارة) و المُختارة كتابٌ مثلُ المُسْتَدْرَك أراد به صاحبه أن يستدرك علىٰ البُخَارِي ومسلم ما فاتهما من الصَّحِيح، لكنَّه في الحقيقة لا يسلم من تساهلٍ كتساهُلِ الحاكِم، لكنَّه أحسنُ حالاً من الحاكم كَمْا ذكر ابن تَيمِيَة رَحِمَهُ اللَّهُ، لكن لا يسلم لهما ما أوردَاه في هذين الكِتَابين من أحاديث، فهذا الحَدِيث لا يقل عن الحَدِيث الماضي من حيث السَّنَد.

قوله: (**هذان الحَدِيثان جيدان حسنا الإسنادين**) أرادَ بالحديثين حَدِيثَ أبي هريرة الماضي: (لا تجعلوا بيوتكم قُبُوْراً ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم)، مَعَ هذا الحَدِيث، وكلا الحَدِيثين في المَتن.

قولـه: (**أمـا الحَـدِيث الأول ..**) هـذا الحَـدِيث الماضـي، وكـلا الإمـامين الجليلين ابن تَيمِيَة وابن عبد الهادي رحمهما الله، يقولان بالحديث لوجود دلالات في الحَدِيثين تختص بمسألة البابِ، وهـو (لا تجعلـوا قـبري عيـداً)، فإن هـذا هـو الشاهد الذي من أجله أورد المؤلف هذا الحَدِيث، فقلنا أنَّ فيه عبد الله بن نـافع الصائغ، وأنَّ الجمهور علىٰ تضعيفه، وإن كان من رجال مُسلِم؛ لأن مُسلِمـًا لـم يخرج له إلا عن مَالِك فقـط، مَعَ أنَّ لـه أربعةَ عشرَ شيخا؛ لأنَّـه كـان مختصـًا بمالِك رحمه الله، حيث رافقَه قرابـةَ عشرين عامـًا، وتَمـذهَب بمذهبـه، فهـو بمالـكٍ أدرىٰ من غيره، أمَّا الآخرون مثل ابن أبي ذئـب رحمه الله فـلا يَحتجُّ بروايـة عبـد الله بن نافع عنه.

وقلنا أنَّه كان هنـاك فجـوة بـين ابـن أبـي ذئـب ومالِـك رحمهما الله بسـبب حَـدِيث البيعان بالخيار، وفي الحقيقةِ هذا الحَدِيثُ صحَّ عند مَالِـك، لكنـه لـم يفهـم منـه التَّفرُّق بالأبدان، وإنما التَّفرُّق بالكلام، فابن أبي ذئب رأىٰ أن مَالِكـًا لـم يعمـل بالحديث حتىٰ قَالَ فيه: يجب أن يُستَتاب مَالِك من هذا الكَلَام، وكـان مُعاصـراً له، لكن هذا كلام فيه جفاءٌ وفيه شيءٌ من الغِلظة علىٰ أحد أئمةِ المُسلِمين.

فالشـاهد أن عبـد الله بـن نـافع الصـائغ كـان بمالـك أدرىٰ مـن غيـره، وهـذا الحَدِيث ليس عن مَالِك، ولم يَروْ مُسلِم في صحيحه عـن عبـد الله بـن نـافع إلا عن شيخه مَالِك فقط، فهذا الرَّجُلُ ليس علىٰ شرط مُسلِم علىٰ الإطـلاق، بـل إذا رَوَىٰ عن مَالِك فقط، والجمهور علىٰ تضعيف هذا الرَّاوِي.

قال المؤلف رحمه الله:

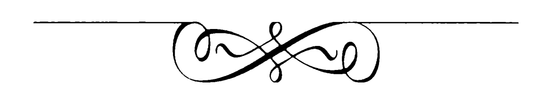
وأما الحَدِيث الثاني: فرواه أبو يعلىٰ والقاضي إسماعيل والحافظ الضياء في المختارة، قَالَ أبو يعلىٰ: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، ثنا زيد بن الحباب، ثنا جعفر بن إبراهيم من ولد ذي الجناحين، ثنا علي بن عمر عن أبيه عن علي بن حسين فذكره.

وعلي بن عمر هو علي بن عمر بن علي بن الحسين.



الشَّرْح

قوله: (وأما الحَدِيث الثاني: فرواه ..) هذا الحَدِيث فيه راويان، الأول: جعفر بن إبراهيم، ذكره ابن أبي حاتم في الجّرحِ والتَّعديل ولم يذكُر فيه جرحـًا ولا تعديلاً، ومثل هذا يسمىٰ مَجهولُ الحالِ، أَي: الرَّاوِي إذا ذُكر في كتابس من كُتُب التراجِم، ولم يُذكر فيه لا أنَّه ثِقة ولا أنَّه ضَعيف، يُقال: أنَّه مجهولٌ الحال؛ لأنَّه لو كان حالُه معروفـًا لذكره العالم الذي أوردَه في كتابه، فابن أبي حاتم رحمه الله أوردَ هذا الشخص في الجرح والتعديل ولم يذكر فيه لا توثيقـًا ولا تضعيفـًا، ومجهولُ الحال لا يستشهد بحديثه، كيف يُستشهَد بحديث إنسان لا يعرف هل هو ثِقة أو غير ثِقة؟، وفيه كذلك علي بن حسين؛ لأن الحَدِيث عن علي بن عمر عن أبيه أنَّه قَالَ، ولم يُوثِّقْه غير ابن حبان، وقال: يعتبر به من رواية غير أولاده، أي: علي بن الحسين إذا رَوَىٰ عنه غير أولاده يعتبر به، لكن إذا رَوَىٰ عنه أحد أولاده لا يعتبر به، وهنا الرُّوَايَة عن ولدِه.

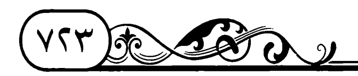


قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال شيخ الإِسْلَام: فانظر كيف هذه السُنَّة؟، كيف مخرجها من أهل المدينة وأهل البيت الذين لهم من رَسُول اللهِ ﷺ قرب النسب وقرب الدار؛ لِأَنَّهم إلىٰ ذلك أحوج من غيرهم، فكانوا أضبط، قلت: وللحديثين شواهد، منها ما رواه ابن أبي شيبة، حدثنا أبو خالد الأحمر عن ابن عجلان عن سهيل عن جبير بن حنين قَالَ: قَالَ رَسُول اللهِ ﷺ: (لا تتخذوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قُبُوْراً، وصلوا علي حيث ما كنتم فإن صلاتكم تبلغني).

وقال سعيد بن منصور: حدثنا عبدالعزيز بن مُحَمَّد، أخبرني سهيل بن أبي سهيل قَالَ: أتىٰ الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عند القَبْر، فناداني وهو في بيت فاطمة يتعشىٰ، فقال: هلم إلىٰ العشاء. فقلت: لا أريده. فقال: ما لي رأيتك عند القَبْر، فقلت: سلمت علىٰ النَّبِي ﷺ. فقال: إذا دَخَلَت المَسْجِد فسلم، ثُمَّ قَالَ: إن الرَّسُولُ ﷺ قَالَ: (لاتتخذوا قبري عيداً، ولا تتخذوا بيوتكم مقابر، وصلوا علي، فإن صلاتكم تبلغني حيثُمَّا كنتم، لعن الله اليَهُود اتخذوا قُبُوْر أنبيائهم مَسَاجِد، ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء).

ورواه القاضي إسماعيل في كتاب فضل الصَّلَاة علىٰ النَّبِي ﷺ، ولم يذكر: (ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء) وقال سعيد أيضـاً: حدثنا حبان بن علي، ثنا مُحَمَّد بن عجلان عن أبي سعيد مولىٰ المهري قَالَ: قَالَ رَسُول اللهِ ﷺ: (لا تتخذوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قُبُوْرا، وصلوا علي، فإن صلاتكم تبلغني) قَالَ شيخ الإِسْلَام: فهذان المرسلان من هذين الوجهين المختلفين يدلان علىٰ ثبوت الحَدِيث، لا سيما وقد احتج به من أرسله، وذلك يقتضي ثبوته عنده، هذا لو لم يرو من وجوه مسندة غير هذين، فكيف وقد تقدم مسنداً.



الشَّرح

قوله ﷺ: (لا تتخذوا قبري عيداً ..)[١] هذا أحد الحَدِيثين اللذين أوردهما الشَّارِح كشاهد، وقد رواه ابن أبي شيبة، وفيه جبير بن حنين، لم نَجد له ترجمةً لا في الصَّحَابَة ولا في التَّابِعين، ومثل هذا لا تقوم به حُجَّة.

قول الحسن: (....ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء)[٢] وهذا مُرسَل، أي: سقط منه الصَّحَابِي، لكن إذا صح عن الحسن بن الحسن، فإنَّه يقول: ابنُ تَيمِيَة رَحِمَهُ اللهُ يستشهد به فإنَّه قد ثبتَ عنده، لكن العُلَمَاء لا يستشهدون بِمرسَل إلا إذا عَرِف الرَّاوِي الذي سقط، فإن كان الساقط صحابياً فقط فإنَّه يُقبَل، وإذا كان تابعياً نُظِر فيه من هو الذي سقَط، إن لم يُعرضف فإن الحَدِيث لا يكون حُجَّة، لكنَّ ابنَ تَيمِيَة رَحِمَهُ اللهُ كأنَّه يميل إلىٰ أنَّ كثرةَ هذه الطرقِ ترفع الحَدِيث إلىٰ دَرَجَة الاستشهادِ، ولا شكَّ أنَّ الحَدِيثَ الضعيفَ إذا كان ضعفُه يسيراً فإنَّه يبلغُ إلىٰ دَرَجَةَ الاستشهاد، ولعل هذا من هذا النوعِ من الأحَادِيث.

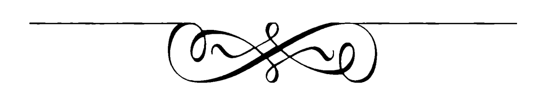
قوله: (فهذان المرسلان من هذين الوجهين المختلفين يدلان علىٰ ثبوت الحَدِيث...) يشير إلىٰ أن هذا مُرسَل، كلا الحَدِيثين مُرسَلان عن أبي سعيد مولىٰ المهدي، وعن الحسن ابن الحسن، أي: ليسا متصلين، وجمهور العُلَمَاء

---

(١) سبق تخريجه بلفظ: "لا تجعلوا قبري عيداً"، وَإِمَّا هذا اللفظ فقد أخرجه الإمام أحمد في المسند (٨٨٠٤)، (١٤/ ٤٠٣)، وابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الصَّلَاة، باب في الصَّلَاة عند قبر النَّبِي ﷺ وإتي أنَّه، برقم: (٧٦٢٤)، (٥/ ١٧٨).

(٢) وقد نقله عنه شيخ الإسْلَام في الفتاوىٰ الكبرىٰ (٢/ ٤٢٤)، وابن عبد الهادي في الصارم المنكي (١/ ١٢٢).

علىٰ عدم الاستشهاد بالمُرسل؛ لأنَّ المُرسل سقط منه الصَّحَابِي، ويُشك أنَّه هناك تابِعي آخر سقط، والتابعون ليسوا كلهم علىٰ دَرَجَةٍ واحدة في قبُولِ الرِّوَايَة، قد يكون منهم ضعيف، فلا يُحتج به.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

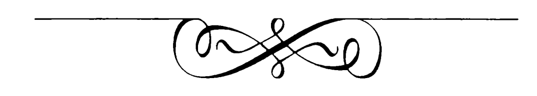
قوله: (عن علي بن الحسين) أي ابن علي بن أبي طالب المعروف بزين العابدين رضي الله عنه، وهو أفضل التَّابِعِين من أهل بيته وأعلمهم، قَالَ الزهري: ما رأيت قرشياً أفضل منه، مات سُنَّة ثلاث وتسعين على الصَّحِيح، وأبوه الحسين سبط النَّبي ﷺ وريحانته، حفظ عن النَّبي ﷺ، واستشهد يوم عاشوراء سُنَّة إحدى وستين وله ست وخمسون سُنَّة.

قوله: (أَنَّه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة)، هو بضم الفاء وسكون الراء واحدة الفرج، وهي الكوة في الجدار والخوخة ونحوهما.



الشَّرح

قوله: (واستشهد يوم عاشوراء) هذا أبو علي بن الحسين استشهد يوم عاشوراء، لكن علي بن الحسين يقول عنه أهلُ التاريخ: شخصان، شخصٌ يُسمَّى: علي الكبير، وآخر اسمُه: علي الصغير، فقالوا: إن هذا علي بن الحسين الصغير، فإنَّه عاش بعد أبيه، وقد كان مريضاً أثناء قتل أبيه رضي الله عنه فلم يقتلُوه، فهو علي زين العابدين، وكان -*رضي الله عنه، ورحمه الله*- من خيار أهل البيت ورعًا وتقوى وصلاحًا وصَدَقةً حتى أنَّه كان يَعولُ بُيوتًا لا يدرون من الذي يعولهم، وعندما مات انقطعت الصدقات التي كانت تأتيهم، فعرفوا أنَّها كانت تأتيهم من علي بن الحسين رَحِمَهُ اللَّهُ، وهذا يدل على حرصه على الخير ورغبته فيه.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (فيدخل فيها فيدعو فنهاه إلىٰ آخر الحَدِيث)، هذا يدل علىٰ النهي عن قصد القُبُور والمشاهد لأجل الدُّعَاء والصلاة عندهاكَمْا تقدم بعض ذلك؛ لأن ذلك من اتخاذها عيداًكَمْا فهمه علي بن الحسين من الحَدِيث، فنهىٰ ذلك الرَّجُل عن المجيء إلىٰ قبر النَّبِي ﷺ للدعاء عنده، فكيف بقبر غيره! ويدل أيضـًا علىٰ أن قصد الرَّجُل القَبْر لأجل السلام إذا لم يكن يريد المَسْجِد من اتخاذه عيداً المنهي عنه، ولهذا لما رأىٰ الحسن بن الحسن سهيلاً عند القَبْر نهاه عن ذلك، وذكر له الحَدِيث مستدلاً به وأمر بالسلام عليه عند دخول المَسْجِد، قَالَ شيخ الإسْلَام: ما علمت أحداً أي من علماء السلف رخص فيه؛ لأن ذلك نوع من اتخاذه عيداً، ويدل أيضـًا علىٰ أن قصد القَبْر للسلام إذا دَخَلَ المَسْجِد ليصلي منهي عنه؛ لأن ذلك من اتخاذه عيداً.

الشَّرْح

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه لم ينقل عن أحد من علماء السلف الترخيص في التكرار عند القبْر، بل كان الصَّحَابَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ والتابعون يصلون في مسجد النَّبِي ﷺ، فإذا صلوا خرجوا، إمَّا أن يجلسوا للعلم أو يخرجوا، لم ينقل أنَّ أحداً من الصَّحَابَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ كان يأتي إلىٰ القَبْرَ الشريفَ فيسلِّم عليه، ويعتادُه في كل فرضٍ وفي كل صَلَاة أو في كلِّ يوم، لم ينقل ذلك عن الصَّحَابَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، والصحابةُ أشد النَّاس محبة لرسول الله ﷺ، فلو كان هذا مما شرعَ أو مما عرفُوا فيه فضيلةً ما تَركوه، لكن عرفوا أنَّه ليس مما شرعض النَّبِي ﷺ، ولم يحبهُ ولم يرضَ به، فلم نجدْ أحداً منهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ كان يأتي القَبْرَ للسلام عليه أو لتوديعه كَمْا يفعلُ النَّاسُ اليوم.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وكره مَالِك لأهل المدينة كلما دَخَلَ إنسان المَسْجِد أن يأتي قبر النَّبِي ﷺ؛ لأن السلف لم يكونوا يفعلون ذلك، قَالَ: ولن يصلح آخر هذه الأُمَّة إلا ما أصلح أولها.

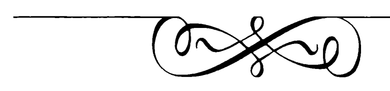
الشَّرْح

هذا هو موقف الإمام مَالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يرىٰ كراهيةَ إتيانَ أهلِ المدينةِ إلىٰ قبر النَّبِي ﷺ كلما دَخَلَوا المَسْجِد؛ لأن المُسلِمَ يُصلي علىٰ النَّبِي ﷺ في الصَّلَاة، ولا تصح صلاتُنا إلا بالسلام علىٰ رَسُول اللهِ ﷺ، والذي يأتي إلىٰ القَبْرِ بعد الصَّلَاة لم يَفهم أَنَّه قد صلىٰ وسلَّم علىٰ النَّبِي ﷺ في صلاته، فلهذا لم يُنقل عن أحدٍ من السلف، لكن لو جاء إنسان من سفرٍ، أو جاء إنسان مُسافر من بُعد ويقصد المَسْجِد النَّبوي الشريف ليصلي فيه، ثُمَّ يُسلِّم علىٰ النَّبِي ﷺ ليس في ذلك حرجٌ؛ لأَنَّه ليس المعنىٰ أَنَّ الشخصَ لا يأتي ليُسلِّمَ علىٰ النَّبِي ﷺ، إِنَّمَا القصدُ أن لا يكون هدفًا؛ لأن النَّبِي - عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ - نفسَه نهىٰ عن هذا كَمْا سيأتي في الحَدِيث: (لا تشد الرحال إلا إلىٰ ثلاثة مَسَاجِد)[1].

وفهِم الصَّحَابَة كَمْا قَالَ الشَّارِح أَنَّه من فحوىٰ الِخطاب وبالمفهُوم أَنَّه لا تُشدُّ الرحالُ إلىٰ غير المَسَاجِد الثلاثة، لا مَسَاجِدَ أخرىٰ ولا بُقع مُباركة أو كانت فيها مناسبات، ومعنىٰ شَدّ الرِّحَالِ هنا أي: للعبادة، أمَّا شَدّ الرِّحَالِ

(١) أخرجه البُخَارِي في صحيحه، كتاب فضل الصَّلَاة في مسجد مَكَّةَ والمدينة، باب فضل الصَّلَاة في مسجد مَكَّةَ والمدينة، برقم: (١١٨٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب المناسك، باب لا تشد الرحال إلا إلىٰ ثلاثة مَسَاجِد، برقم: (١٣٩٧)، (٢/ ١٠١٤).

للزيارة وللسياحة فليس هذا هو المقصودُ المنهيُ عنه، المنهيُ عنه شدُّها إلىٰ السفر من أجلِ القُربةِ، فليس هناك سفرُ قُربةٍ يُقصَدُ به بُقعةً أباحها الشَّارِع إلا المَسَاجِد الثلاثة، المَسْجِد الحرام والمسجِد النبوي وبيت المقدِس، وما عداها فلا تشدُّ الرحالُ إليها حتىٰ لو كان قِباء ، وإن كان بعضُ أهل العلم يرىٰ أنَّ قِباءَ يلحقُ به قياسًا، لكن النَّص صريحٌ، فإدخال غيره فيه يُعدُّ من باب الاستدراكِ علىٰ النَّبي ﷺ، وهذا لا ينبغي.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

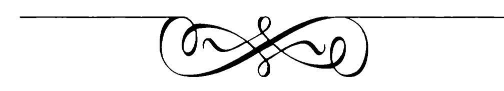
بل كان الصَّحَابَة والتابعون يأتون إلىٰ مسجده ﷺ، فيصلون خلف أبي بكر وعمر وعثْمَّان وعلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، ثُمَّ إذا قضوا الصَّلَاة قعدوا أو خرجوا، ولم يكونوا يأتون القَبْر للسلام لعلمهم أن الصَّلَاة والسلام عليه في الصَّلَاة أكمل وأفضل.



الشَّرْح

هذا هو مَنهَج الصَّحَابَة والتابعين، ولم يُنقل عن أحد من السَّلَف أنَّه فعل غير هذا، يقول هنا: إنَّ الصَّحَابَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ والتَّابِعين لم يكونوا يفعلون هذا، فكانوا يصلون ثُمَّ يجلسون أو يخرجُون، وليس فيه تَنقِيص لرسولِ الله ﷺ أو عدمُ محبةٍ له ﷺ؛ لأنَّ هذا اتباع له وعملٌ بما يرضيه، فإذا كان هو نهىٰ عن هذا فسمعًا وطاعةً، أمَّا الذي يعتقد أنَّ الخيَر في خلاف ما أمر النَّبِي ﷺ، وأن الأجَر والتكريمَ والمحبةَ للرسول ﷺ في خلاف ما أمر به فهذا إنسانق مخطئٌ وجاهلٌ، الخير كله فيما أخبر به النَّبِي ﷺ وفيما أمر به، وفيما كان يحبُّه ﷺ في حياته، كان يكره أن يقوموا له ﷺ، إذا دَخَلَ إليهم لم يكونوا يقومون له، مَعَ حبِّهم الشديد له، هذا طاعةٌ له، وليس تنقيصًا له، ولأنَّ للرسولِ ﷺ حقوقًا خاصَّةً لا تَرقىٰ مثلُ حقوقِ الله عَزَّوَجَلَّ. التعظيمُ والخضوعُ والخشوعُ والدعاءُ والاستغاثةُ حقُ الله عَزَّوَجَلَّ، لا تُصرَفُ للنبي ﷺ، فبعض النَّاس يظنُّ أنَّه إن لم يفعل هذا كان تَنقُّصًا للنبي ﷺ، وهذا جهل، ليس هذا تنقصًا له ﷺ، بل هذا اتباعٌ ومحبَّةٌ له.

فالذي يحب الرَّسُولُ ﷺ يتبعهُ ويطيعُ أمره ويجتنبُ نهيَه، ويدافعُ عن سنَّته، بعضُ النَّاس تراه حريصًا علىٰ أن يفعلَ الأعمالَ التي ليس فيها دليلٌ، ويتقرّب بها إلىٰ الله ويزعُم أنَّها دليل محبَّةِ الرَّسُولُ ﷺ، وهو من أكثر من يعصي الرَّسُولُ ﷺ فيما أمر به ممَّا صحَّ من الصَّحِحَينِ، هؤلاء الذين بنوا القُبُور علىٰ المَسَاجِد خالفوا نهي الرَّسُولُ ﷺ، حيث قَالَ: (لعن الله اليَهُود والنصارىٰ اتخذوا قُبُوْر أنبيائهم مَسَاجِد يُحذِّر ما صنعوا، أولئك شرار الخَلْق عند الله، ألا وإني أنَهاكم عن ذلك) وكلها في الصَّحِحَينِ، فكيف يزعُمون محبةَ الرَّسُولُ ﷺ وهم يخالفون أمرَه، محبةُ الرَّسُولُ اتباعٌ، ليس أن نهز رءوسنا وأن نُكثر الذكر لرسول الله ﷺ، وأن نُصلي عليه صَلَاة ليس فيها اتباعٌ، محبَّةُ الرَّسُولُ ﷺ الصَّلَاة عليه والسلام عليه، واتباع سنتِه، ومحبتُها ومحبةُ أهلِها والدفاعُ عنها ونشرها، هذا هو الدِّين، أمَّا ما يظن البعض أن محبة الرَّسُولُ ﷺ هي أن يصلي عليه فقط، وفي كل عام مرة واحدة يذكره ويجمع أهله أو يجتمع مَعَ غيره ليذكره فيه وينتهي فليس محبةً له، بل محبةُ الرَّسُولِ ﷺ اتباعٌ، وسلوكٌ، وأعمالٌ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأما دخولهم عند قبره للصلاة والسلام عليه هناك، أو للصلاة والدعاء فلم يشرعه لهم، بل نهاهم بقوله: (لا تتخذوا قبري عيداً، وصلوا علي، فإن صلاتكم تبلغني) فبين أن الصَّلَاة تصل إليه من بعد وكذلك السلام، ولعن من اتخذ قُبُوْر الأَنْبِيَاء مَسَاجِد، وكانت الحجرة في زمانهم يدخل إليها من الباب، إذ كانت عائشة فيها وبعد ذلك، إلىٰ أن بني الحائط الآخر، وهم مَعَ ذلك التمكن من الوصول إلىٰ قبره لا يدخلون إليه لا لسلام ولا لصلاة ولا لدعاء لأنفسهم ولا لغيرهم ولا لسؤال عن حَدِيث أو علم، ولا كان الشَّيطَان يطمع فيهم حتىٰ يسمعهم كلامًا أو سَلَامًا فيظنون أنَّه هو كلمهم وأفتاهم وبين لهم الأَحَادِيث، أو أنَّه قد رد عَلَيْهِ السَّلَامُ بصوت يسمع من خارج، كَمْا طمع الشَّيطَان في غيرهم فأضلهم عن قبره وقبر غيره، حتىٰ ظنوا أن صاحب القَبْر يأمرهم وينهاهم ويفتيهم، ويحدثهم في الظاهر، و أنَّه يخرج من القَبْر ويرونه خارجًا من القَبْر، ويظنون أن نفس أبدان المَوْتىٰ خرجت تكلمهم، وأن روح الميت تجسدت لهم فرأوها كَمْا رآهم النَّبِي ﷺ ليلة المعراج.

الشَّرح

يذكر رَحِمَهُ اللَّهُ بعضَ الصورِ التي تحدثُ عند بعض القُبُور من الشَّيطَان، ويظنُّ الذين حولَ القَبْر أنَّ هذا من الله عَزَّ وَجَلَّ، بل بعضهم في مناسبات الأعياد التي تُسمىٰ بعيد الميلاد يقرءون قصيدة في ميلاده ﷺ، ويضعون خُرقةً بيضاء ليجلسوا عليها، وعندما يذكرون ميلاده ﷺ يقومون ويقولون: حضرَ النَّبِي ﷺ، سبحان الله العظيم!، الشَّيطَان استطاعَ أن يخدعَ هذه العقولَ، لم نسمعْ

أنَّ هذا كان في عهدِ الصَّحَابَة ﷺ، والله يقول: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ [الزمر:٣٠]، والميت كيف يحضر؟، ومن أخبركم بهذا في أيِّ كتابٍ أو في أي حَدِيثٍ؟، ونرىٰ الذين عندهم خرافاتٌ ونسمعُ منهم عجائبَ، لا نسمعها في بلادنا، فترىٰ عجباً؛ لأنَّه إذا دَخَلَت الخرافةُ في مجتمع واستطاع الشَّيطَانُ أن يُفسد عقولَ بعض المُسلِمين فإنَّهم يصبحون يقبلون الخرافة، ويبتعدون عن المنهجِ الصَّحِيح، ويكرهُون كلَّ شيءٍ حقٍ، فإنَّ الميتَ إذا مات انتهىٰ، وقد قَالَ- عليه الصلاة والسلام - : **(إذا مات ابن آدم انقطع عمله)**[1] وابنُ آدم يشمل الأَنْبِيَاء والصالحينَ والشهداءَ وكلَّ إنسانٍ، فما بقي له عملٌ، هناك البرزخُ وهي حياةٌ أخرىٰ، فالذي يزعم ويظن أن النَّبِي ﷺ يخرج من القَبْرِ أو أنَّه يستفتيَه ويفتيَه أو أنَّه يسمع كلامَه ويردُ عليه، هذه كلُّها من الخيالات؛ لأن الآخرةَ غيبٌ، والغيبُ لا يُعرف عن طريقِ الوهمِ وعن طريق الخيال، الغيبُ لا يعرف إلا عن طريق النَّص من النَّبِي ﷺ.

والذي يقرأ عن بعض الذين وقعوا في هذا الأمر يرىٰ عجباً، يرىٰ شيئاً لم يسمعه في حياته، حتىٰ ذُكر في بعض بلاد المُسلِمين أنَّ شيخاً ماتَ، وما استطاعوا أن يدفنوه، أخذوا يدُورون به في القرية من أولها إلىٰ آخرها يبحثُ عن مكان، سبحان الله!، من هذا؟ هذا المِسكينُ الميتُ!، والآن مرهون بعمله، وأمامه السؤال من الملكين والحسابُ الشديدُ، والنفسُ إذا ماتت أصبحت مرهونةُ بعملها،كَمْا جاء في الحَدِيث عندما قَبرَ الرجل قَالَ النَّبِي ﷺ: **(اسألوا لأخيكم التثبيت فإنَّه الآن يسأل)**[2] فهذا يدور به الشَّيَاطِين، أو أشخاصٌ ممن

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجنائز، باب الاستغفار عند القَبْر للميت، برقم: (٣٢٢١)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ، كتاب الجنائز، باب ما يقال بعد الدفن، برقم: (٧٠٦٤)،

هم في مقدمةِ النعش هم أرادوا هذه الصورة، ولا نسمع هذه الحكايات إلا في البلاد التي فيها خرافةٌ، أمَّا في البلاد التي فيها التوحيد واضحٌ فما نسمعُه، وليست عندنا نُعوش تتحركُ وتضطربُ، ولا تُدفنُ إلا في مكانٍ مُعين، هذه كلُها عندما قبلوا الخرافةَ بدأ الشَّيطَان يلعبُ بهم، نحن نؤمن بأن الشَّيطَانَ موجودٌ، و أنَّه عدوٌ للإنسان، و أنَّه قد أقسم أن يُضلَّ الإنسَانَ قال الله – تعالىٰ – : ﴿لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف:١٧]، أقسمَ علىٰ نفسه بأن يأتيَك من كلِ مكان، والذي يعصمُك من الشَّيطَان هو العلمُ الشرعي، والتعلُّق بالله ﷻ، أمَّا الإنسَان إذا جهلَ فإنَّه يصبحُ فريسةً لعدوه.

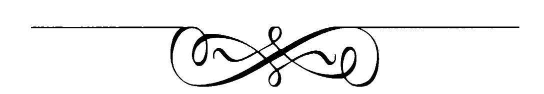
= (٤/ ٩٣)، والحاكم في المُسْتَدْرَك، كتاب الجنائز، برقم: (١٣٧٣)، (١/ ٥٢٠)، وصححه، وأقره الذهبي، وصححه الألباني أيضًا في تعليقه علىٰ أبي داود.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

والمقصود أن الصَّحَابَة ما كانوا يعتادون الصَّلَاة والسلام عليه عند قبره، كَمْا يفعله من بعدهم من الخلوف، وإنما كان بعضهم يأتي من خارج فيسلم عليه إذا قدم من سفر، كَمْا كان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يفعل، قَالَ عبيد الله بن عمر عن نافع: كان ابن عمر إذا قدم من سفر أتىٰ قبر النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: السلام عليك يا رَسُول اللهِ، السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أبتاه، ثُمَّ ينصرف. قَالَ عبيد الله: ما نعلم أحداً من أصحاب النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعل ذلك إلا ابن عمر.

الشَّرح

هذه صورة مما نقل عن بعض الصَّحَابَة، فابن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا انفرد بهذه الصورة، كان إذا أتىٰ من سفر جاء إلىٰ قبر النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسلَّم عليه، وسلَّم علىٰ أبي بكر الصديق، وسلَّم علىٰ عمرَ ثُمَّ ينصرف، هذه الصورة لم يفعلها إلا ابنُ عمرَ، ومع أنَّها صورة ليس فيها شرك، وليس فيها ضلالةٌ، وليس فيها أمرٌ مخالفٌ، لكنه انفرد بها ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فيقول الشَّارِح هنا: حتىٰ عمرُ نفسُه كان مخالفًا لابنه، وعبد الله ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كان من أقوىٰ الصَّحَابَة حرصًا علىٰ السُنَّة والاتِّباع، فهذا العمل مَعَ أنَّه ليس فيه شيء يُنكر لم يفعله إلا ابنُ عمرَ، ولم يُنقل عن أحد من الصَّحَابَة، كَمْا ذكر ابنه عبيد الله، يقول: لم يفعل هذا أحدٌ من الصَّحَابَة غيرُ ابنِ عمر، ومع ذلك فأنَّه عملٌ ليس فيه شيء من المُنكرات التي ارتكبها بعض المتأخرين.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا يدل علىٰ أنَّه لا يقف عند القَبْر للدعاء إذا سلمكَمْا يفعله كثير.

قال شيخ الإِسْلَام: إن ذلك لم ينقل عن أحد من الصَّحَابَة فكان بدعة محضة، وفي المبسوط قَالَ مَالِك: لا أرىٰ أن يقف عند قبر النَّبِي ﷺ ولكن ليسلم ويمضي، والحكاية التي رواها القاضي عياض بإسناده عن مَالِك في قصته مَعَ المنصور و أنَّه قَالَ لمالك: يا أبا عبدالله استقبل القبلة وأدعو أم استقبل رَسُول اللهِ ﷺ؟ فقال: ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلىٰ الله يومَ القِيَامَة، بل استقبله واستشفع به يشفعه الله فيك، فهذهالرُّوَايَة ضعيفة أو موضوعة؛ لأن في إسنادها من يتهم مُحَمَّد بن حميد ومن تجهل حاله.

ونص أحمد أنَّه يستقبل القبلة ويجعل الحجرة عن يساره؛ لئلا يستدبره وذلك بعد تحيته والسلام عليه، فظاهر هذا أنَّه يقف للدعاء بعد السلام، وذكر أصحاب مَالِك أنَّه يدعو مستقبلاً القبلة يوليه ظهره، وبالجملة فقد اتفق الأئمة علىٰ أنَّه إذا دعا لا يستقبل القَبْر، وتنازعوا هل يستقبله عند السلام عليه أم لا؟.

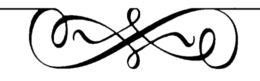
الشَّرْح

قوله: (وهذا يدل علىٰ أنَّه لا يقف عند القَبْر للدعاء إذا سلم كَمْا يفعله كثير ..) أي: ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا كان يسلم ثُمَّ ينصرف، ما كان يقف للدعاء، لكن العُلَمَاء اختلفوا في الوقوف للدعاء هل يقف بعد السلام علىٰ النَّبي ﷺ للدعاء؟، الجمهور علىٰ الوقوف، يقف لكنه يتجهُ إلىٰ القِبلة في الدُّعَاء، لا يتجه إلىٰ القَبْرِ، وسيأتي قولٌ مكذوبٌ علىٰ مَالِك، أمَّا الأئمةُ الأربعةُ فكلُهم مجمعون أنَّ الشخص إذا وقف عند القَبْرِ للسلام، فإنَّه بعد السلام يتجه إلىٰ القبلةِ للدُّعاء، وإنما اختلفوا في السلام، هل يُسلِّم متجهًا إلىٰ القبلةِ أو مُتجِهًا

للقبر؟، أمَّا الدُّعَاء فإنَّهم مجُمعون علىٰ أنَّه إنَّمَا يدعو وهو مُتجهٌ إلىٰ القبلة؛ لأنَّ القبلةَ هي قبلةُ الدُّعَاء وقبلةُ الصَّلَاة.

قوله: **(قال شيخ الإسْلَام: إن ذلك لم ينقل عن أحد من الصَّحَابَة، فكان بدعة محضة)** إذا كذِب النَّاسُ علىٰ رَسُول اللهِ ﷺ فالكذبُ علىٰ الصَّحَابَة والتابعين وأئمة الدِّين واردٌ، فهذه القصة قَالَ ابن تَيمِيَة رَحِمَهُ اللهُ إن في سَنَدها من يُجهَلُ حالُه، بل فيها من يُتهم بالكذبِ، وهو مُحَمَّد بن حميد، فهذه القصة تعارضُ ما ورد عن مَالِك رَحِمَهُ اللهُ، مَالِك كان يقول: يُسلِّم ولا يدعُو، لكن ورد عنه كَمْا سيذكر الشَّارِح رَحِمَهُ اللهُ: أنَّه إن دعا يستقبلُ القبلةَ، ولم يرِد عنه رَحِمَهُ اللهُ أنَّه يستقبلث القَبْر الشريفَ عند الدُّعَاء.

قوله: **(ونص أحمد أنَّه يستقبل القبلة ويجعل الحجرة عن يساره)** هذا مُلخص الكَلَام، الأئمة قَالَوا: إن دعَا فإنَّه يستقبلُ القبلةَ، لكن أحمد رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: يمشي قليلاً بعيداً عن القَبْر حتىٰ لا يجعل القَبْرَ إلىٰ ظهره، فيكون القَبْرُ إمَّا عن يساره أو عن يمينه، أمَّا بقيةُ الأئمة فقالوا: إن دعا فيتجه إلىٰ القبلة ويولي القَبْرَ ظهره، وليس فيها تَنقصٌ للنبي ﷺ؛ لأن الدُّعَاءَ حقُ الله عَزَّ وَجَلَّ، ليس حقَه ﷺ، ونحن لا نعبدُ الرَّسُولَ ﷺ، إنَّمَا نحبُّه ونتبع سنته ونعظمُه، هذه حقوقه ﷺ. امَّا الدُّعَاءُ والاستغاثةُ فحقُ الله عَزَّ وَجَلَّ، فصرفهما للرسول شركٌ، والرسولُ ﷺ جاء يعلمُنا التوحيدَ يعلمُنا نعبدُ اللهَ لم يأت ليدعونا لعبادته ﷺ، فالسلامُ علىٰ النَّبِي ﷺ ثُمَّ علىٰ صاحبِه أبي بكر وصاحبِه عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا لا بأسَ به، بل إن شاء الله إنَّه من الأعمال الفاضلة إن لم يأت إليها مُتعمِّداً من بُعدٍ، لكن أثناء الدُّعَاء بعد السلام يتجهُ إلىٰ القبلةِ ويدعو الله عَزَّ وَجَلَّ بحاجته، فهذا هو المشروع الذي ينبغي للمسلم أن يفعله.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

من الحجة في ذلك ما رَوَىٰ ابن زبالة وهو في أخبار المدينة عن عمر بن هارون، عن سلمة بن وردان، وهما ساقطان قَالَ: رأيت أنس بن مَالِك يسلم علىٰ النَّبِي ﷺ، ثُمَّ يسند ظهره إلىٰ جدار القَبْر، ثُمَّ يدعو.

وفي الحَدِيث دليل علىٰ منع شَدّ الرِّحَالِ إلىٰ قبره ﷺ وإلىٰ غيره من القُبُور والمشاهد؛ لأن ذلك من اتخاذها أعياداً، بل من أعظم أسباب الإشراك بأصحابهاكَمْا وقع من عباد القُبُور الذين يشدون إليها الرحال وينفقون في ذلك الكثير من الأموال، وليس لهم مقصود إلا مجرد الزيارة للقبور تبركًا بتلك القباب والجدران، فوقعوا في الشِّرْك.

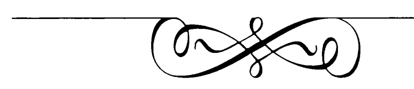


الشَّرْح

قوله: (رأيت أنس بن مَالِك يسلم علىٰ النَّبِي ....) هذا الأثر قَالَ فيه الشَّارِح: فيه رجلان ساقطان، لا يُحتجُ بهما، فالأثر أنَّ أنسَ بن مَالِك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان يُسند ظهره للجدار، أي: يتكئُ إلىٰ الجدار عندما ينتهي من السلامِ، لكن هذا أثرٌ لم يصح عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قوله: (...كما وقع من عباد القُبُور الذين يشدون إليها الرحال ...) هذا حالث كثير من المُسلِمين اليوم يُعظِّمون المَسَاجِدَ التي فيها قُبُوْرٌ، بل يُعظِّمون القُبُورَ وإن لم يكن عليها مَسَاجِد ، وإنَّما عليها قبابٌ، فيشُّدون الرحالَ من أماكن بعيدة، ويعتادونها في كل عام، يذبحون عندها الذبائح ويقدمون لها النذورَ ويسألون أصحابَها حوائجَهم، وهذا عينُ الشِّرْك، هذه ثُمَّرةُ معصيةِ الرَّسُولِ ﷺ، فعندما عصوا الرَّسُولَ الذي نهاهم عن البناء علىٰ القُبُور فبنوا

القُبُورَ وقعوا في الشِّرْك المحذور؛ لأَنَّ الإِسْلَامَ سدَّ أبوابَ الشِّرْك، وبناء القُبُورِ ليس شركًا، لكنه ذريعةٌ للشرك، وكل ما أدىٰ إلىٰ الحرامِ فهو حَرَام، وكل ما أدىٰ إلىٰ الشِّرْك فهو شركٌ، ولهذا يقول العُلَمَاءُ: إن الوسيلَة شركٌ أصغر، لكنَّ النتيجة تكون شِركًا أكبر، فلا ينبغي لنا أن نغالي في محبةِ المَخْلُوقِ؛ لأن الغُلُو نهىٰ عنه ﷺ: (لا تطروني كَمْا أطرت النَّصَارَىٰ عيسىٰ بن مريم، إنَّمَا أنا عبد الله ورسوله)(١)، فرفعُ الرَّسُولِ وتعظيمه فوق منزلتِه هذا هو الذي جاء الرَّسُولُ ﷺ لمحاربته وإبطاله.



(١) سبق تخريجه.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

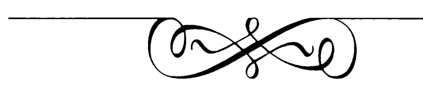
هذه المَسْأَلَة التي أفتىٰ فيها شيخ الإسْلَام، أعني من سافر لمجرد زيارة قُبُوْر الأَنْبِيَاء والصالحين ومشاهدهم، ونقل فيها اختلاف العُلَمَاء في الإباحة والمنع، فمن مبيح لذلك كأبي حامد الغزالي وأبي مُحَمَّد المقدسي، ومن مانع لذلك كابن بطة وابن عقيل وأبي مُحَمَّد الجويني والقاضي عياض، وهو قول الجمهور، نص عليه مَالِك ولم يخالفه أحد من الأئمة وهو الصواب، فقام عليه بعض المعاصرين له كالسبكي ونحوه، فنسبه إلىٰ إنكار الزيارة مطلقًا وهو لم ينكر منها إلا ما كان بشد رحل، كَمْا أنكره جمهور العُلَمَاء قبله، أوالزيارة التي يكون فيها دعاء الأموات والإستغاثة بهم في الملمات، مَعَ ما ينضم إلىٰ ذلك من أنواع المنكرات، ومما يدل علىٰ النهي عن شَدّ الرِّحَالِ إلىٰ القُبُور ونحوها ما أخرجاه في الصَّحِيحَين.



الشَّرح

الآن يتحدث الشَّارِح رَحِمَهُ ٱللَّهُ عما حدث في القرن السابع بين ابن تَيمِيَة وبعض المعاصرين له كالسبكي -رحمهما الله جميعًا-، فإن السبكي كان ممن يُجيز السفر إلىٰ المَسَاجِد عمومًا، بل يجيز السفر إلىٰ قبر النَّبِي ﷺ للزيارة، فابنُ تَيمِيَة رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنكرَ عليه وقال: الحَدِيث الشريف الذي ورد في الصَّحِيحَينِ عن النَّبِي ﷺ نهي، فكيف تُبيحُ ما نهىٰ عنه النَّبِي ﷺ،فالسبكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يزعم أنَّ السفرَ إلىٰ قبره ليس هو مما جاء به المنعُ، فوقعت المشكلة بين ابن تَيمِيَة وبين السُبكي في عصره، فقصد ابنُ عبد الهادي في كتابٍ للرد علىٰ السُبكي؛ لأنَّ السبكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَلَّف كتابًا للردِّ علىٰ ابن تَيمِيَة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في النَّهي عن شَدّ الرِّحَالِ،

فألف ابن عبد الهادي رَحِمَهُ اللَّهُ كتابا سماه (الصارم الْمُنكِّي في الردِّ على السُّبكي)، وعرضَه على طريقة المحدثين الذين درسوا الأحَادِيثَ من خلال مَنهَج أهل الحَدِيث بحسب السَّنَد، وبَيَّن أنَّه لم يصح مما يُعارِض هذا الحَدِيث، وهذا الحَدِيث في أصحِّ الكتبِ بعد كتاب الله عَزَّوَجَلَّ: البُخَارِي ومُسلم: **(لا تشد الرحال إلا إلى ثلاث مَسَاجِد)**[1] وهذا خبرٌ في حكم النهي، أي: يَنهى أن نشدَّ الرحالَ للقُربَةِ أو للتَّعبدِ إلا إلى المَسَاجِد الثلاثة، فمن خالف هذا يكون قد خالف النَّبي ﷺ، فالفجوةُ بين الإمام ابن تَيمِيَة وبين المعاصر له السبكي رَحِمَهُمَا اللَّهُ كانت بسبب هذه المشكلة .



---

(١) سبق تخريجه.

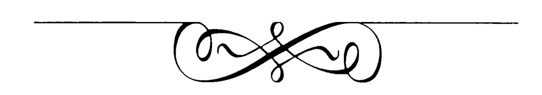
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عن أبي سعيد عن النَّبِي ﷺ قَالَ: (لا تشد الرحال إلا إلىٰ ثلاثة مَسَاجِد، مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصىٰ)، فدخل في ذلك شدها لزيارة القُبُور والمشاهد، فإما أن يكون نهيًا، وَإِمَّا أن يكون نفيًا للاستحباب، وقد جاء في رواية في الصَّحِيح بصيغة النهي صريحًا، فتعين أن يكون للنهي، ولهذا فهم منه الصَّحَابَة المنعكَمْا في الموطأ والسنن.



الشَّرْح

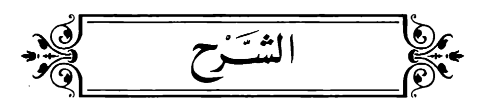
ألفاظ البُخَارِي ومسلم ليس فيها نهيٌ، وإنَّما فيها الخبرث " لا تشد الرحال "، والشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ أورده بصيغةِ النهي، لكن في الصَّحِيحَينِ لم نجد إلا رواية الخبرَ، والخبرُ في هذه الصيغة هو في حكمِ النهي، ولأن الخبر يُردُّ لأحد أمرين: إمَّا أن يكونَ خبراً عن ماضٍ أو عن مستقبل، ويتحققُ ما أخبر به، لكن لو حدث خلاف ما أخبر به يكون الخبرُ كاذبًا، ولكن حدث من شَدّ الرِّحَالِ، فليس الخبرُ علىٰ بابه؛ لأنَّه حدث من شَدّ الرِّحَالِ إلىٰ المَسَاجِد والقبور والمشَّاهد، فلو كان الرَّسُولُ ﷺ أخبر بهذا ما حدثَ خلافُه؛ لأن عِلمَ الرَّسُولِ ﷺ من عِلم الله ﷻ، لا يخبُر إلا بأمر صحيحٍ، لكن عندما رأينا أنَّه قد وقع من شَدّ الرِّحَالِ لم يُرِد الإخبارَ عن المستقبل، وإنما ورد بهذه الصيغة؛ للنّضهي عن هذا الفعل، أي: لا تشُّدوا الرحالَ إلا إلىٰ ثلاثة مَسَاجِد.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عن بصرة بن أبي بصرة الغفاري أَنَّه قَالَ لأبي هريرة وقد أقبل من الطور: لـو أدركتك قبل أن تخرج إليه لما خرجت، سمعت رَسُول اللهِ ﷺ يقول: (لا تعمـل المطـي إلا إلـىٰ ثلاثـة مَسَـاجِد، المَسْجِد الحـرام ومسـجدي هـذا والمسـجد الأقصىٰ) وروىٰ الإمام أحمد وعمر بـن شبة في أخبار المدينة بإسـناد جيد عـن قزعة قَالَ: أتيت ابن عمر فقلـت: إني أريـد الطـور، فقـال: إِنَّمَا تشـد الرحـال إلىٰ ثلاثة مَسَاجِد: المَسْجِد الحرام ومسجد المدينة والمسجد الأقصىٰ، فـدع عنـك الطور فلا تأته.

وروىٰ أحمد وعمر بن شبة أيضـًا عـن شـهر بـن حوشـب قَـالَ: سـمعت أبـا سعيد وذكر عنده الصَّلَاة في الطور. فقال: قَالَ رَسُـول اللهِ ﷺ: (لا ينبغـي للمطـي أن تشد رحالها إلىٰ مسجد يبتغىٰ فيه الصَّلَاة غير المَسْجِد الحرام ومسـجدي هـذا والمسجد الأقصىٰ)، فأبو سعيد جَعَلَ الطور مما نهىٰ عن شَدّ الرِّحَالِ إليه، مَعَ أن اللفظ الذي ذكره إِنَّمَا فيه النهي عن شدها إلىٰ المَسَاجِد، فـدل علىٰ أَنَّـه علـم أن غير المَسَاجِد أولىٰ بالنهي، والطور إِنَّمَا يسافر من يسافر إليه لفضيلة البقعـة، وأن الله - تَعَالَىٰ - سماه الوادي المقدس والبقعـة المباركـة، وكلـم الله مُوسَىٰ هنـاك، وهـذا ظـاهر لا يخفـىٰ علـىٰ أحـد ممـن يقـول بفحـوىٰ الخطـاب وتنبيهـه، وهـم الجمهور الأئمة الأربعة وأتباعهم.



الشَّرح

هـذه آثـار عـن الصَّـحَابَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، فهمـوا مـن الحَـدِيث أن النهـي لـيس خاصـاً بالمساجد، بل كذلك النهي عـن شَـدّ الرِّحَـالِ لأي بقعـة مـن البقـاع التـي كانـت

فيها آثار الأَنْبِيَاء سواء كان مسجداً أم غيره، ولكن هنا أثر أبي سعيد رضي الله عنه هو من طريق شهر بن حوشب، والعلماء لا يستشهدون بروايته؛ لِأَنَّهم قَالَوا: أنَّه مضطرب في روايته، فالسند ليس في دَرَجَة الصِّحَّة . لكن معناه قد صح، وهو ما تقدم منْ حَدِيث أبي سعيد الماضي.

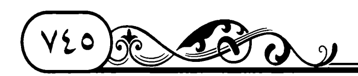
أما قوله: (وهذا ظاهر لا يخفىٰ علىٰ أحد ممن يقول بفحوىٰ الخطاب وتنبيهه وهم الجمهور والأئمة الأربعة)، فحوىٰ الخطابِ أو مفهومُ الخطاب أحدُ دلائل اللفظِ، فاللفظُ إمَّا أن يدل علىٰ المراد نصـاً،كَمْا قَالَ - تَعَالَىٰ -: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة:١٩٦]، وَإِمَّا أن يكون ظاهراً، يُفهَم منه المرادُ بالظاهر، ويكون فيه احتمال أن يُرَاد به معنىٰ غيرِ الظاهرِ، وَإِمَّا أن يَدُل علىٰ المرادِ بفحوىٰ الخطابِ أو مفهومِ الخطاب، أو لحنِ الخطاب، والمراد بمفهوم الخطاب أي: ليست المَسْأَلَة نصَّـا في الحَدِيث، وإنمَّا فَهمٌ، فعندما نهي النَّبي ﷺ عن شَدّ الرِّحَالِ إلىٰ المَسَاجِد الثلاثةِ عُرِفَ بالنص أنَّه لا يُشدُّ إلىٰ مسجدٍ، لكن النهيَ عن الشدِّ إلىٰ غير المَسَاجِد عُرِف بفحوىٰ الخطاب أو مفهوم الخطاب.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولهذا لم يوجبوا علىٰ من نذر أن يسافر إلىٰ أثر نبي من الأَنْبِيَاء، أو إلىٰ قُبُوْرهم أو غير قُبُوْرهم الوفاء بذلك، بل لو سافر إلىٰ مسجد قباء من بلد بعيد لم يكن هذا مشروعًا باتفاق الأئمة الأربعة، مَعَ أن النَّبِي ﷺ كان يأتيه كل سبت راكبًا وماشيًا، وإن كان في وجوب الوفاء بنذر إتي أَنَّه خلاف، والجمهور علىٰ أَنَّه لا يجب.

الشَّرح

هذا في مسجدِ قباءَ، هل يُلحَق بالمساجد الأخرىٰ التي نُهينا عن السفر إليها أم لا؟ ؛ لأَنَّه مسجدٌ مُبارك، والسفر إلىٰ المَسَاجِد الثلاثة؛ لأَنَّها قد بناها أنبياءُ، وقباء قد بناه نبينا ﷺ، أولُ مسجد بناه ﷺ في المدينة، وقد كان يأتيه راكبًا من بيته كل سبت، قَالَ أهل العلم: أَنَّه كان يخطب يوم الجمعة في مسجده، ثُمَّ يأتي يوم السبت ليُعلمَ أهل قباء دينهم كَمْا علَّم أصحابَه في اليوم الأول، فمن العُلَمَاءِ من أجاز السفر إلىٰ قباءَ، لكن النَّص الذي مرَّ بخلاف ذلك، فمن كان في المدينة وركب من داخل المدينة إلىٰ قباء لا يُسمىٰ سفراً، ولا يُسمَّىٰ شدُّ الرحلِ؛ لأن شدَّ الرحل يقتضي أنَّ الشخص يأخذ معه الزاد، وأدوات السفرِ، لكن الذي يأتي من المَسْجِد النبوي إلىٰ قباء لا يفعل ذلك، فالُمحرَّم هو شَدُّ الرِّحَالِ؛ لأنَّ الشخص إذا أراد السفر إلىٰ بلد بعيد يشدُّ الرحالَ شداً قوياً، لكن السفر القريب لا يشدُّ الرحالَ، يكتفي بأي مركوب يركب عليه، ومسجدُ قباء قريب من المَسْجِدِ النبوي، وليس داخلاً فيمن يشدُّ الرحالَ إليه.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقد صرح مَالِك وغيره بأن من نذر السفر إلىٰ المدينة النبوية، إن كان مقصوده الصَّلَاة في مسجد النَّبِي ﷺ أوفي بنذره، وإن كان مقصوده مجرد زيارة القَبْر من غير صَلَاة في المَسْجِد لم يف بنذره، قَالَ: لأن النَّبِي ﷺ قَالَ: (لا تعمل المطي إلا إلىٰ ثلاثة مَسَاجِد) ذكره إسماعيل بن اسحق في المبسوط، ومعناه في المدونة والجلاب وغيرهما من كتب أصحاب مَالِك، وبالجملة فقد تنازع العُلَمَاء في جواز شَدّ الرِّحَالِ إلىٰ غير المَسَاجِد الثلاثة، فالجمهور علىٰ المنع، وطائفة من المتأخرين علىٰ الجواز، فاستحباب شَدّ الرِّحَالِ إلىٰ القُبُور والمشاهد والتقرب به إلىٰ الله كَمْا ظنه السبكي وغيره قول مبتدع مخالف للإجماع قبله، والأحاديث التي احتج بها كحديث: (من زارني بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي) ونحوها لا يصح منها شيء عن رَسُول اللهِ ﷺ ولا عن أحد من أصحابه البتة، بل هي ما بين ضعيف وموضوع أو كلها موضوعة، كَمْا قد بين عللها شيخ الإسْلَام وغيره، وكثير منها لا يدل علىٰ محل النزاع، إذ ليس فيه إلا مطلق الزيارة، وذلك لا ينكره شيخ الإسْلَام ولا غيره من العُلَمَاء؛ لِأَنَّه محمول علىٰ الزيارة الشرعية الجارية علىٰ وفق مراد النَّبِي ﷺ، وهي التي لا يكون فيها شرك ولا شد رحل إلىٰ قبر، وبتقدير ثبوتها لا تدل علىٰ شَدّ الرِّحَالِ إلىٰ قبر غيره، والسبكي أجاز ذلك في سائر القُبُور، فخالف الأحَادِيث وخرق الإجماع والله أعلم.



الشَّرح

السبُكي خالف شيخ الإسْلَام ابن تَيمِيَة رَحِمَهُمَا اللَّهُ في هذه المَسْأَلَة وأورد من الأحَادِيث الضعيفة والموضوعةَ ما يؤيد به مخالفته، وقلنا إن مسائل الدِّين

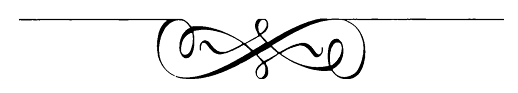
لا يستشهدُ فيها بالضعيف فكيف المَوضُوع؟، والأحاديثُ التي جاءت في زيارةِ قبر النَّبِي ﷺ لم يثبت منها حَدِيثٌ بإجماع أهل العلم، بل كلها موضوعةٌ، كقوله: (من حج ولم يزرني فقد جفاني)[1] أو قوله الذي أورد الشَّارِح: (من زارني بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي)[2] هذه كلها أحاديثُ موضوعةٌ مكذوبةٌ علىٰ رَسُول اللهِ ﷺ، ونحن نعلم أنَّه قد عرضَ للأحاديثَ مَن كذَبَ فيها، إمَّا من زنادقة، وَإِمَّا من أشخاصٍ دَخلَوا في الإسْلَام وليسوا مُسلِمين، وَإِمَّا من مُسلِمين عصبيةً لمذاهبهم أو نصرةً لآرائهم، هذه كلها من أسباب الوضع في أحاديث رَسُول اللهِ ﷺ، فالمُسلِم ينبغي أن يحرص علىٰ أن لا يستشهِد في دين الله إلا بما صحَّ عن رَسُول اللهِ ﷺ؛ لأنَّ هذا دينٌ، فلا ينبغي لنا أن نقبل كل حَدِيث، وأحيانًا تأخذ العالمَ العصبيةَ، أو الحرصَ علىٰ مسألة يظنَّ أنَّها صحيحة، فيجمع فيها من الأحَادِيث وهو يعلمُ أنَّها كذبٌ،كَمْا في قضية صَلَاة الرغائب فاختلف فيها عالمان جليلان، ابن الصلاح والعز بن عبد السلام رحمهما الله، وكلاهما مُتعاصران، ابن الصلاح يُقوِي ويجوز تلك الصَّلَاة الُمبتدَعة، ويقول: هذه صَلَاة، والصلاة قد جاءت الأحَادِيث بجوازِها، ولا ينبغي لنا أن نمنعَ النَّاسَ عن الصَّلَاة، ومع اعترافه بأنَّ الأحَادِيث التي وردت فيها موضوعة هكذا فهمُه، فالعز بن عبد السلام شنَّع عليه، وقَالَ: " كيف

---

(١) أخرجه ابن حبان في الضعفاء (٣/ ٧٣)، وضعفه المحدثون، انظر: التلخيص الحبير لابن حجر (٢/ ٥٦٩)، والبدر المنير لابن الملقن (٦/ ٢٩٩)..

(٢) أخرجه بمعناه الدارقطني في سننه، كتاب الحج، باب ما جاء في زيارة قبر النَّبِي ﷺ، برقم: (٢٦٩٤)، (٣/ ٣٣٤)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ، كتاب الحج، باب زيارة قبر النَّبِي ﷺ، برقم: (١٠٢٧٤)، (٥/ ٤٠٣)، والطبراني في المعجم الكبير والأوسط، الأوسط، برقم: (٢٨٧)، (١/ ٩٤).

تُجَوِّز فعلاً محدداً بزمانٍ والعبادةُ تحديدُ زمانِها ومكانِها وهيئاتِها توقيفيٌ، لكن التي قد جاء بها النَّص مُطلقاً مثل الذكرِ، والنوافلُ مثلُ الصيامِ، فهي جائزةٌ في أي وقت، إلا في الأيام التي فيها نصٌّ بعدم الجواز كيوم الجمعةِ والأعياد فقط، أمَّا في غيرها فجائزةٌ، فكيف تُجوِّز من التزمَ بفعل في وقتٍ مُحدَّدٍ؟ "، فأحيانا العالمُ يذهل ويغفلُ لكن النَّصوص التي تأتي تكون هي العُمدةُ وليس قولَ العالم إذا خالف النَّص، ولا يجوز لنا أن نأخذ بقول من خالفَ النَّص؛ لأنَّ العبرةَ بالنص، والعلماءُ بَشَر، ولهذا هم على درجات، فنحن نعتمد القولَ الذي يكون معه الدَّلِيل، فإن الدَّلِيل هو الأصل والأساسُ، أمَّا قولُ العالم فليس تشريعًا، والتشريع ليس حقاً حتى لأصحاب رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ لأنَّ التشريعَ حق الله ﷻ، وهذا الحقُّ لم يعطه إلا لرسوله ﷺ، أمَّا غيرُه ﷺ فلا يُشرِّعُ إلا إذا جاءت بعض الأعمال عن الشيخين أبي بكر الصديق وابن الخطاب أو عن الخلفاء الأربعة لِما جاء فيهما من الحَدِيث: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي)(١)، لكن ما لم يكن مُعارضًا للنص، أمَّا إذا عارَضَ النَّص لا يقبل قولُ أحدٍ مَعَ رَسُول اللهِ ﷺ، فهنا يقول: الأئمة الأربعةُ متفقون على أن النذرَ في المعصية لا يجوزُ الوفاءُ به؛ لأنَّ كلَّ نذر يخالف أمرَ الرَّسُولِ ﷺ نذرُ معصيةٍ، لا يجوز الوفاءُ به؛ لأنَّه ليس ملزمًا لصاحبه.



---

(١) سبق تخريجه.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال المصنف: وفيه أَنَّه ﷺ في البرزخ تعرض عليه أعمال أمته في الصَّلَاة والسلام.

قوله: (رواه في المختارة) المختارة كتاب جمع فيه مؤلفه الأحَادِيث الجياد الزائدة علىٰ الصَّحِيحَين، ومؤلفه هو أبو عبدالله مُحَمَّد بن عبدالواحد المقدسي الحافظ ضياء الدِّين الحنبلي أحد الأعلام وحفاظ الحَدِيث، قَالَ الذهبي: أفنىٰ عمره في هذا الشأن مَعَ الدِّين المتين، والورع والفضيلة التامة والثقة والإتقان، انتفع النَّاس بتصانيفه والمحدثون بكتبه، فالله يرحمه ويرضىٰ عنه، وقال شيخ الإسْلَام: تصحيحه في مختارته خير من تصحيح الحاكم بلا ريب، مات سُنَّة ثلاث وأربعين وستمائة.

الشَّرح

قوله: (وفيه أَنَّه ﷺ في البرزخ تعرض عليه أعمال أمته في الصَّلَاة والسلام) هذا علىٰ فرض صحة الحَدِيث: (من سلم علي بعيداً أبلغته، ومن سلم علي قريباً سمعته أو قَالَ رددت، أعيدت إلي روحي حتىٰ أرد عَلَيْهِ السَّلَامُ)[1] فإذا صحت هذه الأحَادِيثُ قلنا بها، لكن جميعها معلُولَة لا تَصِحُ، ولم يكن- عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - يتكلَّم في قضايا موتِه، وماذا يجري له شخصياً بعد موتِه، لم يكن معروفاً في الصَّحِيحَينِ، لم يرد فيهما هتمامه بهذه المَسْأَلَة، وإنما تأتي هذه الأحَادِيث في

---

(١) ما وجدت هذه الرِّوَايَة في دواوين السُّنَّة إلا أن ابن الجزي أورده في التسهيل لعلوم القُرْآن (٢/ ٣٧٧)، وأورد جزءاً منه البيهقي في شعب الإيمان بلفظ: "من صلىٰ علي عند قبري سمعته، ومن صلىٰ عليه نائياً أبلغته"، باب تعظيم النَّبِي ﷺ وإجلاله وتوقيره، برقم: (١٥٨٣)، (٢/ ٢١٥).

الكتب الغريبة والبعيدة التي لم يعتن بها العُلَمَاءُ.

قوله: (ومؤلفه هو أبو عبدالله مُحَمَّد بن عبدالواحد المقدسي ...) هذا الشخص في القرن السابع، وبين القرن السابع والقرن الأول سَبْعة قرون، فهذه الأحَادِيث التي تجمع في فترةٍ زمنية مُتأخرة حتماً ليست عُمدةً في أحكام الدِّين، إنَّمَا العُمدة في المسانيدِ والكتب القريبة من القرون الأولىٰ، وقد اعتمد العُلَمَاءُ الكتبَ الستةَ المشهورةَ: الصَّحِيحان وسنن أبي داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه علىٰ خلاف بينه وبين الموطأ، هذه عمدة الاستشهاد، ولهذا قَالَ أهل العلم: كل حَدِيث لم يأت في هذه الكتب فإنَّه لا يُنظر إليه؛ لأنَّ هؤلاء حُفاظ الأُمَّة بإجماع الأُمَّة،وقد كان مقصدُهم أن يجمعوا في مصنفاتهم الأدلةَ مما صحَ عن رَسُول اللهِ ﷺ عندهم، فإذا جاءت أحاديثَ ليس لها عندهم أصلٌ لا ينبغي الاستعجالُ في تصحيحها؛ لأنَّ المتأخرين كالحاكم رَحِمَهُ اللَّهُ قد جمعوا أحاديثَ غرائبَ، ولهذا قَالَ الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: لا يكادُ يصفو للحاكِم من كتابه إلا ربعُه أو ثلثُه. والباقي كله إمَّا ضعيف وَإِمَّا موضوعٌ، والحاكمُ كان قبل صاحب (المُختارة) : الضياء المقدسي؛ لأنَّ الحاكِم في القرن الرابع أو الخامس، وهذا في القرن السابع، لكنَّ ابنَ تَيمِيَة رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: لعل انتقاءه كان أحسنَ حالاً من انتقاء الحاكِم -*رحمهم الله جميعاً*-.

هذا آخر الباب، وقبل أن ننتقل إلىٰ الباب الجديد، نود أن نذكر بعض فوائد هذا الباب التي سبقت إمَّا في أصل الكِتَاب وَإِمَّا في شرحه:

الفائدة الأولى: شدةُ رأفةِ النَّبِي ﷺ ورحمته بأمته، فإنَّه قد أخبرهم بما ينفعُهم، وحذرهم عمَّا يضرثهم، سواء كان ذلك في عقائدِهم، أو كان في شرائعهم. وهذا لكمال رحمته- عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - بأمتِه.

الثانية: التفريقُ بين البيوتِ والمقابرِ في الصَّلَاة. البيوتُ يُصلىٰ فيها، والمقابر لا يُصلىٰ فيها، والبيتُ الذي لا يصلىٰ فيه يشبه المقبرةَ؛ لأنَّ المقابرَ ليست مكان الصَّلَاة، بل نُهينا عن الصَّلَاة في المقابر.

الثالثة: جواز السلامِ علىٰ النَّبي ﷺ عند قبره، وهذا أخذناه من بعض أعمال الصَّحَابَةِ كابن عمر وغيره، فإنَّهم كانوا يأتون يُسلِّمون علىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، والسلامُ علىٰ المقابرِ مشروعٌ، والسلام علىٰ نبينا ﷺ في قبره أولىٰ من غيره من المُسلِمين.

الرابعة: أنَّه لا فرق بين المُسلِّم من قُرب أو من بُعد، إن صحَّ الحَدِيث في ذلك، وأراد الشَّارِح والمُصنِّف رحمهما الله أن يُبيِّنَا أنَّ السفر للسلام علىٰ رَسُول اللهِ ﷺ عند قبره من باب اللَّغو؛ لأن الرَّسُولَ يبلَّغ سَلَامُهم من بُعد، وقلنا إن معنىٰ البلاغ أنَّه يصلُه نفعُه ﷺ، لا أنَّه يسمعُه، فإن السلام دعاءٌ، والصلاة دعاءٌ، ونحن ندعو لنبينا ﷺ،كَمْا جاء في الحَدِيث: (إذا سمعتم النداء فقولوا مثلما يقول، ثُمَّ قولوا: اللهم آت مُحَمَّداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه اللهم المقام المحمود الذي وعدته) فهذا يقول مُسلِم: (فمن قَالَ ذلك حلت له شفاعتي يومَ القِيَامَة)[1] فأُمِرنا أن ندعو له، هذا الدُّعَاء في الحقيقة لنا فيه أجرٌ، ونستحق فيه شفاعتَه يومَ القِيَامَة، فهذا الدُّعَاء يُبلَّغَه أي: يصلُ إليه نفعُه.

الخامسة: أنَّ المُسلِّم علىٰ النَّبي ﷺ يتجه إلىٰ القَبْر، وإلىٰ القبلة في الدُّعَاء، أي: أثناء السلامِ يُسلِّم متجهاً إلىٰ القَبْر، هكذا السلامُ حتىٰ مَعَ الأحياء، لكن إذا أراد أن يدعُوَ يبتعد قليلاً ثُمَّ يدعُو، وإن كان وردَ عند مَالِك

(١) سبق تخريجه.

رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّه يجعل ظهره للقبر، لكن جمهور العُلَمَاءِ قَالَوا: يبتعدُ قليلاً عن القَبْر ثُمَّ يتجه إلىٰ القبلةِ ويدعو، لا يدعُو مُتجهاً إلىٰ القَبْر، وقد سبق أنَّ المنصورَ عندما سأل مَالِكاً رَحِمَهُ اللَّهُ، فقال: (يا أبا عبد الله أتجه إلىٰ القَبْر وأدعو أو إلىٰ القبلةِ وأدعو، فقال: لِمَ تصرف وجهَك عنه، وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم) قَالَ شيخ الإِسْلَام: هذا مكذوبٌ علىٰ مَالِك رَحِمَهُ اللَّهُ، ولا يصحُّ عنه، بل مذهبُه التوجهُ إلىٰ القبلة حتىٰ في أثناء السلام، إن سلَّم يتجه إلىٰ القبلة، فكيف يقول يتجه إلىٰ القَبْر ويدعو؟ هذا يخالف مذهبه.

السادسة: عدم جواز السفر لزيارةِ الأماكن بقصدِ العبادةِ إلّا إلىٰ المَسَاجِد الثلاثة.

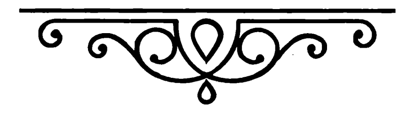
السابعة: أنَّ هذا المَسْأَلَة هي التي وقع فيها الخلاف بين شيخ الإِسْلَام ابن تَيمِيَة وبين السبكي رَحِمَهُمَا اللَّهُ، كلاهما كانا في عصر واحد، ووقع بينهما خلاف في هذه المَسْأَلَة.

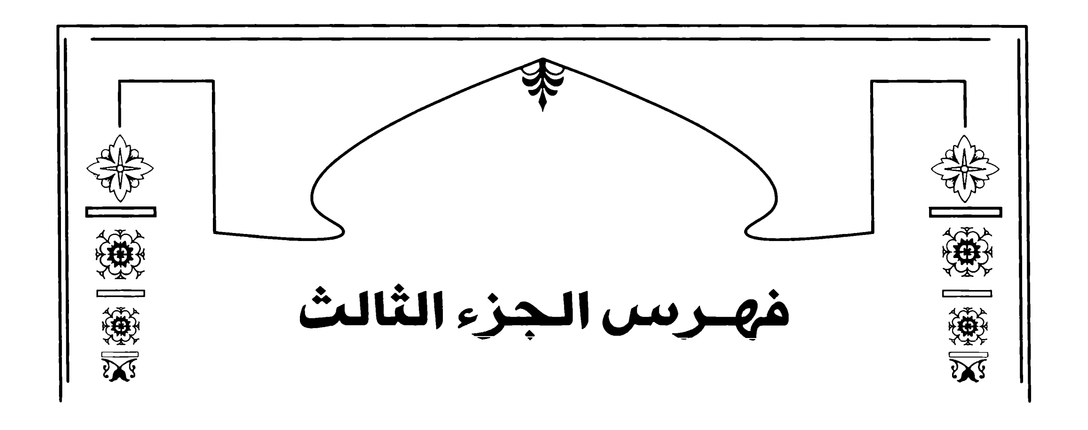
الثامنة: أنَّ تركَ العملِ بالصحيح واتباعُ الضعيفِ من اتباع الهوىٰ، بعض النَّاس يتخذُ موقفاً ثُمَّ لا يَجدُ له دليلاً إلا من الأحَادِيث الضعيفة، فيأخذَها ليستدلَّ علىٰ هذا الموقف، وهذا ضعفٌ في النَّفْس، المُسلِم لا يتخذ موقفاً، بل يقرأ القُرْآن والسُّنَّة، فما فهمَه من القُرْآن والسُّنَّة الصَّحِيحة قبلَه وقال به، وما لم يقل به الكِتَاب والسنة لا يأخذ به، فمقصدُه وهدفُه اتباعُ الدَّلِيل.

التاسعة: أنَّ مُراعاة عواطف النَّاس المخالفة للشرع من أكبر الذُّنُوب، وقد سبق أنّ أحدَ العُلَمَاءِ قَالَ في بعضِ علماء عصره: أنَّه راعىٰ الجمهور ولم ينهَهُم عن الشِّرْك، وهذا كبيرة من الكَبَائِر: أن تُقرَّ النَّاسَ علىٰ معصيةٍ أو علىٰ مخالفةِ الشرع بقصد عدم تفريقِ الأُمَّة، هذا ضلال، لو كان هذا مطلوباً ما بال الأَنْبِيَاء جاءوا إلىٰ النَّاس وهم متفقون علىٰ بدعٍ وعلىٰ شركٍ، فدعوهم إلىٰ الله

فاختلف النَّاس. هل فعل الأَنْبِيَاء خاطئٌ؟ فإذا كان النَّاس متفقين على باطل يجب أن يُنهوا، واختلافُهم هذا اختلافٌ مطلوبٌ؛ لأنَّه لابد أن يقع الخلافُ بين من يعمل بالحقِ ومن يعمل بالباطلِ، فقول بعض العُلَمَاء أنَّه يجاري عواطفَ النَّاس حتى لا يتفرقوا ولا يحدثُ بينهم خلاف قولٌ خاطئٌ.

العاشرة: أنَّ أحاديثَ زيارة قبر النَّبِي ﷺ لا يصح منها شيء، وردت أحاديثُ، بعض الفقهاء يذكرها في آخر الحجِ في الزيارة، ويقول: باب مشروعية زيارة القَبْرِ، ويذكر هذه الأَحَادِيث، واكثرها أحاديثُ موضوعةٌ.





المحتويات | الصفحة

تم بحمد الله الجزء الثالث

ويليه بإذن الله تعالى الجزء الرابع